الجامع لأحكام القرآن الكريم

تفسير القرطبي

دار الريان للتراث

تفسير القرطبي

طبعة خاصة

بتصريح من دار الشعب

يطلب من : دار الريان للتراث

● دار الريان للتراث ١٧٧ شارع الهرم . ت : ٥٣٦٥٩٩

● مصر الجديدة: ٢٠ شارع الاندلس . ت : ٢٥٩١٨٩٢/ ٢٥٩١٨٩١

الجامع لأحكام القرآن الكريم

٨

تفسير القرطبي

لأبى عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى

دار الريان للتراث

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العنكبوت

مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدنية كلها فى أحد قولى آبن عباس وقتادة . وفى القول الآخر لهما وهو قول يحيى بن سلّام أنها مكية إلا عشر آيات من أولها ، فإنها نزلت بالمدينة فى شأن من كان من المسلمين بمكة . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : نزلت بين مكة والمدينة . وهى تسع وستون آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ تقدم القول فى أوائل السور . وقال آبن عباس : المعنى أنا الله أعلم . وقيل : هو آسم للسورة . وقيل آسم للقرآن . « أَحَسِبَ » آستفهام أريد به التقرير والتوبيخ ومعناه الظن . « أَنْ يُتْرَكُوا » فى موضع نصب بـ « حَسِبَ » وهى وصلتها مقام المفعولين على قول سيبويه . و « أن » الثانية من « أَنْ يَقُولُوا » فى موضع نصب على إحدى جهتين ، بمعنى لأن يقولوا أو بأن يقولوا أو على أن يقولوا . والجهة الأخرى أن يكون على التكرير ؛ التقدير « الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا » أحسبوا « أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» قال آبن عباس وغيره : يريد بالناس قوما من المؤمنين كانوا بمكة ، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ؛ كسلمة بن هشام وعيّاش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وياسر أبوه وسمية أمه وعدة من بنى مخزوم وغيرهم . فكانت صدورهم تضيق لذلك ، وربما آستنكر أن يمكن الله الكفار من المؤمنين ؛ قال مجاهد وغيره : فنزلت هذه الآية مسلّية ومعلمة أن هذه هى سيرة الله فى عباده آختبارا للمؤمنين وفتنة . قال آبن عطية : وهذه الآية وإن كانت

نزلت بهذا السبب أو ما فى معناه من الأقوال فهى باقية فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، موجود حكمها بقية الدهر . وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية فى ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك . وإذا اعتبر أيضا كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن ، ولكن التى تشبه نازلة المسلمين مع قريش هى ما ذكرناه من أمر العدو فى كل ثغر .

قلت : ما أحسن ما قاله ، ولقد صدق فيما قال رضى الله عنه . وقال مقاتل : نزلت فى مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر ؛ رماه عامر بن الحضرمى بسهم فقتله . فقال النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ : " سيد الشهداء مِهْجَع وهو أول من يُدْعى إلى باب الجنة من هذه الأمة " . فجزع عليه أبواه وامرأته فنزلت « الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا » . وقال الشعبى : نزل مفتتح هذه السورة فى أناس كانوا بمكة من المسلمين ، فكتب إليهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من الحديبية أنه لا يقبل منكم إقرار الإسلام حتى تُهاجروا ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فآذوهم . فنزلت فيهم هذه الآية : « الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا » فكتبوا إليهم : نزلت فيكم آية كذا ؛ فقالوا : نخرج وإن اتبعنا أحد قاتلناه ؛ فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا فنزل فيهم : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا » . « وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ » يمتحنون ؛ أى أظنّ الذين جزعوا من أذى المشركين أن يُقنَع منهم أن يقولوا إنا مؤمنون ولا يمتحنون فى إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبين به حقيقة إيمانهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى ابتلينا الماضين كالخليل ألقى فى النار ، وكقوم نشروا بالمناشير فى دين الله فلم يرجعوا عنه . وروى البخارى عن خَبَّاب بن الأَرَتّ : قالوا شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسِّد بُرْدَةً له فى ظل الكعبة ، فقلنا له : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا . فقال : " قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمِنْشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمَشط بأمشاط الحديد لحمُه وعظمُه فما يصرفه ذلك عن دينه والله ليتمّن هذا الأمرُ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللهَ والذئبَ على غنمه ولكنكم تستعجلون " . وخرّج ابن ماجه عن

أبي سعيد الخدري قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يُوعَك ، فوضعت يدى عليه ، فوجدت حرّه بين يدى فوق اللحاف . فقلت : يا رسول الله ما أشدّها عليك . قال : " إنا كذلك يُضعّف لنا البلاء ويُضعّف لنا الأجر " قلت : يا رسول الله أيّ الناس أشد بلاء ؟ قال " الأنبياء " وقلت : ثم من . قال " ثم الصالحون أنْ كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يَحُوبها[1] وأنْ كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرحُ أحدكم بالرخاء " . وروى سعد بن أبي وقاص قال : قلت يا رسول الله أيّ الناس أشد بلاء ؟ قال : " الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان فى دينه صُلْبا اشتد بلاؤه وإن كان فى دينه رقّة ابتلى على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه من خطيئة " . وروى عبد الرحمن بن زيد أن عيسى عليه السلام كان له وزير، فركب يوما فأخذه السبع فأكله، فقال عيسى : يا رب وزيرى فى دينك، وعونى على بنى إسرائيل، وخليفتى فيهم، سلطت عليه كلبا فأكله . قال : « نعم كانت له عندى منزلة رفيعة لم أجد عمله يبلغها فابتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة » . وقال وهب : قرأت فى كتاب رجل من الحواريين : إذا سلك بك سبيل البلاء فقرّ عينا ، فإنه سلك بك سبيل الأنبياء والصالحين ، وإذا سلك بك سبيل الرخاء فابك على نفسك، فقد خولف بك عن سبيلهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أى فليرينّ الله الذين صدقوا فى إيمانهم . وقد مضى هذا المعنى فى «البقرة» وغيرها . قال الزجاج : ليعلم صدق الصادق بوقوع صدقه منه ، وقد علم الصادق من الكاذب قبل أن يخلقهما، ولكن القصد قصد وقوع العلم بما يجازى عليه . وإنما يعلم صدق الصادق واقعا كائنا وقوعه، وقد علم أنه سيقع . وقال النحاس : فيه قولان أحدهما أن يكون «صَدَقُوا» مشتقا من الصِّدْق و«الْكَاذِبِينَ» مشتقا من الكَذِب الذى هو ضد الصِّدق، ويكون المعنى؛ فليبينن الله الذين صدقوا فقالوا نحن مؤمنون واعتقدوا

---

(١) وردت هذه الكلمة فى سنن ابن ماجه بالحاء المهملة ، وقال هامشه : « يحوبها » من حبى بحاء مهملة وباء موحدة أى يجعل لها جيبا . ووردت فى الجامع الصغير للسيوطى بالجيم وقال شارحه : هى بجيم وواو وموحدة أى يخرقها ويقطعها ، وكل شىء قطع وسطه فهو مجوب . ورواية الجامع الصغير هى المتبادرة .

مثل ذلك ، والذين كذبوا حين اعتقدوا غير ذلك . والقول الآخر أن يكون صدقوا مشتقا من الصِّدْق وهو الصُّلْب ، والكاذبين مشتقا من كَذَّب إذا انهزم ، فيكون المعنى ، فليعلمن الله الذين ثبتوا فى الحرب ، والذين انهزموا ، كما قال الشاعر[1] :

لَيثٌ بِعَثَّرَ يَصطادُ الرجالَ إذا * ما اللَّيثُ كَذَّبَ عن أقرانه صَدَقَا

فجعل « لَيُعْلِمَنَّ » فى موضع فليبينن مجازا . وقراءة الجماعة « فَلَيَعْلَمَنَّ » بفتح الياء واللام . وقرأ على بن أبى طالب بضم الياء وكسر اللام وهى تبين معنى ما قاله النحاس . ويحتمل ثلاثة معان : الأول أن يعلم فى الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه وبأعمالهم فى الدنيا ، بمعنى يوقفهم على ما كان منهم . الثانى أن يكون المفعول الأول محذوفا تقديره ، فليعلمنّ الناس والعالم هؤلاء الصادقين والكاذبين ، أى يفضحهم ويشهرهم ، هؤلاء فى الخير وهؤلاء فى الشر ، وذلك فى الدنيا والآخرة . الثالث أن يكون ذلك من العلامة ، أى يضع لكل طائفة علامة يشتهر بها . فالآية على هذا تنظر إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم : "من أسر سريرة ألبسه الله رداءها" .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى الشرك ﴿ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ أى يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون . قال ابن عباس : يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبى معيط وحنظلة بن

(١) هو زهير بن أبى سلمى . وعثر بشد المثلثة اسم موضع .

أبي سفيان والعاص بن وائل . ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى بئس الحكم ما حكموا فى صفات ربهم أنه مسبوق والله القادر على كل شيء . و « ما » فى موضع نصب بمعنى ساء شيئا أو حكما يحكمون . ويجوز أن تكون « ما » فى موضع رفع بمعنى ساء الشيء أو الحكم حكمهم . وهذا قول الزجاج . وقدرها ابن كيسان تقديرين آخرين خلاف ذينك : أحدهما أن يكون موضع « مَا يَحْكُمُونَ » بمنزلة شيء واحد ، كما تقول : أعجبنى ما صنعت ؛ أى صنيعك ؛ فـ« ما » والفعل مصدر فى موضع رفع ، التقدير ؛ ساء حكمهم . والتقدير الآخر أن تكون « ما » لا موضع لها من الإعراب ، وقد قامت مقام الاسم لساء ، وكذلك نعم و بئس . قال أبو الحسن ابن كيسان : وأنا أختار أن أجعل لـ« ما » موضعا فى كل ما أقدر عليه ؛ نحو قوله عز وجل : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ » وكذا « فَبِمَا نَقْضِهِمْ » وكذا « أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ » « ما » فى موضع خفض فى هذا كله وما بعده تابع لها ، وكذا « إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً » « ما » فى موضع نصب و « بَعُوضَةً » تابع لها .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾ « يَرْجُو » بمعنى يخاف من قول الهذلى فى وصف عسّال :

* إذا لسعته النحل لم يرج لسعها[1] *

وأجمع أهل التفسير على أن المعنى : من كان يخاف الموت فليعمل عملا صالحا فإنه لا بد أن يأتيه ؛ ذكره النحاس . قال الزجاج : معنى « يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ » ثواب الله و « مَنْ » فى موضع رفع بالابتداء و « كَانَ » فى موضع الخبر ، وهى فى موضع جزم بالشرط ، و « يرجو » فى موضع خبر كان ، والمجازاة ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى ومن جاهد فى الدين ، وصبر على قتال الكفار وأعمال الطاعات ، فإنما يسعى لنفسه ؛ أى ثواب ذلك كله له ، ولا يرجع إلى الله نفع من ذلك . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى عن أعمالهم . وقيل : المعنى ؛ من جاهد عدوه لنفسه لا يريد وجه الله فليس لله حاجة بجهاده .

---

(١) تمام البيت .. * وحالفها فى بيت نوب عوامل * وروى : عواسل .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى لنغطينها عنهم بالمغفرة لهم . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى بأحسن أعمالهم وهو الطاعات . ثم قيل : يحتمل أن تكفر عنهم كل معصية عملوها فى الشرك ، ويثابوا على ما عملوا من حسنة فى الإسلام . ويحتمل أن تكفر عنهم سيئاتهم فى الكفر والإسلام ، ويثابوا على حسناتهم فى الكفر والإسلام .

قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ نزلت فى سعد بن أبى وقاص فيما روى الترمذى قال : أُنزلت فىَّ أربعُ آيات فذكَر قصةً ؛ فقالت أم سعد : أليس قد أمر الله بالبر! والله لا أطعم طعاما ، ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر ؛ قال : فكانوا إذا أرادوا أن يُطعموها شَجَرُوا[1] فاها فنزلت هذه الآية : « وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وروى عن سعد أنه قال : كنت بارا بأمى فأسلمتُ ، فقالت : لتدعنّ دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بى ، ويقال يا قاتل أمه ، وبقيت يوما ويوما فقلت : يا أماه ! لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى هذا ، فإن شئت فكلى ، وإن شئت فلا تأكلى ، فلما رأت ذلك أكلت ونزلت : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى ﴾ الآية . وقال ابن عباس : نزلت فى عياش ابن أبى ربيعة أخى أبى جهل لأمه وقد فعلت أمه مثل ذلك . وعنه أيضا : نزلت فى جميع الأمة إذ لا يصبر على بلاء الله إلا صدّيق . و « حُسْنًا » نصب عند البصريين على التكرير أى ووصيناه حسنا . وقيل : هو على القطع تقديره ووصيناه بالحسن كما تقول وصيته خيرا أى

(١) شجروا فاها : أى أدخلوا فى شجره عودا حتى يفتحوه به .

بالخير . وقال أهل الكوفة : تقديره ووصينا الإنسان أن يفعل حسنا فيقدر له فعل وقال الشاعر :

عَجِبتُ من دَهْماءَ إذ تَشكونا * ومن أبي دَهْماءَ إذ يُوصينا

* خيرًا بها كأنَّما خافونا *

أى يوصينا أن نفعل بها خيرا ؛ كقوله : « فَطَفِقَ مَسْحًا » أى يمسح مسحا . وقيل : تقديره ووصيناه أمرا ذا حسنٍ ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف ، وحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقيل : معناه ألزمناه حسنا . وقراءة العامة « حُسْنًا » بضم الحاء و إسكان السين . وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحاك بفتح الحاء والسين . وقرأ الجحدري « إحسانا » على المصدر ؛ وكذلك في مصحف أُبَيّ ؛ التقدير : ووصينا الإنسان أن يحسن إليهما إحسانا ، ولا ينتصب بوصينا ؛ لأنه قد استوفى مفعوليه . ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ وعيد في طاعة الوالدين في معنى الكفر . ﴿ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ كرر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحرك النفوس إلى نيل مراتبهم . وقوله : « لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ » مبالغة على معنى ؛ فالذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته . وإذا تحصل للؤمن هذا الحكم تحصل ثمرته وجزاؤه وهو الجنة .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ ﴾ الآية نزلت في المنافقين كانوا يقولون آمنا بالله ﴿ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ ﴾ أى أذاهم ﴿ كَعَذَابِ اللهِ ﴾ في الآخرة فارتد عن إيمانه . وقيل : جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله ولا يصبر على الأذية في الله .

﴿ وَلَئِنْ جَاءَ ﴾ المؤمنين ﴿ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ ﴾ هؤلاء المرتدون ﴿ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ وهم كاذبون ؛ فقال الله لهم ﴿ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ يعنى الله أعلم بما فى صدورهم منهم بأنفسهم . وقال مجاهد : نزلت فى ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم ، فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة فى أنفسهم ٱفتتنوا . وقال الضحاك : نزلت فى ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون ، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك . وقال عكرمة : كان قوم قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر فقتل بعضهم ، فأنزل الله « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ » فكتب بها المسلمون من المدينة إلى المسلمين بمكة ، فخرجوا فلحقهم المشركون ، فٱفتتن بعضهم ، فنزلت هذه الآية فيهم . وقيل : نزلت فى عيّاش بن أبى ربيعة ، أسلم وهاجر ، ثم أوذى وضرب فٱرتد . و إنما عذبه أبو جهل والحرث وكانا أخويه لأمه . قال ابن عباس : ثم عاش بعد ذلك بدهر وحسن إسلامه . ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ قال قتادة : نزلت فى القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ﴾ أى ديننا . ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ جزم على الأمر . قال الفراء والزجاج : هو أمر فى تأويل الشرط والجزاء ؛ أى إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم ، كما قال(١) :

فقلتُ ٱدعِى وأَدعُ فإنّ أَندَى * لِصوتٍ أَنْ يُنَادِىَ داعِيانِ

---

(١) البيت لدثار بن شيبان النمرى وقبله :

تقول خليلتى لما اشتكينا * سيدركنا بنو القرم الهجان

أى إن دعوتِ دعوتُ . قال المهدوى : وجاء وقوع ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ بعده على الحمل على المعنى ؛ لأن المعنى إن آتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم . فلما كان الأمر يرجع فى المعنى إلى الخبر وقع عليه التكذيب كما يوقع عليه الخبر . قال مجاهد : قال المشركون من قريش نحن وأنتم لا نبعث ، فإن كان عليكم وزر فعلينا ؛ أى نحن نحمل عنكم ما يلزمكم . والحمل ههنا بمعنى الحمالة لا الحمل على الظهر . وروى أن قائل ذلك الوليد بن المغيرة . ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ يعنى ما يحمل عليهم من سيئات من ظلموه بعد فراغ حسناتهم . روى معناه عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقد تقدّم فى «آل عمران»[1] . قال أبو أمامة الباهلى : " يؤتى بالرجل يوم القيامة وهو كثير الحسنات فلا يزال يقتص منه حتى تفنى حسناته ثم يطالب فيقول الله عز وجل آقتصوا من عبدى فتقول الملائكة ما بقيت له حسنات فيقول خذوا من سيئات المظلوم فآجعلوا عليه " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » . وقال قتادة : من دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شىء . ونظيره قوله تعالى : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » . ونظير هذا قوله عليه السلام : " من سنّ فى الإسلام سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء " روى من حديث أبى هريرة وغيره . وقال الحسن قال النبى صلى الله عليه وسلم : " من دعا إلى هدًى فآتُّبِع عليه وعمل به فله مثل أجور من آتّبعه ولا يَنقص ذلك من أجورهم شيئا وأيما داعٍ دعا إلى ضلالة فآتُّبِع عليها وعمل بها بعده فعليه مثل أوزار من عمل بها ممن آتّبعه لا يَنقص ذلك من أوزارهم شيئا " ثم قرأ الحسن « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » .

قلت : هذا مرسل وهو معنى حديث أبى هريرة خرجه مسلم . ونص حديث أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أيما داعٍ دعا إلى ضلالة فآتُّبِع فإن له مثل أوزار من آتّبعه ولا يَنقص من أوزارهم شيئا وأيما داعٍ دعا إلى هدًى فآتُّبِع فإن له مثل أجور من آتّبعه

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٥٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ولا ينقص من أجورهم شيئا" خرجه ابن ماجه فى السنن . وفى الباب عن أبى جُحيفة وجرير. وقد قيل : إن المراد أعوان الظلمة . وقيل : أصحاب البدع إذا اتُّبعوا عليها . وقيل : محدثو السنن الحادثة إذا عمل بها من بعدهم . والمعنى متقارب والحديث يجمع ذلك كله .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ذكر قصة نوح تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أى ابتلى النبيون قبلك بالكفار فصبروا . وخص نوحا بالذكر ؛ لأنه أول رسول أرسل إلى الأرض وقد امتلأت كفرا على ما تقدم بيانه فى « هود »[1] . وأنه لم يلق نبىّ من قومه مالقى نوح على ماتقدم فى « هود » عن الحسن . وروى عن قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أول نبى أرسل نوح" قال قتادة : وبعث من الجزيرة . واختلف فى مبلغ عمره . فقيل : مبلغ عمره ما ذكره الله تعالى فى كتابه . قال قتادة : لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلثمائة سنة ، ودعاهم ثلثمائة سنة ، ولبث بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة . وقال ابن عباس : بعث نوح لأربعين سنة ، ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الغرق ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا . وعنه أيضا : أنه بعث وهو ابن مئتين وخمسين سنة ، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين ، وعاش بعد الطوفان مائتى سنة . وقال وهب : عمّر نوحٌ ألفا وأربعمائة سنة . وقال كعب الأحبار : لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان سبعين عاما فكان مبلغ عمره ألف سنة وعشرين عاما . وقال عون بن أبى شداد : بعث نوح وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة ، ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ثلثمائة سنة

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٤٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وخمسين سنة ؛ فكان مبلغ عمره ألف سنة وستمائة سنة وخمسين سنة ونحوه عن الحسن قال الحسن : لما أتى ملك الموت نوحا ليقبض روحه قال : يا نوح كم عشت في الدنيا؟ قال : ثلثمائة قبل أن أبعث، وألف سنة إلا خمسين عاما فى قومى، وثلثمائة سنة وخمسين سنة بعد الطوفان . قال ملك الموت : فكيف وجدت الدنيا ؟ قال نوح : مثل دار لها بابان دخلت من هذا وخرجت من هذا . وروى من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما بعث الله نوحا إلى قومه بعثه وهو آبن خمسين ومائتى سنة فلبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وبقى بعد الطوفان خمسين ومائتى سنة فلما أتاه ملك الموت قال يا نوح يا أكبر الأنبياء ويا طويل العمر ويامجاب الدعوة كيف رأيت الدنيا قال مثل رجل بُنى له بيت له بابان فدخل من واحد وخرج من الآخر" وقد قيل : دخل من أحدهما وجلس هنيهة ثم خرج من الباب الآخر . وقال آبن الوردى : بَنَى نوح بيتا من قصب، فقيل له : لو بنيت غير هذا ؛ فقال : هذا كثير لمن يموت . وقال أبو المهاجر : لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما فى بيت من شعر، فقيل له : يا نبىّ الله آبن بيتا ، فقال : أموت اليوم [أو] أموت غدا . وقال وهب بن منبّه : مرت بنوح خمسمائة سنة لم يقرب النساء وجلا من الموت . وقال مقاتل وجويبر : إن آدم عليه السلام حين كبر ورقّ عظمه قال يارب إلى متى أكد وأسعى؟ قال : يا آدم حتى يولد لك ولد مختون . فولد له نوح بعد عشرة أبطن ، وهو يومئذ آبن ألف سنة إلا ستين عاما . وقال بعضهم : إلا أربعين عاما . والله أعلم . فكان نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس وهو أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم . وكان آسم نوح السكن . وإنما سمى السكن؛ لأن الناس بعد آدم سكنوا إليه، فهو أبوهم . وولد له سام وحام ويافث ، فولد سام العرب وفارس والروم ، وفى كل هؤلاء خير . وولد حام القبط والسودان والبربر . وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج ، وليس فى شىء من هؤلاء خير . وقال آبن عباس : فى ولد سام بياض وأدمة، وفى ولد حام سواد وبياض قليل . وفى ولد يافث — وهم الترك والصقالبة — الصفرة والحمرة . وكان له ولد رابع وهو كنعان الذى غرق، والعرب تسميه يام . وسمى نوح نوحا لأنه ناح على قومه ألف سنة

إلا خمسين عاما، يدعوهم إلى الله تعالى، فإذا كفروا بكى وناح عليهم. وذكر القشيري أبو القاسم عبد الكريم في كتاب التخبير له : يروى أن نوحا عليه السلام كان اسمه يشكر ولكن لكثرة بكائه على خطيئته أوحى الله إليه يانوح كم تنوح. فسمي نوحا؛ فقيل: يا رسول الله فأي شيء كانت خطيئته؟ فقال : " إنه مر بكلب فقال في نفسه ما أقبحه فأوحى الله إليه اخلق أنت أحسن من هذا . وقال يزيد الرقاشي : إنما سمي نوحا لطول ما ناح على نفسه . فإن قيل : فلم قال «أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا» ولم يقل تسعمائة وخمسين عاما. ففيه جوابان: أحدهما — أن المقصود به تكثير العدد، فكان ذكره الألف أكثر في اللفظ وأكثر في العدد . الثاني — ماروى أنه أعطى من العمر ألف سنة، فوهب من عمره خمسين سنة لبعض ولده، فلما حضرته الوفاة رجع في استكمال الألف، فذكر الله تعالى ذلك تنبيها على أن النقيصة كانت من جهته. ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة : المطر . الضحاك : الغرق . وقيل : الموت . روته عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم . ومنه قول الشاعر:

* أفناهم طوفانُ موتٍ جارف *

قال النحاس: يقال لكل كثير مطيف بالجميع من مطر أو قتل أو موت طوفان . ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة في موضع الحال و «أَلْفَ سَنَةٍ» منصوب على الظرف «إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا» منصوب على الاستثناء من الموجب . وهو عند سيبويه بمنزلة المفعول ؛ لأنه مستغنى عنه كالمفعول . فأما المبرد أبو العباس محمد بن يزيد فهو عنده مفعول محض . كأنك قلت استثنيت زيدا .

تنبيه — روى حسان بن غالب بن نجيح أبو القاسم المصري، حدثنا مالك بن أنس عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كان جبريل يذاكرني فضل عمر فقلت يا جبريل ما بلغ فضل عمر قال لي يا محمد لو لبثت معك ما لبث نوح في قومه ما بلغت لك فضل عمر " ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن ثابت البغدادي . وقال : تفرد بروايته حسان بن غالب عن مالك وليس بثابت من حديثه .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ معطوف على الهاء . ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ الهاء والألف في «جَعَلْنَاهَا» للسفينة، أو للعقوبة، أو للنجاة؛ ثلاثة أقوال .

قوله تعالى : وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ قال الكسائي : « وَإِبْرَاهِيمَ » منصوب بـ « فَأَنْجَيْنَاهُ » يعني أنه معطوف على الهاء . وأجاز الكسائي أن يكون معطوفا على نوح، والمعنى وأرسلنا إبراهيم . وقول ثالث : أن يكون منصوبا بمعنى واذكر إبراهيم . ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي أفردوه بالعبادة . ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ أي اتقوا عقابه وعذابه . ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أي من عبادة الأوثان ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا ﴾ أي أصناما . قال أبو عبيدة : الصنم ما يتخذ من ذهب أو من فضة أو نحاس ، والوثن ما يتخذ من جص أو حجارة . الجوهري : الوثن الصنم والجمع وُثْن وأوثان مثل أُسد وآساد . ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ قال الحسن : معنى « تَخْلُقُونَ » تنحتون؛ فالمعنى إنما تعبدون أوثانا وأنتم تصنعونها . وقال مجاهد : الإفك الكذب ، والمعنى تعبدون الأوثان وتخلقون الكذب . وقرأ أبو عبد الرحمن « وَتَخَلَّقُونَ » . وقرئ « تُخَلِّقُونَ » بمعنى التكثير من خَلَّق و « تَخَلَّقُونَ » من تَخَلَّق بمعنى تَكَذَّب وتخرص . وقرئ « أَفِكًا » وفيه وجهان : أن يكون مصدرا نحو كَذِب ولَعِب والإفك مخففا منه كالكذب واللعب . وأن يكون صفة على فَعِل أي خلقا أَفِكا أي ذا إفك وباطل . و « أَوْثَانًا » نصب بـ « تَعْبُدُونَ » و « ما » كافة . ويجوز في غير القرآن رفع أوثان على أن تجعل « ما » اسما لأن ؛ و « تَعْبُدُونَ » صلته ، وحذفت الهاء لطول الاسم وجعل أوثان خبر إن . فأما « وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا » فهو منصوب بالفعل لا غير . وكذا ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ

اللهِ الرِّزْقَ) أى اصرفوا رغبتكم فى أرزاقكم إلى الله فإياه فاسألوه وحده دون غيره .
﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ فقيل : هو من قول إبراهيم أى التكذيب عادة الكفار وليس على الرسل إلا التبليغ .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر والتوبيخ لهم ، وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . قال أبو عبيد : لذكر الأمم كأنه قال أو لم ير الأمم كيف . وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائى « تَرَوْا » بالتاء خطابا ؛ لقوله : « وَإِن تُكَذِّبُوا » . وقد قيل : « وَإِن تُكَذِّبُوا » خطاب لقريش ليس من قول إبراهيم .
﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يعنى الخلق والبعث . وقيل : المعنى أو لم يروا كيف يبدئ الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبدا . وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدا ، وخلق من الولد ولدا . وكذلك سائر الحيوان . أى فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لأنه إذا أراد أمرا قال له كن فيكون .

قوله تعالى : قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى قل لهم يا محمد سيروا فى الأرض ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم ؛ وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم ؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله . ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير «النَّشَاءَة» بفتح الشين وهما لغتان مثل الرأفة والرآفة وشبهه . الجوهرى : أنشأه الله خلقه ، والاسم النشأة والنشاءة بالمدّ عن أبى عمرو بن العلاء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى بعدله . ﴿ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى بفضله . ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ ترجعون وتردون . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ قال الفراء : معناه ولا من فى السماء بمعجزين الله . وهو غامض فى العربية ؛ للضمير الذى لم يظهر فى الثانى . وهو كقول حسان :

فمن يَهْجو رسولَ الله منكم * ويَمْدحُه ويَنصُرُه سَواءُ

أراد : ومن يمدحه وينصره سواء ؛ فأضمر مَن ؛ وقاله عبد الرحمن بن زيد . ونظيره قوله سبحانه : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » أى مَن له . والمعنى إن الله لا يعجزه أهل الأرض فى الأرض ولا أهل السماء إن عصوه . وقال قُطْرُب : ولا فى السماء لو كنتم فيها ، كما تقول : لا يفوتنى فلان بالبصرة ولا هاهنا ، بمعنى لا يفوتنى بالبصرة لو صار إليها . وقيل : لا يستطيعون هربا فى الأرض ولا فى السماء . وقال المبرّد : والمعنى ولا مَن فى السماء على أن مَن ليست موصولة ولكن تكون نكرة و « فِي السَّمَاءِ » صفة لها ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف . ورد ذلك على ابن سليمان . وقال : لا يجوز . وقال : إن مَن إذا كانت نكرة فلا بد من وصفها فصفتها كالصلة ، ولا يجوز حذف الموصول وترك الصلة ؛ قال : والمعنى إن الناس خوطبوا بما يعقلون ؛ والمعنى لو كنتم فى السماء ما أعجزتم الله ؛ كما قال : « وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ » . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ويجوز « نَصِيرٌ » بالرفع على الموضع ، وتكون « مِن » زائدة . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بما نصب من الأدلة والأعلام . ﴿ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ﴾ أى من الجنة ونسب اليأس إليهم والمعنى أويسوا . وهذه

الآيات اعتراض من الله تعالى تذكيرا وتحذيرا لأهل مكة . ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم فقال : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ حين دعاهم إلى الله تعالى ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ ثم اتفقوا على تحريقه ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ أى من إذايتها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أى فى إنجائه من النار العظيمة حتى لم تحرقه بعد ما ألقى فيها ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ . وقراءة العامة «جَوَابَ» بنصب الباء على أنه خبر كان و « أَنْ قَالُوا » فى محل الرفع اسم كان . وقرأ سالم الأفطس وعمرو ابن دينار « جَوَابُ » بالرفع على أنه اسم « كان » و « أنْ » فى موضع الخبر نصبا . ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقرأ حفص وحمزة «مودةَ بَيْنِكُمْ » . وابن كثير وأبو عمرو والكسائى « مودةُ بَيْنِكُمْ » . والأعشى عن أبى بكر عن عاصم وابن وثاب والأعمش «مودةٌ بَيْنَكُمْ» . الباقون « مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ » . فأما قراءة ابن كثير ففيها ثلاثة أوجه؛ ذكر الزجاج منها وجهين : أحدهما — أن المودة ارتفعت على خبر إنّ وتكون « ما » بمعنى الذى . والتقدير إن الذى اتخذتموه من دون الله أوثانا مودةُ بينِكم . والوجه الآخر أن يكون على إضمار مبتدإ أى هى مودةُ أو تلك مودةُ بينِكم . والمعنى آلهتكم أو جماعتكم مودةُ بينِكم . قال ابن الأنبارى : « أَوْثَانًا » وقف حسن لمن رفع المودّة بإضمار ذلك مودة بينكم ، ومن رفع المودّة على أنها خبر إنّ لم يقف . والوجه الثالث الذى لم يذكره أن يكون «مودةُ» رفعا بالابتداء و « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » خبره ؛ فأما إضافة « مَوَدَّةُ » إلى « بَيْنِكُمْ » فإنه جعل « بَيْنِكُمْ » اسما غير ظرف ، والنحويون يقولون جعله مفعولا على السعة . وحكى سيبويه : يا سارق الليلةِ أهلَ الدار . ولا يجوز أن يضاف إليه وهو ظرف ؛ لعلة ليس هذا موضع ذكرها . ومن رفع « مودةٌ » ونوّنها فعلى معنى ما ذكر ، و « بَيْنَكُمْ » بالنصب ظرفا . ومن نصب « مَوَدَّةَ » ولم ينونها جعلها مفعولة بوقوع الاتخاذ عليها وجعل « إنما » حرفا واحدا ولم يجعلها بمعنى الذى . ويجوز نصب المودّة على أنه مفعول من أجله كما تقول : جئتك ابتغاء الخير، وقصدت فلانا مودّة له « بينِكم » بالخفض . ومن نوّن « مَوَدَّةً » ونصبها فعلى ما ذكر « بَيْنَكُمْ » بالنصب من غير إضافة ، قال ابن الأنبارى : ومن قرأ « مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ »

و « مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ » لم يقف على الأوثان، ووقف على الحياة الدنيا . ومعنى الآية جعلتم الأوثان تتحابون عليها وعلى عبادتها فى الحياة الدنيا ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ تتبرأ الأوثان من عبادها والرؤساء من السفلة كما قال الله عز وجل : « الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ » . ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ هو خطاب لعبدة الأوثان الرؤساء منهم والأتباع . وقيل : تدخل فيه الأوثان كقوله تعالى « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ » .

قوله تعالى : فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ لُوطٌ أول من صدق إبراهيم حين رأى النار عليه بردا وسلاما . قال ابن إسحق آمن لوط بإبراهيم وكان ابن أخته ، وآمنت به سارة وكانت بنت عمه . ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ قال النخعى وقتادة : الذى قال « إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي » هو إبراهيم عليه السلام . قال قتادة : هاجر من كوثا وهى قرية من سواد الكوفة إلى حران ثم إلى الشام ، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ ، وامرأته سارة . قال الكلبى : هاجر من أرض حران إلى فلسطين . وهو أول من هاجر من أرض الكفر . قال مقاتل : هاجر إبراهيم وهو ابن خمس وسبعين سنة . وقيل : الذى قال « إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي » لوط عليه السلام . ذكر البيهقى عن قتادة قال : أول من هاجر إلى الله عز وجل بأهله عثمان بن عفان رضى الله عنه . قال قتادة : سمعت النضر بن أنس يقول سمعت أبا حمزة يعنى أنس بن مالك يقول : خرج عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة ، فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم ، فقدمت امرأة من قريش فقالت : يا محمد رأيت ختنك ومعه امرأته . قال : " على أى حال رأيتهما " قالت : رأيته وقد حمل

امرأته على حمار من هذه الدَّبَّابَة وهو يسوقها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صحبهما الله إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط" قال البيهقي : هذا في الهجرة الأولى ، وأما الهجرة الثانية إلى الحبشة فهي فيما زعم الواقدي سنة خمس من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أي إلى رضا ربي وإلى حيث أمرني . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم . وتقدم الكلام في الهجرة في « النساء » (٢) وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ﴾ أي منّ الله عليه بالأولاد فوهب له إسحق ولدا ويعقوب ولد ولد . وإنما وهب له إسحق من بعد إسمعيل ويعقوب من إسحق . ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ فلم يبعث الله نبيا بعد إبراهيم إلا من صلبه . ووحد الكتاب؛ لأنه أراد المصدر كالنبوة، والمراد التوراة والإنجيل [والفرقان] . فهو عبارة عن الجمع . فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم ، والإنجيل على عيسى من ولده ؛ والفرقان على محمد من ولده صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين . ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ يعني اجتماع أهل الملل عليه ؛ قاله عكرمة . وروى سفيان عن حميد ابن قيس قال : أمر سعيد بن جبير إنسانا أن يسأل عكرمة عن قوله جل ثناؤه « وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا » فقال عكرمة : أهل الملل كلها تدعيه وتقول هو منا ؛ فقال سعيد بن جبير : صدق . وقال قتادة : هو مثل قوله « وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً » أي عاقبة وعملا صالحا وثناء حسنا . وذلك أن أهل كل دين يتولونه . وقيل : « آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا » أن أكثر الأنبياء من ولده . ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ليس « فِي الْآخِرَةِ » داخلا في الصلة وإنما هو تبيين . وقد مضى في « البقرة » (٣) بيانه . وكل هذا حث على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدين الحق .

قوله تعالى : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا

(١) أي الضعاف التي تدب في المشي ولا تسرع . (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٤٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٢ ص ١٣٣ طبعة ثانية .

ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟
إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا
لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ
ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ
ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ قال الكسائى : المعنى وأنجينا لوطا أو أرسلنا لوطا . قال : وهذا الوجه أحب إلى . ويجوز أن يكون المعنى وآذكر لوطا إذ قال لقومه موبخا أو محذرا ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ « أَئِنَّكُمْ » تقدم القراءة فى هذا وبيانها فى سورة « الأعراف »[1] . وتقدم قصة لوط وقومه فى «الأعراف» و « هود »[2] أيضا . ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ قيل : كانوا قطاع الطريق؛ قاله آبن زيد . وقيل : كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة؛ حكاه آبن شجرة . وقيل : إنه قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال . قاله وهب بن منبه . أى آستغنوا بالرجال عن النساء .

قلت : ولعل الجميع كان فيهم فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة، ويستغنون عن النساء بذلك . « وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ » النادى المجلس وآختلف فى المنكر الذى كانوا يأتونه فيه ؛ فقالت فرقة : كانوا يخذفون النساء بالحصى ، ويستخفون بالغريب والخاطر عليهم . ورونه أم هانئ عن النبى صلى الله عليه وسلم . قالت أم هانئ : سألت رسول الله صلى

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٧٩ طبعة أولى أو ثانية .

الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل : « وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ » قال "كانوا يخذفون من يمر بهم ويسخرون منه فذلك المنكر الذى كانوا يأتونه" أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده، وذكره النحاس والثعلبي والمهدوى والماوردى . وذكر الثعلبي قال معاوية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن قوم لوط كانوا يجلسون فى مجالسهم وعند كل رجل قصعة فيها الحصى للخذف فإذا مر بهم عابر قذفوه فأيهم أصابه كان أولى به" يعنى يذهب به للفاحشة فذلك قوله : « وتأتون فِي نادِيكم المنكر » . وقالت عائشة وآبن عباس والقاسم بن أبى بَزّة[1] والقاسم ابن محمد : إنهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم . وقال [منصور عن][2] مجاهد كانوا يأتون الرجال فى مجالسهم وبعضهم يرى بعضا . وعن مجاهد : كان من أمرهم لعب الحمام وتطريف الأصابع بالحناء والصفير والحذف ونبذ الحياء فى جميع أمورهم . قال آبن عطية : وقد توجد هذه الأمور فى بعض عصاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فالتناهى واجب . قال مكحول : فى هذه الأمة عشرة من أخلاق قوم لوط : مضغ العلك، وتطريف الأصابع بالحناء، وحل الإزار ، وتنقيض[3] الأصابع، والعمامة التى تلف حول الرأس ، والتشابك ، ورمى الجُلاهق[4] ، والصفير، والحذف ، واللوطية . وعن آبن عباس قال : إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة ، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم ، ويشتم بعضهم بعضا ؛ ويتضارطون فى مجالسهم ، ويخذفون ويلعبون بالنَّرْد والشِّطْرَنج ، ويلبسون المصبغات ، ويتناقرون بالديكة ، ويتناطحون بالكباش ، ويُطرِّفون أصابعهم بالحنّاء ، وتتشبه الرجال بلباس النساء والنساء بلباس الرجال ، ويضربون المكوس على كل عابر، ومع هذا كله كانوا يشركون بالله ، وهم أول من ظهر على أيديهم اللوطية والسِّحاق . فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللجاج ؛ فقالوا : ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ أى إن ذلك لا يكون ولا يقدر عليه . وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مصمِّمون على آعتقاد كذبه . وليس يصح فى الفطرة أن يكون معاند يقول هذا . ثم آستنصر

---

(١) بفتح الموحدة وتشديد الزاى كما فى التقريب . (٢) فى كل النسخ : مجاهد ومنصور ... والتصويب عن تفسير الطبرى وغيره . (٣) تنقيض الأصابع فرقعتها . (٤) الجلاهق كعلابطا البندق الذى يرمى به . والخذف بالخاء المعجمة الحذف به .

لوط عليه السلام ربه فبعث عليهم ملائكة لعذابهم، فجاءوا إبراهيم أولا مبشرين بنصرة لوط على قومه حسبما تقدّم بيانه فى « هود » وغيرها . وقرأ الأعمش ويعقوب وحمزة والكسائى ﴿ لَنُنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ بالتخفيف . وشدّد الباقون . وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائى : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ بالتخفيف . وشدّد الباقون . وهما لغتان : أَنْجَى ونَجَّى بمعنى . وقد تقدّم . وقرأ ابن عامر ﴿ إِنَّا مُنَزِّلُونَ ﴾ بالتشديد وهى قراءة ابن عباس . الباقون بالتخفيف . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ قال قتادة : هى الحجارة التى أبقيت ، وقاله أبو العالية . وقيل : إنه يرجم بها قوم من هذه الأمة . وقال ابن عباس : هى آثار منازلهم الخربة . وقال مجاهد : هو الماء الأسود على وجه الأرض . وكل ذلك باق فلا تعارض .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أى وأرسلنا إلى مدين . وقد تقدّم ذكرهم وفسادهم فى « الأعراف » و « هود »(١) . ﴿ وَٱرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ وقال يونس النحوى : أى اخشوا الآخرة التى فيها الجزاء على الأعمال . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أى لا تكفروا فإنه أصل كل فساد . والعُثُوّ والعِثِيّ أشد الفساد . عَثِيَ يَعْثَى وعَثَا يَعْثُو بمعنى واحد . وقد تقدّم . وقيل : « وَٱرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ » أى صدّقوا به فإن القوم كانوا ينكرونه .

قوله تعالى : وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ ﴾ قال الكسائى : قال بعضهم هو راجع إلى أوّل السورة؛ أى ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عادا وثمود . قال : وأحبّ إلىّ أن يكون معطوفا على

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ وما بعدها و جـ ٩ ص ٨٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

« فأخذتهم الرجفة » وأخذت عادا وثمودا . وزعم الزجاج : أن التقدير وأهلكنا عادا وثمودا . وقيل : المعنى واذكر عادا إذ أرسلنا إليهم هودا فكذبوه فأهلكناهم ، وثمودا أيضا أرسلنا إليهم صالحا فكذبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكنا عادا بالريح العقيم . ﴿ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾ يا معشر الكفار ﴿ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ﴾ بالحجر والأحقاف آياتٌ في إهلاكهم فحذف فاعل التبين . ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعة . ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أي عن طريق الحق . ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ فيه قولان : أحدهما وكانوا مستبصرين في الضلالة ؛ قاله مجاهد . والثاني — كانوا مستبصرين قد عرفوا الحق من الباطل بظهور البراهين . وهذا القول أشبه ؛ لأنه إنما يقال فلان مستبصر إذا عرف الشيء على الحقيقة . قال الفراء : كانوا عقلاء ذوي بصائر فلم تنفعهم بصائرهم . وقيل : أتوا ما أتوا وقد تبين لهم أن عاقبتهم العذاب .

قوله تعالى : وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ قال الكسائي : إن شئت كان محمولا على عاد ، وكان فيه ما فيه ، وإن شئت كان على « فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ » وصد قارون وفرعون وهامان . وقيل : أي وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ عن الحق وعن عبادة الله . ﴿ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ أي فائتين . وقيل : سابقين في الكفر بل قد سبقهم للكفر قرون كثيرة فأهلكناهم . ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾ قال الكسائي : « فكلا » منصوب بـ « أخذنا » أي أخذنا كلا بذنبه . ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ يعني قوم لوط . والحاصب ريح يأتي بالحصباء وهي الحصى الصغار . وتستعمل في كل عذاب

﴿ وَمِنْهُم مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ يعنى ثمودا وأهل مدين . ﴿ وَمِنْهُم مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ يعنى قارون ﴿ وَمِنْهُم مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ قوم نوح وقوم فرعون . ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ لأنه أنذرهم وأمهلهم و بعث إليهم الرسل وأزاح العذر .

قوله تعالى : مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ قال الأخفش : « كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ » وقف تام ، ثم قص قصتها فقال : ﴿ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ قال ابن الأنبارى : وهذا غلط ؛ لأن « اتَّخَذَتْ بَيْتًا » صلة للعنكبوت ، كأنه قال : كمثل التى اتخذت بيتا ، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول ، وهو بمنزلة قوله : « كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا » فيحمل صلة للحمار ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل . قال الفراء : هو مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره؛ كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرا ولا بردا . ولا يحسن الوقف على العنكبوت ؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذى لا يقيها من شىء ، فشبهت الآلهة التى لا تنفع ولا تضر به . ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ ﴾ أى أضعف البيوت ﴿ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ . قال الضحاك : ضرب مثلا لضعف آلهتهم ووهنها فشبهها ببيت العنكبوت . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ « لَوْ » متعلقة ببيت العنكبوت . أى لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التى لا تغنى عنهم شيئا، وأن هذا مثلهم لما عبدوها ؛ لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف . وقال النحاة : إن تاء العنكبوت فى آخرها مزيدة؛ لأنها تسقط فى التصغير والجمع وهى مؤنثة . وحكى الفراء تذكيرها وأنشد :

على هَطَّالِهِمْ منهم بُيُوتٌ * كأنَّ العنكبوتَ قد ابتناها

ويروى : * على أهطالهم منهم بيوتُ *

قال الجوهرى والهطال : آسم جبل . والعنكبوت الدويبّة المعروفة التى تنسج نسجا رقيقا مهلهلا بين الهواء . ويجمع عناكيب وعَناكِب وعِكاب وعُكُب وأَعْكُب . وقد حكى أنه يقال عَنْكَب وعَكَنْبَاة[1] ؛ قال الشاعر :

كأنّما يَسقطُ من لُغَامِها * بيتُ عَكَنْبَاةٍ على زِمَامِها

وتُصغّر فيقال عُنَيْكِب . وقد حكى عن يزيد بن مَيْسرة أن العنكبوت شيطان مسخها الله تعالى . وقال عطاء الخراسانى : نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود حين كان جالوت يطلبه ، ومرة على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولذلك نُهى عن قتلها . و يروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : طهّروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه فى البيوت يورث الفقر ، ومنع الخمير يورث الفقر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ « ما » بمعنى الذى ، و« مِنْ » للتبعيض ، ولو كانت زائدة للتوكيد لآنقلب المعنى ؛ والمعنى : إن الله يعلم ضعف ما يعبدون من دونه . وقرأ عاصم وأبو عمرو و يعقوب : « يدعون » بالياء وهو آختيار أبى عبيد ؛ لذكر الأمم قبلها . الباقون بالتاء على الخطاب .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا ﴾ أى هذا المثل وغيره مما ذكر فى « البقرة » و « الحج » وغيرهما ﴿ نَضْرِبُهَا ﴾ نبيّنها ﴿ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا ﴾ أى يفهمها ﴿ إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ أى العالمون بالله ؛ كما روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته وآجتنب سخطه " .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالعدل والقسط . وقيل : بكلامه وقدرته وذلك هو الحق . ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أى علامة ودلالة ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المصدّقين .

(١) و يقال أيضا : عنكباة بتقديم النون على الكاف .

قوله تعالى : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱتْلُ ﴾ أمر من التلاوة والدءوب عليها . وقد مضى فى «طه»[1] الوعيد فيمن أعرض عنها، وفى مقدمة الكتاب[2] الأمر بالحض عليها . والكتاب يراد به القرآن .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته . وإقامة الصلاة أداؤها فى وقتها بقراءتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهدها وجميع شروطها . وقد تقدم بيان ذلك فى « البقرة »[3] فلا معنى للإعادة .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ يريد إن الصلاة الخمس هى التى تكفّر ما بينها من الذنوب ؛ كما قال عليه السلام : " أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من دَرَنه شىء " قالوا : لا يبقى من دَرَنه شىء ؛ قال : " فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا " خرجه الترمذى من حديث أبى هريرة، وقال فيه حديث حسن صحيح . وقال ابن عمر : الصلاة هنا القرآن . والمعنى : الذى يتلى فى الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر، وعن الزنى والمعاصى .

قلت : ومنه الحديث الصحيح : "قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين" يريد قراءة الفاتحة . وقال حماد بن أبى سليمان وابن جُرَيج والكلبى : العبد مادام فى صلاته لا يأتى فحشاء ولا منكرا؛ أى إن الصلاة تنهى مادمت فيها . قال ابن عطية : وهذه عجمة وأين هذا مما رواه أنس بن مالك قال : كان فتى من الأنصار يصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ولا يدع شيئا من الفواحش والسرقة إلا ركبه، فذُكِر للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : " إن الصلاة ستنهاه "

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانيـة . (٢) راجع جـ ١ ص ١ [illegible] طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) راجع جـ ١ ص ١٦٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألم أقل لكم " وفى الآية تأويل ثالث، وهو الذى ارتضاه المحققون وقال به المشيخة الصوفية وذكره المفسرون؛ فقيل المراد بـ « أَقِمِ الصَّلَاةَ » إدامتها والقيام بحدودها، ثم أخبر حكما منه بأن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر، وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة . والصلاة تشغل كل بدن المصلى ، فإذا دخل المصلى فى محرابه وخشع وأخبت لربه وادكر أنه واقف بين يديه، وأنه مطلع عليه ويراه، صلحت لذلك نفسه وتذللت ، وخامرها ارتقاب الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتها، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة . فهذا معنى هذه الأخبار ؛ لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغى أن تكون .

قلت : لا سيما وإن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله ، وهذا أبلغ فى المقصود وأتم فى المراد ؛ فإن الموت ليس له سن محدود ، ولا زمن مخصوص ، ولا مرض معلوم ، وهذا مما لا خلاف فيه . وروى عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفر لونه ، فكُلِّم فى ذلك فقال : إنى واقف بين يدى الله تعالى، وحق لى هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الملوك . فهذه صلاة تنهى ولا بد عن الفحشاء والمنكر، ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء، لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل، كصلاتنا – وليتها تجزى – فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان ، فإن كان على طريقة معاص تبعده من الله تعالى تركته الصلاة يتمادى على بعده . وعلى هذا يخرج الحديث المروى عن ابن مسعود وابن عباس والحسن والأعمش قولهم : "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدا" وقد روى أن الحسن أرسله عن النبى صلى الله عليه وسلم وذلك غير صحيح السند . قال ابن عطية سمعت أبى رضى الله عنه يقول : فإذا قررناه ونُظر معناه فغير جائز أن يقول إن نفس صلاة العاصى تبعده من الله حتى كأنها معصية ، وإنما يتخرج ذلك على أنها لا تؤثر فى تقريبه من الله، بل تتركه على حاله ومعاصيه ، من الفحشاء والمنكر والبعد، فلم تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البعد الذى كان سبيله، فكأنها بعّدته حين لم تكفّ بُعده عن الله . وقيل لابن مسعود : إن فلانا كثير الصلاة . فقال : إنها لا تنفع إلا من أطاعها .

قلت : وعلى الجملة فالمعنى المقصود بالحديث : "لم تزده من الله إلا بعداً ولم يزدد بها من الله إلا مقتا" إشارة إلى أن مرتكب الفحشاء والمنكر لا قدر لصلاته ؛ لغلبة المعاصى على صاحبها . وقيل : هو خبر بمعنى الأمر . أى لينته المصلى عن الفحشاء والمنكر . والصلاة بنفسها لا تنهى، ولكنها سبب الانتهاء . وهو كقوله تعالى : « هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ » وقوله : « أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ » .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أى ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذكركم له فى عبادتكم وصلواتكم . قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قرة وسلمان والحسن؛ وهو اختيار الطبرى . وروى مرفوعا من حديث موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فى قول الله عز وجل « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » قال : "ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه" . وقيل : ذكركم الله فى صلاتكم وفى قراءة القرآن أفضل من كل شيء . وقيل : المعنى؛ إن ذكر الله أكبر مع المداومة من الصلاة فى النهى عن الفحشاء والمنكر . وقال الضحاك : ولذكر الله عند ما يحرم فيترك أجل الذكر . وقيل : المعنى ولذكر الله للنهى عن الفحشاء والمنكر أكبر أى كبير، وأكبر يكون بمعنى كبير . وقال ابن زيد وقتادة : ولذكر الله أكبر من كل شيء أى أفضل من العبادات كلها بغير ذكر . وقيل : ذكر الله يمنع من المعصية فإن من كان ذاكرا له لا يخالفه . قال ابن عطية : وعندى أن المعنى ولذكر الله أكبر على الإطلاق، أى هو الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذى منه فى الصلاة يفعل ذلك ، وكذلك يفعل فى غير الصلاة ؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر الله مراقب له . وثواب ذلك أن يذكره الله تعالى ؛ كما فى الحديث "من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منهم". والحركات التى فى الصلاة لا تأثير لها فى نهي، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرغه إلا من الله . وأما ما لا يتجاوز اللسان ففى رتبة أخرى . وذكر الله تعالى للعبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه ، وذلك ثمرة لذكر العبد ربه . قال الله عز وجل : « فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » . وباقى الآية ضرب من الوعيد والحث على المراقبة .

قوله تعالى : وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْـلَ ٱلْـكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْـكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْـكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْـكَـٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى ــ آختلف العلماء فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ فقال مجاهد : هى محكمة فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل، والتنبيه على حججه وآياته ؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمــان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشـنة . وقوله على هــذا « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » معناه ظلموكم، وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق . وقيل : المعنى لا تجادلوا من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله آبن سلام ومن آمن معه . ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أى بالموافقــة فيما حدّثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك . وقوله على هــذا التأويل ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ يريد به من بقى على كفره منهم ، كمن كفر وغدر من قريظة والنضير وغيرهم . والآية على هــذا أيضا محكمة . وقيل : هــذه الآية منسوخة بآية القتال قوله تعالى : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » . قال قتادة : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى جعلوا لله ولدا، وقالوا : « يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ » و « إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ » فهؤلاء المشركون [الذين نصبوا الحرب ولم يؤدوا] الجزية فآنتصروا [منهم][(1)] . قال النحاس وغيره : من قال هى منسوخة آحتج بأن الآية مكية ، ولم يكن فى ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزية ، ولا غير ذلك . وقول مجاهــد حسن ؛ لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها إنهــا منسوخة إلا بخبر يقطع العذر، أو حجة من معقول . وآختار هــذا القول آبن العربى .

---

(١) عبارة الأصل هنا : « فهؤلاء المشركون فى سقوط الجزية ... الخ » والتصويب مستفاد من كتب التفسير .

قال مجاهد وسعيد بن جبير : وقوله « إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » معناه إلا الذين نصبوا للؤمنين الحرب بجدالهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يعطوا الجزية .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ روى البخارىّ عن أبى هريرة : قال كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية، لأهل الإسلام؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم " « وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ » . وروى عبدالله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا إما أن تكذّبوا بحق وإما أن تصدّقوا بباطل " . وفى البخارىّ : عن حُميد بن عبد الرحمن سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة، وذكر كعبَ الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدّثين الذين يحدّثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لَنَبْلُو عليه الكذب .

قوله تعالى : وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ﴾ الضمير فى « قبلِهِ » عائد إلى الكتاب وهو القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم؛ أى وما كنت يا محمد تقرأ قبله، ولا تختلف إلى أهل الكتاب، بل أنزلناه إليك فى غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك، فلو كنت ممن يقرأ كتابا، ويخط حروفا ﴿ لَٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أى من أهل الكتاب، وكان لهم فى ٱرتيابهم متعلّق، وقالوا الذى نجده فى كتبنا أنه أمىّ لا يكتب ولا يقرأ وليس به . قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون فى كتبهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية؛ قال النحاس : دليلا على نبوته لقريش؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالت الريبة والشك .

الثانيــة — ذكر النقاش فى تفسير هذه الآية عن الشعبي أنه قال : ما مات النبي صلى الله علّيه وسلم حتى كتب . وأسند أيضا حديث أبي كَبْشة السَّلُولى ؛ مضمنه : أنه صلى الله عليه وسلم قرأ صحيفة لعيينة بن حِصن، وأخبر بمعناها . قال آبن عطية : وهذا كله ضعيف، وقول الباجى رحمه الله منه .

قلت : وقع فى صحيح مسلم من حديث البَرَاء فى صلح الحُدَيْبية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلى: "آكتب الشرط بيننـا بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قاضى عليه محمد رسـول الله" فقال له المشركون : لو نعلم أنك رسول الله تابعناك — وفى رواية بايعناك — ولكن آكتب محمد بن عبد الله فأمر عليـا أن يمحوها، فقال علي : والله لا أمحاه[1] . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أرنى مكانها" فأراه فمحاها وكتب آبن عبد الله . قال علماؤنا رضى الله عنهم: وظاهر هذا أنه عليه السلام محا تلك الكلمة التى هى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيده، وكتب مكانها آبن عبد الله . وقد رواه البخارى بأظهر من هـذا . فقال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب فكتب . وزاد فى طريق أخرى : ولا يحسن أن يكتب . فقال جماعة : بجواز هذا الظاهر عليه وأنه كتب بيده، منهـم السمنانى وأبو ذر[2] والباجى، ورأوا أن ذلك غير قادح فى كونه أميا، ولا معارَض بقوله : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ » ولا بقـوله : "إنا أمـة أميّة لا نكتب ولا نحسب" بل رأوه زيادة فى معجزاته، وآستظهارا على صدقه وصحـة رسالته، وذلك أنه كتب من غير تعلم لكتابة، ولا تعاط لأسبابها، وإنما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركات كانت عنها خطوط مفهومها آبن عبد الله لمن قرأها، فكان ذلك خارقا للعادة؛ كما أنه عليه السلام عَلِم عِلم الأولين والآخرين من غير تعلم ولا آكتساب، فكان ذلك أبلغ فى معجزاته، وأعظم فى فضائله . ولا يزول عنه آسم الأمىّ بذلك؛ ولذلك قال الراوى عنه فى هذه الحالة : ولا يُحسِن أن يكتب . فبق عليه آسم الأمىّ مع كونه قال كتب . قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر : وقد أنكر هذا كثير من

(١) محا الشيء يمحوه ويمحاه محوا ومحيا أذهب أثره .

(٢) السمنانى هو أبو عمرو الفلسطينى . وأبو ذر هو عبد الله بن أحمد الهروى، والباجى هو أبو الوليد .

متفقهة الأندلس وغيرهم، وشدّدوا النكير فيه، ونسبوا قائله إلى الكفر، وذلك دليل على عدم العلوم النظرية ، وعدم التوقف فى تكفير المسلمين، ولم يتفطنوا ؛ لأن تكفير المسلم كقتله على ما جاء عنه عليه السلام فى الصحيح ، لا سيما رمىُ من شهد له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة ؛ على أن المسألة ليست قطعية ، بل مستندها ظواهر أخبار آحادٍ صحيحة ، غير أن العقل لا يحيلها . وليس فى الشريعة قاطع يحيل وقوعها .

قلت : وقال بعض المتأخرين من قال هى آية خارقة، فيقال له : كانت تكون آية لا تنكر لولا أنها مناقضة لآية أخرى وهى كونه أميًا لا يكتب ؛ وبكونه أميًا فى أمة أمية قامت الحجة ، وأُفحِم الجاحدون ، وانحسمت الشبهة، فكيف يطلق الله تعالى يده فيكتب وتكون آية . وإنما الآية ألا يكتب، والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضا . وإنما معنى كتب وأخذ القلم ؛ أى أمر من يكتب به من كُتّابه ، وكان من كتبة الوحى بين يديه صلى الله عليه وسلم ستة وعشرون كاتبا .

الثالثة — ذكر القاضى عِياض عن معاوية أنه كان يكتب بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : "أَلِق الدواةَ وحرّف القلمَ وأقم الباء وفرّق السين ولا تُعوِر الميم وحسّن الله ومدّ الرحمن وجوّد الرحيم" قال القاضى : وهذا وإن لم تصح الرواية أنه صلى الله عليه وسلم كتب فلا يبعد أن يُرزَق علم هذا، ويُمنَع القراءة والكتابة .

قلت : هذا هو الصحيح فى الباب أنه ما كتب ولا حرفا واحدا، وإنما أمر من يكتب، وكذلك ما قرأ ولا تهجى . فإن قيل : فقد تهجى النبى صلى الله عليه وسلم حين ذكر الدجال فقال : "مكتوب بين عينيه ك ا ف ر" وقلتم إن المعجزة قائمة فى كونه أميًا؛ قال الله تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ» الآية وقال : "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب" فكيف هذا؟ فالجواب ما نص عليه صلى الله عليه وسلم فى حديث حذيفة، والحديث كالقرآن يفسر بعضه بعضا . ففى حديث حذيفة "يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب" فقد نص فى ذلك على غير الكاتب ممن يكون أميا . وهذا من أوضح ما يكون جليا .

قوله تعالى : بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ يعنى القرآن . قال الحسن : وزعم الفراء فى قراءة عبد الله « بَلْ هِيَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » المعنى بل آيات القرآن آيات بينات . قال الحسن : ومثله «هَٰذَا بَصَائِرُ» ولو كانت هذه لجاز، نظيره «هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى» قال الحسن : أعطيت هذه الأمة الحفظ ، وكان من قبلها لا يقرءون كتابهم إلا نظرا، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلا النبيون . فقال كعب فى صفة هذه الأمة : إنهم حكماء علماء وهم فى الفقه أنبياء. ﴿فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أى ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحر أو شعر، ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه . وهى كذلك فى صدور الذين أوتوا العلم، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنون به، يحفظونه ويقرءونه . ووصفهم بالعلم؛ لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين . وقال قتادة وابن عباس : « بَلْ هُوَ » يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم « آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » من أهل الكتاب يجدونه مكتوبا عندهم فى كتبهم بهذه الصفة أميا لا يقرأ، ولا يكتب، ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتموا . وهذا اختيار الطبرى . ودليل هذا القول قراءة ابن مسعود وابن السميقع « بَلْ هَٰذَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » وكان عليه السلام آيات لا آية واحدة؛ لأنه دل على أشياء كثيرة من أمر الدين؛ فلهذا قال : « بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ» . وقيل : بل هو ذو آيات بينات، فحذف المضاف . ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أى الكفار، لأنهم جحدوا نبوته وما جاء به .

قوله تعالى : وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ هذا قول المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعناه هلا أنزل عليه آية كآيات الأنبياء. قيل : كما جاء صالح بالناقة، وموسى بالعصا، وعيسى بإحياء الموتى؛ أى ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فهو يأتى بها كما يريد، إذا شاء أرسلها وليست عندى ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾. وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائى «آيَةٌ» بالتوحيد. وجمع الباقون. وهو اختيار أبى عبيد؛ لقوله تعالى : «قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ».

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ هذا جواب لقولهم «لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ» أى أو لم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذى قد تحديتهم بأن يأتوا بمثله، أو بسورة منه فعجزوا، ولو أتيتهم بآيات موسى وعيسى لقالوا : سحر ونحن لا نعرف السحر؛ والكلام مقدور لهم، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة. وقيل : إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتف فيه كتاب فقال "كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به نبي غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم" فأنزل الله تعالى: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ» أخرجه أبو محمد الدارمى فى مسنده. وذكره أهل التفسير فى كتبهم. وفى مثل هذا قال صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه : "لو كان موسى بن عمران حيا لما وسعه إلا اتباعى" وفى مثله قال صلى الله عليه وسلم "ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن" أى يستغنى به عن غيره. وهذا تأويل البخارى رحمه الله فى الآية. وإذا كان لقاء ربه بكل حرف عشر حسنات فأكثر على ما ذكرناه فى مقدمة الكتاب فالرغبة عنه إلى غيره ضلال وخسران وغبن ونقصان. ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أى فى القرآن ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ فى الدنيا والآخرة. وقيل : رحمة فى الدنيا باستنقاذهم من الضلالة. ﴿ وَذِكْرَى ﴾ فى الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

قوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ أى قل للمكذبين لك كفى بالله شهيدا يشهد لى بالصدق فيما أدعيه من أنى رسوله، وأن هذا القرآن كتابه. ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى لا يخفى عليه شىء. وهذا احتجاج عليهم فى صحة شهادته عليهم؛ لأنهم قد

أقروا بعلمه فلزمهم أن يقروا بشهادته . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ قال يحيى بن سلام : بإبليس . وقيل : بعبادة الأوثان والأصنام؛ قاله ابن شجرة . ﴿ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ ﴾ أى لتكذيبهم برسله، وجحدهم لكتابه . وقيل : بما أشركوا به من الأوثان، وأضافوا إليه من الأولاد والأضداد . ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أنفسهم وأعمالهم فى الآخرة .

قوله تعالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ لما أنذرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار : عجل لنا هذا العذاب . وقيل : إن قائل ذلك النضر بن الحرث وأبو جهل حين قالا « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ » وقولهم: « رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » وقوله : ﴿ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ فى نزول العذاب . قال ابن عباس : يعنى هو ما وعدتك ألا أعذب قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة . بيانه « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » . وقال الضحاك : هو مدة أعمارهم فى الدنيا . وقيل : المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : الوقت الذى قدره الله لهلاكهم وعذابهم ؛ قاله ابن شجرة . وقيل : هو القتل يوم بدر . وعلى الجملة فلكل عذاب أجل لا يتقدم ولا يتأخر، دليله قوله : « لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ » . ﴿ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ يعنى الذى استعجلوه . ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى لا يعلمون بنزوله عليهم . ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ أى يستعجلونك وقد أعد لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة، فما معنى الاستعجال . وقيل : نزلت فى عبد الله بن أبى أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا » .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ قيل : هو متصل بما هو قبله ؛ أى يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم . وإنما قال ﴿ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ للمقاربة وإلا فالغشيان من فوق أعم ؛ كما قال الشاعر :

* عَلَفْتُهَا تِبْنًا وماءً بارِدًا * (١)

وقال آخر :

لقد كان قوّادَ الجيادِ إلى العدا * عليهنّ غابٌ من قَنًى ودروع

﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا ﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة « نَقُولُ » بالنون . الباقون بالياء . واختاره أبو عبيد ؛ لقوله : « قُلْ كَفَى بِاللَّهِ » ويحتمل أن يكون المَلَك الموكّل بهم يقول « ذُوقُوا » والقراءتان ترجع إلى معنى . أى يقول المَلَك بإمرنا ذوقوا .

قوله تعالى : يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ هذه الآية نزلت فى تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة — فى قول مقاتل والكلبي — فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه ، وأن البقاء فى بقعة على أذى الكفار ليس بصواب . بل الصواب أن يتلمس عبادة الله فى أرضه مع صالحى عباده ؛ أى إن كنتم فى ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة ؛ لإظهار التوحيد بها . وقال ابن جبير وعطاء : إن الأرض التى فيها الظلم

(١) تمام البيت : * حتى شتت همالة عيناها *

والمنكر تترتب فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق . وقاله مالك . وقال مجاهد : « إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ » فهاجروا وجاهدوا . وقال مُطَرِّف بن الشِّخِّير : المعنى إن رحمتى واسعة . وعنه أيضا : إن رزقى لكم واسع فآبتغوه فى الأرض . قال سفيان الثورى : إذا كنت بأرض غالية فآنتقل إلى غيرها تملأ فيها جرابك خبزا بدرهم . وقيل : المعنى : إن أرضى التى هى أرض الجنة واسعة . ﴿ فَاعْبُدُونِ ﴾ حتى أورثكموها . «فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ» «إِيَّايَ» منصوب بفعل مضمر، أى فاعبدوا إياى فآعبدون، فآستغنى بأحد الفعلين عن الثانى، والفاء فى قوله : « فَإِيَّايَ » بمعنى الشرط ؛ أى إن ضاق بكم موضع فإياى فآعبدونى [فى غيره][1] ؛ لأن أرضى واسعة .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ تقدّم فى «آل عمران»[2]. وإنما ذكره هاهنا تحقيرا لأمر الدنيا ومخاوفها . كأنّ بعض المؤمنين نظر فى عاقبة تلحقه فى خروجه من وطنه من مكة أنه يموت أو يجوع أو نحو هذا ؛ فحقر الله شأن الدنيا . أى أنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلينا ، فالبدار إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمتثل . ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضا منه تعالى؛ وذكر الجزاء الذى ينالونه، ثم نعتهم بقوله : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وقرأ أبو عمرو ويعقوب والجحدرى وآبن أبى إسحق وآبن محيصن والأعمش وحمزة والكسائى وخلف « يَاعِبَادِي » بإسكان الياء . وفتحها الباقون . « إِنَّ أَرْضِي » فتحها آبن عامر . وسكنها الباقون . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من فرّ بدينه من أرض إلى أرض ولو قيد شبر آستوجب الجنة وكان رفيق محمد وإبراهيم " عليهما السلام . « ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » . وقرأ السُّلَمِىّ وأبو بكر عن عاصم « يُرْجَعُونَ » بالياء ؛ لقوله « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» وقرأ الباقون بالتاء؛ لقوله « يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا » وأنشد بعضهم :

الموتُ فى كلِّ حينٍ يَنْشدُ الكَفَنَا * ونحن فى غفلةٍ عمّا يُرادُ بِنَا
لا تَرْكَنَنَّ إلى الدنيا وزَهْرتِها * وإن توشّحتَ من أثوابها الحسَنَا

---

(1) زيادة يقتضيها السياق . (2) راجع جـ ٤ ص ٢٩٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

أينَ الأحبةُ والجيرانُ ما فَعَـلُوا * أينَ الذين هُمُو كانوا لهـا سَكَنَا
سقاهُمُ الموتُ كأسـًا غيرَ صافيةٍ * صيرهم تحت أطباقِ الثَّرَى رُهُنَا

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي «لَنُثْوِيَنَّهُم» بالثـاء مكان الباء من الثوى وهو الإقامة ؛ أى لنعطينهم غرفا يثوون فيهـا . وقرأ رويس عن يعقوب والجحـدرى والسلمى « لَيُبَوِّئَنَّهُم » باليـاء مكان النون . الباقون ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ أى لننزلنهم . « غُرَفًا » جمع غرفة وهى العِلِّيَّة المشرفة . وفى صحيح مسلم عن سهل بن سـعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن أهل الجنة ليتراءون أهلَ الغرف من فوقهم كما تتراءونَ الكوكبَ الدرىَّ الغابرَ من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضـل ما بينهم" قالوا : يارسـول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال "بلى والذى نفسى بيـده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين" (١) وخرج الترمذى عن على رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن فى الجنة لغرفا يُرَى ظهورُها من بطونها وبطونها من ظهورها" فقام إليه أعرابى فقال : لمن هى يارسول الله؟ قال : "هى لمن أطاب الكلامَ وأطعم الطعامَ وأدام الصيامَ وصـلى لله بالليل والناس نيام" وقد زدنا هذا المعنى بيانا فى كتاب « التذكرة » والحمد لله .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أسند الواحدى عن يزيد بن هرون ، قال : حدّثنا حجاج بن المنهال عن الزهرى — وهو عبد الرحمن بن عطاء — عن عطاء عن ابن عمر قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلقط من التمر [ويأكل] (٢) فقال "يا بن عمر مالك لا تأكل" فقلت لا أشتهيه يارسول الله فقال "لكنى أشتهيه وهـذه صبيحة رابعة لم أذق طعاما ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يابن عمر إذا بقيت فى قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقـين" قال : والله ما برحنا حتى نزلت « وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

(١) هذه رواية أبى سعيد الخدرى ؛ كما فى صحيح مسلم . (٢) الزيادة من كتاب « أسباب النزول » للواحدى .

قلت : وهذا ضعيف يُضعفه أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سنتهم ، اتفق البخاري عليه ومسلم . وكانت الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة ، وأهل اليقين والأئمة لمن بعدهم من المتقين المتوكلين . وقد روى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للمؤمنين بمكة حين أذاهم المشركون "اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة" قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا . فنزلت « وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ » أي ليس معها رزقها مدخرا ، وكذلك أنتم يرزقكم الله في دار الهجرة . وهذا أشبه من القول الأول . وتقدم الكلام في « كأيِّن » وأن هذه « أيّ » دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيها معنى كم . والتقدير عند الخليل وسيبويه كالعدد ، أي كشيء كثير من العدد من دابة . قال مجاهد : يعني الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئا . الحسن : تأكل لوقتها ولا تدخر لغد . وقيل : « لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا » أي لا تقدر على رزقها « اللَّهُ يَرْزُقُهَا » أينما توجهت « وَإِيَّاكُمْ » . وقيل : الحمل بمعنى الحمالة . وحكى النقاش : أن المراد النبي صلى الله عليه وسلم يأكل ولا يدخر .

قلت : وليس بشيء ، لإطلاق لفظ الدابة ، وليس مستعملا في العرف إطلاقها على الآدمي فكيف على النبي صلى الله عليه وسلم . وقد مضى هذا في « النمل » عند قوله « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ » قال ابن عباس : الدوابّ هو كل ما دبّ من الحيوان ، فكله لا يحمل رزقه ولا يدخر إلا ابن آدم والنمل والفأر . وعن بعضهم رأيت البلبل يحتكر في مِحْضَنه . ويقال للعقعق مخابئ إلا أنه ينساها . ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ يسوّي بين الحريص والمتوكل في رزقه ، وبين الراغب والقانع ، وبين الحَيُول والعاجز حتى لا يغتر الجلد أنه مرزوق بجلده ، ولا يتصور العاجز أنه ممنوع بعجزه . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » . ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لدعائكم وقولكم لا نجد ما ننفق بالمدينة ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما في قلوبكم .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ الآية . لما عير المشركون المسلمين بالفقر وقالوا لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء، وكان هذا تمويها ، وكان في الكفار فقراء أيضا أزال الله هـذه الشبهة . وكذا قول من قال إن هاجرنا لم نجد ما ننفق . أي فإذا اعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء ، فكيف تشكون في الرزق ، فمن بيـده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العبد ؛ ولهذا وصله بقوله تعالى : « اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْـدِرُ لَهُ » . ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي . ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أي لا يختلف أمر الرزق بالإيمان والكفر ، فالتوسيع والتقتير منـه فلا تعيير بالفقر، فكل شيء بقضاء وقـدر . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من أحوالكم وأموركم . وقيل : عليم بما يصلحكم من إقتار أو توسيع .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أي من السحاب مطرا . ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا ﴾ أي جدبها وقحط أهلها . ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أي فإذا أقررتم بذلك فلم تشركون به وتنكرون الإعادة . وإذا قدر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين ؛ فكرر تأكيدا . ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

أى لا يتدبرون هذه الحجج . وقيل : « الحمد لله » على إقرارهم بذلك . وقيل : على إنزال الماء وإحياء الأرض . ﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ أى شىء يُلهَى به ويُلعب . أى ليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول؛ كاللعب الذى لا حقيقة له ولا ثبات، قال بعضهم : الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها . وأنشد :

تَروحُ لنا الدنيا بغير الذى غدَتْ * وتَحدثُ من بعد الأمور أمورُ
وتجرى الليالى باجتماعٍ وفُرقةٍ * وتَطلُع فيها أنجمٌ وتَغورُ
فمن ظنّ أنّ الدهرَ باقٍ سرورُهُ * فذاكَ محالٌ لا يَدُومُ سرورُ
عَفَا اللهُ عمّنْ صيّرَ الهمَّ واحدًا * وأيقن أنّ الدائراتِ تدورُ

قلت : وهذا كله فى أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضرورى الذى به قوام العيش، والقوة على الطاعات . وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة، وهو الذى يبقى كما قال : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » أى ما ابتغى به ثوابه ورضاه . ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أى دار الحياة الباقية التى لا تزول ولا موت فيها . وزعم أبو عبيدة : أن الحيوان والحياة والحِىّ بكسر الحاء واحد . كما قال (1) :

* وقد ترى إذ الحياةُ حِىٌّ *

وغيره يقول : إن الحِىّ جمع على فِعول مثل عِصىّ . والحيوان يقع على كل شىء حىّ . وحيوان عينٌ فى الجنة . وقيل : أصل حَيوان حَييان فأبدلت إحداهما واوا ؛ لاجتماع المثلين . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أنها كذلك .

قوله تعالى : فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

(1) البيت للعجاج وتمامه :

* وإذ زمانُ الناسِ دغفلى *

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ﴾ يعني السفن وخافوا الغرق ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي صادقين في نياتهم ، وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها . ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي يدعون معه غيره ، وما لم ينزل به سلطانا . وقيل : إشراكهم أن يقول قائلهم لولا الله والرئيس أو الملاح لغرقنا ، فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمة بين الله و بين خلقه .

قوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ قيل : هما لام كي أي لكي يكفروا ولكي يتمتعوا . وقيل : « إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » ليكون ثمرة شركهم أن يجحدوا نعم الله و يتمتعوا بالدنيا . وقيل : هما لام أمر معناه التهديد والوعيد . أي آكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتعوا . ودليل هذا قراءة أُبيّ « وَتَمَتَّعُوا » . آبن الأنباري : ويقوى هذا قراءة الأعمش ونافع وحمزة « وَلْيَتَمَتَّعُوا » بجزم اللام . النحاس : « وَلِيَتَمَتَّعُوا » لام كي ، ويجوز أن تكون لام أمر؛ لأن أصل لام الأمر الكسر، إلا أنه أمر فيه معنى التهديد . ومن قرأ « وَلْيَتَمَتَّعُوا » بإسكان اللام لم يجعلها لام كي؛ لأن لام كي لا يجوز إسكانها . وهي قراءة آبن كثير والمسيّبي وقالون عن نافع، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم . الباقون بكسر اللام . وقرأ أبو العالية « لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » تهديد ووعيد .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : هي مكة وهم قريش أمّنهم الله تعالى فيها . ﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ قال الضحاك : يقتل بعضهم بعضا و يسبي بعضهم بعضا . والخطف الأخذ بسرعة . وقد مضى في « القصص »

وغيرها . فأذكرهم الله عز وجل هــذه النعمة ليذعنوا له بالطاعة . أى جعلتُ لهم حرما آمنًا أمنوا فيه من السّبى والغارة والقتل، وخلّصتهم فى البر كما خلّصتهم فى البحر، فصاروا يشركون فى البر ولا يشركون فى البحر . فهــذا تعجب من تناقض أحوالهم . ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ قال قتادة : أفبالشرك . وقال يحيى بن ســلّام : أفبإبليس . ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ قال ٱبن عباس : أفبعافية الله . وقال ٱبن شجرة : أفبعطاء الله وإحسانه . وقال ٱبن ســلّام : أفبما جاء به النبي صلى الله عليه وســلم من الهدى . وحكى النقاش : أفبإطعامهم من جوع، وأمنهم من خوف يكفرون . وهذا تعجب وإنكار خرج مخرج الآستفهام .

قوله تعــالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى لا أحد أظلم ممن جعل مع الله شريكا وولدا، وإذا فعل فاحشة قال: « وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا » . ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ قال يحيى بن ســلّام : بالقرآن . وقال السدى: بالتوحيد . وقال ٱبن شجــرة : بمحمد صلى الله عليه وسلم . وكل قول يتناول القولين . ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى مستقر . وهو آستفهام تقرير .

قوله تعــالى : وَٱلَّذِينَ جَٰهَــدُوا فِينَــا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ أى جاهدوا الكفار فينا، أى فى طلب مرضاتنا . وقال السدى وغيره : إن هــذه الآية نزلت قبل فرض القتال . قال ٱبن عطية : فهى قبل الجهاد العرفى، وإنما هو جهاد عام فى دين الله وطلب مرضاته . قال الحسن بن أبى الحسن: الآية فى العبّاد . وقال ٱبن عباس وإبراهيم بن أدهم : هى فى الذين يعملون بمــا يعلمون . وقد قال صلى الله عليه وســلم : "من عمل بمــا علم علّمه الله ما لم يعلم" ونزع بعض العلماء إلى قــوله « وَٱتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ » . وقال عمر بن عبد العزيز : إنمــا قصّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا فى العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علما لا تقوم به أبداننا ؛ قال الله تعالى : « وَٱتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ » . وقال أبو سليمان الدارانى : ليس الجهاد فى الآية

قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين؛ وعُظْمه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس فى طاعة الله وهو الجهاد الأكبر. وقال سفيان بن عيينة لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول: «لَنَهْدِيَنَّهُمْ». وقال الضحاك: معنى الآية؛ والذين جاهدوا فى الهجرة لنهدينهم سبل الثبات على الإيمان. ثم قال: مثل السُّنة فى الدنيا كمثل الجنة فى العقبى، من دخل الجنة فى العقبى سلم، كذلك من لزم السُّنة فى الدنيا سلم. وقال عبد الله بن عباس: والذين جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا. وهذا يتناول بعموم الطاعة جميع الأقوال. ونحوه قول عبد الله بن الزبير قال: تقول الحكمة من طلبنى فلم يجدنى فليطلبنى فى موضعين: أن يعمل بأحسن ما يعلمه، ويجتنب أسوأ ما يعلمه. وقال الحسن بن الفضل: فيه تقديم وتأخير أى الذين هديناهم هم الذين جاهدوا فينا. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أى طريق الجنة؛ قاله السدى. النقاش: يوفقهم لدين الحق. وقال يوسف بن أسباط: المعنى لنخلصنّ نياتهم وصدقاتهم وصلواتهم وصيامهم. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لام تأكيد ودخلت فى «مع» على أحد وجهين: أن يكون اسما ولام التوكيد إنما تدخل على الأسماء، أو حرفا فتدخل عليها؛ لأن فيها معنى الاستقرار؛ كما تقول إن زيدا لفى الدار. و«مع» إذا سكنت فهى حرف لا غير. وإذا فتحت جاز أن تكون اسما، وأن تكون حرفا. والأكثر أن تكون حرفا جاء لمعنى. وتقدّم معنى الإحسان والمحسنين فى «البقرة» وغيرها. وهو سبحانه معهم بالنصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة. فبين المعيتين بونٌ.

تمت سورة العنكبوت، والحمد لله وحده

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الروم

سورة الروم مكية كلها من غير خلاف، وهي ستون آية

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ﴾ روى الترمذيّ عن أبي سعيد الخُدريّ قال : لما كان يوم بدرٍ ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت : « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ — إلى قوله — يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللهِ » . قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس . قال : هذا حديث غريب[1] من هذا الوجه، هكذا قرأ نصر بن عليّ الجَهْضَميّ « غَلَبَتِ الروم » . ورواه أيضا من حديث ابن عباس بأتمّ منه، قال ابن عباس في قول الله عز وجل : «الم . غلبت الروم . في أدنى الأرض» قال : غَلَبت وغُلِبت، قال : كان المشركون يحبّون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم و إياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبّون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب؛ فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : "أمَا إنهم سيَغْلِبون" فذكره أبو بكر لهم فقالوا : اجعلْ بيننا و بينك أجلا، فإن ظهرنا كان لنا كذا، و إن ظهرتم كان لكم كذا وكذا؛ فجعل أجلَ خمس سنين، فلم يظهروا؛ فذكر ذلك للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : "ألَا جعلته

(١) في نسخة الترمذي : « هذا حديث حسن غريب ... » .

إلى دُونَ ــ أراه قال العشر ــ قال أبو سعيد : والبِضع ما دون العشر . قال : ثم ظهرت الروم بعدُ ، قال : فذلك قوله « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ ــ إلى قوله ــ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ » . قال سفيان : سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بَدْر . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . ورواه أيضا عن نِيَار بن مُكْرَم الأسلمي قال : لما نزلت « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ » وكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب ، وذلك قول الله تعالى : « وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصيح في نواحي مكة : « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ » . قال ناس من قريش لأبي بكر : فذلك بيننا وبينكم ، زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ! أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى . وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان . وقالوا لأبي بكر : كم نجعل البضع ؟ ثلاث سنين أو تسع سنين ؟ فسمّ بيننا وبينك وسطا تنتهي إليه ؛ قال : فسمّوا بينهم ستّ سنين ؛ قال : فمضت الست سنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبي بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس ، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ستّ سنين ، قال : لأن الله تعالى قال « في بضع سنين » قال : وأسلم عند ذلك ناس كثير . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . وروى القُشَيْري وابن عطية وغيرهما : أنه لما نزلت الآيات خرج أبو بكر بها إلى المشركين فقال : أسرّكم أن غلبت الروم؟ فإن نبينا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون في بضع سنين ؟ فقال له أُبيّ بن خلف وأميّة أخوه ــ وقيل أبو سفيان بن حرب ــ : يا أبا فصيل (١) ! ــ يعرّضون بكُنيته يا أبا بكر ــ فلنتناحب ــ أي نتراهن

(١) الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه .

فى ذلك فراهنهم أبو بكر . قال قتادة : وذلك قبل أن يحرم القمار، وجعلوا الرهان خمس قلائص[1] والأجل ثلاث سنين . وقيل : جعلوا الرهان ثلاث قلائص . ثم أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : "فهلّا احتطت فإن البضع ما بين الثلاث والتسع والعشر ولكن ارجع فزدهم فى الرهان واستزدهم فى الأجل" . ففعل أبو بكر، فجعلوا القلائص مائة والأجل تسعة أعوام؛ فغلبت الروم فى أثناء الأجل . وقال الشعبيّ : فظهروا فى تسع سنين . القُشَيْرِيّ : المشهور فى الروايات أن ظهور الروم كان فى السابعة من غلبة فارس للروم، ولعل رواية الشعبيّ تصحيف من السبع إلى التسع من بعض النَّقَلة . وفى بعض الروايات : أنه جعل القلائص سبعا إلى تسع سنين . ويقال : إنه آخر فتوح كسرى أَبْرَوِيز فتح فيه القُسْطنطينية حتى بنى فيها بيت النار، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءه ذلك ، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين . وحكى النقاش وغيره أن أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه لما أراد الهجرة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم تعلّق به أُبَيّ بن خَلَف وقال له : أعطنى كفيلا بالخطر[2] إن غلبت؛ فكفل به ابنه عبد الرحمن، فلما أراد أُبَيّ الخروج إلى أُحُد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلا ، ثم مات أُبَيّ بمكة من جرح جرحه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وظهرت الروم على فارس يوم الحُدَيْبِيَة على رأس تسع سنين من مناحبتهم . وقال الشعبيّ : لم تمض تلك المدة حتى غلبت الروم فارس، وربطوا خيلهم بالمدائن، وبنوا رُومِيَّة؛ فقَمَر[3] أبو بكر أُبَيًّا وأخذ مال الخَطَر من ورثته، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "تصدّق به" فتصدّق به . وقال المفسرون : إن سبب غلبة الروم فارس امرأةٌ[4] كانت فى فارس لا تلد إلا الملوك والأبطال ، فقال لها كسرى : أريد أن أستعمل أحد بنيك على جيش أجهزه إلى الروم؛ فقالت : هذا هُرْمُز أروغ من ثعلب وأحذر من صقر، وهذا فَرُّخان أحدّ من سنان وأنفذ من نبل، وهذا شهربزان[5] أحلم من كذا، فاختر؛ فاختار الحليم وولّاه، فسار إلى الروم بأهل فارس فظهر على

---

(١) القلائص : جمع القلوص ، وهى الفتية من الإبل . (٢) الخطر (بالتحريك) : الرهن ، وما يخاطر عليه .

(٣) قمرت الرجل : غلبته . (٤) راجع هذا الخبر فى تاريخ الطبرى (جـ ٤ ص ١٠٠٥ من القسم الأول طبع أوربا) . (٥) هكذا ورد فى كتب التفسير . والذى فى تاريخ الطبرى : « شهربراز » .

الروم . وقال عكرمة وغيره : إن شهربزان لما غلب الروم خرّب ديارها حتى بلغ الخليج ، فقال أخوه فرّخان : لقد رأيتنى جالسا على سرير كسرى ؛ فكتب كسرى إلى شهربزان أرسل إلىّ برأس فرّخان فلم يفعل ؛ فكتب كسرى إلى فارس : إنى قد استعملت عليكم فرّخان وعزلت شهربزان ، وكتب إلى فرّخان إذا ولى أن يقتل شهربزان ؛ فأراد فرخان قتل شهربزان فأخرج له شهربزان ثلاث صحائف من كسرى يأمره بقتل فرّخان ، فقال شهربزان لفرخان : إن كسرى كتب إلىّ أن أقتلك ثلاث صحائف وراجعته أبدا فى أمرك ، أفتقتلنى أنت بكتاب واحد ؟ فرد الملك إلى أخيه ، وكتب شهربزان إلى قيصر ملك الروم فتعاونا على كسرى ؛ فغلبت الروم فارس ومات كسرى . وجاء الخبر الى النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ففرح من معه من المسلمين ؛ فذلك قوله تعالى : « ألم . غُلبت الروم . فى أدنى الأرض » يعنى أرض الشام . عكرمة : بأذرعات ، وهى ما بين بلاد العرب والشام . وقيل : إن قيصر كان بعث رجلا يدعى يحنّس وبعث كسرى شهربزان فالتقيا بأذرعات وبُصْرى وهى أدنى بلاد الشام إلى أرض العرب والعجم . مجاهد : بالجزيرة ، وهو موضع بين العراق والشام . مقاتل : بالأُرْدُنّ وفلسطين . و « أدْنَى » معناه أقرب . قال ابن عطية : فإن كانت الوقعة بأذرعات فهى من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة ، وهى التى ذكرها امرؤ القيس فى قوله :

تَنَوّرتها من أذرعات وأهلُها * بيَثْرِبَ أدْنَى دارِها نَظَـرٌ عالِ

وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهى أدنى بالقياس إلى أرض كسرى ، وإن كانت بالأُرْدُنّ فهى أدنى إلى أرض الروم . فلما طرأ ذلك وغلبت الروم سُرّ الكفار فبشر الله عباده بأن الروم سيغلبون وتكون الدّولة لهم فى الحرب .

وقد مضى الكلام فى فواتح السور . وقرأ أبو سعيد الخُدْرىّ وعلىّ بن أبى طالب ومعاوية بن قُرّة « غَلَبت الروم » بفتح الغين واللام . وتأويل ذلك أن الذى طرأ يوم بدر إنما كانت الروم غلبت فعزّ ذلك على كفار قريش وسرّ بذلك المسلمون ، فبشّر الله تعالى عباده أنهم سيغلبون أيضا فى بضع سنين ؛ ذكر هذا التأويل أبو حاتم . قال أبو جعفر النحاس :

« قراءة أكثر النـاس « غُلِبت الروم » بضم الغين وكسر اللام . وروى عن ابن عمر وأبى سعيد الخُدْرى أنهما قرآ « غَلَبت الروم » وقرآ « سيُغلبون » . وحكى أبو حاتم أن عصمة روى عن هارون : أن هـذه قراءة أهل الشام؛ وأحمد بن حنبل يقـول : إن عصمة هذا ضعيف، وأبو حاتم كثير الحكاية عنه، والحديث يدل على أن القراءة « غُلبت » بضم الغين، وكان فى هذا الاخبار دليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الروم غلبتها فارس ، فأخبر الله عز وجل نبيّـه محمدا صلى الله عليه وسـلم أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين ، وأن المؤمنين يفرحون بذلك ، لأن الروم أهل كتاب ، فكان هـذا من علم الغيب الذى أخبر الله عز وجل به ممـا لم يكن [علموه](1) ، وأمر أبا بكر أن يراهنهم على ذلك وأن يبالغ فى الرهان ، ثم حُرّم الرهان بعدُ ونسخ بتحريم القِمار» . قال ابن عطية : والقراءة بضم الغين أصح ، وأجمع الناس على « سيغلبون » أنه بفتح اليـاء ، يراد به الروم . ويروى عن ابن عمر أنه قرأ أيضا بضم اليـاء فى « سيغلبون » ، وفى هذه القراءة قلب للمعنى الذى تظاهرت الروايات به . قال أبو جعفر النحاس : ومن قرأ « سيُغلبون » فالمعنى عنده : وفارس من بعد غلبهم ، أى من بعـد أن غَلَبوا ، سيُغلبون . وروى أن إيقـاع الروم بالفرس كان يوم بدر ؛ كما فى حديث أبى سعيد الخُدرى حديثِ الترمذىّ ، وروى أن ذلك كان يوم الحُدَيبية ، وأن الخبر وصل يوم بيعـة الرّضوان ؛ قاله عكرمة وقتادة . قال ابن عطية : وفى كِلا اليومين كان نصر من الله للمؤمنين . وقـد ذكر الناس أن سبب سرور المسلمين بغلبة الروم وهَمّهم أن تغلب إنمـا هو أن الروم أهل كتاب كالمسلمين ، وفارس من أهل الأوثان؛ كما تقدّم بيانه فى الحديث . قال النحاس : وقول آخر وهو أولى أن فرحهم إنمـا كان لإنجاز وعد الله تعالى ؛ إذ كان فيـه دليل على النبـوّة لأنه أخبر تبارك وتعالى بمـا يكون فى بضع سنين فكان فيـه . قال ابن عطية : ويشـبه أن يعلّل ذلك بمـا يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدو الأصغر لأنه أيسر مؤنة ، ومتى غلب الأكبر كثر الخوف منه ؛ فتأمل هذا المعنى مع ما كان رسـول الله

(1) زيادة عن النحاس .

صلى الله عليه وسلم ترجّاه من ظهور دينه وشَرْعِ الله الذى بعثه به وغلبته على الأمم ، وإرادة كفار مكة أن يرميه الله بملك يستأصله ويريحهم منه . وقيل : سرورهم إنما كان بنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين ، لأن جبريل أخبر بذلك النبيّ عليه السلام يوم بدر ؛ حكاه القُشَيْرِىّ .

قلت : ويحتمل أن يكون سرورهم بالمجموع من ذلك ، فسُرّوا بظهورهم على عدوّهم وبظهور الروم أيضا وبإنجاز وعد الله . وقرأ أبو حَيْوة الشامىّ ومحمد بن السَّمَيْقَع « من بعد غَلْبهم » بسكون اللام ، وهما لغتان ؛ مثل الظَّعْن والظَّعَن . وزعم الفرّاء أن الأصل « من بعد غلبتهم » فحذفت التاء كما حذفت فى قوله عز وجل « وإقام الصلاة » وأصله وإقامة الصلاة . قال النحاس : « وهذا غلط لا يُخِيل[1] على كثير من أهل النحو ؛ لأن « إقام الصلاة » مصدر قد حذف منه لاعتلال فعله ، فجعلت التاء عوضا من المحذوف ، و « غَلَب » ليس بمعتلّ ولا حذف منه شىء ، وقد حكى الأصمعىّ : طَرد طَرْدًا وجَلَب جَلَبًا وحَلَب حَلَبًا وغَلَب غَلَبًا ؛ فأىّ حذف فى هذا ، وهل يجوز أن يقال : فى أكل أكْلًا وما أشبهه حُذف منه » .

﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ حذفت الهاء من « بِضع » فرقا بين المذكر والمؤنث ، وقد مضى الكلام فيه فى « يوسف »[2] . وفتحت النون من « سِنِينَ » لأنه جمع مسلّم . ومن العرب من يقول « فى بضع سنين » كما يقول فى « غِسلين » . وجاز أن يُجمع سنة جمع من يعقل بالواو والنون والياء والنون ؛ لأنه قد حذف منها شىء فجعل هذا الجمع عوضا من النقص الذى فى واحده ؛ لأن أصل « سَنَة » سَنْهة أو سَنَوة ، وكسرت السين منه دلالة على أن جمعه خارج عن قياسه ونمطه ؛ هذا قول البصريين . ويلزم الفرّاء أن يضمها لأنه يقول : الضمة دليل على الواو وقد حذف من سنة واو فى أحد القولين ، ولا يضمها أحد علمناه .

قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ أخبر تعالى بانفراده بالقدرة وأن ما فى العالم من غلبة وغيرها إنما هى منه وبإرادته وقدرته فقال « لله الأمر » أى إنفاذ الأحكام .

---

(١) أى لا يشكل ؛ وهو من أخال الشىءُ اشتبه . (٢) راجع جـ ٩ ص ١٩٧

« مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » أي من قبل هذه الغلبة ومن بعدها . وقيل : من قبل كل شيء ومن بعد كل شيء . و « مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ» ظرفان بُنيا على الضم؛ لأنهما تعرّفا بحذف ما أضيفا إليهما وصارا متضمنين ما حذف مخالفا تعريف الأسماء وأشبها الحروف في التضمين فبُنيا؛ وخُصّا بالضم لشبههما بالمنادى المفرد في أنه إذا نُكّر وأضيف زال بناؤه، وكذلك هما فضُمّا. ويقال: «من قبلٍ ومن بعدٍ». وحكى الكسائي عن بعض بني أسد « لله الأمر من قبلٍ ومن بعدُ» الأول مخفوض منوّن، والثاني مضموم بلا تنوين. وحكى الفرّاء « من قبلِ ومن بعدِ » مخفوضين بغير تنوين. وأنكره النحاس وردّه. وقال الفرّاء في كتابه : في القرآن أشياء كثيرة، الغلطُ فيها بيّن، منها أنه زعم أنه يجوز «من قبلِ ومن بعدِ» وإنما يجوز «من قبلٍ ومن بعدٍ» على أنهما نكرتان. قال الزجاج: المعنى من متقدّم ومن متأخر. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ تقدم ذكره. ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني من أوليائه؛ لأن نصره مختص بغلبة أوليائه لأعدائه، فأما غلبة أعدائه لأوليائه فليس بنصر، وإنما هو ابتلاء وقد يسمّى ظَفَرا. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في نقمته ﴿الرَّحِيمُ﴾ لأهل طاعته.

قوله تعالى : وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لأن كلامه صدق. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم الكفار وهم أكثر. وقيل: المراد مشركو مكة. وانتصب « وَعْدَ اللَّهِ » على المصدر؛ أي وعد ذلك وعدا. ثم بيّن تعالى مقدار ما يعلمون فقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني أمر معايشهم ودنياهم، متى يزرعون ومتى يحصدون، وكيف يغرسون وكيف يبنون؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة. وقال الضحاك: هو بنيان قصورها وتشقيق أنهارها وغرس أشجارها؛ والمعنى واحد. وقيل: هو ما تلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا

عند ٱستراقهم السمع من سماء الدنيا؛ قاله سعيد بن جبير . وقيل : الظاهر والباطن؛ كما قال في موضع آخر « أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ »(١) .

قلت : وقول ابن عباس أشبه بظاهر الحياة الدنيا ، حتى لقد قال الحسن : بلغ والله من علم أحدهم بالدنيا أنه يَنْقُد الدرهم فيخبرك بوزنه ولا يحسن أن يصلى . وقال أبو العباس المبرّد : قسّم كسرى أيامه فقال : يصلح يوم الريح للنوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للشرب واللهو ، ويوم الشمس للحوائج . قال ابن خالَوَيْه : ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا . ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ﴾ أى عن العلم بها والعمل لها ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ قال بعضهم :

ومن البليّة أن ترى لك صاحبا * فى صورة الرجل السميع المبصر
فطِنٍ بكل مصيبة فى ماله * وإذا يصاب بدينه لم يشعر

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾

قوله : ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ظرف للتفكر وليس بمفعول، تعدّى إليه « يتفكروا » بحرف جرّ؛ لأنهم لم يؤمروا أن يتفكروا فى خلق أنفسهم، إنما أمروا أن يستعملوا التفكر فى خلق السموات والأرض وأنفسهم، حتى يعلموا أن الله لم يخلق السموات وغيرها إلا بالحق . قال الزجاج : فى الكلام حذف ، أى فيعلموا ؛ لأن فى الكلام دليلا عليه . ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قال الفرّاء : معناه إلا للحق؛ يعنى الثواب والعقاب . وقيل : إلا لإقامة الحق . وقيل : « بالحق » بالعدل . وقيل : بالحكمة ؛ والمعنى متقارب . وقيل : « بالحق » أى أنه هو الحق وللحق خلقها ، وهو الدلالة على توحيده وقدرته . ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أى للسموات والأرض أجل

(١) آية ٣٣ سورة الرعد ، جـ ٩ ص ٣٢٣

ينتهيان إليه وهو يوم القيامة . وفى هذا تنبيه على الفناء وعلى أن لكل مخلوق أجلا ، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء . وقيل : « وأجلٍ مُسَمًّى » أي خلق ما خلق في وقت سماه لأن يخلق ذلك الشيء فيه . ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ اللام للتوكيد ، والتقدير : لكافرون بلقاء ربهم ، على التقديم والتأخير ؛ أي لكافرون بالبعث بعد الموت . وتقول : إن زيدا في الدار لجالس . ولو قلت: إن زيدا لفي الدار لجالس جاز . فإن قلت : إن زيدا جالس لفي الدار لم يجز؛ لأن اللام إنما يؤتى بها توكيدا لاسم إن وخبرها، و إذا جئت بها لم يجز أن تأتى بها . وكذا إن قلت : إن زيدا لجالس لفي الدار لم يجز .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾ ببصائرهم وقلوبهم . ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ ﴾ أي قلبوها للزراعة ؛ لأن أهل مكة لم يكونوا أهل حرث؛ قال الله تعالى : « تُثِيرُ الأرض »(1) . ﴿ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ أي وعمروها أولئك أكثر مما عمروها هؤلاء فلم تنفعهم عمارتهم ولا طول مدتهم . ﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالمعجزات . وقيل : بالأحكام فكفروا ولم يؤمنوا . ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ بأن أهلكهم بغير ذنب ولا رسل ولا حجة . ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالشرك والعصيان .

قوله تعالى : ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

---

(1) آية ٧١ سورة البقرة جـ ١ ص ٤٥٣ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ ﴾ السُّوءى فُعْلَى من السوء تأنيث الأسوإ وهو الأقبح ، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن . وقيل : يعني بها هاهنا النار ؛ قاله ابن عباس . ومعنى « أساءوا » أشركوا؛ دل عليه « أن كَذَّبوا بآياتِ الله » . «السوءى» : اسم جهنم ؛ كما أن الحسنى اسم الجنة . ﴿ أن كذبوا بآياتِ الله ﴾ أى لأن كذبوا ؛ قاله الكسائى. وقيل : بأن كذبوا . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « ثم كان عاقبةُ الذين » بالرفع اسم كان، وذُكِّرت لأن تأنيثها غير حقيق . و «السوءى» خبر كان . والباقون بالنصب على خبر كان . « السوءى » بالرفع آسم كان . ويجوز أن يكون آسمها التكذيب ؛ فيكون التقدير : ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساءوا، ويكون السوءى مصدرا لأساءوا، أو صفة لمحذوف؛ أى الخَلّة السوءى . وروى عن الأعمش أنه قرأ « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء » برفع السوء . قال النحاس : السوء أشد الشر ؛ والسوءى الفُعْلَى منه . ﴿ أنْ كَذَّبُوا بآياتِ الله ﴾ قيل بمحمد والقرآن ؛ قاله الكلبي . مقاتل : بالعذاب أن ينزل بهم . الضحاك : بمعجزات محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾

قرأ أبو عمرو وأبو بكر « يرجعون » بالياء . الباقون بالتاء . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي « يُبْلَس » بفتح اللام : والمعروف في اللغة : أبلس الرجل إذا سكت وآنقطعت حجته، ولم يؤمّل أن تكون له حجة . وقريب منه تحيّر؛ كما قال العجاج :

يا صاحِ هل تعرِفُ رَسْمًا مُكْرَسا ٭ قال نعم أعرِفُه وأَبْلَسا[1]

(١) المكرس : الذى قد بعرت فيه الابل و بوّلت فركب بعضه بعضا .

وقد زعم بعض النحويين أن إبليس مشتق من هذا ، وأنه أبلس لأنه انقطعت حجته . النحاس : ولو كان كما قال لوجب أن ينصرف، وهو فى القرآن غير منصرف . وقال الزجاج : المُبْلِس الساكت المنقطع فى حجته، اليائس من أن يهتدى إليها . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ ﴾ أى ما عبدوه من دون الله . ﴿ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ قالوا : ليسوا بآلهة؛ تبرءوا منها وتبرأت منهم؛ حسبما تقدم فى غير موضع .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ يعنى المؤمنين من الكافرين ؛ ثم بين كيف تفريقهم فقال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال النحاس : سمعت الزجاج يقول : معنى « أمّا » دع ما كنا فيه وخذ فى غيره . وكذا قال سيبويه : إن معناها مهما كنا فى شىء فخذ فى غير ما كنا فيه . ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال الضحاك : الروضة الجنة، والرياض الجنان . وقال أبو عبيد : الروضة ما كان فى تَسَفُّل، فإذا كانت مرتفعة فهى تُرْعة . وقال غيره أحسن ما تكون الروضة إذا كانت فى موضع مرتفع غليظ؛ كما قال الأعشى :

ما رَوْضَةٌ من رياض الحَزْن مُعْشِبَةٌ * خَضْرَاءُ جاد عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ (١)
يضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ * مُؤَزَّرٌ بعميم النَّبْتِ مُكْتَهِلُ (٢)
يومًا بأطيبَ منها نَشْرَ رائحةٍ * ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأُصُلُ (٣)

إلا أنه لا يقال لها روضة إلا إذا كان فيها نبت ، فإن لم يكن فيها نبت وكانت مرتفعة فهى تُرعة . وقد قيل فى الترعة غير هذا . وقال القُشَيْرىّ : والروضة عند العرب ما ينبت حول

(١) رياض الحزن أحسن من رياض الخفوض لارتفاعها . (٢) قوله : « يضاحك الشمس » أى يدور معها حيثما دارت . وكوكب كل شىء معظمه . والمراد هنا الزهر . ومؤزر : مفعل من الإزار . والشرق : الريان الممتلىء ماء . والعميم : التام السن . والمكتهل : الذى قد بلغ وتم . (٣) النشر : الرائحة الطيبة . والأُصُل : جمع أصيل ؛ وخص هذا الوقت لأن المنبت يكون فيه أحسن ما يكون لتباعد الشمس والفىء عنه .

الغـدير من البقول ؛ ولم يكن عند العرب شيء أحسن منه . الجوهرى : والجمع روض ورياض ؛ صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها ؛ والروض : نحوٌ من نصف القِرْبة ماء . وفي الحوض روْضة من ماء إذا غطّى أسفله . وأنشد أبو عمرو :

* وَرَوضةٍ سَقيتُ منها نِضوتى (١) *

﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ قال الضحاك وابن عباس : يكرمون . وقيل ينعّمون ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل يسرّون . السُّدّى : يفرحون . والحَبْرة عند العرب : السرور والفرح ؛ ذكره الماوَرْدى . وقال الجوهرى : والحَبْر : الحُبُور وهو السرور ؛ ويقال : حبره يحبره (بالضم) حَبْراً وحَبْرة ؛ قال تعالى : «فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ» أى ينعمون ويكرمون ويُسَرّون . ورجل يَحْبور (٢) يفعول من الحبور . النحاس: وحكى الكسائى حبرته أى أكرمته ونعّمته . وسمعت علىّ بن سليمان يقول : هو مشتق من قولهم على أسنانه حَبْرة أى أثر؛ فـ« يحبرون » يتبين عليهم أثر النعيم . والحِبْر مشتق من هذا . قال الشاعر :

لا تملأ الدّلو وعَرِّق (٣) فيها * أما تَرَى حَبارَ مَن يَسقيها

وقيل : أصله من التحبير وهو التحسين ؛ فـ« يحبرون » يحسّنون . يقال: فلان حَسَن الحِبر والسِّبْر إذا كان جميلا حسن الهيئة . ويقال أيضا : فلان حسن الحَبْر والسَّبْر (بالفتح)؛ وهذا كأنه مصدر قولك : حَبَرته حَبْرا إذا حسّنته . والأول اسم ؛ ومنه الحديث " يخرج رجل من النار ذهب حِبْره وسِبْره " وقال يحيى بن أبى كثير «فى رَوْضَة يُحْبَرُون» قال : السماع (٤) فى الجنة؛ وقاله الأوزاعى ، قال : إذا أخذ أهل الجنة فى السماع (٤) لم تبق شجرة فى الجنة إلا وردّت الغناء بالتسبيح والتقديس . وقال الأوزاعى : ليس أحد من خلق الله أحسنَ صوتا من إسرافيل، فإذا أخذ فى السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم . زاد غير الأوزاعى : ولم تبق شجرة فى الجنة إلا وردّت، ولم يبق ستر ولا باب إلا أُرْتِجَ وآنفتح ، ولم تبـق حَلْقة

---

(١) النضو : الدابة التى أهزلتها الأسفار .
(٢) اليحبور : الناعم من الرجال .
(٣) أعرقت الكأس وعرّقتها : أقللت ماءها
(٤) السماع : الغناء .

إلا طنّت بألوان طنينها، ولم تبق أجمة من آجام الذهب إلا وقع أهبوب الصوت فى مقاصبها فزمّرت تلك المقاصب بفنون الزمر، ولم تبق جارية من جوار الحور العين إلا غنّت بأغانيها والطير بألحانها ، ويوحى الله تبارك وتعالى إلى الملائكة أن جاوبوهم وأسمعوا عبادى الذين نزّهوا أسماعهم عن مزامير الشيطان فيجاوبون بألحان وأصوات روحانيين فتختلط هذه الأصوات فتصير رجة واحدة، ثم يقول الله جل ذكره يا داود قم عند ساق عرشى فمجّدنى؛ فيندفع داود بتمجيد ربّه بصوت يغمر الأصوات ويجليها(١) وتتضاعف اللذة؛ فذلك قوله تعالى « فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ » . ذكره الترمذىّ الحكيم رحمه الله . وذكر الثعلىّ من حديث أبى الدّرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذكر الناس ، فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم؛ وفى أخريات القوم أعرابىّ فقال : يا رسول الله، هل فى الجنة من سماع؟ فقال : " نعم يا أعرابىّ إن فى الجنة لنهرا حافتاه الأبكار من كل بيضاء خمصانية يتغنّين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة " فسأل رجل أبا الدّرداء : بماذا يتغنّين ؟ فقال : بالتسبيح . والخمصانيّة : المرهفة الأعلى، الخمصانة البطن الضخمة الأسفل .

قلت : وهذا كله من النعيم والسرور والإكرام، فلا تعارض بين تلك الأقوال، وأين هذا من قوله الحق : «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ»(٢) على ما يأتى . وقوله عليه السلام "فيها مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر" . وقد روى : " إن فى الجنة لأشجارا عليها أجراس من فضة فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحا من تحت العرش فتقع فى تلك الأشجار فتحرك تلك الأجراس(٣) بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربا " . ذكره الزّمخشرىّ .

---

(١) فى بعض نسخ الأصل « ويحليها » بالحاء المهملة . وفى كتاب التذكرة : « ويجليها » بالخاء المعجمة .
(٢) آية ١٧ سورة السجدة . (٣) فى الأصول : « الأجراس » .

قوله تعالى : وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ تقدم الكلام فيه . ﴿ وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾ أى بالبعث . ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أى مقيمون . وقيل مجموعون . وقيل معذبون . وقيل نازلون ؛ ومنه قوله تعالى : « إذا حَضَرَ أحدَكُمُ المَوْتُ » أى نزل به ؛ قاله ابن شجرة ، والمعنى متقارب .

قوله تعالى : فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾

فيــه ثلاث مسـائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ فيــه ثلاثة أقوال : الأوّل ــ أنه خطاب للؤمنين بالأمر بالعبادة والحضّ على الصلاة فى هذه الأوقات . قال ابن عباس : الصلوات الخمس فى القرآن ؛ قيل له : أين ؟ فقال : قال الله تعالى « فسبحان الله حين تمسون » صلاة المغرب والعشاء « وحين تُصبحُونَ » صــلاة الفجر « وَعَشِيًّا » العصر « وَحِينَ تُظْهِرُونَ » الظهر ؛ وقاله الضحاك وسـعيد بن جبير . وعن ابن عبـاس أيضا وقتادة أن الآية تنبيه على أربع صـلوات : المغرب والصبح والعصر والظهر ؛ قالوا : والعشاء الآخرة هى فى آية أخرى «وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ» (١) وفى ذكر أوقات العورة . وقال النحاس : أهل التفسير على أن هذه الآية « فسبحان الله حين تُمْسُونَ وحين تُصْبِحون » فى الصلوات . وسمعت علىّ بن سليمان يقول : حقيقته عندى فسبّحوا الله فى الصلوات ، لأن التسبيح يكون فى الصلاة ؛ وهو القول الثانى . والقول الثالث ــ فسبّحوا الله حين تمسون وحين تصبحون ؛ ذكره المـاوَرْدى . وذكر القول

(١) آية ١١٤ سورة هود .

الأوّل، ولفظه فيه : فصلوا لله حين تمسون وحين تصبحون . وفى تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان : أحدهما — لما تضمّنها من ذكر التسبيح فى الركوع والسجود . الثانى — مأخوذ من السُّبْحة والسبحةُ الصلاة ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " تكون لهم سُبْحة يوم القيامة " أى صلاة .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ اعتراض بين الكلام بدعوب الحمد على نعمه وآلائه . وقيل : معنى «وله الحمد» أى الصلاة له لاختصاصها بقراءة الحمد . والأوّل أظهر؛ فان الحمد لله من نوع تعظيم الله تعالى والحضّ على عبادته ودوام نعمته فيكون نوعا آخر خلاف الصلاة ، والله أعلم . وبدأ بصلاة المغرب لأن الليل يتقدّم النهار . وفى سورة «سبحانَ»(١) بدأ بصلاة الظهر إذ هى أوّل صلاة صلاها جبريل بالنبى صلى الله عليه وسلم . المـاوَرْدىّ : وخصّ صلاة الليل باسم التسبيح وصلاة النهار باسم الحمد لأن للانسان فى النهار متقلَّباً فى أحوالٍ توجب حمد الله تعالى عليها ، وفى الليل على خلوة توجب تنزيه الله من الأسواء فيها ؛ فلذلك صار الحمد بالنهار أخص فسُمّيت به صلاة النهار، والتسبيح بالليـل أخصّ فسُمّيت به صلاة الليل .

الثالثــة — قرأ عكرمة « حِينًا تُمْسُونَ وحِينًا تُصبحون » والمعنى : حينا تمسون فيه وحينا تصبحون فيه ؛ فحذف «فيه» تخفيفا ، والقول فيه كالقول فى « وَٱتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شيئا »(٢) . ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ قال الجَوْهرىّ : العَشِىّ والعَشِيّة من صلاة المغرب إلى العَتَمة؛ تقول : أتيته عشِيّةَ أمسِ وعَشِىّ أمسِ . وتصغير العشِىّ : عُشَيّانٌ ، على غير [قياس] مُكَبَّره ؛ كأنهم صغروا عَشْياناً ، والجمع عُشَيّانات . وقيـل أيضا فى تصغيره : عُشَيْشِيَان ، والجمع عُشَيْشِيَات . وتصغير العَشِيّة عُشَيْشية ، والجمع عُشَيْشِيات . والعِشاء (بالكسر والمد) مثل العشِىّ . والعِشاءان المغرب والعَتَمة . وزعم قوم أن العِشاء من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، وأنشدوا :

غَدَوْنا غُدْوَةً سَحَــرًا بليـــلٍ * عِشاءً بعــد ما ٱنتصف النهارُ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣١٠ (٢) راجع جـ ١ ص ٣٧٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

الماوردى : والفرق بين المساء والعشاء أن المساء بدو الظلام بعد المغيب، والعشاء آخر النهار عند ميل الشمس للغيب، وهو مأخوذ من عشا العين وهو نقص النور من الناظر كنقص نور الشمس .

قوله تعالى : يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

بيّن كمال قدرته، أى كما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها كذلك يحييكم بالبعث . وفى هذا دليل على صحة القياس، وقد مضى فى «آل عمران» بيان «يخرج الحى من الميت»(١) .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٥٦

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ أى من علامات رُبُوبِيَّته ووحدانيته أن خلقكم من تراب ؛ أى خلق أباكم منه والفرع كالأصل ، وقد مضى بيان هذا فى « الأنعام »[1] . و « أَنْ » فى موضع رفع بالابتداء ، وكذا « أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا » .

﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ثم أنتم عقلاء ناطقون تتصرفون فيما هو قِوام معايشكم ، فلم يكن ليخلقكم عبثًا ؛ ومن قدر على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح . ومعنى :﴿ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى نساء تسكنون إليها . ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى من نطف الرجال ومن جنسكم . وقيل : المراد حوّاء ، خلقها من ضلع آدم ؛ قاله قتادة . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : المودّة الجماع ، والرحمة الولد ؛ وقاله الحسن . وقيل : المودّة والرحمة عطفُ قلوبهم بعضهم على بعض . وقال السُّدِّى : المودّةُ المحبةُ ، والرحمةُ الشفقةُ ؛ ورُوِى معناه عن ابن عباس قال : المودّة حبُّ الرجل امرأته ، والرحمةُ رحمته إياها أن يصيبها بسوء . ويقال : إن الرجل أصله من الأرض ، وفيه قوّة الأرض ، وفيه الفرج الذى منه بُدِئَ خلقه فيحتاج إلى سَكَن ، وخُلقت المرأة سكنا للرجل ؛ قال الله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ » الآية . وقال : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا » فأوّل ارتفاق الرجل بالمرأة سكونه إليها مما فيه من غليان القوة ، وذلك أن الفرج إذا تحمّل[2] فيه هيج ماء الصلب إليه ، فإليها يسكن وبها يتخلص من الهياج ، وللرجال خُلق البُضْع منهنّ ، قال الله تعالى : « وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم »[3] فأعلم الله عز وجل الرجال أن ذلك الموضع خلق منهن للرجال ، فعليها بذله فى كل وقت يدعوها الزوج ؛ فإن منعته فهى ظالمة وفى حرج عظيم ؛ ويكفيك من ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها " . وفى لفظ آخر : " إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح " . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدم

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ (٢) كذا فى الأصل . (٣) راجع جـ ١٣ ص ١٣٢

في « البقرة » [1] وكانوا يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق . ﴿ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ اللّسان في الفم؛ وفيه اختلاف اللغات : من العربيّة والعجمية والتركية والرومية . واختلاف الألوان في الصور : من البياض والسواد والحمرة ، فلا تكاد ترى أحدا إلا وأنت تفرق بينه وبين الآخر، وليس هذه الأشياء من فعل النُّطفة ولا من فعل الأبوين؛ فلا بد من فاعل، فعُلِم أن الفاعل هو الله تعالى ؛ فهذا من أدلّ دليل على المدبر البارئ . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ [2] ﴾ أي للبرّ والفاجر . وقرأ حَفْص « للعالِمين » بكسر اللام جمع عالم . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ قيل : في هذه الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار؛ فحُذف حرف الجر لاتصاله بالليل وعطفه عليه ، والواو تقوم مقام حرف الجر إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر خاصة؛ فجعل النوم بالليل دليلا على الموت، والتصرفُ بالنهار دليلا على البعث. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ يريد سماع تفهم وتدبر. وقيل : يسمعون الحق فيتبعونه . وقيل: يسمعون الوعظ فيخافونه . وقيل : يسمعون القرآن فيصدّقونه ؛ والمعنى متقارب . وقيل : كان منهم من إذا تُلي القرآن وهو حاضر سدّ أذنيه حتى لا يسمع ، فبيّن الله عز وجل هذه الدلائل عليه . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ قيل : المعنى أن يريكم ، فحذف « أن » لدلالة الكلام عليه؛ قال طَرَفة :

ألا أيّهذا اللائمي أحْضُرُ الوَغَى * وأنْ أشهدَ اللّذاتِ هل أنت مُخْلِدِي

وقيل : هو على التقديم والتأخير ؛ أي ويريكم البرق من آياته . وقيل : أي ومن اياته آيةٌ يريكم بها البرق ؛ كما قال الشاعر [3] :

وما الدّهر إلا تارتان فمنهما * أموتُ وأخرى أبتغي العيش أكْدَحُ

وقيل : أي من آياته أنه يريكم البرق خوفا وطمعا من آياته ؛ قاله الزجاج ، فيكون عطف جملة على جملة . ﴿ خَوْفًا ﴾ أي للمسافر . ﴿ وَطَمَعًا ﴾ للقيم ؛ قاله قتادة . الضحاك :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٥١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) بفتح اللام قراءة نافع ، وبها كان يقرأ المؤلف
(٣) هو ابن مقبل ؛ كما في شواهد سيبويه والخزانة

« خوفا » من الصواعق، « وطمعا » فى الغيث . يحيى بن سلام : « خوفا » من البرد أن يهلك الزرع ، « وطمعا » فى المطر أن يحيي الزرع . ابن بحر : « خوفا » أن يكون البرق برقاً خُلّباً لا يمطر ، « وطمعا » أن يكون ممطرا ؛ وأنشد قول الشاعر :

لا يكن بَرْقُك برقاً خُلّبـا * إن خير البرق ما الغيث معه

وقال آخـر :

فقـد أرد المياه بغـير زاد * سوى عدّى لها برق الغمام

والبرق الخُلّب : الذى لا غيث فيـه كأنه خادع ؛ ومنه قيـل لمن يعد ولا يُنْجز : إنمـا أنت كبرق خُلّب . والخُلّب أيضا : السحاب الذى لا مطر فيـه . ويقال : بَرْقُ خُلّبٍ ، بالإضافة . ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ تقـدم . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ « أنْ » فى محل رفع كما تقدم ؛ أى قيامها واستمساكها بقدرته بلا عمد . وقيل : بتدبيره وحكمته ؛ أى يمسكها بغير عمد لمنافع الخلق . وقيل : «بأمره» بإذنه؛ والمعنى واحد . ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ أى الذى فعل هذه الأشياء قادر على أن يبعثكم من قبوركم؛ والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبّث ؛ كما يجيب الداعيَ المطاعَ مَدْعوُّه ؛ كما قال القائل :

دَعَـوْتُ كليبا بأسمـه فكأنمـا * دعوت برأس الطَّوْد أو هو أسرع [(١)]

يريد بأبن الطود [(٢)] : الصَّدىَ أو الحجـر إذا تَدَهْـده . وإنمـا عطف هـذا على قيام السموات والأرض بـ « ثم » لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثـاله ؛ وهو أن يقول يأهل القبور قوموا ؛ فلا تبقى نسـمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر ؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » [(٣)] . و« إذا » الأولى فى قوله تعـالى :

---

(١) رواية البيت كما فى اللسان .

دعوت جليـدا دعـوة فكأنمـا * دعوت به ابن الطود أو هو أسرع

قال . وأبن الطود : الجلمود الذى يتدهدى من الطود . والطود : الجبل العظيم . وتدهده الحجر : تدحرج . وفى كتاب ما يعول عليه : دعوت خليدا ... بالخاء المعجمة . (٢) فى الأصـول : « برأس » .

(٣) آية ٦٧ سـورة الزمر .

« إذا دعاكم » للشرط ، والثانية فى قوله تعالى : « إذا أنتم » للفاجأة ، وهى تنوب مناب الفاء فى جواب الشرط . وأجمع القراء على فتح التاء هنا فى « تخرجون » . واختلفوا فى التى فى « الأعراف » فقرأ أهل المدينة « ومنها تُخرجون »(١) بضم التاء ، وقرأ أهل العراق بالفتح ، وإليه يميل أبو عبيد . والمعنيان متقاربان ، إلا أن أهل المدينة فرقوا بينهما لنسق الكلام ، فنسقُ الكلام فى التى فى « الأعراف » بالضم أشبه إذ كان الموت ليس من فعلهم ، وكذا الإخراج . والفتح فى سورة الروم أشبه بنسق الكلام ؛ أى إذا دعاكم خرجتم أى أطعتم ؛ فالفعل [بهم](٢) أشبه . وهذا الخروج إنما هو عند نفخة إسرافيل النفخة الآخرة ؛ على ما تقدم ويأتى . وقرئ « تخرجون » بضم التاء وفتحها ، ذكره الزَّمَخْشَرِىّ ولم يزد على هذا شيئا ، ولم يذكر ما ذكرناه من الفرق ، والله أعلم . ﴿ وَلَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا وعبدا . ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ رُوى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " كلّ قنوت فى القرآن فهو طاعة " . قال النحاس : مطيعون طاعة انقياد . وقيل : « قانتون » مقرون بالعبودية ، إما قالة وإما دلالة ؛ قاله عكرمة وأبو مالك والسُّدّى . وقال ابن عباس « قانتون » مصلّون . الربيع بن أنس : « كل له قانتون » أى قائم يوم القيامة ؛ كما قال : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ »(٣) أى للحساب . الحسن : كل له قائم بالشهادة أنه عبد له . سعيد بن جُبير : « قانتون » مخلصون .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أمّا بدء خلقه فبعلوقه فى الرّحم قبل ولادته ، وأمّا إعادته فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث ؛ فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلا على ما يخفى من إعادته ؛ استدلالا بالشاهد على الغائب ، ثم أكّد ذلك بقوله

(١) آية ٢٥ (٢) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس . (٣) آية ٦ سورة المطففين .

﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وقرأ ابن مسعود وابن عمر « يُبْدِئُ الخلق » من أبدأ يبدئ؛ دليله قوله تعالى : « إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ »(١). ودليل قراءة العامة قوله سبحانه : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »(٢). و « أهون » بمعنى هين ؛ أى الإعادة هين عليه؛ قاله الرّبيع بن خُثيم والحسن . فأهون بمعنى هين ؛ لأنه ليس شيء أهونَ على الله من شيء . قال أبو عبيدة : ومن جعل أهون يعبر عن تفضيل شيء على شيء فقوله مردود بقوله تعالى : « وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً » وبقوله « وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا » . والعرب تحمل أفعل على فاعل، ومنه قول الفرزدق :

إن الذى سَمَكَ السماء بنى لنا * بيتا دعائمه أعزّ وأطول

أى دعائمه عزيزة طويلة . وقال آخر(٣) :

لَعَمْرُكَ ما أدرى وإنى لأَوْجَل * على أيّنا تَعْدُو المنّية أوّل

أراد : إنى لوجل . وأنشد أبو عبيدة أيضا :

إنى لأَمْنَحُك الصّدود وإننى * قَسَماً إليك مع الصُّدود لأَمْيَلُ(٤)

أراد لمائل . وأنشد أحمد بن يحيى :

تمنّى رجال أن أموت وإن أمُتْ * فتلك سبيلٌ لست فيها بأَوْحَد

أراد بواحد . وقال آخر :

لعمرك إن الزِّبرقان لباذل * لمعروفه عند السنينَ وأفضل

أى وفاضل . ومنه قولهم : الله أكبر؛ إنما معناه الله الكبير . وروى معمر عن قتادة قال : فى قراءة عبد الله بن مسعود « وهو عليه هين » . وقال مجاهد وعكرمة والضحاك : إن المعنى أن الإعادة أهون عليه — أى على الله — من البداية؛ أى أيسر وإن كان جميعه على الله تعالى هينا؛ وقاله ابن عباس . ووجهه أن هذا مَثَل ضربه الله تعالى لعباده؛ يقول : إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه؛ فينبغى أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم

---

(١) آية ١٣ سورة البروج . (٢) آية ٢٩ سورة الأعراف . (٣) القائل هو معن بن أوس .

(٤) البيت للأحوص بن محمد الأنصارى .

أهونَ عليه من الإنشاء . وقيل : الضمير فى «عليه» للمخلوقين؛ أى وهو أهون عليه، أى على الخلق، يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ويقال لهم : كونوا فيكونون ؛ فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نُطَفًا ثم عَلَقا ثم مُضَغا ثم أجِنّة ثم أطفالا ثم غلمانا ثم شبانا ثم رجالا أو نساء . وقاله ٱبن عباس وقُطْرُب . وقيل : أهون أسهل؛ قال :

وهان على أسماء أن شطّت النّوَى * يحنّ إليها والِهٌ ويتوق

أى سهل عليها ، وقال الربيع بن خُثَيم فى قوله تعالى « وهو أهون عليه » قال : ما شيء على الله بعزيز. عِكْرمة : تعجّب الكفار من إحياء الله الموتى فنزلت هذه الآية . ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أى ما أراده جلّ وعزّ كان . وقال الخليل : المَثَل الصفة؛ أى وله الوصف الأعلى ﴿ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ كما قال : «مَثَلُ الجَنَّةِ التِي وُعِد المُتَّقُونَ» (١) أى صفتها . وقد مضى الكلام فى ذلك . وعن مجاهد : « المثل الأعلى » قولُ لا إله إلا الله ؛ ومعناه : أى الذى له الوصف الأعلى، أى الأرفع الذى هو الوصف بالوحدانية . وكذا قال قتادة : إن المثل الأعلى شهادةُ أن لا إله إلا الله؛ ويَعْضُده قوله تعالى : «ضَرب لكم مَثَلاً من أنفُسكم » على ما نبيّنه آنفا إن شاء الله تعالى . وقال الزجاج : « وله المثل الأعلى فى السموات والأرض » أى قوله « وهو أهون عليه» قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب ويسهل؛ يريد التفسير الأوّل . وقال ابن عباس : أى ليس كمثله شيء . ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٢) تقدم .

قوله تعالى : ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة ، وجـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

فيـه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ثم قال ﴿ مِنْ شُرَكَاءَ ﴾ ، ثم قال ﴿ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ فـ « من » الأولى للابتداء ؛ كأنه قال : أخذ مثلا وانتزعه من أقرب شيء منكم وهى أنفسكم . والثانية للتبعيض ، والثالثة زائدة لتأكيد الاستفهام . والآية نزلت فى كفار قريش ، كانوا يقولون فى التلبية : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ؛ قاله سعيد بن جبير . وقال قتادة : هذا مَثَل ضربه الله للشركين ؛ والمعنى : هل يرضى أحدكم أن يكون مملوكه فى ماله ونفسه مثله ، فإذا لم ترضوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء .

الثانيـة — قال بعض العلماء : هـذه الآية أصل فى الشركة بين المخلوقين لافتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه ، وذلك أنه لما قال جلّ وعزّ : «ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم » الآية فيجب أن يقولوا : ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقتنا ! فيقال لهم : فكيف يتصور أن تنزهوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدى شركائى فى خلقى ؛ فهذا حكم فاسد وقلة نظر وعَمى قلب ، فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة والخلق كلهم عبيد لله تعالى فيبطل أن يكون شيء من العالم شريكا لله تعالى فى شيء من أفعاله ؛ فلم يبق إلا أنه واحد يستحيل أن يكون له شريك ، إذ الشركة تقتضى المعاونة ، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضا بالمال والعمل ، والقديمُ الأزلىّ منزه عن ذلك جلّ وعزّ . وهـذه المسألة أفضل للطالب من حفظ ديوان كامل فى الفقه ؛ لأن جميع العبادات البدنية لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة فى القلب ، فافهم ذلك .

قوله تعالى : بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ لما قامت عليهم الحجة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم فى عبادتها وتقليد الأسلاف فى ذلك . ﴿ فَمَنْ يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللهُ ﴾ أى لا هادى لمن أضله الله تعالى . وفى هذا ردّ على القدرية ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ .

قوله تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـ قال الزجاج : « فِطرةَ » منصوب بمعنى ٱتبع فطرة الله . قال : لأن معنى «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ» ٱتبع الدّين الحنيف وٱتبع فطرة الله . وقال الطبري : «فطرة الله» مصدر من معنى «فأقم وجهك» لأن معنى ذلك : فطر الله الناس على ذلك فِطرة . وقيل : معنى ذلك ٱتبعوا دين الله الذى خلق الناس له ؛ وعلى هذا القول يكون الوقف على « حنيفا » تاما . وعلى القولين الأولين يكون متصلا ، فلا يوقف على « حنيفا » . وسميت الفِطْرة دينًا لأن الناس يخلقون له ، قال جلّ وعزّ : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »(١) . ويقال «عليها» بمعنى لها ؛ كقوله تعالى : «وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا»(٢) . والخطاب بـ«أقم وجهك» للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، أمره بإقامة وجهه للدين المستقيم ؛ كما قال : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ »(٣) وهو دين الإسلام . وإقامة الوجه هو تقويم المقصد والقوة على الجدّ فى أعمال الدّين ؛ وخصّ الوجه بالذكر لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفُه . ودخل فى هذا الخطاب أمّتُه بٱتفاق من أهل التأويل . و«حنيفا» معناه معتدلا مائلا عن جميع الأديان المحرّفة المنسوخة .

الثانيــة ـ فى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا يولد على الفِطرة ـ فى رواية : على هذه الملة ـ أبواه يُهَوّدانه ويُنَصّرانه ويُمَجّسانه كما تُنْتَج البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء(٤) هل تُحِسّون فيها من جدعاء " ثم يقول أبو هريرة : وٱقرءوا إن شئتم « فِطْرَةَ اللهِ التى فَطَرَ الناس عليها لا تبديل لخلق الله » ، فى رواية : " حتى

(١) آية ٥٦ سورة الذاريات . (٢) آية ٧ سورة الإسراء . (٣) آية ٤٣ من هذه السورة .

(٤) أى سليمة من العيوب مجتمعة الأعضاء كاملتها .

تكونوا أنتم تجدعونها " قالوا يا رسول الله ، أفرأيتَ من يموت صغيرا؟ قال : " الله أعلم بما كانوا عاملين " . لفظ مسلم .

الثالثة — واختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعدّدة ؛ منها الإسلام ؛ قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرهما ؛ قالوا : وهو المعروف عند عامّة السلف من أهل التأويل ؛ واحتجوا بالآية وحديث أبي هريرة ، وعَضَدوا ذلك بحديث عِياض بن حِمار المُجاشِعيّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس يوما : " ألاَ أحدّثكم بما حدّثني الله في كتابه أن الله خلق آدم و بنيه حنفاء مسلمين وأعطاهم المال حلالا لا حرام فيه فجعلوا مما أعطاهم الله حلالا وحراما ... " الحديث . و بقوله صلى الله عليه وسلم : " خمس من الفطرة ..." فذكر منها قصّ الشارب ، وهو من سنن الإسلام ؛ وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث : أن الطفل خلق سليما من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه وأنهم اذا ماتوا قبل أن يُدرِكوا في الجنة ؛ أولادَ مسلمين كانوا أو أولادَ كفار . وقال آخرون : الفطرة هي البداءة التي ابتدأهم الله عليها ؛ أي على مافطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء ، و إلى ما يصيرون إليه عند البلوغ . قالوا : والفطرة في كلام العرب البداءة . والفاطر : المبتدئ ؛ واحتجوا بما روى عن ابن عباس أنه قال : لم أكن ما أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ؛ أي ابتدأتها . قال المَرْوَزيّ : كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ثم تركه . قال أبو عمر في كتاب التمهيد له : ما رسمه مالك في موطّئه وذكر في باب القدر فيه من الآثار يدل على أن مذهبه في ذلك نحو هذا ، والله أعلم . ومما احتجوا به ما رُوى عن كعب القُرَظي في قول الله تعالى : « فَرِيقًا هَدَى وفَرِيقًا حَقَّ عليهمُ الضَّلَالَةُ »(١) قال : من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيره إلى الضلالة و إن عمل بأعمال الهُدَى ، ومن ابتدأ الله خلقه على الهُدَى صيّره إلى الهدى و إن عمل بأعمال الضلالة ، ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة ، ثم ردّه الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه ، قال : وكان من الكافرين .

(١) آية ٣٠ سورة الأعراف ، راجع جـ ٧ ص ١٨٨

قلت : قد مضى قول كعب هذا في «الأعراف» وجاء معناه مرفوعا من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : دُعي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة غلام من الأنصار فقلت : يا رسول الله، طُوبَى لهذا عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه . قال : "أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم" خرّجه ابن ماجه في السنن. وخرّج أبو عيسى الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال : "أتدرون ما هذان الكتابان" ؟ فقلنا : لا يا رسول الله، إلّا أن تخبرنا؛ فقال للذي في يده اليمنى : "هذا كتاب من ربّ العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا — ثم قال للذي في شماله — هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا ..." وذكر الحديث وقال فيه : حديث حسن . وقالت فرقة : ليس المراد بقوله تعالى «فَطَرَ النَّاسَ عليها» ولا قوله عليه السلام : "كل مولود يولد على الفطرة" العمومَ ، وإنما المراد بالناس المؤمنون؛ إذ لو فُطر الجميع على الإسلام لما كفر أحد، وقد ثبت أنه خلق أقواما للنار ؛ كما قال تعالى : «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ»(1) وأخرج الذرّية من صلب آدم سوداء وبيضاء . وقال في الغلام الذي قتله الخَضِر : طبع يوم طبع كافرا . وروى أبو سعيد الخُدْري قال : صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر بنهار(2) ؛ وفيه : وكان فيما حفِظْنا أن قال : "ألَا إن بني آدم خُلقوا طبقات شتّى فمنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا ومنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت كافرا ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت مؤمنا ومنهم حسن القضاء حَسَن الطلب" . ذكره حماد بن سلمة في مسند الطيالسي قال : حدثنا عليّ بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد . قالوا : والعموم بمعنى الخصوص كثير في لسان العرب؛ ألا ترى إلى قوله

(1) آية ١٧٩ سورة الأعراف . (2) اي والشمس عالية .

عز وجل : « تدمر كل شيء »(١) ولم تدمر السموات والأرض . وقوله « فتحنا عليهم أبواب كل شيء »(٢) ولم تفتح عليهم أبواب الرحمة . وقال إسحاق بن راهويه الحنظلي : تم الكلام عند قوله « فأقم وجهك للدين حنيفا » ثم قال « فطرة الله » أى فطر الله الخلق فطرة إما بجنة أو نار ، وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله "كل مولود يولد على الفطرة" ولهذا قال : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ قال شيخنا أبو العباس : من قال هى سابقة السعادة والشقاوة فهذا إنما يليق بالفطرة المذكورة فى القرآن ؛ لأن الله تعالى قال « لا تبديل لخلق الله » وأما فى الحديث فلا ؛ لأنه قد أخبر فى بقية الحديث بأنها تبدل وتغير . وقالت طائفة من أهل الفقه والنظر : الفطرة هى الخلقة التى خلق عليها المولود فى المعرفة بربه ؛ فكأنه قال : كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة ؛ يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم التى لا تصل بخلقتها إلى معرفته . واحتجوا على أن الفطرة الخلقة ، والفاطر الخالق ؛ لقول الله عز وجل « الحمد لله فاطر السموات والأرض » يعنى خالقهن ، وبقوله « وما لى لا أعبد الذى فطرنى »(٣) يعنى خلقنى ، وبقوله « الذى فطرهن »(٤) يعنى خلقهن . قالوا : فالفطرة الخلقة ، والفاطر الخالق ؛ وأنكروا أن يكون المولود يفطر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار . قالوا : وإنما المولود على السلامة فى الأغلب خلقة وطبعا وبنية ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة ؛ ثم يعتقدون الكفر والإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا . واحتجوا بقوله فى الحديث "كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء — يعنى سالمة — هل تحسون فيها من جدعاء" يعنى مقطوعة الأذن . فمثل قلوب بنى آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة الخلق ليس فيها نقصان ، ثم تقطع آذانها بعد وأنوفها ؛ فيقال : هذه بحائر وهذه سوائب(٥) . يقول : فكذلك قلوب الأطفال فى حين ولادتهم ليس لهم كفر ولا إيمان ولا معرفة ولا إنكار كالبهائم السائمة ، فلما بلغوا استهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم ، وعصم الله أقلهم . قالوا : ولو كان الأطفال قد فطروا على شيء من الكفر والإيمان فى أولية أمورهم ما انتقلوا عنه أبدا ، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون . قالوا :

(١) آية ٢٥ سورة الأحقاف . (٢) آية ٤٤ سورة الأنعام . (٣) آية ٢٢ سورة يس .
(٤) آية ٥٦ سورة الأنبياء . (٥) راجع جـ ٦ ص ٣٣٥ فى معنى البحيرة والسائبة

ويستحيل فى المعقول أن يكون الطفل فى حين ولادته يعقل كفرا أو إيمانا، لأن الله أخرجهم فى حال لا يفقهون معها شيئا، قال الله تعالى : « وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا »(1) فمن لا يعلم شيئا استحال منه كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار . قال أبو عمر بن عبد البر : هذا أصح ما قيل فى معنى الفطرة التى يولد الناس عليها . ومن الحجة أيضا فى هذا قوله تعالى : « إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »(2) و « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ »(3) ومن لم يبلغ وقت العمل لم يرتهن بشىء . وقال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »(4) . ولما أجمعوا على دفع القود والقصاص والحدود والآثام عنهم فى دار الدنيا كانت الآخرة أولى بذلك . والله أعلم . ويستحيل أن تكون الفطرة المذكورةُ الإسلامَ، كما قال ابن شهاب ؛ لأن الإسلام والإيمان قولٌ باللسان واعتقادٌ بالقلب وعملٌ بالجوارح ، وهذا معدوم من الطفل، لا يجهل ذلك ذو عقل ؛ وأما قول الأوزاعى : سألت الزهرى عن رجل عليه رقبة أيجزى عنه الصبى أن يعتقه وهو رضيع ؟ قال نعم ؛ لأنه وُلد على الفطرة يعنى الإسلام ؛ فإنما أجزى عتقه عند من أجازه لأن حكمه حكمُ أبويه . وخالفهم آخرون فقالوا : لا يجزى فى الرقاب الواجبة إلا من صام وصلى ، وليس فى قوله تعالى : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »(5) ولا فى "أن يختم الله للعبد بما قضاه له وقدره عليه" دليل على أن الطفل يولد حين يولد مؤمنا أو كافرا ؛ لما شهدت له العقول أنه فى ذلك الوقت ليس ممن يعقل إيمانا ولا كفرا، والحديث الذى جاء فيه : "أن الناس خلقوا على طبقات" ليس من الأحاديث التى لا مطعن فيها ؛ لأنه انفرد به علىّ بن زيد بن جُدْعان، وقد كان شعبة يتكلم فيه . على أنه يحتمل قوله "يولد مؤمنا" أى يولد ليكون مؤمنا ، ويولد ليكون كافرا على سابق علم الله فيه ، وليس فى قوله فى الحديث "خلقت هؤلاء للجنة وخلقت هؤلاء للنار" أكثرُ من مراعاة ما يختم به لهم ؛ لا أنهم فى طفولتهم ممن يستحق جنة أو نارا ، أو يعقل كفرا أو إيمانا

---

(1) آية ٧٨ سورة النحل . (2) آية ١٦ سورة الطور . (3) آية ٣٨ سورة المدثر .
(4) آية ١٥ سورة الإسراء . (5) آية ٢٩ سورة الأعراف .

قلت : وإلى ما اختاره أبو عمر واحتج له ذهب غير واحد من المحققين منهم ابن عطية في تفسيره في معنى الفطرة، وشيخنا أبو العباس . قال ابن عطية : والذى يعتمد عليه فى تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التى فى نفس الطفل التى هى معدّة ومهيّأة لأن يميّز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدل بها على ربّه ويعرف شرائعه ويؤمن به ؛ فكأنه تعالى قال أقم وجهك للدّين الذى هو الحنيف، وهو فِطْرة الله الذى على الإعداد له فطر البشر، لكن تعرضهم العوارض؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يُهوّدانه أو يُنَصّرانه" فذكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التى هى كثيرة . وقال شيخنا فى عبارته : إن الله تعالى خلق قلوب بنى آدم مؤهلة لقبول الحق كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودينَ الإسلام وهو الدين الحق . وقد دلّ على صحة هذا المعنى قوله "كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء هل تُحِسّون فيها من جَدْعاء" يعنى أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلقة سليما من الآفات، فلو تُرك على أصل تلك الخلقة لبقى كاملا بريئا من العيوب، لكن يُتصرّف فيه فيُجدع أذنه ويُوسم وجهه فتطرأ عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل . وكذلك الإنسان، وهو تشبيه واقع ووجهه واضح .

قلت : وهذا القول مع القول الأوّل موافق له فى المعنى ، وأن ذلك بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا وتأكدت حجة الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة من خلق السموات والأرض والشمس والقمر والبر والبحر واختلاف الليل والنهار ، فلما عملت أهواؤهم فيهم أتتهم الشياطين فدعتهم إلى اليهودية والنصرانية فذهبت بأهوائهم يمينا وشمالا، وأنهم إن ماتوا صغارا فهم فى الجنة، أعنى جميع الأطفال ، لأن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه فى صورة الذّر أقرّوا له بالرّبوبية وهو قوله تعالى : «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ(١) وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا(٢)» . ثم أعادهم فى صلب آدم بعد أن أقرّوا له بالربوبية، وأنه الله لا إله غيره، ثم يُكتب العبد فى بطن أمه شقيا أو سعيدا على

(١) قراءة نافع، وبها كان يقرأ المؤلف . (٢) آية ١٧٢ سورة الأعراف .

الكتاب الأول ؛ فمن كان فى الكتاب الأول شقيا عمّر حتى يجرى عليه القلم فينقض الميثاق الذى أخذ عليه فى صلب آدم بالشرك ، ومن كان فى الكتاب الأول سعيدا عمّر حتى يجرى عليه القلم فيصير سعيدا ، ومن مات صغيرا من أولاد المسلمين قبل أن يجرى عليه القلم فهم مع آبائهم فى الجنة ، ومن كان من أولاد المشركين فمات قبل أن يجرى عليه القلم فليس يكونون مع آبائهم ؛ لأنهم ماتوا على الميثاق الأول الذى أخذ عليهم فى صلب آدم ولم ينقض الميثاق . ذهب إلى هذا جماعة من أهل التأويل ، وهو يجمع بين الأحاديث ، ويكون معنى قوله عليه السلام لما سئل عن أولاد المشركين فقال : "الله أعلم بما كانوا عاملين" يعنى لو بلغوا . ودل على هذا التأويل أيضا حديث البخارى عن سَمُرة بن جُنْدُب عن النبى صلى الله عليه وسلم الحديثُ الطويل حديثُ الرؤيا ، وفيه قوله عليه السلام : "وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فإبراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة" . قال فقيل . يا رسول الله ، وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وأولاد المشركين" . وهذا نصّ يرفع الخلاف ، وهو أصح شىء رُوى فى هذا الباب وغيره من الأحاديث فيها علل وليست من أحاديث الأئمة الفقهاء ؛ قاله أبو عمر بن عبد البر . وقد روى من حديث أنس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال : "لم تكن لهم حسنات فيجزَوا بها فيكونوا من ملوك الجنة ولم تكن لهم سيئات فيعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار فهم خدم لأهل الجنة" ذكره يحيى بن سلام فى التفسير له . وقد زدنا هذه المسألة بيانا فى كتاب التذكرة ، وذكرنا فى كتاب المقتبس فى شرح موطأ مالك بن أنس ما ذكره أبو عمر من ذلك ، والحمد لله . وذكر إسحاق بن راهويه قال : حدثنا يحيى بن آدم قال أخبرنا جرير بن حازم عن أبى رجاء العُطارِدى قال سمعت ابن عباس يقول : لا يزال أمر هذه الأمة مواتيا أو متقاربا ــ أو كلمة تشبه هاتين ــ حتى يتكلموا أو ينظروا فى الأطفال والقدَر . قال يحيى بن آدم فذكرته لابن المبارك فقال : أيسكت الإنسان على الجهل؟ قلت : فتأمر بالكلام؟ قال فسكت . وقال أبو بكر الوراق : « فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » هى الفقر والفاقة وهذا حسن ؛ فإنه منذ ولد إلى حين يموت فقير محتاج ، نعم ! وفى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ أى هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق . ولا يجيء الأمر على خلاف هذا بوجه ؛ أى لا يشقى من خلقه سعيدا ، ولا يسعد من خلقه شقيًا . وقال مجاهد : المعنى لا تبديل لدين الله ، وقاله قتادة وابن جُبير والضحاك وابن زيد والنَّخَعِيّ ، قالوا : هذا معناه فى المعتقدات . وقال عكرمة : وروى عن ابن عباس وعمر ابن الخطاب أن المعنى لا تغيير لخلق الله من البهائم أن تخصى فحولها ؛ فيكون معناه النهى عن خصاء الفحول من الحيوان . وقد مضى هذا فى « النساء »(١) . ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى ذلك القضاء المستقيم ؛ قاله ابن عباس . وقال مُقاتل : ذلك الحساب البيّن . وقيل : « ذلك الدّين القيّم » أى دين الإسلام هو الدين القيم المستقيم . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقا معبودا ، وإلهًا قديما سبق قضاؤه ونفذ حكمه .

قوله تعالى : مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ اختلف فى معناه ، فقيل : راجعين إليه بالتوبة والإخلاص . وقال يحيى بن سلام والفرّاء : مقبلين إليه . وقال عبد الرحمن بن زيد : مطيعين له . وقيل : تائبين إليه من الذنوب ؛ ومنه قول [أبى] قيس بن الأَسْلَت :

فإن تابوا فإن بنى سليم * وقومهم هوازن قد أنابوا

والمعنى واحد ؛ فإن « ناب وتاب وثاب وآب » معناه الرجوع . قال الماوَرْدِيّ : وفى أصل الإنابة قولان : أحدهما — أن أصله القطع ؛ ومنه أُخِذ اسم الناب لأنه قاطع ؛ فكأن الإنابة هى الانقطاع إلى الله عزّ وجلّ بالطاعة . الثانى — أصله الرجوع ؛ مأخوذ من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد أخرى ؛ ومنها النَّوْبة لأنها الرجوع إلى عادة . الجوهرى :

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٨٩ وما بعدها .

وأناب إلى الله أقبل وتاب . والنَّوْبة واحدة النُّوَب ، تقول : جاءت نَوْبتك ونيابتك ، وهم يتناوبون النَّوْبة فيما بينهم فى الماء وغيره . وانتصب على الحال . قال محمد بن يزيد : لأن معنى « أَقِمْ وجهَكَ » فأقيموا وجوهكم منيبين . وقال الفَرّاء : المعنى فأقم وجهك ومن معك منيبين . وقيل : انتصب على القطع ؛ أى فأقم وجهك أنت وأمتك المنيبين إليه ؛ لأن الأمر له أمرٌ لأمته ، فحسُن أن يقول منيبين إليه ؛ وقد قال الله تعالى : « يأيُّها النَّبيُّ إذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ » . ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى خافوه وامتثلوا ما أمركم به . ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ بيّن أن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص ؛ فلذلك قال « ولا تكونوا من المشركين » . وقد مضى هذا مبيناً فى « النساء والكهف »[1] وغيرهما . ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ تأوله أبو هريرة وعائشة وأبو أمامة أنه لأهل القبلة من أهل الأهواء والبِدَع . وقد مضى « فى الأنعام »[2] بيانه . وقال الربيع بن أنس : الذين فرقوا دينهم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى ؛ وقاله قتادة ومَعْمَر . وقرأ حمزة والكسائى « فارقوا دينهم » ، وقد قرأ بذلك علىّ ابن أبى طالب ؛ أى فارقوا دينهم الذى يجب اتباعه ، وهو التوحيد . ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ أى فرقا ؛ قاله الكلبىّ . وقيل أديانا ؛ قاله مُقاتل . ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أى مسرورون معجَبون ، لأنهم لم يتبينوا الحق وعليهم أن يتبينوه . وقيل : كان هذا قبل أن تنزل الفرائض . وقول ثالث : أن العاصى لله عز وجل قد يكون فرحا بمعصيته ، فكذلك الشيطان وقُطّاع الطريق وغيرهم ، والله أعلم . وزعم الفراء أنه يجوز أن يكون التمام « ولا تكونوا من المشركين » ويكون المعنى : من الذين فارقوا دينهم « وكانوا شيعًا » على الاستئناف ، وأنه يجوز أن يكون متصلا بما قبله . النحاس : وإذا كان متصلا بما قبله فهو عند البصريين على البدل بإعادة الحرف ؛ كما قال جل وعز : « قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ »[3] ولو كان بلا حرف لجاز .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٨٠ و جـ ١١ ص ٦٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٤٩ .
(٣) آية ٧٥ سورة الأعراف .

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ ﴾ أى قَحْط وشِدّة ﴿ دَعَوْا رَبَّهُمْ ﴾ أن يرفع ذلك عنهم ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ قال ابن عباس : مقبلين عليه بكل قلوبهم لا يشركون . ومعنى هذا الكلام التعجب، عجب نبيّه من المشركين فى ترك الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحجج عليهم ؛ أى إذا مسّ هؤلاء الكفارَ ضُرٌّ من مرض وشدّة دعَوْا ربّهم ؛ أى استغاثوا به فى كشف ما نزل بهم، مقبلين عليه وحده دون الأصنام، لعلمهم بأنه لا فرج عندها . ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ أى عافية ونعمة . ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أى يشركون به فى العبادة .

قوله تعالى : لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قيل : هى لام كَىْ . وقيل : هى لام أمر فيه معنى التهديد ؛ كما قال جل وعز : « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ »(1) . ﴿ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد ووعيد . وفى مصحف عبد الله « وليتمتعوا » ؛ أى مكّناهم من ذلك لكى يتمتعوا، فهو إخبار عن غائب ؛ مثل « ليكفروا » . وهو على خط المصحف خطاب بعد الإخبار عن غائب ؛ أى تمتعوا أيها الفاعلون لهذا .

قوله تعالى : أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ استفهام فيه معنى التوقيف . قال الضحاك : « سلطانا » أى كتابا ؛ وقاله قتادة والربيع بن أنس . وأضاف الكلام إلى الكتاب توسّعا . وزعم الفرّاء أن العرب تؤنّث السلطان ؛ تقول : قضَتْ به عليك السلطان . فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائز لأنه بمعنى الحجة ؛ أى حجة

(1) آية ٢٩ سورة الكهف .

تنطق بشرككم ؛ قاله ابن عباس والضحاك أيضا . وقال علىّ بن سليمان عن أبى العباس محمد ابن يزيد قال : سلطان جمع سليط ؛ مثل رغيف ورُغفان، فتذكيره على معنى الجمع وتأنيثه على معنى الجماعة . وقد مضى فى «آل عمران» الكلام فى السلطان أيضا مستوفًى[1]. والسلطان: ما يدفع به الإنسان عن نفسه أمرا يستوجب به عقوبة ؛ كما قال تعالى : « أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ[2] » .

قوله تعالى : وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾ يعنى الخصب والسعة والعافية ؛ قاله يحيى بن سلام . النقاش : النعمة والمطر . وقيل : الأمن والدعة ؛ والمعنى متقارب . ﴿ فَرِحُوا بِهَا ﴾ أى بالرحمة . ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أى بلاء وعقوبة ؛ قاله مجاهد . السدى : قحط المطر . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى بما عملوا من المعاصى . ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ أى ييأسون من الرحمة والفرج ؛ قاله الجمهور . وقال الحسن : إن القنوط ترك فرائض الله سبحانه وتعالى فى السرّ . قَنِط يَقنَط، وهى قراءة العامة، وقَنَط يَقنِط، وهى قراءة أبى عمرو والكسائى ويعقوب . وقرأ الأعمش « قَنِطَ يَقنِط » بالكسر فيهما ؛ مثل حَسِب يَحْسِب[3] . والآية صفة للكافر، يقنط عند الشدّة ويبطَر عند النعمة ؛ كما قيل :

كحمار السوء إن أعلفته ✱ رمَحَ الناس وإن جاع نهق

وكثير ممن لم يرسخ الإيمان فى قلبه بهذه المثابة ؛ وقد مضى فى غير موضع . فأما المؤمن فيشكر ربّه عند النعمة ويرجوه عند الشدّة .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

(١) راجع ج ٤ ص ٢٣٣ (٢) آية ٢١ سورة النمل . (٣) راجع ج ١٠ ص ٣٦

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى يوسع الخير فى الدنيا لمن يشاء أو يضيق ؛ فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨)

قوله تعالى : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما تقدّم أنه سبحانه يبسط الرزق ويقدر أمر مَن وسع عليه الرزق أن يوصل إلى الفقير كفايته ليمتحن شكر الغنى . والخطاب للنبيّ عليه السلام والمراد هو وأمته ؛ لأنه قال « ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ » . وأمر بإيتاء ذى القربى لِقُرب رَحِمه ؛ وخيرُ الصدقة ما كان على القريب ، وفيها صلة الرّحم . وقد فضّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب ، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدةً : " أمَا إنّكِ لو أعطيتِها أخوالَك كان أعظمَ لأجرك " .

الثانيــة — واختلف فى هذه الآية ؛ فقيل : إنها منسوخة بآية المواريث . وقيل : لا نسخ ، بل للقريب حقّ لازم فى البِرّ على كل حال ؛ وهو الصحيح . قال مجاهد وقتادة : صلة الرّحم فرض من الله عز وجل ، حتى قال مجاهد : لا تُقبل صدقة من أحد ورَحِمُه محتاجة . وقيل : المراد بالقربى أقرباء النبيّ صلى الله عليه وسلم . والأوّل أصح ؛ فإن حقهم مبيّن فى كتاب الله عز وجل فى قوله : « فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ » (١) . وقيل : إن الأمر بالإيتاء لذى القربى على جهة الندب . قال الحسن : «حقّه» المواساة فى اليسر ، وقول ميسور فى العسر . ﴿ وَالْمِسْكِينَ ﴾ قال ابن عباس : أى أطعم السائل الطوّاف وابن السبيل الضيف ؛ فجعل الضيافة فرضا ، وقد مضى جميع هذا مبسوطا مبيّناً (٢) فى مواضعه والحمد لله .

---

(١) آية ٤١ سورة الأنفال . (٢) راجع ج ٢ ص ١٥ و ٢٤١ طبعة ثانية . و ج ٨ ص ١١ و ج ٩ ص ٦٤ طبعة أولى أو ثانية

الثالثة — ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أى إعطاء الحق أفضل من الإمساك إذا أريد بذلك وجهُ الله والتقربُ إليه . ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى الفائزون بمطلوبهم من الثواب فى الآخرة . وقد تقدم فى « البقرة »[1] القول فيه .

قوله تعالى : وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — لمّا ذكر ما يراد به وجهه ويثيب عليه ذكر غير ذلك من الصفة وما يراد به أيضا وجهه . وقرأ الجمهور « آتيتم » بالمد بمعنى أعطيتم . وقرأ ابن كثير ومجاهد وحُميد بغير مدّ بمعنى ما فعلتم من رِبًا لِيَرْبُوَ ؛ كما تقول : أتيت صوابا وأتيت خطأ . وأجمعوا على المدّ فى قوله « وما آتيتم من زكاة » . والربا الزيادة ، وقد مضى فى « البقرة »[2] معناه ، وهو هناك محرم وهاهنا حلال . وثبت بهذا أنه قسمان : منه حلال ومنه حرام . قال عكرمة فى قوله تعالى « وما آتيتم من رِبًا لِيَرْبُوَ فِى أَموالِ الناسِ » قال : الرِّبا رِبَوان ، ربا حلال وربا حرام ؛ فأما الربا الحلال فهو الذى يُهْدَى ، يُلتمس ما هو أفضل منه . وعن الضحاك فى هذه الآية : هو الربا الحلال الذى يُهْدَى لِيُثاب ما هو أفضل منه ، لا له ولا عليه ، ليس له أجر وليس عليه فيه إثم . وكذلك قال ابن عباس « وما آتيتم من رِبًا » يريد هديّة الرجل الشيء يرجو أن يثاب أفضل منه ، فذلك الذى لا يربو عند الله ولا يؤجر صاحبه ولكن لا إثم عليه ، وفى هذا المعنى نزلت الآية . قال ابن عباس وابن جُبير وطاوس ومجاهد : هذه آية نزلت فى هبة الثواب . قال ابن عطية : وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازَى عليه كالسلام وغيره فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى . وقاله القاضى أبو بكر بن العربى . وفى كتاب النَّسائى

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٨١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٤٨ وما بعدها .

عن عبد الرحمن بن علقمة قال: قدم وفد ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم هدية فقال: "أهدية أم صدقة فإن كانت هدية فإنما يُبتغى بها وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقضاء الحاجة وإن كانت صدقة فإنما يُبتغى بها وجه الله عز وجل" قالوا: لا بل هدية؛ فقبلها منهم وقعد معهم يسائلهم ويسألونه. وقال ابن عباس أيضا وإبراهيم النَّخَعي: نزلت في قوم يُعطون قراباتهم وإخوانهم على معنى نفعهم وتمويلهم والتفضّل عليهم، وليزيدوا في أموالهم على وجه النفع لهم. وقال الشَّعْبي: معنى الآية أن ما خدم الإنسان به أحدا وخف له لينتفع به في دنياه فان ذلك النفع الذي يجزى به الخدمة لا يربو عند الله. وقيل: كان هذا حراما على النبيّ صلى الله عليه وسلم على الخصوص؛ قال الله تعالى: «وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ»[1] فنهى أن يعطى شيئا فيأخذ أكثر منه عوضا. وقيل: إنه الربا المحرّم؛ فمعنى «لا يربو عند الله» على هذا القول لا يحكم به لآخذه بل هو للمأخوذ منه. قال السُّدّي: نزلت هذه الآية في ربا ثَقيف؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش.

الثانيــة — قال القاضي أبو بكر بن العربي: صريح الآية فيمن يَهَب يطلب الزيادة من أموال الناس في المكافأة. قال المُهلّب: اختلف العلماء فيمن وَهَب هبة يطلب ثوابها وقال إنما أردت الثواب؛ فقال مالك: ينظر فيه؛ فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله ذلك؛ مثل هبة الفقير للغنيّ، وهبة الخادم لصاحبه، وهبة الرجل لأميره ومن فوقه؛ وهو أحد قولي الشافعي. وقال أبو حنيفــة: لا يكون له ثوابٌ إذا لم يشترط؛ وهو قول الشافعي الآخر. قال: والهبة للثواب باطلة لا تنفعه؛ لأنها بيع بثمن مجهول. واحتج الكوفي بأن موضوع الهبــة التبرع، فلو أوجبنا فيها العوض لبطل معنى التبرع وصارت في معنى المعاوضات، والعرب قد فرّقت بين لفظ البيع ولفظ الهبة، فجعلت لفظ البيع على ما يستحق فيه العوض، والهبــة بخلاف ذلك. ودليلنا ما رواه مالك في مُوَطّئه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أيّمــا رجل وهب هبــة يرى أنها للثواب فهو على هبته حتى يرضى

(١) آية ٦ سورة المدثر.

منها . ونحوه عن علىّ رضى الله عنه قال : المواهب ثلاثة، موْهبة يراد بها وجه الله، وموهبة يراد بها وجوه الناس ، وموهبة يراد بها الثواب؛ فموهبة الثواب يرجع فيها صاحبها إذا لم يُثَب منها . وترجم البخارىّ رحمه الله (باب المكافأة فى الهبة) وساق حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويُثيب عليها ، وأثاب على لَقْحة(١) ولم ينكر على صاحبها حين طلب الثواب ، وإنما أنكر سخطه للثواب وكان زائدا على القيمة . خرّجه الترمذى .

الثالثة — ما ذكره علىّ رضى الله عنه وفصّله من الهبة صحيح ؛ وذلك أن الواهب لا يخلو فى هبته من ثلاثة أحوال : أحدها — أن يريد بها وجه الله تعالى و يبتغى عليها الثواب منه . والثانى — أن يريد بها وجوه الناس رياء ليَحْمَدوه عليها ويُثْنُوا عليه من أجلها . والثالث — أن يريد بها الثواب من الموهوب له ؛ وقد مضى الكلام فيه ، وقال صلى الله عليه وسلم : " الأعمال بالنيات وإنما لكل آمرئ ما نوى " . فأما إذا أراد بهبته وجه الله تعالى وآبتغى عليه الثواب من عنده فله ذلك عند الله بفضله ورحمته ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ .

وكذلك من يصل قرابته ليكون غنيًا حتى لا يكون كَلًّا فالنية فى ذلك متبوعة ؛ فإن كان ليتظاهر بذلك دنيا فليس لوجه الله ، وإن كان لما له عليه من حق القرابة وبينهما من وشيجة الرحم فإنه لوجه الله .

وأما من أراد بهبته وجوه الناس رياء ليَحْمَدوه عليها ويُثْنُوا عليه من أجلها فلا منفعة له فى هبته ؛ لا ثواب فى الدنيا ولا أجر فى الآخرة؛ قال الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ »(٢) الآية .

وأما من أراد بهبته الثواب من الموهوب له فله ما أراد بهبته، وله أن يرجع فيها مالم يثب بقيمتها ، على مذهب ابن القاسم ، أو ما لم يرض منها بأزيد من قيمتها، على ظاهر قول عمر

---

(١) اللقحة (بكسر اللام وفتحها) . الناقة الحلوب . (٢) آية ٢٦٤ سورة البقرة .

وعلى ، وهو قول مُطَرِّف فى الواضحة أن الهبة ما كانت قائمة العين ، وإن زادت أو نقصت فللواهب الرجوع فيها وإن أثابه الموهوب فيها أكثر منها . وقد قيل : إنها إذا كانت قائمة العين لم تتغير فإنه يأخذ ما شاء . وقيل : تلزمه القيمة كنكاح التفويض ، وأما إذا كان بعد فوت الهبة فليس له إلا القيمة إتفاقا؛ قاله ابن العربى .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لِيَرْبُوَ ﴾ قرأ جمهور القراء السبعة «ليربو» بالياء وإسناد الفعل إلى الربا . وقرأ نافع وحده بضم التاء [والواو] ساكنة على المخاطبة؛ بمعنى تكونوا ذوى زيادات ، وهى قراءة ابن عباس والحسن وقتادة والشَّعْبى . قال أبو حاتم : هى قراءتنا . وقرأ أبو مالك « لتربوها » بضمير مؤنث . ﴿ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى لا يزكو ولا يثيب عليه؛ لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه وكان خالصا له؛ وقد تقدّم فى «النساء»(1) . ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ ﴾ قال ابن عباس : أى من صدقة . ﴿ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ أى ذلك الذى يقبله ويضاعفه له عشرة أضعافه أو أكثر؛ كما قال : « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً »(2) . وقال : « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ »(3) . وقال : « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ » ولم يقل فأنتم المضعفون لأنه رجع من المخاطبة إلى الغيبة؛ مثل قوله : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ »(4) . وفى معنى المُضْعِفين قولان . أحدهما — أنه تضاعف لهم الحسنات كما ذكرنا . والآخر — أنهم قد أضعف لهم الخير والنعيم ؛ أى هم أصحاب أضعاف؛ كما يقال : فلان مُقْوٍ إذا كانت إبله قوية ، أو له أصحاب أقوياء ، ومُسْمِن إذا كانت إبله سمان ، ومُعْطِش إذا كانت إبله عِطاش ، ومضعف إذا كانت إبله ضعيفة ؛ ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم : " اللهم إنى أعوذ بك من الخبيث المخبِث الشيطان الرجيم " . فالمخبث الذى أصحابه خبث ، يقال : فلان ردىء أى هو ردىء فى نفسه . ومُرْدِئ : أصحابه أردئاء .

---

(1) راجع جـ ٥ ص ٤١٠ (2) آية ٢٤٥ سورة البقرة . (3) آية ٢٦٥ سورة البقرة
(4) آية ٢٢ سورة يونس .

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ ابتداء وخبر . وعاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين وأنه الخالق الرازق المميت المحيي . ثم قال على جهة الاستفهام : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾ لا يفعل . ثم نزّه نفسه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والأولاد بقوله الحق : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وأضاف الشركاء إليهم لأنهم كانوا يسمونهم بالآلهة والشركاء ، ويجعلون لهم من أموالهم .

قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ اختلف العلماء في معنى الفساد والبر والبحر ؛ فقال قتادة والسُّدّى : الفساد الشرك ، وهو أعظم الفساد . وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد : فساد البر قتلُ ابن آدم أخاه ؛ قابيلُ قتل هابيل . وفي البحر بالملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا . وقيل : الفساد القحط وقلّة النبات وذهاب البركة . ونحوه قال ابن عباس قال : هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا . قال النحاس : وهو أحسن ما قيل في الآية . وعنه أيضا : أن الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم . وقال عطية : فإذا قلّ المطر قلّ الغوص عنده ، وأخفق الصيادون ، وعميت دواب البحر . وقال ابن عباس : إذا مطرت السماء تفتحت الأصداف في البحر ، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ . وقيل : الفساد كساد الأسعار وقلّة المعاش . وقيل : الفساد المعاصي وقطعُ السبيل والظلم ؛ أي صار هذا العمل مانعا من الزرع والعمارات والتجارات ؛ والمعنى كله متقارب . والبر والبحر هما المعروفان المشهوران في اللغة وعند الناس ؛ لا ما قاله بعض العُبّاد أن البر اللسانُ والبحر القلبُ ، لظهور

ما على اللسان وخفاء ما فى القلب . وقيل : البر الفيافى ، والبحر القرى ؛ قاله عكرمة . والعرب تسمي الأمصار البحار . وقال قتادة : البر أهل العمود ، والبحر أهل القرى والريف . وقال ابن عباس : إن البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر ، والبحر ما كان على شط نهر ؛ وقاله مجاهد ، قال : أما والله ما هو بحركم هذا ، ولكن كل قرية على ماء جار فهى بحر . وقال معناه النحاس؛ قال : فى معناه قولان : أحدهما — ظهر الجدب فى البر؛ أى فى البوادى وقراها، وفى البحر أى فى مدن البحر؛ مثل « وآسأل القرية » . أى ظهر قلة الغيث وغلاء السعر . ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ﴾ أى عقاب بعض ﴿ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ ثم حذف . والقول الآخر — أنه ظهرت المعاصى من قطع السبيل والظلم ، فهذا هو الفساد على الحقيقة ، والأول مجاز إلا أنه على الجواب الثانى ، فيكون فى الكلام حذف واختصار دل عليه ما بعده، ويكون المعنى : ظهرت المعاصى فى البر والبحر فحبس الله عنهما الغيث وأغلى سعرهم ليذيقهم عقاب بعض الذى عملوا . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعلهم يتوبون . وقال : « بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا » لأن معظم الجزاء فى الآخرة . والقراءة «ليذيقهم» بالياء . وقرأ ابن عباس بالنون ، وهى قراءة السُّلَمِيّ وابن مُحَيْصِن وقُنْبُل ويعقوب على التعظيم؛ أى نذيقهم عقوبة بعض ما عملوا .

قوله تعالى : قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى قل لهم يا محمد سيروا فى الأرض ليعتبروا بمن قبلهم ، وينظروا كيف كان عاقبة من كذب الرسل ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾ أى كافرين فأهلكوا .

قوله تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ قال الزجاج : أى أقم قصدك، واجعل جهتك اتباع الدين القيّم؛ يعنى الإسلام . وقيل : المعنى أوضح الحق وبالغ فى الإعذار، واشتغل بما أنت فيه ولا تحزن عليهم . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى لا يردّه الله عنهم ، فإذا لم يردّه لم يتهيأ لأحد دفعه . ويجوز عند غير سيبويه « لا مَرَدَّ له » وذلك عند سيبويه بعيد، إلا أن يكون فى الكلام عطف . والمراد يوم القيامة . ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ قال ابن عباس : معناه يتفرقون . وقال الشاعر :

وكنّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً * من الدهر حتى قيل لن يَتَصَدَّعا (١)

أى لن يتفرقا ؛ نظيره قوله تعالى : « يومئذ يتفرقون » فريق فى الجنة وفريق فى السعير . والأصل يتصدّعون ؛ ويقال : تصدّع القوم إذا تفرّقوا ، ومنه اشتقّ الصُّداع ، لأنه يفرق شُعب الرأس .

قوله تعالى : مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أى جزاء كفره . ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أى يوطّئون لأنفسهم فى الآخرة فراشا ومسكنا وقرارا بالعمل الصالح؛ ومنه : مهدُ الصبيّ . والمهاد الفراشُ، وقد مَهَدت الفراش مَهْدًا بسطته ووطّأته . وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها . وتمهيد العذر بسطُه وقبوله . والتمهّد التمكن . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد « فلأنفسهم يَمْهَدُون » قال فى القبر .

قوله تعالى : لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

---

(١) البيت لمتمم بن نويرة اليربوعى من قصيدة يرثى بها أخاه مالكا مطلعها :

لعمرى وما دهرى بتأبين هالك * ولا جزع مما أصاب فأوجعا

وقوله « كندماني جذيمة» يعنى جذيمة الأبرش وكان ملكا . ونديماه : يقال لهما مالك وعقيل . ويضرب بهما المثل لطول ما ندماه؛ فقد نادماه أربعين سنة ما أعادا عليه حديثا .

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى يمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله . وقيل يصدّعون ليجزيهم الله؛ أى ليميز الكافر من المسلم ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ومِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ أى ومن أعلام كمال قدرته إرسال الرياح مبشّرات أى بالمطر لأنها تتقدّمه . وقد مضى فى «الحِجْر» بيانه[1] . ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ يعنى الغيث والخصب . ﴿ ولِتَجْرِيَ الْفُلْكُ ﴾ أى فى البحر عند هبوبها . وإنما زاد «بأمره» لأن الرياح قد تهبّ ولا تكون مواتية، فلا بدّ من إرساء السفن والاحتيال بحبسها، وربما عصفت فأغرقتها بأمره . ﴿ولِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعنى الرزق بالتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم بالتوحيد والطاعة . وقد مضى هذا كلّه مبيناً[2] .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى المعجزات والحجج النيّرات ﴿ فَانْتَقَمْنَا ﴾ أى فكفروا فانتقمنا ممن كفر . ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ « حقًّا » على خبر كان، « ونصرُ » اسمها . وكان أبو بكر يقف على « حقا » أى وكان عقابنا حقا، ثم قال « علينا نصر المؤمنين » ابتداء وخبر؛ أى أخبرنا به ولا خُلْف فى خبرنا . وروى من حديث أبى الدرداء قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من مسلم يذبّ عن عرض أخيه إلا كان حقًّا على الله تعالى أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة — ثم تلا وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين " . ذكره النحاس والثعلبيّ والزمخشريّ وغيرهم .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥ (٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٨ و ٣٩٧ و جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثير وحمزة والكسائي « الريح » بالتوحيد . والباقون بالجمع . قال أبو عمرو : وكل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع، وما كان بمعنى العذاب فهو موحد . وقد مضى فى « البقرة »(1) معنى هـذه الآية وفى غيرها . «كِسَفًا» جمع كِسفة وهى القطعة . وفى قراءة الحسن وأبى جعفر وعبد الرحمن الأعرج وابن عامر « كِسْفا » بإسكان السين، وهى أيضا جمع كسفة ؛ كما يقال : سِدْرة وسِدْر؛ وعلى هذه القراءة يكون المضمر الذى بعده عائدا عليه ؛ أى فترى الوَدْق أى المطر يخرج من خلال الكسف ؛ لأن كل جمع بينه وبين واحده الهاء فالتذكير فيه حَسَن . ومن قرأ «كِسَفًا» فالمضمر عنده عائد على السحاب . وفى قراءة الضحاك وأبى العالية وابن عباس «فترى الودق يخرج من خَلَله » ويجوز أن يكون خَلَل جمع خِلال ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ﴾ أى بالمطر . ﴿ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يفرحون بنزول المطر عليهم . ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أى يائسين مكتئبين قد ظهر الحزن عليهم لاحتباس المطر عنهم . و « مِنْ قَبْلِهِ » تكرير عند الأخفش معناه التأكيد؛ وأكثر النحويين على هذا القول ؛ قاله النحاس . وقال قُطْرُب : إن « قبل » الأولى للإنزال والثانية للمطر؛ أى وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر . وقيل : المعنى من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع ، ودل على الزرع المطر إذ بسببه يكون. ودل عليه أيضا « فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا » على ما يأتى . وقيل : المعنى من قبل السحاب من قبل رؤيته ؛ واختار هـذا القول النحاس، أى من قبل رؤية السحاب ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أى ليائسين . وقد تقدم ذكر السحاب(2) .

(1) راجع جـ ٢ ص ١٩٧ وما بعدها طبعة ثانية . (2) راجع جـ ٢ ص ٢٠٠ طبعة ثانية

قوله تعالى : فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ أَثَرِ رَحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ يعنى المطر ؛ أى انظروا نظر استبصار واستدلال ؛ أى استدلوا بذلك على أن من قدر عليه قادر على إحياء الموتى . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى « آثار » بالجمع . الباقون بالتوحيد ؛ لأنه مضاف إلى مفرد . والأثر فاعل « يُحْيِي » ويجوز أن يكون الفاعل آسم الله عز وجل . ومن قرأ « آثار » بالجمع فلأن رحمة الله يجوز أن يراد بها الكثرة ؛ كما قال تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا »[1] . وقرأ الجَحْدَرى وأبو حَيْوَة وغيرهما « كيف تحيي الأرض » بتاء ؛ ذهب بالتأنيث إلى لفظ الرحمة ؛ لأن أثر الرحمة يقوم مقامها فكأنه هو الرحمة ؛ أى كيف تحيي الرحمة الأرض أو الآثار . « ويحيي » أى يحيي الله عز وجل أو المطر أو الأثر فيمن قرأ بالياء . و﴿ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ ﴾ فى موضع نصب على الحال على الحمل على المعنى لأن اللفظ لفظ الآستفهام والحال خبر ؛ والتقدير : فانظر إلى أثر رحمة الله محيية للأرض بعد موتها . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ استدلال بالشاهد على الغائب .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ يعنى الريح ، والريح يجوز تذكيره . قال محمد بن يزيد : لا يمتنع تذكير كل مؤنث غير حقيقى ؛ نحو أعجبنى الدار وشبهه . وقيل : فرأوا السحاب . وقال ابن عباس : الزرع ، وهو الأثر ؛ والمعنى فرأوا الأثر مصفراً ؛ واصفرار الزرع بعد اخضراره يدل على يبسه ، وكذا السحاب يدل على أنه لا يمطر والريح على أنها لا تلقح ﴿ لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أى ليظلن ؛ وحسن وقوع الماضى فى موضع المستقبل لما فى الكلام من معنى المجازاة ، والمجازاة لا تكون إلا بالمستقبل ؛ قاله الخليل وغيره .

(١) آية ٣٤ سورة ابراهيم .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ﴾ أى وَضَحت الحجج يا محمد لكنهم لإلفهم تقليد الأسلاف فى الكفر ماتت عقولهم وعميت بصائرهم، فلا يتهيأ لك إسماعهم وهدايتهم . وهذا ردّ على القدرية . ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أى لا تسمع مواعظ الله إلا المؤمنين الذين يصغون إلى أدلة التوحيد وخلقت لهم الهداية . وقد مضى هذا فى « النمل »(١) ووقع قوله « بِهَادِ العُمْيِ » هنا بغير ياء .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ ذكر استدلالا آخر على قدرته فى نفس الإنسان ليعتبر . ومعنى « مِن ضَعْف » من نطفة ضعيفة . وقيل : « من ضعف » أى فى حال ضعف؛ وهو ما كانوا عليه فى الابتداء من الطفولة والصغر . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ يعنى الشبيبة . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا ﴾ يعنى الهرم . وقرأ عاصم وحمزة بفتح الضاد فيهن؛ الباقون بالضم؛ لغتان، والضم لغة النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقرأ الجحدريّ : « من ضَعْف ثم جعل من بعد ضَعْف » بالفتح فيهما « ضُعْفًا » بالضم خاصة . أراد أن يجمع بين اللغتين . قال الفراء : الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم . الجوهري : الضَّعف والضُّعف : خلاف القوّة . وقيل : الضعف بالفتح فى الرأى، وبالضم فى الجسد؛ ومنه الحديث فى الرجل

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٢

الذى كان يخدع فى البيوع : " أنه يبتاع وفى عُقدته ضَعف"[(١)] . ﴿ وَشَيْبَةً ﴾ مصدر كالشَّيب ، والمصدر يصلح للجملة ، وكذلك القول فى الضعف والقوة . ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ يعنى من قوة وضعف . ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بتدبيره . ﴿ الْقَدِيرُ ﴾ على إرادته . وأجاز النحويون الكوفيون « من ضَعَف » بفتح العين ، وكذا كل ما كان فيه حرف من حروف الحلق ثانيا أو ثالثا .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى يحلف المشركون . ﴿ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ ليس فى هذا رد لعذاب القبر؛ إذ كان قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من غير طريق أنه تعوّذ منه ، وأمر أن يتعوّذ منه؛ فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال : سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّ حبيبة وهى تقول : اللّهمّ أمتعنى بزوجى رسول الله ، وبأبى أبى سفيان ، و بأخى معاوية؛ فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لقد سألت الله لآجال مضروبة وأرزاق مقسومة ولكن سَليه أن يعيذك من عذاب جهنم وعذاب القبر" فى أحاديث مشهورة خرجها مسلم والبخارىّ وغيرهما . وقد ذكرنا منها جملة فى كتاب (التذكرة) . وفى معنى « ما لبثوا غيرَ ساعة » قولان : أحدهما — أنه لا بدّ من خمدة قبل يوم القيامة؛ فعلى هذا قالوا ما لبثنا غير ساعة . والقول الآخر — أنهم يعنون فى الدنيا لزوالها وانقطاعها ، كما قال تعالى : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »[(٢)] كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، وإن كانوا قد أقسموا على غيب وعلى غير ما يدرون . قال الله عز وجل : ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ أى كانوا يكذبون فى الدنيا ؛ يقال : أُفِك الرجلُ إذا صُرف عن الصّدق والخير . وأرض مأفوكة : ممنوعة من المطر . وقد زعم جماعة من أهل النظر أن القيامة لا يجوز أن يكون فيها كذب لما هم فيه ، والقرآن يدل على غير ذلك ، قال الله عز وجل : « كَذَٰلِكَ كَانُوا

---

(١) أى فى رأيه ونظره فى مصالح نفسه . (٢) آخر سورة النازعات .

يؤفكون » أي كما صُرفوا عن الحق في قَسَمِهم أنهم ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يُصرفون عن الحق في الدنيا ؛ وقال جل وعز : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ » (١) وقال : « ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا » (٢) .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ اختلف في الذين أوتوا العلم؛ فقيل الملائكة . وقيل الأنبياء . وقيل علماء الأمم . وقيل مؤمنو هذه الأمة . وقيل جميع المؤمنين؛ أي يقول المؤمنون للكفار ردّا عليهم لقد لبثتم في قبوركم إلى يوم البعث . والفاء في قوله «فهذا يومُ البعث» جواب لشرط محذوف دلّ عليه الكلام؛ مجازه : إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث . وحكى يعقوب عن بعض القراء وهي قراءة الحسن «إلى يوم البَعَث» بالتحريك؛ وهذا مما فيه حرف من حروف الحلق . وقيل : معنى « في كتاب الله » في حكم الله . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير؛ أي وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله والإيمانَ لقد لبثتم إلى يوم البعث؛ قاله مقاتل وقتادة والسُّدّي . القشيري : وعلى هذا «أوتوا العلم» بمعنى كتاب الله . وقيل : الذين حكم لهم في الكتاب بالعلم ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ أي اليوم الذي كنتم تنكرونه .

قوله تعالى : فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

---

(١) آية ١٨ سورة المجادلة . (٢) آية ٢٣ سورة الأنعام .

قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أى لا ينفعهم العلم بالقيامة ولا الاعتذار يومئذ. وقيل: لما ردّ عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يعذروا. ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أى ولا حالهم حال من يستعتب ويرجع؛ يقال : استعتبته فأعتبنى ؛ أى استرضيته فأرضانى، وذلك إذا كنت جانيا عليه . وحقيقة أعتبته: أزلت عَتبه . وسيأتى فى «فُصِّلت»[1] بيانه . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى «فيومئذٍ لا ينفع» بالياء، والباقون بالتاء .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى من كل مثل يدلهم على مايحتاجون إليه، وينبّههم على التوحيد وصدق الرسل . ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ أى معجزة؛ كفلق البحر والعصا وغيرهما ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ ﴾ يامعشر المؤمنين. ﴿ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ أى تتبعون الباطل والسحر ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى كما طبع الله على قلوبهم حتى لا يفهموا الآيات عن الله فكذلك ﴿ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أدلّة التوحيد ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ أى اصبر على أذاهم فإن الله ينصرك ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ أى لا يستفزنّك عن دينك ﴿ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ قيل : هو النضر بن الحارث. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته؛ يقال : استخفّ فلان فلانا أى استجهله حتى حمله على اتباعه فى الغيّ . وهو فى موضع جزم بالنهى، أُكّد بالنون الثقيلة فبُنِيَ على الفتح كما يبنى الشيئان إذا ضم أحدهما إلى الآخر. «الذين لا يوقنون» فى موضع رفع، ومن العرب من يقول : اللذون فى موضع الرفع . وقد مضى فى « الفاتحة »[2] .

---

(١) فى آية ٢٤   (٢) راجع جـ ١ ص ١٤٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

تفسير سورة لقمان

وهى مكية ، غير آيتين قال قتادة : أولهما « وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ » إلى آخر الآيتين[1] . وقال ابن عباس : ثلاث آيات ، أولهن « ولو أن ما فى الأرض » . وهى أربع وثلاثون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ مضى الكلام فى فواتح السور . و « تلك » فى موضع رفع على إضمار مبتدأ ، أى هذه تلك . ويقال : « تِيكَ آياتُ الكتاب الحكيم » بدلا من تلك . والكتاب : القرآن . والحكيم : المحكم ؛ أى لا خلل فيه ولا تناقض . وقيل ذو الحكمة . وقيل الحاكم . ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ بالنصب على الحال ؛ مثل : « هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً »[2] وهذه قراءة المدنيين وأبى عمرو وعاصم والكسائى . وقرأ حمزة « هُدًى ورحمةٌ » بالرفع ، وهو من وجهين : أحدهما — على إضمار مبتدأ ؛ لأنه أول آية . والآخر — أن يكون خبر « تلك » . والمحسن : الذى يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه . وقيل : هم المحسنون فى الدين وهو الإسلام ؛ قال الله تعالى : « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ »[3] الآية . ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ فى موضع الصفة ، ويجوز الرفع على القطع بمعنى : هم الذين ، والنصب بإضمار أعنى . وقد مضى الكلام فى هذه الآية والتى بعدها فى « البقرة »[4] وغيرها .

---

(١) آية ٢٧ و ٢٨ . (٢) آية ٧٣ سورة الأعراف . (٣) آية ١٢٥ سورة النساء .

(٤) راجع جـ ١ ص ١٥٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . وجـ ٦ ص ٢٢١ .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ « مَن » فى موضع رفع بالابتداء . و « لَهْو الحديث » : الغناء؛ فى قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . النحاس : وهو ممنوع بالكتاب والسنة؛ والتقدير : من يشترى ذا لهو أو ذات لهو؛ مثل « وَاسأل القرية » . أو يكون التقدير : لما كان إنما اشتراها يشتريها ويبالغ فى ثمنها كأنه اشتراها للهو[1] .

قلت : هذه إحدى الآيات الثلاث التى استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه .

والآية الثانية قوله تعالى : « وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ[2] » . قال ابن عباس : هو الغناء بالحِمْيرية؛ اسمدى لنا؛ أى غنّى لنا .

والآية الثالثة قوله تعالى : « وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ[3] » قال مجاهد : الغناء والمزامير . وقد مضى فى « سبحان[4] » الكلام فيه . وروى الترمذىّ عن أبى أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تبيعوا القَيْنات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام فى مثل هذا أنزلت هذه الآية : ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله " إلى آخر الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، إنما يُروى من حديث القاسم عن أبى أمامة ، والقاسم ثقة وعلىّ بن يزيد يضعَّف فى الحديث ؛ قاله محمد بن إسماعيل . قال ابن عطية : وبهذا فسر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد ، وذكره أبو الفرج الجَوْزى عن الحسن وسعيد بن جُبير وقَتادة والنَّخَعىّ .

---

(١) كذا فى جميع نسخ الأصل . وفى كتاب النحاس : «أو يكون التقدير : لما كان إنما يشتريها ويبالغ فى ثمنها كأنه اشترى اللهو» . وفى العبارتين غموض؛ ولعل العبارة هكذا : أو يكون التقدير أنه لما كان انما يشتريها ويبالغ فى ثمنها لأجل لهوها كان كأنه اشترى اللهو . (٢) آية ٦١ سورة النجم . (٣) آية ٦٤ سورة الإسراء .

(٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٩٠ .

قلت : هذا أعلى ما قيل فى هــذه الآية ؛ وحلف على ذلك ابن مسعود بالله الذى لا إله إلا هو ثلاث مرات أنه الغناء . روى سعيد بن جبير عن أبى الصَّهباء البكرى قال : سئل عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى : « ومِن الناسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ » فقال : الغناء والله الذى لا إله إلا هو ؛ يرددها ثلاث مرات . وعن ابن عمر أنه الغناء؛ وكذلك قال عكرمة وميمون بن مِهران ومكحول . وروىْ شــعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال قال عبد الله بن مسعود : الغناء ينبت النفاق فى القلب ؛ وقاله مجاهد، وزاد : إنّ لهو الحديث فى الآية الاستماع إلى الغناء وإلى مثله من البـاطل . وقال الحسن : لهْــو الحديث المعازِف والغناء . وقال القاسم بن محمد : الغناء باطل والباطل فى النار . وقال ابن القاسم سألت مالكا عنه فقال : قال الله تعالى «فماذا بَعْدَ الْحَقِّ إلا الضلالُ»(١) أفحق هو؟ ! وترجم البخارى (٢) (باب كُلّ لهو باطلٌ إذا شــغل عن طاعة الله ، ومن قال لصاحبه تعال أقامِرْك ، وقولُه تعــالى : ومِن النّاسِ مَن يشترِى لَهْــوَ الحديثِ لِيُضِلّ عن سبِيلِ اللهِ بِغيرِ عِلمٍ ويَتَّخِذَها هُزُوًا) فقوله « إذا شَــغَل عن طاعة الله » مأخوذ من قوله تعــالى : « لِيضِل عن ســبِيلِ اللهِ » . وعن الحسن أيضــا : هو الكفر والشرك . وتأوله قــوم على الأحاديث التى يَتَلهّى بهــا أهلُ الباطل واللعب . وقيــل : نزلت فى النضر بن الحــارث ؛ لأ اشــترى كتب الأعاجم : رستم ، واسفنديار ؛ فكان يجلس بمكة ؛ فإذا قالت قريش إن محمدا قال كذا ضحك منه، وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس ويقول : حديثى هذا أحسن من حديث محمد ؛ حكاه الفرّاء والكَلْبى وغيرهما . وقيل : كان يشترى المغنّيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قَيْنته فيقول : أطعميه وآســقيه وغنّيه ؛ ويقول : هــذا خير ممــا يدعوك إليه محمد من الصلاة والصــيام وأن تقاتل بين يديه . وهــذا القول والأول ظاهر فى الشراء . وقالت طائفة : الشراء فى هذه الآية مستعار، وإنمــا نزلت الآية فى أحاديث قريش وتلهّيهم بأمر الإسلام وخوضهم فى الباطل . قال ابن عطية : فكان ترك ما يجب فعله وامتثال هذه المنكرات

---

(١) آية ٣٢ سورة يونس . راجع جـ ٨ ص ٣٣٥ وما بعدها . (٢) فى آخر كتاب الاستئذان .

شراءً لها؛ على حدّ قوله تعالى : « أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ بِٱلْهُدَىٰ » ؛ اشتروا الكفر بالإيمان ؛ أي استبدلوه منه واختاروه عليه . وقال مُطَرِّف : شراء لهو الحديث استحبابه . قتادة : ولعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن سماعه شراؤه .

قلت : القول الأوّل أولى ما قيل به في هذا الباب ؛ للحديث المرفوع فيه ، وقول الصحابة والتابعين فيه . وقد زاد الثعلبي والواحدي في حديث أبي أمامة : "وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المَنكِب فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت". وروى الترمذي وغيره من حديث أنس وغيره عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "صوتان ملعونان فاجران أنهى عنهما صوت مزمار ورنّة شيطان عند نغمة ومَرَح ورنّة عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب" . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عن عليّ عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بُعثت بكسر المزامير" خرّجه أبو طالب الغَيلانيّ . وخرج ابن بشران عن عكرمة عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "بُعثت بهدم المزامير والطبل" . وروى الترمذي من حديث عليّ رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا فعلت أمّتي خمس عشرة خَصْلة حلّ بها البلاء — فذكر منها : إذا اتخذت القَيْنات والمعازف" . وفي حديث أبي هريرة : "ظهرت القِيان والمعازف" . وروى ابن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المُنْكَدِر عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من جلس إلى قَينة يسمع منها صُبّ في أذنه الآنُك[٢] يوم القيامة" . وروى أسد بن موسى عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن محمد بن المنكدر قال : بلغنا أن الله تعالى يقول يوم القيامة : "أين عبادي الذين كانوا ينزّهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان أحِلّوهم رياض المسك وأخبروهم أني قد أحللت عليهم رضواني" . وروى ابن وهب عن مالك عن محمد بن المنكدر مثله ، وزاد بعد قوله "المسك : ثم يقول للملائكة أسمعوهم حمدي وشكري وثنائي وأخبروهم ألّا خوف عليهم ولاهم يحزنون" . وقد روى مرفوعا هذا المعنى من حديث أبي موسى الأشعري أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٠ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) الآنك : الرصاص .

" من استمع الى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين " . فقيل : ومَن الروحانيون يارسول الله؟ قال : " قراء أهل الجنة" خرجه الترمذي الحكيم أبو عبدالله في نوادر الأصول، وقد ذكرناه في كتاب التذكرة مع نظائره : " فمن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة " . إلى غير ذلك . وكل ذلك صحيح المعنى على ما بيناه هناك . ومن رواية مكحول عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات وعنده جارية مغنية فلا تصلّوا عليه " . ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء . وهي المسألة :

الثانيـــة ـ وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به الذي يحرّك النفوس ويبعثها على الهوى والغَزَل والمُجُون الذي يحرك الساكن ويبعث الكامن؛ فهذا النوع إذا كان في شعر يُشَبَّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن وذكر الخمور والمحرمات لا يُختلف في تحريمه؛ لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق . فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه في أوقات الفرح؛ كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان في حفر الخَنْدق وحَدْو أَنْجَشة[1] وسَلَمة بن الأكوع . فأما ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبابات[2] والطار والمعازف والأوتار فحرام . ابن العربي : فأما طبل الحرب فلا حرج فيه؛ لأنه يقيم النفوس ويُرهب العدوّ . وفي اليراعة[3] تردّد . والدف مباح . الجوهري : وربما سمّوا قصبة الراعي التي يزمر بها هيرعة ويراعة . قال القشيري : ضُرب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة، فهمّ أبو بكر بالزجر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح" فكنّ يضربن ويقلن : نحن بنات النجار، حبذا محمد من جار . وقد قيل : إن الطبل في النكاح كالدُّف، وكذلك الآلات المشهرة للنكاح يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام ولم يكن فيه رَفَث .

---

(١) هو عبد أسود كان يسوق أو يقود بنساء النبي صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع، وكان حسن الحداء، وكانت الإبل تزيد في الحركة بحدائه . (٢) الشبابة (بالتشديد) : قصبة الزمر، وهي مولدة .

(٣) اليراعة : مزمار الراعي .

الثالثة — الاشتغال بالغناء على الدوام سفه تُرَدّ به الشهادة، فان لم يدم لم تُرَدّ . وذكر إسحاق بن عيسى الطباع قال : سألت مالك بن أنس عما يُرَخِّص فيه أهل المدينة من الغناء فقال : إنما يفعله عندنا الفساق . وذكر أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري قال : أما مالك بن أنس فإنه نهى عن الغناء وعن استماعه، وقال : إذا اشترى جارية ووجدها مغنّية كان له ردّها بالعيب ؛ وهو مذهب سائر أهل المدينة ؛ إلا إبراهيم بن سعد فانه حكى عنه زكريا الساجى أنه كان لا يرى به بأسا . وقال ابن خُوَيْز منداد : فأما مالك فيقال عنه : إنه كان عالما بالصناعة وكان مذهبه تحريمها . وروى عنه أنه قال : تعلمت هذه الصناعة وأنا غلام شاب، فقالت لى أمى : أىْ بنىّ ! إن هذه الصناعة يصلح لها من كان صبيح الوجه ولستَ كذلك ، فاطلب العلوم الدينية ، فصحبت ربيعة فجعل الله فى ذلك خيرا . قال أبو الطيب الطبرى : وأما مذهب أبى حنيفة فانه يكره الغناء مع إباحته شرب النّبيذ ، ويجعل سماع الغناء من الذنوب . وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة : إبراهيم والشعبى وحماد والثورى وغيرهم ، لا اختلاف بينهم فى ذلك . وكذلك لا يعرف بين أهل البصرة خلاف فى كراهية ذلك والمنع منه ؛ إلا ما روى عن عبيد الله بن الحسن العنبرى أنه كان لا يرى به بأسا . قال : وأما مذهب الشافعى فقال : الغناء مكروه يشبه الباطل ، ومن استكثر منه فهو سفيه تُرَدّ شهادته . وذكر أبو الفرج الجوْزى عن إمامه أحمد بن حنبل ثلاثَ روايات قال : وقد ذكر أصحابنا عن أبى بكر الخَلّال وصاحبه عبد العزيز إباحةَ الغناء، وإنما أشاروا إلى ما كان فى زمانهما من القصائد الزُّهديّات ؛ قال : وعلى هذا يحمل ما لم يكرهه أحمد؛ ويدل عليه أنه سئل عن رجل مات وخلف ولدا وجارية مغنية فاحتاج الصبى إلى بيعها فقال : تباع على أنها ساذجة لا على أنها مغنية . فقيل له : إنها تساوى ثلاثين ألفا؛ ولعلها إن بيعت ساذجة تساوى عشرين ألفا ؟ فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة . قال أبو الفرج : وإنما قال أحمد هذا لأن هذه الجارية المغنية لا تغنى بقصائد الزهد، بل بالأشعار المطربة المثيرة إلى العشق .

وهـذا دليـل على أن الغناء محظور ؛ إذ لو لم يكن محظـورا ما جاز تفويت المـال على اليتيم . وصار هذا كقول أبى طلحة للنبىّ صـلى الله عليه وسلم : عندى خمر لأيتام ؟ فقال : " أرقهـا " . فلو جاز استصلاحها لمـا أمر بتضييـع مال اليتـامى . قال الطبرىّ : فقـد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه . وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبيد الله العنبرى ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " عليكم بالسواد الأعظم . ومن فارق الجمـاعة مات ميتة جاهلية " . قال أبو الفرج : وقال القفال من أصحابنـا : لا تقبل شهادة المغنى والرقاص .

قلت : وإذ قد ثبت أن هـذا الأمر لا يجوز فأخذ الأجرة عليه لا تجوز . وقـد ادّعى أبو عمر بن عبـد البر الإجماع على تحريم الأجرة على ذلك . وقد مضى فى الأنعام عند قوله : « وعنده مفاتح الغيب »(١) وحسبك .

الرابعـــة ــ قال القاضى أبو بكر بن العربى : وأما سمـاع القينات فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته ؛ إذ ليس شىء منها عليـه حراما لا من ظاهرها ولا من باطنها ، فكيف يُمنع من التلذذ بصوتها . أمّا أنه لا يجوز انكشاف النساء للرجال ولا هتك الأستار ولا سماع الرّفث ، فاذا خرج ذلك إلى ما لا يحـل ولا يجوز منع من أوّله واجتثّ من أصله . وقال أبو الطيب الطبرىّ : أما سماع الغناء من المرأة التى ليست بمحرم فإن أصحاب الشافعىّ قالوا لا يجوز ، سواء كانت حرّة أو مملوكة . قال : وقال الشافعىّ : وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه تردّ شهادته ؛ ثم غلّظ القول فيـه فقال : فهى دِياثة . وإنما جعل صاحبها سفيها لأنه دعا الناس إلى الباطل ومن دعا الناس الى الباطل كان سفيها .

الخامســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ قراءة العامة بضم الياء ؛ أى ليضل غيره عن طريق الهدى وإذا أضل غيره فقد ضل . وقرأ ابن كثير وابن مُحَيْصن وحُميد وأبو عمرو ورُوَيْس وابن أبى إسحـاق (بفتح اليـاء) على اللازم ؛ أى ليَضل هو نفسـه .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣

﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قراءة المدنيّين وأبي عمرو وعاصم بالرفع عطفا على « مَنْ يَشْتَرِي » ويجوز أن يكون مستأنفا . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائيّ « ويتخذها » بالنصب عطفا على « لِيُضِلَّ » . ومن الوجهين جميعا لا يحسن الوقف على قوله : « بِغَيْرِ عِلْمٍ » والوقف على قوله : « هُزُوًا » والهاء في « يتخذها » كناية عن الآيات . ويجوز أن يكون كناية عن السبيل ؛ لأن السبيل يؤنث ويذكر . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أي شديد يهينهم . قال الشاعر :

ولقد جزعت إلى النصارى بعدما * لقي الصليبُ من العذاب مهينا[1]

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾ يعني القرآن . ﴿ وَلَّى ﴾ أي أعرض . ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾[2] نصب على الحال . ﴿ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ ثقلا وصمما . وقد تقدم . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[3] تقدم أيضا .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ لما ذكر عذاب الكفار ذكر نعيم المؤمنين . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي دائمين . ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ أي وعدهم الله هذا وعدا حقا لا خُلْف فيه . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[4] تقدم أيضا .

---

(١) هذا البيت لجرير من قصيدة يهجو بها الأخطل ، مطلعها :

أمسيت إذ رحل الشباب حزينا * ليت الليالي قبل ذاك فنينا

(٢) راجع جـ ٦ ص ٤٠٤ (٣) راجع جـ ١ ص ١٩٨ و ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٤) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ و جـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ تكون « ترونها » في موضع خفض على النعت لـ« عَمَد » فيمكن أن يكون ثَمّ عَمَد ولكن لا تُرَى . ويجوز أن تكون في موضع نصب على الحال من « السموات » ولا عَمَد ثَمّ ألبتّة . النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول : الأولى أن يكون مستأنفا ، ولا عَمَد ثَمّ . قال مكيّ : ويكون « بِغَيْرِ عَمَدٍ » التمام . وقد مضى في « الرعد »[(1)] الكلام في هذه الآية . ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالا ثوابت . ﴿ أَنْ تَمِيدَ ﴾ في موضع نصب ؛ أي كراهية أن تميد . والكوفيون يقدّرونه بمعنى لئلا تميد . ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ عن ابن عباس : من كل لون حسن . وتأوله الشعبيّ على الناس ؛ لأنهم مخلوقون من الأرض ؛ قال : من كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم ، ومن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم . وقد تأوله غيره أن النطفة مخلوقة من تراب ، وظاهر القرآن يدل على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ مبتدأ وخبر . والخلق بمعنى المخلوق ؛ أي هـذا الذي ذكرته مما تعاينون « خلق الله » ، أي مخلوق الله ، أي خلقها من غير شريك . ﴿ فَأَرُونِي ﴾ معاشر المشركين . ﴿ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعني الأصنام . ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ ﴾ أي المشركون . ﴿ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي خسران ظاهر . و « ما » استفهام في موضع رفع بالابتداء وخبره « ذا » وذا بمعنى الذي . و « خلق » واقع على هاء محذوفة ؛ تقديره فأروني أي شيء خلق الذين من دونه ؛ والجملة في موضع نصب بـ« أروني » وتضمر الهاء مع « خلق »

(1) راجع جـ ٩ ص ٢٧٩ .

تعود على الذى ؛ أى فأرونى الأشياء التى خلقها الذين من دونه . وعلى هذا القول تقول : ماذا تعلمت، أنحوٌ أم شعر . ويجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ« أرونى و « ذا » زائد ؛ وعلى هذا القول تقول : ماذا تعلّمت، أنحوا أم شعرا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ مفعولان . ولم ينصرف « لقمان » لأن فى آخره ألفا ونونا زائدتين ؛ فأشبه فُعلان الذى أنثاه فُعلَى فلم ينصرف فى المعرفة لأن ذلك ثقل ثان، وآنصرف فى النكرة لأن أحد الثقلين قد زال؛ قاله النحاس . وهو لقمان بن باعوراء ابن ناحور بن تارح ، وهو آزر أبو إبراهيم ؛ كذا نسبه محمد بن إسحاق . وقيل : هو لقمان ابن عنقاء بن سرون وكان نوبيا من أهل أيلة؛ ذكره السهيلى . قال وهب : كان آبنَ أخت أيوب . وقال مقاتل : ذكر أنه كان ابن خالة أيوب . الزّمخشرى : وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته ، وقيل كان من أولاد آزر، عاش ألف سنة وأدركه داود عليه الصلاة والسلام وأخذ عنه العلم، وكان يُفتى قبل مبعث داود، فلما بعث قطع الفتوى فقيل له ؛ فقال : ألا أكتفى إذ كُفيت . وقال الواقدى : كان قاضيا فى بنى إسرائيل . وقال سعيد ابن المسيّب : كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر ، أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوّة؛ وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليّاً ولم يكن نبيا . وقال بنبوّته عكرمة والشعبي؛ وعلى هذا تكون الحكمة النبوة . والصواب أنه كان رجلا حكيا بحكمة الله تعالى — وهي الصواب فى المعتقدات والفقه فى الدّين والعقل(١) — قاضياً فى بنى إسرائيل، أسود مشقّق الرّجلين ذا مشافر، أى عظيم الشفتين ؛ قاله ابن عباس وغيره . وروى من حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لم يكن لقمان نبيّاً ولكن كان عبدا كثير التفكر

---

(١) فى تفسير ابن عطية : « ... والعمل » .

حسن اليقين ، أحب الله تعالى فأحبه ، فمنّ عليه بالحكمة ، وخيره فى أن يجعله خليفة يحكم بالحق؛ فقال : ربّ، إن خيّرتني قبلتُ العافية وتركتُ البلاء، وإن عزمتَ عليّ فسمعا وطاعة فإنك ستعصمني؛ ذكره ابن عطية. وزاد الثعلبيّ : فقالت له الملائكة بصوت لا يراهم : لمَ يا لقمان؟ قال : لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها، يغشاه المظلوم من كل مكان، إن يُعَنْ فبالحَرِى[(1)] أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة. ومن يكن فى الدنيا ذليلا [فذلك][(2)] خير من أن يكون فيها شريفا . ومن يَختَرِ الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة . فعجبت الملائكة من حسن منطقه؛ فنام نومة فأعطى الحكمة فانتبه يتكلم بها . ثم نودى داود بعده فقبلها ـــ يعنى الخلافة ـــ ولم يشترط ما اشترطه لقمان، فهوى فى الخطيئة غير مرة، كل ذلك يعفو الله عنه . وكان لقمان يوازره بحكمته؛ فقال له داود : طُوبَى لك يالقمان ! أعطيت الحكمة وصرف عنك البلاء ، وأعطى داود الخلافة وابتلى بالبلاء والفتنة . وقال قتادة : خيّر الله تعالى لقمان بين النبوّة والحكمة ؛ فاختار الحكمة على النبوّة ، فأتاه جبريل عليه السلام وهو نائم فذرّ عليه الحكمة فأصبح وهو ينطق بها؛ فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوّة وقد خيّرك ربك؟ فقال : إنه لو أرسل إليّ بالنبوّة عَزْمة[(3)] لرجوتُ فيها العون منه، ولكنه خيّرني فخفت أن أضعُف عن النبوّة، فكانت الحكمة أحبّ إليّ .

واختلف فى صنعته؛ فقيل : كان خياطا؛ قاله سعيد بن المسيّب، وقال لرجل أسود : لا تحزن من أنك أسود ، فإنه كان من خير الناس ثلاثةٌ من السودان : بلال ومِهْجَع مولى عمر ولقمان . وقيل : كان يحتطب كل يوم لمولاه حُزْمة حطب . وقال لرجل ينظر إليه : إن كنت ترانى غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق، وإن كنت ترانى أسود فقلبي أبيض . وقيل : كان راعيا، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال له : ألست عبدَ بنى فلان؟ قال بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قدَر الله ، وأدائى الأمانة، وصدق الحديث،

---

(1) يقال : فلان حَرِيّ بكذا ، وحَرًى بكذا ، وحَرٍ بكذا ، وبالحَرَى أن يكون كذا ؛ أى جدير وخليق .

(2) زيادة يقتضيها السياق . (3) عزائم الله : فرائضه التى أوجبها على عباده .

وترك ما لا يعنيني ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر . وقال خالد الرَّبَعي : كان نجارا ؛ فقال له سيده : اذبح لي شاة وائتني بأطيبها مُضغتين ؛ فأتاه باللسان والقلب ؛ فقال له : ما كان فيها شيء أطيب من هذين؟ فسكت ، ثم أمره بذبح شاة أخرى ثم قال له : ألق أخبثها مضغتين ؛ فألق اللسان والقلب ؛ فقال له : أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين فأتيتني باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلق أخبثها فألقيت اللسان والقلب ؛ فقال له : إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا .

قلت : هــذا معناه مرفوع في غير ما حديث ؛ من ذلك قوله صلى الله عليه وسـلم : " ألا وإن في الجسد مُضْغة إذا صَلُحت صَلُح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " . وجاء في اللســان آثار كثيرة صحيحة وشهيرة ؛ منها قوله عليــه السلام : " من وقاه الله شر اثنين وَلَج الجنة : ما بين لَحْيَيه[1] ورجليه .. " الحديث . وحِكَم لقمان كثيرة مأثورة هذا منها . وقيل له : أيّ الناس شر؟ قال : الذي لا يبالي أن رآه الناس مسيئا .

قلت : وهــذا أيضا مرفوع معنى ، قال صلى الله عليه وسـلم : " كلّ أمتي معافًى إلا المجاهرون وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربّه ويصبح يَكْشِف ستر الله عنه " . رواه أبو هريرة خرجه البخاري . وقال وهب بن مُنَبّه : قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب . وروى أنه دخل على داود عليــه السلام وهو يَسْرُد الدروع ، وقد ليّن الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله ، فأدركته الحكمة فسكت ؛ فلما أتمها لبسها وقال : نِعم لَبُوسُ الحرب أنت . فقال : الصمت حكمة ، وقليل فاعله . فقال له داود : بحقٍّ ما سُمّيت حكيما .

قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ فيه تقديران : أحدهما أن تكون «أن» بمعنى أيّ مفسرة ؛ أي قلنا له اشكر . والقول الآخر أنها في موضع نصب والفعل داخل في صلتها ؛ كما حكى سيبويه : كتبت إليه أن قم ؛ إلا أن هــذا الوجه عنده بعيد . وقال الزجاج : المعنى ولقد آتينا لقمان

(١) اللحيان : حائطا الفم ، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم من كل ذي لحي .

الحكمة لأن يشكر الله تعالى . وقيل : أى بأن آشكر لله تعالى فشكر؛ فكان حكيما بشكره لنا .
الشكر لله : طاعته فيما أمر به . وقد مضى القول فى حقيقته لغة ومعنًى فى « البقرة » وغيرها (١) .
﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى من يطع الله تعالى فإنما يعمل لنفسه؛ لأن نفع الثواب عائد إليه . ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ أى كفر النعم فلم يوحد الله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ عن عبادة خلقه ﴿ حَمِيدٌ ﴾ عند الخلق؛ أى محمود . وقال يحيى بن سلام : «غنىّ» عن خلقه «حميد» فى فعله .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ قال السُّهَيلى : اسم ابنه ثاران؛ فى قول الطبرى والقُتَبِىّ . وقال الكلبى : مشكم . وقيل أنعم ؛ حكاه النقاش . وذكر القشيرى أن ابنه وامرأته كانا كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما .

قلت : ودل على هذا قوله « لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » . وفى صحيح مسلم وغيره عن عبد الله قال : لما نزلت « الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بظلم » (٢) شقّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينا لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه : يا بنىّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم" . واختلف فى قوله «إن الشِّرك لَظُلْمٌ عظيم» فقيل : إنه من كلام لقمان . وقيل : هو خبر من الله تعالى منقطعا من كلام لقمان متصلا به فى تأكيد المعنى؛ ويؤيد هذا الحديث المأثور أنه لما نزلت : « الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بِظُلْم» أشفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينا لم يظلم؛ فأنزل الله تعالى «إن الشِّرك لظلم عظيم» فسكن إشفاقهم وإنما يسكن إشفاقهم بأن يكون خبرا من الله تعالى، وقد يسكن الاشفاق بأن يذكر الله ذلك عن عبد قد وصفه بالحكمة والسداد . و « إذ » فى موضع نصب بمعنى اذكر . وقال الزجاج

(١) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٨٢ سورة الأنعام .

فى كتابه فى القرآن : إن « إذ » فى موضع نصب بـ « آتينا » والمعنى : ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال . النحاس : وأحسبه غلطا ؛ لأن فى الكلام واوا تمنع من ذلك . وقال ﴿ يَا بُنَيِّ ﴾ بكسر الياء؛ لأنها دالة على الياء المحذوفة ، ومن فتحها فلخفة الفتحة عنده؛ وقد مضى فى «هود»(١) القول فى هذا . وقوله «يابنى» ليس هو على حقيقة التصغير وإن كان على لفظه ، وإنما هو على وجه الترقيق؛ كما يقال للرجل : يا أُخَىّ ، وللصبى هو كُوَيِّس .

قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

فيه ثمانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ هاتان الآيتان اعتراض بين أثناء وصيّة لقمان . وقيل : إن هذا مما أوصى به لقمان ٱبنه ؛ أخبر الله به عنه؛ أى قال لقمان لابنه لا تشرك بالله ولا تطع فى الشرك والديك ، فإن الله وصّى بهما فى طاعتهما مما لا يكون شركا ومعصية لله تعالى . وقيل : أى وإذ قال لقمان لابنه؛ فقلنا للقمان فيما آتيناه من الحكمة ووصينا الإنسان بوالديه ؛ أى قلنا له ٱشكر لله ، وقلنا له ووصينا الإنسان . وقيل : وإذ قال لقمان لآبنه لا تشرك ، ونحن وصينا الإنسان بوالديه حُسْنًا ، وأمرنا الناس بهذا، وأمر لقمان به ٱبنه ؛ ذكر هذه الأقوال القشيرى . والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقاص؛ كما تقدم فى « العنكبوت »(٢) وعليه جماعة المفسرين .

---

(١) فى نسخ الأصل : «يوسف» وهو تحريف . راجع جـ ٩ ص ٣٩ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٨

وجملة هـذا الباب أن طاعة الأبوين لا تراعى فى ركوب كبيرة ولا فى ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتهما فى المباحات، ويستحسن فى ترك الطاعات الندب؛ ومنه أمر الجهاد الكفاية ، والإجابة للأم فى الصلاة مع إمكان الإعادة ؛ على أن هـذا أقوى من الندب ؛. لكن يعلل بخوف هلكة عليها ، ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون من الندب . وخالف الحسن فى هذا التفصيل فقال : إن منعته أمه من شهود العِشاء شفقةً فلا يطعها .

الثانيـــة ــ لـما خصّ تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرضاع حصل لها بذلك ثلاث مراتب، وللأب واحدة؛ وأشبه ذلك قوله صلى الله عليه وسلم حين قال له رجل من أبَرّ؟ قال : " أمّك " قال ثم مَن ؟ قال : " أمك " قال ثم من ؟ قال : " أمك " قال ثم من ؟ قال : " أبوك " فجعل له الربـع من المَـبَرّة كما فى هذه الآية ؛ وقد مضى هذا كله فى « سبحان »(1) .

الثالثـــة ــ قوله تعالى « وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ » أى حملته فى بطنها وهى تزداد كل يوم ضعفا على ضعف . وقيل : المرأة ضعيفة الخلقة ثم يُضعفها الحمل . وقرأ عيسى الثّقفىّ « وَهَنًا على وَهَن » بفتح الهـاء فيهما ؛ ورويت عن أبى عمـرو، وهمـا بمعنى واحد . قال قَعْنَب ابن أم صاحب :

هـل للعـواذل من ناهٍ فيزْجُرَها * إنّ العواذل فيها الأَيْنُ والوَهن

يقال : وَهَن يَهِن، ووَهُن يوْهُن ووَهِن يَهِن؛ مثل وَرِم يَرِم . وانتصب « وَهْنًا » على المصدر؛ ذكره القشيرى . النحاس : على المفعول الثاني بإسـقاط حرف الجر؛ أى حملته بضعف على ضعف . وقرأ الجمهور «وفِصاله» وقرأ الحسن ويعقوب « وفَصْله » وهما لغتان، أى وفِصاله فى انقضاء عامين؛ والمقصود من الفِصال الفطام ، فعبّر بغايته ونهايته . ويقال : انفصل عن كذا أى تميّز؛ وبه سُمّى الفَصيل .

---

(1) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٩

الرابعــــة — الناس مُجمعون على العامين فى مدة الرّضاع فى باب الأحكام والنفقات ، وأما فى تحريم اللبن فحددت فرقة بالعام لا زيادة ولا نقص . وقالت فرقة : العامان وما اتصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متصل الرضاع . وقالت فرقة : إن فُطم الصبيّ قبل العامين وترك اللبن فإن ما شرب بعد ذلك فى الحولين لا يحرّم؛ وقد مضى هذا فى «البقرة» (١) مستوفًى .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى ﴾ « أن » فى موضع نصب فى قول الزجاج؛ وأن المعنى : ووصينا الإنسان بوالديه أن اشكر لى . النحاس : وأجود منه أن تكون « أن » مفسرة؛ والمعنى : قلنا له أن اشكر لى ولوالديك . قيل : الشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية . وقال سفيان بن عيينة : من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ، ومن دعا لوالديه فى أدبار الصلوات فقد شكرهما .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قد بيّنا أن هذه الآية والتى قبلها نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقّاص لما أسلم ، وأن أمه وهى حَمْنة بنت أبى سفيان بن أُمَيّة حلفت ألا تأكل؛ كما تقدم فى الآية قبلها .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ نعت لمصدر محذوف ؛ أى مصاحبا معروفا؛ يقال صاحبته مصاحبة ومصاحَبًا . و«معروفا» أى ما يحسن .

والآية دليــلٌ على صلة الأبوين الكافرَيْن بما أمكن من المال إن كانا فقيرين ، وإلانة القول والدعاء إلى الاسلام برفق . وقد قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق للنبيّ عليه الصلاة والسلام وقد قَدِمت عليها خالتها وقيل أمها من الرضاعة فقالت : يا رسول الله، إن أمّى قدمت علىّ وهى راغبة أفأصلها؟ قال "نعم" . وراغبة قيل معناه : عن الإسلام . قال ابن عطية : والظاهر عندى أنها راغبة فى الصلة ، وما كانت لتقدَم على أسماء لولا حاجتها . ووالدة أسماء هى قُتيلة بنت عبد العُزّى بن عبد أسعد . وأم عائشة وعبد الرحمن هى أم رُومان قديمة الإسلام .

(١) راجع ج ٣ ص ١٦٠

الثامنــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ وصيةٌ لجميع العالَم ؛ كأن المأمور الإنسان . و « أناب » معناه مال ورجع إلى الشيء ؛ وهذه سبيل الأنبياء والصالحين . وحكى النقاش أن المأمور سعد ، والذى أناب أبو بكر ؛ وقال : إن أبا بكر لمـا أسلم أتاه سعد وعبـد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزبير فقالوا : آمنت ؟ قال نعم ؛ فنزلت فيه « أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ »[(1)] فلما سمعها الستة آمنوا ؛ فأنزل الله تعـالى فيهم « والذِينَ ٱجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى[(2)] ــ إلى قوله ــ أولئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ » . وقيـل : الذى أناب النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس : ولمـا أسلم سعد أسلم معه أخواه عامر وعُوَيْمر ؛ فلم يبق منهم مشرك إلا عُتبة . ثم توعّد عز وجل بالبعث مَن فى القبور والرجوع إليه للجزاء والتوقيف على صغير الأعمال وكبيرها .

قوله تعـالى : يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

المعنى : وقال لقمان لابنه يا بُنَىّ . وهـذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ابنه بقدر قدرة الله تعالى . وهذه الغاية التى أمكنه أن يفهمه ؛ لأن الخردلة يقال إن الحسّ لا يدرك لها ثِقَلا ، إذ لا ترجح ميزانا . أى لو كان للإنسان رزق مثقال حبّة خَرْدَل فى هـذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقها إلى مَن هى رزقه ؛ أى لا تهتم للرزق حتى تشتغل به عن أداء الفرائض وعن اتباع سبيل من أناب إلىّ .

قلت : ومن هذا المعنى قولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن مسعود : " لا تُكثِر همّك ما يُقَدَّر يكن وما تُرْزق يأتك " . وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ؛ سبحانه لا شريك له . وروى أن ابن لقمان سأل أباه

(١) آية ٩ سورة الزمر . (٢) آية ١٧ سورة الزمر .

عن الحبة تقع في سُفل البحر أيعلمها الله؟ فراجعه لقمان بهذه الآية . وقيل : المعنى أنه أراد الأعمال، المعاصي والطاعات؛ أي إن تك الحسنة أو الخطيئة مثقالَ حبة يأت بها الله؛ أي لا تفوت الإنسان المقدّر وقوعُها منه . وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف مضاف [ذلك][1] إلى تبيين قدرة الله تعالى . وفي القول الأول ليس فيه ترجية ولا تخويف .

قوله تعالى : ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ عبارة تصلح للجواهر، أي قدر حبة، وتصلح للأعمال؛ أي ما يزنه على جهة المماثلة قدر حبة . ومما يؤيّد قول من قال هي من الجواهر قراءة عبد الكريم الجَزَرِي « فتكِنّ » بكسر الكاف وشدّ النون، من الكِنّ الذي هو الشيء المغطى . وقرأ جمهور القراء « إن تك » بالتاء من فوق « مِثقالَ » بالنصب على خبر كان ، وآسمها مضمر تقديره : مسألتك، على ما روى؛ أو المعصية والطاعة على القول الثاني؛ ويدل على صحته قولُ ابن لقمان لأبيه : يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله؟ فقال لقمان : « يا بُنيّ إنها إن تك مِثقالَ حبّةٍ مِن خَرْدَلٍ فتكن في صَخْرةٍ » الآية . فما زال آبنه يضطرب حتى مات؛ قاله مقاتل . والضمير في « إنها » ضمير القصة؛ كقولك : إنها هند قائمة؛ أي القصة إنها إن تك مثقالَ حبة . والبصريون يجيزون : إنها زيد ضربته؛ بمعنى إن القصة . والكوفيون لا يجيزون هذا إلا في المؤنث كما ذكرنا . وقرأ نافع « مِثقالُ » بالرفع . وعلى هذا « تك » يرجع إلى معنى خردلة؛ أي إن تك حبة من خردل . وقيل : أسند إلى المثقال فعلًا فيه علامة التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنث هو منه؛ لأن مثقال الحبة من الخردل إما سيئة أو حسنة؛ كما قال : « فله عشر أمثالها » فأنّث وإن كان المثل مذكرا؛ لأنه أراد الحسنات . وهذا كقول الشاعر :

مَشَيْنَ كما اهتزت رِماحٌ تسفّهتْ ＊ أعاليَها مَرُّ الرياح النّواسِمِ[2]

و« تك » هاهنا بمعنى تقع فلا تقتضي خبرا .

---

(١) زيادة عن ابن عطية . (٢) البيت لذي الرمة . و« تسفهت » : استخفت ، والسفه خفة العقل وضعفه . و« النواسم » : الضعيفة الهبوب . وصف نساء فيقول : اذا مشين اهتززن في مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت .

قوله تعالى : ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ قيل : معنى الكلام المبالغة والانتهاء فى التفهيم ؛ أى أن قدرته تعالى تنال ما يكون فى تضاعيف صخرة وما يكون فى السماء والأرض . وقال ابن عباس : الصخرة تحت الأرضين السبع وعليها الأرض . وقيل : هى الصخرة على ظهر الحوت . وقال السُّدّى : هى صخرة ليست فى السموات والأرض ، بل هى وراء سبع أرضين عليها مَلَك قائم ؛ لأنه قال : ﴿ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ ﴾ وفيهما غُنية عن قوله : « فتكن فى صخرة » ؛ وهذا الذى قاله ممكن ، ويمكن أن يقال : قوله « فتكن فى صخرة » تأكيد ؛ كقوله : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ » ، وقوله : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا » .

قوله تعالى : يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ وصّى ابنه بعُظْم الطاعات وهى الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهذا إنما يريد به بعد أن يمتثل ذلك هو فى نفسه ويزدجر عن المنكر، وهنا هى الطاعات والفضائل أجمع . ولقد أحسن من قال :

وابدأ بنفسك فانْهها عن غيّها * فاذا انتهت عنه فأنت حكيم

فى أبيات تقدّم فى « البقرة » ذكرها[1] .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ يقتضى حضًّا على تغيير المنكر وإن نالك ضرر ؛ فهو إشعار بأن المغيّر يؤذَى أحيانا ؛ وهذا القدر على جهة الندب والقوة فى ذات الله ؛ وأما على اللزوم فلا ، وقد مضى الكلام فى هذا مستوفًى فى « آل عمران والمائدة »[2] . وقيل : أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها، والا يخرج من الجزع الى معصية الله عز وجل ؛ وهذا قول حسن لأنه يعم .

(١) راجع جـ١ ص ٣٦٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ٤ ص ٤٧ ، وجـ٦ ص ٢٥٣ طبعة أولى أو ثانية .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ قال ابن عباس : من حقيقة الإيمان الصبرُ على المكاره . وقيل : إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من عزم الأمور؛ أى مما عزمه الله وأمر به ؛ قاله ابن جريج . ويحتمل أن يريد إن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة . وقول ابن جريج أصوب .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـ قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائى وابن مُحَيْصن « تصاعر» بالألف بعد الصاد . وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد «تُصَعِّر» وقرأ الجَحْدَرِى «تُصْعِر» بسكون الصاد؛ والمعنى متقارب . والصَّعَر : الميل ؛ ومنه قول الأعرابى ؛ وقد أقام الدهر صعرى ، بعد أن أقمت صعره . ومنه قول عمرو بن حُنَىّ التَّغلبى :

وكنا إذا الجبّار صعّر خدّه * أقمنا له من ميله فتقوّم[1]

وأنشده الطبرى « فتقوّما »[2] . قال ابن عطية : وهو خطأ؛ لأن قافية الشعر مخفوضة ؛ وفى بيت آخر :

* أقمنا له من خدّه المتصعر *

قال الهروى : «ولا تصاعر» أى لا تعرض عنهم تكبّرا عليهم؛ يقال : أصاب البعيرَ صَعَرٌ وصَيَدٌ إذ أصابه داء يَلْوِى منه عنقه ، ثم يقال للتكبّر : فيه صَعَر وصَيَد؛ فمعنى « لا تصعّر » أى لا تلزم خدّك الصَّعَر . وفى الحديث : "يأتى على الناس زمان ليس فيهم إلا أَصْعَرُ أو أبتر"

---

(١) يريد : فتقوم أنت .

(٢) قبل هذا البيت كما فى معجم الشعراء للمرزبانى :

تعاطى الملوك الحق ما قصدوا بنا * وليس علينا قتلهم بمحرم

قال المرزبانى : وهذا البيت ـــ بيت الشاهد ـــ يروى من قصيدة المتلمس التى أولها :

يعيرنى أمى رجال ولن ترى * أخا كرم إلا بأن يتكرما

والأصعر : المعرض بوجهه كبرا ؛ وأراد رُذالة النـاس الذين لا دين لهم . وفى الحديث : "كلّ صعّار ملعونٌ" أى كل ذى أُبّهة وكبر .

الثانيــة ــ معنى الآية : ولا تُمِل خدّك للناس كبرا عليهم وإعجابا واحتقارا لهم . وهذا تأويل ابن عباس وجماعة . وقيل : هو أن تلوى شِدقك إذا ذُكر الرجل عندك كأنك تحتقره ؛ فالمعنى : أقبِل عليهم متواضعا مؤنسا مستأنسا ، وإذا حدّثك أصغرهم فأصغ إليه حتى يكمل حديثه . وكذلك كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يفعل .

قلت : ومن هذا المعنى ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث" . فالتدابر الإعراض وترك الكلام والسلام ونحوه . وإنما قيل للإعراض تدابر لأن من أبغضته أعرضت عنه وولّيته دُبرك؛ وكذلك يصنع هو بك . ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك وواجهته لتسرّه ويسرّك ؛ فمعنى التدابر موجود فيمن صعّر خده، وبه فسر مجاهد الآية . وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : قوله «ولا تصاعر خدك للناس» كأنه نهى أن يذلّ الإنسان نفسه من غير حاجة؛ ونحو ذلك روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ليس للإنسان أن يذلّ نفسه" .

الثالثــة ــ قوله تعـالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أى متبخترا متكبرا، مصدر فى موضع الحال، وقـد مضى فى «سبحان»(١). وهو النشاط والمشى فرحا فى غير شغل وفى غير حاجة . وأهل هـذه الخُلُق ملازمون للفخر والخُيَلاء؛ فالمرح مختال فى مشيته . روى يحيى ابن جابر الطائى عن ابن عائذ الأزدى، عن غُضيف بن الحارث قال : أتيت بيت المقدس أنا وعبدالله بن عبيد بن عمير قال فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاصى فسمعته يقول : إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول يا بن آدم ما غرّك بى ! ألم تعلم أنى بيت الوحدة ! ألم تعلم أنى بيت الظلمة ! ألم تعلم أنى بيت الحق ! يابن آدم ما غرّك بي ! لقد كنت تمشى حولى

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٠

فَدَادا . قال ابن عائذ قلت لغُضيف: ما الفَدَاد يا أبا أسماء؟ قال : كبعض مشيتك يا بن أخى أحيانا . قال أبو عبيد : والمعنى ذا مال كثير وذا خُيلاء . وقال صلى الله عليه وسلم : " من جَرّ ثوبه خُيَلاء لاينظر الله إليه يوم القيامة" . والفخور هو الذى يعدد ما أُعطى ولا يشكر الله تعالى؛ قاله مجاهد . وفى اللفظة الفخر بالنسب وغير ذلك .

قوله تعالى : وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

فيـــه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ لما نهاه عن الخُلُق الذميم رسم له الخُلُق الكريم الذى ينبغى أن يستعمله فقال : «وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ» أى توسّط فيه . والقصد مابين الإسراع والبطء؛ أى لاتَدِبّ دبيب المتماوتين ولا تَثِب وثب الشطار؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن " . فأما ما روى عنه عليه السلام أنه كان إذا مشى أسرع، وقول عائشة فى عمر رضى الله عنهما : كان إذا مشى أسرع؛ فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت؛ والله أعلم. وقد مدح الله سبحانه من هذه صفته حسبما تقدم بيانه فى « الفرقان »[1] .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أى انقص منه ؛ أى لا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج إليه؛ فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلّف يؤذى . والمراد بذلك كله التواضع ؛ وقد قال عمر لمؤذن تكلّف رفع الأذان بأكثر من طاقته : لقد خشيت أن ينشق مُرَيْطَاؤك ؛ والمؤذن هو أبو محذورة سَمُرة بن مِعيَر[2] . والمُرَيْطاء : ما بين السرة إلى العانة .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أى أقبحها وأوحشها ؛ ومنه أتانا بوجه منكر . والحمار مَثَل فى الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نُهاقه ؛ ومن استفحاشهم

(١) راجع جـ ١٣ ص ٦٨ .　(٢) فى الأصول : « معمر » بالميم بدل الياء وهو تحريف .

لذكره مجردا أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح فيقولون : الطويل الأذنين؛ كما يكنى عن الأشياء المستقذرة . وقد عُدّ فى مساوئ الآداب أن يجرى ذكر الحمار فى مجلس قوم من أولى المروءة . ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا وإن بلغت منه الرُّجلة[1] . وكان عليه الصلاة والسلام يركبه تواضعا وتذللا لله تبارك وتعالى .

الرابعة ـ فى الآية دليل على تعريف قبح رفع الصوت فى المخاطبة والمُلاحاة[2] بقبح أصوات الحمير، لأنها عالية . وفى الصحيح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا" . وقد روى : أنه ما صاح حمار ولا نبح كلب إلا أن يرى شيطانا . وقال سفيان الثَّورى : صياح كلّ شىء تسبيح إلا نهيق الحمير . وقال عطاء : نهيق الحمير دعاء على الظلمة .

الخامسة ـ وهذه الآية أدب من الله تعالى بترك الصياح فى وجوه الناس تهاونا بهم، أو بترك الصياح جملة؛ وكانت العرب تفخر بجهارة الصوت الجَهِير وغير ذلك، فمن كان منهم أشد صوتا كان أعز، ومن كان أخفض كان أذل، حتى قال شاعرهم :

جَهِير الكلام جهير العُطاس * جهير الرُّواء[3] جهير النَّعَم

ويَعْدُو على الأين[4] عَدْوَى الظَّلِيم * ويعلو الرجال بخَلْقٍ عَمَم

فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » أى لو أن شيئا يهاب لصوته لكان الحمار؛ فجعلهم فى المثل سواء .

السادسة ـ قوله تعالى : ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ اللام للتأكيد، ووحّد الصوت وإن كان مضافا إلى الجماعة لأنه مصدر والمصدر يدل على الكثرة، وهو مصدر صات يَصُوت صَوْتا فهو صائت . ويقال : صوّت تصويتا فهو مصوِّت . ورجل صاتٌ أى شديد الصوت بمعنى صائت، كقولهم : رجل مالٌ ونالٌ؛ أى كثير المال والنوال .

---

(١) الرجلة (بضم فسكون) : المشى راجلا .
(٢) الملاحاة : الملاومة والمباغضة .
(٣) الرواء (بالضم والمد) : المنظر الحسن . والنعم : الإبل .
(٤) الأين : الإعياء . والخلق العمم : التام .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ذكر نعمه على بنى آدم، وأنه سخر لهم «ما فى السموات» من شمس وقمر ونجوم وملائكة تحوطهم وتجر إليهم منافعهم. «وما فى الأرض» عام فى الجبال والأشجار والثمار وما لا يحصى. ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ﴾ أى أكملها وأتمها. وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة «وأصبغ» بالصاد على بدلها من السين؛ لأن حروف الاستعلاء تجتذب السين من سُفلها إلى عُلوها فتردّها صادا. والنِّعَم جمع نِعمة كسِدْرة وسِدَر (بفتح الدال) وهى قراءة نافع وأبى عمرو وحفص. الباقون «نِعمةً» على الإفراد والإفراد يدل على الكثرة؛ كقوله تعالى «وإنْ تَعُدُّوا نِعْمةَ اللهِ لا تُحْصُوها». وهى قراءة ابن عباس من وجوه صحاح. وقيل: إن معناها الإسلام؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية: "الظاهرةُ الإسلام وما حَسُن من خَلْقك والباطنة ماستر عليك من سيّئ عملك". النحاس: وشرحُ هذا أن سعيد بن جُبير قال فى قول الله عز وجل «ولَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُم ولِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليكم»(1) قال: يدخلكم الجنة. وتمام نعمة الله عز وجل على العبد أن يدخله الجنة، فكذا لمّا كان الإسلام يؤول أمره إلى الجنة سُمّى نعمة. وقيل: الظاهرة الصحة وكمال الخلق، والباطنة المعرفة والعقل. وقال المحاسبى: الظاهرة نعم الدنيا، والباطنة نعم العُقْبى. وقيل: الظاهرة ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال فى الناس وتوفيق الطاعات، والباطنة ما يجده المرء فى نفسه من العلم بالله

(1) آية ٦ سورة المائدة.

وحسن اليقين وما يدفع الله تعالى عن العبد من الآفات . وقد سرد الماوردى فى هذا أقوالا تسعة ، كلها ترجع إلى هذا .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ تقدّم معناها فى « الحج »[1] وغيرها . نزلت فى يهودى جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد، أخبرنى عن ربك ، من أى شىء هو؟ فجاءت صاعقة فأخذته ؛ قاله مجاهد ، وقد مضى هذا فى « الرعد »[2] . وقيل : إنها نزلت فى النضر بن الحارث ، كان يقول : إن الملائكة بنات الله ؛ قاله ابن عباس . ﴿ يُجَادِلُ ﴾ يخاصم ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى بغير حجة ﴿ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ أى نير بين ؛ إلا الشيطان فيما يلقى إليهم ، « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم »[3] و إلا تقليد الأسلاف كما فى الآية بعد . ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ يتبعونه .

قوله تعالى : وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى . ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع ؛ نظيره : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن »[4] . وفى حديث جبريل قال : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" . ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ قال ابن عباس : لا إله إلا الله ؛ وقد مضى فى « البقرة »[5] . وقد قرأ على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه والسلمى وعبد الله بن مسلم بن يسار « ومن يُسَلِّم » . النحاس : و « يسلم » فى هذا أعرف ؛ كما قال عز وجل « فقل أسلمتُ وجهىَ لله »[6] ومعنى « أسلمت وجهى لله » قصدت بعبادتى إلى الله عز وجل ؛ و يكون « يسلّم » على التكثير ؛ إلا أن المستعمل

(١) راجع ج ١٢ ص ٥ و ١٥ . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٩٨ . (٣) آية ١٢١ سورة الأنعام . راجع ج ٧ ص ٧٧ . (٤) آية ١١٢ سورة طه . (٥) آية ٢٥٦ سورة البقرة . راجع ج ٣ ص ٢٧٩ . (٦) آية ٢٠ سورة آل عمران . راجع ج ٤ ص ٤٥ .

فى سلمت أنه بمعنى دفعت ؛ يقال سلمت فى الحنطة ، وقد يقال أسلمت . الزمخشرى :
قرأ علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه «ومن يسلّم» بالتشديد؛ يقال : أسلم أمرك وسلّم
أمرك إلى الله تعالى ؛ فإن قلت : ماله عُدّى بإلى ، وقد عدّى باللام فى قوله عز وجل
«بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ»؟ قلت: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالما لله؛
أى خالصا له . ومعناه مع إلى راجع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع
إليه . والمراد التوكل عليه والتفويض إليه . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ أى مصيرها .

قوله تعالى : وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أى نجازيهم.
﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ . ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ أى نبقيهم فى الدنيا مدّة قليلة يتمتعون بها .
﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أى نلجئهم ونسوقهم . ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ وهو عذاب جهنم . ولفظ
« مَن » يصلح للواحد والجمع ، فلهذا قال « كفره » ثم قال « مرجعهم » وما بعده
على المعنى .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أى هم
يعترفون بأن الله خالقهن فلم يعبدون غيره . ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى على ما هدانا له من دينه ،
وليس الحمد لغيره . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا ينظرون ولا يتدبرون . ﴿ لِلَّهِ

مَا فِي السموات وَالْأَرْضِ ﴾ أي ملكا وخلقا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أي الغني عن خلقه وعن عبادتهم ، وإنما أمرهم لينفعهم . ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ أي المحمود على صنعه .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

لما احتجّ على المشركين بما احتجّ بيّن أن معاني كلامه سبحانه لا تنفد، وأنها لا نهاية لها . وقال القفّال : لما ذكر أنه سخر لهم ما في السموات وما في الأرض وأنه أسبغ النعم نبّه على أن الأشجار لو كانت أقلاما والبحار مدادا فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب . قال القُشَيري : فردّ معنى تلك الكلمات إلى المقدورات، وحملُ الآية على الكلام القديم أولى ؛ والمخلوق لا بدّ له من نهاية ، فإذا نفيت النهاية عن مقدوراته فهو نفي النهاية عما يقدر في المستقبل على إيجاده، فأما ما حصره الوجود وعدّه فلا بدّ من تناهيه ، والقديمُ لا نهاية له على التحقيق . وقد مضى الكلام في معنى « كلمات الله » في آخر « الكهف »(1) . وقال أبو علي : المراد بالكلمات والله أعلم ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود . وهذا نحو مما قاله القفّال ، وإنما الغرض الإعلام بكثرة معاني كلمات الله وهي في نفسها غير متناهية، وإنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة ؛ لا أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور . ومعنى نزول الآية يدل على أن المراد بالكلمات الكلام القديم . قال ابن عباس : إن سبب هذه الآية أن اليهود قالت : يا محمد ، كيف عُنينا بهذا القول « وما أُوتيتم من العِلمِ إلا قليلا »(2) ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه ، وعندك أنها تبيان كل شيء ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " التوراة قليل من كثير " ونزلت هذه الآية ، والآية مدنية . قال أبو جعفر النحاس : فقد تبيّن أن الكلمات ها هنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء ؛ لأنه عز وجل علم قبل أن

(1) راجع جـ ١١ ص ٦٨ (2) آية ٨٥ سورة الإسراء . راجع جـ ١٠ ص ٣٢٤

يخلق الخلق ما هو خالق فى السموات والأرض من كل شىء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر ، وعلم الأجناس كلّها وما فيها من شعرة وعضو ، وما فى الشجرة من ورقة ، وما فيها من ضروب الخلق ، وما يتصرف فيـه من ضروب الطّعم واللون ؛ فلو سمّى كل دابة وحدها ، وسمّى أجزاءها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحولت عليه من الأحوال، وما زاد فيها فى كل زمان ، وبيّن كلّ شجرة وحدها وما تفرعت إليـه ، وقدّر ما ييبس من ذلك فى كل زمان ، ثم كتب البيان على كل واحد منها ما أحاط الله جل ثناؤه به منها ، ثم كان البحر مدادا لذلك البيان الذى بيّن الله تبارك وتعالى عن تلك الأشـياء يمدّه من بعده سبعة أبحر لكان البيان عن تلك الأشياء أكثر .

قلت : هـذا معنى قول القفال ، وهو قول حسن إن شاء الله تعالى . وقال قوم : إن قريشا قالت سيتم هذا الكلام لمحمد وينحسر ؛ فنزلت . وقال السّدّى : قالت قريش ما أكثر كلام محمد ! فنزلت .

قوله تعـالى : ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ﴾ قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء ، وخبره فى الجملة التى بعدها ، والجملة فى موضع الحال ؛ كأنه قال : والبحر هـذه حاله ؛ كذا قدّرها سيبويه . وقال بعض النحويين : هو عطف على « أنّ » لأنها فى موضع رفع بالابتداء . وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحاق « والبحرَ » بالنصب على العطف على « ما » وهى اسم « أنّ » . وقيل : أى ولو أن البحر يمدّه أى يزيد فيـه . وقرأ ابن هُرْمُز والحسن « يُمِدّه » ؛ من أمدّ . قالت فرقة : هما بمعنًى واحد . وقالت فرقة : مدّ الشىءُ بعضه بعضا ؛ كما تقول : مدّ النيل الخليج ؛ أى زاد فيه . وأمدّ الشىء ما ليس منه . وقد مضى هذا فى « البقرة ، وآل عمران »[1] . وقرأ جعفر بن محمد « والبحر مداده » . ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللَّهِ﴾ تقدّم[2] . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تقدّم أيضا[3] . وقال أبو عبيدة : البحر هاهنا الماء العذب الذى ينبت الأقلام ، وأما الماء الملح فلا ينبت الأقلام .

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة . وجـ ٤ ص ١٩٤ وما بعدها .
(٢) راجع جـ ١١ ص ٦٨ . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

قوله تعالى : مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ قال الضحاك : المعنى ما ابتداء خلقكم جميعا إلا كخلق نفس واحدة ، وما بعثكم يوم القيامة إلا كبعث نفس واحدة . قال النحاس : وهكذا قدره النحويون بمعنى إلا كخلق نفس واحدة ؛ مثل « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » . وقال مجاهد : لأنه يقول للقليل والكثير كن فيكون . ونزلت الآية في أُبَيّ بن خلف وأبي الأسدين[1] ومُنَبِّه ونبيه ابني الحجاج بن السباق ، قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قد خلقنا أطوارا ، نطفةً ثم علقةً ثم مُضْغَةً ثم عِظاما ، ثم تقول إنا نُبعث خلقًا جديدًا جميعا في ساعة واحدة ! فأنزل الله تعالى « ما خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » ؛ لأن الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد ، وخلقُه للعالَم كخلقه لنفس واحدة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لما يقولون ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بما يفعلون .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ تقدم في « الحج وآل عمران »[2] . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أي ذللهما بالطلوع والأفول تقديرا للآجال وإتماما للمنافع . ﴿ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قال الحسن : إلى يوم القيامة . قتادة :

(١) كذا في نسخ الأصل . وفي روح المعاني : « وأبي الأسود » .

(٢) في الأصول : «الحج والأنعام» وهو تحريف . راجع جـ ١٢ ص ٩٠ وجـ ٤ ص ٥٦

إلى وقته فى طلوعه وأفوله لا يَعْدُوه ولا يَقْصُر عنه . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى من قدر على هذه الأشياء فلا بدّ من أن يكون عالما بها ، والعالم بها عالم بأعمالكم . وقراءة العامة « تعملون » بالتاء على الخطاب . وقرأ السُّلَمِيّ ونصر بن عاصم والدُّورِيّ عن أبى عمرو بالياء على الخبر . ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى فعل الله تعالى ذلك لتعلموا وتقرّوا ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ أى الشيطان ؛ قاله مجاهد . وقيل : ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ العليّ فى مكانته ، الكبير فى سلطانه .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١)

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ ﴾ أى السفن ﴿ تَجْرِي ﴾ فى موضع الخبر . ﴿ فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ أى بلطفه بكم وبرحمته لكم فى خلاصكم منه . وقرأ ابن هُرمُز « بنعمات الله » جمع نعمة وهو جمع السلامة ، وكان الأصل تحريك العين فأسكنت . ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾ «من» للتبعيض ، أى ليريكم جرى السفن ؛ قاله يحيى بن سلام . وقال ابن شجرة : «من آياته» ما تشاهدون من قدرة الله تعالى فيه . النقاش : ما يرزقهم الله منه . وقال الحسن : مفتاح البحار السفن ، ومفتاح الأرض الطرق ، ومفتاح السماء الدعاء . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى صبّار لقضائه شكور على نعمائه . وقال أهل المعانى : أراد لكل مؤمن بهذه الصفة ؛ لأن الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان . والآية : العلامة ، والعلامة لا تستبين فى صدر كل مؤمن إنما تستبين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء . قال الشَّعْبِيّ : الصبر نصف الإيمان والشكر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله ؛ ألم تر إلى قوله تعالى « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » وقوله « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ »(١) وقال عليه السلام : " الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر " .

---

(١) آية ٢٠ سورة الذاريات .

قوله تعالى : وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ قال مقاتل : كالجبال . وقال الكلبي : كالسحاب ؛ وقاله قتادة . جمع ظُلّة ؛ شبه الموج بها لكبرها وارتفاعها . قال النابغة فى وصف بحر :

يماشيهن أخضر ذو ظلال * على حافاته فِلَق الدِّنان

وإنما شبّه الموج وهو واحد بالظلل وهو جمع؛ لأن الموج يأتى شيئا بعد شىء ويركب بعضه بعضا كالظلل . وقيل : هو بمعنى الجمع، وإنما لم يجمع لأنه مصدر . وأصله من الحركة والازدحام؛ ومنه : ماج البحر، والناس يموجون . قال كعب :

فجئنا إلى موج من البحر وسطه * أحابيش منهم حاسر ومقنع

وقرأ محمد بن الحنفية « موج كالظلال » جمع ظِلّ ﴿ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ موحّدين له لا يدعون لخلاصهم سواه؛ وقد تقدّم (١) . ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ ﴾ يعنى من البحر . ﴿ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ قال ابن عباس : مُوفٍ بما عاهد عليه الله فى البحر . النقاش : يعنى عدل فى العهد ، وفَى فى البر بما عاهد عليه الله فى البحر . وقال الحسن : «مقتصد» مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة . وقال مجاهد : «مقتصد» فى القول مضمر للكفر . وقيل : فى الكلام حذف ؛ والمعنى : فمنهم مقتصد ومنهم كافر . ودل على المحذوف قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ الختّار: الغدار. والختر: أسوأ الغدر. قال عمرو بن معديكرب :

فإنك لو رأيت أبا عمير * ملأت يديك من غدر وختر

وقال الأعشى :

بالأبلق الفَرْدِ من تيماء منزلُهُ * حِصنٌ حَصِين وجارٌ غيرُ ختّار

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٥ .

قال الجوهري : الختر الغدر؛ يقال : ختره فهو ختار. الماوردي : وهو قول الجمهور . وقال عطية : إنه الجاحد. ويقال: ختر يختر ويختُر (بالضم والكسر) خترا؛ ذكره القُشيري . وجحدُ الآيات إنكار أعيانها . والجحد بالآيات إنكار دلائلها .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ يعني الكافر والمؤمن ؛ أي خافوه ووحّدوه . ﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ تقدّم معنى « يجزى » في البقرة[1] وغيرها . فإن قيل : فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث[2] لم تمسّه النار إلا تحلّة القسم". وقال: "من ابتلى بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كنّ له حجابا من النار" . قيل له : المعنى بهذه الآية أنه لا يحمل والد ذنب ولده، ولا مولود ذنب والده، ولا يؤاخذ أحدهما عن الآخر . والمعنى بالأخبار أن ثواب الصبر على الموت والإحسان إلى البنات يحجب العبد عن النار ، ويكون الولد سابقا له إلى الجنة . ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي البعث ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ﴾ أي تخدعنكم ﴿ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ بزينتها وما تدعو إليه فتتكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العمل للآخرة ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ قراءة العامة هنا وفي سورة الملائكة[3] والحديد[4] بفتح الغين، وهو الشيطان في قول مجاهد وغيره، وهو الذي يغر الخلق ويمنيهم الدنيا ويلهيهم عن الآخرة . وفي سورة النساء « يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ »[5] . وقرأ سِماك بن حرب وأبو حَيوة وابن السَّمَيْقَع بضم الغين ؛ أي لا تغترّوا كأنه مصدر غرّ يغر غُرورا . قال سعيد بن جُبير : هو أن يعمل بالمعصية ويتمنى المغفرة .

---

(١) راجع ج ١ ص ٣٧٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) أي لم يبلغوا مبلغ الرجال ويجري عليهم القلم فتكتب عليهم الحنث؛ وهو الإثم . (٣) هي سورة فاطر آية ٥ (٤) آية ١٤ (٥) آية ١٢٠

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

زعم الفراء أن هذا معنى النفى؛ أى ما يعلمه أحد إلا الله تعالى. قال أبو جعفر النحاس: وإنما صار فيه معنى النفى والإيجاب بتوقيف الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال فى قول الله عز وجل « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » : " إنها هذه " .

قلت: قد ذكرنا فى سورة «الأنعام»[1] حديث ابن عمر فى هذا، خرّجه البخارى. وفى حديث جبريل عليه السلام قال: " أخبرنى عن الساعة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل هن خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى: إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا" قال: "صدقت" . لفظ أبى داود الطيالسى. وقال عبد الله بن مسعود: كل شىء أوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم غير خمس: « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » الآية إلى آخرها. وقال ابن عباس: هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى، ولا يعلمها ملك مقرب ولا نبى مرسل، فمن ادّعى أنه يعلم شيئا من هذه فقد كفر بالقرآن؛ لأنه خالفه. ثم إن الأنبياء يعلمون كثيرا من الغيب بتعريف الله تعالى إياهم. والمراد إبطال كون الكهنة والمنجمين ومن يستسقى بالأنواء[2] وقد يعرف بطول التجارب أشياء من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك؛ حسبما تقدّم ذكره فى الأنعام[3]. وقد تختلف التجربة وتنكسر العادة ويبقى العلم لله تعالى وحده. وروى أن يهوديا كان يحسب حساب النجوم، فقال لابن عباس: إن شئت نبّأتك نجم ابنك، وأنه يموت بعد عشرة أيام،

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١ (٢) الأنواء: جمع نوء، وهو سقوط نجم فى المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع آخر من المشرق يقابله فى ساعته. وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها.

(٣) راجع جـ ٧ ص ٢ وما بعدها.

وأنت لا تموت حتى تعمى ، وأنا لا يحول علىّ الحول حتى أموت . قال : فأين موتك يا يهودىّ ؟ فقال : لا أدرى . فقال ابن عباس : صدق الله « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » فرجع آبن عباس فوجد آبنه محموما ، ومات بعد عشرة أيام . ومات اليهودىّ قبل الحول ، ومات ابن عباس أعمى . قال علىّ بن الحسين راوى هذا الحديث : هـذا أعجب الأحاديث . وقال مقاتل : إن هذه الآية نزلت فى رجل من أهـل البادية اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة، أتى النبىّ صلى الله عليـه وسلم فقال : إن امرأتى حبـلى فأخبرنى ماذا تلد، وبلادنا جدبة فأخبرنى متى ينزل الغيث، وقد علمتُ متى وُلدت فأخبرنى متى أموت، وقـد علمت ما عملت اليوم فأخبرنى ماذا أعمل غدا، وأخبرنى متى تقوم الساعة ؟ فأنزل الله تعالى هـذه الآية ؛ ذكره القُشَيْرِىّ والماوَرْدِىّ . وروى أبو المَلِيح عن أبى عَزّة الهُذَلِىّ قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : " إذا أراد الله تعالى قَبْض رُوح عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يَقْدَمها — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ — إلى قوله — بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » ذكره الماوردىّ ، وخرّجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بمعناه . وقد ذكرناه فى كتاب (التذكرة) مستوفًى . وقراءة العامة « وَيُنَزِّلُ » مشدّدا . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائىّ مخففا . وقـرأ أُبَىّ بن كَعْب « بِأَيَّةِ أَرْضٍ » الباقون « بِأَيِّ أَرْضٍ » . قال الفراء : اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أىّ . وقيل : أراد بالأرض المكان فذكّر . قال الشاعر :

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها * ولا أرضَ أبقـلَ إبقالَهـا [1]

وقال الأخفش : يجوز مررت بجارية أىّ جارية، وأيّة جارية . وشبه سيبويه تأنيث «أىّ» بتأنيث كُلّ فى قولهـم : كُلّتهنّ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ « خبير » نعت لـ « عليم » أو خبر بعد خبر . والله تعالى أعلم .

(١) القائل هو عامر بن جوين الطائى . وصف أرضا مخصبة لكثرة ما نزل بها من الغيث . والمزنة : السحابة . والودق : المطر .

تفسير سورة السجدة

وهى مكية، غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة؛ وهى قوله تعالى : « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا »(١) إلى تمام ثلاث آيات؛ قاله الكلبي ومقاتل. وقال غيرهما : إلا خمس آيات، من قوله تعالى : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ(٢) — إلى قوله — الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ » . وهى ثلاثون آية . وقيل تسع وعشرون . وفى الصحيح عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة « الٓمٓ . تَنْزِيلُ » السجدة و « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » الحديث . وخرّج الدارمىّ أبو محمد فى مسنده عن جابر بن عبد الله قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ « الٓمٓ . تَنْزِيلُ » السجدة . و « تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ » . قال الدارمىّ : وأخبرنا أبو المغيرة قال حدثنا عبدة عن خالد بن معدان قال : اقرءوا المنجية ، وهى « الٓمٓ . تَنْزِيلُ » فإنه بلغنى أن رجلا كان يقرؤها ، ما يقرأ شيئا غيرها ، وكان كثير الخطايا ؛ فنشرت جناحها عليه وقالت : ربّ اغفر له فإنه كان يُكثر من قراءتى ؛ فشفّعها الربّ فيه وقال : " اكتبوا له بكل خطيئة حسنة وارفعوا له درجة " .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ الإجماع على رفع « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ » ولو كان منصوبا على المصدر لجاز ؛ كما قرأ الكوفيون « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » . و « تَنْزِيلُ » رفع بالابتداء والخبر ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ . أو خبر على إضمار مبتدأ ؛ أى هذا تنزيل ، أو المتلو تنزيل ، أو هذه الحروف تنزيل . ودلت « الٓمٓ »

(١) آية ١٨ وما بعدها . (٢) آية ١٦ وما بعدها .

على ذكر الحروف . ويجوز أن يكون « لَا رَيْبَ فِيهِ » في موضع الحال من « الكِتَاب » و﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الخبر . قال مكيّ : وهو أحسنها . ومعنى « لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » لا شك فيه أنه من عند الله؛ فليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ هذه « أم » المنقطعة التي تقدر ببل وألف الاستفهام؛ أي بل أيقولون. وهي تدل على خروج من حديث إلى حديث؛ فإنه عزّ وجلّ أثبت أنه تنزيل من رب العالمين ، وان ذلك مما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك الى قوله : « أم يقولون افتراه » أي افتعله واختلقه . ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ كذّبهم في دعوى الافتراء . ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا ﴾ قال قتادة : يعني قريشا، كانوا أمّة أميّة لم يأتهم نذير من قبل محمد صلى الله عليه وسلم . و « لِتُنْذِر » متعلق بما قبلها فلا يوقف على «مِنْ رَبِّكَ» . ويجوز أن يتعلق بمحذوف؛ التقدير: أنزله لتنذر قوما، فيجوز الوقف على « من ربك » . و « ما » في قوله : ﴿ مَا أَتَاهُمْ ﴾ نفي . ﴿ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ صلة . و « نذيرٍ » في محل الرفع، وهو المُعْلِم المُخَوِّف . وقيل : المراد بالقوم أهل الفَتْرة بين عيسى ومحمد عليهما السلام؛ قاله ابن عباس ومقاتل . وقيل : كانت الحجة ثابتة لله جل وعز عليهم بإنذار من تقدّم من الرسل وإن لم يروْا رسولا؛ وقد تقدّم هذا المعنى[1] .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢١

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ عرّفهم كمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأملوه . ومعنى « خَلَقَ » أبدع وأوجد بعد العدم وبعد أن لم تكن شيئا . ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة . قال الحسن : من أيام الدنيا . وقال ابن عباس : إن اليوم من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض مقداره ألف سنة من سِني الدنيا . وقال الضحاك : في ستة آلاف سنة ؛ أي في مدّة ستة أيام من أيام الآخرة . ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدّم في الأعراف والبقرة وغيرهما[(1)]، وذكرنا ما للعلماء في ذلك مستوفًى في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) . وليست « ثُمَّ » للترتيب وإنما هي بمعنى الواو . ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أي ما للكافرين من ولّى يمنع من عذابهم ولا شفيع ؛ ويجوز الرفع على الموضع . ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ في قدرته ومخلوقاته .

قوله تعالى : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يُنزل القضاءَ والقدر . وقيل : ينزل الوحي مع جبريل . وروى عمرو بن مرّة عن عبد الرحمن بن سابط قال : يدبّر أمر الدنيا أربعة : جبريل ، وميكائيل ، وملَك الموت ، وإسرافيل ؛ صلوات الله عليهم أجمعين . فأما جبريل فموكّل بالرياح والجنود . وأما ميكائيل فموكّل بالقطر والماء . وأما ملَك الموت فموكّل بقبض الأرواح . وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم . وقد قيل : إن العرش موضع التدبير ؛ كما أن ما دون العرش موضع التفصيل ؛ قال الله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ »[(2)] . وما دون السموات موضع التصريف ؛ قال الله تعالى : « وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا »[(3)] .

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ وجـ ١ ص ٢٥٤ طبعة ثانية أو ثالثة . (2) آية ٢ سورة الرعد .

(3) آية ٥٠ سورة الفرقان .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ قال يحيى بن سلام : هو جبريل يصعد إلى السماء بعد نزوله بالوحي . النقاش : هو الملك الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . وقيل : إنها أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع حملتها من الملائكة ؛ قاله ابن شجرة . ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ . وقيل : « ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ » أي يرجع ذلك الأمر والتدبير إليه بعد انقضاء الدنيا « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ » وهو يوم القيامة . وعلى الأقوال المتقدمة فالكناية في « يَعْرُجُ » كناية عن الملك ، ولم يجر له ذكر لأنه مفهوم من المعنى ، وقد جاء صريحا في « سَأَلَ سَائِلٌ » قوله : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ »[(1)] . والضمير في ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يعود على السماء على لغة من يذكرها ، أو على مكان الملك الذي يرجع إليه ، أو على اسم الله تعالى ؛ والمراد إلى الموضع الذي أقره فيه ، و إذا رجعتُ إلى الله فقد رجعت إلى السماء ، أي إلى سدرة المنتهى ؛ فإنه إليها يرتفع ما يُصعد به من الأرض ومنها ينزل ما يهبط به إليها ؛ ثبت معنى ذلك في صحيح مسلم . والهاء في « مِقْدَارُهُ » راجعة إلى التدبير ؛ والمعنى : كان مقدار ذلك التدبير ألف سنة من سِني الدنيا ؛ أي يقضي أمر كل شيء لألف سنة في يوم واحد ، ثم يلقيه إلى ملائكته ، فإذا مضت قضى لألف سنة أخرى ، ثم كذلك أبدا ؛ قاله مجاهد . وقيل : الهاء للعروج . وقيل : المعنى أنه يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، ثم يعرج إليه ذلك الأمر فيحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة . وقيل : المعنى يدبر أمر الشمس في طلوعها وغروبها ورجوعها إلى موضعها من الطلوع ، في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة . وقال ابن عباس : المعنى كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة ؛ لأن النزول خمسمائة والصعود خمسمائة . وروى ذلك عن جماعة من المفسرين ، وهو اختيار الطبري ؛ ذكره المهدوي . وهو معنى القول الأول . أي أن جبريل لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة في يوم من أيامكم ؛ ذكره الزمخشري . وذكر الماوردي عن ابن عباس والضحاك أن الملك يصعد في يوم مسيرة ألف سنة . وعن قتادة أن الملك ينزل ويصعد في يوم مقداره ألف سنة ؛ فيكون مقدار

---

(1) آية ٤ سورة المعارج .

نزوله خمسمائة سنة ، ومقدار صعوده خمسمائة على قول قتادة والسدّى . وعلى قول ابن عباس والضحاك النزول ألف سنة ، والصعود ألف سنة . ﴿ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أى مما تحسبون من أيام الدنيا . وهذا اليوم عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة من سِنِى العالَم ، وليسْ بيوم يستوعب نهارا بين ليلتين ؛ لأن ذلك ليس عند الله . والعرب قد تعبّر عن مدة العصر باليوم ؛ كما قال الشاعر :

يومان يومُ مُقامات وأندية * ويوم سير إلى الأعداء تأويب (١)

وليس يريد يومين مخصوصين ، وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين ، فعبّر عن كل واحد من الشطرين بيوم . وقرأ ابن أبى عَبْلة « يُعْرَجُ » على البناء للمفعول . وقرئ « يَعُدُّونَ » بالياء . فأما قوله تعالى : « فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » (٢) فمشكل مع هذه الآية . وقد سأل عبد الله بن فيروز الدّيلمىّ عبدَ الله بن عباس عن هذه الآية وعن قوله : « فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » فقال : أيام سمّاها سبحانه ، وما أدرى ما هى؟ فأكره أن أقول فيها ما لا أعلم . ثم سئل عنها سعيد بن المسيّب فقال : لا أدرى . فأخبرته بقول ابن عباس فقال ابن المسيّب للسائل : هذا ابن عباس اتّقى أن يقول فيها وهو أعلم منى . ثم تكلم العلماء فى ذلك فقيل : إن آية « سَأَلَ سَائِلٌ » هو إشارة إلى يوم القيامة ، بخلاف هذه الآية . والمعنى أن الله تعالى جعله فى صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة ؛ قاله ابن عباس . والعرب تصف أيام المكروه بالطول وأيام السرور بالقصر . قال :

ويوم كظل الرمح قصّر طولَه * دَمُ الزِّق عنّا واصطفاقُ المزاهر

وقيل : إن يوم القيامة فيه أيام ؛ فمنه ما مقداره ألف سنة ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة . وقيل : أوقات القيامة مختلفة ، فيعذّب الكافر بجنس من العذاب ألف سنة ، ثم ينتقل إلى جنس آخر مدته خمسون ألف سنة . وقيل : مواقف القيامة خمسون موقفا ؛ كلّ موقف ألف سنة . فمعنى « يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ » أى مقدار

(١) البيت لسلامة بن جندل . والتأويب فى كلام العرب : سير النهار كله إلى الليل . يقال : أوّب القوم تأويبا أى ساروا بالنهار . (٢) آية ٤ سورة المعارج .

وقت ، أو موقف من يوم القيامة . وقال النحاس : اليوم فى اللغة بمعنى الوقت ؛ فالمعنى تعرج الملائكة والروح إليه فى وقت كان مقداره ألف سنة ، وفى وقت آخر كان مقداره خمسين ألف سنة . وعن وهب بن منبه ، « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » قال : ما بين أسفل الأرض إلى العرش . وذكر الثعلبىّ عن مجاهد وقتادة والضحاك فى قوله تعالى : « تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »(١) أراد من الأرض إلى سدرة المنتهى التى فيها جبريل . يقول تعالى : يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة فى يوم واحد من أيام الدنيا . وقوله : ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يعنى إلى المكان الذى أمرهم الله تعالى أن يعرجوا إليه . وهذا كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : « إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ »(٢) أراد أرض الشام . وقال تعالى : « وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ »(٣) أى إلى المدينة . وقال أبو هريرة قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أتانى ملك من ربى عز وجل برسالة ثم رفع رجله فوضعها فوق السماء والأخرى على الأرض لم يرفعها بعد " .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أى علم ما غاب عن الخلق وما حضرهم . و « ذَٰلِكَ » بمعنى أنا ، حسبما تقدّم بيانه فى أوّل البقرة(٤) . وفى الكلام معنى التهديد والوعيد؛ أى أخلصوا أفعالكم وأقوالكم فإنى أجازى عليها .

قوله تعالى : ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

(١) آية ٤ سورة المعارج . (٢) آية ٩٩ سورة الصافات . (٣) آية ١٠٠ سورة النساء .
(٤) راجع جـ ١ ص ١٥٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر « خَلْقَهُ » بإسكان اللام . وفتحها الباقون . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم طلبا لسهولتها . وهو فعل ماض فى موضع خفض نعت لـ « شىء » . والمعنى على ما روى عن ابن عباس : أحكم كلّ شىء خلقه ، أى جاء به على ما أراد ، لم يتغيّر عن إرادته . وقول آخر — أن كل شىء خلقه حسن ؛ لأنه لا يقدر أحد أن يأتى بمثله ؛ وهو دال على خالقه . ومن أسكن اللام فهو مصدر عند سيبويه ؛ لأن قوله : « أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خلقه » يدلّ على : خَلَقَ كلّ شىء خَلْقا ؛ فهو مثل « صُنْعَ اللهِ »(1) و « كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ »(2) . وعند غيره منصوب على البدل من « كلّ » أى الذى أحسن خلق كل شىء . وهو مفعول ثان عند بعض النحويين ، على أن يكون معنى « أَحْسَنَ » أفهم وأعلم ؛ فيتعدّى إلى مفعولين ، أى أفهم كل شىء خلقه . وقيل : هو منصوب على التفسير ؛ والمعنى : أحسن كل شىء خلقا . وقيل : هو منصوب بإسقاط حرف الجر ، والمعنى : أحسن كلّ شىء فى خلقه . وروى معناه عن ابن عباس . و﴿ أَحْسَنَ ﴾ أى أتقن وأحكم ؛ فهو أحسن من جهة ما هو لمقاصده التى أريد لها . ومن هذا المعنى قال ابن عباس وعكرمة : ليست استُ القرد بحسنة ، ولكنها متقنة محكمة . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد « أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ » قال : أتقنه . وهو مثل قوله تبارك وتعالى : « الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ »(3) أى لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ، ولا خلق البهيمة [على] خلق الإنسان . ويجوز « خلقه » بالرفع ؛ على تقدير ذلك خلقه . وقيل : هو عموم فى اللفظ خصوص فى المعنى ؛ والمعنى : حسّن خَلْق كل شىء حَسَنٍ . وقيل : هو عموم فى اللفظ والمعنى ، أى جعل كل شى خلقه حسنا ، حتى جعل الكلب فى خلقه حسنا ؛ قاله ابن عباس . وقال قتادة : فى استِ القرد حسنة .

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ يعنى آدم . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ تقدّم فى « المؤمنين »(4) وغيرها . وقال الزجاج : « مِن ماءٍ مَهِينٍ » ضعيف .

(1) آية ٨٨ سورة النمل . (2) آية ٢٤ سورة النساء . (3) آية ٥٠ سورة طه .
(4) راجع جـ ١٢ ، ص ١٠٩

وقال غيره « مَهين » لا خطر له عند الناس . ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ رجع إلى آدم؛ أي سوّى خلقه. ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ ثم رجع إلى ذريته فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ﴾ . وقيل : ثم جعل ذلك الماء المَهين خلقا معتدلا، وركّب فيه الروح وأضافه إلى نفسه تشريفا. وأيضا فإنه من فعله وخلقه كما أضاف العبد إليه بقوله : « عبدى » . وعبّر عنه بالنفخ لأن الروح فى جنس الريح . وقد مضى هذا مبيناً فى « النساء »(1) وغيرها . ﴿ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ أى ثم أنتم لا تشكرون بل تكفرون .

قوله تعالى : وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ هذا قول منكرى البعث؛ أى هلكنا وبطلنا وصرنا ترابا . وأصله من قول العرب : ضل الماء فى اللبن إذا ذهب . والعرب تقول للشيء غاب عليه غيره حتى خفى فيه أثره : قد ضل . قال الأخطل :

كنتَ القَذَى فى موج أكدر مُزْبد * قذف الأتىّ به فضلّ ضلالا

وقال قُطْرُب : معنى ضللنا غبنا فى الأرض . وأنشد قول النابغة الذبيانى :

فآبَ مُضلّوه بعين جليّة * وغُودر بالجَوْلان حَزْمٌ ونائلُ

وقرأ ابن مُحَيصن ويحيى بن يَعْمَر « ضَلِلْنَا » بكسر اللام، وهى لغة . قال الجوهرى : وقد ضللت أضِل قال الله تعالى : « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي »(2) . فهذه لغة نجد وهى الفصيحة . وأهل العالية يقولون : « ضلِلت » — بكسر اللام — أضَلّ . وهو ضالّ تالّ، وهى الضلالة والتّلالة . وأضلّه أى أضاعه وأهلكه . يقال : أُضِلّ الميّت إذا دفن . قال :

* فآب مُضلّوه ... ... * البيت .

---

(1) راجع جـ ٦ ص ٢٢ . (2) آية ٥٠ سورة سبأ .

ابن السِّكِّيت . أضللت بعيرى إذا ذهب منك . وضللت المسجد والدار إذا لم تعرف موضعهما . وكذلك كل شئ مقيم لا يهتدى له . وفى الحديث " لعلى أضل الله " يريد أضل عنه، أى أخفى عليه ؛ من قوله تعالى : « أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ » أى خفينا . وأضله الله فضلّ ؛ تقول : إنك تهدى الضال ولا تهدى المتضال . وقرأ الأعمش والحسن « صَلَلْنَا » بالصاد ؛ أى أنتنّا . وهى قراءة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . النحاس : ولا يعرف فى اللغة صللنا ولكن يقال : صلّ اللحمُ وأصل ، وخَمّ وأخم إذا أنتن . الجوهرىّ : صلّ اللحم يصل ـ بالكسر ـ صلولا ، أى أنتن ، مطبوخا كان أو نيئا . قال الحُطَيْئة :

ذاك فَتًى يَبذُل ذا قِدرِه * لا يُفْسدُ اللحمَ لديه الصُّلولُ

وأَصَلّ مثله . ﴿ إنا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (١) أى نخلق بعد ذلك خلقا جديدا ؟ ويقرأ « أَئِنَّا » . النحاس : وفى هذا سؤال صعب من العربية ؛ يقال : ما العامل فى « إذا » ؟ و « إنّ » لا يعمل ما بعدها فيما قبلها . والسؤال فى الاستفهام أشدّ ؛ لأن ما بعد الاستفهام أجدر ألا يعمل فيما قبله من « إن » كيف وقد اجتمعا . فالجواب على قراءة من قرأ « إنا » أن العامل « ضللنا » ، وعلى قراءة من قرأ « أئنا » أن العامل مضمر ، والتقدير أنبعث إذا متنا . وفيه أيضا سؤال آخر ، يقال : أين جواب « إذا » على القراءة الأولى لأن فيها معنى الشرط . فالقول فى ذلك أن بعدها فعلا ماضيا ؛ فلذلك جاز هذا . ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ أى ليس لهم جحود قدرة الله تعالى عن الإعادة ؛ لأنهم يعترفون بقدرته ولكنهم اعتقدوا أن لا حساب عليهم ، وأنهم لا يلقون الله تعالى .

قوله تعالى : قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

فيه مسألتان :

(١) قوله « إنا » قراءة نافع ، وعليها جرى المؤلف .

الأولى - قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾ لما ذكر استبعادهم للبعث ذكر توفيهم وأنه يعيدهم. ﴿ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ من توفى العدد والشيء إذا استوفاه وقبضه جميعا. يقال : توفاه الله أي استوفى روحه ثم قبضه. وتوفيت مالى من فلان أى استوفيته. ﴿ مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾ واسمه عزرائيل ومعناه عبد الله؛ كما تقدم فى «البقرة»[(١)]. وتصرفه كله بأمر الله تعالى وبخلقه واختراعه. وروى فى الحديث أن " البهائم كلها يتوفى الله أرواحها دون مَلَك الموت " كأنه يعدم حياتها؛ ذكره ابن عطية.

قلت : وقد روى خلافه، وأن مَلَك الموت يتوفى أرواح جميع الخلائق حتى البرغوث والبعوضة. روى جعفر بن محمد عن أبيه قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " ارفق بصاحبي فإنه مؤمن " فقال ملك الموت عليه السلام " يا محمد، طب نفسا وقر عينًا فإني بكل مؤمن رفيق. واعلم أن ما من أهل بيت مَدَر ولا شعر فى بَرّ ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم. والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها ". قال جعفر ابن علي : بلغني أنه يتصفحهم عند مواقيت الصلوات؛ ذكره الماوردي. وذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي قال : حدثني أبو محمد الحسن بن محمد الخلال قال حدثنا أبو محمد عبد الله بن عثمان الصفار قال حدثنا أبو بكر حامد المصرى قال حدثنا يحيى بن أيوب العلاف قال حدثنا سليمان بن مُهير الكلابي قال حضرت مالك بن أنس رضي الله عنه فأتاه رجل فسأله : أبا عبد الله، البراغيث أملك الموت يقبض أرواحها؟ قال : فأطرق مالك طويلا ثم قال : ألها أنفس؟ قال نعم. قال : ملك الموت يقبض أرواحها؛ « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا »[(٢)]. قال ابن عطية بعد ذكره الحديث : وكذلك الأمر فى بنى آدم، إلا أنه نوعٌ شُرِّف بتصرف ملك وملائكة معه فى قبض أرواحهم. فخلق الله تعالى ملك

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٨ طبعة ثانية. (٢) آية ٤٢ سورة الزمر

الموت وخلق على يديه قبض الأرواح ، واستلالها من الأجسام وإخراجها منها ، وخلق الله تعالى جندا يكونون معه يعملون عمله بأمره ؛ فقال تعالى : «وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ» (١) ، وقال تعالى : « تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا » وقد مضى هذا المعنى فى « الأنعام » (٢) . والبارئ خالق الكل، الفاعل حقيقة لكل فعل؛ قال الله تعالى : «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا» (٣) . «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ» (٤) . « يُحْيِي وَيُمِيتُ » . فملك الموت يقبض والأعوان يعالجون والله تعالى يُزْهق الروح . وهذا هو الجمع بين الآى والأحاديث ؛ لكنه لما كان ملك الموت متولّى ذلك بالوساطة والمباشرة أضيف التوفّى إليه كما أضيف الخلق للملك ؛ كما تقدم فى « الحج » (٥) . وروى عن مجاهد أن الدنيا بين يدى مَلَك الموت كالطَّست بين يدى الإنسان يأخذ من حيث شاء . وقد روى هذا المعنى مرفوعا ، وقد ذكرناه فى (كتاب التذكرة) . وروى أن ملك الموت لما وكّله الله تعالى بقبض الأرواح قال : ربّ جعلتنى أُذكر بسوء ويشتمنى بنو آدم . فقال الله تعالى له : " إنى أجعل للموت عللا وأسبابا من الأمراض والأسقام ينسبون الموت إليها فلا يذكرك أحد إلا بخير". وقد ذكرناه فى التذكرة مستوفًى — وقد ذكرنا أنه يدعو الأرواح فتجيئه ويقبضها، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة أو العذاب — بما فيه شفاء لمن أراد الوقوف على ذلك .

الثانيــة — استدل بهذه الآية بعض العلماء على جواز الوكالة من قوله : ﴿ وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ أى بقبض الأرواح . قال ابن العربى : « وهذا أخذ من لفظه لا من معناه ، ولو اطّرد ذلك لقلنا فى قوله تعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » (٦) : إنها نيابة عن الله تبارك وتعالى ووكالة فى تبليغ رسالته ، ولقلنا أيضا فى قوله تبارك وتعالى : « وآتوا الزكاة » إنه وكالة ؛ فإن الله تعالى ضمن الرزق لكل دابة وخصّ الأغنياء بالأغذية وأوعز إليهم بأن رزق الفقراء عندهم ، وأمر بتسليمه إليهم مقدارا معلوما فى وقت معلوم، دبره بعلمه، وأنفذه

---

(١) آية ٥٠ سورة الأنفال. (٢) راجع جـ ٧ ص ٧ طبعة أولى أو ثانية. (٣) آية ٤٢ سورة الزمر.
(٤) آية ٢ سورة الملك . (٥) راجع جـ ١٢ ص ٧ (٦) آية ١٥٨ سورة الأعراف .

من حكمه، وقدّره بحكمته . والأحكام لا تتعلق بالألفاظ إلا أن ترد على موضوعاتها الأصلية في مقاصدها المطلوبة ، فإن ظهرت في غير مقصدها لم تعلّق عليها . ألا ترى أن البيع والشراء معلوم اللفظ والمعنى، وقد قال تعالى « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ » ولا يقال: هذه الآية دليل على جواز مبايعة السيد لعبده ؛ لأن المقصدَيْن مختلفان. أما انه إذا لم يكن بدّ من المعاني فيقال : إن هذه الآية دليل على أن للقاضي أن يستنيب من يأخذ الحق ممن هو عليه قسْرًا دون أن يكون له في ذلك فعل، أو يرتبط به رضًا إذا وجد ذلك» .

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ابتداء وخبر . قال الزجاج : والمخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم مخاطبةٌ لأمته . والمعنى : ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب . ومذهب أبي العباس غير هذا، وأن يكون المعنى: يا محمد، قل للمجرم ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم لندمت على ما كان منك. « نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ » أي من الندم والخزي والحزن والذل والغم . « عِنْدَ رَبِّهِمْ » أي عند محاسبة ربهم وجزاء أعمالهم . «رَبَّنَا» أي يقولون ربنا . « أَبْصَرْنَا» أي أبصرنا ما كنا نكذب . « وَسَمِعْنَا » ما كنا ننكر . وقيل : « أَبْصَرْنَا » صدق وعيدك . « وَسَمِعْنَا » تصديق رسلك . أَبْصَرُوا حين لا ينفعهم البصر وسمعوا حين لا ينفعهم السمع . « فَارْجِعْنَا » أي إلى الدنيا . « نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » أي مصدقون بالبعث؛ قاله النقاش . وقيل : مصدقون بالذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أنه حق ؛ قاله يحيى بن سلام . قال سفيان الثوري : فأكذبهم الله تعالى فقال : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١) . وقيل: معنى « إِنَّا مُوقِنُونَ» أي قد زالت عنا الشكوك الآن ؛ وكانوا يسمعون ويبصرون في الدنيا ، ولكن لم يكونوا

(١) آية ٢٨ سورة الأنعام

يتدبرون ، وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع ، فلما تنبهوا فى الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا . وقيل : أى ربنا لك الحجة ، فقد أبصرنا رسلك وعجائب خلقك فى الدنيا ، وسمعنا كلامهم فلا حجة لنا . فهذا اعتراف منهم ، ثم طلبوا أن يُردّوا إلى الدنيا ليؤمنوا .

قوله تعالى : وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾

قال محمد بن كعب القُرَظىّ : لما قالوا « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » ردّ عليهم بقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ يقول : لو شئتُ لهديتُ الناس جميعا فلم يختلف منهم أحد ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ الآية ؛ ذكره ابن المبارك فى « رقائقه » فى حديث طويل . وقد ذكرناه فى « التذكرة » . النحاس : « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » فى معناه قولان : أحدهما — أنه فى الدنيا . والآخر — أن سياق الكلام يدل على أنه فى الآخرة ؛ أى لو شئنا لرددناهم إلى الدنيا والمحنة كما سألوا . « وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » أى حق القول منى لأعذبنّ من عصانى بنار جهنم . وعلم الله تبارك وتعالى [أنه] لو ردهم لعادوا ؛ كما قال تعالى : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » .

وهذه الهداية معناها خلق المعرفة فى القلب . وتأويل المعتزلة : ولو شئنا لأكرهناهم على الهداية بإظهار الآيات الهائلة ، لكن لا يحسن منه فعله ؛ لأنه ينقض الغرض المُجْرَى بالتكليف إليه وهو الثواب الذى لا يُستحق إلا بما يفعله المكلف باختياره . وقالت الإمامية فى تأويلها : إنه يجوز أن يريد هداها إلى طريق الجنة فى الآخرة ولم يعاقب أحدا ، لكن حق القول منه أنه يملأ جهنم ، فلا يجب على الله تعالى عندنا هداية الكل إليها ؛ قالوا : بل الواجب هداية المعصومين ، فأما من له ذنب فجائز هدايته إلى النار جزاء على أفعاله . وفى جواز ذلك منع ؛ لقطعهم على أن المراد هداها إلى الإيمان . وقد تكلم

العلماء عليهم فى هذين التأويلين بما فيه كفاية فى أصول الدين . وأقرب مالهم فى الجواب أن يقال : فقد بطل عندنا وعندكم أن يهديهم الله سبحانه على طريق الإلجاء والإجبار والإكراه، فصار يؤدّى ذلك إلى مذهب الجبرية، وهو مذهب رذّل عندنا وعندكم؛ فلم يبق إلا أن المهتدين من المؤمنين إنما هداهم الله تعالى إلى الإيمان والطاعة على طريق الاختيار حتى يصح التكليف؛ فمن شاء آمن وأطاع اختيارا لا جبرا؛ قال الله تعالى : « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ »(1)، وقال : « فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا »(2). ثم عقب هاتين الآيتين بقوله تعالى: « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ »(3) . فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم(4)، ونفى أن يشاءوا إلا أن يشاء الله ؛ ولهذا فرّطت الجبرية لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق(5) بمشيئة الله تعالى، فقالوا : الخلق مجبورون فى طاعتهم كلها، التفاتا إلى قوله : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ». وفرّطت القدرية لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق(5) بمشيئة العباد، فقالوا : الخلق خالقون لأفعالهم ، التفاتا منهم إلى قوله تعالى: « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ » . ومذهبنا هو الاقتصاد فى الاعتقاد؛ وهو مذهب بين مذهبي الجبرة والقدرية ؛ وخير الأمور أوساطها . وذلك أن أهل الحق قالوا : نحن نفرق بين ما اضطررنا إليه وبين ما اخترناه ، وهو أنا ندرك تفرقة بين حركة الارتعاش الواقعة فى يد الإنسان بغير محاولته وإرادته ولا مقرونة بقدرته ، وبين حركة الاختيار إذا حرّك يده حركة مماثلة لحركة الارتعاش ؛ ومن لا يفرق بين الحركتين : حركة الارتعاش وحركة الاختيار ، وهما موجودتان فى ذاته ومحسوستان فى يده بمشاهدته وإدراك حاسته ، فهو معتوه فى عقله ومختل فى حسه ، وخارج من حزب العقلاء . وهذا هو الحق المبين، وهو طريق بين طريق الإفراط والتفريط . و :

* كِلَا طَرَفَيْ قصد الأمور ذَمِيمُ(6) *

(1) آية ٢٨ سورة التكوير . (2) آية ٢٩ سورة الانسان . (3) آية ٣٠ سورة الانسان، ٢٩ سورة التكوير . (4) فى بعض النسخ : « بمشيئته » . (5) كذا فى نسخ الأصل : « ولعلها مقرونة » . (6) هذا عجز بيت وصدره :

* ولا تَغْلُ فى شىء من الأمر واقتصد *

وبهذا الاعتبار اختار أهل النظر من العلماء أن سَمَّوْا هذه المنزلة بين المنزلتين كَسْبًا ، وأخذوا هذه التسمية من كتاب الله العزيز، وهو قوله سبحانه : «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ»[1] .

قوله تعالى : فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ فيه قولان : أحدهما ــ أنه من النسيان الذى لا ذكر معه؛ أى لم يعملوا لهذا اليوم فكانوا بمنزلة الناسين . والآخر ــ أن « نسيتم » بما تركتم، وكذا « إِنَّا نَسِينَاكُمْ » . واحتج محمد بن يزيد بقوله تعالى : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ »[2] قال : والدليل على أنه بمعنى ترك أن الله عز وجل أخبر عن إبليس أنه قال : « مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ »[3] فلو كان آدم ناسيا لكان قد ذكره . وأنشد :

كأنه خارجًا من جَنْب صَفْحَته * سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عند مُفْتَأَدِ[4]

أى تركوه . ولو كان من النسيان لكان قد عملوا به مرة . قال الضحاك : «نَسِيتُمْ» أى تركتم أمرى . يحيى بن سلام : أى تركتم الإيمان بالبعث فى هذا اليوم . ﴿ نَسِينَاكُمْ ﴾ تركناكم من الخير؛ قاله السُّدِّى . مجاهد : تركناكم فى العذاب . وفى استئناف قوله : « إِنَّا نَسِينَاكُمْ » وبناء الفعل على «إنّ» واسمها تشديد فى الانتقام منهم . والمعنى : فذوقوا هذا؛ أى ما أنتم فيه من نكس الرءوس والخزى والغمّ بسبب نسيان الله . أو ذوقوا العذاب المخلّد، وهو الدائم الذى لا انقطاع له فى جهنم . ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعنى فى الدنيا من المعاصى . وقد يعبّر بالذّوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوما، لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم . قال عمر بن أبى ربيعة :

فذُقْ هجرها إن كنت تزعم أنها * فسادٌ ألَا يا رُبَّمَا كذب الزعم

(١) آخر سورة البقرة . (٢) آية ١١٥ سورة طه . (٣) آية ٢٠ سورة الأعراف . (٤) السفود : حديدة يشوى عليها اللحم . الشرب (بالفتح) : جماعة القوم يشربون . والمفتأد : موضع النار الذى يشوى فيه . والبيت من معلقة النابغة الذبيانى .

الجوهريّ : وذُقت ما عنـد فلان ؛ أي خبرته . وذقت القَـوْس إذا جذبت وترها لتنظر ما شدّتها . وأذاقه الله و بال أمره . قال طُفيل :

فـذوقوا كما ذُقنـا غداةَ مُحَجِّـرٍ * من الغيظ فى أكبادنا والتَّحَوُّبِ

وتذوّقته أي ذقته شيئا بعد شيء . وأمر مستذاق أي مجرّب معلوم . قال الشاعر :

وعهدُ الغانيات كعهد قَيْنٍ * وَنَتْ عنـه الجعائل مُسْـتذاقِ

والذوّاق : الملول .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَـا خَرُّوا سُجَّـدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

هذه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي أنهم لإلفهم الكفر لا يؤمنون بك ، إنما يؤمن بك و بالقرآن المتـدبّرون له والمتّعظون به ، وهم الذين إذا قرئ عليهـم القرآن ﴿ خَرُّوا سُجَّـدًا ﴾ قال ابن عباس : ركّعا . قال المهدويّ : وهذا على مذهب من يرى الركوع عند قراءة السجدة ؛ واستدلّ بقوله تبارك وتعـالى : « وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ » . وقيل : المراد به السجود ، وعليه أكثر العلماء ؛ أي خَرّوا سجّدًا لله تعالى على وجوههم تعظيما لآياته وخَوْفًا من سَطْوته وعذابه . ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي خلطوا التسبيح بالحمد ؛ أي نزّهوه وحَمِدوه ؛ فقالوا في سجودهم : سبحان الله وبحمده ، سبحان ربّي الأعلى وبحمده ؛ أي تنزيهاً لله تعـالى عن قول المشركين . وقال سفيان : « وسبّحُوا بحمد ربهم » أي صلُّوا حمدًا لربهم . ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادته ؛ قاله يحيى بن سلام . النقاش : «لا يستكبرون» كما استكبر أهل مكة عن السجود .

قوله تعـالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُـمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّـا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ أي ترتفع وتَنْبُو عن مواضع الاضطجاع . وهو في موضع نصب على الحـال ؛ أي متجافية جنو بهـم . والمضاجع جمع مضجع ؛ وهي

مواضع النوم . ويحتمل عن وقت الاضطجاع ، ولكنه مجاز ، والحقيقة أولى . ومنه قول عبد الله بن رَوَاحة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه * إذا انشق معروف من الصبح ساطع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه * إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

قال الزّجاج والرُّمانيّ : التّجافي التنحي إلى جهة فوق . وكذلك هو في الصفح عن المخطئ في سَبٍّ ونحوه . والجُنوب جمع جَنب . وفيما تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجله قولان : أحدهما — لذكر الله تعالى، إمّا في صلاة وإما في غير صلاة ؛ قاله ابن عباس والضحاك . الثاني — للصلاة . وفي الصلاة التي تتجافى جنوبهم لأجلها أربعة أقوال : أحدها — التّنفّل بالليل؛ قاله الجمهور من المفسرين وعليه أكثر الناس، وهو الذى فيه المدح، وهو قول مجاهد والأوزاعيّ ومالك بن أنس والحسن بن أبي الحسن وأبي العالِيَة وغيرهم . ويدلّ عليه قوله تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ » لأنهم جُوزُوا على ما أخفوا بما خفى . والله أعلم . وسيأتى بيانه .

وفي قيام الليل أحاديث كثيرة ؛ منها حديث معاذ بن جبل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له : " أَلَا أدُلُّك على أبواب الخير : الصوم جُنّة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل من جَوْف الليل — قال ثم تلا — « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ — حتى بلغ — يعملون » " أخرجه أبو داود الطيالسيّ في مسنده والقاضي إسماعيل ابن إسحاق وأبو عيسى الترمذيّ، وقال فيه : حديث حسن صحيح . الثاني — صلاة العشاء التي يقال لها العَتَمة؛ قاله الحسن وعطاء . وفي الترمذيّ عن أنس بن مالك أن " هذه الآية « تتجافى جنوبُهم عنِ المضاجِعِ » نزلت في انتظار الصلاة التي تُدْعَى العَتَمَة " قال : هذا حديث حسن غريب . الثالث — التنفُّل مابين المغرب والعشاء؛ قاله قتادة وعكرمة . وروى أبو داود عن أنس بن مالك أن هذه الآية « تتجافى جنوبهم عنِ المضاجِعِ يَدْعُون ربَّهم خَوْفًا وَطَمَعًا ومما رزقناهم ينفقون » قال : كانوا يتنفلون مابين المغرب والعشاء . الرابع — قال الضحاك : تجافي الجُنُب هو أن يصلّي الرجل العشاء والصبح في جماعة . وقاله أبو الدّرداء وعُبادة .

قلت : وهذا قول حسن ، وهو يجمع الأقوال بالمعنى . وذلك أن منتظر العشاء إلى أن يصليها فى صلاة وذكر لله جلّ وعز ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يزال الرجل فى صلاةٍ ما انتظر الصلاة " . وقال أنس : المرادُ بالآية انتظار صلاة العشاء الآخرة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل . قال ابن عطية : وكانت الجاهلية ينامون من أوّل الغروب ومن أيّ وقت شاء الإنسان ، فجاء انتظار وقت العشاء غريبًا شاقًّا . ومصلِّ الصبح فى جماعة لاسيما فى أوّل الوقت ؛ كما كان عليه السلام يصليها . والعادة أن من حافظ على هذه الصلاة فى أوّل الوقت يقوم سَحَرًا يتوضأ ويصلّى ويذكر الله عز وجل إلى أن يطلع الفجر ؛ فقد حصل التجافى أوّلَ الليل وآخره . يزيد هذا مارواه مسلم من حديث عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من صلّى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما قام الليل كله " . ولفظ الترمذى وأبى داود فى هذا الحديث : " من شهد العشاء فى جماعة كان له قيام نصف ليلة ومن صلى العشاء والفجر فى جماعة كان له كقيام ليلة " . وقد مضى فى سورة « النور » عن كعب فيمن صلى بعد العشاء الآخرة أربع ركعات كنّ له بمنزلة ليلة القدر[1] .

وجاءت آثار حسان فى فضل الصلاة بين المغرب والعشاء وقيام الليل . ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا يحيى بن أيوب قال حدثنى محمد بن الحجاج أو ابن أبى الحجاج أنه سمع عبد الكريم يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بُنِىَ له قصرٌ فى الجنة " فقال له عمر بن الخطاب : إذًا تكثر قصورنا وبيوتنا يارسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الله أكبر وأفضل — أو قال — أطيب " . وعن عبد الله بن عمرو بن العاصى قال : صلاة الأوّابين الخلوة التى بين المغرب والعشاء حتى تثوب الناس إلى الصلاة . وكان عبد الله بن مسعود يصلى فى تلك الساعة ويقول : صلاة الغفلة بين المغرب والعشاء ؛ ذكره ابن المبارك . ورواه الثعلبى مرفوعا عن ابن عمر قال قال

(١) راجع ج ١٢ ص ٣٠٨

النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من جفت جنباه عن المضاجع ما بين المغرب والعشاء بنى له قصران في الجنة مسيرة عام وفيهما من الشجر ما لو نزلها أهل المشرق والمغرب لأوسعتهم فاكهة " . وهى صلاة الأوابين وغفلة الغافلين . وإن من الدعاء المستجاب الذى لا يرد الدعاء بين المغرب والعشاء .

فصــــل في فضل التجافى ــ ذكر ابن المبارك عن ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : ستعلمون اليوم مَن أصحاب الكَرَم ؛ لِيَقُم الحامدون لله على كل حال ، فيقومون فيُسَرَّحون إلى الجنة . ثم ينادى ثانيةً : ستعلمون اليوم مَن أصحاب الكَرَم ؛ لِيَقُم الذين كانت جنوبهم تتجافى عن المضاجع « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » . قال : فيقومون فيسرحون إلى الجنة . قال : ثم ينادى ثالثةً : ستعلمون اليوم مَن أصحاب الكرم ؛ ليقم الذين كانوا « لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ » ، فيقومون فيسرحون إلى الجنة . ذكره الثعلبيّ مرفوعا عن أسماء بنت يزيد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء منادٍ فنادى بصوت تسمعه الخلائق كلهم : سيعلم أهل الجمع اليوم مَن أولى بالكَرَم لِيَقُم الذين كانت تتجافى جنوبُهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ثم ينادى الثانيةَ ستعلمون اليوم مَن أولى بالكَرَم لِيَقُم الذين لا تُلْهيهم تجارةٌ ولا بَيْعٌ عن ذكر الله فيقومون ثم ينادى الثالثةَ ستعلمون اليوم من أولى بالكرم لِيَقُم الحامدون لله على كل حال في السرّاء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعا إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس " . وذكر ابن المبارك قال أخبرنا مَعْمَر عن رجل عن أبى العلاء بن الشِّخِّير عن أبى ذرّ قال : ثلاثة يَضْحَك الله إليهم ويستبشر الله بهم : رجل قام من الليل وترك فراشه ودفئه ، ثم توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قام إلى الصلاة ؛ فيقول الله للملائكته : " ما حمل عبدى على ما صنع " فيقولون : ربّنا أنت أعلم به منا ؛ فيقول : " أنا أعلم به ولكن أخبرونى " فيقولون : رَجّيته شيئا فرجاه وخوّفته فخافه . فيقول : " أشهدكم أنى قد أمّنته مما خاف وأوجبت له ما رجاه " قال : ورجل كان

فى سَرِيّة فلقِىَ العدوّ فانهزم أصحابه وثبت هو حتى يُقتل أو يفتح الله عليهم؛ فيقول الله لملائكته مثل هذه القصة . ورجل سَرَى فى ليلة حتى إذا كان فى آخر الليل نزل هو وأصحابه . فنام أصحابه وقام هو يصلّى ؛ فيقول الله لملائكته ... " وذكر القصة .

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ فى موضع نصب على الحال ؛ أى داعين . ويحتمل أن تكون صفة مستأنفة ؛ أى تتجافى جنوبهم وهم أيضا فى كل حال يدعون ربّهم ليلَهم ونهارَهم . ﴿ خَوْفًا ﴾ مفعول من أجله . ويجوز أن يكون مصدرا . ﴿ وَطَمَعًا ﴾ مثله ؛ أى خوفًا من العذاب وطمعًا فى الثواب . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ تكون « ما » بمعنى الذى وتكون مصدرا، وفى كلا الوجهين يجب أن تكون منفصلة من « مِن »[(١)] و ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ قيل : معناه الزكاة المفروضة . وقيل : النوافل ؛ وهذا القول أمدح .

قوله تعالى : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

قرأ حمزة ﴿مَا أُخْفِى لَهُمْ﴾ بإسكان الياء . وفتحها الباقون . وفى قراءة عبد الله «ما نُخفى» بالنون مضمومة . وروى المفضّل عن الأعمش « مايُخْفَى لهم » بالياء المضمومة وفتح الفاء . وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة «من قُرّات أعين» . فمن أسكن الياء من قوله : « ما أخفى » فهو مستقبل والألف ألف المتكلم . و « ما » فى موضع نصب بـ«أخفى» وهى استفهام ، والجملة فى موضع نصب لوقوعها موقع المفعولين ، والضمير العائد على « ما » محذوف . ومن فتح الياء فهو فعل ماضٍ مبنى للفعول . و « ما » فى موضع رفع بالابتداء، والخبر «أخفى» وما بعده ، والضمير فى « أخفى » عائد على « ما » . قال الزجاج : ويقرأ « ما أَخْفَى لهم » بمعنى ما أخفى الله لهم ؛ وهى قراءة محمد بن كعب، و « ما » فى موضع نصب . المهدوىّ : ومن قرأ « قرّات أعين » فهو جمع قُرّة، وحَسُن الجمع فيه لإضافته إلى جمع ، والإفراد لأنه

(١) الذى فى كتب الإملاء أنه يجوز .

مصدر ، وهو اسم للجنس . وقال أبو بكر الأنباري : وهـذا غير مخالف للصحف ؛ لأن تاء « قرة » تكتب تاء على لغـة من يجرى الوصل على الوقف ؛ كما كتبوا (رحمت الله) بالتاء . ولا يُستنكر سـقوط الألف من « قُرات » فى الخط وهو موجود فى اللفـظ ؛ كما لم يستنكر سقوط الألف من السموات[1] وهى ثابتة فى اللسان والنطق . والمعنى المراد : أنه أخبر تعالى بمـا لهم من النعيم الذى لم تعلمه نفس ولا بشر ولا مَلَك . وفى معنى هذه الآية قال النبي صلى الله عليـه وسلم : " قال الله عز وجل أعْدَدْتُ لعبـادى الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَر على قلب بشر — ثم قرأ هذه الآية — « تَتَجافَى جنوبُهم عنِ المضاجِع — إلى قوله — بمـا كانوا يعملون » " خرّجه الصحيح من حديث سهل بن سـعد الساعدي . وقال ابن مسعود : فى التوراة مكتوب : على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَر على قلب بشر . وقال ابن عبـاس : الأمر فى هـذا أجلّ وأعظم من أن يُعرف تفسيره .

قلت : وهذه الكرامة إنمـا هى لأعلى أهل الجنة منزلا ؛ كما جاء مبيَّنًا فى صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سأل موسى عليه السلام ربّه فقال يارِبِّ ما أدنى أهل الجنة منزلةً قال هو رجل يأتى بعد ما يدخل أهل الجنة الجنةَ فيقال له ادخل الجنة فيقول أىْ ربّ كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذاتهم فيقال له أترضى أن يكون لك مثلُ مُلْك مَلِك من ملوك الدنيـا فيقول رضـيتُ ربِّ فيقول لك ذلك ومثله ومثله معه ومثله ومثله ومثله ومثله فقال فى الخامسة رضيت رَبّ فيقال هـذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذّت عينك فيقـول رضيتُ ربّ قال رَبِّ فأعلاهم منزلةً قال أولئك الذين أردتُ غَرَسْتُ[2] كرامتهم بيدى وختمتُ عليها فلم ترعين ولم تسمَع أذن ولم يَخطر على قلب بشر — قال — ومصْداقُه من كتاب الله قوله تعالى : «فلا تَعْلَمُ نفسٌ ما أُخْفِي لهم

(١) فى بعض النسخ : « السلمات » .

(٢) قال النووى : « أتا أردت فبضم التاء ، ومعناه اخترت واصطفيت . وأما غرست كرامتهم بيدى الخ فمعناه اصطفيتهم وتوليتهم فلا يتطرق إلى كرامتهم تغيير » .

من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» . وقد روى عن المغيرة موقوفا قوله . وخرّج مسلم أيضا عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذُخْرًا بَلْهَ (١) ما أطلعكم عليه — ثم قرأ — « فلا تعلم نفس ما أُخفِيَ لهم من قرة أعين » ". وقال ابن سيرين : المراد به النظر إلى الله تعالى . وقال الحسن : أخفى القوم أعمالا فأخفى الله تعالى لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

قوله تعالى : أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ أى ليس المؤمن كالفاسق ؛ فلهذا آتينا هؤلاء المؤمنين الثواب العظيم . قال ابن عباس وعطاء بن يسار : نزلت الآية في علىّ بن أبي طالب والوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط ؛ وذلك أنهما تلاحيا (٢) فقال له الوليد : أنا أبسط منك لسانا وأحدّ سنانا وأردّ للكتيبة — وروى وأملأ في الكتيبة — جسدا . فقال له علىّ : اسكت ! فإنك فاسق ؛ فنزلت الآية . وذكر الزجاج والنحاس أنها نزلت في علىّ وعُقبة بن أبي مُعَيط . قال ابن عطية : وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية ؛ لأن عقبة لم يكن بالمدينة ، وإنما قُتل في طريق مكة مُنْصَرَفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر . ويعترض القول الآخر بإطلاق اسم الفسق على الوليد . وذلك يحتمل أن يكون في صدر إسلام الوليد لشيء كان في نفسه ، أو لما روى من نقله عن بني المُصْطَلِق ما لم يكن ، حتى نزلت فيه «إنْ جاءكم فاسقٌ بنبإ فتبيّنوا» (٣) على ما يأتى في الحُجُرات بيانه . ويحتمل أن تطلق الشريعة ذلك عليه ؛ لأنه كان على طرف مما يبغى ، وهو الذى شرب الخمر في زمن

(١) بله : من أسماء الأفعال ، وهى مبنية على الفتح مثل كيف ، ومعناها : دع عنكم ما أطلعكم عليه ؛ فالذى لم يطلعكم أعظم ؛ وكأنه أضرب عنه استقلالا له في جنب ما لم يطلع عليه . (شرح النووى) .

(٢) الملاحاة : المقاولة والمخاصمة . (٣) آية ٦

عثمان رضى الله عنه ، وصلّى الصبح بالناس ثم التفت وقال : أتريدون أن أزيدكم ، ونحو هذا مما يطول ذكره .

الثانيــة ـ لما قسّم الله تعالى المؤمنين والفاسقين الذين فسقهم بالكفر ـ لأن التكذيب فى آخر الآية يقتضى ذلك ـ اقتضى ذلك نفى المساواة بين المؤمن والكافر؛ ولهذا منع القصاص بينهما؛ إذ من شرط وجوب القصاص المساواة بين القاتل والمقتول . وبذلك احتج علماؤنا على أبى حنيفة فى قتله المسلم بالذمىّ . وقال : أراد نفى المساواة هاهنا فى الآخرة فى الثواب وفى الدنيا فى العدالة . ونحن حملناه على عمومه ، وهو أصح؛ إذ لا دليل يخصه؛ قاله ابن العربىّ .

الثالثــة ـ قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوُونَ ﴾ قال الزجاج وغيره : « مَنْ » يصلح للواحد والجمع . النحاس : لفظ « مَن » يؤدى عن الجماعة؛ فلهذا قال « لا يستوون »؛ هذا قول كثير من النحويين . وقال بعضهم : « لا يستوون » لاثنين؛ لأن الاثنين جمع ، لأنه واحد جمع مع آخر . وقاله الزجاج أيضا . والحديث يدل على هذا القول؛ لأنه عن ابن عباس ، وغيره قال : نزلت « أفمن كان مُؤمنًا » فى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، « كَمَنْ كان فاسقًا » فى الوليد بن عُقْبة بن أبى مُعَيط . وقال الشاعر :

أليس الموت بينهما سواء * إذا ماتوا وصاروا فى القبور

قوله تعالى : أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَآ أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ﴾ أخبر عن مقر الفريقين غدا؛ فللمؤمنين جنات المأوى ، أى يأوون إلى الجنات؛ فأضاف الجنات إلى المأوى لأن ذلك

الموضع يتضمن جنات. ﴿ نُزُلًا ﴾ أى ضيافة . والنُّزُل ما يُهيّأ للنازل والضيف . وقد مضى في آخر « آل عمران »(١) وهو نصب على الحال من الجنات؛ أى لهم الجنات معدّة، ويجوز أن يكون مفعولا له . ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أى خرجوا عن الإيمان إلى الكفر ﴿ فَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ أى مقامهم فيها . ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ أى إذا دفعهم لهب النار إلى أعلاها ردّوا إلى موضعهم فيها، لأنهم يطمعون في الخروج منها . وقد مضى هذا في « الحج »(٢) . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ أى يقول لهم خزنة جهنم . أو يقول الله لهم : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ والذوق يُستعمل محسوسًا ومعنًى . وقد مضى في هذه السورة بيانه(٣) .

قوله تعالى : وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَى ﴾ قال الحسن وأبو العالية والضحاك وأُبَيّ بن كعب و إبراهيم النَّخَعِيّ : العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها مما يُبْتَلَى به العبيد حتى يتوبوا ؛ وقاله ابن عباس . وعنه أيضا أنه الحدود . وقال ابن مسعود والحسين بن عليّ وعبد الله بن الحارث : هو القتل بالسيف يوم بدر . وقال مقاتل : الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجِيَف ؛ وقاله مجاهد . وعنه أيضا : العذاب الأدنى عذاب القبر ؛ وقاله البراء ابن عازب . قالوا : والأكبر عذاب يوم القيامة . قال القشيريّ : وقيل عذاب القبر . وفيه نظر ؛ لقوله : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » . قال : ومن حمل العذاب على القتل قال « لعلهم يرجعون » أى يرجع من بقي منهم . ولا خلاف أن العذاب الأكبر عذابُ جهنم ؛ إلا ما روى عن جعفر بن محمد أنه خروج المهدى بالسيف . والأدنى غلاء السعر . وقد قيل : إن معنى قوله : « لعلهم يرجعون » على قول مجاهد والبراء : أى لعلهم يريدون الرجوع و يطلبونه ؛

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٢١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٨

(٣) راجع ص ٩٨ و ٩٩ من هذا الجزء .

كقوله : «فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا» . وسُمّيت إرادة الرجوع رجوعا كما سميت إرادة القيام قياما في قوله تعالى : « إذا قمتم إلى الصلاة »(٢) . ويدل عليه قراءة من قرأ « يُرْجَعون » على البناء للمفعول؛ ذكره الزمخشري .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أى لا أحد أظلم لنفسه . ﴿ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ أى بحججه وعلاماته . ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ بترك القبول . ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ لتكذيبهم وإعراضهم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ أى فلا تكن يا محمد فى شك من لقاء موسى؛ قاله ابن عباس . وقد لقيه ليلة الإسراء . قتادة : المعنى فلا تكن فى شك من أنك لقيته ليلة الإسراء . والمعنى واحد . وقيل : فلا تكن فى شك من لقاء موسى فى القيامة ، وستلقاه فيها . وقيل : فلا تكن فى شك من لقاء موسى الكتاب بالقبول؛ قاله مجاهد والزجاج . وعن الحسن أنه قال فى معناه : « ولقد آتينا موسى الكتاب » فأوذى وكُذّب ، فلا تكن فى شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب والأذى ؛ فالهاء عائدة على محذوف ، والمعنى من لقاء ما لاقى . النحاس : وهذا قول غريب ، إلا أنه من رواية عمرو بن

(١) آية ١٢ من هذه السورة . (٢) آية ٦ سورة المائدة .

عُبيد . وقيل فى الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى : قل يتوفاكم ملك الموت الذى وُكِّل بكم فلا تكن فى مِرْيَة من لقائه ؛ فجاء معترضا بين « ولقد آتينا موسى الكتاب » وبين « وجعلناه هُدًى لبنى إسرائيل » . والضمير فى « وجعلناه » فيه وجهان : أحدهما — جعلنا موسى؛ قاله قتادة . الثانى — جعلنا الكتاب؛ قاله الحسن . ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ أى قادة وقُدْوة يقتدَى بهم فى دينهم . والكوفيون يقرءون « أئمة » النحاس : وهو لحن عند جميع النحويين ؛ لأنه جمع بين همزتين فى كلمة واحدة، وهو من دقيق النحو .

وشرحه : أن الأصل « أَأْمِمَة » ثم ألقيت حركة الميم على الهمزة وأدغمت الميم، وخففت الهمزة الثانية لئلا يجتمع همزتان، والجمع بين همزتين فى حرفين بعيد؛ فأمّا فى حرف واحد فلا يجوز إلا تخفيف الثانية نحو قولك : آدم وآخر . ويقال : هذا أَوَمّ من هذا وأَيَمّ ؛ بالواو والياء . وقد مضى هذا فى « براءة »(1) والله تعالى أعلم . ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى يدعون الخلق إلى طاعتنا . ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أى أمرناهم بذلك . وقيل : « بأمرنا » أى لأمرنا ؛ أى يهدون الناس لديننا . ثم قيل : المراد الأنبياء عليهم السلام ؛ قاله قتادة . وقيل : المراد الفقهاء والعلماء . ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ قراءة العامة « لَمّا » بفتح اللام وتشديد الميم وفتحها ؛ أى حين صبروا . وقرأ يحيى وحمزة والكسائى وخَلَف ورُوَيس عن يعقوب « لِمَا صبروا » أى لصبرهم جعلناهم أئمة . واختاره أبو عبيد اعتبارا بقراءة ابن مسعود « بما صبروا » بالباء . وهذا الصبر صبرٌ على الدين وعلى البلاء . وقيل : صبروا عن الدنيا . ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى يقضى ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيجازى كُلًّا بما يستحق . وقيل : يقضى بين الأنبياء وبين قومهم ؛ حكاه النقاش .

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾

(1) راجع جـ ٨ ص ٨٤ طبعة أولى وثانية .

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ وقتادة وأبو زيد عن يعقوب « نَهْدِ لهم » بالنون ؛ فهذه قراءة بيّنة . النحاس : وبالياء فيها إشكال ؛ لأنه يقال : الفعل لا يخلو من فاعل، فأين الفاعل لـ « يهد »؟ فتكلم النحويون في هذا؛ فقال الفراء : « كم » في موضع رفع بـ « يَهْدِ » . وهذا نقص لأصول النحويين في قولهم: إن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ولا في « كم » بوجهٍ ؛ أعني ما قبلها . ومذهب أبي العباس أن « يَهْدِ » يدل على الهُدَى ؛ والمعنى أو لم يَهْدِ لهم الهدى . وقيل : المعنى أو لم يهد الله لهم ؛ فيكون معنى الياء والنون واحدا ؛ أي أو لم نُبَيِّن لهم إهلاكنا القرون الكافرة من قبلهم . وقال الزجاج : « كم » في موضع نصب بـ« أهلكنا » ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ يحتمل الضمير في « يمشون » أن يعود على الماشين في مساكن المهلَكين؛ أي وهؤلاء يمشون ولا يعتبرون . ويحتمل أن يعود على المهلَكين فيكون حالا ؛ والمعنى أهلكناهم ماشين في مساكنهم . ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ آيات الله وعظاته فيتعظون .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أي أو لم يعلموا كمال قدرتنا بسَوْقنا الماء إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها لنحييها . الزمخشري : الجرز الأرض التي جُرِزَ نباتها ، أي قُطع ؛ إما لعدم الماء وإما لأنه رُعِيَ وأزيل . ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جُرُز ؛ ويدل عليه قوله تعالى : ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ قال ابن عباس : هي أرض باليمن . وقال مجاهد : هي أَبْيَن . وقال عكرمة : هي الأرض الظمآى . وقال الضحاك : هي الأرض الميتة العَطْشى . وقال الفراء : هي الأرض التي لا نبات فيها . وقال الأصمعي : هي الأرض التي لا تنبت شيئا . وقال محمد بن يزيد : يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام ؛ إلا أنه يجوز على قول من قال : العباس والضحاك . والإسناد

عن ابن عباس صحيحٌ لا مطعن فيه . وهذا إنما هو نعت والنعت للمعرفة يكون بالألف واللام؛ وهو مشتق من قولهم : رجل جَروز إذا كان لا يبقى شيئا إلا أكله . قال الراجز :

خِبّ جَروز وإذا جاع بكى * ويأكل التمر ولا يُلقِى النَّوَى

وكذلك ناقةٌ جروز إذا كانت تأكل كل شيء تجده . وسيف جُراز أى قاطع ماض . وَجَرزتِ الجراد الزرع إذا استأصلته بالأكل . وحكى الفراء وغيره أنه يقال : أرض جُرْز وجُرُز وجَرْز وجَرَز . وكذلك بخل ورغب ورهب ؛ فى الأربعة أربع لغات . وقد روى أن هذه الأرض لا أنهار فيها ، وهى بعيدة من البحر ، وإنما يأتيها فى كل عام وِدَان[1] فيزرعون ثلاث مرات فى كل عام . وعن مجاهد أيضا أنها أرض النيل . ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ ﴾ أى بالماء . ﴿ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ ﴾ من الكلأ والحشيش . ﴿ وَأَنْفُسُهُمْ ﴾ من الحب والخضر والفواكه . ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ هذا فيعلمون أنا نقدر على إعادتهم . و « فنُخْرِج » يكون معطوفا على « نسوق » أو منقطعا مما قبله . « تأكُلُ منه أنعامهم » فى موضع نصب على النعت .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ « متى » فى موضع رفع ، ويجوز أن يكون فى موضع نصب على الظرف . قال قتادة : الفتح القضاء . وقال الفراء والقُتَبِيّ : يعني فتح مكة . وأولى من هذا ما قاله مجاهد، قال : يعني يوم القيامة . ويروى أن المؤمنين قالوا : سيحكم الله عز وجل بيننا يوم القيامة فيثيب المحسن ويعاقب المسيء . فقال الكفار على التهزىء : متى يوم الفتح ؛ أى هذا الحكم . ويقال للحاكم : فاتح وفتاح ؛ لأن الأشياء تنفتح على يديه وتنفصل . وفى القرآن « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ

(١) فى نسخ الأصل : « واديان » . والودان : البلل .

قَوْمِنَا بِالْحَقِّ»[1] وقد مضى هذا فى «البقرة»[2] وغيرها . ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ على الظرف . وأجاز الفراء الرفع . ﴿ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أى يؤخرون ويمهلون التوبة؛ إن كان يوم الفتح يوم بدر أو فتح مكة . ففى بدر قتلوا[3] ، و يوم الفتح هربوا فلحقهم خالد بن الوليد فقتلهم .

قوله تعالى : فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ قيل : معناه فأعرض عن سفههم ولا تجبهم إلا بما أمرت به . ﴿ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ أى انتظر يوم الفتح ، يوم يحكم الله لك عليهم . ابن عباس : « فأعرض عنهم » أى عن مشركى قريش مكة ، وأن هذا منسوخ بالسيف فى « براءة » فى قوله : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »[4] . « وَانْتَظِرْ » أى موعدى لك . قيل : يعنى يوم بدر . ﴿ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ أى ينتظرون بكم حوادث الزمان . وقيل : الآية غير منسوخة؛ إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال كالهُدْنة وغيرها . وقيل : أعرض عنهم بعد ما بلغت الحجة ، وانتظر إنهم منتظرون . إن قيل : كيف ينتظرون القيامة وهم لا يؤمنون؛ ففى هذا جوابان : أحدهما — أن يكون المعنى إنهم منتظرون الموت وهو من أسباب القيامة؛ فيكون هذا مجازا . والآخر — أن فيهم من يشك وفيهم من يؤمن بالقيامة؛ فيكون هذا جوابا لهذين الصنفين . والله أعلم . وقرأ ابن السَّمَيْقَع «إنهم مُنْتَظَرون» بفتح الظاء . ورُويت عن مجاهد وابن مُحَيْصِن . قال الفراء: لا يصح هذا إلا بإضمار ، مجازه : إنهم منتظرون بهم . قال أبو حاتم : الصحيح الكسر؛ أى انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك . وقد قيل : إن قراءة ابن السَّمَيْقَع (بفتح الظاء) معناها : وانتظر هلاكهم فإنهم أحقاء بأن يُنتظر هلاكهم؛ يعنى أنهم هالكون لا محالة ، وانتظر ذلك؛ فإن الملائكة فى السماء ينتظرونه؛ ذكره الزَّمَخْشَرِىّ . وهو معنى قول الفَرّاء . والله أعلم .

---

(١) آية ٨٩ سورة الأعراف . (٢) راجع جـ ٢ ص ٣ طبعة ثانية .
(٣) فى نسخة : « هزموا » . (٤) آية ٥

سورة الأحزاب

مدنية فى قول جميعهم . نزلت فى المنافقين و إيذائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطعنهم فيه وفى مناكحته وغيرها . وهى ثلاث وسبعون آية . وكانت هذه السورة تعدل سورة البقرة . وكانت فيها آية الرجم : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالا من الله والله عزيز حكيم ؛ ذكره أبو بكر الأنبارى عن أبى بن كعب . وهذا يحمله أهل العلم على أن الله تعالى رفع من الأحزاب إليه مايزيد على ما فى أيدينا ، وأن آية الرجم رفع لفظها . وقد حدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد قال حدّثنا أبو عبيد القاسم بن سلّام قال حدّثنا ابن أبى مريم عن ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتى آية ، فلما كتب المصحف لم يقدر منها إلا على ما هى الآن . قال أبو بكر : فمعنى هذا من قول أم المؤمنين عائشة : أن الله تعالى رفع إليه من سورة الأحزاب ما يزيد على ما عندنا .

قلت : هذا وجه من وجوه النسخ ، وقد تقدّم فى « البقرة »(1) القول فيه مستوفى والحمد لله . وروى زرّ قال قال لى أبىّ بن كعب : كم تعدّون سورة الأحزاب ؟ قلت : ثلاثا وسبعين آية ؛ قال : فوالذى يحلف به أبىّ بن كعب أن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ، ولقد قرأنا منها آية الرجم : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالا من الله والله عزيز حكيم . أراد أبىّ أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن . وأما ما يحكى من أن تلك الزيادة كانت فى صحيفة فى بيت عائشة فأكلتها الداجن فمن تأليف الملاحدة والروافض .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) ﴾

(1) راجع ج ٢ ص ٦١ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ ضُمّت « أيّ » لأنه نداء مفرد، والتنبيه لازم لها. و « النبيّ » نعت لأيّ عند النحويين ؛ إلا الأخفش فإنه يقول : إنه صلة لأيّ . مكيّ : ولا يُعرف فى كلام العرب اسم مفرد صلة لشيء . النحاس : وهو خطأ عند أكثر النحويين ؛ لأن الصلة لا تكون إلا جملة ، والاحتيال له فيما قال أنه لما كان نعتا لازما سُمّىَ صلة ؛ وهكذا الكوفيون يسمّون نعت النكرة صلةً لها . ولا يجوز نصبه على الموضع عند أكثر النحويين . وأجازه المازنيّ، جعله كقولك : يا زيدُ الظريفَ، بنصب «الظريف» على موضع زيد . مكيّ : وهذا نعت يستغنى عنه، ونعت «أيّ» لا يستغنى عنه فلا يحسن نصبه على الموضع . وأيضا فإن نعت « أيّ » هو المنادى فى المعنى فلا يحسن نصبه . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان يحبّ إسلام اليهود : قُريظة والنّضير وبنى قَيْنُقَاع ؛ وقد تابعه(١) ناس منهم على النفاق، فكان يُلين لهم جانبَه ؛ ويكرم صغيرهم وكبيرهم ، وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه ، وكان يسمع منهم ؛ فنزلت . وقيل : إنها نزلت فيما ذكر الواحدى، والقُشَيْرِيّ والثّعلبيّ والماوَرْدِيّ وغيرهم فى أبى سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جَهْل وأبى الأعور عمرو(٢) بن سفيان ، نزلوا المدينة على عبدالله بن أُبَيّ ابن سلول رأس المنافقين بعد أُحُد ، وقد أعطاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه ، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح وطُعْمة بن أُبَيْرِق ، فقالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب : ارفض ذكر آلهتنا اللّات والعُزّى ومَناة ، وقل إن لها شفاعة ومنعة(٣) لمن عبدها ، ونَدَعك وربّك . فشقّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم ما قالوا . فقال عمر : يارسول الله ائذن لى فى قتلهم . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنى قد أعطيتهم الأمان " فقال عمر : اخرجوا فى لعنة الله وغضبه . فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا من المدينة ؛ فنزلت الآية . ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ أى خَف الله . ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ من أهل مكة ؛ يعنى أبا سفيان وأبا الأعور وعكرمة . ﴿ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ من أهل المدينة ؛ يعنى عبد الله بن أُبَيّ وطُعْمة وعبد الله بن سعد بن أبى سرح فيما نُهيت عنه ،

---

(١) فى نسخة : «بايعه» . (٢) فى الأصول : «عمر» . (٣) فى أسباب النزول : «ومنفعة» .

ولا تمل إليهم . ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بكفرهم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يفعل بهم . الزمخشرى : وروى أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبا الأعور السُّلَمِىّ قدموا على النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الموادعة التى كانت بينه وبينهم ، وقام معهم عبد الله بن أبىّ ومُعَتِّب بن قُشَير والجَدّ ابن قيس ، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفض ذكر آلهتنا . وذكر الخبر بمعنى ما تقدم . وأن الآية نزلت فى نقض العهد ونَبْذ الموادعة . «وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ» من أهل مكة . «والمنافقين» من أهل المدينة فيما طلبوا إليك . وروى أن أهل مكة دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شطر أموالهم ، ويزوجه شيبةُ بن ربيعة بنته ، وخوّفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع ؛ فنزلت . النحاس : ودلّ بقوله « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا » على أنه كان يميل إليهم استدعاءً لهم إلى الإسلام ؛ أى لو علم الله عز وجل أن ميلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنه ؛ لأنه حكيم . ثم قيل : الخطاب له ولأمته .

قوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)﴾

قوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعنى القرآن . وفيه زجر عن اتباع مراسم الجاهلية ، وأمر بجهادهم ومنابذتهم ، وفيه دليل على ترك اتباع الآراء مع وجود النص . والخطاب له ولأمته . ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قراءة العامة بتاء على الخطاب ، وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ السلمىّ وأبو عمرو وابن أبى إسحاق « يعملون » بالياء على الخبر ؛ وكذلك فى قوله : « بِمَا تعملون بصيرًا »(١) . ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى اعتمد عليه فى كل أحوالك ؛ فهو الذى يمنعك ولا يضرك من خذلك . ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظا . وقال شيخ من أهل الشام : قَدِم على النبيّ صلى الله عليه وسلم وفد من ثقيف فطلبوا منه أن يمتّعهم باللات سنةً — وهى الطاغية التى كانت ثقيف تعبدها — وقالوا : لتعلم قريش منزلتنا عندك ؛ فهمّ

---

(١) آية ٢٤ سورة الفتح .

النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك ، فنزلت « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا » أي كافيا لك ما تخافه منهم . و « بِاللَّهِ » في موضع رفع لأنه الفاعل . و « وَكِيلًا » نصب على البيان أو الحال .

قوله تعالى : مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤)

فيه خمس مسائل :

الأولى ـ قال مجاهد : نزلت في رجل من قريش كان يدعى ذا القلبين من دهائه ، وكان يقول : إن لي في جوفي قلبين ، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد . قال : وكان من فِهر . الواحديّ والقُشَيْريّ وغيرهما : نزلت في جميل بن معمر الفهري ، وكان رجلا حافظا لما يسمع . فقالت قريش : ما يحفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان . وكان يقول : لي قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد . فلما هُزم المشركون يوم بدر ومعهم جميل بن معمر ، رآه أبو سفيان في العير وهو معلّق إحدى نَعْلَيْه في يده والأخرى في رجله ؛ فقال أبو سفيان : ما حال الناس ؟ قال انهزموا . قال : فما بال إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما في رجليّ ؛ فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده . وقال السُّهَيْليّ : كان جميل بن معمر الجُمَحيّ ، وهو ابن معمر ابن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمَح ، واسم جمح تَيْم ؛ وكان يدعى ذا القلبين فنزلت فيه الآية ، وفيه يقول الشاعر :

وكيف ثوائي بالمدينة بعد ما * قضى وَطَرًا منها جَميلُ بن معمر

قلت : كذا قالوا جميل بن معمر . وقال الزمخشريّ : جميل بن أسد الفهري . وقال ابن عباس : سببها أن بعض المنافقين قال : إن محمدا له قلبان ؛ لأنه ربما كان في شيء فنزع

فى غيره نزعة ثم عاد إلى شأنه الأوّل؛ فقالوا ذلك عنه فأكذبهم الله عز وجل . وقيل : نزلت فى عبد الله بن خَطَل . وقال الزهرىّ وابن حبّان : نزل ذلك تمثيلا فى زيد بن حارثة لما تبنّاه النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فالمعنى : كما لا يكون لرجل قلبان كذلك لا يكون ولد واحد لرجلين . قال النحاس : وهذا قول ضعيف لا يصح فى اللغة، وهو من منقطعات الزهرىّ، رواه معمر عنه . وقيل : هو مثل ضرب للمُظاهر؛ أى كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المُظاهر أمّه حتى تكون له أمّان . وقيل : كان الواحد من المنافقين يقول : لى قلب يأمرنى بكذا، وقلب يأمرنى بكذا؛ فالمنافق ذو قلبين؛ فالمقصود ردّ النفاق . وقيل : لا يجتمع الكفر والإيمان بالله تعالى فى قلب، كما لا يجتمع قلبان فى جوف؛ فالمعنى : لا يجتمع اعتقادان متغايران فى قلب . ويظهر من الآية بجملتها نفى أشياء كانت العرب تعتقدها فى ذلك الوقت، وإعلام بحقيقة الأمر، والله أعلم .

الثانيـــة — القلب بَضعة[1] صغيرة على هيئة الصَّنَوْبَرة، خلقها الله تعالى فى الآدمىّ وجعلها محلا للعلم، فيحصى به العبد من العلوم ما لا يسع فى أسفار، يكتبه الله تعالى فيه بالخط الإلهىّ، ويضبطه فيه بالحفظ الربّانى، حتى يحصيه ولا ينسى منه شيئا . وهو بين لَمّتين لَمّة[2] من الملَك ولَمّة من الشيطان؛ كما قال صلى الله عليه وسلم . خرّجه الترمذىّ، وقد مضى فى « البقرة »[3] . وهو محل الخَطَرات والوساوس ومكان الكفر والإيمان، وموضع الإصرار والإنابة، ومجرى الانزعاج والطمأنينة[4] . والمعنى فى الآية : أنه لا يجتمع فى القلب الكفر والإيمان، والهدى والضلال، والإنابة والإصرار؛ وهذا نفى لكل ما توهمه أحد فى ذلك من حقيقة أو مجاز، والله أعـلم .

الثالثـة — أعلم الله عز وجل فى هذه الآية أنه لا أحد بقلبين، ويكون فى هذا طعن على المنافقين الذين تقدّم ذكرهم؛ أى إنما هو قلب واحد، فإمّا فيه إيمان وإمّا فيه كفر؛ لأن

(١) البضعة (بالفتح وقد تكسر) : القطعة من اللحم . (٢) اللمة (بالفتح) الهمة والخطرة تقع فى القلب .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٧ وما بعدها طبعة ثانيـة أو ثالثة . (٤) فى بعض النسخ : « والطمأنينة والاعتـدال » .

درجة النفاق كأنها متوسطة، فنفاها الله تعالى وبيّن أنه قلب واحد . وعلى هذا النحو يستشهد الإنسان بهذه الآية، متى نسى شيئا أو وهم . يقول على جهة الاعتذار : ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ يعنى قول الرجل لامرأته : أنتِ علىّ كظهر أمى . وذلك مذكور فى سورة « المجادلة » على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل فى زيد بن حارثة . وروى الأئمة أن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد ابن محمد حتى نزلت « ادْعُوهم لآبائهم هو أقْسَطُ عند الله » وكان زيد فيما روى عن أنس ابن مالك وغيره مَسْبِيًّا من الشأم، سبته خيل من تِهامة، فابتاعه حَكيم بن حزام بن خُويلد، فوهبه لعمته خديجة فوهبته خديجة للنبىّ صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبنّاه، فأقام عنده مدّة، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان فى فدائه، فقال لهما النبىّ صلى الله عليه وسلم وذلك قبل البعث : " خيِّراه فإن اختاركما فهو لكما دون فداء " . فاختار الرِّق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حرّيته وقومه ؛ فقال محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : " يا معشر قريش اشهدوا أنه ابنى يرثنى وأرثه " وكان يطوف على حِلَق قريش يُشهدهم على ذلك ؛ فرضى ذلك عمه وأبوه وانصرفا . وكان أبوه لما سبى يدور الشأم ويقول :

بكيتُ على زيدٍ ولم أدر ما فعل * أحَىٌّ فيُرْجَى أم أتى دونه الأجَلْ
فوالله لا أدرى وإنى لسائل * أغالك بعدى السّهلُ أم غالك الجبَلْ
فياليت شعرى هل لك الدهرَ أوْبَةٌ * فحسبى من الدنيا رجوعُك لى بَجَلْ
تُذَكِّرُنيه الشمس عند طلوعها * وتَعرِض ذكراه إذا غربُها أفَلْ
وإنْ هبّتِ الأرياح هَيّجْنَ ذكرَه * فياطولَ ما حُزْنى عليه وما وَجَلْ
سأُعمل نَصّ العيس فى الأرض جاهدًا * ولا أسأم التَّطواف أو تسأمُ الإبل
حياتِى أو تأتِى علىّ منيتى * فكل امرئ فانٍ وإن غرّه الأمل

فأخبر أنه بمكة ؛ فجاء اليه فهلك عنده . وروى أنه جاء إليه فخيّره النبيّ صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا وانصرف . وسيأتى من ذكره وفضله وشرفه شفاءٌ عند قوله « فلمّا قضى زيدٌ منها وطرًا زوّجناكها »(١) إن شاء الله تعالى . وقتل زيد بمُؤْتة من أرض الشأم سنة ثمانٍ من الهجرة ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّره فى تلك الغزاة ، وقال : "إن قتل زيد فجعفر فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة" . فقتل الثلاثة فى تلك الغزاة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نَعْىُ زيد وجعفر بكى وقال : " أخَوَاىَ ومؤنساى ومحدّثاى " .

قوله تعالى : ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ نزلت فى زيد بن حارثة ، على ما تقدّم بيانه . وفى قول ابن عمر : ما كنا ندعو زيد بن حارثه إلا زيد بن محمد ، دليلٌ على أن التّبنّى كان معمولا به فى الجاهلية والإسلام ، يُتوارث به ويتناصر ، إلى أن نسخ الله ذلك بقوله « ادعوهم لِآبائِهم هو أقسط عند الله » أى أعدل . فرفع الله حكم التّبنّى ومنع من إطلاق لفظه ، وأرشد بقوله إلى أن الأَوْلى والأعدل أن يُنْسب الرجل إلى أبيه نَسَبًا ؛ فيقال : كان الرجل فى الجاهلية إذا أعجبه من الرجل جلده وظَرْفه ضمه إلى نفسه ، وجعل له نصيب الذكر من أولاده من ميراثه ، وكان يُنسب إليه فيقال فلان بن فلان . وقال النحاس : هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التبنّى ، وهو من نسخ السّنة بالقرآن ؛ فأمر أن يدعوا من دعوا إلى أبيه المعروف ، فإن لم يكن له أب معروف نسبوه إلى وَلائه ، فإن لم يكن له وَلاء معروف قال له يا أخى ؛ يعنى فى الدِّين ، قال الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوةٌ » .

---

(١) آية ٣٧ .

الثانيــة ــ لو نسبه إنسان إلى أبيه من التبنّى فإن كان على جهة الخطأ ، وهو أن يسبق لسانه إلى ذلك من غير قصد فلا إثم ولا مؤاخذة ؛ لقوله تعالى : « وليس عليكم جناحٌ فيما أخْطَأْتُم بِهِ ولٰكِن ما تَعَمَّدَتْ قلوبكم » . وكذلك لو دعوت رجلا إلى غير أبيه وأنت ترى أنه أبوه ليس عليك بأس ؛ قاله قتادة . ولا يجرى هذا المجرى ما غلب عليه آسم التبنّى كالحال فى المِقْداد بن عمرو فإنه كان غلب عليه نسب التبنى ، فلا يكاد يعرف إلا بالمقداد بن الأسود ؛ فإن الأسود بن عبد يغوث كان قد تبناه فى الجاهلية وعرف به . فلما نزلت الآية قال المِقداد : أنا ابن عمرو ؛ ومع ذلك فبقى الإطلاق عليه . ولم يُسمع فيمن مضى من عَصَّى مُطْلِق ذلك عليه وإن كان متعمدا . وكذلك سالم مولى أبى حذيفة ، كان يدعى لأبى حذيفة . وغير هؤلاء ممن تُبُنِّىَ وٱنْتُسِب لغير أبيه وشُهِر بذلك وغَلب عليه . وذلك بخلاف الحال فى زيد بن حارثة ؛ فإنه لا يجوز أن يقال فيه زيد بن محمد ، فإن قاله أحد متعمّدا عصى بقوله تعالى : « ولٰكن ما تعمّدَتْ قلوبُكم » أى فعليكم الجناح . والله أعلم . ولذلك قال بعده : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ أى « غفورا » للعمد و « رحيما » برفع إثم الخطأ .

الثالثــة ــ وقد قيل : إن قول الله تبارك وتعالى . « وليس عليكم جناحٌ فيما أَخْطَأْتُمْ » مُجْمَل ؛ أى وليس عليكم جناح فى شىء أخطأتم ، وكانت فُتْيا عطاء وكثيرٍ من العلماء . على هذا إذا حلف رجل ألا يفارق غريمه حتى يستوفى منه حقه ، فأخذ منه مايرى أنه جيّد من دنانير فوجدها زيوفا أنه لاشىء عليه . وكذلك عنده إذا حلف ألا يسلّم على فلان فسلم عليه وهولا يعرفه أنه لايحنث ؛ لأنه لم يتعمد ذلك . و « ما » فى موضع خفض ردًّا على « ما » التى مع « أخطأتم » . ويجوز أن تكون فى موضع رفع على إضمار مبتدإ ، والتقدير : ولكن الذى تؤاخذون به ماتعمّدت قلوبكم . قال قتادة وغيره : من نسب رجلا إلى غير أبيه ، وهو يرى أنه أبوه ، خطأً فذلك من الذى رفع الله فيه الجناح . وقيل : هو أن يقول له فى المخاطبة : يا بنىّ على غير تَبَنٍّ .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾[1] « بأفواهكم » تأكيد لبطلان القول ؛ أى أنه قول لا حقيقة له فى الوجود ، إنما هو قول لسانىّ فقط . وهذا كما تقول : أنا أمشى

(١) يلاحظ أن هذه المسألة مقحمة وهى من الآية السابقة .

إليك على قدم؛ فإنما تريد بذلك المبرّة . وهذا كثير . وقد تقدّم هذا المعنى في غير موضع.(١)
﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ «الحقّ» نعت لمصدر محذوف؛ أي يقول القول الحق . و﴿ يَهْدِي ﴾ معناه يبيّن ؛ فهو يتعدى بغير حرف جرّ .

الخامســـة — الأدعياء جمع الدّعِيّ، وهو الذي يدعى ابنا لغير أبيه أو يدّعِي غير أبيه؛ والمصدر الدِّعْوة بالكسر، فأمر تعالى بدعاء الأدعياء إلى آبائهم للصُّلْب ، فمن جهل ذلك فيه ولم تشتهر أنسابهم كان مَوْلًى وأخًا في الدِّين . وذكر الطبري أن أبا بكرة قرأ هذه الاية وقال: أنا ممن لا يُعرف أبوه، فأنا أخوكم في الدِّين ومولاكم . قال الراوي عنه : ولو علم — والله — أن أباه حمار لانتمى إليه . ورجال الحديث يقولون في أبي بكرة : نُفَيع بن الحارث .

السادســـة — روى الصحيح عن سعد بن أبي وقّاص وأبي بكرة كلاهما قال : سَمِعَته أذناي ووعاه قلبي محمداً(٢) صلى الله عليه وسلم يقول : "من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام" . وفي حديث أبي ذرّ أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "ليس من رجل ادّعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر" .

قوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

فيـــه تسع مســائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ هذه الآية أزال الله تعالى بها أحكاماً كانت في صدر الإسلام ؛ منها : أنه صلى الله عليــه وسلم كان لا يصلّي على ميّت

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٧ وجـ ٨ ص ١١٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) قوله : « محمدا » نصب على البدل من الضمير المنصوب في قوله : « سمعته أذناي » .

عليه دَيْن ، فلما فتح الله عليه الفتوح قال : " أنا أوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم فمن تُوُفِّيَ وعليه دَين فعليّ قضاؤه ومن ترك مالًا فلورثته " أخرجه الصحيحان . وفيهما أيضا " فأيكم ترك دَيْنًا أو ضَياعا فأنا مولاه " . قال ابن العربيّ : فانقلبت الآن الحال بالذنوب ، فإن تركوا مالا ضُويق العصبة فيه ، وإن تركوا ضياعا أسلموا إليه ؛ فهذا تفسير الولاية المذكورة في هذه الآية بتفسير النبيّ صلى الله عليه وسلم وتبيينه ؛ ولا عِطر بعد عَرُوس . قال ابن عطية : وقال بعض العلماء العارفين هو أولى بهم من أنفسهم ؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك ، وهو يدعوهم إلى النجاة . قال ابن عطية : ويؤيّد هذا قولُه عليه الصلاة والسلام : " أنا آخذ بحُجَزِكم عن النارِ وأنتم تقتحمون فيها تقحّم الفَراش " .

قلت : هذا قول حسن في معنى الآية وتفسيرها ، والحديث الذي ذُكر أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما مَثَلي ومَثَل أمتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفَراش يقعن فيه[1] وأنا آخذٌ بحُجَزِكم وأنتم تَقَحّمُون فيه[1] " . وعن جابر مثله ؛ وقال : " وأنتم تَفَلَّتُون من يدي " . قال العلماء : الحُجْزَة للسراويل ، والمَعْقِد للإزار ؛ فإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه أخذ بذلك الموضع منه . وهذا مثل لاجتهاد نبيّنا عليه الصلاة والسلام في نجاتنا ، وحرصه على تخلّصنا من الهلكات التي بين أيدينا ؛ فهو أوْلى بنا من أنفسنا ؛ ولجهلنا بقدر ذلك وغلبة شهواتنا علينا وظفر عدّونا اللعين بنا صِرْنا أحقر من الفِراش وأذلّ من الفَراش ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم ! وقيل : أوْلى بهم أى أنه إذا أمر بشيء ودعت النفس إلى غيره كان أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أولى . وقيل : أولى بهم أى هو أولى بأن يحكم على المؤمنين فينفذ حكمه في أنفسهم ؛ أى فيما يحكمون به لأنفسهم مما يخالف حكمه .

الثانيـة ـــ قال بعض أهل العلم : يجب على الإمام أن يقضى من بيت المال دَين الفقراء اقتداءً بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قد صرح بوجوب ذلك عليه حيث قال : "فعليّ قضاؤه" . والضَّياع (بفتح الضاد) مصدر ضاع ، ثم جعل اسما لكل ما هو بصدد أن يضيع

(١) مرجع الضمير في هذه الرواية المستوقد المفهوم من الكلام .

من عيال و بنين لا كافل لهم، ومالٍ لا قيّم له . وسميت الأرض ضَيعة لأنها معرضة للضياع؛ وتجمع ضِياعا بكسر الضاد . .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ شرّف الله تعالى أزواج نبيّـه صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين؛ أى فى وجوب التعظيم والمبرّة والإجلال وحُرمة النكاح على الرجال وحجبهن رضى الله تعالى عنهن بخـلاف الأمهات . وقيـل : لمـا كانت شفقتهن عليهـم كشفقة الأمهات أنزلن منزلة الأمهات ، ثم هـذه الأمومة لا توجب ميراثًا كأمومة التّبنّى . وجاز تزويج بناتهن ، ولا يجعلن أخوات للناس . وسيأتى عدد أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فى آية التخيير(١) إن شاء الله تعالى .

واختلف الناس هل هنّ أمهات الرجال والنساء أم أمهات الرجال خاصّة ؛ على قولين : فروى الشعبيّ عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة قالت لها : يا أمّة؛ فقالت لها : لست لك بأم، إنما أنا أم رجالكم . قال ابن العربى : وهو الصحيح .

قلت : لا فائدة فى اختصاص الحصر فى الإباحة للرجال دون النساء؛ والذى يظهـر لى أنهن أمهات الرجال والنساء ؛ تعظيماً لحقهن على الرجال والنســاء . يدلّ عليه صـدر الآية : «النبيُّ أولَى بالمؤمنين من أنفسهم » ، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورةً . و يدلّ على ذلك حديث أبى هريرة وجابر؛ فيكون قوله «وأزواجه أمهاتهم» عائدا إلى الجميع . ثم إن فى مصحف أُبَيّ بن كعب «وأزواجه أمهاتهم وهو أبٌ لهم» . وقرأ ابن عباس «من أنفسهم وهو أب [لهم] وأزواجه [أمهاتهم] » . وهـذا كله يوهن ماروٰه مسروق إن صح من جهة الترجيح، و إن لم يصح فيسقط الاستدلال به فى التخصيص، و بقينا على الأصل الذى هو العموم الذى يسبق إلى المفهوم . والله أعلم .

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ قيل : إنه أراد بالمؤمنين الأنصار، و بالمهاجرين قريشا . وفيه قولان :

(١) فى المسألة الثانية من آية ٢٨ من هذه السورة .

أحدهما ــ أنه ناسخ للتوارث بالهجرة . حكى سعيد عن قتادة قال : كان نزل فى سورة الأنفال « والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا » (١) فتوارث المسلمون بالهجرة ؛ فكان لا يرث الأعرابىّ المسلم من قريبه المسلم المهاجر شيئا حتى يهاجر ، ثم نسخ ذلك فى هذه السورة بقوله « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » . الثانى ــ ان ذلك ناسخ للتوارث بالحلف والمؤاخاة فى الدّين ؛ روى هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فآخيناهم فأورثونا وأورثناهم ؛ فآخى أبو بكر خارجة بن زيد ، وآخيت أنا كعب بن مالك ، فجئت فوجدت السلاح قد أثقله ؛ فوالله لقد مات عن الدنيا ما ورثه غيرى ، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فرجعنا إلى موارثنا . وثبت عن عروة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين الزبير وبين كعب بن مالك ، فارتثّ (٢) كعب يوم أُحد فجاء الزبير يقوده بزمام راحلته ؛ فلو مات يومئذ كعب عن الضِّح (٣) والرِّيح لورثه الزبير ، فأنزل الله تعالى «وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله» . فبيّن الله تعالى أن القرابة أولى من الحلف ، فتركت الوراثة بالحلف وورثوا بالقرابة . وقد مضى فى « الأنفال » (٤) الكلام فى توريث ذوى الأرحام . وقوله «فى كتاب الله» يحتمل أن يريد القرآن ، ويحتمل أن يريد اللوح المحفوظ الذى قضى فيه أحوال خلقه . و «من المؤمنين» متعلق بـ « أولى » لا بقوله « وأولو الأرحام » بالإجماع ؛ لأن ذلك كان يوجب تخصيصا ببعض المؤمنين ، ولا خلاف فى عمومها ، وهذا حلّ إشكالها ؛ قاله ابن العربى . النحاس : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » يجوز أن يتعلق « من المؤمنين » بـ « أولو » فيكون التقدير : وأولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين . ويجوز أن يكون المعنى أولى من المؤمنين . وقال المهدوىّ : وقيل إن معناه وأولو الأرحام بعضهم أولى

(١) آية ٧٢ (٢) الارتثاث : أن يحمل الجريح من المعركة وهو ضعيف قد أثخنته الجراح .

(٣) الضح (بالكسر) : ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض . أراد لو مات عما طلعت عليه الشمس وجرت عليه الريح ؛ وكنى بهما عن كثرة المال . (٤) راجع جـ ٨ ص ٥٩

ببعض فى كتاب الله إلا ما يجوز لأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يدعين أمهات المؤمنين. والله تعالى أعلم .

الخامسة — واختلف فى كونهن كالأمهات فى المَحْرَم وإباحة النظر؛ على وجهين : أحدهما — هنّ مَحْرَم، لا يحرم النظر إليهنّ . الثانى — أن النظر إليهن مُحَرَّم، لأن تحريم نكاحهن إنما كان حفظًا لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهن ، وكان من حفظ حقّه تحريمُ النظر إليهن ؛ ولأن عائشة رضى الله عنها كانت إذا أرادت دخول رجل عليها أمرت أختها أسماء أن ترضعه ليصير ابناً لأختها من الرضاعة، فيصير مَحْرَماً يستبيح النظر (١). وأما اللاتى طلقهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته فقد آختلف فى ثبوت هذه الحرمة لهن على ثلاثة أوجه : أحدها — ثبتت لهن هذه الحرمة تغليباً لحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . الثانى — لا يثبت لهن ذلك، بل هن كسائر النساء ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أثبت عصمتهن، وقال : " أزواجى فى الدنيا هنّ أزواجى فى الآخرة " . الثالث — من دخل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم منهن ثبتت حرمتها وحَرُم نكاحها وإن طلقها ؛ حفظًا لحرمته وحراسة لخلوته . ومن لم يدخل بها لم تثبت لها هذه الحرمة ؛ وقد همّ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه برجم آمرأة فارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوجت فقالت : لم هذا ! وما ضرب علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجاباً ولا سُمِّيتُ أمّ المؤمنين؛ فكفّ عنها عمر رضى الله عنه .

السادسة — قال قوم : لا يجوز أن يُسَمَّى النبيّ صلى الله عليه وسلم أباً لقوله تعالى : « ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم » . ولكن يقال : مِثْل الأب للمؤمنين ؛ كما قال : " إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلّمكم ... " الحديث . خرّجه أبو داود . والصحيح أنه يجوز أن يقال : إنه أبٌ للمؤمنين؛ أى فى الحُرْمة، وقوله تعالى : « ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم » أى فى النسب . وسيأتى . وقرأ ابن عباس « مِنْ أنفسهم وهو أبٌ لهم وأزواجه » . وسمع عمر هذه القراءة فأنكرها وقال : حُكَّها يا غلام ؟ فقال : إنها فى مصحف أُبَىّ ؛ فذهب إليه

(١) راجع جـ ٥ ص ١٠٩ من القرطبي و جـ ٤ ص ١٥٤ شرح الموطأ .

فسأله فقال له أبى إنه كان يلهينى القرآن و يلهيك الصفق بالأسواق؟ وأغلظ لعمر . وقد قيل فى قول لوط عليه السلام «هؤلاء بناتى» : إنما أراد المؤمنات؛ أى تزوجوهن . وقد تقدم.[2]

السابعــة — قال قوم : لا يقال بناته أخوات المؤمنين، ولا أخوالهن أخوال المؤمنين وخالاتهم . قال الشافعى رضى الله عنه : تزوج الزبير أسماء بنت أبى بكر الصديق وهى أخت عائشة، ولم يقل هى خالة المؤمنين . وأطلق قوم هـذا وقالوا : معاوية خال المؤمنين؛ يعنى فى الحرمة لا فى النسب .

الثامنــة — قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَـائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ يريد الإحسان فى الحياة، والوصية عند الموت؛ أى إن ذلك جائز؛ قاله قتادة والحسن وعطاء . وقال محمد ابن الحنفية: نزلت فى إجازة الوصية لليهودى والنصرانى؛ أى يفعل هذا مع الولى والقريب و إن كان كافرا ؛ فالمشرك ولى فى النسب لا فى الدين فيوصى له بوصية . واختلف العلماء هل يجعل الكافر وصيا ؛ فجوز بعض ومنع بعض . ورد النظر إلى السلطان فى ذلك بعض؛ منهم مالك رحمه الله تعالى . وذهب مجاهـد وابن زيد والرمانى إلى أن المعنى : إلى أوليائكم من المؤمنين . ولفظ الآية يعضد هذا المذهب، وتعميم الولى أيضا حسن . وولاية النسب لا تدفع الكافر، وإنمـا تدفع أن يلقى إليه بالمودة كولى الإسلام .

التاســعة — قوله تعـالى : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ « الكتاب » يحتمل الوجهين المذكورين المتقدمين فى « كتاب الله »[3] . و «مسطورا» من قولك سطرت الكتاب اذا أثبتـه أسطارا . وقال قتادة : أى مكتوبا عند الله عز وجل ألا يرث كافر مسلما . قال قتادة : وفى بعض القراءة «كان ذلك عند الله مكتوبا» . وقال القرظى : كان ذلك فى التوراة.

قوله تعـالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾

(١) الصفق : التبايع . (٢) راجع ج ٩ ص ٧٦ . (٣) راجع ص ١٢٤ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ أى عهدهم على الوفاء بما حملوا ، وأن يبشر بعضهم ببعض ، ويصدّق بعضهم بعضا ؛ أى كان مسطورا حين كتب الله ما هو كائن، وحين أخذ الله تعالى المواثيق من الأنبياء . ﴿ وَمِنْكَ ﴾ يا محمد ﴿ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ﴾ وإنما خصّ هؤلاء الخمسة وإن دخلوا فى زمرة النبيين تفضيلا لهم . وقيل : لأنهم أصحاب الشرائع والكتب، وأولو العزم من الرسل وأئمة الأمم . ويحتمل أن يكون هذا تعظيما فى قطع الولاية بين المسلمين والكافرين؛ أى هذا مما لم تختلف فيه الشرائع ؛ أى شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . أى كان فى ابتداء الإسلام توارثٌ بالهجرة ، والهجرة سبب متأكد فى الديانة ، ثم توارثوا بالقرابة مع الإيمان وهو سبب وكيد ؛ فأما التوارث بين مؤمن وكافر فلم يكن فى دين أحد من الأنبياء الذين أخذ عليهم المواثيق ؛ فلا تداهنوا فى الدين ولا تمالئوا الكفار . ونظيره « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا — الى قوله — وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »(١) . ومن ترك التفرق فى الدين ترك موالاة الكفار . وقيل : أى النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم كان ذلك فى الكتاب مسطورا ومأخوذا به المواثيق من الأنبياء . ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أى عهدًا وثيقًا عظيما على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة ، وأن يصدق بعضهم بعضا . والميثاق هو اليمين بالله تعالى ؛ فالميثاق الثانى تأكيد للميثاق الأول باليمين . وقيل : الأول هو الإقرار بالله تعالى ، والثانى فى أمر النبوّة . ونظير هذا قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي »(٢) الآية . أى أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعلن محمد صلى الله عليه وسلم أن لا نبيّ بعده . وقدّم محمدا فى الذكر لما روى قتادة عن الحسن عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى «وإذ أخذنا من النبيّين ميثاقهم ومنك ومن نوح» قال : "كنت أوّلهم فى الخلق وآخرهم فى البعث" . وقال مجاهد : هذا فى ظهر آدم عليه الصلاة والسلام .

---

(١) آية ١٣ سورة الشورى . (٢) اية ٨١ سورة آل عمران

قوله تعالى : لِيَسْئَلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها ــ ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم ؛ حكاه النقاش . وفى هذا تنبيه ، اى إذا كان الأنبياء يُسألون فكيف مَن سواهم .

الثانى ــ ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم ؛ حكاه علىّ بن عيسى .

الثالث ــ ليسأل الأنبياء عليهم السلام عن الوفاء بالميثاق الذى أخذه عليهم ؛ حكاه ابن شجرة .

الرابع ــ ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة ؛ وفى التنزيل « فَلَنَسْأَلَنَّ الذينَ أُرْسِلَ إليهم وَلَنَسْأَلَنَّ المرسَلِين » (١) . وقد تقدّم . وقيل : فائدة سؤالهم توبيخ الكفار ، كما قال تعالى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ » (٢) . ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وهو عذاب جهنم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾

يعنى غَزْوة الخَنْدق والأحزاب وبنى قُرَيظة (٣) ، وكانت حالا شديدة معقبة بنعمة ورخاء وغبطة ، وتضمّنت أحكاماً كثيرة وآيات باهرات عزيزة ، ونحن نذكر من ذلك بعون الله تعالى ما يكفى فى عشر مسائل :

الأولى ــ اختلف فى أى سنة كانت ؛ فقال ابن إسحاق : كانت فى شوال من السنة الخامسة . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك رحمه الله : كانت وقعة الخندق سنة أربع ،

(١) راجع جـ ٧ ص ١٦٤ (٢) آية ١١٦ سورة المائدة . (٣) سميت غزوة الخندق لأجل الخندق الذى حفر حول المدينة بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم . وأما تسميتها بالأحزاب فلاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين ، وهم قريش وغطفان واليهود

وهي، بنو قُريظة في يوم واحد، و بين بني قريظة والنَّضير أربع سنين . قال ابن وهب وسمعت مالكا يقول : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتال من المدينـة ، وذلك قوله تعالى : « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ » . قال : ذلك يوم الخندق ، جاءت قريش من ها هنا واليهود من هاهنا والنَّجدية من ها هنا ، يريد مالك إن الذين جاءوا من فوقهم بنو قريظة، ومن أسفل منهم قريش وغَطفَان . وكان سببها أن نفرا من اليهود منهم كنانة بن الربيـع بن أبي الحُقَيق وسلام بن أبي الحقيق وسلام ابن مِشْكم وحُيَيّ بن أخطب النضريّون وهَوْذة بن قيس وأبو عمار من بني وائل ، وهم كلهم يهود، هم الذين حزّبوا الأحزاب وألّبوا وجمعوا ، خرجوا في نفر من بني النَّضير ونفر من بني وائل فأتوا مكة فدعوا الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وواعدوهم من أنفسهم بعون من انتدب إلى ذلك ، فأجابهم أهل مكة الى ذلك ، ثم خرج اليهود المذكورون الى غَطفان فدعوهم إلى مثل ذلك فأجابوهم ؛ فخرجت قريش يقودهم أبو سـفيان بن حرب، وخرجت غَطفان وقائدهم عُيينة بن حصن بن حُذيفة بن بدر الفَزاريّ على فَزارة ، والحارث بن عوف المُرّى على بني مُرّة، ومسعر بن رُخَيلة[1] على أشجع . فلما سمع رسول الله صلى الله عليـه وسلم باجتماعهم وخروجهم شاور أصحابه ، فأشار عليه سـلمان بحفر الخندق فرضى رأيه . وقال المهاجرون يومئذ : سلمان منا. وقال الأنصار : سلمان منا! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سلمان منّا أهل البيت" . وكان الخندق أوّل مشهد شهده سلمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ حر . فقال : يارسول الله، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا؛ فعمل المسلمون في الخندق مجتهدين ، ونكص المنافقون وجعلوا يتسللون لِواذًا[2] فنزلت فيهـم آيات من القرآن ذكرها ابن إسحاق وغيره . وكان من فرغ من المسلمين من حصّته عاد إلى غيره ، حتى كمل الخندق . وكانت فيه آيات بينات وعلامات للنبوّات .

قلت : ففي هذا الذي ذكرناه من هذا الخبر من الفقه وهي :

---

(١) ويقال فيه : « مسعود » . (٢) أي مستخفين ومستترين بعضهم ببعض .

الثانيــة ــ مشاورة السلطان أصحابَه وخاصّته فى أمر القتال؛ وقد مضى ذلك فى «آل عمران، والنمل»(١). وفيه التحصّن من العدوّ بما أمكن من الأسباب واستعمالها؛ وقد مضى ذلك فى غير موضع. وفيه أن حفر الخندق يكون مقسوما على الناس؛ فمن فرغ منهم عاون مَن لم يفرُغ، فالمسلمون يدٌ على من سواهم؛ وفى البخارىّ ومسلم عن البراء بن عازب قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنّى الغبارُ جِلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رَواحة ويقول:

اللّهُمّ لولا أنت ما اهتدينا * ولا تصدّقنا ولا صلّينا

فأنزلنْ سكينةً علينا * وثبّت الأقدام إن لاقينا

وأما ما كان فيه من الآيات وهى: ــ

الثالثــة ــ فروى النسائى عن أبى سكينة رجلٍ من المحرَّرين(٢) عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ المِعْول ووضع رداءه ناحية الخندق وقال «وتمّتْ كلمةُ ربّك صِدْقًا» الآية؛ فندر(٣) ثلث الحجر وسلمان الفارسى قائم ينظر، فبرَق مع ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم برْقةٌ، ثم ضرب الثانية وقال: «وتمت» الآية؛ فندَر الثلث الآخر، فبرقت برقة فرآها سلمان، ثم ضرب الثالثة وقال: «وتمت كلمة ربك صدقا» الآية؛ فندر الثلث الباقى، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ رداءه وجلس. قال سلمان: يارسول الله، رأيتك حين ضربت، ما تضرب ضربة إلا كانت معها برقة؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأيتَ ذلك ياسلمان"؟ فقال: أىْ والذى بعثك بالحق يارسول الله؛ قال: "فإنى حين ضربت الضربة الأولى رُفعت لى مدائن كِسْرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رأيتها بعينىّ" ــ قال له من حضره من أصحابه: يارسول الله،

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٤٩ وما بعدها، وجـ ١٣ ص ١٩٤ (٢) أى المعتق من النار. (٣) ندر: سقط.

ادع الله أن يفتحها علينا و يغنّمنا ذراريهم[1] ويخرب بأيدينا بلادهم ؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثم ضربتُ الضربة الثانية فرفعت لى مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعيني — قالوا : يا رسول الله، ادع الله تعالى أن يفتحها علينا و يغنمنا ذراريهم ويخرب بأيدينا بلادهم ؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثم ضربت الضربة الثالثة فرفعت لى مدائن الحبشة وما حولها من القرى حتى رأيتها بعيني — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك — دعوا الحبشة ما ودعوكم واتركوا الترك ما تركوكم " . وخرجه أيضا عن البراء قال : لما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحفر الخندق عرض لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقى ثوبه وأخذ المعول وقال : " باسم الله " فضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة ثم قال : " الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إنى لأبصر إلى قصورها الحمراء الآن من مكانى هذا " قال : ثم ضرب أخرى وقال : " باسم الله " فكسر ثلثا آخر ثم قال : " الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض " . ثم ضرب الثالثة وقال : " باسم الله " فقطع الحجر وقال : " الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إنى لأبصر باب صنعاء " . صححه أبو محمد عبد الحق .

الرابعة — فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق أقبلت قريش فى نحو عشرة آلاف بمن معهم من كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفان بمن معها من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أُحُد ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى نزلوا بظهر سلع[2] فى ثلاثة آلاف وضربوا عسكرهم والخندق بينهم و بين المشركين ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم — فى قول ابن شهاب — وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضرى حتى أتى كعب بن أسد القرظى ، وكان صاحب عقد بنى قريظة ورئيسهم ، وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاقده وعاهده ؛ فلما سمع كعب بن أسد حيي بن أخطب

(١) فى النسائى : « ديارهم » . (٢) سلع : جبل بالمدينة .

أغلق دونه باب حصنه وأبى أن يفتح له ؛ فقال له : افتح لى يا أخى ؛ فقال له : لا أفتح لك ، فإنك رجل مشؤوم ، تدعونى إلى خلاف محمد وأنا قد عاقدته وعاهدته ، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقًا ، فلستُ بناقض ما بينى وبينه . فقال حُيَيّ : افتح لى حتى أكلمك وأنصرف عنك ؛ فقال : لا أفعل ؛ فقال : إنما تخاف أن آكل معك جشيشتك ؛ فغضب كعب وفتح له ؛ فقال : يا كعب ! إنما جئتك بعزّ الدهر ، جئتك بقريش وسادتها وغَطَفان وقادتها ، قد تعاقدوا على أن يستأصلوا محمدا ومن معه ؛ فقال له كعب : جئتنى والله بذل الدهر وبجهام[1] لا غيث فيه ! ويحك ياحُيَيّ ؟ دَعْنى فلستُ بفاعل ما تدعونى إليه ؛ فلم يزل حُيَيّ بكعب يَعده ويَغُرّه حتى رجع إليه وعاقده على خِذلان محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأن يسير معهم ، وقال له حيى بن أخطب : إن انصرفت قريش وغَطفان دخلت عندك بمن معى من اليهود . فلما انتهى خبر كعب وحُيَيّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث سعد بن عُبادة وهو سيد الخزرج ، وسيّد الأوس سعد بن معاذ ، و بعث معهما عبد الله بن رواحة وخَوّات بن جُبير ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "انطلقوا إلى بنى قُريظة فإن كان ماقيل لنا حقا فالحنوا لنا لحنًا ولا تفُتّوا فى أعضاد الناس . وإن كان كذبا فاجهروا به للناس" فانطلقوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ماقيل لهم عنهم ، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : لا عهد له عندنا ؛ فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ؛ وكانت فيه حدّة فقال له سعد بن عُبادة : دع عنك مشاتمتهم ، فالذى بيننا وبينهم أكثر من ذلك ، ثم أقبل سعد وسعد حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جماعة المسلمين فقالا : عَضَل والقَارَة — يعرّضان بغدر عَضَل والقارة بأصحاب الرَّجيع خُبيب وأصحابه — فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم . "أبشروا يا معشر المسلمين" وعظم عند ذلك البلاء واشتدّ الخوف ، وأتى المسلمين عدوُّهم من فوقهم يعنى من فوق الوادى من قبل المشرق ، ومن أسفل منهم من بطن الوادى من قبل المغرب ، حتى ظنوا بالله الظنونا ؛ وأظهر المنافقون كثيرا مما كانوا يسرّون ، فمنهم من قال : إن بيوتنا عورة ، فلننصرف إليها ،

(١) الجهام : السحاب لا ماء فيه .

فإنا نخاف عليها ؛ وممن قال ذلك : أوس بن قيظي . ومنهم من قال : يعدنا محمد أن يفتح كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه يذهب إلى الغائط ؛ وممن قال ذلك : معتب بن قشير أحد بني عمرو بن عوف . فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام المشركون بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر لم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه اشتد على المسلمين البلاء بعث إلى عيينة بن حصن الفزاري وإلى الحارث بن عوف المزني وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة لينصرفا بمن معهما من غطفان ويخذلا قريشا ويرجعا بقومهما عنهم . وكانت هذه المقالة مراوضة ولم تكن عقدا ؛ فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما أنهما قد أنابا ورضيا أتى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فقالا : يارسول الله ، هذا أمر تحبه فنصنعه لك، أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع، أو أمر تصنعه لنا؟ قال : "بل أمر أصنعه لكم والله ما أصنعه إلا أني قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة" فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثمرة إلا شراء أو قرى ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وقال : "أنتم وذاك" . وقال لعيينة والحارث : "انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف" . وتناول سعد الصحيفة وليس فيها شهادة فمحاها .

الخامسة — فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون على حالهم والمشركون يحاصرونهم ولا قتال بينهم ؛ إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود العامري من بني عامر بن لؤي، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب، وضرار بن الخطاب الفهري . وكانوا فرسان قريش وشجعانهم، أقبلوا حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا : إن هذه لمكيدة ، ما كانت العرب تكيدها . ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق ، فضربوا خيلهم

فاقتحمت بهم، وجاوزوا الخندق وصاروا بين الخندق وبين سَلْع، وخرج علىّ بن أبى طالب فى نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثُّغرة التى آقتحموا منها ، وأقبلت الفرسان نحوهم ، وكان عمرو بن عبد وُدّ قد أثبتته الجراح يوم بَدْر فلم يشهد أُحُدًا، وأراد يوم الخندق أن يرى مكانه ، فلما وقف هو وخيله ، نادى : من يبارز ؟ فبرز له علىّ بن أبى طالب وقال له : ياعمرو، إنك عاهدت الله فيما بلغنا أنك لا تُدْعَى إلى إحدى خَلّتين إلا أخذت إحداهما ؟ قال نعم . قال : فإنى أدعوك إلى الله والإسلام . قال : لا حاجة لى بذلك . قال : فأدعوك إلى البراز . قال : يا بن أخى ، والله ما أحبّ أن أقتلك لما كان بينى وبين أبيك . فقال له علىّ : أنا والله أحبّ أن أقتلك . فحَمِى عمرو بن عبد وُدّ ونزل عن فرسه، فعقره وصار نحو علىّ، فتنازلا وتجاولا وثار النقع بينهما حتى حال دونهما، فما آنجلى النَّقع حتى رُئى علىّ على صدر عمرو يقطع رأسه ، فلما رأى أصحابُه أنه قد قتله علىّ اقتحموا بخيلهم الثُّغرة منهزمين هاربين . وقال علىّ رضى الله عنه فى ذلك :

نصر الحجارَة من سفاهة رأيه * ونصرتُ دِينَ محمد بِضرابِ (١)
نازلته فتركته متجدِّلًا (٢) * كالجذع بين دَكادِكٍ ورَوابى (٣)
وعففتُ عن أثوابه ولو آننى * كنت المقطَّرَ بَزَّنِى أثوابى (٤)
لا تحسبُنّ الله خاذلَ دينه * ونبيّه يا معشر الأحزاب

قال آبن هشام : أكثر أهل العلم بالسِّير (٥) يشك فيها لعلىّ . قال ابن هشام : وألقى عِكرمة ابن أبى جهل رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو؛ فقال حسان بن ثابت فى ذلك :

فـرّ وألقى لنا رُمْحَه * لعلّك عِكْرِمَ لم تَفْعلِ
ووليت تَعْدُو كعَدْوِ الظَّلِـ * ـيم ما إن تجور عن المَعْدِلِ
ولم تُلْقِ ظهرك مستأنسًا * كأنّ قَفاك قفَا فُرْعُلِ

(١) فى سيرة ابن هشام : « نصوابى » . (٢) فى سيرة ابن هشام : « فصددت حين تركته ... » .
(٣) المتجدّل : اللاصق بالأرض . والدكادك : جمع دَكداك، وهو الرمل اللين . والروابى : جمع رابية، وهو ما ارتفع من الأرض . (٤) المقطر : الذى ألقى على أحد قطريه ، أى جنبيه . و بزنى : سلبنى وجردنى .
(٥) فى سيرة ابن هشام : « بالشعر » .

قال ابن هشام : فرعل صغير الضباع . وكانت عائشة رضي الله عنها في حصن بني حارثة، وأم سعد بن معاذ معها ، وعلى سعد درع مقلصة[1] قد خرجت منها ذراعه، وفي يده حربته وهو يقول :

لبث قليلا يلحق الهيجا جمل * لا بأس بالموت إذا كان الأجل

ورمي يومئذ سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل[2] . واختلف فيمن رماه؛ فقيل : رماه حبان بن قيس ابن العرقة[3]، أحد بني عامر بن لؤي ، فلما أصابه قال له : خذها وأنا ابن العرقة . فقال له سعد : عرق الله وجهك في النار . وقيل : إن الذي رماه خفاجة ابن عاصم بن حبان[4]. وقيل : بل الذي رماه أبو أسامة الجشمي، حليف بني مخزوم . ولحسان مع صفية بنت عبد المطلب خبر طريف يومئذ؛ ذكره ابن إسحاق وغيره .

قالت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها : كنا يوم الأحزاب في حصن حسان بن ثابت ، وحسان معنا في النساء والصبيان، والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في نحر العدو لا يستطيعون الانصراف إلينا، فإذا يهودي يدور، فقلت لحسان : انزل إليه فاقتله؛ فقال : ما أنا بصاحب هذا يابنة عبد المطلب ! فأخذت عمودا ونزلت من الحصن فقتلته، فقلت : يا حسان، انزل فاسلبه، فلم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل . فقال : مالي بسلبه حاجة يا بنة عبد المطلب ! قال : فنزلت فسلبته . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد أنكر هذا عن حسان جماعة من أهل السير وقالوا : لو كان في حسان من الجبن ما وصفتم لهجاه بذلك الذين كان يهاجيهم في الجاهلية والإسلام، ولهجي بذلك ابنه عبد الرحمن؛ فإنه كان كثيرا ما يهاجي الناس من شعراء العرب؛ مثل النجاشي وغيره .

السادسة — وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي، فمرني بما شئت ؛ فقال له رسول

---

(١) مقلصة : مجتمعة منضمة . (٢) الأكحل : عرق في وسط الذراع . (٣) العرقة (بفتح العين وكسر الراء) : أم حبان، واسمها قلابة بنت سعيد بن سعد تكنى أم فاطمة ، وسميت العرقة لطيب ريحها ؛ وهي جدة خديجة . (٤) في الأصل : « جبارة » والتصويب عن سيرة ابن هشام وشرح المواهب .

الله صلى الله عليه وسلم : " إنما أنت رجل واحد من غطفان فلو خرجت فخذّلت عنّا إن استطعت كان أحبّ إلينا من بقائك معنا فآخرج فإن الحرب خدعة (١) " . فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة — وكان ينادمهم فى الجاهلية — فقال : يابنى قريظة، قد عرفتم وُدّى إياكم، وخاصّة ما بينى و بينكم ؛ قالوا : قل فلستَ عندنا بمتّهم ؛ فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، و إن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه فإن رأوا نُهْزَة (٢) أصابوها ، و إن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم و بين الرجل، ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُنًا . ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لهم : قد عرفتم وُدّى لكم معشرَ قريش ، وفراق محمدا ، وقد بلغنى أمرٌ أرى من الحق أن أبلّغكموه نصحاً لكم، فاكتموا علىّ ؛ قالوا نفعل ؛ قال : تعلمون أن معشر يهودَ ، قد نَدِموا على ما كان من خذلانهم محمدا ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد نَدِمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رجالا (٣) ، ونسلمهم إليك تضربَ أعناقهم، ثم نكون معك على ما بقى منهم حتى نستأصلهم . ثم أتى غطفان فقال مثلَ ذلك . فلما كان ليلةَ السبت وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله والمؤمنين ، أرسل أبو سفيان إلى بنى قريظة عكرمةَ بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان يقول لهم : إنا لسنا بدار مُقام، قد هلك الخُفّ والحافر، فاغدوا صبيحة غدٍ للقتال حتى نناجز محمدا ؛ فأرسلوا إليهم إن اليوم يومُ السبت، وقد علمتم ما نال منّا مَن تعدّى فى السبت، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُنًا ؛ فلما رجع الرسول بذلك قالوا : صَدَقنا والله نعيم بن مسعود ؛ فردّوا إليهم الرسل وقالوا : والله لا نعطيكم رُهُنًا أبدا فآخرجوا معنا إن شئتم و إلا فلا عهد بيننا

(١) قوله : « خدعة » فى النهاية لابن الأثير : « يروى بفتح الخاء وضمها مع سكون الدال ، وبضمها مع فتح الدال . فالأول معناه : أن الحرب ينقضى أمرها بخدعة واحدة من الخداع ؛ أى أن المقاتل إذا خدع مرة واحدة لم تكن لها إقالة . وهى أفصح الروايات وأصحها . ومعنى الثانى : هو الاسم من الخداع . ومعنى الثالث : أن الحرب تخدع الرجال وتمنيهم ولا تفى لهم ، كما يقال : فلان رجل لعبة وضحكة ؛ أى كثير اللعب والضحك .

(٢) النهزة : الفرصة تجدها من صاحبك .

(٣) فى الأصول : « ... وغطفان رهنا رجالا ونسلمهم إليكم تضربوا أعناقهم ... » والتصويب عن شرح المواهب .

وبينكم. فقال بنو قريظة: صدق والله نعيم بن مسعود . وخذل الله بينهم، واختلفت كلمتهم، وبعث الله عليهم ريحًا عاصفًا فى ليالٍ شديدة البرد؛ فجعلت الريح تقلب آنيتهم وتكفأ قدورهم.

السابعــة — فلما اتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم اختلاف أمرهم، بعث حذيفة ابن اليمــان ليأتيه بخبرهم، فأتاهم واستتر فى غمارهم[1]، وسمع أبا سفيان يقول: يا معشر قريش، ليتعرف كل امرئ جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد جليسى وقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان . ثم قال أبو ســفيان : وَيْلَكُم يا معشر قريش ! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، ولقد هلك الكُراع والخُف[2] وأخلفتنا بنو قريظة، ولقينا من هذه الريح ماترون، ما يستمسك لنا بنــاء، ولا تثبت لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، فارتحلوا فإنى مرتحل؛ ووثب على جمله فمــا حلّ عقال يده إلا وهو قائم . قال حذيفة : ولولا عهــد رسول الله صلى الله عليــه وسلم لى إذ بعثنى ، قال لى : " مُرّ إلى القوم فاعلم ما هم عليه ولا تحدث شيئا " — لقتلته بسهم ؛ ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنــد رحيلهم، فوجدته قائمــا يصلى فى مِرْط لبعض نسائه مراجل — قال ابن هشام : المراجل ضرب من وَشْى اليمن — فأخبرته فحمد الله .

قلت : وخبر حذيفة هــذا مذكور فى صحيح مسلم ، وفيــه آيات عظيمة ، رواه جرير عن الأعمش عن إبراهيم التَّيْمىّ عن أبيه قال : كنا عند حذيفة فقال رجل لو أدركتُ رسول الله صلى الله عليه وســلم قاتَلْت معه وأبلَيْت . فقال حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ! لقد رأيْتُنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقُرّ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا رجل يأتينى بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة " ؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: " ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة " ؟ فسكتنا فلم يجبه أحد . فقال : " قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم " فلم أجد بُدّاً إذ دعانى باسمى أن أقوم . قال : " اذهب فأتنى بخبر القوم ولا تَذْعَرْهم[3] علىّ " قال : فلما وَلّيت من عنده جعلت كأنمــا

---

(١) مثلث الغين . (٢) الكراع : اسم يجمع الخيل . والخف : اسم يجمع الإبل .

(٣) الذعر : الفزع ؛ يريد لا تعلمهم بنفسك وامش فى خفية لئلا ينفروا منك ويقبلوا علىّ .

أمشى فى حَمّام[1] حتى أتيتهم ، فرأيت أبا سفيان يَصْلِى ظهره بالنار ، فوضعت سهما فى كَبِد القوس فأردت أن أرْمِيَه ، فذكرتُ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ولا تَذْعَرْهم علىّ" ولو رميته لأصبته ، فرجعت وأنا أمشى فى مثل الحَمّام ، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغتُ قُرِرت ، فألبسنى رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضل عباءة كانت عليه يصلّى فيها ، فلم أزل نائما حتى أصبحت ، فلما أصبحت قال : "قم يا نومانُ" . ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذهب الأحزاب ، رجع إلى المدينة ووضع المسلمون سلاحهم فأتاه جبريل صلى الله عليه وسلم فى صورة دِحْيَة بن خليفة الكلبى ، على بغلة عليها قطيفة ديباج فقال له : يا محمد ، إن كنتم قد وضعتم سلاحكم فما وضعت الملائكة سلاحها . إن الله يأمرك أن تخرج إلى بنى قُريظة ، وإنى متقدم إليهم فمزلزل بهم حصونهم . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى : ـــ

الثامنــة ـــ مناديا فنادى : لا يصلّينّ أحد العصر إلا فى بنى قُريظة ؛ فتخوف ناس فوت الوقت فصلّوا دون بنى قُريظة . وقال آخرون : لا نصلّى العصر إلا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت . قال : فما عنّف واحدا من الفريقين . وفى هذا من الفقه تصويب المجتهدين . وقد مضى بيانه فى « الأنبياء »[2] . وكان سعد بن معاذ إذا أصابه السهم دعا ربه فقال . اللّهمّ إن كنتَ أبقيتَ من حرب قريش فأبقنى لها ؛ فإنه لا قوم أحب أن أجاهدهم من قوم كذّبوا رسولك وأخرجوه . اللّهمّ وإن كنتَ وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لى شهادة ، ولا تُمِتْنى حتى تُقِرّ عينى فى بنى قريظة . وروى ابن وهب عن مالك قال : بلغنى أن سعد بن معاذ مرّ بعائشة رضى الله عنها ونساء معها فى الأطم[3] (فارع)[4] ، وعليه درع مُقَلّصة[5] مشمّر الكُمّين ، وبه أثر صفرة ، وهو يرتجز :

لَبّثْ قليلا يُدرك الهَيْجَا جَمَلْ * لا بأس بالموت إذا حان الأَجَلْ

---

(١) يقول : كأنما أمشى فى حرّ لم يصبنى برد ولا من تلك الريح الشديدة شىء ، ببركة توجيه النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) راجع جـ ١١ ص ٣١١ (٣) الأطم : حصن مبنى بحجارة . (٤) فى الأصل : « فى الأطم الذى فارع » . وفارع حصن المدينة ؛ يقال إنه حصن حسان بن ثابت . (٥) مقلصة : مجتمعة منضمة .

فقالت عائشة رضى الله عنها : لست أخاف أن يصاب سعد اليوم إلا فى أطرائه، فأصيب فى أَكْحَله . وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قالت عائشة رضى الله عنها : ما رأيت رجلا أجمل من سعد بن معاذ حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأصيب فى أكحله ثم قال : اللهم إن كان حرب قريظة لم يبق منه شىء فاقبضنى إليك ، وإن كان قد بقيت منه بقية فأبقنى حتى أجاهد مع رسولك أعداءه؛ فلما حَكَم فى بنى قُريظة تُوفّى؛ ففرح الناس وقالوا : نرجو أن يكون قد استجيبت دعوته .

التاسعة — ولما خرج المسلمون إلى بنى قُريظة أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية علىّ بن أبى طالب ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، ونهض علىّ وطائفة معه حتى أتوا بنى قريظة ونازلوهم، فسمعوا سبّ الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانصرف علىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يارسول الله، لا تبلغ إليهم، وعرّض له . فقال له : "أظنك سمعت منهم شتمى . لو رأونى لكفّوا عن ذلك" ونهض إليهم فلما رأوه أمسكوا . فقال لهم: "نقضتم العهد يا إخوة القرود أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته" فقالوا: ما كنت جاهلا يامحمد فلا تجهل علينا؛ ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة . وعرض عليهم سيّدهم كعب ثلاث خصال ليختاروا أيّها شاءوا؛ إما أن يُسلموا ويتبعوا محمدا على ماجاء به فيَسلموا . قال: وتحرزوا أموالكم ونساءكم وأبناءكم؛ فوالله إنكم لتعلمون أنه الذى تجدونه مكتوبا فى كتابكم . وإما أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم ثم يتقدمون فيقاتلون حتى يموتوا من آخرهم؛ وإما أن يبيّتوا المسلمين ليلة السبت فى حين طمأنينتهم فيقتلوهم قتلا . فقالوا : أما الإسلام فلا نُسلم ولا نخالف حكم التوراة، وأما قتل أبنائنا ونسائنا فما جزاؤهم المساكين منا أن نقتلهم؛ ونحن لا نتعدّى فى السبت . ثم بعثوا إلى أبى لُبابة، وكانوا حلفاء بنى عمرو بن عوف وسائر الأوس، فأتاهم فجمعوا إليه أبناءهم ونساءهم ورجالهم وقالوا له : ياأبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ فقال نعم، — وأشار بيده إلى حلقه — إنه الذبح إن فعلتم . ثم ندم أبو لبابة فى الحين، وعلم أنه خان الله ورسوله، وأنه أمرٌ لا يستره الله عليه عن نبيّه صلى الله عليه وسلم .

فانطلق إلى المدينة ولم يرجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فربط نفسه في سارِيَة وأقسم ألا يبرح من مكانه حتى يتوب الله عليه فكانت امرأته تَحُلّه لوقت كل صلاة . قال ابن عُيينة وغيره : فيه نزلت «يأيها الذين آمنوا لا تَخُونُوا اللهَ والرسولَ وتخونوا أماناتكم» (١) الآية . وأقسم ألا يدخل أرض بني قُريظة أبدًا مكانًا أصاب فيه الذنب . فلما بلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم من فعل أبي لُبابة قال : "أمَا إنه لو أتاني لاستغفرت له وأمّا إذ فعل مافعل فلا أطلقه حتى يطلقه الله تعالى" . فأنزل الله تعالى في أمر أبي لبابة : «وآخرونَ اعْتَرَفُوا بذنوبهم» (٢) الآية . فلما نزل فيه القرآن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإطلاقه ، فلما أصبح بنو قُريظة نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواثب الأَوْس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يارسول الله ، قد علمتَ أنهم حلفاؤنا ، وقد أسعفتَ (٣) عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول في بني النَّضِير حلفاء الخَزْرج ، فلا يكن حظُّنا أَوْكَس وأنقص عندك من حَظّ غيرنا ، فهم موالينا . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا معشر الأَوْس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم — قالوا بلى . قال —: فذلك إلى سعد بن معاذ" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ضرب له خيمة في المسجد ، ليعوده من قريب في مرضه من جرحه الذي أصابه في الخندق . فحكم فيهم بأن تُقتل المقاتلة ، وتُسْبَى الذرية والنساء ، وتقسم أموالهم . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد حكمتَ فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع أرقعة (٤)" . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا إلى موضع بسوق المدينة اليوم — زمن ابن إسحاق — فخندق بها خنادق ، ثم أمر عليه السلام فضربت أعناقهم في تلك الخنادق ، وقتل يومئذ حُيَيّ بن أَخْطب وكعب بن أسد ، وكانا رأس القوم ، وكانوا من الستمائة إلى السبعمائة . وكان على حُيَيّ حُلّة فُقّاحية (٥) قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأَنملة ، أنملة أنملة لئلا يُسْلَبها . فلما نظر إلى رسول الله

(١) آية ٢٧ سورة الأنفال . راجع جـ٧ ص ٣٩٤

(٢) آية ١٠٢ سورة التوبة راجع جـ ٨ ص ٢٤٢ (٣) الاسعاف : قضاء الحاجة .

(٤) أرقعة : جمع رقيع ، والرقيع السماء ؛ سميت بذلك لأنها رقعت بالنجوم .

(٥) أي بلون الورد حين أن يتفتح .

صلى الله عليه وسلم حين أتى به ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبل قال : أما والله ما لمتُ نفسى في عداوتك .

* ولكنه من يخذل الله يخذل *

ثم قال : يأيها الناس ، لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة[1] كُتبت على بنى إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه . وقتل من نسائهم امرأة ، وهى بُنانة امرأة الحكم القُرَظى التى طرحت الرحى على خلّاد بن سُويد فقتلته . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل كل من أنبت منهم وترك من لم يُنبت . وكان عطية القُرَظى ممن لم ينبت ، فاستحياه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مذكور فى الصحابة . ووهب رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت ابن قيس بن شمّاس ولدَ الزَّبير بن باطا فاستحياهم ؛ منهم عبد الرحمن بن الزَّبير أسلم وله صحبة. ووهب أيضا عليه السلام رفاعة بن سَمَوْءل القُرَظى لأم المنذر سلمى بنت قيس ، أخت سليط ابن قيس من بنى النجار ، وكانت قد صلّت إلى القبلتين ؛ فأسلم رفاعة وله صحبة ورواية . وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال : أتى ثابت بن قيس بن شمّاس إلى ابن باطا — وكانت له عنده يد — وقال : قد استوهبتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدك التى لك عندى ، قال : ذلك يفعل الكريم بالكريم ، ثم قال : وكيف يعيش رجل لا ولد له ولا أهل ؟ قال : فأتى ثابت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فأعطاه أهله وولده ؛ فأتى فأعلمه فقال : كيف يعيش رجل لا مال له ؟ فأتى ثابت النبيَّ صلى الله عليه وسلم فطلبه فأعطاه ماله ، فرجع إليه فأخبره ؛ قال : ما فعل ابن أبى الحقيق الذى كأن وجهه مرآة صينية ؟ قال : قتل . قال : فما فعل المجلسان ، يعنى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو ابن قريظة؟ قال : قتلوا . قال : فما فعلت الفئتان؟ قال : قتلتا . قال : برئت ذمتك ، ولن أصبّ فيها دلْوًا أبدا ، يعنى النخل ، فألحقنى بهم ؛ فأبى أن يقتله فقتله غيره . واليد التى كانت لابن باطا عند ثابت أنه أسره يوم بُعاث فجز ناصيته وأطلقه .

(١) الملحمة : الوقعة العظيمة القتل .

العاشرة ـ وقسم صلى الله عليه وسلم أموال بنى قريظة فأسهم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهما . وقد قيل : للفارس سهمان وللراجل سهم . وكانت الخيل للسلمين يومئذ ستة وثلاثين فرسا . ووقع للنبيّ صلى الله عليه وسلم من سبْيِهم ريحانة بنت عمرو بن جنافة (١) أحد بنى عمرو بن قريظة، فلم تزل عنده إلى أن مات صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن غَنيمة قريظة هى أوّل غنيمة قسم فيها للفارس والراجل، وأوّل غنيمة جُعل فيها الخمس . وقد تقدّم أن أوّل ذلك كان فى بعث عبد الله بن جَحْش؛ فالله أعلم . قال : أبو عمر : وتهذيب ذلك أن تكون غنيمة قريظة أوّل غنيمة جرى فيها الخمس بعد نزول قوله : «وَٱعلموا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وِللرسولِ» الآية . وكان عبد الله بن جَحْش قد خمس قبل ذلك فى بعثه، ثم نزل القرآن بمثل ما فعله؛ وكان ذلك من فضائله رحمة الله عليه .

وكان فتح قريظة فى آخر ذىّ القعدة وأوّل ذى الحجة من السنة الخامسة من الهجرة . فلما تمّ أمر بنى قريظة أجيبت دعوة الرجل الفاضل الصالح سعد بن معاذ، فانفجر جرحه، وانفتح عرقه، فجرى دمه ومات رضى الله عنه . وهو الذى أتى الحديث فيه : "اهتزّ لموته عَرشُ الرحمن" يعنى سكان العرش من الملائكة فرحوا بقدوم رُوحه واهتزوا له . وقال ابن القاسم عن مالك : حدثنى يحيى بن سعيد قال : لقد نزل لموت سعد بن معاذ سبعون ألف مَلَك ، ما نزلوا إلى الأرض قبلها . قال مالك : ولم يستشهد يوم الخَندق من المسلمين إلا أربعة أو خمسة .

قلت : الذى استُشْهِد يوم الخندق من المسلمين ستةُ نفرٍ فيما ذكر أهل العلم بالسِّيَر: سعد ابن معاذ أبو عمرو من بنى عبد الأشهل ، وأنس بن أوْس بن عَتِيك ، وعبد الله بن سهل ، وكلاهما أيضا من بنى عبد الأشهل ، والطّفيل بن النعمان ، وثعلبة بن غنمة (٢) ، وكلاهما من بنى سلمة ، وكعب بن زيد من بنى دينار بن النجار ، أصابه سَهْمٌ غَرْبٌ (٣) فقتله ، رضى الله عنهم .

(١) ويقال فيه «خنافة» بالخاء المعجمة . (٢) فى المواهب اللدنية والإصابة : «ثعلبة بن عنمة بفتح العين المهملة والنون» . (٣) قال ابن هشام : « سهم غرب ، وسهم غرب (بإضافة وغير إضافة) وهو الذى لا يعرف من أين جاء ولا من رمى به» .

وقتل من الكفار ثلاثة : منبّه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار، أصابه سهم مات منه بمكة . وقد قيل : إنما هو عثمان بن أمية بن منبه بن عبيد بن السباق . ونوفل بن عبد الله ابن المغيرة المخزومي ، اقتحم الخندق فتورّط فيـه فقتل، وغلب المسلمون على جسده ؛ فروى عن الزهري أنهم أعطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في جسده عشرة آلاف درهم فقال : "لا حاجة لنا بجسده ولا بثمنه" فخلّى بينهم وبينه . وعمرو بن [عبد] ودّ الذي قتله عليّ مبارزةً ، وقد تقدّم . واستشهد يوم قُريظة من المسلمين خلّاد بن سويد بن ثعلبـة بن عمرو من بني الحارث بن الخزرج ؛ طَرحت عليـه امرأةٌ من بني قُريظة رحًى فقتلته . ومات في الحصار أبو سنان بن محصن بن حُرْثان الأسدي ، أخو عُكّاشة بن مِحْصَن ، فدفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقبرة بني قُريظة التي يتدافن فيها المسلمون السكان بها اليوم. ولم يُصب غير هذين ، ولم يغز كفارُ قريش المؤمنين بعد الخندق . وأسند الدّارِميّ أبو محمد في مسنده : أخبرنا يزيد ابن هارون عن ابن أبي ذِئب عن المَقْبُرِيّ عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخُدْرِيّ عن أبيه قال : حُبسنا يوم الخندق حتى ذهب هَوِيٌّ(١) من الليل حتى كُفينا ؛ وذلك قول الله عز وجل : « وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا » فأمر النبيّ صلى الله عليـه وسلم بلالًا فأقام فصلى الظهر فأحسن كما كان يصلّيها في وقتها ، ثم أمره فأقام العصر فصلّاها ، ثم أمره فأقام المغرب فصلّاها ، ثم أمره فأقام العشاء فصلاها ، وذلك قبل أن ينزل : « فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا »(٢) خرّجه النسائي أيضا . وقد مضت هذه المسألة في « طه ». وقد ذكرنا في هذه الغَزاة أحكاما كثيرة لمن تأملها في مسائل عشر . ثم نرجع إلى أوّل الآي وهي تسع عشرة آية تضمّنت ما ذكرناه .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ يعني الأحزاب . ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ قال مجاهد : هي الصَّبا، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم . قال : والجنود الملائكة ولم تقاتل يومئذ . وقال عِكْرمة : قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب :

(١) الهوي (بالفتح) : الزمان الطويل . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٨٠

انطلق لنصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقالت الشمال : إن مَحْوَةَ[1] لا تسرى بليل . فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصَّبا . وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نُصرت بالصَّبا وأهلكت عادٌ بالدَّبور" . وكانت هذه الريح معجزةً للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين كانوا قريبا منها ، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق ، وكانوا فى عافية منها ، ولا خبر عندهم بها . ﴿ وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وقرئ بالياء ؛ أى لم يرها المشركون . قال المفسرون : بعث الله تعالى عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد ، وقطعت أطناب الفساطيط ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وجالت الخيل بعضها فى بعض ، وأرسل الله عليهم الرُّعْب ، وكثر تكبير الملائكة فى جوانب العسكر ؛ حتى كان سيّدُ كل خِباء يقول : يا بنى فلان هَلُمّ إلىّ فإذا اجتمعوا قال لهم : النَّجاءَ النَّجاء ؛ لما بعث الله تعالى عليهم من الرعب . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ وقرئ «يعملون» بالياء على الخبر ، وهى قراءة أبى عمرو . الباقون بالتاء ؛ يعنى من حفر الخندق والتحرز من العدو .

قوله تعالى : إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ « إذ » فى موضع نصب بمعنى واذكر . وكذا «وإذ قالت طائفة منهم» . «مِنْ فَوْقِكُمْ» يعنى من فوق الوادى ، وهو أعلاه من قبل المشرق ، جاء منه عَوْف بن مالك فى بنى نصر ، وعُيينة بن حِصْن فى أهل نجد ، وطُليحة ابن خُويلد الأسدى فى بنى أسد . « وِمنْ أَسْفَلَ مِنكم » يعنى من بطن الوادى من قبل المغرب ، جاء منه أبو سفيان بن حَرْب على أهل مكة ، ويزيد بن جحش على قريش ، وجاء أبو الأعور السُّلَمى ومعه حُيَيّ بن أَخْطب اليهودى فى يهود بنى قريظة مع عامر بن الطُّفَيل من وجه الخندق . ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ أى شخصت . وقيل : مالت ؛ فلم تلتفت إلا إلى

(١) محوة : من أسماء الشمال ؛ لأنها تمحو السحاب وتذهب بها ، وهى معرفة لا تنصرف ، ولا تدخلها ألف ولام .

عدوها دهشاً من فرط الهول . ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ أى زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجر وهى الحلاقيم ، واحدها حَنْجرة ؛ فلولا أن الحلوق ضاقت عنها لخرجت؛ قاله قتادة . وقيل : هو على معنى المبالغة على مذهب العرب على إضمار كاد ؛ قال[1] :

إذا ما غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً * هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

أى كادت تقطر . ويقال : إن الرئة تنفتح عند الخوف فيرتفع القلب حتى يكاد يبلغ الحَنْجرة مثلا؛ ولهذا يقال للجبان : انتفخ سَحْره . وقيل : إنه مَثَل مضروب فى شدّة الخوف ببلوغ القلوب الحناجر وإن لم تزل عن أماكنها مع بقاء الحياة . قال معناه عكرمة . روى حماد ابن زيد عن أيوب عن عكرمة قال : بلغ فزعها . والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضربانه ؛ أى كأنه لشدّة اضطرابه بلغ الحنجرة . والحنجرة والحُنْجور (بزيادة النون) حرف الحلق . ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ قال الحسن : ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون ، وظن المؤمنون أنهم يُنصرون . وقيل : هو خطاب للمنافقين ؛ أى قلتم هلك محمد وأصحابه . واختلف القراء فى قوله تعالى « الظنونا ، والرسولا ، والسبيلا » آخر السورة ؛ فأثبت ألفاتها فى الوقف والوصل نافع وابن عامر . وروى عن أبى عمرو والكسائى تمسكا بخط المصحف ، مصحف عثمان ، وجميع المصاحف فى جميع البلدان . واختاره أبو عبيد ؛ إلا أنه قال : لا ينبغى للقارئ أن يدرج القراءة بعدهن لكن يقف عليهن . قالوا : ولأن العرب تفعل ذلك فى قوافى أشعارهم ومصاريعها ؛ قال :

نحن جلبنا القُرّح[2] القوافلا * تستنفر الأواخرُ الأوائلا

وقرأ أبو عمرو والجَحْدَرىّ ويعقوب وحمزة بحذفها فى الوصل والوقف معاً . قالوا : هى زائدة فى الخط كما زيدت الألف فى قوله تعالى : « وَلَأَوْضَعُوا[3] خِلَالَكُمْ » فكتبوها كذلك ، وغير هذا . وأما الشعر فموضع ضرورة ، بخلاف القرآن فإنه أفصح اللغات ولا ضرورة فيه . قال ابن الأنبارى : ولم يخالف المصحف من قرأ « الظنون . والسبيل . والرسول » بغير ألف

---

(١) القائل هو بشار بن برد . (٢) القرح : جمع القارح ، وهى الناقة أول ما تحمل .

(٣) هذا يدل على أن رسم المصحف : «ولا أوضعوا» بزيادة ألف .

فى الحروف الثلاثة ، وخطهن فى المصحف بألف لأن الألف التى فى « اطعنا » والداخلة فى أول « الرسول . والظنون . والسبيل » كفىء من الألف المتطرفة المتأخرة كما كفئت ألف أبى جاد من ألف هوّاز . وفيه حجة أخرى : أن الألف أنزلت منزلة الفتحة وما يُلحق دعامة للحركة التى تسبق والنية فيه السقوط ؛ فلما عُمل على هذا كانت الألف مع الفتحة كالشىء الواحد يوجب الوقفُ سقوطَهما و يعمل على أن صورة الألف فى الخط لا توجب موضعا فى اللفظ، وأنها كالألف فى « سَحِران » وفى « فطر السموات والأرض» وفى «وعدنا موسى» وما يشبههن مما يُحذف من الخط وهو موجود فى اللفظ، وهو مسقط من الخط(١) . وفيه حجة ثالثة هى أنه كتب على لغة من يقول لقيت الرجلا . وقرئ على لغة من يقول : لقيت الرجل، بغير ألف . أخبرنا أحمد بن يحيى عن جماعة من أهل اللغة أنهم رووا عن العرب قام الرّجلُو ، بواو، ومررت بالرجلى ، بياء ، فى الوصل والوقف . ولقيت الرجلا ، بألف فى الحالتين كلتيهما . قال الشاعر :

أسائلةٌ عُميرةُ عن أبيها * خلالَ الجيش تعترف الرِّكابا(٢)

فأثبت الألف فى « الركاب » بناء على هذه اللغة . وقال الآخر :

إذا الجوزاء أردفت الثريّا * ظننت بآل فاطمة الظنونا

وعلى هذه اللغة بنى نافع وغيره . وقرأ ابن كثير وابن مُحيصن والكسائىّ بإثباتها فى الوقف وحذفها فى الوصل . قال ابن الأنبارىّ : ومن وصل بغير ألف ووقف بألف جائز أن يحتج بأن الألف احتاج إليها عند السكت حرصًا على بقاء الفتحة، وأن الألف تدعمها وتقويها .

قوله تعالى : هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

« هنا » للقريب من المكان . و « هنالك » للبعيد . و « هناك » للوسط . ويشار به إلى الوقت ؛ أى عند ذلك اختُبر المؤمنون ليتبين المخلص من المنافق . وكان هذا الابتلاء بالخوف والقتال والجوع والحصر والنزال . ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أى حرّكوا تحريكًا .

(١) فى الأصول : « وهو موجود فى اللفظ ويثبت فى اللفظ وهو ... » .
(٢) البيت لبشر بن أبى خازم . وواعف القوم : سالم .

قال الزجاج : كل مصدر من المضاعف على فِعلال يجوز فيه الكسر والفتح ؛ نحو قلقلته قِلقالا وقَلقالا ، وزلزلوا زِلزالا وزَلزالا . والكسر أجود ؛ لأن غير المضاعف على الكسر نحو دحرجته دِحراجا . وقراءة العامة بكسر الزاى . وقرأ عاصم والجحْدرى « زَلزالا » بفتح الزاى . قال ابن سلام : أى حرّكوا بالخوف تحريكا شديدا . وقال الضحاك : هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق . وقيل : إنه اضطرابهم عما كانوا عليه ؛ فمنهم من اضطرب فى نفسه ومنهم من اضطرب فى دينه . و « هنالك » يجوز أن يكون العامل فيه « ابْتُلِىَ » فلا يوقف على «هنالك» . و يجوز أن يكون « وتظنون بالله الظنونا » فيوقف على «هنالك» .

قوله تعالى : وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى شكّ ونفاق . ﴿ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أى باطلا من القول . وذلك أن طُعْمة بن أُبَيْرِق ومُعَتّب ابن قُشير و جماعة نحو من سبعين رجلا قالوا يوم الخندق : كيف يَعِدُنا كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرّز ؟ و إنما قالوا ذلك لمـا فَشَا فى أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم من قوله عند ضرب الصخرة ، على ما تقدّم فى حديث النسائىّ ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ الطائفة تقع على الواحد فما فوقه . وعُنِى به هنا أَوْس بن قَيْظِىّ والد عَرَابة بن أوْس ؛ الذى يقول فيه الشّماخ :

إذا مارايةٌ رُفعت لمجْد * تلقّاها عَرابةُ باليمين

و «يثرب» هي المدينة؛ وسمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم طَيْبة وطابة . وقال أبو عبيدة : يثرب اسم أرض والمدينة ناحية منها . السُّهَيْلِيّ : وسميت يثرب لأن الذى نزلها من العماليق اسمه يثرب بن عميل بن مهلائيل بن عوض بن عملاق بن لاوذ بن إرم . وفى بعض هذه الأسماء اختلاف . وبنو عميل هم الذين سكنوا الجُحْفَة[1] فأجحفت بهم السيول[2] فيها . وبها سميت الجحفة . ﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ بفتح الميم قراءة العامة . وقرأ حفص والسُّلَمِيّ والجَحْدَرِي وأبو حَيْوَة بضم الميم؛ يكون مصدرا من أقام يقيم؛ أى لا إقامة، أو موضعا يقيمون فيه . ومن فتح فهو اسم مكان؛ أى لا موضع لكم تقيمون فيه . ﴿ فَٱرْجِعُوا ﴾ أى إلى منازلكم . أمروهم بالهروب من عسكر النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : قالت اليهود لعبد الله بن أُبَيّ آبن سَلُول وأصحابه من المنافقين : ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان وأصحابه ! فارجعوا إلى المدينة فإنا مع القوم فأنتم آمنون .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ ﴾ فى الرجوع إلى منازلهم بالمدينة، وهم بنو حارثة ابن الحارث، فى قول ابن عباس . وقال يزيد بن رُومان : قال ذلك أَوْس بن قَيْظيّ عن ملأ من قومه . ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أى سائبة ضائعة ليست بحصينة، وهى مما يلى العدوّ . وقيل : مُمْكِنة للسّراق لخلوها من الرجال . يقال : دارٌ مُعْوِرة وذات عَوْرة إذا كان يسهل دخولها . يقال : عَوِر المكان عَوَرا فهو عَوِر . وبيوت عَوِرة . وأَعْوَر فهو مُعْوِر . وقيل : عَوِرة ذات عَوْرة . وكل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عَوْرة؛ قاله الهَرَوِيّ . وقرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو رَجَاء العُطَارِديّ « عَوِرة » بكسر الواو؛ يعنى قصيرة الجدران فيها خلل . تقول العرب : دار فلانٍ عَوِرة إذا لم تكن حصينة . وقد أعور الفارس إذا بدا فيه خَلَل للضرب والطعن؛ قال الشاعر :

مَتَى تَلْقَهُم لم تَلْقَ فى البيت مُعْوِرًا * ولا الضيفَ مفجوعًا ولا الجارَ مُرْمِلَا

(١) فى كتاب معجم البلدان لياقوت : «يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح. عليه السلام» . (٢) فى معجم البلدان : « وقال الكلبي : أن العماليق أخرجوا بنى عقيل وهم أخوة عاد فنزلوا الجحفة ... » .

الجوهري : والعَوْرة كل خَلَل يُتَخَوَّف منه في ثغر أو حرب . النحاس : يقال أعور المكان إذا تُبُيِّنت فيه عورة، وأعور الفارس إذا تُبُيِّن فيه موضعُ الخلل . المَهْدَوِيّ : ومن كسر الواو في «عورة» فهو شاذ؛ ومثله قولهم : رجل عَوِر، أي لا شيء له[1]، وكان القياس أن يُعَلّ فيقال: عارٍ؛ كيوم راحٍ، ورجلٍ مالٍ؛ أصلهما روِح ومَوِل[2]. ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ تكذيبا لهم وردًّا عليهم فيما ذكروه . ﴿ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾ أي ما يريدون إلا الهرب . قيل : من القتل . وقيل : من الدِّين . وحكى النّقاش أن هذه الآية نزلت في قبيلتين من الأنصار : بني حارثة وبني سَلِمة؛ وهمُّوا أن يتركوا مراكزهم يوم الخنـدق، وفيهم أنزل الله تعـالى : «إذ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا»[3] الآية . فلما نزلت هذه الآية قالوا : والله ما ساءنا ما كنا هَمَمْنا به؛ إذ الله وَلِيُّنا . وقال السُّدّي : الذي استأذنه منهم رجلان من الأنصار من بني حارثة أحدهما — أبو عَرابة بن أوس، والآخر أوْس بن قَيْظِيّ . قال الضحاك : ورجع ثمـانون رجلا بغير إذنه .

قوله تعـالى : وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ﴾ وهي البيوت أو المدينة؛ أي من نواحيها وجوانبها، الواحد قُطْر، وهو الجانب والناحية . وكذلك القُتْر لغة في القطر . ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا ﴾ أي لجاءوها؛ هذا على قراءة نافع وابن كَثير بالقصر . وقرأ الباقون بالمدّ؛ أي لأعطوها من أنفسهم، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم . وقد جاء في الحديث أن أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم كانوا يعذَّبون في الله ويُسألون الشرك، فكلٌّ أعطى ما سألوه إلا بلالا . وفيه دليل على قراءة المدّ، من الإعطاء . ويدل على قراءة القصر قوله : «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ

---

(١) اضطربت الأصول هنا؛ فقد ذكر في نسخة : «رجل أعور أي لا شيء له» . وفي نسخة أخرى : «رجل عور كور ... » بالكاف . وفي ثالثة : «رجل عور لور ... » باللام . ولعل الكلمة الأخيرة اتباع؛ على أننا لم نجدها في مظانها .

(٢) أي ذو ريح وذو مال . (٣) آية ١٢٢ سورة آل عمران .

لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ» ؛ فهذا يدل على «لأتَوْها» مقصورا . وفى «الفتنة» هنا وجهان : أحدهما — سئلوا القتال فى العصبية لأسرعوا اليه ؛ قاله الضحاك . الثانى — ثم سئلوا الشرك لأجابوا إليه مسرعين ؛ قاله الحسن . ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا ﴾ أى بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلا حتى يهلكوا ؛ قاله السُّدّى والقُتَبِيّ والحسن والفراء . وقال أكثر المفسرين : أى وما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلا ولأجابوا بالشرك مسرعين ؛ وذلك لضعف نياتهم ولفرط نفاقهم ؛ فلو اختلطت بهم الأحزاب لأظهروا الكفر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَـٰهَدُوا ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل غزوة الخندق وبعد بدر . قال قتادة : وذلك أنهم غابوا عن بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر ، فقالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن . وقال يزيد بن رُومان : هم بنو حارثة ، همّوا يوم أُحُد أن يفشلوا مع بنى سَلِمة ، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها فذكر الله لهم الذى أعطوه من أنفسهم . ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ أى مسئولا عنه . قال مُقاتل والكلبي : هم سبعون رجلا بايعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة العقَبة وقالوا : اشترط لنفسك ولربّك ما شئت . فقال : "أشترط لربّى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأموالكم وأولادكم" فقالوا : فمالنا إذا فعلنا ذلك يا نبيّ الله ، قال : "لكم النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة" . فذلك قوله تعالى : « وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا » أى أن الله ليسألهم عنه يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ المَوْتِ أَوِ القَتْلِ﴾ أى مَن حضر أجلُه مات أو قُتل؛ فلا ينفع الفِرَارُ . ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى فى الدنيا بعد الفرار إلى أن تنقضى آجالكم؛ وكل ما هو آتٍ فقريب . وروى السّاجى عن يعقوب الحضرمىّ «وإذًا لا يُمَتَّعُونَ» بياء . وفى بعض الروايات « وإذا لا تمتعوا » نصب بـ«إذًا» والرفع بمعنى ولا تمتعون . و « إذًا » ملغاة، ويجوز إعمالها . فهذا حكمها إذا كان قبلها الواو والفاء . فإذا كانت مبتدأة نصَبْت بها فقلت : إذًا أكرمَك .

قوله تعالى : قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أى يمنعكم منه . ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ أى هلاكا . ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أى خيرًا ونصرًا وعافية . ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أى لا قريبًا ينفعهم ولا ناصرًا ينصرهم .

قوله تعالى : قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ أى المعترضين منكم لأن يصدّوا الناس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ وهو مشتق من عاقنى عن كذا أى صرفنى عنه . وعوّق، على التكثير ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ على لغة أهل الحجاز . وغيرهم يقولون : « هَلُمُّوا » للجماعة، وهَلُمِّى للمرأة؛ لأن الأصل : « ها » التى للتنبيه ضُمّت إليها «لُمَّ» ثم حُذفت الألف استخفافًا وبُنيت على الفتح . ولم يجز فيها الكسر ولا الضم لأنها لا تتصرف . ومعنى «هَلُمّ» أقبل؛ وهؤلاء طائفتان؛ أى منكم من يثبّط ويعوّق . والعَوْق المنع والصرف؛ يقال : عاقه يعوقه عَوْقًا، وعوّقه واعتاقه بمعنى واحد . قال مُقاتل : هم عبد الله بن أُبَىّ وأصحابه المنافقون .

« والقائلين لإخوانهم هلم » فيهم ثلاثة أقوال : أحدها – أنهم المنافقون ؛ قالوا للسلمين : ما محمد وأصحابه إلا أكلة[1] رأس ، وهو هالك ومن معه ، فهلم إلينا . الثاني – أنهم اليهود من بني قريظة ؛ قالوا لإخوانهم من المنافقين : هلم إلينا ؛ أي تعالوا إلينا وفارقوا محمدا فإنه هالك ، وإن أبا سفيان إن ظفر لم يبق منكم أحدا . والثالث – ما حكاه ابن زيد أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بين الرماح والسيوف ؛ فقال أخوه – وكان من أمه وأبيه – هلم إلي ، قد تبع بك وبصاحبك ؛ أي قد أحيط بك وبصاحبك . فقال له : كذبت ، والله لأخبرنه بأمرك ؛ وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره ، فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى : « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا » . ذكره الماوردي والثعلبي أيضا . ولفظه : قال ابن زيد هذا يوم الأحزاب ، انطلق رجل من عند النبي صلى الله عليه وسلم فوجد أخاه بين يديه رغيف وشواء ونبيذ ؛ فقال له : أنت في هذا ونحن بين الرماح والسيوف ؟ فقال : هلم إلى هذا فقد تبع لك ولأصحابك ، والذي تحلف به لا يستقل بها محمد أبدا . فقال : كذبت . فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره فوجده قد نزل عليه جبريل بهذه الآية . ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ خوفاً من الموت . وقيل : لا يحضرون القتال إلا رياء وسمعة .

قوله تعالى : أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩)

قوله تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أي بخلاء عليكم ؛ أي بالحفر في الخندق والنفقة في سبيل الله ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل : بالقتال معكم . وقيل : بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم .

(١) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد ؛ وهو جمع آكل .

وقيل : أشحّـةً بالغنائم إذا أصابوها ؛ قاله السُّدّى . وانتصب على الحـال . قال الزجاج : ونصبه عند الفَـرّاء من أربع جهات : إحداها — أن يكون على الذم ؛ ويجـوز أن يكون عنده نصباً بمعنى يعوّقون أشحةً . ويجوز أن يكون التقدير : والقائلين أشحةً . ويجوز عـنده [« ولا يأتون البأس إلا قليلا » أشحة؛ أى أن يأتونه أشحة على الفقراء بالغنيمة[1]] . النحاس : ولا يجوز أن يكون العامل فيـه « المعوقين » ولا « القائلين » ؛ لئـلا يفرق بين الصـلة والموصول . ابن الأنبـارى : « إلا قليلاً » غير تام ؛ لأن « أشحـة » متعلق بالأول، فهو ينتصب من أربعـة أوجه : أحدها — أن تنصبه على القطع من « المعوّقين » كأنه قال : قد يعلم الله الذين يعوقون عن القتال ويشحّون عن الإنفاق على فقراء المسلمين . ويجوز أن يكون منصوبا على القطع من « القائلين » أى وهم أشحّة . ويجوز أن تنصبه على القطع مما في «يأتون» ؛ كأنه قال : ولا يأتون البأس إلا جبناء بخلاء . ويجوز أن تنصب «أشحة» على الذم . فمن هـذا الوجه الرابع يحسن أن تقف على قوله : « إلا قليلاً » . « أشحـةً عليكم » وقف حسـن . ومثله « أشحةً على الخير » حال من المضمر فى « سلقوكم » وهو العامل فيه . ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ وصفهم بالجبن؛ وكذا سبيل الجبان ينظر يمينا وشمالاً محدّدا بصره ، وربما غُشى عليه . وفى «الخوف» وجهان : أحدهما — من قتال العدوّ إذا أقبل ؛ قاله السدّى . الثانى — الخوف من النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا غلب ؛ قاله ابن شجرة . « رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ » خوفاً من القتال على القول الأول . ومن النبيّ صلى الله عليه وسلم على الثانى . « تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ » لذهاب عقولهم حتى لا يصح منهم النظر إلى جهة . وقيل : لشدّة خوفهم حذرا أن يأتيهم القتل من كل جهة . ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وحكى الفـراء « صلقوكم » بالصاد . وخطيبٌ مِسْلاق ومِصْلاق إذا كان بليغاً . وأصـل الصَّلْق الصوت ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : ” لعن الله الصّالقة والحالقة والشاقّة “ . قال الأعشى :

(١) ما بين المربعين من كتاب النحاس وهو واضح . وعبارة الأصـول : « ولا يأتون البأس إلا قليلا ، يأتونه أشحة ؛ أى أشحة على الفقراء بالغنيمة جبناء » .

فيهم المجد والسماحة والنجـ * ـدة فيهم والخاطب السلاق[1]

قال قتادة : ومعناه بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة ، يقولون : أعطنا أعطنا فإنا قد شهدنا معكم . فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لسانا ، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم . قال النحاس : هذا قول حسن ؛ لأن بعده « أشحة على الخير »[2] . وقيل : المعنى بالغوا في مخاصمتكم والاحتجاج عليكم . وقال القتبي : المعنى آذوكم بالكلام الشديد . والسلق الأذى . ومنه قول الشاعر :

ولقد سلقنا هوازنا * بنواهل حتى انحنينا

« أشحة على الخير » أي على الغنيمة ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : على المال أن ينفقوه في سبيل الله ؛ قاله السدي . « أولئك لم يؤمنوا » يعني بقلوبهم وإن كان ظاهرهم الإيمان ؛ والمنافق كافر على الحقيقة لوصفهم الله عز وجل بالكفر . ﴿ فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي لم يثبهم عليها ؛ إذ لم يقصدوا وجه الله تعالى بها . ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما ــ وكان نفاقهم على الله هينا . الثاني ــ وكان إحباط عملهم على الله هينا .

قوله تعالى : يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)

قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ أي لجبنهم ؛ يظنون الأحزاب لم ينصرفوا وكانوا انصرفوا ، ولكنهم لم يتباعدوا في السير . ﴿ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ ﴾ أي وإن يرجع الأحزاب إليهم للقتال . ﴿ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ ﴾ تمنوا أن يكونوا مع الأعراب حذرا من القتل وتربصا للدوائر . وقرأ طلحة بن مصرف « لو أنهم بدى في الأعراب » ؛ يقال : باد وبدى ؛ مثل غاز وغزى . ويمد مثل صائم وصوام . بدا فلان يبدو إذا خرج

(١) ويروى : « المسلاق » . (٢) في الأصول : « أشحة عليكم » .

إلى البادية . وهى البِداوة والبَداوة؛ بالكسر والفتح . وأصل الكلمة من البَدْو وهو الظهور . ﴿ يَسْأَلُونَ ﴾ وقرأ يعقوب فى رواية رُوَيْس « يتساءلون عن أنبائكم » أى عن أخبار النبيّ صلى الله عليه وسلم . يتحدّثون : أمَا هلك محمد وأصحابه ! أمَا غلب أبو سفيان وأحزابه ! أى يودّوا لو أنهم بادون سائلون عن أنبائكم من غير مشاهدة القتال لفرط جبنهم . وقيل : أى هم أبدًا لجبنهم يسألون عن أخبار المؤمنين، وهل أصيبوا . وقيل : كان منهم فى أطراف المدينة من لم يحضر الخندق، جعلوا يسألون عن أخباركم ويتمنون هزيمة المسلمين . ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى رميًا بالنبل والحجارة على طريق الرياء والسمعة؛ ولو كان ذلك لله لكان قليله كثيرا .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ هذا عتاب للمتخلفين عن القتال؛ أى كان لكم قدوة فى النبيّ صلى الله عليه وسلم حيث بذل نفسه لنصرة دين الله فى خروجه إلى الخندق . والأسوة القُدْوة . وقرأ عاصم « أُسْوة » بضم الهمزة . الباقون بالكسر؛ وهما لغتان . والجمع فيهما واحد عند القرّاء . والعلة عنده فى الضم على لغة من كسر فى الواحدة الفرقُ بين ذوات الواو وذوات الياء؛ فيقولون كِسْوة وكُسًا، ولِحْية ولِحًى . الجوهريّ : والأُسوة والإسوة بالضم والكسر لغتان . والجمع أُسًى وإسًى . وروى عقبة ابن حسان الهجرى عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » قال : فى جوع النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ ذكره الخطيب أبو بكر أحمد وقال: تفرد به عقبة بن حسان عن مالك، ولم أكتبه إلا بهذا الإسناد .

الثانيــة — قوله تعالى: ﴿ أُسْوَةٌ ﴾ الأسوة القدوة . والأسوة ما يتأسّى به؛ أى يتعزّى به . فيقتدى به فى جميع أفعاله ويتعزّى به فى جميع أحواله؛ فلقد شُجّ وجهه، وكسرت رباعيته،

وقُتل عمــه حمزة، وجاع بطنه، ولم يُلفَ إلا صـابرا محتسباً، وشاكرا راضـيا . وعن أنس ابن مالك عن أبي طلحة قال : شـكَوْنا إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم الجوع ورفعنا [عن بطوننا](١) عن حَجَر حجر؛ فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين . خرّجه أبو عيسى الترمذى" وقال فيه : حديث غريب . وقال صلى الله عليه وسلم لما شُجّ : "اللَّهُمّ اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون" وقد تقــدّم . ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ قال سعيد بن جُبير : المعنى لمن كان يرجو لقــاء الله بإيمانه ويصــدّق بالبعث الذى فيه جزاء الأفعال . وقيــل : أى لمن كان يرجو ثواب الله فى اليوم الآخر . ولا يجوز عند الحذاق من النحويين أن يكتب « يرجو » إلا بغير ألف إذا كان لواحد؛ لأن العلة التى فى الجمع ليست فى الواحد . ﴿ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ خوفا من عقابه ورجاء لثــوابه . وقيل : إن « لِمن » بدل من قوله : « لكم » ولا يجيزه البصريون؛ لأن الغائب لا يُبــدل من المخاطب ، وإنما اللام من « لِمن » متعلقة بـ«حسنة» و«أســوة» اسم «كان» و«لكم» الخبر . وٱختلف فيمن أريد بهــذا الخطاب على قولين : أحدهما ــ المنافقون؛ عطفًا على ماتقدّم من خطابهم . الثــانى ــ المؤمنون؛ لقوله : « لِمن كان يَرْجُو اللهَ والْيومَ الآخِرَ » .

وٱختلف فى هذه الأسوة بالرسول عليه السلام، هل هى على الإيجاب أو على الاستحباب؛ على قولين: أحدهما ــ على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب . الثــانى ــ على الاستحباب حتى يقــوم دليل على الإيجاب . ويحتمل أن يحمل على الإيجاب فى أمور الدّين، وعلى الاستحباب فى أمور الدنيا .

قوله تعــالى : وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

قوله تعــالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ ﴾ ومن العــرب من يقول : « رآء » على القلب . ﴿ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ ﴾ يريد قوله تعالى فى ســورة البقرة : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ

(١) زيادة عن سنن الترمذى .

تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم » الآية . فلما رأوا الأحزاب يوم الخندق قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله » ؛ قاله قتادة . وقول ثان رواه كثير بن عبد الله بن عمرو المزنى عن أبيه عن جده قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ذكرت الأحزاب فقال : "أخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها — يعنى على قصور الحيرة ومدائن كسرى — فأبشروا بالنصر" فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله ، موعد صادق ؛ إذ وعدنا بالنصر بعد الحصر . فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون : «هذا ما وعدنا الله ورسوله» ذكره الماوردى . و « ما وعدنا » إن جعلت « ما » بمعنى الذى فالهاء محذوفة . وإن جعلتها مصدرا لم تحتج إلى عائد ﴿ وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾ قال الفراء : وما زادهم النظر إلى الأحزاب . وقال على بن سليمان : « رأى » يدل على الرؤية ، وتأنيث الرؤية غير حقيقى ؛ والمعنى : ما زادهم الرؤية إلا إيمانا بالرب وتسليما للقضاء ؛ قاله الحسن . ولو قال : ما زادوهم لجاز . ولما اشتد الأمر على المسلمين وطال المقام فى الخندق ، قام عليه السلام على التل الذى عليه مسجد الفتح فى بعض الليالى ، وتوقع ما وعده الله من النصر وقال : "من يذهب ليأتينا بخبرهم وله الجنة" فلم يجبه أحد . وقال ثانيا وثالثا فلم يجبه أحد ، فنظر إلى جانبه وقال : "من هذا" ؟ فقال حذيفة . فقال : "ألم تسمع كلامى منذ الليلة" ؟ قال حذيفة : فقلت يا رسول الله ، منعنى أن أجيبك الضر والقر . قال : "انطلق حتى تدخل فى القوم فتسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى ترده إلى . انطلق ولا تحدث شيئا حتى تأتينى" . فانطلق حذيفة بسلاحه ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده يقول : "يا صريخ المكروبين ويا مجيب المضطرين اكشف همى وغمى وكربى فقد ترى حالى وحال أصحابى" . فنزل جبريل وقال : "إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك" فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وبسط يديه وأرخى عينيه وهو يقول : "شكرا شكرا كما رحمتنى ورحمت أصحابى" . وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحا ؛ فبشر أصحابه بذلك .

---

(١) آية ٢١٤ راجع جـ ٣ ص ٣٣

قال حذيفة : فانتهيت إليهم وإذا نيرانهم تتقد؛ فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء، فما تركت لهم نارا إلا أطفأتها الابناء إلا طرحته، وجعلوا يتترسون من الحصباء . وقام أبو سفيان إلى راحلته وصاح فى قريش : النَّجاء النجاء ! وفعل كذلك عُيينة بن حصن والحارث بن عَوف والأقرع ابن حابس . وتفرقت الأحزاب، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد إلى المدينة وبه من الشَّعَث ما شاء الله ، فجاءته فاطمة بغَسول فكانت تغسل رأسه ، فأتاه جبريل فقال : "وَضعت السلاح ولم تضعه أهل السماء مازلت أتبعهم حتى جاوزتُ بهم الرَّوْحاء — ثم قال — انهض إلى بنى قريظة" . وقال أبو سفيان : مازلت أسمع قَعْقَعة السلاح حتى جاوزت الروحاء .

قوله تعالى : مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَـٰهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤)

قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ ﴾ رفع بالابتداء، وصلُح الابتداء بالنكرة لأن «صدقوا» فى موضع النعت . ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ﴾ . « من » فى موضع رفع بالابتداء . وكذا « ومِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ » والخبر فى المجرور . والنَّحْب النذر والعهد؛ تقول منه : نَحَبت أَنْحُب؛ بالضم . قال الشاعر :

وإذا نحبت كَلْبٌ على الناس إنهم * أحق بتاج الماجد المتكرم

وقال آخر :

* قد نحب المجدُ علينا نَحْبا[(١)] *

وقال آخر :

* أَنَحْبٌ فيقضَى أم ضلالٌ وباطلٌ[(٢)] *

(١) قبله : * يا عمرو يا ابن الأكرمين نسبا *
(٢) هذا عجز بيت للبيد؛ وصدره :
* ألا تسألان المرء ماذا يحاول *

وروى البخاريّ ومسلم والترمذي عن أنس قال : قال عمّي أنس بن النّضْر – سُمّيت به – ولم يشهد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكَبُر عليه فقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غِبتُ عنه ، أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد لَيَرَيَنّ الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ؛ فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد من العام القابل ، فاستقبله سعد بن مالك فقال : يا أبا عمرو ، أين ؟ قال : واهًا[1] لريح الجنة ، أجدها دون أُحُد ؛ فقاتل حتى قُتِل ، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورَمْية . فقالت عمّتي الرُّبَيِّع بنت النضر : فما عرفت أخي إلا ببَنَانه . ونزلت هذه الآية « رجالٌ صَدَقوا ما عاهدوا اللهَ عليه فِمنهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ومِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا » لفظ الترمذيّ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى « من المؤمنين رجال صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه » الآية : منهم طلحة بن عبيد الله ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصيبت يده ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أَوْجَب[2] طلحة الجنة " . وفي الترمذيّ عنه أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا لأعرابيّ جاهل : سَلْه عمن قضى نحبه من هو ؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته ، يوقّرونه ويهابونه ؛ فسأله الأعرابي فأعرض عنه ، ثم سأله فأعرض عنه ؛ ثم إني اطّلعت من باب المسجد وعليّ ثياب خضر ، فلما رآني النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أين السائل عمن قضى نحبه " ؟ قال الأعرابي : أنا يارسول الله . قال : " هذا ممن قضى نحبه " قال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يونس بن بكير . وروى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من أُحُد ، مرّ على مصعب بن عُمير وهو مقتول على طريقه ، فوقف عليه ودعا له ، ثم تلا هذه الآية : « مِن المؤمنين رِجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نَحْبَه – إلى – تبديلًا » ثم قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) هذه الكلمة توضع موضع الإعجاب بالشيء .

(٢) أوجب الرجل إذا فعل فعلا وجبت له به الجنة أو النار .

وسلم : " أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزوروهم والذى نفسى بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردّوا عليه " . وقيل : النَّحْب الموت ؛ أى مات على ما عاهد عليه ؛ عن ابن عباس . والنحب أيضا الوقت والمدّة . يقال : قضى فلان نحبه إذا مات . وقال ذو الرُّمَّة :

عشيّةَ فرّ الحارثيون بعد ما ❊ قضى نَحْبه فى ملتقَى الخيل هَوْبَرُ

والنَّحب أيضا الحاجة والهِمة ؛ يقول قائلهم : مالى عندهم نحب ؛ وليس المراد بالآية . والمعنى فى هذا الموضع بالنَّحب النذر كما قدّمنا أوّلا ؛ أى منهم من بذل جهده على الوفاء بعهده حتى قُتل ؛ مثل حمزة وسعد بن معاذ وأنس بن النضر وغيرهم . ومنهم من ينتظر الشهادة وما بدّلوا عهدهم ونذرهم . وقد روى عن ابن عباس أنه قرأ « فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمِنْهُمْ مَنْ بَدَّلَ تَبْدِيلًا » . قال أبو بكر الأنبارى : وهذا الحديث عند أهل العلم مردود ؛ لخلافه الإجماع ، ولأن فيه طعنا على المؤمنين والرجال الذين مدحهم الله وشرفهم بالصدق والوفاء ؛ فما يعرف فيهم مغيّر وما وجد من جماعتهم مبدّل ؛ رضى الله عنهم . ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أى أمر الله بالجهاد ليجزى الصادقين فى الآخرة بصدقهم . ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ فى الآخرة ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ أى إن شاء أن يعذبهم ؛ أى لم يوفقهم للتوبة ؛ وإن لم يشأ أن يعذبهم تاب عليهم قبل الموت . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ قال محمد بن عمرو يرفعه إلى عائشة : قالت « الذين كفروا » هاهنا أبو سفيان وعُيينة بن بدر ، رجع أبو سفيان إلى تهامة ورجع عُيينة إلى نجد . ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ بأن أرسل عليهم ريحا وجنودا حتى رجعوا ورجعت بنو قريظة إلى صياصيهم ؛ فكفى أمر قريظة بالرعب . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا ﴾ أمره ﴿ عَزِيزًا ﴾ لا يغلب .

قوله تعالى : وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعنى الذين عاونوا الأحزاب : قريشا وغَطَفان؛ وهم بنو قُرَيظة . وقد مضى خبرهم . ﴿ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ أى حصونهم؛ واحدها صِيصَة . قال الشاعر :

فأصبحت الثِّيران صَرْعَى وأصبحتْ * نساء تميم يبتدرْن الصياصِيا[1]

ومنه قيل لشوكة الحائك التي بها يُسوّى السَّداة واللُّحْمَة : صِيصة . قال دريدُ بن الصِّمَّة :

فجئتُ إليه والرماحُ تَنُوشُه * كوقعِ الصَّياصِى فى النسيج المُمدَّد

ومنه : صِيصَة الديك التى فى رجله . وصَياصِى البقر قرونها ؛ لأنها تمتنع بها . وربما كانت تركَّب فى الرماح مكان الأسنّة؛ ويقال : جَذَّ الله صِئْصِئه ؛ أى أصله . ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ وهم الرجال . ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ وهم النساء والذّرّية ؛ على ما تقدّم . ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا ﴾ بعدُ . قال يزيد ابن رُومان وابن زيد ومقاتل : يعنى حُنَيْن ؛ ولم يكونوا نالوها، فوعدهم الله إياها . وقال قتادة : كنا نتحدّث أنها مكة . وقال الحسن : هى فارس والروم . وقال عِكرمة : كل أرض تُفتح إلى يوم القيامة . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — على ما أراد بعباده من نقمة أو عفوٍ قديرٌ؛ قاله محمد بن إسحاق . الثانى — على ما أراد أن يفتحه

---

(١) البيت لعبد بنى الحسحاس ، وقد أورده صاحب اللسان شاهدا على أن صياصى البقر قرونها ؛ وروايته فى البيت :

فأصبحت الثيران غرقى وأصبحت * نساء تميم يلتقطن الصياصيا

أى يلتقطن القرون لينسجن بها ؛ يريد لكثرة المطر غرق الوحش .

من الحصون والقرى قدير؛ قاله النقاش . وقيل : « وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ » مما وعدكموه « قديرًا » لا تردّ قدرته ولا يجوز عليه العجز تعالى . ويقال : تأسِرون وتأسُرون (بكسر السين وضمها)، حكاه الفراء .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

فيه ثماني مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ قال علماؤنا : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدّم من المنع من إيذاء النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ وكان قد تأذّى ببعض الزوجات . قيل : سألته شيئا من عرض الدنيا . وقيل : زيادة فى النفقة . وقيل : أذيته بغيرة بعضهنّ على بعض . وقيل : أُمِر صلى الله عليه وسلم بتلاوة هذه الآية عليهنّ وتخييرهنّ بين الدنيا والآخرة . وقال الشافعيّ رحمه الله تعالى : إن من ملك زوجة فليس عليه تخييرها . وأُمِر صلى الله عليه وسلم أن يخيّر نساءه فاخترنه . وجملة ذلك أن الله سبحانه خيّر النبيّ صلى الله عليه وسلم بين أن يكون نبيًّا ملكا وعرض عليه مفاتيح خزائن الدنيا ، وبين أن يكون نبيًّا مسكينًا ؛ فشاور جبريل فأشار عليه بالمسكنة فاختارها ؛ فلما اختارها وهى أعلى المنزلتين ، أمره الله عزّ وجلّ أن يخيّر زوجاته؛ فربما كان فيهنّ من يكره المقام معه على الشدّة تنزيهًا له . وقيل : إن السبب الذى أوجب التخيير لأجله ، أن امرأة من أزواجه سألته أن يصوغ لها حلْقة من ذهب، فصاغ لها حلقة من فضة وطلاها بالذهب ـ وقيل بالزعفران ـ فأبت إلا أن تكون من ذهب ؛ فنزلت آية التخيير فخيرهنّ ، فقلن اخترنا الله ورسوله . وقيل : إن واحدة منهنّ اختارت الفراق . فالله أعلم . روى البخاريّ ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله

صلى الله عليه وسلم، فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال : — فأذن لأبى بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبىّ صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا — قال: — فقال والله لأقولنّ شيئا أضحك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، لو رأيتَ بنتَ خارجة سألتنى النفقة فقمتُ إليها فوجأتُ عنقها ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " هنّ حولى كما ترى يسألنّنى النفقة" فقام أبو بكر إلى عائشة يجأُ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأُ عنقها ؛ كلاهما يقول : تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ! ! فقلن : والله لا نسأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبدا ليس عنده . ثم اعتزلهنّ شهرا أو تسعا وعشرين . ثم نزلت عليه هذه الآية : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ — حتى بلغ — لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » . قال: فبدأ بعائشة فقال: "يا عائشة، إنى أريد أن أعرض عليك أمرا أحبّ ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك " قالت : وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوىّ ! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلتُ . قال : " لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها، إنّ الله لم يبعثنى مُعنّتا ولا مُتعنّتا ولكن بعثنى معلّما ميسّرا " . وروى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخيير أزواجه بدأ بى فقال : " يا عائشة، إنى ذاكر لك أمرا فلا عليك ألا تستعجلى حتى تستأمرى أبويك " قالت : وقد علم أن أبوىّ لم يكونا ليأمرانى بفراقه ؛ قالت ثم قال : " إنّ الله يقول : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا — حتى بلغ — لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » " فقلت : أفى هذا أستأمر أبوىّ! فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة، وفعل أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت . قال : هذا حديث حسن صحيح . قال العلماء : وأما أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم عائشة أن تشاور أبويها لأنه كان يحبها ، وكان يخاف أن يحملها فرط الشباب على أن تختار فراقه، ويعلم من أبويها أنهما لا يشيران عليها بفراقه .

الثانيــة ـ قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ﴾ كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم أزواج ، منهن من دخل بها ، ومنهن من عقــد عليها ولم يدخل بها ، ومنهن من خطبها فلم يتم نكاحه معها .

فأولهنّ : خديجة بنت خُوَيلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ بن كلاب . وكانت قبله عند أبي هالة واسمه زرارة بن النبّاش الأسدى (١) ، وكانت قبله عند عتيق بن عائذ ، ولدت منه غلاما اسمه عبد مناف . وولدت من أبي هالة هنــد بن أبي هالة ، وعاش إلى زمن الطاعون فمــات فيه . ويقال : إن الذى عاش إلى زمن الطاعون هند بن هند ، وسُمعت نادبته تقول حين مات : واهندُ بن هنداه ، وار بيبَ رسول الله . ولم يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم على خديجة غيرها حتى ماتت . وكانت يوم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت أربعين سنة ، وتُوفّيت بعــد أن مضى من النبوّة سبع سنين ، وقيل : عشر . وكان لها حين توفيت خمس وستون سـنة . وهى أول امرأة آمنت به . وجميــع أولاده منها غير إبراهيــم . قال حكيم بن حزام : توفيت خديجة فخرجنا بها من منزلها حتى دفناها بالحَجُون ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرتها ، ولم تكن يومئذ سُنّةُ الجنازة الصلاةَ عليها .

ومنهن : سَوْدة بنت زَمْعة بن قيس بن عبد شمس العامرية ، أسلمت قديما وبايعت ، وكانت عند ابن عم لهــا يقال له السكران بن عمرو ، وأسلم أيضا ، وهاجرا جميعا إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية ، فلما قدما مكة مات زوجها . وقيل : مات بالحبشة ؛ فلما حلّت خطبها رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فتزوجها ودخل بها بمكة ، وهاجر بها إلى المدينة ؛ فلما كبرت أراد طلاقها فسألته ألا يفعل وأن يدعها فى نسائه ، وجعلت ليلتها لعائشة ـ حسبما هو مذكور فى الصحيح ـ فأمسكها ، وتوفّيت بالمدينة فى شوّال سنة أربع وخمسين .

ومنهن : عائشة بنت أبى بكر الصدّيق ، وكانت مسماة لجُبير بن مطعم ، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو بكر: يا رسول الله ، دعْنى أسُلّها من جُبير سَلًّا رفيقا ؛ فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة بسنتين ، وقيل بثلاث سنين ، وبنى بها بالمدينة

(١) فى كتب الصحابة أقوال فيمن كان قبل .

وهى بنت تسع ، وبقيت عنده تسع سنين ، ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى بنت ثمان عشرة، ولم يتزوج بكرا غيرها، وماتت سنة تسع وخمسين، وقيل ثمان وخمسين .

ومنهن : حفصة بنت عمر بن الخطاب القُرَشيّة العدويّة، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم طلّقها، فأتاه جبريل فقال : "إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوّامة قوّامة" فراجعها . قال الواقدىّ : وتُوفّيت فى شعبان سنة خمس وأربعين فى خلافة معاوية ، وهى ابنة ستين سنة . وقيل : ماتت فى خلافة عثمان بالمدينة .

ومنهن : أم سلمة، واسمها هند بنت أبى أميّة المخزوميّة — واسم أبى أمية سُهيل — تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليال بقين من شوّال سنة أربع، زوّجها منه ابنها سلمة على الصحيح ، وكان عُمَرُ ابنُها صغيرا ، وتوفّيت فى سنة تسع وخمسين . وقيل : سنة ثنتين وستين ؛ والأول أصح . وصلّى عليها سعيد بن زيد . وقيل أبو هريرة . وقُبرت بالبَقيع وهى ابنة أربع وثمانين سنة .

ومنهنّ : أم حبيبة ، واسمها رَمْلة بنت أبى سفيان . بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضَّمْرىّ إلى النجاشىّ، ليخطب عليه أم حبيبة فزوجه إياها، وذلك سنة سبع من الهجرة ، وأصدق النجاشىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار ، وبعث بها مع شُرحبيل بن حَسَنة، وتُوفّيت سنة أربع وأربعين . وقال الدارقطنىّ : كانت أم حبيبة تحت عبيد الله بن جحش فمات بأرض الحبشة على النصرانية ، فزوّجها النجاشىّ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأمهرها عنه أربعة آلاف ، وبعث بها إليه مع شُرحبيل بن حسنة .

ومنهنّ : زينب بنت جَحْش بن رِئاب الأسديّة؛ وكان اسمها بَرّة فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب ، وكان اسم أبيها بُرّة؛ فقالت : يا رسول الله ، بدّل اسم أبى فإن البَرّة حقيرة ؛ فقال لها النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لو كان أبوك مؤمنا سميناه باسم رجل منّا أهلَ البيت ولكنى قد سميته جحشا والجحش أكبر من البُرّة" ذكر هذا الحديث الدارقطنىّ . تزوجها

رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى سنة خمس من الهجرة ، وتوفيت سنة عشرين ، وهى بنت ثلاث وخمسين .

ومنهن : زينب بنت خُزيمة بن الحارث [بن عبد الله] بن عمرو بن عبد مناف بن هلال ابن عامر بن صَعْصعة الهلاليـة ، كانت تسمى فى الجاهلية أم المساكين ؛ لإطعامها إياهم . تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان على رأس واحد وثلاثين شهرا من الهجرة ، فمكثت عنده ثمانيـة أشهر ، وتُوفِّيت فى حياته فى آخر ربيـع الأول على رأس تسعة وثلاثين شهرا ، ودُفنت بالبقيع .

ومنهنّ : جُوَيرِيةُ بنت الحارث بن أبى ضِرار الخزاعية المُصْطَلِقيّة ، أصابها فى غزوة بنى المُصْطَلِق فوقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شَمَّاس فكاتبها ؛ فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابتها وتزوجها ، وذلك فى شعبان سنة ست ، وكان اسمها بَرّة فسمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم جُوَيرية ، وتوفيت فى ربيع الأول سنة ست وخمسين . وقيل : سنة خمسين ، وهى ابنة خمس وستين .

ومنهن : صفية بنت حُيَيّ بن أَخْطَب الهارونية ، سباها النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم خَيْبر واصطفاها لنفسه ، وأسلمت وأعتقها ، وجعل عتقها صداقها . وفى الصحيح : أنها وقعت فى سهم دِحْيَة الكلْبِيّ فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعة أرؤس ، وماتت فى سنة خمسين . وقيل : سنة اثنتين وخمسين ، ودُفنت بالبَقيع .

ومنهن : رَيحانة بنت زيد بن عمرو بن خُنافة من بنى النَّضير ، سباها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقها ، وتزوجها فى سنة ست ، وماتت مَرْجِعَه من حَجة الوَداع ، فدفنها بالبقيع . وقال الواقدىّ : ماتت سـنة ست عشرة وصلّى عليها عمر . قال أبو الفرج الجَوْزِىّ : وقد سمعت من يقول : إنه كان يطؤها بملك اليمين ولم يعتقها .

قلت : ولهـذا والله أعلم لم يذكرها أبو القاسم عبد الرحمن السُّهَيْلى فى عداد أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم .

ومنهن : ميمونة بنت الحارث الهلالية ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسرف على عشرة أميال من مكة ، وذلك فى سنة سبع من الهجرة فى عُمْرة القَضِيّة ، وهى آخر امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدّر الله تعالى أنها ماتت فى المكان الذى بنى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، ودُفنت هنالك ، وذلك فى سنة إحدى وستين . وقيل : ثلاث وستين . وقيل ثمان وثلاثين .

فهؤلاء المشهورات من أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهنّ اللاتى دخل بهن؛ رضى الله عنهن .

فأما من تزوجهن ولم يدخل بهن؛ فمنهن: الكِلَابِيّة . واختلفوا فى اسمها؛ فقيل فاطمة . وقيل عَمْرة . وقيل العالية . قال الزهرىّ : تزوّج فاطمة بنت الضحاك الكلابية فاستعاذت منه فطلّقها ، وكانت تقول : أنا الشقيّة . تزوجها فى ذى القَعْدة سنة ثمان من الهجرة ، وتوفيت سنة ستين .

ومنهن : أسماء بنت النعمان بن الجَوْن بن الحارث الكِنْدية ، وهى الجونية . قال قتادة : لما دخل عليها دعاها فقالت : تعال أنت ، فطلّقها . وقال غيره : هى التى استعاذت منه وفى البخارىّ قال : تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم أُميمة بنت شَراحيل ، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أُسَيد أن يجهزها و يكسوها ثو بين . وفى لفظ آخر قال أبو أُسَيد : أُتِى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجَوْنية ، فلما دخل عليها قال : "هَبِى لى نفسكِ" فقالت : وهل تَهَب المَلِكة نفسها للسُّوقة ! فأهوى بيده ليضعها عليها لتسكن ؛ فقالت : أعوذ بالله منك ! فقال : "قد عُذتِ بمَعاذ" ثم خرج علينا فقال : يا أبا أُسَيد ، اُكْسُها رازِقيين(١) وألحقها بأهلها" .

ومنهنّ : قُتَيْلة بنت قيس ، أخت الأشعث بن قيس ، زوّجها إياه الأشعث ، ثم انصرف إلى حَضْرَمَوْت ، فحملها إليه فبلغه وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فردّها إلى بلاده ، فارتدّ

(١) قوله « رازقيين » بالتثنية ، صفة موصوف محذوف للعلم . فى رواية « رازقيتين » والرازقية : ثياب من كتان بيض طوال .

وارتدت معه . ثم تزوجها عِكرمة بن أبي جَهْل ، فوجد من ذلك أبو بكر وَجْدًا شديدا .
فقال له عمر : إنها والله ما هي من أزواجه ، ما خيّرها ولا حجبها ، ولقد برأها الله منه[1]
بالارتداد . وكان عروة ينكر أن يكون تزوجها .

ومنهنّ : أم شريك الأزدية ، واسمها غُزَيّة بنت جابر بن حكيم[2] ، وكانت قبله عند أبي بكر
ابن أبي سلمى ، فطلقها النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يدخل بها . وهي التي وهبت نفسها .
وقيل : إن التي وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم خَوْلة بنت حكيم .

ومنهنّ : خَوْلة بنت الهُذَيل بن هُبَيرة ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهلكت
قبل أن تصل إليه .

ومنهنّ : شَرَافُ بنت خليفة ، أخت دِحْية ، تزوجها ولم يدخل بها .

ومنهنّ : ليلى بنت الخَطِيم ، أخت قيس ، تزوجها وكانت غيورا فاستقالته فأقالها .

ومنهنّ : عمرة بنت معاوية الكِندية ، تزوجها النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال الشعبيّ :
تزوج امرأة من كِنْدة فجيء بها بعد ما مات .

ومنهنّ : ابنة جندب بن ضمرة الجُنْدُعية . قال بعضهم : تزوجها رسول الله صلى الله
عليه وسلم . وأنكر بعضهم وجود ذلك .

ومنهنّ : الغِفارِيّة . قال بعضهم : تزوج امرأة من غِفار ، فأمرها فنزعت ثيابها فرأى
بياضا فقال : " الحَقِي بأهلك " . ويقال : إنما رأى البياض بالكلابية . فهؤلاء اللاتي
عقد عليهنّ ولم يدخل بهنّ ؛ صلى الله عليه وسلم .

فأما من خطبهنّ فلم يتم نكاحه معهنّ ، ومن وهبت له نفسها :

فمنهنّ : أم هانئ بنت أبي طالب ، واسمها فاختة . خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم
فقالت : إني امرأة مُصْبِية[3] واعتذرت إليه فعذرها .

---

(١) كذا في الأصول وأسد الغابة ، وعبارته : « وقد برأها الله بالردة » والذي في شرح المواهب :
« ... وارتدت مع أخيها فبرئت من الله ورسوله ... الخ » . (٢) في المواهب : « جابر بن عوف » .
(٣) أي ذات صبيان .

ومنهنّ : ضُباعة بنت عامر .

ومنهنّ : صفيّة بنت بَشامة بن نضلة ، خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان أصابها سِباء ، فخيّرها النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : " إن شئتِ أنا وإن شئت زوجك " ؟ قالت : زوجي . فأرسلها ، فلعنتها بنو تميم ؛ قاله ابن عباس .

ومنهنّ : أم شَريك . وقد تقدّم ذكرها .

ومنهنّ : ليلى بنت الخَطِيم ؛ وقد تقدّم ذكرها .

ومنهنّ : خولة بنت حكيم بن أمية ؛ وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأرجأها ، فتزوّجها عثمان بن مَظْعُون .

ومنهنّ : جَمْرة بنت الحارث بن عَوف المُرّى ؛ خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال أبوها : إن بها سوءا ولم يكن بها ، فرجع إليها أبوها وقد برِصت ، وهى أم شبيب بن البرصاء الشاعر .

ومنهنّ : سودة القرشية ؛ خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مُصْبِية ، فقالت : أخاف أن يَضغو صِبْيَتى[1] عند رأسك . فحمدها ودعا لها .

ومنهنّ : امرأة لم يُذكر اسمها . قال مجاهد : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت : أستأمر أبى . فلقيت أباها فأذن لها ، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " قد التحفنا لحافا غيرك " .

فهؤلاء جميع أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وكان له من السّرارى سُرّيّتان : مارية القبطية ، وريحانة ؛ فى قول قتادة . وقال غيره : كان له أربع : مارية ، وريحانة ، وأخرى جميلة أصابها فى السّبى ، وجاريةٌ وهبتها له زينب بنت جحش .

---

(١) أى يصيحوا ويضجوا .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ « إن » شرط ، وجوابه « فَتَعَالَيْنَ » ، فعلق التخيير على شرط . وهذا يدل على أن التخيير والطلاق المعلقين على شرط صحيحان ، فينفذان ويمضيان ، خلافا للجهال المبتدعة الذين يزعمون أن الرجل إذا قال لزوجته : أنت طالق إن دخلت الدار ، أنه لا يقع الطلاق إن دخلت الدار ؛ لأن الطلاق الشرعي هو المنجز في الحال لا غير .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَيْنَ ﴾ هو جواب الشرط ، وهو فعل جماعة النساء ، من قولك تعال ، وهو دعاء إلى الإقبال إليه ، يقال : تعال بمعنى أقبل ، وضع لمن له جلالة ورفعة ، ثم صار في الاستعمال لكل داع إلى الإقبال ، وأما في هذا الموضع فهو على أصله ؛ فإن الداعي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾ قد تقدم الكلام في المتعة في « البقرة »[1] . وقرئ « أُمَتِّعُكُنَّ » بضم العين . وكذا «وأسرحُكُن» بضم الحاء على الاستئناف . والسراح الجميل : هو أن يكون طلاقا للسنة من غير ضرار ولا منع واجب لها .

الخامسة — اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه على قولين : الأول — أنه خيرهن بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية أو الطلاق ، فاخترن البقاء ؛ قالته عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبي وابن شهاب وربيعة . ومنهم من قال : إنما خيرهن بين الدنيا فيفارقهن ، وبين الآخرة فيمسكهن ؛ لتكون لهن المنزلة العليا كما كانت لزوجهن ؛ ولم يخيرهن في الطلاق ؛ ذكره الحسن وقتادة . ومن الصحابة علي فيما رواه عنه أحمد بن حنبل أنه قال : لم يخير رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه إلا بين الدنيا والآخرة .

قلت : القول الأول أصح ؛ لقول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن الرجل يخير امرأته فقالت : قد خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أفكان طلاقا ! في رواية : فاخترناه فلم يعدّه طلاقا . ولم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا التخيير المأمور بين البقاء والطلاق ؛ ولذلك قال : "يا عائشة إني ذاكر لك أمرا فلا عليك ألا تعجلي فيه حتى تستأمري

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٠٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

أبويك" الحديث . ومعلوم أنه لم يرد الاستئمار في اختيار الدنيا وزينتها على الآخرة . فثبت أن الاستئمار إنما وقع في الفرقة، أو النكاح . والله أعلم .

السادسة — اختلف العلماء في المخيّرة إذا اختارت زوجها؛ فقال جمهور العلماء من السلف وغيرهم وأئمة الفتوى : إنه لا يلزمه طلاق ، لا واحدة ولا أكثر؛ هذا قول عمر بن الخطاب وعليّ وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس وعائشة . ومن التابعين عطاء ومسروق وسليمان بن يسار وربيعة وابن شهاب . وروى عن عليّ وزيد أيضا : إن اختارت زوجها فواحدة بائنة ؛ وهو قول الحسن البصريّ والليث ، وحكاه الخطابي والنقاش عن مالك . وتعلقوا بأن قوله : اختاري، كناية في إيقاع الطلاق، فإذا أضافه إليها وقعت طلقة؛ كقوله : أنت بائن . والصحيح الأوّل؛ لقول عائشة : خيّرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه فلم يعدّه علينا طلاقا . أخرجه الصحيحان . قال ابن المنذر : وحديث عائشة يدل على أن المخيّرة إذا اختارت زوجها لم يكن ذلك طلاقا ، ويدل على أن اختيارها نفسها يوجب الطلاق ، ويدل على معنى ثالث ، وهو أن المخيّرة إذا اختارت نفسها أنها تطليقة يملك زوجها رجعتها ؛ إذ غير جائز أن يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلاف ما أمره الله . وروى هذا عن عمر وابن مسعود وابن عباس . وبه قال ابن أبي ليلى والثوريّ والشافعيّ . وروى عن عليّ أنها إذا اختارت نفسها أنها واحدة بائنة . وهو قول أبي حنيفة وأصحابه . ورواه ابن خُوَيْزِ منداد عن مالك . وروى عن زيد بن ثابت أنها إذا اختارت نفسها أنها ثلاث ، وهو قول الحسن البصريّ ، وبه قال مالك والليث ؛ لأن الملك إنما يكون بذلك . وروى عن عليّ رضي الله عنه أنها إذا اختارت نفسها فليس بشيء . وروى عنه أنها إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية .

السابعة — ذهب جماعة من المدنيّين وغيرهم إلى أن التمليك والتخيير سواء، والقضاء ما قضت فيهما جميعا ؛ وهو قول عبد العزيز بن أبي سلمة . قال ابن شعبان : وقد اختاره كثير من أصحابنا ، وهو قول جماعة من أهل المدينة . قال أبو عمر : وعلى هذا القول أكثر

الفقهاء . والمشهورُ من مذهب مالك الفرق بينهما؛ وذلك أن التمليك عند مالك هو قول الرجل لامرأته : قد ملّكتك؛ أى قد ملّكتك ما جعل الله لى من الطلاق واحدة أو آثنتين أو ثلاثا؛ فلما جاز أن يملّكها بعض ذلك دون بعض وادعى ذلك ، كان القول قوله مع يمينه إذا ناكرها . وقالت طائفة من أهل المدينة : له المناكرة فى التمليك وفى التخيير سواء فى المدخول بها . والأول قول مالك فى المشهور. وروى ابن خُوَيْزمنداد عن مالك أن للزوج أن يناكر المخيَّرة فى الثلاث، وتكون طلقة بائنة كما قال أبو حنيفة . وبه قال أبو الجَهْم . قال سُحْنُون : وعليه أكثر أصحابنا .

وتحصيل مذهب مالك أن المخيَّرة إذا آختارت نفسها وهي مدخول بها فهو الطلاق كلّه، وإن أنكر زوجها فلا نكرة له . وإن آختارت واحدة فليس بشيء، وإنما الخيار البتات، إما أخذته وإما تركته؛ لأن معنى التخيير التسريح؛ قال الله تعالى فى آية التخيير : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ فمعنى التسريح البتات، قال الله تعالى : « الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » . والتسريح بإحسان هي الطلقة الثالثة . روى ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم كما تقدّم . ومن جهة المعنى أن قوله : اختاريني أو آختاري نفسك يقتضى ألا يكون له عليها سبيل إذا آختارت نفسها، ولا يملك منها شيئا؛ إذ قد جعل إليها أن تخرج ما يملكه منها أو تقيم معه إذا آختارته ؛ فإذا آختارت البعضَ من الطلاق لم تعمل بمقتضى اللفظ، وكانت بمنزلة من خُيِّر بين شيئين فاختار غيرهما . وأما التى لم يدخل بها فله مناكرتها فى التخيير والتمليك إذا زادت على واحدة؛ لأنها تبين فى الحال .

الثامنــة ــ آختلفت الرواية عن مالك متى يكون لها الخيار ؛ فقال مرّة : لها الخيار ما دامت فى المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدلّ على الإعراض . فإن لم تختر ولم تقض شيئا حتى آفترقا من مجلسهما بطل ما كان من ذلك إليها ؛ وعلى هذا أكثر الفقهاء . وقال مرة : لها الخيار أبدا ما لم يعلم أنها تركت ؛ وذلك يُعلم بأن تمكّنه من نفسها بوطء أو مباشرة ؛ فعلى هذا إن منعت نفسها ولم تختر شيئا كان له رفعها إلى الحاكم لتوقع أو تسقط، فإن أبت أسقط

الحاكم تمليكها . وعلى القول الأول إذا أخذت فى غير ذلك من حديث أو عمل أو مشى أو ما ليس من التخيير بشىء كما ذكرنا سقط تخييرها . واحتج بعض أصحابنا لهذا القول بقوله تعالى : « فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ »[1] . وأيضا فإن الزوج أطلق لها القول ليعرف الخيار منها ، فصار كالعقد بينهما ، فإن قبلته وإلا سقط ؛ كالذى يقول : قد وهبت لك أو بايعتك ، فإن قبل وإلا كان الملك باقيا بحاله . هذا قول الثورى والكوفيين والأوزاعى والليث والشافعى وأبى ثور ، وهو اختيار ابن القاسم . ووجه الرواية الثانية أن ذلك قد صار فى يدها وملكته على زوجها بتمليكه إياها فلما ملكت ذلك وجب أن يبقى فى يدها كبقائه فى يد زوجها .

قلت : وهذا هو الصحيح لقوله عليه السلام لعائشة : " إنى ذاكر لك أمرا فلا عليك ألا تستعجلى حتى تستأمرى أبويك " رواه الصحيح، وخرجه البخارى، وصححه الترمذى. وقد تقدم فى أول الباب . وهو حجة لمن قال : إنه إذا خير الرجل امرأته أو ملكها أن لها أن تقضى فى ذلك وإن افترقا من مجلسهما؛ روى هذا عن الحسن والزهرى، وقاله مالك فى إحدى روايتيه . قال أبو عبيد : والذى عندنا فى هذا الباب ، اتباع السنة فى عائشة فى هذا الحديث، حين جعل لها التخيير إلى أن تستأمر أبويها ، ولم يجعل قيامها من مجلسها خروجا من الأمر . قال المروزى : هذا أصح الأقاويل عندى ، وقاله ابن المنذر والطحاوى .

قوله تعالى : يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

---

(١) آية ٤٠ ‍ سورة النساء .

قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قال العلماء : لمـا آختار نساءُ النبيّ صلى الله عليه وسلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم شكرهنّ الله على ذلك فقال تكرمة لهن : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ » (١) الآية . وبين حكمهن عن غيرهن فقال : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً » (٢) . وجعل ثواب طاعتهنّ وعقاب معصيتهنّ أكثر مما لغيرهنّ فقال : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ » . فأخبر تعالى أن من جاء من نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم بفاحشة ــ والله عاصم رسوله عليه السلام من ذلك كما مرّ فى حديث الإفك (٣) ــ يضاعف لها العذاب ضعفين ؛ لشرف منزلتهنّ وفضل درجتهنّ ، وتقدّمهنّ على سائر النساء أجمع . وكذلك بيّنت الشريعة فى غير ما موضع حسبما تقـدّم بيانه غير مرة ــ أنه كلما تضاعفت الحُرُمات فهتكت تضاعفت العقوبات ؛ ولذلك ضُوعف حدّ الحر على العبد والثيّب على البكر . وقيل : لمـا كان أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فى مهبط الوحى وفى منزل أوامر الله ونواهيه ، قـوى الأمر عليهن ولزمهن بسبب مكانتهن أكثر ممـا يلزم غيرهن ؛ فضُوعف لهنّ الأجر والعذاب . وقيل : إنمـا ذلك لعظم الضرر فى جرائمهن بإيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فكانت العقوبة على قدر عظم الجريمة فى إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » (٤) . واختار هذا القول الكيا الطبرى .

الثانيـــة ــ قال قوم : لو قُدّر الزنى من واحدة منهن ــ وقد أعاذهنّ الله من ذلك ــ لكانت تُحدّ حدّين لعظم قدرها ، كما يزاد حدّ الحرة على الأمة . والعذاب بمعنى الحدّ ؛ قال الله تعـالى : « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَــةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ » (٥) . وعلى هذا فمعنى الضعفين معنى المثلين أو المرتين . وقال أبو عبيدة : ضعف الشيء شيئان حتى يكون ثلاثة . وقاله أبو عمرو فيما

(١) آية ٥٢ من هذه السورة . (٢) آية ٥٣ من هذه السورة . (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٩٧ وما بعدها . (٤) آية ٥٧ من هذه السورة . (٥) آية ٢ سورة النور .

حكى الطبريّ عنه؛ فيضاف إليه عذابان مثله فيكون ثلاثة أعذبة . وضعّفه الطبري . وكذلك هو غير صحيح وإن كان له باللفظ تعلّق الاحتمال. وكون الأجر مرتين مما يفسد هذا القول؛ لأن العذاب فى الفاحشة بإزاء الأجر فى الطاعة؛ قاله ابن عطية. وقال النحاس : فرق أبو عمرو بين «يُضاعَف ويضعَّف» قال : «يضاعَف» للرار الكثيرة . و «يضعَّف» مرتين . وقرأ « يضعّف » لهذا . وقال أبو عبيدة : « يضاعف لها العذاب » يجعل ثلاثة أعذبة . قال النحاس : التفريق الذى جاء به أبو عمرو وأبو عبيدة لا يعرفه أحد من أهل اللغة علمته ، والمعنى فى «يضاعف ويضعف» واحد؛ أى يجعل ضعفين؛ كما تقول : إن دفعتَ إلىّ درهما دفعت إليك ضعفيه ؛ أى مثليه ؛ يعنى درهمين . ويدل على هذا « نؤتِها أجرَها مرّتين »(1) ولا يكون العذاب أكثر من الأجر . وقال فى موضع آخر « آتِهِمْ ضِعْفَين من العذاب » أى مثلين . وروى معمر عن قتادة « يضاعَف لها العذاب ضِعفين » قال : عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . قال القُشيرى أبو نصر : الظاهر أنه أراد بالضعفين المثلين ؛ لأنه قال : « نُؤتِها أجرها مرّتين » . فأما فى الوصايا ، لو أوصى لإنسان بضعفى نصيب ولده فهو وصية ؛ بأن يعطى مثل نصيبه ثلاث مرات ؛ فإن الوصايا تجرى على العُرْف فيما بين الناس ، وكلام الله يُرَدّ تفسيره إلى كلام العرب ، والضعف فى كلام العرب المِثل إلى ما زاد ، وليس بمقصور على مثلين . يقال : هذا ضعف هذا ؛ أى مثله . وهذا ضعفاه ، أى مثلاه ؛ فالضعف فى الأصل زيادة غير محصورة؛ قال الله تعالى : « فأولئك لهم جَزاءُ الضِّعف »(2) ولم يُرِد مِثلاً ولا مِثلين . كل هذا قول الأزهرى . وقد تقدم فى « النور » الاختلاف فى حد من قذف واحدة منهن(3) ؛ والحمد لله .

الثالثة — قال أبو رافع : كان عمر رضى الله عنه كثيرا ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب فى الصبح ، وكان إذا بلغ « يا نساءَ النبىّ » رفع بها صوته ؛ فقيل له فى ذلك فقال : أذكّرهن العهد . قرأ الجمهور « من يأتِ » بالياء . وكذلك « مَنْ يَقْنُتْ » حملا على لفظ

---

(1) آية ٦٨ من هذه السورة . (2) آية ٣٧ سورة سبأ . (3) راجع ج ١٢ ص ١٧٦

«من» . والقنوت الطاعة؛ وقد تقدم(١) . وقرأ يعقوب «من تأت» و «تقنت» بالتاء من فوق، حملاً على المعنى . وقال قوم : الفاحشة إذا وردت معرفة فهي الزنى واللواط . وإذا وردت منكرة فهي سائر المعاصي . وإذا وردت منعوتة فهي عقوق الزوج وفساد عشرته . وقالت فرقة : بل قوله « فاحشة مُبَيِّنَة » تعم جميع المعاصي . وكذلك الفاحشة كيف وردت . وقرأ ابن كثير «مبيَّنة» بفتح الياء . وقرأ نافع وأبو عمرو بكسرها . وقرأت فرقة «يُضاعِف» بكسر العين على إسناد الفعل إلى الله تعالى . وقرأ أبو عمرو فيما روى خارجة «نضاعف» بالنون المضمومة ونصب «العذاب» وهذه قراءة ابن مُحَيْصِن . وهذه مفاعلة من واحد؛ كطارقت النعل وعاقبت اللص . وقرأ نافع وحمزة والكسائيّ «يضاعف» بالياء وفتح العين، «العذاب» رفعا . وهي قراءة الحسن وابن كثير وعيسى . وقرأ ابن كثير وابن عامر « نُضَعِّف » بالنون وكسر العين المشددة، « العذابَ » نصباً . قال مقاتل : هذا التضعيف في العذاب إنما هو في الآخرة؛ لأن إيتاء الأجر مرتين أيضا في الآخرة . وهذا حسن؛ لأن نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يأتين بفاحشة توجب حَدًّا . وقد قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبيّ قط، وإنما خانت في الإيمان والطاعة . وقال بعض المفسرين : العذاب الذي تُوعَدْنَ به «ضعفين» هو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة؛ فكذلك الأجر . قال ابن عطية : وهذا ضعيف، اللهم إلا أن يكون أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم لا تَرفع عنهم حدودُ الدنيا عذابَ الآخرة، على ما هي حال الناس عليه؛ بحكم حديث عُبادة بن الصّامت(٢) . وهذا أمر لم يُرْوَ في أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا حفظ تقرره . وأهل التفسير على أن الرزق الكريم الجنة؛ ذكره النحاس .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٦ طبعة ثانية و جـ ٣ ص ٢١٣

(٢) لفظ الحديث كما في كتاب البخاري في تفسير سورة الممتحنة : « قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "أتبايعوني على لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا — وقرأ آية النساء (يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك — فمن وفى منكم فأجره على الله . ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له . ومن أصاب منها شيئا من ذلك فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له) » .

قوله تعالى : يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ يعنى فى الفضل والشرف . وقال : « كَأَحَدٍ » ولم يقل كواحدة؛ لأن أحدا نفى من المذكر والمؤنث والواحد والجماعة (١). وقد يقال على ما ليس بآدمى؛ يقال : ليس فيها أحد، لا شاة ولا بعير . وإنما خصص النساء بالذكر لأن فيمن تقدم آسية ومريم . وقد أشار إلى هذا قتادة؛ وقد تقدّم فى «آل عمران» الاختلاف فى التفضيل بينهن (٢)، فتأمله هناك . ثم قال : « إن اتقيتن » أى خفتن الله . فبيّن أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى؛ لما منحهن الله من صحبة الرسول وعظيم المحل منه، ونزول القرآن فى حقهن .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ فى موضع جزم بالنهى؛ إلا أنه مبنىّ كما بنى الماضى؛ هذا مذهب سيبويه؛ أى لا تلنّ القول . أمرهن الله أن يكون قولهن جزلا وكلامهن فصلا، ولا يكون على وجه يُظهر فى القلب علاقة بما يَظهر عليه من اللين؛ كما كانت الحال عليه فى نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه؛ مثل كلام المريبات والمومسات . فنهاهن عن مثل هذا .

قوله تعالى : ﴿ فَيَطْمَعَ ﴾ بالنصب على جواب النهى . ﴿ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ أى شك ونفاق؛ عن قتادة والسُّدّى . وقيل : تشوّف لفجور، وهو الفسق والغَزَل؛ قاله عكرمة . وهذا أصوب، وليس للنفاق مدخل فى هذه الآية . وحكى أبو حاتم أن الأعرج قرأ « فَيَطْمِعَ » بفتح الياء وكسر الميم (٣) . النحاس : أحسب هذا غلطا، وأن يكون قرأ «فيطمعِ» بفتح الميم وكسر العين بعطفه على « تخضعن » فهذا وجه جيد حسن . ويجوز « فَيُطْمِعَ » بمعنى فيطمع الخضوع أو القول .

(١) كذا فى الأصول؛ يريد أنه نفى عام للذكر والمؤنث . (٢) راجع ج ٤ ص ٨٢

(٣) فى الأصول : « بفتح الياء » .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ قال ابن عباس : أمرهن بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والمرأة تندب إذا خاطبت الأجانب وكذا المحرمات عليها بالمصاهرة إلى الغلظة فى القول من غير رفع صوت ؛ فإن المرأة مأمورة بخفض الكلام . وعلى الجملة فالقول المعروف هو الصواب الذى لا تنكره الشريعة ولا النفوس .

قوله تعالى : وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ ﴾ قرأ الجمهور « وِقِرْن » بكسر القاف . وقرأ عاصم ونافع بفتحها . فأما القراءة الأولى فتحتمل وجهين : أحدهما ــ أن يكون من الوقار ؛ تقول : وَقَرَ يقِر وَقاراً أى سكن ، والأمر قِرْ ، وللنساء قِرْن ، مثل عِدْن و زِنّ . والوجه الثانى ــ وهو قول المبرد[1] ، أن يكون من القرار ؛ تقول : قَرَرت بالمكان (بفتح الراء) أقِرّ ، والأصل أقرِرن ، بكسر الراء ، فحذفت الراء الأولى تخفيفا ؛ كما قالوا فى ظَلِلْت : ظِلت ، ومَسِسْت : مِسْت ، ونقلوا حركتها إلى القاف ، واستغنى عن ألف الوصل لتحرك القاف . قال أبو علىّ : بل على أن أبدلت الراء ياء كراهة التضعيف ، كما أبدلت فى قيراط ودينار ، ويصير للياء حركة الحرف المبدل منه ؛ فالتقدير : إقيِرْن ، ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحرك الياء بالكسر ، فتسقط الياء لاجتماع الساكنين ، وتسقط همزة الوصل لتحرك ما بعدها فيصير « قِرْن » . وأما قراءة أهل المدينة وعاصم ، فعلى لغة العرب : قَرِرتُ فى المكان إذا أقمتَ فيه (بكسر الراء) أَقَرّ (بفتح القاف) ، من باب حَمِد يَحْمَد ، وهى لغة أهل الحجاز ذكرها أبو عبيد فى « الغريب المصنف » عن الكسائى ، وهو من أجلّ مشايخه ، وذكرها الزجاج وغيره ، والأصل «إقْرَرْن»

(١) فى نسخة : « الفراء » .

حذفت الراء الأولى لثقل التضعيف، وألقيت حركتها على القاف فتقول : قِرْنَ . قال الفراء: هو كما تقول : أَحَسْتَ صاحبك؛ أى هل أحسَسْتَ . وقال أبو عثمان المازنى : قَرِرت به عَيْنًا (بالكسر لا غير)، من قُرّة العين . ولا يجوز قَرِرت فى المكان (بالكسر) وإنما هو قَرَرت (بفتح الراء)، وما أنكره من هذا لا يقدح فى القراءة إذا ثبتت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فيستدلّ بما ثبت عنه من القراءة على صحة اللغة . وذهب أبو حاتم أيضا أن « قَرْن » لا مذهب له فى كلام العرب . قال النحاس : وأمّا قول أبى حاتم : « لا مذهب له » فقد خولف فيه، وفيه مذهبان : أحدهما ما حكاه الكسائى ، والآخر ما سمعت علىّ بن سليمان يقول، قال : وهو من قَرِرْتُ به عَيْنا أَقَرّ، والمعنى : واَقْرِرن به عَيْناً فى بيوتكن . وهو وجه حسن ؛ إلا أن الحديث يدلّ على أنه من الأول . كما روى أن عماراً قال لعائشة رضى الله عنها : إن الله قد أمرك أن تَقَرّى فى منزلك؛ فقالت : يا أبا اليَقْظان، ما زلتَ قوّالا بالحق! فقال : الحمد لله الذى جعلنى كذلك على لسانك . وقرأ ابن أبى عَبْلة « واَقْرِرن » بألف وصل وراءين، الأولى مكسورة .

الثانيـــة ـــ معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت، و إن كان الخطاب لنساء النبيّ صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى . هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء؛ كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة؛ على ماتقدم فى غير موضع . فأمر الله تعالى نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم بملازمة بيوتهنّ، وخاطبهنّ بذلك تشريفا لهنّ، ونهاهنّ عن التبرج، وأعلم أنه فعل الجاهلية الأولى فقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾. وقد تقدّم معنى التّبرج فى «النور»[2] . وحقيقته إظهار ما ستره أحسن؛ وهو مأخوذ من السَّعة؛ يقال : فى أسنانه بَرَج إذا كانت متفرّقة؛ قاله المبرّد . واختلف الناس فى «الجاهلية الأولى»؛ فقيل : هى الزمن الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام، كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ، فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال . وقال الحكم بن عُيينة : ما بين آدم ونوح؛

---

(١) فى بعض الأصول : « زعم » . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٣٠٩

وهى ثمانمائة سنه، وحُكيت لهم سِيَرٌ ذميمة . وقال ابن عباس : ما بين نوح وإدريس . الكلبيّ : ما بين نوح و إبراهيم . قيل : إن المرأة كانت تلبس الدّرع من اللؤلؤ غير مَخيط الجانبين ، وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى بدنها . وقالت فرقة : ما بين موسى وعيسى . الشعبي : ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . أبو العالية : هى زمان داود وسليمان ؛ كان فيه للمرأة قميص من الدرّ غير مخيط الجانبين . وقال أبو العباس المبرد : والجاهلية الأولى كما تقول الجاهلية الجهلاء ، قال : وكان النساء فى الجاهلية الجهلاء يُظهرن ما يقبح إظهاره، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخِلّها[1] ، فينفرد خِلّها بما فوق الإزار إلى الأعلى، و ينفرد زوجها بما دون الإزار إلى الأسفل، و ربما سأل أحدهما صاحبه البدل . وقال مجاهد : كان النساء يتمشّين بين الرجال ، فذلك التبرج . قال ابن عطية : والذى يظهر عندى أنه أشار للجاهلية التى لحقنها ، فأُمِرْن بالنّقلة عن سيرتهن فيها، وهى ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة ؛ لأنهم كانوا لا غَيْرة عندهم؛ وكان أمر النساء دون حجاب[2] ، وجَعَلَها أُولى بالنسبة إلى ما كنّ عليه ؛ وليس المعنى أن ثمّ جاهلية أخرى . وقد أوقع اسم الجاهلية على تلك المدة التى قبل الإسلام ، فقالوا : جاهليّ فى الشعراء . وقال ابن عباس فى البخاري : سمعت أبى فى الجاهلية يقول ؛ إلى غير هذا .

قلت : وهذا قول حسن . ويعترض بأن العرب كانت أهل قَشَف وضَنْك فى الغالب، وأن التنعّم و إظهارَ الزينة إنما جرى فى الأزمان السابقة ، وهى المراد بالجاهلية الأولى ، وأن المقصود من الآية مخالفة من قبلهنّ من المِشية على تغنيج وتكسير و إظهار المحاسن للرجال ، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعا . وذلك يشمل الأقوال كلّها و يعمّها فيلزمن البيوت، فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكنّ على تبذّل[3] وتستر تام . والله الموفق .

الثالثة ــ ذكر الثّعلبيّ وغيره أن عائشة ــ رضى الله عنها ــ كانت إذا قرأت هذه الآية تبكى حتى تَبُلّ خمارها . وذُكر أن سَوْدة قيل لها : لم لا تحجّين ولا تعتمرين كما يفعل

(١) فى نسخة : « خلها » والخلّ (بالكسر) : الصديق الخالص . (٢) فى الأصول : «حجبة» .
(٣) التبذل : ترك التزين والتهيؤ بالهيئة الحسنة الجميلة على جهة التواضع .

أخـواتك ؟ فقالت : قد حججت واعتمرت، وأمرني الله أن أقـرّ في بيتي . قال الراوى : فوالله ما خرجتْ من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها . رضوان الله عليها! قال ابن العربى : لقـد دخلت نَيِّفًا على ألف قرية ، فـا رأيت نساء أصون عيالا ولا أعفّ نساء من نسـاء نابلس، التي رُمى بها الخليل صلى الله عليه وسـلم بالنـار ، فإني أقمت فيها فـا رأيت امرأة في طريق نهارا إلا يوم الجمعـة فإنهنّ يخرجن إليها حتى يمتلئ المسـجد منهنّ ، فإذا قُضيت الصـلاة وانقلبن إلى منازلهنّ لم تقع عيني على واحدة منهنّ إلى الجمعـة الأخرى ، وقد رأيت بالمسجد الأقصى عفائف ما خرجن من معتكفهنّ حتى استشهدن فيه .

الرابعـــة ــ قال ابن عطية : بكاء عائشـة رضى الله عنها إنمـا كان بسبب سـفرها أيام الجمل، وحينئذ قال لها عمّار : إن الله قد أمرك أن تقرى في بيتك . قال ابن العربى : تعلّق الرافضة ــ لعنهم الله ــ بهذه الآية على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنهـا إذ قالوا : إنها خالفت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجت تقود الجيوش، وتباشر الحروب، وتقتحم مأزق الطعن والضرب فيما لم يفرض عليها ولا يجوز لهـا . قالوا : ولقد حُصر عثمان ، فلما رأت ذلك أمرت برواحلها فقربت لتخرج إلى مكة ، فقال لهـا مَرْوان : أقيمى هنا يا أم المؤمنين ، وردّى هؤلاء الرِّعاع ؛ فإن الإصـلاح بين الناس خير من حجّك . قال ابن العربى قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إن عائشة رضى عنهـا ، نذرت الحج قبل الفتنة ، فلم تر التخلف عن نذرها؛ ولو خرجت في تلك الثائرة لكان ذلك صوابا لها . وأما خروجها إلى حرب الجمل فـا خرجت لحرب ، ولكن تعلق الناس بهـا ، وشكَوْا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتهارج الناس ، ورجَوْا بركتها ، وطمعوا في الاستحياء منهـا إذا وقفَت إلى الخلق ، وظنت هي ذلك [فخرجت](١) مقتدية بالله في قوله : « لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّـاسِ »(٢) ، وقـوله : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا »(٣) . والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع النـاس من ذكر وأنثى ؛ حرّ

(١) زيادة عن ابن العربى . (٢) آية ١١٤ سورة النساء . (٣) آية ٩ سورة الحجرات .

أو عبد . فلم يرد الله تعالى بسابق قضائه ونافذ حكمه أن يقع إصلاح ، ولكن جرت مطاعنات وجراحات حتى كاد يفنى الفريقان ، فعمد بعضهم إلى الجمل فعرقبه ، فلما سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبي بكر عائشة رضي الله تعالى عنها ، فاحتملها الى البصرة ، وخرجت في ثلاثين امرأة ، قرنهن علىّ بها حتى أوصلوها الى المدينة برة تقية مجتهدة ، مصيبة مثابة فيما تأولت ، مأجورة فيما فعلت ؛ إذ كل مجتهد في الأحكام مصيب . وقد تقدم في « النحل » اسم هذا الجمل ، وبه يعرف ذلك اليوم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي فيما أمر ونهى . ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ قال الزجاج : قيل يراد به نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : يراد به نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته ؛ على ما يأتي بيانه بعدُ . و « أهلَ البيت » نصب على المدح . قال : وإن شئت على البدل . قال : ويجوز الرفع والخفض . قال النحاس : إن خفض على أنه بدل من الكاف والميم لم يجز عند أبي العباس محمد بن يزيد ، قال : لا يبدل من المخاطبة ولا من المخاطب ؛ لأنهما لا يحتاجان الى تبيين . ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ مصدر فيه معنى التوكيد .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ هذه الألفاظ تعطي أن أهل البيت نساؤه . وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت ، من هم ؟ فقال عطاء وعكرمة وابن عباس : هم زوجاته خاصة ، لا رجل معهن . وذهبوا الى أن البيت أريد به مساكن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لقوله تعالى : « وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ » . وقالت فرقة منهم الكلبيّ : هم علىّ وفاطمة والحسن والحسين خاصة ؛ وفي هذا أحاديث عن النبيّ عليه السلام ، واحتجوا بقوله تعالى : « لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ »

بالميم ، ولو كان للنساء خاصة لكان « عنكن ويطهركن » ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون خرج على لفظ الأهل؛ كما يقول الرجل لصاحبه : كيف أهلك ؛ أى امرأتك ونساؤك ؛ فيقول : هم بخير؛ قال الله تعالى : « أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ »(١) .

والذى يظهر من الآية أنها عامة فى جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم . وإنما قال : « ويُطهِّركم » لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليًّا وحسنًا وحُسينًا كان فيهم ، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غُلِّب المذكر ؛ فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت ؛ لأن الآية فيهن ، والمخاطبة لهن ؛ يدلّ عليه سياق الكلام . والله أعلم . أما أن أم سلمة قالت : نزلت هذه الآية فى بيتى ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا وفاطمة وحسنًا وحُسينا ، فدخل معهم تحت كساء خَيْبَرِىّ وقال : "هؤلاء أهل بيتى" — وقرأ الآية — وقال : "اللهم أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا" فقالت أم سلمة : وأنا معهم يا رسول الله ؟ قال : "أنت على مكانك وأنت على خير" أخرجه الترمذىّ وغيره وقال : هذا حديث غريب . وقال القُشَيْرىّ : وقالت أم سلمة أدخلت رأسى فى الكساء وقلت : أنا منهم يا رسول الله؟ قال : "نعم" . وقال الثعلبىّ : هم بنو هاشم ؛ فهذا يدلّ على أن البيت يراد به بيت النسب ؛ فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم . ورُوى نحوه عن زيد بن أرقم رضى الله عنهم أجمعين . وعلى قول الكلبىّ يكون قوله : « واذْكُرْنَ » ابتداء مخاطبة الله تعالى ؛ أى مخاطبة أمر الله عز وجل أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم ، على جهة الموعظة وتعديد النعمة بذكر ما يتلى فى بيوتهن من آيات الله تعالى والحكمة . قال أهل العلم بالتأويل : « آيات الله » القرآن . « والحكمة » السنة . والصحيح أن قوله : « واذكرن » منسوق على ما قبله . وقال « عنكم » لقوله « أهل » فالأهل مذكر ، فسماهن — وإن كن إناثا — باسم التذكير ؛ فلذلك صار « عنكم » . ولا اعتبار بقول الكلبىّ وأشباهه ؛ فإنه توجد له أشياء فى هذا التفسير ما لو كان فى زمن السلف الصالح لمنعوه من ذلك وحجروا عليه . فالآيات كلها من قوله : « يا أيها النبىّ قل لأزواجك — إلى قوله — إن الله كان لطيفًا خبيرًا » منسوق بعضها على بعض ؛

(١) آية ٧٣ سورة هود .

فكيف صار فى الوسط كلاما منفصلا لغيرهنّ! و إنما هذا شىء جرى فى الأخبار أن النبىّ عليه السلام لما نزلت عليه هذه الآية دعا عليًّا وفاطمة والحسن والحسين ، فعمَد النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى كساء فلفّها عليهم، ثم ألوى بيده إلى السماء فقال : "اللّهُمّ هؤلاء أهل بيتى اللّهُمّ أذهب عنهم الرِّجس وطهرهم تطهيرا" . فهذه دعوة من النبىّ صلى الله عليه وسلم لهم بعد نزول الآية ، أحبَّ أن يدخلهم فى الآية التى خوطب بها الأزواج ؛ فذهب الكلبىّ ومن وافقه فصيّرها لهم خاصّةً، وهى دعوة لهم خارجة من التنزيل .

الثانيـــة ـــ لفظ الذِّكْر يحتمل ثلاثة معان : أحدها ـــ أى آذكرن موضع النعمة ؛ إذ صيّركن الله فى بيوت تُتلى فيها آيات الله والحكمة . الثانى ـــ آذكرن آيات الله وآقدرن قدرها، وفكِّرن فيها حتى تكون منكن على بالٍ لتتعظن بمواعظ الله تعالى؛ ومن كان هذا حاله ينبغى أن تحسن أفعاله . الثالث ـــ آذكرن بمعنى آحفظن وآقرأن والزمنه الألسنة ؛ فكأنه يقول : وآحفظن أوامر الله تعالى ونواهيه ، وذلك هو الذى يتلى فى بيوتكن من آيات الله . فأمر الله سبحانه وتعالى أن يخبرن بما ينزل من القرآن فى بيوتهن، وما يرين من أفعال النبىّ عليه الصلاة والسلام ، ويسمعن من أقواله حتى يبلغن ذلك إلى الناس ، فيعملوا ويقتدوا . وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء فى الدِّين .

الثالثـــة ـــ قال ابن العربىّ : فى هذه الآية مسألة بديعة ، وهى أن الله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل عليه من القرآن، وتعليم ما علمه من الدِّين ؛ فكان إذا قرأ على واحد أو ما اتفق سقط عنه الفرض، وكان على من سمعه أن يبلّغه إلى غيره ، ولا يلزمه أن يذكره لجميع الصحابة، ولا كان عليه إذا علّم ذلك أزواجه أن يخرج إلى الناس فيقول لهم نزل كذا ولا كان كذا ؛ ولهذا قلنا : يجوز العمل بخبر بُسرة(1) فى إيجاب الوضوء من مسّ الذكر ؛ لأنها روت ما سمعت و بلّغت ما وعت . ولا يلزم أن يبلغ ذلك الرجال ، كما قال أبو حنيفة؛ على أنه قد نقل عن سعد بن أبى وقّاص وآبن عمر.

---

(1) هى بسرة بنت صفوان بن نوفل ؛ روت عن النبى صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

فيه مسألتان :

الأولى — روى الترمذي عن أم عُمارة الأنصارية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : ما أرى كل شيء إلا للرجال ، وما أرى النساء يُذكرن بشيء ! فنزلت هذه الآية : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » الآية . هذا حديث حسن غريب . و « المسلمين » اسم « إن » . « والمسلمات » عطف عليه . ويجوز رفعهن عند البصريين ؛ فأما الفراء فلا يجوز عنده إلا فيما لا يتبين فيه الإعراب .

الثانيــة — بدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإسلام الذي يعم الإيمان وعمل الجوارح ؛ ثم ذكر الإيمان تخصيصا له وتنبيها على أنه عُظم الإسلام ودعامته . والقانت : العابد المطيع . والصادق : معناه فيما عوهد عليه أن يفي به . والصابر عن الشهوات وعلى الطاعات في المَكْره والمَنْشَط [(١)] . والخاشع : الخائف لله . والمتصدّق بالفرض والنفل . وقيل : بالفرض خاصّة ؛ والأوّل أمدح . والصائم كذلك . ﴿ والحافظين فُرُوجَهُم والحافظات ﴾ أي عما لا يحلّ من الزنى وغيره . وفي قوله : « والحافظات » حذفٌ يدلّ عليه المتقدّم ؛ تقديره : والحافظاتها ؛ فاكتفى بما تقدّم . وفي « الذاكرات » أيضا مثله ؛ ونظيره قول الشاعر :

---

(١) المكره (بفتح الميم) : المكروه . والمنشط : وهو الأمر الذي تنشط له وتخف إليه وتؤثر فعله ، وهو مصدر بمعنى النشاط .

وكُمْتًا مُدَمَّاة كأن متونها * جرى فوقها واستشعرتْ لَونَ مُذْهَبِ

وروى سيبويه : « لَونَ مُذْهَبٍ » بالنصب . وإنما يجوز الرفع على حذف الهاء ، كأنه قال : واستشعرته ؛ فيمن رفع لونا . والذاكر قيل فى أدبار الصلوات وغُدُوًّا وعشيًّا ، وفى المضاجع وعند الانتباه من النوم . وقد تقدم هذا كله مفصلا فى مواضعه، وما يترتب عليه من الفوائد والأحكام ، فأغنى عن الإعادة (٢) . والحمد لله رب العالمين . قال مجاهد : لا يكون ذاكرا لله تعالى كثيرا حتى يذكره قائما وجالسا ومضطجعا . وقال أبو سعيد الخُدْرِىّ رضى الله عنه : من أيقظ أهله بالليل وصليا أربع ركعات كُتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ـ روى قتادة وابن عباس ومجاهد فى سبب نزول هذه الآية : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب زينب بنت جَحْش، وكانت بنت عمته، فظنّت أن الخطبة لنفسه، فلما تبيّن أنه يريدها لزيد، كرهت وأبت وامتنعت ؛ فنزلت الآية . فأذعنت زينب حينئذ وتزوجته . فى رواية : فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش، وأن زيدا كان بالأمس عبدا، إلى أن نزلت هذه الآية ، فقال له أخوها : مُرْنى بما شئت، فزوجها من زيد . وقيل : إنها نزلت فى أم كلثوم بنت عُقبة بن أبى مُعَيط، وكانت وهبت نفسها للنبىّ صلى الله عليه وسلم، فزوجها من زيد بن حارثة ؛ فكرهت ذلك هى وأخوها وقالا : إنما أردنا رسول

---

(١) الكمت : جمع أكمت ، وهى حمرة تضرب إلى السواد . والمدماة : شديدة الحمرة مثل الدم . والمتون : جمع متن ، وهو الظهر . واستشعرت : جعلت شعارها . والمذهب : المموه بالذهب . والبيت لطفيل الغنوى (عن سيبويه والعينى) .

(٢) راجع جـ ١ ص ٣٣١ و جـ ٤ ص ٨٢ و ٣١٠ .

الله صلى الله عليه وسلم فزوجنا غيره ؛ فنزلت الآية بسبب ذلك ، فأجابا إلى تزويج زيد ؛ قاله ابن زيد . وقال الحسن : ليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا أمر الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم بأمر أن يعصياه .

الثانيـــة — لفظة « ما كان » و « ما ينبغي » ونحوهما ، معناها الحظر والمنع . فتجيء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون ؛ كما في هذه الآية . وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلا كقوله تعالى : « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا »(١) . وربما كان العلم بامتناعه شرعا كقوله تعالى : « مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ »(٢) ، وقوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ »(٣) . وربما كان في المندوبات ؛ كما تقول : ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل ، ونحو هذا .

الثالثـــة — في هذه الآية دليل بل نص في أن الكفاءة لا تعتبر في الأحساب وإنما تعتبر في الأديان ؛ خلافا لمالك والشافعي والمغيرة وسحنون . وذلك أن الموالي تزوجت في قريش ؛ تزوج زيد زينب بنت جحش . وتزوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير . وزوج أبو حذيفة سالما من فاطمة بنت الوليد بن عتبة(٤) . وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف . وقد تقدم هذا المعنى في غير موضع(٥) .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ قرأ الكوفيون « أن يكون » بالياء . وهو اختيار أبي عبيد ؛ لأنه قد فرق بين المؤنث وبين فعله . الباقون بالتاء ؛ لأن اللفظ مؤنث [فتأنيث] فعله حسن . والتذكير على أن الخيرة بمعنى التخيير ؛ فالخيرة مصدر بمعنى الاختيار . وقرأ ابن السميقع « الخيْرة » بإسكان الياء . وهذه الآية في ضمن قوله تعالى : « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ »(٦) . ثم توعد تعالى وأخبر أن من يعص الله ورسوله فقد ضل .

---

(١) آية ٦٠ سورة النمل . (٢) آية ٧٩ سورة آل عمران . (٣) آية ٥١ سورة الشورى .
(٤) في الأصول وابن العربي : « هند » والتصويب عن كتب الصحابة . (٥) راجع المسألة الخامسة ج ٣ ص ٦٩ وج ١٣ ص ٢٧٨ . (٦) آية ٦ من هذه السورة .

وهذا أدل دليل على ما ذهب إليه الجمهور من فقهائنا، وفقهاء أصحاب الإمام الشافعي وبعض الأصوليين، من أن صيغة « افعل » للوجوب فى أصل وضعها ؛ لأن الله تبارك وتعالى نفى خيرة المكلف عند سماع أمره وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم أطلق على من بقيت له خيرة عند صدور الأمر اسم المعصية ، ثم علق على المعصية بذلك الضلال ؛ فلزم حمل الأمر على الوجوب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى ــ روى الترمذى قال : حدثنا على بن حجر قال حدثنا داود بن الزبرقان عن داود بن أبى هند عن الشعبى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ يعنى بالاسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالعتق فأعتقته . ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ــ إلى قوله ــ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوجها قالوا : تزوج حليلة ابنه ؛ فأنزل الله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبناه وهو صغير، فلبث حتى صار رجلا يقال له زيد بن محمد، فأنزل الله تبارك وتعالى « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ »

فلان مولى فلان، وفلان أخو فلان؛ هو أقسط عند الله [يعني أعدل][1] . قال أبو عيسى ، هذا حديث [غريب][1] قد روى عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها . قالت : لو كان النبيّ صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية « وإذ تقولُ للذي أنعمَ اللهُ عليه وأنعمتَ عليه » هذا الحرف لم يُروَ بطوله .

قلت : هذا القدر هو الذي أخرجه مسلم في صحيحه، وهو الذي صححه الترمذي في جامعه . وفي البخاريّ عن أنس بن مالك أن هذه الآية «وتُخفي في نفسك ما الله مُبْدِيه» نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة . وقال عمر وابن مسعود وعائشة والحسن : ما أنزل الله على رسوله آية أشدّ عليه من هذه الآية . وقال الحسن وعائشة : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية لشدّتها عليه. وروى في الخبر أنه : أمسى زيد فأوى إلى فراشه، قالت زينب : ولم يستطعني زيد، وما أمتنع منه غير ما منعه الله مني ، فلا يقدر عليّ . هذه رواية أبي عصمة نوح بن أبي مريم ، رفع الحديث إلى زينب أنها قالت ذلك . وفي بعض الروايات : أن زيدا تورّم ذلك منه حين أراد أن يقربها ؛ فهذا قريب من ذلك . وجاء زيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن زينب تؤذيني بلسانها وتفعل وتفعل! وإني أريد أن أطلقها، فقال له : "أمسِكْ عليكَ زَوْجَكَ واتّقِ الله" الآية . فطلقها زيد فنزلت «وإذ تقولُ للذي أنعمَ اللهُ عليه وأنعمتَ عليه» الآية .

واختلف الناس في تأويل هذه الآية ؛ فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين ؛ منهم الطبري وغيره، إلى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم وقع منه استحسان لزينب بنت جحش، وهي في عصمة زيد، وكان حريصا على أن يطلّقها زيد فيتزوجها هو؛ ثم إن زيدا لما أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غلظة قول وعصيان أمر، وأذى باللسان وتعظيا بالشرف، قال له : "اتق الله — أي فيما تقول عنها — وأمسك عليك زوجك" وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها. وهذا الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف،

(١) زيادة عن صحيح الترمذي .

وقال مقاتل : زوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش من زيد فمكثت عنده حيناً، ثم إنه عليه السلام أتى زيداً يوماً يطلبه، فأبصر زينب قائمة، وكانت بيضاء جميلة جسيمة من أتمّ نساء قريش، فهويها وقال: "سبحان الله مقلّب القلوب"! فسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد، ففطن زيد فقال : يارسول الله، ائذن لى فى طلاقها؛ فإن فيها كبْراً، تعظم علىّ وتؤذيني بلسانها؛ فقال عليه السلام : "أمسكْ عليك زوجكَ واتّقِ الله". وقيل : إن الله بعث ريحاً فرفعت الستر وزينب مُتَفَضِّلةٌ (١) فى منزلها، فرأى زينب فوقعت فى نفسه، ووقع فى نفس زينب أنها وقعت فى نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لما جاء يطلب زيداً، فجاء زيد فأخبرته بذلك، فوقع فى نفس زيد أن يطلقها. وقال ابن عباس : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ﴾ الحبَّ لها. ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ أى تستحييهم. وقيل : تخاف وتكره لائمة المسلمين لو قلتَ طلّقها، ويقولون أمر رجلاً بطلاق امرأته ثم نكحها حين طلقها. ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ فى كل الأحوال. وقيل : والله أحق أن تستحى منه، ولا تأمر زيداً بإمساك زوجته بعد أن أعلمك الله أنها ستكون زوجتك؛ فعاتبه الله على جميع هذا. وروى عن علىّ بن الحسين : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيداً يطلق زينب، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما تشكّى زيد للنبيّ صلى الله عليه وسلم خُلُقَ زينب، وأنها لا تطيعه، وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على جهة الأدب والوصية : "اتق الله فى قولك وأمسك عليك زوجك" وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوّجها؛ وهذا هو الذى أخفى فى نفسه، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لمّا علِم أنه سيتزوجها. وخشى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحقه قول من الناس فى أن يتزوج زينب بعد زيد، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها؛ فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشى الناس فى شيء قد أباحه الله له، بأن قال: «أمسكْ» مع علمه بأنه يطلّق. وأعلمه أن الله أحقّ بالخشية، أى فى كل حال. قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وهذا القول أحسن ماقيل فى تأويل هذه الآية، وهو الذى

---

(١) تفضلت المرأة : لبست ثياب مهنتها أوكانت فى ثوب واحد.

عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين؛ كالزهري والقاضي بكر بن العلاء القشيري[1] والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم. والمراد بقوله تعالى: « وَتَخْشَى النَّاسَ » إنما هو إرجاف المنافقين بأنه نهى عن تزويج نساء الأبناء وتزوج بزوجة ابنه. فأما ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم هوى زينب امرأة زيد — وربما أطلق بعض المُجّان لفظ عشق — فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل هذا، أو مستخف بحرمته. قال الترمذي الحكيم في نوادر الأصول، وأسند إلى علي بن الحسين قوله : فعلي بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جوهرا من الجواهر، ودرًّا من الدرر، أنه إنما عتب الله عليه في أنه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك، فكيف قال بعد ذلك لزيد : "أمسك عليك زوجك" وأخذتك خشية الناس أن يقولوا : تزوج امرأة ابنه؛ والله أحق أن تخشاه. وقال النحاس: قال بعض العلماء ليس هذا من النبي صلى الله عليه وسلم خطيئة؛ ألا ترى أنه لم يؤمر بالتوبة ولا بالاستغفار منه. وقد يكون الشيء ليس بخطيئة إلا أن غيره أحسن منه، وأخفى ذلك في نفسه خشية أن يفتتن الناس.

الثانية — قال ابن العربي : فإن قيل لأي معنى قال له : "أمسك عليك زوجك" وقد أخبره الله أنها زوجه. قلنا: أراد أن يختبر منه مالم يعلمه الله من رغبته فيها أو رغبته عنها؛ فأبدى له زيد من النفرة عنها والكراهة فيها، مالم يكن علمه منه في أمرها. فإن قيل : كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لا بد منه؟ وهذا تناقض. قلنا : بل هو صحيح للقاصد الصحيحة؛ لإقامة الحجة ومعرفة العاقبة؛ ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن، فليس في مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به عقلا وحكما. وهذا من نفيس العلم فتيقنوه وتقبلوه. وقوله : «واتق الله» أي في طلاقها، فلا تطلقها. وأراد نهي تنزيه لا نهي تحريم؛ لأن الأولى ألا يطلق. وقيل : «اتق الله» فلا تذمها بالنسبة إلى

(١) هو القاضي بكر بن محمد بن العلاء القشيري، الفقيه المالكي ولي قضاء العراق. له كتاب في الأحكام والرد على المزني، والأشربة ورد فيه على الطحاوي، وكتاب في الأصول، والرد على القدرية والرد على الشافعي. توفي سنة ٣٤٣هـ (الوافي بالوفيات للصفدي).

الكِبْر وأذى الزوج . «وتخفي في نفسك» قيل تعلق قلبه . وقيل : مفارقة زيد إياها . وقيل : علمه بأن زيدا سيطلقها؛ لأن الله قد أعلمه بذلك .

الثالثة ـــ روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لزيد: " ما أجد في نفسي أوثق منك فاخطب زينب عليّ " قال : فذهبت ووليتها ظهرى توقيرا للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وخطبتها ففرحت وقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربّي (١) ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، فتزوجها النبيّ صلى الله عليه وسلم ودخل بها .

قلت : معنى هذا الحديث ثابت في الصحيح . وترجم له النّسائى (صلاة المرأة إذا خُطبت واستخارتها ربّها) روى الأئمة ـــ واللفظ لمسلم ـــ عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد : " فاذكرها عليّ " قال : فانطلق زيد حتى أتاها وهى تُخمّر عجينها . قال : فلما رأيتها عَظُمت في صدرى، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فوليتها ظهرى، ونكَصْتُ على عقبى، فقلت : يا زينب، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ؛ قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أُوامر ربّى ؛ فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن. قال : فقال ولقد رأيتُنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا الخبز واللحم حين امتدّ النهار . الحديث . في رواية " حتى تركوه " . وفي رواية عن أنس أيضا قال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أوْلَم على امرأة [من نسائه] (٢) ما أوْلَم على زينب؛ فإنه ذبح شاة . قال علماؤنا: فقوله عليه السلام لزيد : " فاذكرها عليّ " أى اخطبها ؛ كما بيّنه الحديث الأول . وهذا امتحان لزيد واختبار له، حتى يظهر صبره وانقياده وطوعه .

قلت : وقد يُستنبط من هذا أن يقول الإنسان لصاحبه : اخطب عليّ فلانة ، لزوجه المطلقة منه، ولا حرج في ذلك . والله أعلم .

---

(١) آمره في أمره ووامره واستأمره : شاوره . (٢) زيادة عن مسلم .

الرابعــة — لمّا وَكَلتْ أمرها إلى الله وصحّ تفويضها إليــه تولّى الله إنكاحها ؛ ولذلك قال : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ . وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم «وطراً زوجتُكها» . ولمـا أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق، ولا شيء ممـا يكون شرطا فى حقوقنا ومشروطاً لنا. وهذا من خصوصياته صلى الله عليه وسلم، التى لا يشاركه فيها أحد بإجماع من المسلمين . ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم وتقول : زوجكنّ آباؤكنّ وزوّجنى الله تعالى . أخرجه النسائى عن أنس بن مالك قال : كانت زينب تَفْخَـر على نساء النبيّ صلى الله عليـه وسلم تقول : إن الله عز وجل أنكحنى من السماء . وفيها نزلت آية الحجاب ؛ وسيأتى .

الخامســة — المُنْعَم عليه فى هذه الآية هو زيد بن حارثة ، كما بيناه ؛ وقد تقدّم خبره فى أوّل السورة[1] . وروى أن عمّه لقيَه يوما وكان قد ورد مكة فى شغل له ، فقال : ما اسمك يا غلام ؟ قال : زيد، قال : ابن من؟ قال: ابن حارثة . قال ابن من ؟ قال : ابن شَراحيل الكلبيّ . قال: فما اسم أمّك؟ قال: سُعْدَى، وكنت فى أخوالى طيّء ، فضمّه إلى صدره. وأرسل إلى أخيه وقومه فحضروا، وأرادوا منه أن يقيم معهم ؛ فقالوا : لمن أنت ؟ قال : لمحمد بن عبد الله ؛ فأتوه وقالوا : هذا ابننا فردّه علينا . فقال : " أعرِضُ عليـه فإن اختاركم فخذوا بيده" فبعث إلى زيد وقال : "هل تعرف هؤلاء"؟ قال نعم! هذا أبى، وهذا أخى، وهذا عمّى . فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " فأيّ صاحب كنتُ لك " ؟ فبكى وقال : لِمَ سألتنى عن ذلك ؟ قال : " أخيرك فإن أحببت أن تلحق بهم فالحق وإن أردت أن تقيم فأنا من قـد عرفتَ " فقال : ما أختار عليك أحدا . فجذبه عمّه وقال : يا زيد، اخترت العبـوديّة على أبيك وعمّك ! فقال : أى والله العبوديةُ عنـد محمد أحبّ إليّ من أن أكون عندكم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اشهدوا أنى وارث وموروث " . فلم يزل يقال : زيد بن محمد إلى أن نزل قوله تعـالى « ادْعُوهم لِآبائهم » ونزل « ما كان محمّـدٌ أبا أحدٍ من رِجالِكم » .

(١) راجع ص ١١٨ من هذا الجزء .

السادسة — قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي رضي الله عنه : كان يقال زيد بن محمد حتى نزل « ادْعُوهم لآبائهم » فقال: أنا زيد بن حارثة . وحرم عليه أن يقول : أنا زيد بن محمد . فلما نُزِع عنه هذا الشرف وهذا الفخر،[1] وعلم الله وحشته من ذلك شرّفه بخصيصة لم يكن يُخَصّ بها أحدا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهي أنه سمّاه في القرآن ؛ فقال تعالى : « فلمّا قَضَى زَيْدٌ منها وَطَراً » يعني من زينب . ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم حتى صار قرآنا يُتْلَى في المحاريب، نوّه به غاية التنويه؛ فكان في هذا تأنيس له وعوض من الفخر بأبوّة محمد صلى الله عليه وسلم له . ألا ترى إلى قول أُبَيّ ابن كعب حين قال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا" فبكى وقال: أوَذُكِرتُ هنالك؟ وكان بكاؤه من الفرح حين أخبر أن الله تعالى ذكره؛ فكيف بمن صار اسمه قرآنا يتلى مخلّداً لا يبيد، يتلوه أهل الدنيا إذا قرءوا القرآن، وأهلُ الجنة كذلك أبدا، لا يزال على ألسنة المؤمنين ، كما لم يزل مذكورا على الخصوص عند رب العالمين ؛ إذ القرآن كلام الله القديم، وهو باق لا يبيد؛ فاسم زَيْد هذا في الصحف المكرّمة المرفوعة المطهّرة ، تذكره في التلاوة السَّفَرة الكرام البررة . وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبيّ من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضا من الله تعالى له مما نُزِع عنه . وزاد في الآية أن قال : « وإذْ تَقُولُ لِلّذِي أنْعَمَ اللهُ عليه » أي بالإيمان ؛ فدلّ على أنه من أهل الجنة ، علم ذلك قبل أن يموت، وهذه فضيلة أخرى .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَطَراً ﴾ الوَطَر كلّ حاجة المرء له فيها همّة ؛ والجمع الأوطار . قال ابن عباس : أي بلغ ما أراد من حاجته؛ يعني الجماع . وفيه إضمار ؛ أي لما قضى وَطَره منها وطلّقها « زَوّجْناكَها » . وقراءة أهل البيت « زوّجتُكها » . وقيل : الوطر عبارة عن الطلاق ؛ قاله قتادة .

الثامنة — ذهب بعض الناس من هذه الآية ، ومن قول شعيب : « إني أريدُ أن أُنْكِحَكَ »[2] إلى أن ترتيب هذا المعنى في المهور ينبغي أن يكون : « أنكحه إيّاها » فتقدّم

(١) في الأصول : « ... وهذا الفخر منه » بزيادة لفظة « منه » . (٢) آية ٢٧ سورة القصص .

ضمير الزوج كما في الآيتين . وكذلك قوله عليه السلام لصاحب الرداء : " اذهب فقد أنكحتكها بما معك من القرآن " . قال ابن عطية : وهذا غير لازم ؛ لأن الزوج في الآية مخاطب فحسن تقديمه ، وفي المهور الزوجان [سواء] ، فقدّم من شئت ، ولم يبق ترجيح إلا بدرجة الرجال ، وأنهم القوّامون .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ دليل على ثبوت الولي في النكاح ؛ وقد تقدّم الخلاف في ذلك[1] . روى أن عائشة وزينب تفاخرتا ؛ فقالت عائشة : أنا التي جاء بي الملَك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم في سَرَقة[2] من حرير فيقول : " هذه امرأتك " خرّجه الصحيح . وقالت زينب : أنا التي زوّجني الله من فوق سبع سموات . وقال الشعبيّ : كانت زينب تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأدِلّ عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تَدِلّ بهنّ — : إن جدّي وجدّك واحد ، وإن الله أنكحك إيّاي من السماء ، وإن السفير في ذلك جبريل . وروى عن زينب أنها قالت : لما وقعتُ في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستطعني زيد ، وما امتنع منه غير ما يمنعه الله تعالى منّي فلا يقدر عليّ .

قوله تعالى : مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)

قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة ، أعلمهم أن هذا ونحوه هو السّنن الأقدم في الأنبياء أن ينالوا ما أحلّه لهم ؛ أي سَنّ لمحمد صلى الله عليه وسلم في التوسعة عليه في النكاح سُنّة الأنبياء الماضية ؛ كداود وسليمان . فكان لداود مائة امرأة وثلاثمائة سُرِّية ، ولسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سُرّية . وذكر الثعلبيّ عن مقاتل وابن الكلبيّ أن الإشارة إلى داود عليه السلام ؛ حيث جمع الله بينه وبين من فُتن بها .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٧٢ وما بعدها .   (٢) السرق (بفتحتين) : شقق الحرير الأبيض .

و « سُنَّةَ » نصب على المصدر ؛ أى سَنَّ الله له سُنة واسعة . و « الَّذِينَ خَلَوْا » هم الأنبياء، بدليل وصفهم بَعْدُ بقوله : « الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ » .

قوله تعالى : مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما تزوّج زينب قال الناس : تزوّج امرأة ابنه؛ فنزلت الآية ؛ أى ليس هو بابنه حتى تحرم عليه حليلته، ولكنه أبو أُمّته فى التبجيل والتعظيم، وأن نساءه عليهم حرام. فأذهب الله بهذه الآية ما وقع فى نفوس المنافقين وغيرهم ، وأعلم أن محمدا لم يكن أبا أحد من الرجال المعاصرين له فى الحقيقة . ولم يُقصد بهذه الآية أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكن له ولد، فقد ولد له ذكور : إبراهيم، والقاسم، والطيب، والمطهّر؛ ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلا . وأما الحسن والحسين فكانا طفلين، ولم يكونا رجلين معاصرَيْن له .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللهِ ﴾ قال الأخفش والفرّاء : أى ولكن كان رسول الله . وأجازا « ولكنْ رسولُ الله وخاتمُ » بالرفع . وكذلك قرأ ابن أبى عَبْلة وبعض الناس « ولكنْ رسولُ اللهِ » بالرفع ؛ على معنى هو رسول الله وخاتمُ النبيّين . وقرأت فرقة «ولكنّ» بتشديد النون، ونصب « رسول الله » على أنه اسم «لكنّ» والخبر محذوف . « وخاتَم » قرأ عاصم وحده بفتح التاء، بمعنى أنهم به خُتموا ؛ فهو كالخاتَم والطابَع لهم . وقرأ الجمهور بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم ؛ أى جاء آخرهم . وقيل : الخاتَم والخاتِم لغتان ؛ مثل طابَع وطابِع، ودانَق ودانِق، وطابَق من اللحم وطابِق .

الثالثة — قال ابن عطية : هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمّة خَلَفا وسلفا متلقاة على العموم التام مقتضية نصًّا أنه لا نبيّ بعده صلى الله عليه وسلم. وما ذكره القاضى بن الطيب فى كتابه المسمّى بالهداية، من تجويز الاحتمال فى ألفاظ هذه الآية ضعيف. وما ذكره الغزالى

فى هذه الآية ، وهذا المعنى فى كتابه الذى سمّاه بالاقتصاد، إلحاد عندى، وتطرق خبيث إلى تشويش عقيدة المسلمين فى ختم محمد صلى الله عليه وسلم النبوة ؛ فالحذرَ الحذرَ منه ! والله الهادى برحمته .

قلت : وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا نبوّة بعدى إلا ما شاء الله". قال أبو عمر : يعنى الرؤيا — والله أعلم — التى هى جزء منها ؛ كما قال عليه السلام : "ليس يبق بعدى من النبوة إلا الرؤيا الصالحة" . وقرأ ابن مسعود « من رجالكم ولكن نبيًّا ختم النبيين» . قال الرّمّانى : ختم به عليه السلام الاستصلاح؛ فمن لم يصلح به فميئوس من صلاحه .

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : "بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق" . وفى صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَثَلى ومَثَلُ الأنبياء كمَثَل رجل بنى دارا فأتمّها وأكملها إلا موضع لَبِنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجّبون منها ويقولون لولا موضعُ اللَّبِنة — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — فأنا موضع اللَّبِنة جئت فختمتُ الأنبياء" . ونحوه عن أبى هريرة، غير أنه قال : "فأنا اللَّبِنة وأنا خاتم النبيين" .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾

أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه ، ويكثروا من ذلك على ما أنعم به عليهم . وجعل تعالى ذلك دون حدّ لسهولته على العبد . ولعظم الأجر فيه قال ابن عباس : لم يُعذَر أحد فى ترك ذكر الله إلا من غُلب على عقله . وروى أبو سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون" . وقيل : الذكر الكثير ما جرى على الإخلاص من القلب، والقليل ما يقع على حكم النفاق كالذكر باللسان .

قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

أى اشغلوا ألسنتكم فى معظم أحوالكم بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير . قال مجاهد : وهذه كلمات يقولهن الطاهر والمحدث والجُنُب . وقيل : ادعوه . قال جرير :

فلا تنس تسبيح الضُّحا إن يوسفًا * دعَا ربّهُ فاختاره حين سبحا

وقيل : المراد صلّوا لله بكرة وأصيلا ؛ والصلاة تسمّى تسبيحا . وخصّ الفجر والمغرب والعشاء بالذكر لأنها أحق بالتحريض عليها ، لاتصالها بأطراف الليل . وقال قتادة والطبرى : والإشارة إلى صلاة الغداة وصلاة العصر . والأصيل : العشيّ وجمعه أصائل . والأُصُل بمعنى الأصيل ، وجمعه آصال ؛ قاله المبرد . وقال غيره : أُصُلٌ جمع أصيل ؛ كرغيف ورغف . وقد تقدم[1] .

مسألة ــ هذه الآية مدنية ، فلا تعلّق بها لمن زعم أن الصلاة إنما فرضت أوّلا صلاتين فى طرفى النهار . والرواية بذلك ضعيفة فلا التفات اليها ولا معوّل عليها . وقد مضى الكلام فى كيفية فرض الصلاة وما للعلماء فى ذلك فى « سبحان »[2] والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾ قال ابن عباس : لما نزل « إنّ الله وملائكته يصلّون على النبيّ » قال المهاجرون والأنصار : هذا لك يا رسول الله خاصّةً ، وليس لنا فيه شيء ؛ فأنزل الله هذه الآية .

قلت : وهذه نعمة من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النّعم ؛ ودليلٌ على فضيلتها على سائر الأمم . وقد قال : « كُنْتُمْ خيرَ أُمّةٍ أُخرجتْ للناس »[3] . والصلاة من الله على العبد هى رحمته له وبركته لديه . وصلاة الملائكة : دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم ؛ كما قال : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلّذِينَ آمنوا »[4] وسيأتى . وفى الحديث : أن بنى إسرائيل سألوا موسى عليه السلام أيُصلّى ربّك جل وعز ؟ فأعظم ذلك ؛ فأوحى الله جل وعز إن صلاتى بأن رحمتى سبقت غضبى ؛ ذكره النحاس . وقال ابن عطية : وروت فرقة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥٥ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣١٠ (٣) آية ١١٠ سورة آل عمران .
(٤) آية ٧ سورة غافر .

قيل له : يا رسول الله، كيف صلاة الله على عباده . قال : "سُبُّوح قُدُّوس رحمتي سبقت غضبي" . واختلف في تأويل هذا القول؛ فقيل : إنه كلام من كلام الله تعالى وهي صلاته على عباده . وقيل : سُبُّوح قُدُّوس من كلام محمد صلى الله عليه وسلم ، وقدّمه بين يدي نطقه باللفظ الذي هو صلاة الله وهو "رحمتي سبقت غضبي" من حيث فهم من السائل أنه توهّم في صلاة الله على عباده وجهاً لا يليق بالله عز وجل؛ فقدّم التنزيه والتعظيم بين يدي إخباره .

قوله تعالى : ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أي من الضلالة إلى الهدى . ومعنى هذا التثبيت على الهداية ؛ لأنهم كانوا في وقت الخطاب على الهداية . ثم أخبر تعالى برحمته بالمؤمنين تأنيساً لهم فقال : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾ .

قوله تعالى : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ﴿٤٤﴾

اختلف في الضمير الذي في « يَلْقَوْنَهُ » على مَن يعود؛ فقيل على الله تعالى، أي كان بالمؤمنين رحيماً، فهو يؤمّنهم من عذاب الله يوم القيامة . وفي ذلك اليوم يلقونه . و﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ أي تحية بعضهم لبعض . ﴿ سَلَامٌ ﴾ أي سلامة لنا ولكم من عذاب الله . وقيل : هذه التحية من الله تعالى؛ المعنى : فيسلمهم من الآفات، أو يبشرهم بالأمن من المخافات ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أي يوم القيامة بعد دخول الجنة . قال معناه الزجاج؛ واستشهد بقوله جل وعز : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ »(١) . وقيل : « يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ » أي يومَ يلقون مَلَك الموت؛ وقد ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سلّم عليه . روى عن البَراء بن عازب قال : « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سلام » فيسلّم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه، لا يقبض روحه حتى يسلّم عليه .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴿٤٦﴾

---

(١) آية ١٠ سورة يونس .

هذه الآية فيها تأنيس للنبى صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وتكريم لجميعهم . وهذه الآية تضمنت من أسمائه صلى الله عليه وسلم ستة أسماء ولنبينا صلى الله عليه وسلم أسماء كثيرة وسمات جليلة ، ورد ذكرها فى الكتاب والسنة والكتب المتقدمة . وقد سماه الله فى كتابه محمدا وأحمد . وقال صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه الثقات العدول : " الى خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب " . وفى صحيح مسلم من حديث جُبير بن مُطْعِم : وقد سماه الله « رءوفا رحيما » . وفيه أيضا عن أبى موسى الأشعرى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى لنا نفسه أسماء ، فيقول : « أنا محمد وأحمد والمُقَفِّى والحاشر ونبى التوبة ونبى الرحمة » . وقد تتبع القاضى أبو الفضل عياض فى كتابه المسمى (بالشفا) ما جاء فى كتاب الله وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومما نقل فى الكتب القديمة ، وإطلاق الأمة أسماء كثيرة وصفات عديدة ، قد صدقت عليه صلى الله عليه وسلم مُسَمَّياتها ، ووجدت فيه معانيها . وقد ذكر القاضى أبو بكر بن العربى فى أحكامه فى هذه الآية من أسماء النبى صلى الله عليه وسلم سبعة وستين اسما . وذكر صاحب (وسيلة المتعبدين الى متابعة سيد المرسلين) عن ابن عباس أن لمحمد صلى الله عليه وسلم مائة وثمانين اسما ، من أرادها وجدها هناك. وقال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا ومُعاذًا ، فبعثهما الى اليمن ، وقال : " اذهبا فبشِّرا ولا تُنَفِّرا ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا فإنه قد أنزل علىّ ... " وقرأ الآية .

قوله تعالى : ﴿ شَاهِدًا ﴾ قال سعيد عن قتادة : « شاهدًا » على أمته بالتبليغ إليهم ، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم ، ونحو ذلك . ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ معناه للمؤمنين برحمة الله وبالجنة . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ معناه للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد . ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ ﴾ الدعاء الى الله هو تبليغ التوحيد والأخذ به ، ومكافحة الكفرة . و﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ هنا معناه : بأمره إياك ، وتقديره ذلك فى وقته وأوانه . ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ هنا استعارة للنور الذى يتضمنه شرعه .

وقيل : « وسراجًا » أى هاديا من ظلم الضلالة، وأنت كالمصباح المضىء . ووصفه بالإنارة لأن من السُّرج ما لا يضىء، إذا قلّ سليطه(١) ودقّت فتيلته . وفى كلام بعضهم : ثلاثة تُضْنِي : رسول بطىء ، وسراج لا يضىء ، ومائدة ينتظر لها من يجىء . وسئل بعضهم عن الموحشَين فقال : ظلام ساتر وسراج فاتر . وأسند النحاس قال : حدّثنا محمد بن إبراهيم الرازى قال حدّثنا عبد الرحمن بن صالح الأزدى قال حدّثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن شَيبان النحوى قال حدّثنا قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت « يأيها النبيّ إنّا أرسلناك شاهدًا ومبشّرًا ونذيرًا . وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجا منيراً » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا ومعاذا فقال : " انطلقا فبشّرا ولا تُعسّرا فإنه قد نزل علىّ الليلة آية « يأيها النبيّ إنّا أرسلناك شاهدًا ومُبَشِّرًا ونذيرا — من النار — وداعيًا إلى الله — قال — شهادة أن لا إله إلا الله — بإذنه — بأمره — وسراجًا منيرًا — قال — بالقرآن " . وقال الزجاج : « وسراجًا » أى وذا سراج منير ؛ أى كتاب نيّر . وأجاز أيضا أن يكون بمعنى : وتاليًا كتاب الله .

قوله تعالى : وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الواو عاطفة جملة على جملة، والمعنى منقطع من الذى قبله . أمره تعالى أن يبشر المؤمنين بالفضل الكبير من الله تعالى . وعلى قول الزجاج : ذا سراج منير، أو وتاليًا سراجا منيرا، يكون معطوفا على الكاف فى « أرسلناك » . قال ابن عطية : قال لنا أبى رضى الله عنه، هذه من أرجى آية عندى فى كتاب الله تعالى؛ لأن الله عز وجل قد أمر نبيّه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلا كبيرا، وقد بيّن تعالى الفضل الكبير فى قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون

(١) السليط : الزيت .

عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير » . فالآية التي في هذه السورة خبر ، والتي في « حم عسق » تفسيرها . ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ أي لا تطعهم فيما يشيرون عليك من المداهنة في الدين ولا تمالئهم . « الكافرين » : أبي سفيان وعكرمة وأبي الأعور السلمي ؛ قالوا : يا محمد ، لا تذكر آلهتنا بسوء نتبعك . « والمنافقين » : عبد الله بن أبيّ وعبد الله ابن سعد وطعمة بن أبيرق ؛ حثّوا النبيّ صلى الله عليه وسلم على إجابتهم بعلّة المصلحة . ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ أي دع أن تؤذيهم مجازاة على إذايتهم إياك[2] . فأمره تبارك وتعالى بترك معاقبتهم ، والصفح عن زللهم ؛ فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول . ونُسخ من الآية على هذا التأويل ما يخص الكافرين ، وناسخه آية السيف . وفيه معنى ثان : أي أعرض عن أقوالهم وما يؤذونك ، ولا تشتغل به ؛ فالمصدر على هذا التأويل مضاف إلى الفاعل . وهذا تأويل مجاهد ، والآية منسوخة بآية السيف . ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أمره بالتوكل عليه ، وآنسه بقوله : ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ وفي قوة الكلام وعدٌ بنصر . والوكيل : الحافظ القائم على الأمر .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ ﴾ لما جرت قصة زيد وتطليقه زينب ، وكانت مدخولا بها ، وخطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد انقضاء عدّتها ـ كما بيناه ـ خاطب الله المؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل البناء ، وبيّن ذلك الحكم للأمة ؛ فالمطلّقة إذا لم تكن ممسوسة لا عدّة عليها بنص الكتاب وإجماع الأمة على ذلك . فإن دخل بها فعليها العدّة إجماعا .

---

(١) آية ٢٢ سورة الشورى . (٢) في الأصول : « على إذايتك إياهم » .

الثانيــة ــ النكاح حقيقة فى الوطء، وتسمية العقــد نكاحا لملابسته له من حيث إنه طريق إليه . ونظيره تسميتهم الخمر إثمًا(١) لأنه سبب فى اقتراف الإثم . ولم يرد لفظ النكاح فى كتاب الله إلا فى معنى العقــد ؛ لأنه فى معنى الوطء، وهو من آداب القرآن؛ الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسّة والقُربان والتغشّى والإتيان .

الثالثــة ــ استدلّ بعض العلماء بقوله تعــالى : « ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ » وبمهلة « ثُمَّ » على أن الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح، وأن من طلّق المرأة قبل نكاحها و إن عيّنها، فإن ذلك لا يلزمه . وقال هــذا نَيِّفٌ على ثلاثين من صــاحب وتابع و إمام . سمّى البخارىّ منهـم اثنين وعشرين(٢) . وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "لا طلاق قبل نكاح" ومعناه : أن الطلاق لا يقع حتى يحصل النكاح . قال حبيب بن أبى ثابت : سئل علىّ بن الحسين رضى الله عنهما عن رجل قال لامرأة : إن تزوجتك فأنت طالق؟ فقال : ليس بشىء؛ ذكر الله عز وجل النكاح قبــل الطلاق . وقالت طائفة من أهل العلم : إن طلاق المعيّنة الشخص أو القبيلة أو البلد لازم قبل النكاح ؛ منهم مالك وجميع أصحابه، وجمع عظيم من علماء الأمة . وقد مضى فى « براءة »(٣) الكلام فيها ودليل الفريقين . والحمد لله . فإذا قال : كل امرأة أتزوجها [طالق] وكل عبد أشتريه حرّ، لم يلزمه شىء . و إن قال : كل امرأة أتزوجها إلى عشرين سنة ، أو إن تزوجت من بلد فلان أو من بنى فلان فهى طالق ؛ لزمه الطــلاق ما لم يخف العنت على نفسه فى طول السنين ، أو يكون عمره فى الغالب لا يبلغ ذلك ، فله أن يتزوج . و إنما لم يلزمه الطلاق إذا عمّ لأنه ضيّق على نفسه المناكح، فلو منعناه ألا يتزوّج لحرِج(٤) وخيف عليــه العنت . وقد قال بعض أصحابنا : إنه إن وجد ما يتسرّر به لم ينكح؛ وليس بشىء؛ وذلك أن الضرورات والأعذار ترفع الأحكام؛ فيصير هذا من حيث الضرورة كمن لم يحلف؛ قاله ابن خُوَيْزمنداد .

---

(١) الخمر : تؤنث وتذكر؛ والتأنيث أكثر . (٢) الذى سماهم البخارى فى (باب لا طلاق قبــل النكاح) أربعة وعشرون . (٣) راجع المسألة الخامسة جـ ٨ ص ٢١١ (٤) حرج : أثم .

الرابعة ـ استدل داود ـ ومن قال بقوله ـ أن المطلّقة الرجعية إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضي عدّتها ثم فارقها قبل أن يمسّها ، أنه ليس عليها أن تتمّ عدّتها ولا عدّة مستقبلة ؛ لأنها مطلّقة قبل الدخول بها . وقال عطاء بن أبي رباح وفرقة : تمضي في عدّتها من طلاقها الأوّل ـ وهو أحد قولي الشافعي ـ ؛ لأن طلاقه لها إذا لم يمسّها في حكم من طلقها في عدّتها قبل أن يراجعها . ومن طلّق امرأته في كل طهر مرّة بنت ولم تستأنف . وقال مالك : إذا فارقها قبل أن يمسّها إنها لا تبني على ما مضى من عدّتها ، وإنها تنشئ من يوم طلّقها عدّة مستقبلة . وقد ظلم زوجها نفسه وأخطأ إن كان ارتجعها ولا حاجة له بها . وعلى هذا أكثر أهل العلم ؛ لأنها في حكم الزوجات المدخول بهن في النفقة والسكنى وغير ذلك ولذلك تستأنف العدّة من يوم طلقت ؛ وهو قول جمهور فقهاء البصرة والكوفة ومكة والمدينة والشام . وقال الثوريّ : أجمع الفقهاء عندنا على ذلك .

الخامسة ـ فلو كانت بائنة غير مبتوتة فتزوّجها في العدّة ثم طلّقها قبل الدخول فقد اختلفوا في ذلك أيضا ؛ فقال مالك والشافعيّ وزُفَر وعثمان البَتّي : لها نصف الصداق وتتم بقية العدّة الأولى ، وهو قول الحسن وعطاء وعكرمة وابن شهاب . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف والثّوريّ والأوزاعيّ : لها مهر كامل للنكاح الثاني وعدّة مستقبلة . جعلوها في حكم المدخول بها لاعتدادها من مائه . وقال داود : لها نصف الصداق ، وليس عليها بقية العدّة الأولى ولا عدّة مستقبلة . والأولى ما قاله مالك والشافعيّ ، والله أعلم .

السادسة ـ هذه الآية مخصصة لقوله تعالى : « والمطلّقاتُ يَتربَّصْنَ بأنفسِهِنّ ثلاثةَ قُرُوء » ، ولقوله : « وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ »(١) . وقد مضى في « البقرة »(٢) ، ومضى فيها الكلام في المُتعة(٣) ، فأغنى عن الإعادة هنا . ﴿ وسَرِّحُوهُنّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ فيه وجهان : أحدهما ـ أنه دَفْعُ المُتعة بحسب المَيْسرة والعُسْرة ؛ قاله

---

(١) آية ٤ سورة الطلاق . (٢) راجع جـ ٣ ص ١١٢ وما بعدها . (٣) راجع جـ ٣ ص ٢٠٠ وما بعدها .

ابن عباس . الثانى — أنه طلاقها طاهرا من غير جماع؛ قاله قتادة . وقيل « فسرحوهن » بعد الطلاق إلى أهلهن، فلا يجتمع الرجل والمطلقة فى موضع واحد .

السابعة — قوله تعالى : ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ قال سعيد : هى منسوخة بالآية التى فى البقرة؛ وهى قوله : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ » أى فلم يذكر المتعة . وقد مضى الكلام فى هذا فى « البقرة » مستوفى[1] . وقوله : « وَسَرِّحُوهُنَّ » طلقوهن . والتسريح كناية عن الطلاق عند أبى حنيفة؛ لأنه يستعمل فى غيره فيحتاج إلى النية . وعند الشافعىّ صريح . وقد مضى فى « البقرة » القول فيه فلا معنى للإعادة[2] . ﴿جَمِيلًا﴾ سنة، غير بدعة .

قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞﴾

فيه تسع عشرة مسألة :

الأولى — روى السُّدِّى عن أبى صالح عن أم هانئ بنت أبى طالب قالت : خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرنى[3]؛ ثم أنزل الله تعالى : ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ

(١) جـ ٣ ص ٢٠٤ (٢) جـ ٣ ص ١٢٥ (٣) قالت : إنى امرأة مصبية (ذات صبيان) . وفى بعض الروايات : قالت يا رسول الله ، لأنت أحب إلىّ من سمعى وبصرى وحق الزوج عظيم ، فأخشى أن أضيع حق الزوج .

عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ قالت : فلم أكن أحل له ؛ لأنى لم أهاجر ، كنت من الطلقاء . خرّجه أبو عيسى وقال : هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه . قال ابن العربى : وهو ضعيف جدا ، ولم يأت هذا الحديث من طريق صحيح يُحتجّ بها .

الثانية — لما خيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه فاخترنه ، حرّم عليه التزوّج بغيرهن والاستبدال بهن ؛ مكافأةً لهن على فعلهن . والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ الآية . وهل كان يحلّ له أن يطلق واحدة منهن بعد ذلك ؟ فقيل : لا يحل له ذلك جزاءً لهن على اختيارهن له . وقيل : كان يحلّ له ذلك كغيره من الناس ولكن لا يتزوّج بدلها . ثم نُسخ هذا التحريم فأباح له أن يتزوج بمن شاء عليهن من النساء ؛ والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ والإحلال يقتضى تقدّم حظر . وزوجاته اللاتى فى حياته لم يكنّ محرمات عليه ، وإنما كان حرم عليه التزويج بالأجنبيات فانصرف الإحلال إليهن ؛ ولأنه قال فى سياق الآية ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ ﴾ الآية . ومعلوم أنه لم يكن تحته أحد من بنات عمّه ولا من بنات عمّاته ولا من بنات خاله ولا من بنات خالاته ؛ فثبت أنه أحلّ له التزويج بهذا ابتداء . وهذه الآية وإن كانت متقدمة فى التلاوة فهى متأخرة النزول على الآية المنسوخة بها ؛ كآيتى الوفاة فى « البقرة »[1] .

وقد اختلف الناس فى تأويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ فقيل : المراد بها أن الله تعالى أحلّ له أن يتزوّج كلّ امرأة يؤتيها مهرها ؛ قاله ابن زيد والضحاك . فعلى هذا تكون الآية مبيحة جميع النساء حاشا ذوات المحارم . وقيل : المراد أحللنا لك أزواجك ، أى الكائنات عندك ؛ لأنهن قد اخترنك على الدنيا والآخرة ؛ قاله الجمهور من العلماء . وهو الظاهر ؛ لأن قوله : « آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ » ماض ، ولا يكون الفعل الماضى بمعنى الاستقبال إلا بشروط . ويجىء الأمر على هذا التأويل ضيقًا على النبىّ صلى الله عليه وسلم . ويؤيّد هذا التأويل ما قاله

---

(١) راجع جـ ٣ ص ١٧٣ وما بعدها ، ٢٢٤ ، ٢٤٠ ، ٢٢٦ .

ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوّج فى أىّ الناس شاء ، وكان يشقّ ذلك على نسائه ، فلما نزلت هذه الآية وحرم عليه بها النساء إلا من سمّى ، سُرّ نساؤه بذلك .

قلت : والقول الأوّل أصح لما ذكرناه . ويدل أيضا على صحته ما خرّجه الترمذىّ عن عطاء قال : قالت عائشة رضى الله عنها ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله تعالى له النساء . قال : هذا حديث حسن صحيح .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أحلّ الله تعالى السّرارى لنبيّه صلى الله عليه وسلم ولأمّته مطلقا ، وأحلّ الأزواج لنبيّه عليه الصلاة والسلام مطلقا ، وأحلّه للخلق بعدد . وقوله : ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أى ردّه عليك من الكفار . والغنيمة قد تسمى فيئا ؛ أى مما أفاء الله عليك من النساء بالمأخوذ على وجه القهر والغلبة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ﴾ أى أحللنا لك ذلك زائدا من الأزواج اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك ، على قول الجمهور ؛ لأنه لو أراد أحللنا لك كل امرأة تزوّجت وآتيت أجرها ، لما قال بعد ذلك «وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ» لأن ذلك داخل فيما تقدّم .

قلت : وهذا لا يلزم ، وإنما خصّ هؤلاء بالذكر تشريفا لهن ؛ كما قال تعالى : «فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ»(١) . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فيه قولان : الأوّل — لا يحل لك من قرابتك كبنات عمك العباس وغيره من أولاد عبد المطلب ، وبنات أولاد بنات عبد المطلب ، وبنات الخال من ولد بنات عبد مناف بن زُهْرة إلا من أسلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله تعالى عنه" . الثانى — لا يحل لك منهن إلا من هاجر إلى المدينة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ

(١) آية ٦٨ سورة الرحمن .

مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا (١)) ومن لم يهاجر لم يَكْمُلْ ؛ ومَن لم يكمل لم يصلح للنبيّ صلى الله عليه وسلم الذى كَمُل وشَرُف وعَظُم ، صلى الله عليه وسلم .

السادســة ــ قوله تعالى : (مَعَكَ) المعيّة هنا الاشتراك فى الهجرة لا فى الصحبة فيها ؛ فمن هاجر حلّ له ، كان فى صحبته إذ هاجر أو لم يكن . يقال : دخل فلان معى وخرج معى ؛ أى كان عمله كعملى وإن لم يقترن فيه عملكما . ولو قلت : خرجنا معاً لاقتضى ذلك المعنيين جميعا : الاشتراك فى الفعل ، والاقتران [فيه] .

السابعــة ــ ذكر الله تبارك وتعالى العمّ فَرْداً والعمات جمعاً . وكذلك قال : «خالك» ؛ «وخالاتك» والحكمة فى ذلك : أن العم والخال فى الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز ؛ وليس كذلك العمّة والخالة . وهذا عُرْف لغوىّ ، فجاء الكلام عليه بغاية البيان لرفع الإشكال ؛ وهذا دقيق فتأملوه ؛ قاله ابن العربى .

الثامنــة ــ قوله تعالى : (وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً) عطف على «أحللنا» . المعنى وأحللنا لك امرأة تَهَب نفسها من غير صداق . وقد اختلف فى هـذا المعنى ؛ فروى عن ابن عباس أنه قال : لم تكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأةٌ إلا بعقد نكاح أو مِلْك يَمين . فأما الهبة فلم يكن عنده منهن أحد . وقال قوم : كانت عنده موهوبة .

قلت : والذى فى الصحيحين يقوّى هذا القول ويَعْضُدُه ؛ روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كنت أغار على اللائى وَهَبْنَ أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول ؛ أما تستحى امرأة تَهَب نفسها لرجل ! حتى أنزل الله تعالى « تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ » فقلت : والله ما أرى رَبَّك إلا يسارع فى هـواك . وروى البخارىّ عن عائشة أنها قالت : كانت خَوْلة بنت حكيم من اللائى وهبن أنفسهنّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فدلّ هذا على أنهن كنّ غير واحدة . والله تعالى أعلم . الزَّمَخْشَرىّ : وقيل الموهوبات أربع : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وأم شريك بنت جابر ، وخَوْلة بنت حكيم .

(١) آية ٧٢ سورة الأنفال

قلت : وفي بعض هذا اختلاف. قال قتادة : هي ميمونة بنت الحارث. وقال الشعبي : هي زينب بنت خزيمة أم المساكين امرأة من الأنصار . وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل : هي أم شريك بنت جابر الأسدية. وقال عروة بن الزبير : أم حكيم بنت الأوقص السلمية .

التاسعة — وقد اختلف في اسم الواهبة نفسها ؛ فقيل هي أم شريك الأنصارية ، اسمها غُزَيّة. وقيل غُزَيلة . وقيل ليلى بنت حكيم . وقيل : هي ميمونة بنت الحارث حين خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فجاءها الخاطب وهي على بعيرها فقالت : البعير وما عليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : هي أم شريك العامرية ، وكانت عند أبي العكر الأزدي . وقيل عند الطُّفيل بن الحارث فولدت له شريكا. وقيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها ، ولم يثبت ذلك . والله تعالى أعلم ؛ ذكره أبو عمر بن عبد البر . وقال الشعبيّ وعروة : هي زينب بنت خزيمة أم المساكين . والله تعالى أعلم .

العاشرة — قرأ جمهور الناس « إِنْ وَهَبَتْ » بكسر الألف ، وهذا يقتضي استئناف الأمر ؛ أي إن وقع فهو حلال له . وقد روي عن ابن عباس ومجاهد أنهما قالا : لم يكن عند النبيّ صلى الله عليه وسلم امرأة موهوبة ؛ وقد دللنا على خلافه . وروى الأئمة من طريق سهل وغيره في الصحاح : أن امرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت أَهَب لك نفسي ، فسكت حتى قام رجل فقال : زوّجْنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فلو كانت هذه الهبة غير جائزة لما سكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لا يقر على الباطل إذا سمعه ؛ غير أنه يحتمل أن يكون سكوته منتظرا بيانا ؛ فنزلت الآية بالتحليل والتخيير ، فاختار تركها وزوّجها من غيره . ويحتمل أن يكون سكت ناظرا في ذلك حتى قام الرجل لها طالبا . وقرأ الحسن البصريّ وأبيّ بن كعب والشعبيّ « أن » بفتح الألف . وقرأ الأعمش « وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً وَهَبَتْ » . قال النحاس : وكسر « إنْ » أجمع للمعاني ؛ لأنه قيل إنهن نساء . وإذا فتح كان المعنى على واحدة بعينها ؛ لأن الفتح على البدل من امرأة ، أو بمعنى لأن .

الحادية عشرة ـ قوله تعالى : ﴿ مُؤْمِنَةً ﴾ يدلّ على أن الكافرة لا تحلّ له . قال إمام الحرمين : وقد اختلف فى تحريم الحرّة الكافرة عليه . قال ابن العربىّ : والصحيح عندى تحريمها عليه ، وبهذا يتميّز علينا ؛ فإنه ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظه فيه أكثر، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أطهر؛ فجوّز لنا نكاح الحرائر الكتابيات، وقصر هو صلى الله عليه وسلم لجلالته على المؤمنات . وإذا كان لا يحلّ له من لم تهاجر لنقصان فضل الهجرة فأحرى ألا تحل له الكافرة الكتابية لنقصان الكفر(١) .

الثانية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا ﴾ دليل على أن النكاح عقد معاوضة على صفات مخصوصة، قد تقدمت فى «النساء»(٢) وغيرها . وقال الزجاج : معنى «إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ» حلّت . وقرأ الحسن «أن وهبت» بفتح الهمزة . و «أن» فى موضع نصب . قال الزجاج : أى لأن . وقال غيره : « أن وهبت » بدل اشتمال من « امرأة » .

الثالثة عشرة ـ قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ أى إذا وهبت المرأة نفسها وقبلها النبىّ صلى الله عليه وسلم حلّت له ، وإن لم يقبلها لم يلزم ذلك . كما إذا وهبت لرجل شيئا فلا يجب عليه القبول؛ بيد أن من مكارم أخلاق نبينا أن يقبل من الواهب هبته . ويرى الأكارم أن ردّها هُجْنة فى العادة، ووصمة على الواهب وإذاية لقلبه ؛ فبيّن الله ذلك فى حق رسوله صلى الله عليه وسلم وجعله قرآنا يُتلى ؛ ليرفع عنه الحرج، ويبطل بُطْل الناس فى عادتهم وقولهم .

الرابعة عشرة ـ قوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً لَكَ ﴾ أى هبة النساء أنفسهن خالصة ومزية لا تجوز؛ فلا يجوز أن تهب المرأة نفسها لرجل . ووجه الخاصيّة أنها لو طلبت فرض المهر قبل الدخول لم يكن لها ذلك . فأما فيما بيننا فللمفوّضة طلب المهر قبل الدخول، ومهر المثل بعد الدخول .

---

(١) فى ابن العربى « الحرة » .   (٢) راجع جـ ٥ ص ١٢٧ وما بعدها .

الخامسة عشرة — أجمع العلماء على أن هبة المرأة نفسها غير جائز[1]، وأن هذا اللفظ من الهبة لا يتم عليه نكاح؛ إلا ما روى عن أبي حنيفة وصاحبيه فإنهم قالوا : إذا وهبت فأشهد هو على نفسه بمهر فذلك جائز. قال ابن عطية : فليس في قولهم إلا تجويز العبارة ولفظة الهبة؛ وإلا فالأفعال التي اشترطوها هي أفعال النكاح بعينه؛ وقد تقدمت هذه المسألة في «القصص» مستوفاة[2]. والحمد لله.

السادسة عشرة — خصّ الله تعالى رسوله في أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد — في باب الفرض والتحريم والتحليل — مزيّة على الأمة وهبت له[3]، ومرتبة خصّ بها؛ ففرضت عليه أشياء ما فرضت على غيره، وحرمت عليه أفعال لم تحرم عليهم، وحللت له أشياء لم تحلل لهم؛ منها متفق عليه ومختلف فيه.

فأما ما فرض عليه فتسعة : الأول — التهجد بالليل؛ يقال : إن قيام الليل كان واجبا عليه إلى أن مات؛ لقوله تعالى : «يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ» الآية. والمنصوص أنه كان واجبًا عليه ثم نسخ بقوله تعالى : «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ» وسيأتي. الثاني — الضحا. الثالث — الأضحى. الرابع — الوتر؛ وهو يدخل في قسم التهجد. الخامس — السواك. السادس — قضاء دين من مات معسرا. السابع — مشاورة ذوي الأحلام في غير الشرائع. الثامن — تخيير النساء. التاسع — إذا عمل عملا أثبته. زاد غيره : وكان يجب عليه إذا رأى منكرا أنكره وأظهره؛ لأن إقراره لغيره على ذلك يدل على جوازه؛ ذكره صاحب البيان.

وأما ما حرم عليه فجملته عشرة : الأول — تحريم الزكاة عليه وعلى آله. الثاني — صدقة التطوع عليه؛ وفي آله تفصيل باختلاف. الثالث — خائنة الأعين[4]، وهو أن يظهر خلاف ما يضمر، أو يخدع عما يجب. وقد ذمّ بعض الكفار عند إذنه ثم ألان له القول

---

(١) أي أمر غير جائز. (٢) راجع ج ١٣ ص ٢٧٢. (٣) في ابن العربي : «وهبة له».

(٤) الخائنة بمعنى الخيانة؛ وهي من المصادر التي جاءت على لفظ الفاعلة كالعافية. فإذا كف الإنسان لسانه وأومأ بعينه فقد خان، وإذا كان ظهور تلك الحالة من قبل العين سميت خائنة الأعين.

عند دخوله[1] . الرابع ــ حرّم الله عليه إذا لبس لأمته[2] أن يخلعها عنه أو يحكم الله بينه وبين محاربه . الخامس ــ الأكل متكئا . السادس ــ أكل الأطعمة الكريهة الرائحة . السابع ــ التبدّل بأزواجه ، وسيأتي . الثامن ــ نكاح امرأة تكره صحبته . التاسع ــ نكاح الحرة الكتابية . العاشر ــ نكاح الأمة .

وحرّم الله عليه أشياء لم يحرمها على غيره تنزيها له وتطهيرا . فحرّم الله عليه الكتابة وقول الشعر وتعليمه ، تأكيدا لحجته وبيانا لمعجزته ؛ قال الله تعالى : « وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ »[3] . وذكر النقاش أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ما مات حتى كتب ؛ والأول هو المشهور . وحرم عليه أن يمد عينيه إلى ما متّع به الناس ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ »[4] الآية .

وأما ما أحلّ له صلى الله عليه وسلم فجملته ستة عشر : الأول ــ صَفِيّ المَغْنَم . الثاني ــ الاستبداد بخمس الخمس أو الخمس . الثالث ــ الوصال . الرابع ــ الزيادة على أربع نسوة . الخامس ــ النكاح بلفظ الهبة . السادس ــ النكاح بغير وليّ . السابع ــ النكاح بغير صداق . الثامن ــ نكاحه في حالة الإحرام . التاسع ــ سقوط القَسْم بين الأزواج عنه ، وسيأتي . العاشر ــ إذا وقع بصره على امرأة وجب على زوجها طلاقها ، وحلّ له نكاحها . قال ابن العربي : هكذا قال إمام الحرمين ، وقد مضى ما للعلماء في قصة زيد من هذا المعنى . الحادي عشر ــ أنه أعتق صفيّة وجعل عتقها صداقها . الثاني عشر ــ دخوله مكة بغير إحرام ، وفي حقنا فيه اختلاف . الثالث عشر ــ القتال بمكة . الرابع عشر ــ أنه لا يورث . وإنما ذكر هذا في قسم التحليل لأن الرجل إذا قارب الموت بالمرض زال عنه أكثر ملكه ، ولم يبق له إلا الثلث خالصا ، وبقي ملك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ على ما تقرر بيانه في آية المواريث[5] ، وسورة « مريم »[6] بيانه أيضا . الخامس عشر ــ بقاء زوجيته من بعد

(١) راجع كتاب البخاري ومسلم (باب الأدب) . (٢) اللأمة (وقد يترك همزها) : الدرع . وقيل السلاح . (٣) آية ٤٨ سورة العنكبوت . وراجع جـ ١٣ ص ٣٥١ (٤) آية ١٣١ سورة طه . (٥) راجع جـ ٥ ص ٥٩ . (٦) راجع جـ ١١ ص ٨١

الموت . السادس عشر — إذا طلّق امرأة تبقى حرمته عليها فلا تُنكح . وهذه الأقسام الثلاثة تقدّم معظمها مفصّلاً في مواضعها . وسيأتي إن شاء الله تعالى .

وأبيح له عليه الصلاة والسلام أخذ الطعام والشراب من الجائع والعطشان ؛ وإن كان من هو معه يخاف على نفسه الهلاك ؛ لقوله تعالى : « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ »(١) . وعلى كل أحد من المسلمين أن يَقِيَ النبيّ صلى الله عليه وسلم بنفسه . وأبيح له أن يحمى لنفسه . وأكرمه الله بتحليل الغنائم . وجعلت الأرض له ولأمته مسجدا وطهورا . وكان من الأنبياء [مَن] لا تصح صلاتهم إلا في المساجد . ونُصر بالرُّعب؛ فكان يخافه العدوّ من مسيرة شهر . وبُعث إلى كافة الخلق ؛ وقد كان مَن قبله من الأنبياء يُبعث الواحد إلى بعض الناس دون بعض . وجُعلت معجزاته كمعجزات الأنبياء قبله وزيادة . وكانت معجزة موسى عليه السلام العصا وانفجارَ الماء من الصخرة . وقد انشقّ القمر للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وخرج الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم . وكانت معجزة عيسى صلى الله عليه وسلم إحياءَ الموتى وإبراءَ الأكمه والأبرص . وقد سبّح الحصى في يد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وحنّ الجذع إليه ؛ وهذا أبلغ . وفضّله الله عليهم بأن جعل القرآن معجزة له ، وجعل معجزته فيه باقية إلى يوم القيامة ؛ ولهذا جُعلت نبوّته مؤبّدة لا تُنسخ إلى يوم القيامة .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ أي ينكحها ؛ يقال : نَكَح واستنكح ؛ مثل عَجِب واستعجب، وعَجِل واستعجل . ويجوز أن يَرِد الاستنكاح بمعنى طلب النكاح، أو طلب الوطء . و « خَالِصَةً » نصب على الحال؛ قاله الزجاج . وقيل : حال من ضمير متصل بفعل مضمر دلّ عليه المضمر ؛ تقديره : أحللنا لك أزواجك، وأحللنا لك امرأة مؤمنة أحللناها خالصة، بلفظ الهبة وبغير صداق وبغير وليّ .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فائدته أن الكفار وإن كانوا مخاطبين بفروع الشريعة عندنا فليس لهم في ذلك دخول ؛ لأن تصريف الأحكام إنما يكون فيهم على تقدير الإسلام .

(١) في بعض النسخ : « بنفسه » بالباء بدل اللام ؛ والجملة غير ظاهرة

قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾ أى ما أوجبنا على المؤمنين ؛ وهو ألا يتزوجوا إلا أربع نسوة بمهر وبينة وولى . قال معناه أُبَيّ بن كعب وقتادة وغيرهما .

التاسعة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ أى ضيق فى أمر أنت فيه محتاج إلى السعة ؛ أى بينا هذا البيان وشرحنا هذا الشرح « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ » . فـ « لكيلا » متعلق بقوله : « إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ » أى فلا يضيق قلبك حتى يظهر منك أنك قد أثمت عند ربك فى شىء . ثم آنس تعالى جميع المؤمنين بغفرانه ورحمته فقال تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ تُرْجِى مَن تَشَاءُ ﴾ قرئ مهموزا وغير مهموز ، وهما لغتان ؛ يقال : أرجيت الأمر وأرجأته إذا أخرته . ﴿ وَتُؤْوِى ﴾ تضم ؛ يقال : آوى إليه (ممدودة الألف) ضم إليه . وأوى (مقصورة الألف) انضم إليه .

الثانية ــ واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ وأصح ما قيل فيها : التوسعة على النبى صلى الله عليه وسلم فى ترك القسم ؛ فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته . وهذا القول هو الذى يناسب ما مضى ، وهو الذى ثبت معناه فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها ؛ قالت : كنت أغار على اللائى وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : أو تهب المرأة نفسها لرجل ؟ فلما أنزل الله عز وجل « تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ » قالت : قلت والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . قال

ابن العربي : هذا الذي ثبت في الصحيح هو الذي ينبغي أن يعوّل عليه . والمعنى المراد : هو أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان مخيّرا في أزواجه ، إن شاء أن يقسم قسم ، وإن شاء أن يترك القسم ترك . فخص النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن جعل الأمر إليه فيه ؛ لكنه كان يقسم من قِبَل نفسه دون أن فرض ذلك عليه ، تطييباً لنفوسهن ، وصوناً لهن عن أقوال الغَيْرة التي تؤدي إلى ما لا ينبغي[1] . وقيل : كان القَسْم واجباً على النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم نسخ الوجوب عنه بهذه الآية . قال أبو رَزِين : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد همّ بطلاق بعض نسائه فقلن له : اقسم لنا ما شئت . فكان ممن آوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ، فكان قسمتهنّ من نفسه وماله سواء بينهن . وكان ممن أرجى سودة وجُوَيْرِية وأم حبيبة وميمونة وصفية ، فكان يقسم لهنّ ما شاء . وقيل : المراد الواهبات . روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة في قوله : «تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ» قالت : هذا في الواهبات أنفسهنّ . قال الشعبيّ : هنّ الواهبات أنفسهنّ ، تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم منهن وترك منهنّ . وقال الزُّهْرِيّ : ما علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرجأ أحدا من أزواجه ، بل آواهن كلهن . وقال ابن عباس وغيره : المعنى في طلاق من شاء ممن حصل في عصمته ، وإمساك من شاء . وقيل غير هذا . وعلى كل معنًى فالآية معناها التوسعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والإباحة . وما اخترناه أصح والله أعلم .

الثالثة — ذهب هبة الله في الناسخ والمنسوخ إلى أن قوله : «تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ» الآية ، ناسخ لقوله : «لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ» الآية . وقال : ليس في كتاب الله ناسخ تقدّم المنسوخَ سوى هذا . وكلامه يضعف من جهات . وفي «البقرة» عدّة المتوفَّى عنها أربعة أشهر وعشر ، وهو ناسخ للحول وقد تقدم عليه[2] .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ «ابتغيت» طلبت ؛ والابتغاء الطلب . و «عزلتَ» أزلت ؛ والعزلة الإزالة ؛ أي إن أردت أن تؤوي إليك امرأة ممن

(١) في بعض الأصول : «ترق» . (٢) راجع ج ٣ ص ١٧٤ و ٢٢٦

عزلتهن من القسمة وتضمها إليك فلا بأس عليك فى ذلك . وكذلك حكم الإرجاء؛ فدلّ أحد الطرفين على الثانى .

الخامسـة ـ قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ أى لا ميل؛ يقال : جنحت السفينة أى مالت إلى الأرض . أى لا ميل عليك باللوم والتوبيخ .

السادسـة ـ قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ﴾ قال قتادة وغيره : أى ذلك التخيير الذى خيّرناك فى صحبتهن أدنى إلى رضاهن إذ كان من عندنا؛ لأنهن إذا علمن أن الفعل[1] من الله قرت أعينهن بذلك ورضين؛ لأن المرء إذا علم أنه لا حق له فى شىء كان راضيًا بما أوتى منه وإن قلّ . وإن علم أن له حقًّا لم يقنعه ما أوتى منه، واشتدت غيرته عليه، وعظُم حرصه فيه . فكان ما فعل الله لرسوله من تفويض الأمر إليه فى أحوال أزواجه أقرب إلى رضاهن معه، وإلى استقرار أعينهن بما يسمح به لهن، دون أن تتعلق قلوبهن بأكثر منه . وقرئ « تُقِرَّ أعينَهن » بضم التاء ونصب الأعين . « وتُقَرَّ أعينُهن » على البناء للفعول . وكان عليه السلام مع هذا يشدد على نفسه فى رعاية التسوية بينهن، تطييبا لقلوبهن ـ كما قدمناه ـ ويقول : " اللهم هذه قدرتى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك " يعنى قلبه؛ لإيثاره عائشة رضى الله عنها دون أن يكون يظهر ذلك فى شىء من فعله . وكان فى مرضه الذى توفى فيه يطاف به محمولا على بيوت أزواجه، إلى أن استأذنهن أن يقيم فى بيت عائشة قالت عائشة : أول ما اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت ميمونة، فاستأذن أزواجه أن يمرض فى بيتها ـ يعنى بيت عائشة ـ فأذن له... الحديث، خرجه الصحيح . وفى الصحيح أيضا عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتفقد[2]،

---

(١) فى بعض الأصول : « العدل » . (٢) كذا فى نسخ الأصل، والذى فى البخارى : « ليتعذر » قال القسطلانى : « بالعين المهملة والذال المعجمة؛ أى يطلب العذر فيما يحاوله من الانتقال إلى بيت عائشة . وعند القابسى « ليتقدر » بالقاف والدال المهملة؛ أى يسأل عن قدر ما بقى إلى يومها ليهون عليه بعض ما يجده؛ لأن المريض يجد عند بعض أهله ما لا يجده عند بعض من الأنس والسكون » .

يقول : "أين أنا اليوم أين أنا غدا" استبطاء ليوم عائشة رضي الله عنها . قالت : فلما كان يومي قبضه الله تعالى بين سَحْري ونَحْري[(1)]؛ صلى الله عليه وسلم .

السابعة — على الرجل أن يعدل بين نسائه لكل واحدة منهن يوما وليلة ؛ هذا قول عامة العلماء . وذهب بعضهم إلى وجوب ذلك في الليل دون النهار . ولا يُسقط حقَّ الزوجة مرضُها ولا حيضُها؛ ويلزمه المقام عندها في يومها وليلتها . وعليه أن يعدل بينهن في مرضه كما يفعل في صحته ؛ إلا أن يَعْجِز عن الحركة فيقيم حيث غلب عليه المرض ، فإذا صحّ استأنف القسم . والإماء والحرائر والكتابيات والمسلمات في ذلك سواء . قال عبد الملك : للحُرّة ليلتان وللأمة ليلة . وأما السراري فلا قَسْم بينهن وبين الحرائر، ولا حظّ لهن فيه .

الثامنة — ولا يجمع بينهن في منزل واحد إلا برضاهن ، ولا يدخل لإحداهن في يوم الأخرى وليلتها لغير حاجة . واختلف في دخوله لحاجة وضرورة ؛ فالأكثرون على جوازه ؛ مالك وغيره . وفي كتاب ابن حبيب منعه . وروى ابن بكير عن مالك عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان ، فإذا كان يوم هذه لم يشرب من بيت الأخرى الماء . قال ابن بكير : وحدثنا مالك عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان ماتتا في الطاعون ، فأسهم بينهما أيّهما تدلى أول .

التاسعة — قال مالك : ويعدل بينهن في النفقة والكسوة إذا كن معتدلات الحال؛ ولا يلزم ذلك في المختلفات المناصب . وأجاز مالك أن يفضل إحداهما في الكسوة على غير وجه الميل . فأما الحُبّ والبغض فخارجان عن الكسب فلا يتأتّى العدل فيهما ؛ وهو المعنيّ بقوله صلى الله عليه وسلم في قَسْمه : "اللهم هذا فعلي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك" . أخرجه النسائي وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها . وفي كتاب أبي داود « يعني القلب » ؛ وإليه الإشارة بقوله تعالى: «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ»[(2)]؛ وقوله تعالى: « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ » . وهذا هو وجه تخصيصه بالذكر هنا ، تنبيها منه لنا على أنه يعلم

---

(1) تريد بين جنبي وصدري . والسحر : الرئة ، فأطلقت على الجنب مجازا ، من باب تسمية المحل باسم الحال فيه . والنحر : الصدر .   (2) آية ١٢٩ سورة النساء .

ما فى قلوبنا من ميل بعضنا إلى بعض مّن عندنا من النساء دون بعض؛ وهو العالم بكل شىء « لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ »[1] « يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى »[2] لكنه سمح فى ذلك؛ إذ لا يستطيع العبد أن يصرف قلبه عن ذلك الميـل ، وإلى ذلك يعود قوله : « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » . وقد قيل فى قوله : « ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ » وهى :

العاشـــرة — أى ذلك أقرب ألا يحزن إذا لم يجمع إحداهن مع الأخرى ويعاين الأثرة والميل . وروى أبو داود عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل " . ﴿ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ توكيد للضمير؛ أى ويرضين كلهن . وأجاز أبو حاتم والزجاج « وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ » على التوكيد للضمر الذى فى « آتيتهن » . والفراء لا يجيزه؛ لأن المعنى ليس عليـه ؛ إذ كان المعنى وترضى كل واحدة منهن، وليس المعنى بما أعطيتهن كلهن . النحاس : والذى قاله حسن .

الحادية عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ خبر عام ، والإشارة إلى ما فى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من محبة شخص دون شخص . وكذلك يدخل فى المعنى أيضا المؤمنون . وفى البخارى عن عمرو بن العـاص أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت : أىّ الناس أحبّ إليك؟ فقال : " عائشة " فقلت : من الرجال ؟ قال : " أبوها " قلت : ثم مّن ؟ قال : " عمر بن الخطاب ... " فعدّ رجالا . وقـد تقدّم القول فى القلب بمـا فيه كفاية فى أوّل « البقرة »[3] ، وفى أوّل هـذه السورة[4] . يروى أن لقمان الحكيم كان عبدا نجارا قال له سـيده : اذبح شاة وائتنى بأطيبها بضعتين ؛ فأتاه باللسان والقلب . ثم أمره بذبح شاة أخرى فقال له : ألق أخبثها بضعتين؛ فألقى اللسان والقلب . فقال : أمرتك أن تأتينى بأطيبهـا بضعتين فأتيتنى باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلقى بأخبثها بضعتين فألقيت اللسان والقلب ! ؟ فقال : ليس شىء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبُثا .

(١) آية ٥ سورة آل عمران . (٢) آية ٧ سـورة طه . (٣) راجـع جـ ١ ص ١٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) ص ١١٧ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾

فيـه سبع مسائل :

الأولى ــ اختلف العلماء في تأويل قوله : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » على أقوال سبعة :

الأول ــ أنها منسوخة بالسنّة ، والناسخ لها حديث عائشة ، قالت : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحلّ له النساء . وقد تقدّم[1] .

الثاني ــ أنها منسوخة بآية أخرى ، روى الطحاوي عن أم سلمة قالت : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء من شاء ، إلا ذات محرم ، وذلك قوله عز وجل : « تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ » . قال النحاس : وهذا والله أعلم أولى ما قيل في الآية ؛ وهو وقول عائشة واحد في النسخ . وقد يجوز أن تكون عائشة أرادت أحل له ذلك بالقرآن . وهو مع هذا قول علي بن أبي طالب وابن عباس وعلي بن الحسين والضحاك . وقد عارض بعض فقهاء الكوفيين فقال : محال أن تنسخ هذه الآية يعني « تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ » « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » وهي قبلها في المصحف الذي أجمع عليه المسلمون . ورجّح قول من قال نسخت بالسنة . قال النحاس : وهذه المعارضة لا تلزم وقائلها غالط ؛ لأن القرآن بمنزلة سورة واحدة ، كما صح عن ابن عباس : أنزل الله القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في شهر رمضان . ويبين لك أن اعتراض هذا [المعترض] لا يلزم [أن] قوله عز وجل « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ »[2] منسوخة على قول أهل التأويل ــ لا نعلم بينهم

(١) ص ٥٢٠٧ من هذا الجزء . (٢) آية ٢٤٠ سورة البقرة .

ثالثا ــ بالآية التي قبلها « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » (١) .

الثالث ــ أنه صلى الله عليه وسلم حظر عليه أن يتزوج على نسائه ؛ لأنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ؛ هذا قول الحسن وابن سيرين وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام . قال النحاس : وهذا القول يجوز أن يكون هكذا ثم نسخ

الرابع ــ أنه لما حُرّم عليهن أن يتزوجن بعده حرم عليه أن يتزوج غيرهن ؛ قاله أبو أمامة بن سهل بن حُنَيف .

الخامس ــ « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ » أي من بعد الأصناف التي سُمّيت ؛ قاله أُبَيّ بن كعب وعكرمة وأبو رَزين ، وهو اختيار محمد بن جرير . ومن قال إن الإباحة كانت له مطلقة قال هنا : « لا يحل لك النساء» معناه لا تحل لك اليهوديات ولا النصرانيات . وهذا تأويل فيه بُعْدٌ . وروى عن مجاهد وسعيد بن جُبير وعكرمة أيضا . وهو القول السادس . قال مجاهد : لئلا تكون كافرة أمًّا للمؤمنين . وهذا القول يبعد ؛ لأنه يقدّره : من بعد المسلمات ، ولم يجر للمسلمات ذكر . وكذلك قدّر « وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ » أي ولا أن تطلّق مسلمة لتستبدل بها كتابيّة .

السابع ــ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له حلال أن يتزوج من شاء ثم نسخ ذلك . قال : وكذلك كانت الأنبياء قبله صلى الله عليه وعليهم وسلم ؛ قاله محمد بن كعب القُرَظي .

الثانية ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ قال ابن زيد : هذا شيء كانت العرب تفعله ، يقول أحدهم : خذ زوجتي وأعطني زوجتك ، روى الدّارقُطْني عن أبي هريرة قال : كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل : انزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك ؛ فأنزل الله عز وجل « وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ » قال : فدخل عُيينة بن حِصْن الفَزَاري على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده

(١) آية ٢٣٤ سورة البقرة . وراجع جـ ٣ ص ١٧٤ ، ٢٢٦

عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ياعيينة فأين الاستئذان"؟ فقال: يارسول الله، ما استأذنت على رجل من مُضَرَ منذ أدركت . قال: مَن هذه الحميراء إلى جنبك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هذه عائشة أم المؤمنين" قال : أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق. فقال : "ياعُيينة، إن الله قد حرّم ذلك". قال فلما خرج قالت عائشة يارسول الله ، من هذا ؟ قال : "أحمق مطاعٌ وإنه على ما ترين لَسيّدُ قومه" . وقد أنكر الطبري والنحاس وغيرهما ما حكاه ابن زيد عن العرب ، من أنها كانت تبادل بأزواجها . قال الطبري: وما فعلت العرب قطُّ هذا، وما روى من حديث عُيينة بن حصن من أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة ... الحديث؛ فليس بتبديل، ولا أراد ذلك ، وإنما احتقر عائشة لأنها كانت صبية فقال هذا القول .

قلت : وما ذكرناه من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة من أن البدل كان في الجاهلية يدل على خلاف ما أنكر من ذلك، والله أعلم. قال المبرد: وقرئ «لايحل» بالياء والتاء . فمن قرأ بالتاء فعلى معنى جماعة النساء، وبالياء من تحت على معنى جميع النساء . وزعم الفراء قال : اجتمعت القراء على أن القراءة بالياء، وهذا غلط، وكيف يقال: اجتمعت القراء وقد قرأ أبو عمرو بالتاء بلا اختلاف عنه !

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ قال ابن عباس : نزل ذلك بسبب أسماء بنت عُميس؛ أعجب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حين مات عنها جعفر بن أبي طالب حسنُها، فأراد أن يتزوجها، فنزلت الآية؛ وهذا حديث ضعيف قاله ابن العربي.

الرابعة — في هذه الآية دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها . وقد أراد المغيرة بن شعبة زواج امرأة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "انظر إليها فإنه أجدر أن يُؤدم بينكما"[1] . وقال عليه السلام لآخر : "انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئا" أخرجه الصحيح . قال الحميدي وأبو الفرج الجوزي . يعني صفراء أو زرقاء . وقيل رمصاء[2] .

(١) أي أحرى أن تدوم المودّة بينكما . يقال : أدم الله بينهما يأدم أدما؛ أي ألف ووفق .
(٢) الرمص (بالتحريك) : وسخ يجتمع في الموق؛ فإن سال فهو غمص، وإن جمد فهو رمص .

الخامسة — الأمر بالنظر إلى المخطوبة إنما هو على جهة الإرشاد إلى المصلحة؛ فإنه إذا نظر إليها فلعله يرى منها ما يرغّبه في نكاحها . ومما يدل على أن الأمر على جهة الإرشاد ما ذكره أبو داود من حديث جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل" . فقوله : "فإن استطاع فليفعل" لا يقال مثله في الواجب . وبهذا قال جمهور الفقهاء مالك والشافعيّ والكوفيون وغيرهم وأهل الظاهر . وقد كره ذلك قوم لا مبالاة بقولهم؛ للأحاديث الصحيحة ، وقوله تعالى : « ولو أعجبك حُسْنُهُنَّ » . وقال سهل بن أبي حثمة : رأيت محمد بن مسلمة يطارد ثُبَيْتَة بنت الضحاك على إجّار من أجاجير المدينة فقلت له : أتفعل هذا؟ فقال نعم! قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إذا ألقى الله في قلب أحدكم خِطْبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها" . الإجّار : السطح، بلغة أهل الشام والحجاز . قال أبو عبيد : وجمع الإجار أجاجير وأجاجرة .

السادسة — اختلف فيما يجوز أن ينظر منها؛ فقال مالك : ينظر إلى وجهها وكفيها، ولا ينظر إلا بإذنها . وقال الشافعيّ وأحمد : بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مستترة . وقال الأوزاعيّ : ينظر إليها ويجتهد وينظر مواضع اللحم منها . قال داود : ينظر إلى سائر جسدها تمسكًا بظاهر اللفظ . وأصول الشريعة تردّ عليه في تحريم الاطلاع على العورة . والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ اختلف العلماء في إحلال الأَمَة الكافرة للنبيّ صلى الله عليه وسلم على قولين : تحلّ لعموم قوله : « إلا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ » قاله مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم . قالوا : قوله تعالى « لا يَحِلّ لك النساء مِن بعدُ » أي لا تحلّ لك النساء من غير المسلمات ، فأما اليهوديات والنّصرانيات والمشركات فحرام عليك؛ أي لا يحل لك أن تتزوّج كافرة فتكون أُمًّا للمؤمنين ولو أعجبك حسنها؛ إلا ما ملكت يمينك ، فإن له أن يتسرّى بها . القول الثاني — لا تحل ، تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة ، وقد قال الله تعالى : « وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ »(١) فكيف به صلى الله

---

(١) آية ١٠ سورة الممتحنة .

عليه وسلم . و « ما » في قوله : « إلا ما ملكت يمينك » في موضع رفع بدل من النساء . ويجوز أن يكون في موضع نصب على استثناء ؛ وفيه ضعف . ويجوز أن تكون مصدرية ؛ والتقدير : إلا ملك يمينك ، وملك بمعنى مملوك . وهو في موضع نصب لأنه استثناء من غير الجنس الأول .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾

فيه ست عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ « أن » في موضع نصب على معنى إلا بأن يؤذن لكم ، ويكون الاستثناء ليس من الأول . ﴿ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ نصب على الحال ؛ أي لا تدخلوا في هذه الحال . ولا يجوز في « غير » الخفض على النعت للطعام ؛ لأنه لو كان نعتا لم يكن بدّ من إظهار الفاعلين ، وكان يقول : غير ناظرين إناه أنتم . ونظير هذا من النحو : هذا رجلٌ مع رجل ملازمٌ له ، وإن شئت قلت : هذا رجلٌ مع رجلٍ ملازمٍ له هو .

وهذه الآية تضمنت قصتين : إحداهما — الأدب في أمر الطعام والجلوس . والثانية — أمر الحجاب . وقال حماد بن زيد : هذه الآية نزلت في الثقلاء . فأما القصة الأولى فالجمهور

من المفسرين على أن سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب بنت جحش امرأة زيد أولم عليها ، فدعا الناس ، فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته مولّية وجهها إلى الحائط ، فثقلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أنس : فما أدرى أأنا أخبرت النبيّ صلى الله عليه وسلم أن القوم قد خرجوا أو أخبرنى . قال : فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بينى وبينه ونزل الحجاب . قال : ووعظ القومَ بما وُعظوا به ، وأنزل الله عز وجل « يأيُّها الَّذين آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيّ — إلى قوله — إن ذَلِكُمْ كان عِنْدَ اللهِ عظِيماً » أخرجه الصحيح . وقال قتادة ومقاتل فى كتاب الثعلبىّ : إن هذا السبب جرى فى بيت أم سلمة . والأول الصحيح ، كما رواه الصحيح . وقال ابن عباس : نزلت فى ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبىّ صلى الله عليه وسلم فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، فيقعدون إلى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون . وقال إسماعيل بن أبى حكيم : وهذا أدب أدّب الله به الثقلاء . وقال ابن أبى عائشة فى كتاب الثعلبىّ : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم . وأما قصة الحجاب فقال أنس بن مالك وجماعة : سببها أمر القعود فى بيت زينب ؛ القصة المذكورة آنفا . وقالت عائشة رضى الله عنها وجماعة : سببها أن عمر قال قلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهنّ البَرّ والفاجر، فلو أمرتهنّ أن يحتجبن ؛ فنزلت الآية . وروى الصحيح عن ابن عمر قال : قال عمر وافقت ربى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم، وفى الحجاب، وفى أسارى بدر . هذا أصح ما قيل فى أمر الحجاب ، وما عدا هذين القولين من الأقوال والروايات فواهية ، لا يقوم شىء منها على ساق ، وأضعفها ما روى عن ابن مسعود أن عمر أمر نساء النبىّ صلى الله عليه وسلم بالحجاب، فقالت زينب بنت جحش : يابن الخطاب ، إنك تغار علينا والوحى ينزل فى بيوتنا ! فأنزل الله تعالى « وإذا سألتموهُنّ متاعاً فاسألوهنّ من وراءِ حِجابٍ » وهذا باطل ؛ لأن الحجاب نزل يوم البناء بزينب ، كما بيناه . أخرجه البخارىّ ومسلم والترمذى وغيرهم . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يَطْعَم ومعه بعض

أصحابه، فأصاب يدُ رجل منهم يدَ عائشة، فكره النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت آية الحجاب.
قال ابن عطية : وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونُضجه . وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك ؛ فنهى الله المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم، ودخل في النهي سائر المؤمنين، والتزم الناس أدب الله تعالى لهم في ذلك، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل، لا قبله لانتظار نُضْج الطعام .

الثانيــــة — في قوله تعالى : ﴿ بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ دليل على أن البيت للرجل ، ويحكم له به؛ فإن الله تعالى أضافه إليه . فإن قيل : فقد قال الله تعالى : «وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا»(1) قلنا : إضافة البيوت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم إضافة ملك ، وإضافةُ البيوت إلى الأزواج إضافة محل ؛ بدليل أنه جعل فيها الإذن للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ والإذن إنما يكون للمالك

الثالثـــة — واختلف العلماء في بيوت النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ كان يسكن فيها أهله بعد موته، هل هي ملك لهنّ أم لا، على قولين : فقالت طائفة : كانت ملكا لهنّ ؛ بدليل أنهن سكنّ فيها بعد موت النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى وفاتهنّ، وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم وهب ذلك لهنّ في حياته . الثـاني — أن ذلك كان إسكانا كما يُسكن الرجل أهله ولم يكن هبة ، وتمـادى سكناهنّ بها إلى الموت . وهذا هو الصحيح، وهو الذى ارتضاه أبو عمر بن عبدالبر وابن العربيّ وغيرهم؛ فإن ذلك من مؤونتهنّ التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم استثناها لهنّ، كما استثنى لهنّ نفقاتهنّ حين قال : " لا تقتسم ورثتي دينارا ولا درهما ، ما تركت بعـد نفقة أهـلي ومؤونة عاملي فهو صدقة " . هكذا قال أهـل العلم، قالوا : ويدل على ذلك أن مساكنهنّ لم يرثها عنهنّ ورثتهنّ . قالوا : ولو كان ذلك ملكا لهنّ كان لا شك قد ورثه عنهنّ ورثتهنّ . قالوا : وفي ترك ورثتهنّ ذلك دليـل على أنها لم تكن لهنّ ملكا، وإنمـا كان لهنّ

---

(1) آية ٣٤ من هذه السورة .

سكنى حياتهن؛ فلما توفين جعل ذلك زيادة فى المسجد الذى يعم المسلمين نفعه؛ كما جعل ذلك الذى كان لهن من النفقات فى تركة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مضين لسبيلهن، فزيد إلى أصل المال فصرف فى منافع المسلمين مما يعم جميعهم نفعه . والله الموفق .

قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ أى غير منتظرين وقت نضجه . و « إناه » مقصور، وفيه لغات : « إِنًى » بكسر الهمزة . قال الشيبانى :

وكِسْرَى إذ تقسّمه بَنُوه * بأسياف كما اقتُسِمَ اللِّحام

تمخّضت المَنُونُ له بيوم * أَنَى(١) ولكل حاملة تِمام

وقرأ ابن أبى عبلة « غيرِ ناظرين إناه » مجرورا صفة لـ « طعام » . الزمخشرى : وليس بالوجه؛ لأنه جرى على غير ما هو له؛ فمن حق ضميرِ ما هو له أن يبرز إلى اللفظ؛ فيقال : غيرِ ناظرين إناه أنتم، كقولك : هند زيدٌ ضاربته هى . وأَنى (بفتحها)، وأَناء (بفتح الهمزة والمد) قال الحطيئة :

وآنيت العَشاء إلى سُهَيل * أو الشِّعْرى فطال بِيَ الأَناءُ

يعنى إلى طلوع سهيل . و إناه مصدر أنى الشيء يأنى إذا فرغ وحان وأدرك .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ فأكّد المنع وخصّ وقت الدخول بأن يكون عند الإذن على جهة الأدب، وحفظ الحضرة الكريمة من المباسطة المكروهة . قال ابن العربى : وتقدير الكلام : ولكن إذا دعيتم وأذن لكم فى الدخول فادخلوا؛ و إلا فنفس الدعوة لا تكون إذنا كافيا فى الدخول . والفاء فى جواب « إذا » لازمة لما فيها من معنى المجازاة .

الخامسة ــ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ أمر تعالى بعد الإطعام بأن يتفرق جميعهم وينتشروا . والمراد إلزام الخروج من المنزل عند انقضاء المقصود من الأكل . والدليل على ذلك أن الدخول حرام؛ و إنما جاز لأجل الأكل، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح وعاد التحريم إلى أصله .

---

(١) « أنى » هنا فعل ماض؛ بمعنى أدرك وبلغ؛ كما فى اللسان وشرح القاموس .

السادسة — فى هذه الآية دليل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف لا على ملك نفسه ؛ لأنه قال : « فإذا طَعِمتم فانتشروا » فلم يجعل له أكثر من الأكل ، ولا أضاف إليهم سواه ، وبقى الملك على أصله .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ عطفٌ على قوله : « غَيْرَ نَاظِرِينَ » ؛ و « غير » منصوبة على الحال من الكاف والميم فى « لكم » أى غير ناظرين ولا مستأنسين ؛ والمعنى المقصود : لا تمكثوا مستأنسين بالحديث كما فعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وليمة زينب . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ أى لا يمتنع من بيانه وإظهاره . ولما كان ذلك يقع من البشر لعلة الاستحياء نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك فى البشر . وفى الصحيح عن أم سلمة قالت : جاءت أم سليم إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيى من الحق ، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأت الماء " .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا ﴾ الآية . روى أبو داود الطيالسى عن أنس بن مالك قال قال عمر : وافقت ربى فى أربع ... ؛ الحديث . وفيه : قلت يا رسول الله ، لو ضربتَ على نسائك الحجاب ، فإنه يدخل عليهن البرّ والفاجر ، فأنزل الله عز وجل « وإذا سألتموهنّ متاعًا فاسألوهن من وراء حجاب » .

واختلف فى المتاع ؛ فقيل : ما يتمتع به من العوارى[1] . وقيل فتوى . وقيل صحف القرآن . والصواب أنه عام فى جميع ما يمكن أن يطلب من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا .

التاسعة — فى هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن فى مسألتهنّ من وراء حجاب فى حاجة تَعرِض ، أو مسألة يُستفتين فيها ؛ ويدخل فى ذلك جميع النساء بالمعنى ، وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة ، بدنها وصوتها ؛ كما تقدم ، فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة كالشهادة عليها ، أو داء يكون ببدنها ، أو سؤالها عما يعرض وتعين عندها .

(١) العوارى : جمع العارية ، ما تداولوه بينهم

العاشرة ـ استدل بعض العلماء بأخذ الناس عن أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم من وراء حجاب على جواز شهادة الأعمى، وبأن الأعمى يطأ زوجته بمعرفته بكلامها. وعلى إجازة شهادته أكثرُ العلماء، ولم يجزها أبو حنيفة والشافعيّ وغيرهما. قال أبو حنيفة: تجوز في الأنساب. وقال الشافعيّ: لا تجوز إلا فيما رآه قبل ذهاب بصره.

الحادية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يريد من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال؛ أي ذلك أنفى للريبة وأبعد للتهمة وأقوى في الحماية. وهذا يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له؛ فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته.

الثانية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ الآية. هذا تكرار للعلة وتأكيد لحكمها؛ وتأكيد العلل أقوى في الأحكام.

الثالثة عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ روى إسماعيل ابن إسحاق قال حدثنا محمد بن عبيد قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة أن رجلا قال: لو قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجت عائشة؛ فأنزل الله تعالى: «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ» الآية. ونزلت «وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ». وقال القُشيري أبو نصر عبد الرحيم: قال ابن عباس قال رجل من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حراء ـ في نفسه ـ لو تُوُفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوجت عائشة؛ وهي بنت عمي. قال مقاتل: هو طلحة بن عبيد الله. قال ابن عباس: وندم هذا الرجل على ما حدّث به في نفسه، فمشى إلى مكة على رجليه وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله، وأعتق رقيقا فكفّر الله عنه. وقال ابن عطية: روي أنها نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال: لو مات رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوجت عائشة؛ فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فتأذى به؛ هكذا كنّى عنه ابن عباس ببعض الصحابة. وحكى مكيّ عن معمر أنه قال: هو طلحة بن عبيد الله.

قلت : وكذا حكى النحاس عن معمر أنه طلحة؛ ولا يصح . قال ابن عطية : لله درّ ابن عباس ! وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله . قال شيخنا الإمام أبو العباس : وقد حُكي هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة ، وحاشاهم عن مثله ! والكذب في نقله؛(١) وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال . يروى أن رجلا من المنافقين قال حين تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بعد أبي سلمة وحفصة بعد خُنَيس بن حُذافة: ما بال محمد يتزوج نساءنا! والله لو قدمات لأجلْنا السهام على نسائه؛ فنزلت الآية في هذا، فحرم الله نكاح أزواجه من بعده ، وجعل لهن حكم الأمهات . وهذا من خصائصه تمييزاً لشرفه وتنبيها على مرتبته صلى الله عليه وسلم . قال الشافعي رحمه الله : وأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتي مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن، ومن استحل ذلك كان كافرا؛ لقوله تعالى : « وما كان لكم أن تؤذوا رسولَ اللهِ ولا أن تنكِحوا أزواجَه مِن بعدِه أبدًا » . وقد قيل : إنما منع من التزوج بزوجاته ؛ لأنهن أزواجه في الجنة ، وأن المرأة في الجنة لآخر أزواجها . قال حذيفة لامرأته : إن سرّك أن تكوني زوجتي في الجنة إن جمعنا الله فيها فلا تزوّجي من بعدي؛ فإن المرأة لآخر أزواجها . وقد ذكرنا ما للعلماء في هذا في (كتاب التذكرة) من أبواب الجنة .

الرابعة عشرة — اختلف العلماء في أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد موته؛ هل بقين أزواجا أم زال النكاح بالموت ، وإذا زال النكاح بالموت فهل عليهن عدة أم لا ؟ فقيل : عليهن العدة ؛ لأنه تُوُفّي عنهن ، والعدة عبادة . وقيل : لا عدة عليهن ؛ لأنها مدة تربص لا ينتظر بها الإباحة . وهو الصحيح ؛ لقوله عليه السلام : " ما تركت بعد نفقة عيالي " وروى " أهلي " وهذا اسم خاص بالزوجية ؛ فأبقى عليهن النفقة والسكنى مدة حياتهن لكونهن نساءه، وحرمن على غيره؛ وهذا هو معنى بقاء النكاح . وإنما جعل الموت في حقه عليه السلام لهن بمنزلة المغيب في حق غيره ؛ لكونهن أزواجا له في الآخرة قطعا بخلاف سائر

(١) في نسخة : « وحاشاكم عن مثله ... وإنما ... والكذب في نقله » وموضع النقط في الأصل بياض . وفي أخرى : « وحاشاهم عن مثله وإنما والكذب في نقله » .

الناس ؛ لأن الرجل لا يعلم كونه مع أهله فى دار واحدة ؛ فربما كان أحدهما فى الجنة والآخر فى النار ؛ فبهذا انقطع السبب فى حق الخلق وبقى فى حق النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وقد قال عليه السلام : " زوجاتى فى الدنيا هن زوجاتى فى الآخرة " . وقال عليه السلام : " كل سبب ونسب ينقطع إلا سببى ونسبى فإنه باق إلى يوم القيامة " .

فرع : فأما زوجاته عليه السلام اللاتى فارقهن فى حياته مثل الكلْبية وغيرها ؛ فهل كان يحل لغيره نكاحهن ؟ فيه خلاف . والصحيح جواز ذلك ؛ لما روى أن الكلبية التى فارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها عكرمة بن أبى جهل على ما تقدم . وقيل : إن الذى تزوجها الأشعث بن قيس الكندى . قال القاضى أبو الطيب : الذى تزوجها مهاجر بن أبى أمية ، ولم ينكر ذلك أحد ؛ فدلّ على أنه إجماع .

الخامسة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ يعنى إذاية رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نكاح أزواجه ؛ فجعل ذلك من جملة الكبائر ولا ذنب أعظم منه .

السادسة عشرة ــ قد بينا سبب نزول الحجاب من حديث أنس وقول عمر ، وكان يقول لسَودة إذا خرجت وكانت امرأة طويلة : قد رأيناك يا سودة ، حرصا على أن ينزل الحجاب ؛ فأنزل الله آية الحجاب . ولا بُعْد فى نزول الآية عند هذه الأسباب كلها ــ والله أعلم ــ بَيْدَ أنه لما ماتت زينب بنت جحش قال : لا يشهد جنازتها إلا ذو محرم منها ؛ مراعاةً للحجاب الذى نزل بسببها . فدلته أسماء بنت عميس على سترها فى النعش فى القُبّة ، وأعلمته أنها رأت ذلك فى بلاد الحبشة فصنعه عمر . وروى أن ذلك صُنع فى جنازة فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٥٤)

البارئ سبحانه وتعالى عالم بما بدا وما خفى وما كان وما لم يكن ؛ لا يخفى عليه ماض تقضّى ولا مستقبلٌ يأتى . وهذا على العموم تمدّح به ، وهو أهل المدح والحمد . والمراد به هاهنا التوبيخ والوعيد لمن تقدّم التعريض به فى الآية قبلها ، ممن أشير إليه بقوله : « ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ » ، ومن أشير إليه فى قوله : « وما كان لكم أن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ

تنكحوا أزواجهُ من بعدهِ أبدا » فقيل لهم فى هذه الآية : إن الله تعالى يعلم ماتخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة ويجازيكم عليها . فصارت هذه الآية منعطفة[1] على ماقبلها مبينة لها . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية .

الثانيـة — ذكر الله تعالى فى هذه الآية من يحلّ للمرأة البروزُ له ، ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين . وقد يسمى العم أبا؛ قال الله تعالى: « نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ[2] » وإسماعيل كان العم . قال الزجاج : العم والخال ربما يصفان المرأة لولديهما؛ فان المرأة تحل لابن العم وابن الخال فكره لهما الرؤية . وقد كره الشعبي وعكرمة أن تضع المرأة خمارها عند عمها أو خالها . وقد ذكر فى هذه الآية بعض المحارم وذكر الجميع فى سورة «النور»، فهذه الآية بعض تلك، وقد مضى الكلام هنالك مستوفى[3]، والحمد لله .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ لما ذكر الله تعالى الرخصة فى هذه الأصناف وانجزمت الإباحة، عطف بأمرهن بالتقوى عطف جملة . وهذا فى غاية البلاغة والإيجاز؛ كأنه قال : اقتصرن على هذا واتقين الله فيه أن تتعدينه إلى غيره . وخص النساء بالذكر وعينهن فى هذا الأمر، لقلة تحفظهن وكثرة استرسالهن . والله أعلم . ثم توعد تعالى بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ .

---

(١) فى بعض نسخ الأصل وابن العربي « منتظمة » . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٨ طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ٢٢٦

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

هذه الآية شرّف الله بها رسولَه عليه السلام حياتَه وموتَه ، وذكر منزلته منه ، وطهّر بها سوء فعل من استصحب فى جهته فكرة سوء، أو فى أمر زوجاته ونحو ذلك . والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره .

مسألة ــ واختلف العلماء فى الضمير فى قوله « يُصَلُّونَ » فقالت فرقة : الضمير فيه لله والملائكة ؛ وهذا قولٌ من الله تعالى شرّف به ملائكته ، فلا يصحبه الاعتراض الذى جاء فى قول الخطيب : من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوَى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بئس الخطيب أنت قل ومن يعص الله ورسوله " أخرجه الصحيح . قالوا : لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره فى ضمير، ولله أن يفعل فى ذلك ما يشاء . وقالت فرقة : فى الكلام حذف؛ تقديره إن الله يصلى وملائكته يصلون؛ وليس فى الآية اجتماع فى ضمير، وذلك جائز للبشر فعله . ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم " بئس الخطيب أنت " لهذا المعنى، وإنما قاله لأن الخطيب وقف على ومن يعصهما، وسكت سكتة. واستدلوا بما رواه أبو داود عن عدىّ بن حاتم أن خطيبا خطب عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله ومن يعصهما . فقال : " قم ــ أو اذهب ــ بئس الخطيب أنت" . إلا أنه يحتمل أن يكون لما خطأه فى وقفه وقال له : "بئس الخطيب" أصلح له بعد ذلك جميع كلامه، فقال : " قل ومن يعص الله ورسوله " كما فى كتاب مسلم . وهو يؤيّد القول الأوّل بأنه لم يقف على «ومن يعصهما » . وقرأ ابن عباس « وملائكتُه » بالرفع على موضع اسم الله قبل دخول « إنّ » . والجمهور بالنصب عطفا على المكتوبة .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا» أمر الله تعالى عباده بالصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم دون أنبيائه تشريفا له ، ولا خلاف فى أن

الصلاة عليه فرض في العمر مرة ، وفي كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ولا يغفلها إلا من لا خير فيه . الزَّمَخْشَرِيّ : فان قلت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة أم مندوب إليها ؟ قلت : بل واجبة . وقد اختلفوا في حال وجوبها؛ فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره . وفي الحديث : "من ذُكرت عنده فلم يصل عليّ فدخل النار فأبعده الله". ويروى أنه قيل له : يا رسول الله، أرأيت قول الله عز وجل : «إن الله وملائكته يصلّون على النبيّ» فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "هذا من العلم المكنون ولولا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم به إن الله تعالى وكل بي ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلي عليّ إلا قال ذلك الملكان غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جوابا لذينك المَلَكين آمين . ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلّي عليّ إلا قال ذلك الملكان لا غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته لذينك الملكين آمين" . ومنهم من قال : تجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره؛ كما قال في آية السجدة وتشميت العاطس . وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره ومنهم من أوجبها في العمر . وكذلك قال في إظهار الشهادتين . والذي يقتضيه الاحتياط : الصلاة عند كل ذكر؛ لما ورد من الأخبار في ذلك .

الثانيــة — واختلفت الآثار في صفة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ؛ فروى مالك عن أبي مسعود الأنصاريّ قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مجلس سعد ابن عبادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلّي عليك يا رسول الله، فكيف نصلّي عليك؟ قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم" . ورواه النسائيّ عن طلحة مثله، بإسقاط قوله : "في العالمين" وقوله : "والسلام كما قد علمتم" . وفي الباب عن كعب بن عُجْرة وأبي حميد الساعدي وأبي سعيد الخُدْريّ وعليّ بن أبي طالب وأبي هريرة وبُريدة الخزاعيّ وزيد بن خارجة،

ويقال ابن حارثة . أخرجها أئمة أهل الحديث فى كتبهم . وصحح الترمذى حديث كعب ابن عُجرة . خرّجه مسلم فى صحيحه مع حديث أبى حميد الساعدى . قال أبو عمر : روى شُعبة والثورى عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن كعب بن عُجْرة قال : لما نزل قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً » جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة؟ فقال : "قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد " وهذا لفظ حديث الثورى لا حديث شعبة ، وهو يدخل فى التفسير المسند إليه لقول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً » فبيّن كيف الصلاة عليه وعلمهم فى التحيات كيف السلام عليه ، وهو قوله : " السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته " . وروى المسعودى عن عَوْن ابن عبد الله عن أبى فاختة عن الأسود عن عبد الله أنه قال : إذا صليتم على النبى صلى الله عليه وسلم فأحسنوا الصلاة عليه ؛ فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه ، قالوا فعلّمنا ؛ قال : " قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيّد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ونبيّك ورسولك إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة . اللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد " . ورويناه بالإسناد المتصل فى كتاب (الشفا) للقاضى عياض عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : عدّهن فى يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " عدّهن فى يدى جبريل وقال هكذا أنزلت من عند رب العزة اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم وترحم على محمد وعلى آل محمد كما ترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم وتحنّن على محمد

وعلى آل محمد كما تحننت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » . قال ابن العربي : من هذه الروايات صحيح ومنها سقيم ، وأصحها ما رواه مالك فاعتمدوه . ورواية غير مالك من زيادة الرحمة مع الصلاة وغيرها لا يقوى ، وإنما على الناس أن ينظروا فى أديانهم نظرهم فى أموالهم ، وهم لا يأخذون فى البيع دينارا معيبا ، وإنما يختارون السالم الطيب ؛ كذلك لا يؤخذ من الروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم سنده ، لئلا يدخل فى حيز الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فبينما هو يطلب الفضل إذا به قد أصاب النقص ، بل ربما أصاب الخسران المبين .

الثالثة — فى فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا » . وقال سهل بن عبد الله : الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم أفضل العبادات ؛ لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته ، ثم أمر بها المؤمنين ؛ وسائر العبادات ليس كذلك . قال أبو سليمان الداراني : من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يسأل الله حاجته ، ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإن الله تعالى يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يرد ما بينهما . وروى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : الدعاء يحجب دون السماء حتى يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا جاءت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم رفع الدعاء ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من صلى علي فى كتاب لم تزل الملائكة يصلون عليه ما دام اسمي فى ذلك الكتاب » .

الرابعة — واختلف العلماء فى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ؛ فالذي عليه الجم الغفير والجمهور الكثير أن ذلك من سنن الصلاة ومستحباتها . قال ابن المنذر : يستحب ألا يصلي أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان ترك ذلك تارك فصلاته مجزية فى مذهب مالك وأهل المدينة وسفيان الثوري وأهل الكوفة من أصحاب الرأى وغيرهم . وهو قول جل أهل العلم . وحكي عن مالك وسفيان أنها فى التشهد الأخير

مستحبة ، وأن تاركها فى التشهد مسىء . وشـذ الشافعىّ فأوجب على تاركها فى الصلاة الإعادة . وأوجب إسحاق الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان . وقال أبو عمر : قال الشافعىّ إذا لم يصلّ على النبىّ صلى الله عليه وسلم فى التشهد الأخير بعد التشهد وقبل التسليم أعاد الصلاة . قال : وإن صلّى عليه قبل ذلك لم تجزه . وهذا قول حكاه عنه حَرْمَلة بن يحيى ، لا يكاد يوجد هكذا عن الشافعىّ إلا من رواية حَرْملة عنه ، وهو من كبار أصحابه الذين كتبوا كتبه . وقد تقلّده أصحاب الشافعىّ ومالوا إليه وناظروا عليه ، وهو عندهم تحصيل مذهبه . وزعم الطحاوىّ أنه لم يقل به أحد من أهل العلم غيره . وقال الخطابى وهو من أصحاب الشافعى : وليست بواجبة فى الصلاة ، وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعىّ ، ولا أعلم له فيها قدوة . والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عمل السلف الصالح قبل الشافعىّ وإجماعهم عليه ، وقد شُنّع عليه فى هذه المسألة جدا . وهذا تشهد ابن مسعود الذى اختاره الشافعىّ وهو الذى علّمه النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ليس فيه الصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كل من روى التشهد عنه صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عمر : كان أبو بكر يعلّمنا التشهد على المنبر كما تعلّمون الصبيان فى الكُتّاب . وعلمه أيضا على المنبر عمر ، وليس فيه ذكر الصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم .

قلت : قد قال بوجوب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة محمد بن المَوّاز من أصحابنا فيما ذكر ابن القَصّار وعبد الوهاب ، واختاره ابن العربىّ للحديث الصحيح : إن الله أمرنا أن نصلّى عليك فكيف نصلّى عليك ؟ فعلم الصلاة ووقتها فتعينت كيفية ووقتا . وذكر الدّارَقُطْنِىّ عن أبى جعفر محمد بن علىّ بن الحسين أنه قال : لو صلّيتُ صلاة لم أصلّ فيها على النبىّ صلى الله عليه وسلم ولا على أهل بيته لرأيت أنها لا تتم . وروى مرفوعا عنه عن ابن مسعود عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . والصواب أنه قول أبى جعفر ؛ قاله الدّارَقُطْنِىّ .

الخامسة ــ قوله تعالى : ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ قال القاضى أبو بكر بن بكير : نزلت هذه الآية على النبى صلى الله عليه وسلم فأمر الله أصحابه أن يسلّموا عليه ؛ وكذلك من بعدهم أُمِروا

أن يسلموا عليه عند حضورهم قبره وعند ذكره . وروى النسائي عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبِشر يرى في وجهه ، فقلت : إنا لنرى البشرى في وجهك ! فقال : " إنه أتاني الملك فقال يا محمد إن ربك يقول أما يُرضيك أنه لا يصلّي عليك أحد إلا صلّيتُ عليه عشرا ولا يسلّم عليك أحد إلا سلّمتُ عليه عشرا " . وعن محمد بن عبد الرحمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما منكم من أحد يسلم عليّ إذا مت إلا جاءني سلامه مع جبريل يقول يا محمد هذا فلان بن فلان يقرأ عليك السلام فأقول وعليه السلام ورحمة الله وبركاته " وروى النسائي عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لله ملائكة سيّاحين في الأرض يبلّغوني من أمتي السلام". قال القشيري : والتسليم قولك سلام عليك .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ـ اختلف العلماء في إذاية الله بماذا تكون ؛ فقال الجمهور من العلماء : معناه بالكفر ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه ، ووصفه بما لا يليق به ؛ كقول اليهود لعنهم الله : وقالت اليهود يد الله مغلولة . والنصارى : المسيح ابن الله . والمشركون : الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه . وفي صحيح البخاري قال الله تعالى : " كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك ..." الحديث وقد تقدّم في سورة «مريم»[1] . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال الله تبارك وتعالى : " يؤذيني ابن آدم يقول يا خيبة الدهر فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أقلّب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما " . هكذا جاء هذا الحديث موقوفا على أبي هريرة في هذه الرواية . وقد جاء مرفوعا عنه " يؤذيني ابن آدم "

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٩

تسبّ الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار " أخرجه أيضا مسلم . وقال عكرمة : معناه بالتصوير والتعرض لفعل مالا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لعن الله المصورين " . قلت : وهذا مما يقوى قول مجاهد فى المنع من تصوير الشجر وغيرها ؛ إذ كل ذلك صفة اختراع وتشبه بفعل الله الذى انفرد به سبحانه وتعالى . وقد تقدم هذا فى سورة « النمل »(1) والحمد لله . وقالت فرقة : ذلك على حذف مضاف، تقديره : يؤذون أولياء الله . وأما إذاية رسوله صلى الله عليه وسلم فهى كل ما يؤذيه من الأقوال فى غير معنًى واحد ، ومن الأفعال أيضا . أما قولهم : « فساحر شاعر كاهن مجنون . وأما فعلهم : فكسر رَبَاعيته وشج وجهه يوم أحد ، وبمكة إلقاء السَّلَى على ظهره وهو ساجد » إلى غير ذلك . وقال ابن عباس : نزلت فى الذين طعنوا عليه حين اتخذ صفية بنت حُيَيّ . وأطلق إيذاء الله ورسوله وقيّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات ؛ لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبدا . وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ومنه .

الثانيــة ــ قال علماؤنا : والطعن فى تأمير أسامة بن زيد إذايةٌ له عليه السلام . روى الصحيح عن ابن عمر قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثًا وأمّر عليهم أسامة ابن زيد فطعن الناس فى إمرته فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إن تَطْعَنُوا فى إمرته فقد كنتم تطعنون فى إمرة أبيه من قبلُ وَايْمُ الله إن كان لخليقا للإمارة وإن كان لمن أحبّ الناس إلىّ وإن هذا لمن أحب الناس إلىّ بعده " . وهذا البعث ــ والله أعلم ــ هو الذى جهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أسامة وأمّره عليهم وأمره أن يغزو «أُبْنَى» وهى القرية التى عند مُؤْتَة ، الموضع الذى قُتل فيه زيد أبوه مع جعفر بن أبى طالب وعبد الله ابن رَوَاحة . فأمره أن يأخذ بثأر أبيه فطعن من فى قلبه ريب فى إمرته ؛ من حيث إنه كان من الموالى، ومن حيث إنه كان صغير السنّ ؛ لأنه كان إذ ذاك ابن ثمان عشرة سنة ؛ فمات النبىّ صلى الله عليه وسلم وقد برز هذا البعث عن المدينة ولم ينفصل بعدُ عنها، فنفذه أبو بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(1) راجع جـ ١٣ ص ٣٢١

الثالثـــة — فى هذا الحديث أوضح دليـل على جواز إمامة المولى والمفضول على غيرهما ما عدا الإمامة الكبرى . وقـدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم سالمـا مولى أبى حُذيفة على الصلاة بقُبَاء ، فكان يؤمّهم وفيهم أبو بكر وعمر وغيرهم من كبراء قريش . وروى الصحيح عن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحـارث لقى عمر بعُسْفان، وكان عمـر يستعمله على مكة فقال : من استعملت على هذا الوادى ؟ قال : آبن أبزى . قال : ومن آبن أبْزى ؟ قال : مَوْلًى من موالينا . قال : فآستخلفت عليهم مَوْلًى ! قال : إنه لقارئ لكتاب الله و إنه لعالم بالفرائض — قال — أما إن نبيكم قد قال: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما و يضع به آخرين" .

الرابعـــة — كان أسامة رضى الله عنـه الحِب بن الحِبّ وبذلك كان يُدْعَى ، وكان أسودَ شديدَ السواد، وكان زيد أبوه أبيض من القطن . هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح . وقال غير أحمد: كان زيد أزهرَ اللون وكان أسامة شديدَ الأُدْمَة . ويروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يُحَسّن أسامة وهو صغير ويمسح مخاطه، وينقّى أنفه ويقول : " لو كان أسامة جارية لزيّنّاه وجهزناه وحبّبناه إلى الأزواج" . وقد ذكر أن سبب ارتداد العرب بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أنه لمـا كان عليه السلام فى حَجّة الوداع بجبل عرفة عشيّةَ عرفة عند النَّفْر ، آحتبس النبيّ صلى الله عليه وسـلم قليلا بسبب أسامة إلى أن أتاه ؛ فقـالوا : ما آحتبس إلا لأجل هذا؛ تحقيرا له . فكان قولهم هـذا سبب ارتدادهم . ذكره البخارىّ فى التاريخ بمعناه . والله أعلم .

الخامســـة — كان عمر رضى الله عنه يفرض لأسامة فى العطاء خمسة آلاف ، ولابنه عبد الله ألفين؛ فقال له عبد الله: فضّلت علىّ أسامة وقد شهدتُ مالم يشهد! فقال : إن أسامة كان أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك، وأباه كان أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك؛ ففضل رضى الله عنه محبوبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على محبوبه . وهكذا يجب أن يُحَبّ ما أحبّ رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ويُبْغَض مَن أبغض . وقد قابل مَرْوان هذا الحبّ بنقيضه ؛ وذلك أنه مرّ بأسامة بن زيد وهو يصلى عند باب بيت

النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له مروان : إنما أردت أن نرى مكانك ، فقد رأينا مكانك ، فعل الله بك ! وقال قولا قبيحا[1] . فقال له أسامة : إنك آذيتني ، وإنك فاحش متفحّش ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى يبغض الفاحش المتفحش " . فانظر ما بين الفعلين وقس ما بين الرجلين ، فقد آذى بنو أمية النبيّ صلى الله عليه وسلم في أحبابه وناقضوه في محابه .

قوله تعالى : ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ معناه أبعدوا من كل خير . واللعن في اللغة : الإبعاد ، ومنه اللّعان . ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ تقدّم معناه في غير موضع . والحمد لله رب العالمين .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾

إذاية المؤمنين والمؤمنات هي أيضا بالأفعال والأقوال القبيحة ؛ كالبهتان والتكذيب الفاحش المختلق . وهذه الآية نظير الآية التي في النساء : « وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا »[2] كما قال هنا . وقد قيل : إن من الإذاية تعييره بحسب مذموم ، أو حرفة مذمومة ، أو شيء يثقل عليه إذا سمعه ؛ لأن أذاه في الجملة حرام . وقد ميّز الله تعالى بين أذاه وأذى الرسول وأذى المؤمنين فجعل الأوّل كفرا والثاني كبيرة ؛ فقال في أذى المؤمنين ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ وقد بيّناه . وروى أن عمر بن الخطاب قال لأبيّ بن كعب : قرأت البارحة هذه الآية ففزعت منها « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا » الآية ، والله إني لأضربهم وأنهرهم . فقال له أبيّ : يا أمير المؤمنين ، لست منهم ، إنما أنت معلم ومقوّم . وقد قيل : إن سبب نزول هذه الآية أن عمر رأى جارية من الأنصار فضربها وكره ما رأى من زينتها ، فخرج أهلها فآذوا عمر باللسان ؛ فأنزل الله هذه الآية . وقيل : نزلت في عليّ ؛ فإن المنافقين كانوا يؤذونه ويكذبون عليه . رضي الله عنه .

(١) في الأصول : « وفعل قولا ... » . (٢) آية ١١٢

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ ﴾ قد مضى الكلام في تفضيل أزواجه واحدة واحدة[1] . قال قتادة : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تسع ، خمس من قريش : عائشة، وحفصة، وأم حبيبة ، وسَوْدة ، وأم سلمة . وثلاث من سائر العرب : ميمونة، وزينب بنت جحش ، وجُوَيْرِيَة . وواحدة من بني هارون : صفية . وأما أولاده فكان للنبيّ صلى الله عليه وسلم أولاد ذكور وإناث .

فالذكور من أولاده : القاسم ، أمّه خديجة ، وبه كان يُكْنَى صلى الله عليه وسلم ، وهو أوّل من مات من أولاده ، وعاش سنتين . وقال عروة : ولدت خديجة للنبيّ صلى الله عليه وسلم القاسم والطاهر وعبد الله والطيب . وقال أبو بكر البَرْقي[2] : ويقال إن الطاهر هو الطيب وهو عبد الله . وإبراهيم أمه مارِيَة القبطية ، ولد في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة ، وتوفي ابن ستة عشر شهرا ، وقيل ثمانية عشر ؛ ذكره الدَّارَقُطْنِيّ . ودُفِن بالبَقِيع . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن له مرضعا تُتِمّ رضاعه في الجنة " . وجميع أولاد النبيّ صلى الله عليه وسلم من خديجة سوى إبراهيم . وكل أولاده ماتوا في حياته غير فاطمة .

وأما الإناث من أولاده فمنهنّ : فاطمة الزهراء بنت خديجة، ولدتها وقريش تبني البيت قبل النبوّة بخمس سنين، وهي أصغر بناته ، وتزوّجها عليّ رضي الله عنهما في السنة الثانية من الهجرة في رمضان ، وبنى بها في ذي الحجة . وقيل : تزوّجها في رجب ، وتوفّيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بيسير، وهي أوّل من لحقه من أهل بيته . رضي الله عنها .

---

(١) راجع ص ١٦٢ وما بعدها من هذا الجزء . (٢) في نسخة من الأصل : «البرقي» .

ومنهن : زينب — أمها خديجة — تزوجها آبن خالتها أبو العاصى بن الربيع ، وكانت أم العاصى هالة بنت خويلد أخت خديجة . وآسم أبى العاصى لَقِيط . وقيل هاشم ، وقيل هُشيم . وقيل مِقْسم . وكانت أكبر بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفيت سنة ثمان من الهجرة ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبرها .

ومنهن : رُقيّة — أمها خديجة — تزوجها عتبة بن أبى لَهَب قبل النبوّة ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » قال أبو لهب لابنه : رأسى من رأسك حرام إن لم تطلّق آبنته ؛ ففارقها ولم يكن بَنَى بها . وأسلمت حين أسلمت أمها خديجة ، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم هى وأخواتها حين بايعه النساء ، وتزوجها عثمان بن عفان ، وكانت نساء قريش يقلن حين تزوجها عثمان :

أحسنُ شخصين رأى إنسانُ * رقيـةٌ وبعلها عثمانُ

وهاجرت معه إلى أرض الحبشة الهجرتين ، وكانت قد أسقطت من عثمان سقطا(١) ، ثم ولدت بعد ذلك عبد الله ، وكان عثمان يُكْنَى به فى الإسلام ، وبلغ ستّ سنين فنقره ديك فى وجهه فمات ، ولم تلد له شيئا بعد ذلك . وهاجرت إلى المدينة ومرضت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهّز إلى بدر فخلف عثمانَ عليها ، فتوفيت ورسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ، على رأس سبعة عشر شهرا من الهجرة . وقدم زيد بن حارثة بشيرا من بدر ، فدخل المدينة حين سوّى التراب على رُقيّة . ولم يشهد دفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهن : أم كلثوم — أمها خديجة — تزوجها عُتيبة بن أبى لهب — أخو عتبة — قبل النبوّة ، وأمره أبوه أن يفارقها للسبب المذكور فى أمر رقية ، ولم يكن دخل بها ، فلم تزل بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأسلمت حين أسلمت أمها ، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أخواتها حين بايعه النساء ، وهاجرت الى المدينة حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما توفيت رقية تزوجها عثمان ، وبذلك سمى ذا النُّورَيْن . وتوفيت

(١) السقط : بتثليث السين ، والكسر أكثر .

فى حياة النبىّ صلى الله عليه وسلم فى شعبان سنة تسع من الهجرة . وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرها؛ ونزل فى حفرتها علىّ والفضل وأسامة . وذكر الزبير بن بكار أن أكبر ولد النبىّ صلى الله عليه وسلم: القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، وكان يقال له الطيّب والطاهر، وولد بعد النبوة ومات صغيرا . ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية . فات القاسم بمكة ثم مات عبد الله .

الثانيـــة — لما كانت عادة العربيات التبذّل، وكنّ يكشفن وجوههن كما يفعل الإماء، وكان ذلك داعية الى نظر الرجال إليهن ، وتشعّب الفكرة فيهن ، أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمرهن بإرخاء الجلابيب عليهن إذا أردن الخروج الى حوائجهن ، وكنّ يتبرّزن فى الصحراء قبل أن تتخذ الكُنُف — فيقع الفرق بينهن و بين الإماء، فتعرف الحرائر بسترهن، فيكفّ عن معارضتهن من كان عزبا أو شابا . وكانت المرأة من نساء المؤمنين قبل نزول هذه الآية تتبرّز للحاجة فيتعرض لها بعض الفجّار يظن أنها أمة، فتصيح به فيذهب، فشكوا ذلك الى النبىّ صلى الله عليه وسلم . ونزلت الآية بسبب ذلك . قال معناه الحسن وغيره .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ الجلابيب جمع جلباب، وهو ثوب أكبر من الخمار . وروى عن ابن عباس وابن مسعود أنه الرداء . وقد قيل: إنه القناع . والصحيح أنه الثوب الذى يستر جميع البدن . وفى صحيح مسلم عن أم عطيّـة قلت : يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ قال : "لتُلبسها أختُها من جلبابها" .

الرابعـــة — واختلف الناس فى صـورة إرخائه ؛ فقال ابن عباس وعبيدة السّلمانى : ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهـر منها إلا عين واحدة تُبصر بهـا . وقال ابن عباس أيضا وقتادة : ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشدّه، ثم تعطفه على الأنف، وإن ظهـرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه . وقال الحسن : تغطّى نصف وجهها .

الخامســـة — أمر الله سبحانه جميع النساء بالسّتر، وأن ذلك لا يكون إلا بما لا يصف جلدها، إلا إذا كانت مع زوجها فلها أن تلبس ما شاءت ؛ لأن له أن يستمتع بها كيف شاء؛

ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ ليلة فقال : "سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن وماذا فتح من الخزائن من يوقظ صواحب الحجرات كاسية في الدنيا عارية في الآخرة" . وروى أن دحية الكلبي لما رجع من عند هرقل فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم قبطية ؛ فقال : "اجعل صديعا لك قميصا وأعط صاحبتك صديعا تختمر به" . والصديع النصف . ثم قال له : "مُرْها تجعل تحتها شيئا لئلا يصف" . وذكر أبو هريرة رقة الثياب للنساء فقال : الكاسيات العاريات الناعمات الشقيات[1] . ودخل نسوة من بني تميم على عائشة رضي الله عنها عليهن ثياب رقاق، فقالت عائشة : إن كنتن مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات، وإن كنتن غير مؤمنات فتمتعينه[2] . وأدخلت امرأة عروس على عائشة رضي الله عنها وعليها خمار قبطي معصفر، فلما رأتها قالت : لم تؤمن بسورة « النور » امرأة تلبس هذا . وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رءوسهن مثل أسنمة البخت لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها" . وقال عمر رضي الله عنه : ما يمنع المرأة المسلمة إذا كانت لها حاجة أن تخرج في أطمارها[3] أو أطمار جارتها مستخفية، لا يعلم بها أحد حتى ترجع إلى بيتها .

السادسة ـ قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ ﴾ أي الحرائر حتى لا يختلطن بالإماء ؛ فإذا عرفن لم يقابلن بأدنى من المعارضة مراقبة لرتبة الحرية ؛ فتنقطع الأطماع عنهن . وليس المعنى أن تعرف المرأة حتى تعلم من هي . وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى أمة قد تقنعت ضربها بالدرة ؛ محافظة على زي الحرائر . وقد قيل : إنه يجب الستر والتقنع الآن في حق الجميع من الحرائر والإماء . وهذا كما أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا النساء المساجد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قوله : "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله" حتى قالت عائشة رضي الله عنها : لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا لمنعهن من الخروج إلى المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ تأنيس للنساء في ترك الجلابيب قبل هذا الأمر المشروع .

---

(١) في بعض الأصول : « المتنعمات » . (٢) وردت هذه الكلمة محرفة في نسخ الأصل ؛ ولعلها « فتمتعن » . (٣) الأطمار : جمع الطمر (بكسر الطاء وسكون الميم) وهو الثوب الخلق .

قوله تعالى : لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ ﴾ الآية. أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد؛ كما روى سفيان بن سعيد عن منصور عن أبي رزين قال : « المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرْجفون في المدينة » قال : هم شيء واحد ؛ يعني أنهم قد جمعوا هذه الأشياء . والواو مقحمة ؛ كما قال :

إلى الملك القَرْم وابن الهمام ۞ ولَيْث الكتيبة في المُزْدحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة؛ وقد مضى في « البقرة »[1] . وقيل : كان منهم قوم يُرجفون، وقوم يتبعون النساء للرِّيبة، وقوم يشككون المسلمين . قال عكرمة وشَهْر ابن حَوْشَب : « الذين في قلوبهم مرض » يعني الذين في قلوبهم الزنى . وقال طاوس : نزلت هذه الآية في أمر النساء. وقال سلمة بن كُهَيل : نزلت في أصحاب الفواحش؛ والمعنى متقارب . وقيل : المنافقون والذين في قلوبهم مرض شيء واحد، عبّر عنهم بلفظين ؛ دليله آية المنافقين في أول سورة « البقرة »[2] . والمرجفون في المدينة قوم كانوا يخبرون المؤمنين بما يسوءهم من عدوّهم ، فيقولون إذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنهم قد قتلوا أو هزموا، وإن العدوّ قد أتاكم؛ قاله قتادة وغيره . وقيل كانوا يقولون : أصحاب الصُّفّة قوم عزّاب، فهم الذين يتعرّضون للنساء . وقيل : هم قوم من المسلمين ينطقون بالأخبار الكاذبة حبًّا للفتنة . وقد كان في أصحاب الإفك قوم مسلمون ولكنهم خاضوا حبًّا

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٢ وما بعدها .

الفتنة . وقال ابن عباس : الإرجاف التماس الفتنة ، والإرجاف : إشاعة الكذب والباطل للاغتنام به[(1)] . وقيل : تحريك القلوب ؛ يقال : رَجَفت الأرض ــ أى تحركت وتزلزلت ــ تَرْجُف رَجْفا . والرَّجَفان : الاضطراب الشديد . والرَّجّاف : البحر ؛ سُمّى به لاضطرابه . قال الشاعر :

المُطعِمون اللحمَ كلَّ عشيّة ٭ حتى تَغيب الشمسُ فى الرَّجّاف[(2)]

والإرجاف : واحدُ أراجيف الأخبار . وقد أرجَفوا فى الشيء ؛ أى خاضوا فيه . قال الشاعر :

فإنا وإن عيّرتمونا بقتله ٭ وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسدُ

وقال آخر :

أبالأراجيف يابن اللؤم توعدنى ٭ وفى الأراجيف خِلتُ اللؤمُ والخورَ[(3)]

فالإرجاف حرام؛ لأن فيه إذاية . فدلّت الآية على تحريم الإيذاء بالإرجاف .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ أى لنسلطنّك عليهم فتستأصلهم بالقتل . وقال ابن عباس : لم ينتهوا عن إيذاء النساء وأن الله عز وجل قد أغراه بهم . ثم إنه قال عزّ وجلّ : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ »[(4)] وإنه أمره بلعنهم ؛ وهذا هو الإغراء ؛ وقال محمد بن يزيد : قد أغراه بهم فى الآية التى تلى هذه مع اتصال الكلام بها ، وهو قوله عزّ وجلّ : « أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا » . فهذا فيه معنى الأمر

(١) فى نسخة : « الاغتنام » . (٢) قال ابن برى : البيت لمطرود بن كعب الخزاعى يرثى عبد المطلب جد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقبله :

يأيها الرجل المحوّل رحله ٭ هلا نزلت بآل عبد مناف

(٣) البيت للعين المنقرى يهجو به العجاج أو رؤبة . والرواية المعروفة فيه :

أبالأراجيز يابن اللؤم توعدنى ٭ وفى الأراجيز خلت اللؤم والخور

والأراجيز : جمع أرجوزة بمعنى الرجز ؛ وهو بحر من بحور الشعر . وجاء به علماء النحو شاهدا على أن « خلت » من الأفعال التى يلغى عملها لتوسطها بين مفعوليها . ولو نصبت قوله « اللؤم والخور » على المفعولية لجاز . (راجع كتاب سيبويه ج ١ ص ٦١ وباب ظن وأخواتها فى كتب النحو) . (٤) آية ٨٤ سورة التوبة .

بقتلهم وأخذهم ؛ أى هـذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف . وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : «خمس يُقتلن فى الحِلّ والحَرَم» . فهذا فيه معنى الأمر كالآية سواء . النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى الآية . وقيل : إنهم قد انتهوا عن الإرجاف فلم يُغرِ بهم . ولام «لَنُغْرِيَنَّكَ» لام القسم ، واليمين واقعة عليها ، وأدخلت اللام فى «إنْ» توطئة لها .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا ﴾ أى فى المدينة . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ نصب على الحال من الضمير فى « يجاورونك » ؛ فكان الأمر كما قال تبارك وتعالى ؛ لأنهم لم يكونوا إلا أقلاء . فهذا أحد جوابى الفرّاء ، وهو الأولى عنده ؛ أى لا يجاورونك إلا فى حال قلتهم . والجواب الآخر ـــ أن يكون المعنى إلا وقتا قليلا ؛ أى لا يبقون معك إلا مدة يسيرة ؛ أى لا يجاورونك فيها إلا جوارا قليلا حتى يهلكوا ؛ فيكون نعتا لمصدر أو ظرف محذوف . ودل على أن مَن كان معك ساكنا بالمدينة فهو جار . وقد مضى فى « النساء » [1] .

الرابعـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ مَلْعُونِينَ ﴾ هذا تمـام الكلام عند محمد بن يزيد ، وهـو منصوب على الحال . وقال ابن الأنبارى : « قليلا ملعونين » وقف حسن . النحاس : ويجوز أن يكون التمـام « إلا قليلا » وتنصب « ملعونين » على الشتم . كما قـرأ عيسى بن عمـر « وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ » . وقد حكى عن بعض النحويين أنه قال : يكون المعنى أينما ثُقفوا أُخذوا ملعونين . وهذا خطأ لا يعمل ما [كان] [2] مع المجازاة فيما قبله . وقيل : معنى الآية إن أصرّوا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا وهم مطرودون ملعونون . وقد فعل بهم هذا ؛ فإنه لمـا نزلت سورة « براءة » جمعوا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا فلان قم فاخرج فإنك منافق ويا فلان قم " فقام إخوانهم من المسلمين وتولّوا إخراجهم من المسجد .

الخامســـة ـــ قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ ﴾ نصب على المصدر ؛ أى سنّ الله جلّ وعزّ فيمن أرجف بالأنبيـاء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويُقتل . ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أى تحويلا وتغييرا ؛ حكاه النقّاش . وقال السُّدّى : يعنى أن من قُتل بحق فلا دية على قاتله

---

(1) راجع جـ ٥ ص ١٨٣ وما بعدها . (2) زيادة عن النحاس .

المهدوى : وفى الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد ؛ والدليل على ذلك بقاء المنافقين معه حتى مات . والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم ؛ وقد مضى هذا فى « آل عمران »[1] وغيرها .

قوله تعالى : يَسْأَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ هؤلاء المؤذون لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما توعدوا بالعذاب سألوا عن الساعة ، استبعادا وتكذيبا ، موهمين أنها لا تكون . ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى أجبهم عن سؤالهم وقل علمها عند الله ، وليس فى إخفاء الله وقتها عنى ما يبطل نبوتى ؛ وليس من شرط النبى أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله جل وعز . ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أى ما يعلمك . ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ أى فى زمان قريب . وقال صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار إلى السبابة والوسطى ؛ خرجه أهل الصحيح . وقيل : أى ليست الساعة تكون قريبا ؛ فحذف هاء التأنيث ذهابا بالساعة إلى اليوم ؛ كقوله : « إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » ولم يقل قريبة ذهابا بالرحمة إلى العفو ؛ إذ ليس تأنيثها أصليا . وقد مضى هذا مستوفى[2] . وقيل : إنما أخفى وقت الساعة ليكون العبد مستعدا لها فى كل وقت .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى طردهم وأبعدهم . واللعن : الطرد والإبعاد عن الرحمة . وقد مضى فى « البقرة »[3] بيانه . ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ فأنث السعير لأنها بمعنى النار . ﴿ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ ينجيهم من عذاب الله والخلود فيه .

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٠٥ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٧ (٣) راجع جـ ٢ ص ٢٥ طبعة ثانية .

قوله تعالى : يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ قراءة العامة بضم التاء وفتح اللام؛ على الفعل المجهول . وقرأ عيسى الهمداني وابن إسحاق «نُقَلِّبُ» بنون وكسر اللام . «وُجُوهَهُمْ» نصبا . وقرأ عيسى أيضا «تُقَلِّبُ» بضم التاء وكسر اللام على معنى تقلب السعيرُ وجوهَهم . وقرأ أبو حَيْوة باختلاف عنه وأبو جعفر وشيبة «تَقَلَّب» بفتح التاء واللام على معنى تتقلب . وهذا التقليب تغيير ألوانهم بلفح النار ، فتسودّ مرة وتخضرّ أخرى . وإذا بدلت جلودهم بجلود أخر فحينئذ يتمنون أنهم ما كفروا ﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا ﴾ . ويجوز أن يكون المعنى : يقولون يوم تقلب وجوههم في النار يا ليتنا . ﴿ أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾ أي لم نكفر فننجو من هذا العذاب كما نجا المؤمنون . وهذه الألف تقع في الفواصل فيوقف عليها ولا يوصل بها . وكذا « السبيلا » وقد مضى في أول السورة (١) . وقرأ الحسن « إِنَّا أَطَعْنَا سَادَاتِنَا » بكسر التاء ، جمع سادة . وكان في هذا زجر عن التقليد . والسادة جمع السيّد ، وهو فَعَلة ؛ مثل كتبة وفجرة . وساداتنا جمع الجمع . والسادة والكبراء بمعنًى . وقال قتادة : هم المطعمون في غزوة بدر . والأظهر العموم في القادة والرؤساء في الشرك والضلالة ؛ أي أطعناهم في معصيتك وما دعونا إليه ﴿ فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ أي عن السبيل وهو التوحيد؛ فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب . والإضلال لا يتعدّى إلى مفعولين من غير توسط حرف الجر؛ كقوله : « لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ » (٢) .

قوله تعالى : رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

---

(١) راجع ص ١٤٥ من هذا الجزء . (٢) آية ٢٩ سورة الفرقان .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ قال قتادة : عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . وقيل : عذاب الكفر وعذاب الإضلال ؛ أى عذبهم مثلَى ما تعذبنا فإنهم ضلّوا وأضلّوا . ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ قرأ ابن مسعود وأصحابه ويحيى وعاصم بالباء. الباقون بالثاء، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد والنحاس؛ لقوله تعالى : « أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ »(١) وهذا المعنى كثير . وقال محمد بن أبى السرى : رأيت فى المنام كأنى فى مسجد عسقلان وكأن رجلا يناظرنى فيمن يبغض أصحاب محمد فقال: والعنهم لعنا كثيرا، ثم كررها حتى غاب عنى؛ لا يقولها إلا بالثاء . وقراءة الباء ترجع فى المعنى إلى الثاء؛ لأن ما كبر كان كثيرا عظيم المقدار.

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

لما ذكر الله تعالى المنافقين والكفار الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، حذّر المؤمنين من التعرض للإيذاء، ونهاهم عن التشبه ببنى إسرائيل فى إذايتهم نبيهم موسى . واختلف الناس فيما أوذى به محمد صلى الله عليه وسلم وموسى ؛ فحكى النقاش أن إذايتهم محمدا عليه السلام قولهم : زيد بن محمد . وقال أبو وائل : إذايته أنه صلى الله عليه وسلم قسم قسماً فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله؛ فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فغضب وقال : " رحم الله موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر " . وأما إذاية موسى صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس وجماعة : هى ما تضمنه حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم، وذلك أنه قال : " كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة وكان موسى عليه السلام يتستر كثيرا ويخفى بدنه فقال قوم هو آدر(٢) وأبرص أو به آفة ؛ فانطلق ذات يوم يغتسل فى عين بأرض الشام وجعل ثيابه على صخرة ففرّ الحجر بثيابه واتبعه موسى عريانا يقول ثوبى حجر ثوبى حجر(٣) حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فنظروا إليه وهو من

(١) آية ١٥٩ سورة البقرة (٢) الأدرة (بوزن الفرقة) : انتفاخ الخصية .
(٣) أى دع ثوبى يا حجر .

أحسنهم خَلْقا وأعد لهم صورة وليس به الذى قالوا فهو قوله تبارك وتعالى « فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا » " أخرجه البخارىّ ومسلم بمعناه. ولفظ مسلم: قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كانت بنوا إسرائيل يغتسلون عُراة ينظر بعضهم إلى سَوْءةِ بعض وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر قال فذهب يوما[1] يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه قال فجمح[2] موسى عليه السلام بإثره يقول ثَوْبى حَجَرُ ثوبى حَجَرُ حتى نظرتْ بنو إسرائيل الى سَوْءة موسى وقالوا والله ما بموسى من بأس فقام الحجر حتى نُظِر إليه قال فأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضَرْبا " قال أبو هريرة : والله إنه بالحجر نَدَبٌ[3] ستةٌ أو سبعةٌ ضَرْبُ موسى بالحجر. فهذا قول . وروى عن ابن عباس عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : آذوْا موسى بأن قالوا : قتل هارون؛ وذلك أن موسى وهرون خرجا من فَحْص[4] التِّيه إلى جبل فمات هارون فيه ، فجاء موسى فقالت بنو إسرائيل لموسى : أنت قتلته ، وكان ألين لنا منك وأشدّ حبًّا . فآذوه بذلك فأمر الله تعالى الملائكة فحملته حتى طافوا به فى بنى إسرائيل ، ورأوا آية عظيمة دلّتهم على صدق موسى ، ولم يكن فيه أثر القتل . وقد قيل : إن الملائكة تكلمت بموته ولم يُعرف موضعَ قبره إلا الرَّخَم ، وأنه تعالى جعله أصم أبكم . ومات هارون قبل موسى فى التيه، ومات موسى قبل انقضاء مدّة التِّيه بشهرين . وحكى القشيرىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : أن الله تعالى أحيا هارون فأخبرهم أنه لم يقتله ، ثم مات . وقد قيل : إن إذاية موسى عليه السلام رميهم إياه بالسحر والجنون . والصحيح الأول . ويحتمل أن فعلوا كل ذلك فبرّأه الله من جميع ذلك.

مسـألة — فى وضع موسى عليه السلام ثوبه على الحجر ودخوله فى الماء عُريانا دليل على جواز ذلك، وهو مذهب الجمهور . ومنعه ابن أبى ليْلَى واحتجّ بحديث لم يصحّ ؛ وهو

---

(١) فى مسلم : «مرة». (٢) جرى أشد الجرى. (٣) الندب (بالتحريك) : أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد ، فشبه به أثر الضرب فى الحجر. (٤) قال ياقوت : الفحص كل موضع يسكن سهلا كان أو جبلا بشرط أن يزرع . والتيه : هو الموضع الذى ضل فيه موسى بن عمران عليه السلام وقومه . وهو أرض بين أيلة (العقبة) ومصر وبحر القلزم (البحر الأحمر) . وهو الآن قلب شبه جزيرة طورسينا .

قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تدخلوا الماء إلا بمئزر فإن للماء عامرا » . قال القاضي عياض : وهو ضعيف عند أهل العلم .

قلت : أما إنه يستحب التستر لما رواه إسرائيل عن عبد الأعلى أن الحسن بن علي دخل غديرا وعليه بُرد له متوشحا به ، فلما خرج قيل له ، قال : إنما تسترت ممن يراني ولا أراه ؛ يعني من ربي والملائكة . فإن قيل : كيف نادى موسى عليه السلام الحجر نداء من يعقل؟ قيل : لأنه صدر عن الحجر فعل من يعقل . و « حَجَرُ » منادى مفرد محذوف حرف النداء ؛ كما قال تعالى : « يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » . و « ثوبي » منصوب بفعل مضمر ؛ التقدير : أعطني ثوبي ، أو اترك ثوبي ؛ فحذف الفعل لدلالة الحال عليه

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ أي عظيما . والوجيه عند العرب : العظيم القدر الرفيع المنزلة . ويروى أنه كان إذا سأل الله شيئا أعطاه إياه . وقرأ ابن مسعود « وكان عَبْدًا لِلَّهِ » . وقيل : معنى « وجيها » أي كلمه تكليما . قال أبو بكر الأنباري في (كتاب الرد) : زعم من طعن في القرآن أن المسلمين صحفوا « وكان عند الله وجيها » وأن الصواب عنده « وكان عَبْدًا لِلَّهِ وَجِيهًا » وذلك يدل على ضعف مقصده ونقصان فهمه وقلة علمه ؛ وذلك أن الآية لو حملت على قوله وقرئت « وكان عبدا » نقص الثناء على موسى عليه السلام ؛ وذلك أن « وجيها » يكون عند أهل الدنيا وعند أهل زمانه وعند أهل الآخرة ، فلا يوقف على مكان المدح ؛ لأنه إن كان وجيها عند بني الدنيا كان ذلك إنعاما من الله عليه لا يبين عليه معه ثناء من الله . فلما أوضح الله تعالى موضع المدح بقوله : « وكان عند الله وجيها » استحق الشرف وأعظم الرفعة بأن الوجاهة عند الله ؛ فمن غيّر اللفظة صرف عن نبيّ الله أفخر الثناء وأعظم المدح .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أي قصدا وحقا . وقال ابن عباس : أي صوابا . وقال قتادة ومقاتل : يعني قولوا قولا سديدا في شأن زينب وزيد، ولا تنسبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى ما لا يحل . وقال عكرمة وابن عباس أيضا : القول السداد لا إله إلا الله . وقيل : هو الذي يوافق ظاهره باطنه . وقيل : هو ما أريد به وجه الله دون غيره . وقيل : هو الإصلاح بين المتشاجرين . وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض . والقول السداد يعم الخيرات ، فهو عام في جميع ما ذكر وغير ذلك .

وظاهر الآية يعطي أنه إنما أشار إلى ما يكون خلافا للأذى الذي قيل في جهة الرسول وجهة المؤمنين . ثم وعد جل وعز بأنه يجازي على القول السداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب ؛ وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة . ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي فيما أمر به ونهى عنه ﴿ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

لما بيّن تعالى في هذه السورة من الأحكام ما بيّن، أمر بالتزام أوامره . والأمانة تعم جميع وظائف الدِّين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور . روى الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله حدّثنا إسماعيل بن نصر عن صالح بن عبد الله عن محمد بن يزيد بن جوهر[1] عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تعالى لآدم يا آدم إني عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها فقال

(١) في بعض الأصول : « محمد بن زيد » ولم نقف على تصويبه .

وما فيها يا رب قال إن حملتها أجرت و إن ضيّعتها عُذّبت فاحتملها بما فيها فلم يلبث فى الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها ". فالأمانة هى الفرائض التى ائتمن الله عليها العباد. وقد اختلف فى تفاصيل بعضها على أقوال؛ فقال ابن مسعود: هى فى أمانات الأموال كالودائع وغيرها. وروى عنه أنها فى كل الفرائض، وأشدها أمانة المال. وقال أبى بن كعب: من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها. وقال أبو الدرداء: غسل الجنابة أمانة، وأن الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شىء من دينه غيرها. وفى حديث مرفوع " الأمانة الصلاة " إن شئت قلت قد صلّيت وإن شئت قلت لم أصلّ. وكذلك الصيام وغسل الجنابة. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه وقال هذه أمانة استودعتكها، فلا تلبسها[1] إلا بحق، فإن حفظتها حفظتك؛ فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واللسان أمانة، والبطن أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة؛ ولا إيمان لمن لا أمانة له. وقال السُّدّى: هى ائتمان آدم ابنه قابيل على ولده وأهله، وخيانته إياه فى قتل أخيه. وذلك أن الله تعالى قال له: " يا آدم، هل تعلم أن لى بيتا فى الأرض؟ " قال: " اللهم لا " قال: " فإن لى بيتا بمكة فأته؛ فقال للسماء: احفظى ولدى بالأمانة؟ فأبت، وقال للأرض: احفظى ولدى بالأمانة فأبت؛ وقال للجبال كذلك فأبت. فقال لقابيل: احفظ ولدى بالأمانة؛ فقال نعم، تذهب وترجع فتجد ولدك كما يسرك. فرجع فوجده قد قتل أخاه؛ فذلك قوله تبارك وتعالى: « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا » الآية. وروى معمر عن الحسن أن الأمانة عرضت على السموات والأرض والجبال؛ قالت: وما فيها؟ قيل لها: إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت. فقالت لا. قال مجاهد: فلما خلق الله تعالى آدم عرضها عليه؛ قال: وما هى؟ قال: إن أحسنت أجرتك وإن

---

(١) كذا وردت هذه الجملة فى نسخ الأصل. والذى فى نوادر الأصول: « فلا تبسل منها شيئا إلا بحقها » والإبسال هنا التضييع؛ وهو رواية الدر المنثور؛ قال: « فلا تضيعها إلا فى حقها ». يقال: أبسلت فلانا إذا أسلمته للهلكة.

أساتَ عذّبتك . قال : فقد تحملتها يا رب . قال مجاهد : فما كان بين أن تحملها إلى أن أخرج من الجنة إلا قدر ما بين الظهر والعصر . وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ» قال : الأمانة الفرائض، عرضها الله عزّ وجلّ على السموات والأرض والجبال ، إن أدّوها أثابهم ، وإن ضيّعوها عذّبهم . فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيما لدين الله عز وجل ألا يقوموا به . ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها . قال النحاس : وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير . وقيل : لما حضرت آدمَ صلى الله عليه وسلم الوفاةُ أمر أن يعرض الأمانة على الخلق، فعرضها فلم يقبلها إلا بنوه . وقيل : هذه الأمانة هي ما أودعه الله تعالى في السموات والأرض والجبال والخلق، من الدلائل على ربوبيته أن يظهروها فأظهروها ؛ إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدها ؛ قاله بعض المتكلمين . ومعنى « عرضنا » أظهرنا ؛ كما تقول : عرضت الجارية على البيع . والمعنى إنا عرضنا الأمانة وتضييعها على أهل السموات وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن (فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا) أي أن يحملن وزرها ؛ كما قال جلّ وعزّ : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ »[1] . (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) قال الحسن : المراد الكافر والمنافق . (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا) لنفسه (جَهُولًا) بربّه . فيكون على هذا الجوابُ مجازا ؛ مثل « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » . وفيه جواب آخر على أن يكون حقيقة أنه عرض على السموات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وهي الثواب والعقاب ؛ أي أظهر لهن ذلك فلم يحملن وزرها ؛ وأشفقت وقالت : لا أبتغي ثوابا ولا عقابا، وكلٌّ يقول : هذا أمر لا نطيقه، ونحن لك سامعون ومطيعون فيما أمرن به وسخرن له ؛ قاله الحسن وغيره . قال العلماء : معلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب، فلا بد من تقدير الحياة على القول الأخير . وهذا العرض عرض تخيير لا إلزام . والعرض على الإنسان إلزام . وقال القفّال وغيره : العرض في هذه الآية ضرب مثَل ؛ أي أن السموات والأرض على كبر أجرامها، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها

---

(١) آية ١٣ سورة العنكبوت .

تقلد الشرائع، لما فيها من الثواب والعقاب؛ أي أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال؛ وقد كلّفه الإنسان، وهو ظلوم جهول لو عقل . وهذا كقوله : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ » — ثم قال : — « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ »[1] . قال القفال : فإذا تقرر في أنه تعالى يضرب الأمثال، وورد علينا من الخبر ما لا يخرج إلا على ضرب المثل، وجب حمله عليه . وقال قوم : إن الآية من المجاز؛ أي إنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال، رأينا أنها لا تطيقها، وأنها لو تكلمت لأبته وأشفقت؛ فعبّر عن هذا المعنى بقوله . « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ » الآية . وهذا كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه؛ وأنت تريد قايست قوته بثقل الحمل، فرأيت أنها تقصر عنه . وقيل : « عرضنا » بمعنى عارضنا الأمانة بالسموات والأرض والجبال فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة، ورجحت الأمانة بثقلها عليها . وقيل : إن عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال إنما كان من آدم عليه السلام؛ وذلك أن الله تعالى لما استخلفه على ذرّيته، وسلّطه على جميع ما في الأرض من الأنعام والطير والوحش، وعهد إليه عهدا أمره فيه ونهاه وحرّم وأحلّ، فقبله ولم يزل عاملا به . فلما أن حضرته الوفاة سأل الله أن يعلمه مَن يستخلف بعده، ويقلده من الأمانة ما تقلده، فأمره أن يعرض ذلك على السموات بالشرط الذي أخذ عليه من الثواب إن أطاع ومن العقاب إن عصى ، فأبين أن يقبلنه شفقا[2] من عذاب الله . ثم أمره أن يعرض ذلك على الأرض والجبال كلها فأبياه . ثم أمره أن يعرض ذلك على ولده فعرضه عليه فقبله بالشرط، ولم يهب منه ما تهيبت السموات والأرض والجبال . «إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا» لنفسه «جَهُولًا» بعاقبة ما تقلّد لربه . قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي : عجبت من هذا القائل من أين أتى بهذه القصة! فإن نظرنا إلى الآثار وجدناها بخلاف ما قال، وإن نظرنا إلى ظاهره وجدناه بخلاف ما قال؛ وإن نظرنا إلى باطنه وجدناه بعيدا مما قال؛ وذلك أنه ردّد ذكر الأمانة ولم يذكر ما الأمانة ، إلا أنه يومئ في مقالته إلى أنه سلّطه على

---

(١) آية ٢١ سورة الحشر . (٢) الشفق والاشفاق : الخوف .

جميع ما في الأرض ، وعهد الله إليه عهدا فيه أمره ونهيه وحِلّه وحرامه ، وزعم أنه أمره أن يعرض ذلك على السموات والأرض والجبال ؛ فما تصنع السموات والأرض والجبال بالحلال والحرام ؟ وما تسليطه على الأنعام والطير والوحش ! وكيف إذا عرضه على ولده فقبله فى أعناق ذريته من بعده . وفى مبتدأ الخبر فى التنزيل أنه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال حتى ظهر الإباء منهم ، ثم ذكر أن الإنسان حملها ، أى من قِبَل نفسه الا أنه حمّل ذلك ، فسماه «ظلوما» أى لنفسه ، « جهولا » بما فيها . وأما الآثار التى هى بخلاف ماذكر ، فحدثنى أبى رحمه الله قال حدثنا الفيض بن الفضل الكوفى حدثنا السّرِىّ بن إسماعيل عن عامر الشعبىّ عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : لما خلق الله الأمانة مثّلها صخرة ، ثم وضعها حيث شاء ، ثم دعا لها السموات والأرض والجبال ليحملنها ، وقال لهن : إنّ هذه الأمانة ، ولها ثواب وعليها عقاب ؛ قالوا : يا رب ، لا طاقة لنا بها ؛ وأقبل الإنسان من قَبْلَ أن يدعى فقال للسموات والأرض والجبال : ما وقوفكم ؛ قالوا : دعانا ربنا أن نحمل هذه فأشفقن منها ولم نطقها ؛ قال : فحركها بيده وقال : والله لو شئت أن أحملها لحملتها ؛ فحملها حتى بلغ بها إلى ركبتيه ، ثم وضعها وقال : والله لوشئت أن أزداد لازددت ؛ قالوا : دونك ! فحملها حتى بلغ بها حِقْوَيه[1] ، ثم وضعها وقال : والله لو شئت أن أزداد لازددت ؛ قالوا : دونك ، فحملها حتى وضعها على عاتقه ، فلما أهوى ليضعها ، قالوا : مكانك ! إن هذه الأمانة ولها ثواب وعليها عقاب ، وأمرنا ربنا أن نحملها فأشفقن منها ، وحملتها أنت من غير أن تدعى لها ، فهى فى عنقك وفى أعناق ذريتك إلى يوم القيامة ، إنك كنت ظلوما جهولا . وذكر أخبارا عن الصحابة والتابعين تقدم أكثرها . ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَانُ ﴾ أى التزم القيام بحقها ، وهو فى ذلك ظلوم لنفسه . وقال قتادة : للأمانة ، جهول لقدر ما دخل فيه . وهذا تأويل ابن عباس وابن جبير . وقال الحسن : جهول بربه . قال : ومعنى حملها خان فيها . وقال الزجاج : والآية فى الكافر والمنافق والعصاة على قدرهم على هذا التأويل . وقال ابن عباس وأصحابه

---

(١) الحقو (بفتح الحاء وكسرها) : الخاصرة .

والضحاك وغيره : الإنسان آدم، تحمل الأمانة فما تم له يوم حتى عصى المعصية التى أخرجته من الجنة . وعن ابن عباس أن الله تعالى قال له : أتحمل هذه الأمانة بما فيها . قال وما فيها ؟ قال : إن أحسنتَ جُزيتَ وإن أسأت عوقبت . قال : أنا أحملها بما فيها بين أذنى وعاتقى . فقال الله تعالى له : إنى سأعينك، قد جعلت لبصرك حجابا فأغلقه عما لا يحل لك، ولفرجك لباسا فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك . وقال قوم : الإنسان النوع كله . وهذا حسن مع عموم الأمانة كما ذكرناه أولا . وقال السدّى : الإنسان قابيل . فالله أعلم . ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴾ اللام فى « ليعذّب » متعلقة بـ « حمل » أى حملها ليعذب العاصى ويثيب المطيع؛ فهى لام التعليل؛ لأن العذاب نتيجة حمل الأمانة . وقيل بـ « عرضنا » ؛ أى عرضنا الأمانة على الجميع ثم قلدناها الإنسان ليظهر شركُ المشرك ونفاقُ المنافق ليعذبَهم الله ، وإيمانُ المؤمن ليثيبه الله . ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ ﴾ قراءة الحسن بالرفع، يقطعه من الأول؛ أى يتوب الله عليهم بكل حال. ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ خبر بعد خبر لـ « كان » . ويجوز أن يكون نعتا لغفور، ويجوز أن يكون حالا من المضمر . والله أعلم بالصواب .

سورة سبأ

مكية فى قول الجميع ، إلا آية واحدة اختلف فيها ، وهى قوله تعالى: «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ»[1] الآية . فقالت فرقة : هى مكية ، والمراد المؤمنون أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم؛ قاله ابن عباس . وقالت فرقة : هى مدنيّة ، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة ؛ كعبد الله بن سلام وغيره؛ قاله مقاتل . وقال قتادة : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنون به كائنا من كان . وهى أربع وخمسون آية .

---

(١) آية ٦

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ «الذى» فى موضع خفض على النعت أو البدل . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على إضمار مبتدأ ، وأن يكون فى موضع نصب بمعنى أعنى . وحكى سيبويه «الحمد لله أهل الحمد» بالرفع والنصب والخفض . والحمد الكامل والثناء الشامل كلّه لله ؛ إذ النعم كلها منه . وقد مضى الكلام فيه فى أوّل الفاتحة . ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ ﴾ قيل : هو قوله تعالى : «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ»(١) . وقيل : هو قوله « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »(٢) فهو المحمود فى الآخرة كما أنه المحمود فى الدنيا ، وهو المالك للآخرة كما أنه المالك للأولى . ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ فى فعله . ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بأمر خلقه .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى ما يدخل فيها من قَطْر وغيره ؛ كما قال : « فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الْأَرْضِ »(٣) من الكنوز والدفائن والأموات وما هى له كِفات(٤) . ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وغيره . ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من الأمطار والثلوج والبَرَد والصواعق والأرزاق والمقادير والبركات . وقرأ علىّ بن أبى طالبّ « وما نُنَزِّل » بالنون والتشديد . ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ من الملائكة وأعمال العباد ؛ قاله الحسن وغيره . ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ .

---

(١) آية ٧٤ سورة الزمر . (٢) آية ١٠ سورة يونس . (٣) آية ٢١ سورة الزمر .
(٤) الكفات : الموضع الذى يضم اليه الشىء و يقبض .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُولَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ قيل : المراد أهل مكة . قال مقاتل : قال أبو سفيان لكفار مكة : واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبدا ولا نبعث؛ فقال الله : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ وروى هارون عن طلْق المعلم قال : سمعت أشياخنا يقرءون « قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَيَأْتِيَنَّكُمْ » بياء، حملوه على المعنى؛ كأنه قال : ليأتينكم البعث أو أمره . كما قال : «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ»[(1)] . فهؤلاء الكفار مقرون بالابتداء منكرون الإعادة، وهو نقض لما اعترفوا بالقدرة على البعث، وقالوا : وإن قدر لا يفعل . فهذا تحكّم بعد أن أخبر على ألسنة الرسل أنه يبعث الخلق . وإذا ورد الخبر بشيء وهو ممكن في الفعل مقدور، فتكذيب من وجب صدقه محال . ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ بالرفع قراءة نافع وابن كثير على الابتداء، وخبره «لَا يَعْزُبُ عَنْهُ» . وقرأ عاصم وأبو عمرو «عالِمِ» بالخفض؛ أي الحمد لله عالم؛ فعلى هذه القراءة لا يحسن الوقف على قوله : « لَتَأْتِيَنَّكُمْ » . وقرأ حمزة والكسائي « علّام الغيب » على المبالغة والنعت . ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ أي لا يغيب عنه، «ويعزِب» أيضا . قال الفراء : والكسر أحبّ إليّ . النحاس : وهي قراءة يحيى بن وثّاب ، وهي لغة معروفة . يقال : عزَب يعزُب ويعزِب إذا بعد وغاب . ﴿ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ أي قدر نملة صغيرة . ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ ﴾ وفي قراءة الأعمش « وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ » بالفتح فيهما عطفا على « ذَرَّةٍ » . وقراءة العامّة

(١) آية ٣٣ سورة النحل

بالرفع عطفا على « مثقالُ » . ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ فهو العالِم بما خلق ولا يخفى عليه شيء.
﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ منصوب بلام كي، والتقدير: لتأتينكم ليجزى . ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ بالثواب، والكافرين بالعقاب . ﴿ أُولَئِكَ ﴾ يعنى المؤمنين . ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم . ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو الجنة .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا ﴾ أى فى إبطال أدلتنا والتكذيب بآياتنا . ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا، وأن الله لا يقدر على بعثهم فى الآخرة، وظنوا أنا نهملهم ؛ فهؤلاء ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ يقال : عاجزه وأعجزه إذا غالبه وسبقه . و « أليم » قراءة نافع بالكسر نعتا للرجز؛ فإن الرجز هو العذاب؛ قال الله تعالى : « فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ »[1] . وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم « عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ » برفع «الميم» هنا وفى «الجاثية»[2] نعتا للعذاب. وقرأ ابن كثير وابن مُحَيصِن وحُميد بن قيس ومجاهد وأبو عمرو « مُعَجِّزِينَ » مثبطين؛ أى ثبطوا الناس عن الإيمان بالمعجزات وآيات القرآن .

قوله تعالى : وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾

لما ذكر الذين سعوا فى إبطال النبوّة بيّن أن الذين أوتوا العلم يرون أن القرآن حق . قال مقاتل : « الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » هم مؤمنو أهل الكتاب . وقال ابن عباس : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل جميع المسلمين؛ وهو أصح لعمومه . والرؤية بمعنى العلم ، وهو فى موضع نصب عطفا على « لِيَجْزِيَ » أى ليجزى وليرى ؛ قاله الزجاج والفرّاء . وفيه نظر؛

(١) آية ٥٩ سورة البقرة . (٢) آية ١١

لأن قوله : « ليجزى » متعلق بقوله : « لَتَأْتِيَنَّكُمْ الساعة » ، ولا يقال : لتأتينكم الساعة ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق ؛ فإنهم يرون القرآن حقا وإن لم تأتهم الساعة . والصحيح أنه رفع على الاستئناف ؛ ذكره القشيرى .

قلت : وإذا كان « ليجزى » متعلقا بمعنى أثبت ذلك فى كتاب مبين ، فيحسن عطف « ويرى » [عليه] ؛ أى وأثبت أيضا ليرى[1] الذين أوتوا العلم أن القرآن حق . ويجوز أن يكون مستأنفا . ﴿ الَّذِى ﴾ فى موضع نصب على أنه مفعول أول لـ« يرى » ﴿ هُوَ الْحَقَّ ﴾ مفعول ثان ، و « هو » فاصلة . والكوفيون يقولون « هو » عماد . ويجوز الرفع على أنه مبتدأ . و « الحق » خبره ، والجملة فى موضع نصب على المفعول الثانى ، والنصب أكثر فيما كانت فيه الألف واللام عند جميع النحويين ، وكذا ما كان نكرة لا يدخله الألف واللام فيشبه المعرفة . فإن كان الخبر اسما معروفا نحو قولك : كان أخوك هو زيد ؛ فزعم الفراء أن الاختيار فيه الرفع . وكذا كان محمد هو عمرو . وعلته فى آختياره الرفع أنه لما لم تكن فيه الألف واللام أشبه النكرة فى قولك : كان زيد هو جالس ؛ لأن هذا لا يجوز فيه إلا الرفع . ﴿ وَيَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ أى يهدى القرآن إلى طريق الإسلام الذى هو دين الله . ودل بقوله : « العزيز » على أنه لا يغالب . وبقوله : « الحميد » على أنه لا يليق به صفة العجز .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ ﴾ وإن شئت أدغمت اللام فى النون لقربها منها . ﴿ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ هذا إخبار عمن قال : « لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ » أى هل نرشدكم إلى رجل ينبئكم ؛ أى يقول لكم : إنكم تبعثون بعد البلى فى القبور . وهذا صادر عن فرط إنكارهم . الزمخشرى : « فإن قلت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهورا علما فى قريش ، وكان إنباؤه بالبعث شائعا عندهم ، فما معنى قولهم : « هَلْ نَدُلُّكُمْ

(١) فى الأصل : « وأثبت أيضا رؤية الذين ... » .

على رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ » فنكروه لهم وعرضوا عليهم الدلالة عليه ؛ كما يُدَلّ على مجهول في أمر مجهول .
قلت : كانوا يقصدون بذلك الطَّنْز[1] والهزؤ والسخرية[2] ، فأخرجوه مخرج التحكى ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك والتلهى ، متجاهلين به وبأمره » . و « إذا » في موضع نصب والعامل فيها « مُزِّقْتُمْ » قاله النحاس . ولا يجوز أن يكون العامل فيها « يُنَبِّئُكُمْ » ؛ لأنه ليس يخبرهم ذلك الوقت . ولا يجوز أن يكون العامل فيها ما بعد « إِنَّ » ؛ لأنه لا يعمل فيما قبله ، وألا يتقدّم عليها ما بعدها ولا معمولها . وأجاز الزجاج أن يكون العامل فيها محذوفا ؛ والتقدير : إذا مزقتم كل ممزق بعثتم ، أو ينبئكم بأنكم تبعثون إذا مزقتم . المهدوى : ولا يعمل فيه « مُزِّقْتُمْ » ؛ لأنه مضاف إليه ، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف . وأجازه بعضهم على أن يجعل « إذا » للجازاة ، فيعمل فيها حينئذ ما بعدها لأنها غير مضافة إليه . وأكثر ما تقع « إذا » للجازاة في الشعر . ومعنى ﴿ مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ فرقتم كل تفريق . والمَزْق خَرْق الأشياء ؛ يقال : ثوب مَزِيق ومَمزوق ومُتَمَزِّق ومُمَزَّق .

قوله تعالى : أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ لما دخلت ألف الاستفهام استغنيت عن ألف الوصل فحذفتها ، وكان فتح ألف الاستفهام فرقا بينها وبين ألف الوصل . وقد مضى هذا في سورة « مريم » عند قوله تعالى : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » مستوفى[3] . ﴿ أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ هذا مردود على ما تقدّم من قول المشركين ؛ والمعنى : قال المشركون « أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » . والافتراء الاختلاق . « أَمْ بِهِ جِنَّةٌ » أي جنون ؛ فهو يتكلم بما لا يدرى . ثم رَدّ عليهم فقال : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ أي ليس الأمر كما قالوا ، بل هو أصدق الصادقين ، ومن ينكر البعث فهو غدًا في العذاب ، واليوم في الضلال عن الصواب ؛ إذ صاروا إلى تعجيز الإله ونسبة الافتراء إلى من أيده الله بالمعجزات .

---

(١) الطنز : السخرية . (٢) في الكشاف والبحر : « التحلي » باللام . (٣) راجع جـ ١١ ص ١٤٠ .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

أعلم الله تعالى أن الذى قدر على خلق السموات والأرض وما فيهن قادر على البعث وعلى تعجيل العقوبة لهم؛ فاستدل بقدرته عليهم ، وأن السموات والأرض ملكه ، وأنهما محيطتان بهم من كل جانب، فكيف يأمنون الخسف والكسف كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة . وقرأ حمزة والكسائى « إِنْ يَشَأْ يَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يُسْقِطْ » بالياء فى الثلاث؛ أى إن يشأ الله أمر الأرض فتنخسف بهم، أو السماء فتسقط عليهم كِسَفًا . الباقون بالنون على التعظيم . وقرأ السُّلَمِىّ وحفص « كِسَفًا » بفتح السين . الباقون بالإسكان . وقد تقدّم بيانه فى « سبحان »[1] وغيرها . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أى فى هذا الذى ذكرناه من قدرتنا « لآية » أى دلالة ظاهرة . ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ أى تائب رَجّاع إلى الله بقلبه . وخص المنيب بالذكر لأنه المنتفع بالفكرة فى حجج الله وآياته .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ بيّن لمنكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن إرسال الرسل ليس أمرًا بِدْعًا، بل أرسلنا الرسل وأيدناهم بالمعجزات، وأحللنا بمن خالفهم العقاب. ﴿ آتَيْنَا ﴾ أعطينا . ﴿ فَضْلًا ﴾ أى أمرًا فضلناه به على غيره . واختلف فى هذا الفضل على تسعة أقوال : الأوّل ـ النبوة . الثانى ـ الزبور . الثالث ـ العلم؛ قال الله تعالى : «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا»[2] . الرابع ـ القوة؛ قال الله تعالى : « وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ »[3] . الخامس ـ تسخير

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٠ . (٢) آية ١٥ سورة النمل . (٣) آية ١٧ سورة ص .

الجبال والناس، قال الله تعالى : « يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ » . السادس — التوبة، قال الله تعالى : « فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ »(٢) . السابع — الحكم بالعدل، قال الله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ » الآية(٣) . الثامن — إلانة الحديد، قال تعالى : « وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ » . التاسع — حسن الصوت، وكان داود عليه السلام ذا صوت حسن ووجه حسن . وحسن الصوت هبة من الله تعالى وتفضل منه ، وهو المراد بقوله تبارك وتعالى : « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ »(٤) على ما يأتي إن شاء الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم لأبي موسى : " لقد أوتيت مزمارا من مزامير داود " . قال العلماء : المزمار والمزمور الصوت الحسن، وبه سميت آلة الزمر مزمارا . وقد استحسن كثير من فقهاء الأمصار القراءة بالتزيين والترجيع، وقد مضى هذا في مقدمة الكتاب(٥) والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ أي وقلنا يا جبال أوبي معه، أي سبّحي معه، لأنه قال تبارك وتعالى : « إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ »(٦) . قال أبو ميسرة : هو التسبيح بلسان الحبشة ، ومعنى تسبيح الجبال هو أن الله تعالى خلق فيها تسبيحا كما خلق الكلام في الشجرة ، فيُسمع منها ما يُسمع من المسبّح معجزةً لداود عليه الصلاة والسلام . وقيل : المعنى سيري معه حيث شاء ؛ من التأويب الذي هو سير النهار أجمع وينزل الليل . قال ابن مقبل :

لحقنا بحيٍّ أوّبوا السير بعد ما * دفعنا شُعاع الشمس والطرفُ يجنح

وقرأ الحسن وقتادة وغيرهما « أُوبِي مَعَهُ » أي ارجعي معه، من آب يؤوب إذا رجع، أوْبا وأوْبة وإيابا . وقيل : المعنى تصرفي معه على ما يتصرف عليه داود بالنهار، فكان إذا قرأ الزبور صوّتت الجبال معه، وأصغت إليه الطير، فكأنها فعلت ما فعل . وقال وهب ابن منبّه : المعنى نوحي معه والطير تساعده على ذلك، فكان إذا نادى بالنياحة أجابته الجبال

---

(١) آية ١٠ سورة سبأ . (٢) آية ٢٥ سورة ص . (٣) آية ٢٦ سورة ص .
(٤) أوّل سورة فاطر . (٥) راجع ج ١ ص ١١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٦) آية ١٨ سورة ص .

بصداها ، وعكفت الطير عليه من فوقه ؛ فصدى الجبال الذي يسمعه الناس إنما كان من ذلك اليوم إلى هذه الساعة ، فأيد بمساعدة الجبال والطير لئلا يجد فترة[1] ، فإذا دخلت الفترة اهتاج ، أي ثار وتحرك ، وقوى بمساعدة الجبال والطير . وكان قد أعطى من الصوت ما يتزاحم الوحوش من الجبال على حسن صوته ، وكان الماء الجارى ينقطع عن الجرى وقوفا لصوته . « والطيرُ » بالرفع قراءة ابن أبي إسحاق ونصر عن عاصم وابن هُرْمُز ومسلمة بن عبد الملك ، عطفا على لفظ الجبال ، أو على المضمر فى « أوِّبى » وحسّنه الفصل بمع . الباقون بالنصب عطفا على موضع « ياجبالُ » أى نادينا الجبال والطير ؛ قاله سيبويه . وعند أبي عمرو ابن العلاء بإضمار فعل على معنى وسخرنا له الطير . وقال الكسائى : هو معطوف ، أى وآتيناه الطير ، حملا على « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا » . النحاس : ويجوز أن يكون مفعولا معه ؛ كما تقول : استوى الماء والخشبة . وسمعت الزجاج يجيز : قمت وزيدا ؛ فالمعنى أوّبى معه ومع الطير . ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ قال ابن عباس : صار عنده كالشمع . وقال الحسن : كالعجين ، فكان يعمله من غير نار . وقال السدّى : كان الحديد فى يده كالطين المبلول والعجين والشمع ، يصرفه كيف شاء ، من غير إدخال نار ولا ضرب بمطرقة . وقاله مقاتل . وكان يفرغ من الدرع فى بعض اليوم أو بعض الليل ، ثمنها ألف درهم . وقيل : أعطى قوةً يَثْنِى بها الحديد ؛ وسبب ذلك أن داود عليه السلام ، لما ملك بنى إسرائيل لقِىَ مَلَكا وداود يظنه إنسانا ، وداود متنكر خرج يسأل عن نفسه وسيرته فى بنى إسرائيل فى خفاء ؛ فقال داود لذلك الشخص الذى تمثل له : "ما قولك فى هذا الملك داود" ؟ فقال له الملَك : "نعم العبد لولا خَلّة فيه" قال داود : "وما هى" ؟ قال : "يرتزق من بيت المال ولو أكل من عمل يده لتمت فضائله" . فرجع فدعا الله فى أن يعلّمه صنعة ويسهلها عليه ، فعلّمه صنعة لَبُوس كما قال جلّ وعزّ فى سورة الأنبياء[2] ، فألان له الحديد فصنع الدروع ، فكان يصنع الدرع فيما بين يومه وليلته يساوى ألف درهم ، حتى ادّخر منها كثيرا وتوسعت

---

(١) الفترة : الضعف . (٢) فى قوله تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم » آية ٨٠ راجع جـ ١١ ص ٣٢٠ .

معيشة منزله، ويتصدّق على الفقراء والمساكين، وكان ينفق ثلث المال فى مصالح المسلمين، وهو أوّل من اتخذ الدروع وصنعها وكانت قبل ذلك صفائح . ويقال : إنه كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف . والدرع مؤنثة إذا كانت للحرب . ودرع المرأة مذكّر .

مسألة — فى هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرّف بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة فى فضلهم وفضائلهم؛ إذ يحصل لهم التواضع فى أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلى عن الامتنان . وفى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن خير ما أكل المرء من عمل يده وإن نبيّ الله داود كان يأكل من عمل يده " . وقد مضى هذا فى « الأنبياء » مُجَوّدا والحمد لله .

قوله تعالى : أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)

قوله تعالى : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ أى دروعًا سابغات، أى كوامل تامات واسعات؛ يقال : سبغ الدرعُ والثوب وغيرهما إذا غطّى كل ما هو عليه وفضل منه . ﴿وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ﴾ قال قتادة : كانت الدروع قبله صفائح فكانت ثقالا؛ فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع من الخفة والحصانة . أى قدّر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه . أى لا تقصد الحصانة فتثقل، ولا الخفة فتزيل المنعة . وقال ابن زيد : التقدير الذى أمر به هو فى قدر الحَلْقة؛ أى لا تعملها صغيرة فتضعف فلا تقوى الدروع على الدفاع، ولا تعملها كبيرة فينال لابسها . وقال ابن عباس : التقدير الذى أمر به هو فى المسمار؛ أى لا تجعل مسمار الدرع رقيقا فيَقْلَق[(١)]، ولا غليظا فيَفْصِم الحلَق . وروى «يقصم» بالقاف، والفاء أيضا رواية . ﴿فِى السَّرْدِ﴾ السّرْد نسج حلق الدروع؛ ومنه قيل لصانع حلق الدروع : السرّاد والزرّاد؛ تبدل من السين الزاى؛ كما قيل : سرّاط وزرّاط . والسّرد : الخَرْز؛ يقال : سرد يسرد إذا خرز . والمِسْرَد : الإشفى؛ ويقال سراد . قال الشّماخ :

(١) القلق : ألا يستقر فى مكان واحد .

فظلت تباعا خيلنا في بيوتكم * كما تابعت سرد العنان الخوارز (١)

والسراد: السير الذي يخرز به؛ قال لبيد:

يشك صفاحها بالروق شزرا * كما خرج السراد من النقال (٢)

ويقال: قد سرد الحديث والصوم؛ فالسرد فيهما أن يجيء بهما (٣) ولاء في نسق واحد؛ ومنه سرد الكلام. وفي حديث عائشة: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يسرد الحديث كسردكم، وكان يحدث الحديث لو أراد العاد أن يعده لأحصاه. قال سيبويه: ومنه رجل سرندى أي جريء؛ قال: لأنه يمضي قدما (٤). وأصل ذلك في سرد الدرع، وهو أن يحكمها ويجعل نظام حلقها ولاء غير مختلف. قال لبيد:

صنع الحديد مضاعفا أسراده * لينال طول العيش غير مروم

وقال أبو ذؤيب:

وعليهما مسرودتان قضاهما * داود أو صنع السوابغ تبع (٥)

﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أي عملا صالحا. وهذا خطاب لداود وأهله؛ كما قال: «اعملوا آل داود شكرا». ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قوله تعالى: وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ قال الزجاج: التقدير وسخرنا لسليمان الريح. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه «الرِّيحُ» بالرفع على الابتداء، والمعنى له تسخير الريح، أو بالاستقرار؛

(١) رواية البيت كما في ديوانه:

شككن بأحشاء الذنابي على هدى * كما تابعت ... ... الخ

(٢) الروق: القرن. والنقال: جمع النقل (بالتحريك) والنقل، وهو الخف الخلق. (٣) في الأصول: «به».

(٤) أي لم يعترج ولم ينثن؛ يوصف به الذكر والأنثى. (٥) قضاهما: أحكمهما، أو فرغ منهما. والصنع (بالتحريك): الحذق في العمل. والصنع ها هنا تبع، وهو ملك من ملوك حمير. ويروى: «أو صنع السوابغ».

أى ولسليمان الريح ثابتة ، وفيه ذلك المعنى الأول . فإن قال قائل : إذا قلت أعطيت زيدا درهما ولعمرو دينار؛ فرفعته فلم يكن فيه معنى الأول، وجاز أن يكون لم تعطه الدينار. وقيل: الأمر كذا ولكن الآية على خلاف هذا من جهة المعنى ؛ لأنه قد علم أنه لم يسخرها أحد إلا الله عز وجل . ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ أى مسيرة شهر . قال الحسن : كان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر، وبينهما مسيرة شهر للسرع ، ثم يروح من إصطخر ويبيت بكابل، وبينهما شهر للسرع . قال السدى : كانت تسير به فى اليوم مسيرة شهرين . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان سليمان إذا جلس نصبت حواليه أربعمائة ألف كرسى ، ثم جلس رؤساء الإنس مما يليه، وجلس سفلة الإنس مما يليهم ، وجلس رؤساء الجن مما يلى سفلة الإنس، وجلس سفلة الجن مما يليهم، وموكل بكل كرسى طائر لعمل قد عرفه ؛ ثم تقلهم الريح ، والطير تظلهم من الشمس، فيغدو من بيت المقدس إلى إصطخر ، فيبيت ببيت المقدس ؛ ثم قرأ ابن عباس « غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » . وقال وهب بن منبه : ذكر لى أن منزلا بناحية دجلة مكتوبا فيه — كتبه بعض صحابة سليمان ، إما من الجن وإما من الإنس — : نحن نزلنا وما بنيناه ، ومبنيا وجدناه ، غدونا من إصطخر فقلناه ، ونحن رائحون منه إن شاء الله تعالى فبائتون فى الشام . وقال الحسن : شغلت سليمانَ الخيلُ حتى فاتته صلاة العصر ، فعقر الخيل فأبدله الله خيرا منها وأسرع ؛ أبدله الريح تجرى بأمره حيث شاء ، غدوها شهر ورواحها شهر . وقال ابن زيد : كان مستقر سليمان بمدينة تدمر، وكان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشام إلى العراق ، فبنوها له بالصفّاح (١) والعمد والرخام الأبيض والأصفر . وفيه يقول النابغة :

إلا سليمانَ إذ قال الإله له * قُمْ فى البرية فاحدُدْها (٢) عن الفَنَد

وخيِّس (٣) الجن إنى قد أذنت لهم * يبنون تدمر بالصُّفّاح والعَمَد

---

(١) الصفاح (كرمان) : حجارة عريضة رقيقة . (٢) الحد : المنع . والفند : الخطأ

(٣) خيس : ذلل .

فمن أطاعك فانفعه بطاعته * كما أطاعك وأدْلُلْه على الرشَد

ومن عصاك فعاقبْه معاقبةً * تنهى الظَّلومَ ولا تقعُد على ضَمَد (١)

ووجدت هــذه الأبيات منقورة فى صخرة بأرض يَشْكُر ، أنشأهن بعض أصحاب سليمان عليه الصلاة والسلام :

ونحن ولا حولٌ سوى حولِ ربّنا * نروح إلى الأوطان من أرض تَدْمُرِ

إذا نحن رُحْنا كان رَيْثُ رواحنا * مســـيرةَ شهرٍ والغُـــدُوُّ لآخَرِ

أناسٌ شَرَوْا لله طوْعًا نفوسَهــم * بنصر ٱبنِ داودَ النبيِّ المطهَّرِ

لهم فى معـالى الدِّين فضلٌ ورفعة (٢) * وإن نُسِبُوا يوما فمن خير مَعْشَرِ

متى يركبوا الريحَ المطيعةَ أسرعتْ * مبادرةً عن شهرها لم تُقَصِّرِ

تظلّهمُ طــيرٌ صفوفٌ عليهــمُ * متى رفرفَتْ من فوقهم لم تُنَفَّرِ

قوله تعـالى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ القطر : النُّحاس ؛ عن ابن عباس وغيره . أسيلت له مسيرة ثلاثة أيام كما يسيل المـاء ، وكانت بأرض اليمن ، ولم يذب النحاس فيما روى لأحد قبـله ، وكان لا يذوب ، ومن وقته ذاب ؛ و إنمـا ينتفع الناس اليوم بمـا أخرج الله تعـالى لسليمان . قال قتادة : أسال الله عينا يستعملها فيما يريد . وقيـل لعكرمة : إلى أين سالت ؟ فقال : لا أدرى ! وقال ابن عباس ومجاهد والسُّدّى : أجريت له عينُ الصُّفْر ثلاثة أيام بلياليهن . قال القشيرىّ : وتخصيص الإسالة بثلاثة أيام لا يُدرَى ما حدّه ، ولعـله وهم من الناقـل ؛ إذ فى رواية عن مجاهد أنها سالت من صنعاء ثلاث ليال مما يليها ؛ وهذا يشير إلى بيان الموضع لا إلى بيان المـدّة . والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان فى معدنه عينا تسيل كعيون المياه ، دلالة على نبوّته . وقال الخليل : القِطْر : النحاس المذاب .

قلت : دليله قراءة من قرأ « مِن قِطْرٍ آنٍ » . ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ أى بأمره ﴿ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُـمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ الذى أمرناه به من طاعة سـليمان . ﴿ نُذِقْهُ مِنْ

(١) الضمد : الحقد . (٢) فى الأصول : « رأفة » والتصويب عن البحر وروح المعانى .

عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى فى الآخرة ؛ قاله أكثر المفسرين . وقيـل ذلك فى الدنيـا ؛ وذلك أن الله تعالى وكل بهم — فيما روى عن السُّدّى — ملكا بيده سوط من نار ، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة من حيث لا يراه فأحرقته . و « مَن » فى موضـع نصب بمعنى وسخرنا له من الجن من يعمل . ويجوز أن يكون فى موضع رفع ؛ كما تقدّم فى الريح .

قوله تعـالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

فيـــه ثمـانى مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ المحراب فى اللغـة : كل موضع مرتفع . وقيل للذى يصلّى فيـه : محراب؛ لأنه يجب أن يرفـع ويعظّم . وقال الضحاك : « مِن مَّحَٰرِيبَ » أى من مساجد . وكذا قال قتادة . وقال مجاهد : المحاريب دون القصور . وقال أبو عبيدة : المحراب أشرف بيوت الدار . قال :

وماذا عليـه أن ذكرتُ أوانسًا * كغزلان رَمْل فى محاريب أقيالِ[1]

وقال عدى بن زيد :

كدُمَى العاج فى المحاريب أوكالـ * ـبيض فى الروض زهره مستنيرُ

وقيل : هو ما يرقى إليه بالدرج كالغرفة الحسنة ؛ كما قال : « إِذْ تَسَوَّرُواْ الْمِحْرَابَ »[2] وقوله : « فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ »[3] أى أشرف عليهم . وفى الخبر « أنه أمر أن يعمل حول كرسيّه ألف محراب فيها ألف رجل عليهم المسوح يصرُخون إلى الله دائما ، وهو على الكرسى فى موكبه والمحاريب حوله ، ويقول لجنوده إذا ركب : سبّحوا الله إلى ذلك العَلَم ، فإذا بلغـوه قال : هلّلوه إلى ذلك العَـلَم ، فإذا بلغوه قال : كبّروه إلى ذلك العَـلَم الآخر ؛ فتلجّ الجنود بالتسبيح والتهليل لجّةً واحدة .

---

(١) البيت لامرئ القيس . والاقيال : جمع قيل ، وهو الملك (٢) آية ٢١ سورة ص . ج ١٥ (٣) اية ١١ سورة مريم .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَتَمَاثِيلَ ﴾ جمع تمثال . وهو كل ما صُوِّر على مثال صورة من حيوان أو غير حيوان . وقيل : كانت من زجاج ونحاس ورخام تماثيل أشياء ليست بحيوان . وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا؛ قال صلى الله عليه وسلم : " إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنَوا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصّوَر " . أى ليتذكروا عبادتهم فيجتهدوا فى العبادة . وهذا يدل على أن التصوير كان مباحا فى ذلك الزمان ، ونسخ ذلك بشرع محمد صلى الله عليه وسلم . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « نوح » عليه السلام . وقيل : التماثيل طِلَّسْمات كان يعملها ، ويحرم على كل مصوّر أن يتجاوزها فلا يتجاوزها؛ فيعمل تمثالا للذباب أو للبعوض أو للتماسيح فى مكان، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزه واحد أبدا مادام ذلك التمثال قائما . وواحد التماثيل تمثال بكسر التاء . قال :

ويا رُبَّ يومٍ قد لَهَوْتُ وليلةٍ * بآنسة كأنها خطّ تمثالِ (1)

وقيل : إن هذه التماثيل رجال اتخذهم من نحاس وسأل ربه أن ينفخ فيها الروح ليقاتلوا فى سبيل الله ولا يَحِيك (2) فيهم السلاح . ويقال : إن اسفنديار كان منهم؛ والله أعلم . وروى أنهم عملوا له أسدين فى أسفل كرسيه ونسرين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أطلق النّسران أجنحتهما .

الثالثة ــ حكى مكىّ فى الهداية له : أن فرقة تجوّز التصوير، وتحتج بهذه الآية . قال ابن عطية : وذلك خطأ، وما أحفظ عن أحد من أئمة العلم من يجوّزه .

قلت : ما حكاه مكىّ ذكره النحاس قبله ، قال النحاس : قال قوم عمل الصور جائز لهذه الآية ، ولما أخبر الله عز وجل عن المسيح . وقال قوم : قد صح النهى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم عنها ، والتوعد لمن عملها أو اتخذها، فنسخ الله عز وجل بهذا ما كان مباحا قبله ، وكانت الحكمة فى ذلك لأنه بُعث عليه السلام والصور تُعبد؛ فكان الأصلح إزالتها .

---

(1) البيت لامرئ القيس . (2) حاك السيف حيكا : أثر وعمل .

الرابعــة ــ التمثال على قسمين : حيوان وموات . والموات على قسمين : جماد ونام ؛ وقد كانت الجن تصنع لسليمان جميعه ؛ لعموم قوله : « وَتَمَاثِيلَ » . وفى الإسرائيليات : أن التماثيل من الطير كانت على كرسي سليمان . فإن قيل : لا عموم لقوله « وَتَمَاثِيلَ » فإنه إثبات فى نكرة، والإثبات فى النكرة لا عموم له ، إنما العموم فى النفى فى النكرة . قلنا : كذلك هو، بَيْدَ أنه قد اقترن بهذا الإثبات فى النكرة ما يقتضى حمله على العموم ، وهو قوله : « مَا يَشَاءُ » فاقتران المشيئة به يقتضى العموم له . فإن قيل : كيف استجاز الصور المنهى عنها؟ قلنا : كان ذلك جائزا فى شرعه ونسخ ذلك بشرعنا كما بينا ؛ والله أعلم . وعن أبى العالية : لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرما .

الخامســة ــ مقتضى الأحاديث يدل على أن الصور ممنوعة ، ثم جاء "إلا ما كان رقما[1] فى ثوب" فخص من جملة الصور ، ثم ثبتت الكراهية فيه بقوله عليه السلام لعائشة فى الثوب : "أخريه عنى فإنى كلما رأيته ذكرت الدنيا" . ثم بهتكه[2] الثوب المصور على عائشة منع منه ، ثم بقطعها له وسادتين حتى تغيرت الصورة وخرجت عن هيئتها ؛ فإن جواز ذلك إذا لم تكن الصورة فيه متصلة الهيئة ، ولو كانت متصلة الهيئة لم يجز ؛ لقولها فى النمرقة[3] المصورة : اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها ، فمنع منه وتوعد عليه . وتبين بحديث الصلاة إلى الصور أن ذلك جائز فى الرقم فى الثوب ثم نسخه المنع منه . فهكذا استقر الأمر فيه والله أعلم ؛ قاله ابن العربى .

السادســة ــ روى مسلم عن عائشة قالت : كان لنا ستر فيه تمثال طائر وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حولى هذا فإنى كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا" . قالت : وكانت لنا قطيفة كنا نقول علمها حرير ، فكنا نلبسها . وعنها قالت : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مستترة بقرام[4] فيه صورة ، فتلون وجهه ؛

---

(١) الرقم : النقش والوشى . (٢) الهتك : الخرق والشق . (٣) النمرقة (بضم النون والراء يكسرهما وبغير هاء) : الوسادة . (٤) القرام : الستر الرقيق .

ثم تناول الستر فهتكه ، ثم قال : " إنّ من أشدّ الناس عذابا يوم القيامة الذين يُشَبِّهونَ بخلق الله عز وجل " . وعنها : أنه كان لها ثوب فيه تصاوير ممدود إلى سَهْوة(١) ، فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلي إليه فقال : " أخّريه عني " قالت : فأخرته فجعلته وسادتين . قال بعض العلماء : ويمكن أن يكون تهتيكه عليه السلام الثوب وأمره بتأخيره ورعا ، لأن محل النبوة والرسالة الكمال . فتأمله .

السابعــة ــ قال المُزَني عن الشافعيّ : إن دعى رجل إلى عرس فرأى صورة ذات روح أو صـورا ذات أرواح ، لم يدخل إن كانت منصوبة . وإن كانت توطأ فلا بأس ، وإن كانت صور الشجر . ولم يختلفوا أن التصاوير في الستور المعلقة مكروهة غير محرمة . وكذلك عندهم ما كان خرطا أو نقشا في البناء . واستثنى بعضهم " ما كان رقما في ثوب " ؛ لحديث سهل بن حُنيف .

قلت : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المصوِّرين ولم يستثن . وقوله : " إن أصحاب هـذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم أحيُوا ما خلقتم " ولم يستثن . وفي الترمذيّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يخرج عُنُق(٢) من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول إني وُكّلت بثـلاث بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلٰها آخر وبالمصورين " قال أبو عيسى : هـذا حديث حسن غريب صحيح . وفي البخاريّ ومسلم عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أشد النـاس عذابا يوم القيامة المصوّرون " . يدل على المنع من تصوير شيء ، أي شيء كان . وقد قال جل وعزّ : « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا(٣) » على ما تقدّم بيانه فاعلمه .

الثامنــة ــ وقد آستثنى من هذا الباب لُعَب البنات ، لما ثبت عن عائشة رضى الله عنها أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تزوجها وهي بنت سبع سنين ، وزُفّت إليه وهي بنت تسع

(١) السهوة : بيت صغير منحدر في الأرض قليلا شبيه بالمخدع والخزانة . وقيل : هو كالصفة تكون بين يدى البيت . وقيل : شبيه بالرف أو الطاق يوضع فيه الشيء. (٢) العنق : القطعة . (٣) آية ٦٠ سورة النمل .

ولُعَبُها معها؛ ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة. وعنها أيضا قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان لى صواحب يلعبن معى؛ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل يتقمّعن(1) منه فيُسَرِّبُهن(2) إلىّ فيلعبن معى. خرجهما مسلم. قال العلماء: وذلك للضرورة إلى ذلك وحاجة البنات حتى يتدرّبن على تربية أولادهنّ. ثم إنه لا بقاء لذلك، وكذلك ما يصنع من الحلاوة أو من العجين لا بقاء له؛ فرخّص فى ذلك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ﴾ قال ابن عرفة: الجوابى جمع الجابية، وهى حُفَيرة كالحوض. وقال مجاهد: كحياض الإبل. وقال ابن القاسم عن مالك: كالجَوْبة من الأرض؛ والمعنى متقارب. وكان يقعد على الجَفْنة الواحدة ألف رجل. النحاس: «وجفان كالجواب» الأولى أن تكون بالياء، ومن حذف الياء قال سبيل الألف واللام أن تدخل على النكرة فلا يغيرها عن حالها؛ فلما كان يقال جوابٍ ودخلت الألف واللام أقرّ على حاله فحذف الياء. وواحد الجوابى جابية، وهى القدر العظيمة، والحوض العظيم الكبير الذى يُجْبَى فيه الشيء أى يجمع؛ ومنه جَبيت الخراج؛ وجبيت الجراد أى جعلت الكساء فجمعته فيه. إلا أن لَيْثاً روى عن مجاهد قال: الجوابى جمع جَوبة؛ والجوبة الحفرة الكبيرة تكون فى الجبل فيها ماء المطر. وقال الكسائى: جَبَوْت الماء فى الحوض وجبيته أى جمعته، والجابية: الحوض الذى يجبى فيه الماء للإبل، قال:

تروح على آل المُحَلَّق جَفْنَةٌ * كجابية الشيخ العراقيّ تَفْهَق(3)

ويروى أيضا:

نفى الذمَّ عن آل المُحَلَّق جفنةٌ * كجابية السيح(4) ... ...

ذكره النحاس.

---

(1) أى يتغيبن ويدخلن فى بيت أو من وراء ستر؛ حياء وهيبة له عليه السلام. (2) أى يرسلهن ويبعثهن.
(3) البيت للأعشى. والفهق: الامتلاء. وخص العراق لجهله بالمياه لأنه حضرى؛ فإذا وجدها ملأ جابيته وأعدها ولم يدر متى يجد المياه؛ وأما البدوى فهو عالم بالمياه فهو لا يبالى ألا يعدّها. (4) السيح: الماء الظاهر الجارى على وجه الأرض.

قوله تعالى : ﴿ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ قال سعيد بن جُبير : هى قدور النحاس تكون بفارس . وقال الضحاك : هى قدور تعمل من الجبال . غيره : قد نُحتت من الجبال الصم مما عملت له الشياطين؛ أثافيها[1] منها منحوتة هكذا من الجبال . ومعنى « راسيات » ثوابت، لا تُحمل ولا تحرك لعظمها . قال ابن العربى : وكذلك كانت قدور عبد الله بن جُدْعان، يصعد إليها فى الجاهلية بسُلّم . وعنها عبّر طرَفة بن العبد بقوله :

كالجوابى لا تَنِى مُتْرَعةً * لِقِرَى الأضياف أو للمحتضِرْ

قال ابن العربى : ورأيت برباط أبى سعيد قدور الصوفية على نحو ذلك، فإنهم يطبخون جميعا ويأكلون جميعا من غير استئثار واحد منهم على أحد .

قوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ قد مضى معنى الشكر فى «البقرة»[2] وغيرها . وروى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فتلا هذه الآية ثم قال : "ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود" قال فقلنا : ما هن ؟ فقال : "العدل فى الرضا والغضب . والقصد فى الفقر والغنى . وخشية الله فى السر والعلانية" . خرّجه الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة . وروى أن داود عليه السلام قال : "يا ربّ كيف أطيق شكرك على نعمك، وإلهامى وقدرتى على شكرك نعمةٌ لك" فقال : "يا داود الآن عرفتنى" . وقد مضى هذا المعنى فى سورة «إبراهيم»[3] . وأن الشكر حقيقته الاعتراف بالنعمة للنعم واستعمالها فى طاعته، والكفران استعمالها فى المعصية . وقليل من يفعل ذلك؛ لأن الخير أقلّ من الشر، والطاعة أقل من المعصية؛ بحسب سابق التقدير . وقال مجاهد : لما قال الله تعالى «اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا» قال داود لسليمان : إن الله عزّ وجلّ قد ذكر الشكر فاكفنى صلاة النهار أكفك صلاة الليل؛ قال : لا أقدر . قال : فاكفنى ــ قال الفاريابى : أراه قال إلى صلاة الظهر ــ قال نعم؛ فكفاه . وقال الزهرى : « اعملوا

---

(١) الأثافى (جمع الأثفية) : ما يوضع عليه القدر . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) راجع جـ ٩ ص ٣٤٣ .

آل داود شكرا » أى قولوا الحمد لله . و« شُكْرًا » نصب على جهة المفعول ؛ أى اعملوا عملا هو الشكر. وكأن الصلاة والصيام والعبادات كلها هى فى نفسها الشكر إذ سدّت مسدّه؛ ويبين هذا قوله تعالى : «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ»(١) وهو المراد بقوله « وقليل من عبادىَ الشكور» . وقد قال سفيان بن عُيَيْنة فى تأويل قوله تعالى « أَنِ اشْكُرْ لِى » أن المراد بالشكر الصلوات الخمس . وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تَفَطَّر(٢) قدماه ؛ فقالت له عائشة رضى الله عنها : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: "أفلا أكون عبدا شكورا". انفرد بإخراجه مسلم . فظاهر القرآن والسنة أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان؛ فالشكر بالأفعال عمل الأركان، والشكر بالأقوال عمل اللسان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ ﴾ يحتمل أن يكون مخاطبة لآل داود، ويحتمل أن يكون مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عطية : وعلى كل وجه ففيه تنبيه وتحريض. وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلا يقول : اللهم اجعلنى من القليل ؛ فقال عمر : ما هذا الدعاء ؟ فقال الرجل : أردت قوله تعالى «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ» . فقال عمر رضى الله عنه : كل الناس أعلم منك يا عمر ! وروى أن سليمان عليه السلام كان يأكل الشعير ويطعم أهله الخشكار(٣) ويطعم المساكين الدَّرْمَك(٤). وقد قيل: إنه كان يأكل الرماد ويتوسده؛ والأول أصح، إذ الرماد ليس بقوت . وروى أنه ما شبع قطّ ؛ فقيل له فى ذلك فقال : أخاف إن شبعت أن أنسى الجياع . وهذا من الشكر ومن القليل؛ فتأمله، والله أعلم.

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

(١) آية ٢٤ سورة ص (٢) تفطر : تتشقق. (٣) الخشكار: ما خشن من الطحين (فارسية).
(٤) الدرمك : دقيق الحوّارى . وهو الدقيق الأبيض .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ أى فلما حكمنا على سليمان بالموت حتى صار كالأمر المفروغ منه ووقع به الموت ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ﴾ وذلك أنه كان متكئا على المِنْسأة (وهى العصاة بلسان الحبشة ، فى قول السُّدِّى . وقيل : هى بلغة اليمن ؛ ذكره القشيرى) فمات كذلك وبقى خافى الحال إلى أن سقط ميتا لانكسار العصا لأكل الأَرَضة إياها ، فعُلم موته بذلك ، فكانت الأَرَضة دالّة على موته ، أى سببا لظهور موته ، وكان سأل الله تعالى ألّا يعلموا بموته حتى تمضى عليه سنة . واختلفوا فى سبب سؤاله لذلك على قولين : أحدهما ما قاله قتادة وغيره ، قال : كانت الجن تدّعى علم الغيب ، فلما مات سليمان عليه السلام وخفى موته عليهم ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ . ابن مسعود : أقام حولا والجن تعمل بين يديه حتى أكلت الأَرَضة مِنْسأته فسقط . ويروى أنه لما سقط لم يعلم منذ مات ؛ فوُضعت الأَرَضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة ثم حسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة . وقيل : كان رؤساء الجن سبعة ، وكانوا منقادين لسليمان عليه السلام ، وكان داود عليه السلام أسّس بيت المقدس فلما مات أوصى إلى سليمان فى إتمام مسجد بيت المقدس ، فأمر سليمان الجن به ؛ فلما دنا وفاته قال لأهله : لا تخبروهم بموتى حتى يتموا بناء المسجد ، وكان بقى لإتمامه سنة . وفى الخبر أن ملَك الموت كان صديقه فسأله عن آية موته فقال : أن تخرج من موضع سجودك شجرةٌ يقال لها الخَرُّوبة ، فلم يكن يوم يصبح فيه إلا تنبت فى بيت المقدس شجرة فيسألها : ما اسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمى كذا وكذا ؛ فيقول : ولأى شىء أنت ؟ فتقول : لكذا ولكذا ؛ فيأمر بها فتقطع ، ويغرسها فى بستان له ؛ ويأمر بكتب منافعها ومضارّها واسمها وما تصلح له فى الطب ؛ فبينما هو يصلّى ذات يوم إذ رأى شجرة نبتت بين يديه فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروبة ؛ قال : ولأى شىء أنت ؟ قالت : لخراب هذا المسجد ؛ فقال سليمان : ما كان الله ليخربه وأنا حىّ ، أنتِ التى على وجهك هلاكى وهلاك بيت المقدس ! فنزعها وغرسها فى حائطه ثم قال : اللهم عمّ عن الجن موتى حتى تعلم الإنس أن

الجن لا يعلمون الغيب . وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ، وأنهم يعلمون ما في غد؛ ثم لبس كفنه وتحنّط ودخل المحراب وقام يصلي واتكأ على عصاه على كرسيّه، فمات ولم تعلم الجن إلى أن مضت سنة وتم بناء المسجد . قال أبو جعفر النحاس : وهذا أحسن ما قيل في الآية ؛ ويدل على صحته الحديث المرفوع ، روى إبراهيم بن طُهمان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كان نبيّ الله سليمان بن داود عليهما السلام إذا صلّى رأى شجرة نابتة بين يديه فيسألها ما اسمك ؟ فإن كانت لغرس غُرِست وإن كانت لدواء كُتِبت ؛ فبينما هو يصلّي ذات يوم إذا شجرة نابتة بين يديه قال ما اسمك ؟ قالت الخرنوبة ؛ فقال : لأي شيء أنت ؟ فقالت : لخراب هذا البيت ؛ فقال : اللّهمّ عمّ عن الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب؛ فنحتها عصًا فتوكأ عليها حولا لا يعلمون فسقطت، فعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فنظروا مقدار ذلك فوجدوه سنة . وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس « تَبَيَّنَتِ الإِنْسُ أَنْ لَوْ كَانَ الْجِنُّ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ » . وقرأ يعقوب في رواية رُوَيْس « تُبُيِّنَتِ الجِنُّ » غير مسمى الفاعل . ونافع وأبو عمرو « تأكل مِنْسَاتَه » بألف بين السين والتاء من غير همز . والباقون بهمزة مفتوحة موضع الألف ، لغتان ؛ إلا أن ابن ذكوان أسكن الهمزة تخفيفا؛ قال الشاعر في ترك الهمزة :

إذا دَبَبْتَ على المِنْساة من كِبَرٍ * فقد تباعد عنك اللّهوُ والغَزَلُ

وقال آخر فهمز وفتح :

ضربنا بمِنْسأة وجهه * فصار بذاك مهينا ذليلا

وقال آخر :

أمن أجل حَبْلٍ لا أباك ضربته * بمنسأة قد جر حبلك أَحْبُلا

وقال آخر فسكن همزها :

وقائم قد قام من تُكَأَتِهْ * كقومة الشيخ إلى مِنْسَأْتِهْ

وأصلها من : نسأت الغنم أى زجرتها وسقتها ؛ فسمّيت العصا بذلك لأنه يزجر بها الشيء ويساق . وقال طَرَفة :

أمُونٍ كألواح الإران نَسَأتها * على لاحِب كأنه ظَهْرُ بُرْجُدِ

قال النحاس : واشتقاقها يدل على أنها مهموزة ؛ لأنها مشتقة من نسأته أى أخرته ودفعته فقيل لها مِنْسَأة لأنها يدفع بها الشيء ويؤخر . وقال مجاهد وعكرمة : هى العصا ، ثم قرأ « منساته » أبدل من الهمزة ألفا ؛ فإن قيل : البدل من الهمزة قبيح جدا وإنما يجوز فى الشعر على بُعْد وشذوذ ، وأبو عمرو بن العلاء لا يغيب عنه مثل هذا لا سيما وأهل المدينة على هذه القراءة ؛ فالجواب على هذا أن العرب استعملت فى هذه الكلمة البدل ونطقوا بها هكذا كما يقع البدل فى غير هذا ولا يقاس عليه حتى قال أبو عمرو : ولست أدرى ممن هو إلا أنها غير مهموزة لأن ما كان مهموزا فقد يترك همزه وما لم يكن مهموزا لم يجز همزه بوجه . المهدوى : ومن قرأ بهمزة ساكنة فهو شاذّ بعيد ؛ لأن هاء التأنيث لا يكون ما قبلها إلا متحركا أو ألفا ، لكنه يجوز أن يكون ما سكن من المفتوح استخفافا ، ويجوز أن يكون لما أبدل الهمزة ألفا على غير قياس قلب الألف همزة كما قلبوها فى قولهم العألم والخأتم ، وروى عن سعيد بن جُبير « مِن » مفصولة « سأته » مهموزة مكسورة التاء ؛ فقيل : إنه من سئة القوس فى لغة من همزها ، وقد روى همز سِيَة القوس عن رُؤبة . قال الجوهرى : سية القوس ما عطف من طرفيها ، والجمع سِيَات ، والهاء عوض من الواو ، والنسبة إليها سِيَوِىّ . قال أبو عبيدة : كان رؤبة يهمز « سية القوس » وسائر العرب لا يهمزونها .

وفى دابة الأرض قولان : أحدهما ـــ أنها الأَرَضة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقد قرئ « دابة الأَرَض » بفتح الراء ، وهو جمع الأَرَضة ؛ ذكره الماوردى . الثانى ـــ أنها دابة تأكل العيدان . قال الجوهرى : والأَرَضة (بالتحريك) : دُوَيْبة تأكل الخشب ؛ يقال : أرِضت الخشبة تُؤرض أرْضا (بالتسكين) فهى مأروضة إذا أكلتها .

(١) الأمون : التى يؤمن عثارها . والإران : تابوت الموتى . واللاحب : الطريق الواضح . والبرجد : كساء مخطط . وقد ورد بعد هذا البيت فى بعض نسخ الأصل : « فسكن همزها » وهو غير ظاهر . (٢) فى نسخ الأصل : « وهو تأبخذ » .

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا خَرَّ ﴾ أى سقط ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ ﴾ قال الزجاج : أى تبينت الجن موته . وقال غيره : المعنى تبين أمر الجن ؛ مثل : واسأل القرية . وفى التفسير بالأسانيد الصحاح عن ابن عباس قال : أقام سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام حولا لا يُعلم بموته وهو متكئ على عصاه ، والجن منصرفة فيما كان أمرها به ، ثم سقط بعد حول ؛ فلما خرّ تبينت الإنس أن لو كان الجن يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين . وهذه القراءة من ابن عباس على جهة التفسير . وفى الخبر : أن الجن شكرت ذلك للأرَضة فأينما كانت يأتونها بالماء . قال السُّدّى : والطين ، ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب فإنه مما يأتيها به الشياطين (١) شكرا ؛ وقالت : لو كنت تأكلين الطعام والشراب لأتيناك بهما . و « أنْ » فى موضع رفع على البدل من الجن ، والتقدير : تبين أمر الجن ، فحذف المضاف ، أى تبين وظهر للإنس وانكشف لهم أمر الجن أنهم لا يعلمون الغيب . وهذا بدل الاشتمال . ويجوز أن تكون فى موضع نصب على تقدير حذف اللام . و « لَبِثُوا » أقاموا . و « العذاب المُهين » السُّخرة والحمل والبنيان وغير ذلك . وعمّر سليمان ثلاثا وخمسين سنة ، ومدّة ملكه أربعون سنة ؛ فملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وابتدأ فى بنيان بيت المقدس وهو ابن سبع عشرة سنة . وقال السُّدّى وغيره : كان عمر سليمان سبعا وستين سنة ، وملك وهو ابن سبع عشرة سنة ، وابتدأ فى بنيان بيت المقدس وهو ابن عشرين سنة ، وكان ملكه خمسين سنة . وحكى أن سليمان عليه السلام ابتدأ بنيان بيت المقدس فى السنة الرابعة من ملكه ، وقرّب بعد فراغه منه اثنى عشر ألف ثور ومائة وعشرين ألف شاة ، واتخذ اليوم الذى فرغ فيه من بنائه عيدا ، وقام على الصخرة رافعا يديه إلى الله تعالى بالدعاء فقال : اللهُمّ أنت وهبت لى هذا السلطان وقوّيتنى على بناء هذا المسجد ، اللهُمّ فأوزعنى شكرك على ما أنعمت علىّ وتوفّنى على ملّتك ولا تُزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، اللهُمّ إنى أسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصال : لا يدخله مذنب دخل للتوبة إلا غفرتَ له وتبت عليه . ولا خائفٌ إلا أمّنته . ولا سقيمٌ

(١) فى الأصل : « فإنها مما يأتيها بها » .

إلا شقيته ، ولا فقير إلا أغنيته ، والخامس ـ ألا تصرف نظرك عمن دخله حتى يخرج منه؛ إلا من أراد إلحادًا أو ظلما، يارب العالمين؛ ذكره الماوردى .

قلت : وهذا أصح مما تقدم أنه لم يفرغ بناؤه إلا بعد موته بسنة، والدليل على صحة هذا ماخرجه النسائى وغيره بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم "أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالا ثلاثة : حكما يصادف حكمه فأوتيه وسأل الله تعالى ملكا لا ينبغى لأحد من بعده فأوتيه وسأل الله تعالى حين فرغ من بنائه المسجد ألا يأتيه أحد لا يَنْهَزه(١) إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه" وقد ذكرنا هذا الحديث فى «آل عمران(٢)» وذكرنا بناءه فى «سبحان(٣)» .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسَاكِنِهِمْ(٤) آيَةٌ﴾ قرأ نافع وغيره بالصرف والتنوين على أنه اسم حى ، وهو فى الأصل اسم رجل؛ جاء بذلك التوقيف عن النبى صلى الله عليه وسلم . روى الترمذى قال : حدثنا أبو كريب وعبد بن حميد قالا حدثنا أبو أسامة عن الحسن بن الحكم النخعى قال حدثنا أبو سبرة النخعى عن فروة بن مسيك المرادى قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله، ألا أقاتل من أدبر من قومى بمن أقبل منهم؛ فأذن لى فى قتالهم وأمرنى ، فلما خرجت من عنده سأل عنى: "مافعل الغُطَيفى(٥)" ؟ فأخبر أنى قد سرت، قال : فأرسل فى أثرى فردنى فأتيته وهو فى نفر من أصحابه فقال : "ادع القوم فمن أسلم منهم فاقبل منه ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك ؛ قال : وأنزل فى سبأ ما أنزل؛ فقال رجل: يارسول الله، وما سبأ؟ أرضٌ أو امرأة؟ قال : ليس بأرض ولا بامرأة

---

(١) أى لا يحركه . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٣٧ (٣) راجع جـ ١٠ ص ٢١١
(٤) «فى مساكنهم» قراءة نافع وبها كان يقرأ المؤلف رحمة الله عليه . (٥) فى الأصول والترمذى: «القطيفى» بالقاف بدل الغين وهو تحريف .

ولكنه رجل ولد عشرة من العرب فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وغسان وعاملة وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار . فقال رجل : يارسول الله وما أنمار ؟ قال : "الذين منهم خثعم وبجيلة" . وروى هذا عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « لِسَبَأَ » بغير صرف ، جعله اسما للقبيلة ، وهو اختيار أبي عبيد ، واستدل على أنه اسم قبيلة أن بعده « في مساكنهم » . النحاس : ولو كان كما قال لكان في مساكنها . وقد مضى في « النمل »(1) زيادة بيان لهذا المعنى . وقال الشاعر في الصرف :

الواردون وتيمٌ في ذُرا سبأ * قد عضّ أعناقهم جلدُ الجواميس

وقال آخر في غير الصرف :

من سبأَ الحاضرين مأربَ إذ * يبنُون من دون سَيلها العَرِما

وقرأ قُنبُل وأبو حَيْوة والجحْدَرِي « لسبأْ » بإسكان الهمزة . « فِي مَسَاكِنِهِمْ » قراءة العامة على الجمع ، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ لأن لهم مساكن كثيرة وليس بمسكن واحد . وقرأ إبراهيم وحمزة وحفص « مسكنِهم » موحّدا ، إلا أنهم فتحوا الكاف . وقرأ يحيى والأعمش والكسائي موحّدا كذلك ، إلا أنهم كسروا الكاف . قال النحاس : ومساكن في هذا أبين ؛ لأنه يجمع اللفظ والمعنى ، فإذا قلت « مسكنهم » كان فيه تقديران : أحدهما ـ أن يكون واحدا يؤدى عن الجمع . والآخر ـ أن يكون مصدرا لا يثنى ولا يجمع ؛ كما قال الله تعالى : « خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ »(2) فجاء بالسمع موحّدا . وكذا « مَقْعَدِ صِدْقٍ »(3) و « مَسْكِن » مثل مسجد ، خارج عن القياس ، ولا يوجد مثله إلا سماعا . ﴿ آيَةٌ ﴾ اسم كان ، أي علامة دالة على قدرة الله تعالى على أن لهم خالقا خلقهم ، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يُخرجوا من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك ، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها ؛ وفي ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر . ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ يجوز

(1) راجع جـ ١٣ ص ١٨١ (2) آية ٧ سورة البقرة . (3) آية ٥٥ سورة القمر .

أن يكون بدلا من « آية » ، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف ، فيوقف على هـذا الوجه على «آية» وليس بتمام. قال الزجاج : أى الآية جنتان، بفتان رفع لأنه خبر ابتداء محذوف . وقال الفراء : رفع تفسيرا للآية، ويجوز أن تنصب « آية » على أنهما خبر كان، ويجوز أن تنصب الجنتين على الخبر أيضا فى غير القرآن . وقال عبد الرحمن بن زيد : إن الآية التى كانت لأهل سبأ فى مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة قطّ ولا ذبابا ولا بُرغوثا ولا قملة ولا عقربا ولا حية ولا غيرها من الهوام، وإذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل والدواب فإذا نظروا إلى بيوتهم ماتت الدواب . وقيل : إن الآية هى الجنتان كانت المرأة تمشى فيهما وعلى رأسها مِكْتَل[1] فيمتلئ من أنواع الفواكه من غير أن تمسّها بيدها ؛ قاله قتادة . وروى أن الجنتين كانتا بين جبلين باليمن . قال سفيان : وجد فيهما قصران مكتوب على أحدهما نحن بنينا سَلْحِين فى سبعين خريفا دائبين ، وعلى الآخر مكتوب : نحن بنينا صِرْواح، مقيل ومَراح ؛ فكانت إحدى الجنتين عن يمين الوادى والأخرى عن شماله . قال القشيرى : ولم يرد جنتين اثنتين بل أراد من الجنتين يمنة ويسرة ؛ أى كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار ؛ تستتر الناس بظلالها . ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ أى قيل لهم كلوا ، ولم يكن ثَمّ أمر ، ولكنهم تمكّنوا من تلك النعم . وقيل : أى قالت الرسل لهم قد أباح الله تعالى لكم ذلك ؛ أى أباح لكم هذه النعم فاشكروه بالطاعة . ﴿ مِن رِزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ أى من ثمار الجنتين . ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ يعنى على ما رزقكم . ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ هـذا كلام مستأنف؛ أى هـذه بلدة طيّبة أى كثيرة الثمار . وقيل : غير سبخة . وقيل : طيّبة ليس فيها هوامّ لطيب هوائها . قال مجاهد : هى صنعاء . ﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أى والمنعم بها عليكم ربّ غفور يستر ذنوبكم ؛ فجمع لهم بين مغفرة ذنوبهم وطيب بلدهم ولم يجمع ذلك لجميع خلقه . وقيل : إنما ذكر المغفرة مشيرا إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام . وقد مضى القول فى هذا فى أوّل «البقرة»[2] . وقيل : إنما امتنّ عليهم بعفوه عن عذاب الاستئصال بتكذيب من كذبوه من سالف الأنبياء إلى أن استداموا الإصرار فاستؤصلوا .

---

(١) المكتل : شبه الزنبيل . (٢) راجع جـ ١ ص ١٧٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦)

قوله تعالى : ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ يعني عن أمره واتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين . قال السُّدّي ووهب : بعث إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبيا فكذّبوهم . قال القُشيري : وكان لهم رئيس يلقّب بالحمار، وكانوا في زمن الفَترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم . وقيل : كان له ولد فمات فرفع رأسه إلى السماء فبزق وكفر؛ ولهذا يقال : أكفر من حمار . وقال الجوهري : وقولهم « أكفر من حمار » هو رجل من عاد مات له أولاد فكفر كفرا عظيما فلا يمرّ بأرضه أحد إلا دعاه إلى الكفر، فإن أجابه وإلا قتله . ثم لما سال السيل بجنتيهم تفرّقوا في البلاد؛ على ما يأتي بيانه . ولهذا قيل في المثل : « تفرّقوا أيادِيَ سَبَا » . وقيل : الأوس والخزرج منهم . ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ والعَرِم فيما روي عن ابن عباس : السدّ . فالتقدير : سَيْلَ السد العرِم . وقال عطاء : العرم اسم الوادي . قتادة : العرم وادي سبأ؛ كانت تجتمع إليه مسايل من الأودية، قيل من البحر وأودية اليمن؛ فردموا ردما بين جبلين وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، فكانوا يسقون من الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث على قدر حاجاتهم ؛ فأخصبوا وكثرت أموالهم، فلما كذّبوا الرسل سلّط الله عليهم الفأر فنقب الردم . قال وهب : كانوا يزعمون أنهم يجدون في علمهم وكهانتهم أنه يخرّب سدّهم فأرة فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا إلى جانبها هرّة؛ فلما جاء ما أراد الله تعالى بهم أقبلت فأرة حمراء إلى بعض تلك الهرر فساورتها حتى استأخرت عن الصخرة ثم وثبت ودخلت في الفرجة التي كانت عندها ونقبت السدّ حتى أوهنته للسيل وهم لا يدرون؛ فلما جاء السيل دخل تلك الخلل حتى بلغ السد وفاض الماء على أموالهم فغرّقها ودفن بيوتهم . وقال الزجاج : العَرِم اسم الجُرَذ الذي نقب السِّكْر عليهم ، وهو الذي يقال له الخُلْد ــ وقاله قتادة أيضا ــ فنسب السيل إليه لأنه بسببه . وقد قال ابن الأعرابي أيضا : العَرِم من

أسماء الفأر . وقال مجاهد وابن أبي نجيح : العَرِم ماء أحمر أرسله الله تعالى في السد فشقه وهدمه . وعن ابن عباس أيضا أن العرم المطر الشديد . وقيل العَرْم بسكون الراء . وعن الضحاك كانوا في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام . وقال عمرو بن شُرحبيل : العرم المُسَنّاة؛ وقاله الجوهري؛ قال : ولا واحد لها من لفظها؛ ويقال واحدها عَرِمة . وقال محمد بن يزيد : العرم كل شيء حاجز بين شيئين، وهو الذي يسمى السِّكْر، وهو جمع عرمة . النحاس : وما يجتمع من مطر بين جبلين وفي وجهه مُسَنّاة فهو العرم، والمسناة هي التي يسميها أهل مصر الجسر؛(1) فكانوا يفتحونها إذا شاءوا فإذا رَويت جنتاهم سدّوها . قال الهَرَوي : المسنّاة الضفيرة تبنى للسيل تردّه؛ سُمّيت مسناة لأن فيها مفاتح الماء . وروى أن العرم سدّ بنته بِلْقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام، وهو المسناة بلغة حِمير، بنته بالصخر والقار، وجعلت له أبوابا ثلاثة بعضها فوق بعض؛ وهو مشتق من العَرَامة وهي الشدّة؛ ومنه : رجل عارم، أي شديد؛ وعَرَمت العظم أعرِمه وأعرُمه عَرْما إذا عَرَقته، وكذلك عَرَمت الإبل الشجرَ أي نالت منه . والعُرام بالضم : العراق من العظم والشجر . وتعرّمت العظم تعرّقته . وصبيّ عارم بيّن العُرام (بالضم) أي شَرِس . وقد عرم يعرم ويعرم عرامة (بالفتح) . والعرِم العارم؛ عن الجوهري .

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ وقرأ أبو عمرو (أُكُلِ خَمْطٍ) بغير تنوين مضافا . قال أهل التفسير والخليل : الخمط الأراك . الجوهري : الخمط ضرب من الأراك له حمل يؤكل . وقال أبو عبيدة : هو كل شجر ذي شوك فيه مرارة . الزجاج : كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله . المبرّد : الخمط كل ما تغيّر إلى ما لا يشتهى . واللبن خَمْط إذا حَمُض . والأولى عنده في القراءة « ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ » بالتنوين على أنه نعت لـ « أُكُل » أو بدل منه؛ لأن الأكل هو الخمط بعينه عنده، فأما الإضافة فباب جوازها أن يكون

---

(1) في بعض نسخ الأصل : « الحبس » ، والحبس (بكسر الحاء) : حجارة أو خشب تبنى في مجرى الماء لتحبسه كي يشرب القوم ويسقوا أموالهم، والجمع أحباس .

تقديرها ذواتى أكل حموضة أو أكل مرارة . وقال الأخفش : والإضافة أحسن فى كلام العرب؛ نحو قولهم : ثوبُ خزٍّ . والخمط : اللبن الحامض . وذكر أبو عبيد أن اللبن إذا ذهب عنه حلاوة الحلب ولم يتغير طعمه فهو سامط، وإن أخذ شيئا من الريح فهو خامط وخميط، فإن أخذ شيئا من طعم فهو مُمَحَّل، فإذا كان فيه طعم الحلاوة فهو فُوهة[1] . وتخمّط الفحل : هَدَر . وتخمّط فلان أى غضب وتكبّر . وتخمّط البحر أى التطم . وخَمَطت الشاة أخمِطها خَمْطاً ، إذا نزعت جلدها وشويتها فهى [خميط ، فإن نزعت شعرها وشويتها فهى][2] سَميط . والخَمْطة : الخمر التى قد أخذت ريح الإدراك كريح التفاح ولم تُدْرِك بعدُ . ويقال هى الحامضة؛ قاله الجوهرى . وقال القُتَبىّ فى أدب الكاتب : يقال للحامضة خمطة، ويقال : الخمطة التى قد أخذت شيئا من الريح ؛ وأنشد :

عُقارٌ كماء النِّيِّ ليست بخمطة * ولا خَلّةٍ يكوِى الشُّروبَ شِهابُها[3]

﴿ وَأَثْلٍ ﴾ قال الفرّاء: هو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولا؛ ومنه اتخذ منبر النبىّ صلى الله عليه وسلم، وللأثل أصول غليظة يتخذ منه الأبواب، وورقه كورق الطرفاء، الواحدة أثلة والجمع أثلات . وقال الحسن : الأثل الخشب . قتادة : هو ضرب من الخشب يشبه الطرّفاء رأيته بفَيْد . وقيل هو السَّمُر . وقال أبو عبيدة : هو شجر النُّضار . [النضار : الذهب . والنضار : خشب يعمل منه قصاع ؛ ومنه : قدح نضار][4] . ﴿ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ قال الفرّاء : هو السَّمُر ؛ ذكره النحاس . وقال الأزهرى : السِّدْر من الشجر سِدْران : برّىّ لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغَسُول وله ثمر عَفِص لا يؤكل، وهو الذى يسمى الضَّال . والثانى سِدْر ينبت على الماء وثمره النَّبق وورقه غَسول يشبه شجر العُنّاب . قال قتادة : بينما شجر القوم من خير شجر إذ صيّره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة

(١) فى المخصص لابن سيده : « ... فهو فوهة صاحب العين : فوهة بالفاء » . وفى كتب اللغة « القوهة بالضم » : اللبن تغير قليلا وفيه حلاوة . والقوهة (كقبرة) : اللبن فيه طعم الحلاوة . (٢) ما بين المربعين ساقط فى نسخ الأصل . وهو من كتب اللغة . (٣) الخلة : التى جاوزت القدر لخرجت من حال الخمر إلى حال الحموضة والخل . والشروب : الندامى . يقول : هى فى لون الحم النىّ . (٤) ما بين المربعين ساقط فى بعض نسخ الأصل .

وأنبت بدلهما الأراك والطرفاء والسدر. القشيرى: وأشجار البوادى لا تسمى جنة وبستانا ولكن لما وقعت الثانية فى مقابلة الأولى أطلق لفظ الجنة؛ وهو كقوله تعالى: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا»(١). ويحتمل أن يرجع قوله «قَلِيلٍ» إلى جملة ما ذكر من الخمط والأثل والسدر.

قوله تعالى: ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ أى هذا التبديل جزاء كفرهم. وموضع «ذلك» نصب؛ أى جزيناهم ذلك بكفرهم. ﴿وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورُ﴾ قراءة العامة «يُجَازَى» بياء مضمومة وزاى مفتوحة، «الكَفُورُ» رفعا على ما لم يسم فاعله. وقرأ يعقوب وحفص وحمزة والكسائى: «نُجَازِى» بالنون وكسر الزاى، «الكَفُورَ» بالنصب، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، قالا: لأن قبله «جَزَيْنَاهُمْ» ولم يقل جُوزوا. النحاس: والأمر فى هذا واسع، والمعنى فيه بيّن، ولو قال قائل: خلق الله تعالى آدم صلى الله عليه وسلم من طين، وقال آخر: خُلق آدم من طين، لكان المعنى واحدا.

مسألة — فى هذه الآية سؤال ليس فى هذه السورة أشد منه، وهو أن يقال: لم خص الله تعالى المجازاة بالكفور ولم يذكر أصحاب المعاصى؟ فتكلم العلماء فى هذا؛ فقال قوم: ليس يُجازَى بهذا الجزاء الذى هو الاصطلام(٢) والإهلاك إلا من كفر. وقال مجاهد: يجازى بمعنى يعاقب؛ وذلك أن المؤمن يكفر الله تعالى عنه سيئاته، والكافر يجازَى بكل سوء عمله؛ فالمؤمن يُجْزَى ولا يُجازَى(٣) لأنه يثاب. وقال طاوس: هو المناقشة فى الحساب، وأما المؤمن فلا يناقش الحساب. وقال قُطْرُب: خلاف هذا، فجعلها فى أهل المعاصى غير الكفار، وقال: المعنى على من كفر بالنعم وعمل بالكبائر. النحاس: وأولى ما قيل فى هذه الآية وأجل مما روى فيها أن الحسن قال مثلا بمثل. وعن عائشة رضى الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) آية ٤٠ سورة الشورى. (٢) الاصطلام: الاستئصال. (٣) فى نسخ الأصل: «ولا يثاب».

يقول : "من حوسب هلك" فقلت : يا نبيّ الله ، فأين قوله جلّ وعزّ « فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا » ؟ قال : "إنما ذلك العرض ومن نوقش الحساب هلك" . وهذا إسناد صحيح ، وشرحه : أن الكافر يكافأ على أعماله ويحاسب عليها ويحبط ما عمل من خير ؛ ويبين هذا قوله تعالى في الأول « ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا » وفي الثاني « وَهَلْ يُجَازَىٰ إِلَّا الْكَفُورُ » ومعنى « يُجَازَى » يكافأ بكل عمل عمله ، ومعنى « جزيناهم » وفيناهم ؛ فهذا حقيقة اللغة ، وإن كان «جازى» يقع بمعنى «جزى» مجازا .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ قال الحسن : يعني بين اليمن والشأم . والقرى التي بورك فيها : الشام والأردن وفلسطين . والبركة : قيل إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية ، بورك فيها بالشجر والثمر والماء . ويحتمل أن يكون « بَارَكْنَا فِيهَا » بكثرة العدد . ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ قال ابن عباس : يريد بين المدينة والشام . وقال قتادة : معنى « ظاهرة » متصلة على الطريق ، يغدون فيقيلون في قرية ويروحون فيبيتون في قرية . وقيل : كان على كل ميل قرية بسوق ، وهو سبب أمن الطريق . قال الحسن : كانت المرأة تخرج معها مغزلها وعلى رأسها مِكْتَلُها ثم تلتهي بمغزلها فلا تأتي بيتها حتى يمتلئ مكتلها من كل الثمار ؛ فكان ما بين الشام واليمن كذلك . وقيل «ظاهرة» أي مرتفعة ؛ قاله المبرد . وقيل : إنما قيل لها « ظاهرة » لظهورها ؛ أي إذا خرجت من هذه ظهرت لك الأخرى ؛ فكانت قرى ظاهرة أي معروفة ؛ يقال : هذا أمر ظاهر أي معروف . ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلنا السير بين قراهم وبين القرى التي باركنا فيها سيرًا مقدّرا من منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قرية ؛ أي جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل في قرية والمبيت في قرية أخرى . وإنما يبالغ الإنسان في السير لعدم الزاد والماء

والخوف الطريق ، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة وترن أينما أراد . ﴿ سِيرُوا فِيهَا ﴾ أى وقلنا لهم سيروا فيها ؛ أى فى هذه المسافة فهو أمر تمكين ؛ أى كانوا يسيرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين ؛ فهو أمر بمعنى الخبر، وفيه إضمار القول . ﴿ لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ﴾ ظرفان ﴿ آمِنِينَ ﴾ نصب على الحال. وقال «ليالى وأياما» بلفظ النكرة تنبيها على قِصر أسفارهم ؛ أى كانوا لا يحتاجون إلى طول السفر لوجود مايحتاجون إليه . قال قتادة : كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظِماء ، وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر فى أمان لا يحرك بعضهم بعضا، ولو لقى الرجلُ قاتلَ أبيه لا يحركه .

قوله تعالى : فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ لما بَطِروا وطغَوْا وسئِموا الراحة ولم يصبروا على العافية تمنوا طول الأسفار والكَدْح فى المعيشة ؛ كقول بنى إسرائيل « فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا »(١) الآية . وكالنضر بن الحارث حين قال « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ »(٢) فأجابه الله تبارك وتعالى ، وقُتل يوم بدر بالسيف صَبْرا(٣) ؛ فكذلك هؤلاء تبدّدوا فى الدنيا ومُزّقوا كل مُمزَّق ، وجُعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الرواحل و يتزودون الأزواد . وقراءة العامة « رَبَّنَا » بالنصب على أنه نداء مضاف، وهو منصوب لأنه مفعول به ؛ لأن معناه : ناديْت ودعوْت. «بَاعِدْ» سألوا المباعدة فى أسفارهم . وقرأ ابن كَثير وأبو عمرو وابن مُحَيْصِن وهشام عن ابن عامر « رَبَّنَا » كذلك على الدعاء « بَعِّد » من التبعيد . النحاس : وباعد و بعّد واحد فى المعنى؛ كما تقول : قارب وقرّب . وقرأ أبو صالح ومحمد بن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم

(١) آية ٦١ سورة البقرة . (٢) آية ٣٢ سورة الأنفال . (٣) يقال للرجل إذا شدت يداه ورجلاه أو أمسكه رجل آخر حتى يضرب عنقه أو حبس على القتل حتى يقتل : قتل صبرا .

ويعقوب ويروى عن ابن عباس «رَبَّنَا» رفعًا «باعَدَ» بفتح العين والدال على الخبر، تقديره : لقد باعد ربّنا بين أسفارنا ، كأن الله تعالى يقول قرّبنا لهم أسفارهم فقالوا أشرًا وبطرًا لقد بوعدت علينا أسفارنا . واختار هذه القراءة أبو حاتم قال : لأنهم ما طلبوا التبعيد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب بطرًا وعجبًا مع كفرهم . وقراءة يحيى بن يعمر وعيسى بن عمر وتروى عن ابن عباس « ربنا بعّد بين أسفارنا » بشدّ العين من غير ألف، وفسرها ابن عباس قال : شكوا أن ربهم باعد بين أسفارهم . وقراءة سعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصري « ربَّنا بعُدَ بينُ أسفارنا » . « ربّنا » نداء مضاف، ثم أخبروا بعد ذلك فقالوا : « بعُد بينُ أسفارنا» ورفع «بين» بالفعل؛ أي بعدما يتصل بأسفارنا . وروى الفراء وأبو إسحاق قراءة سادسة مثل التي قبلها في ضم العين إلا أنك تنصب «بين» على أنه ظرف، وتقديره في العربية : بعد سيرنا بين أسفارنا . النحاس : وهذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال أحدها أجود من الأخرى؛ كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها ؛ ولكن خبّر عنهم أنهم دعوا ربهم أن يبعد بين أسفارهم بطرا وأشرا ، وخبّر عنهم أنهم لما فعل ذلك بهم خبروا به وشكوا ؛ كما قال ابن عباس . ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي بكفرهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي يُتحدّث بأخبارهم؛ وتقديره في العربية : ذوي أحاديث . ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي لما لحقهم ما لحقهم تفرقوا وتمزقوا . قال الشعبي : فلحقت الأنصار بيثرب وغسّان بالشام، والأسد بعُمان ، وخزاعة بتهامة؛ وكانت العرب تضرب بهم المثل فتقول : تفرقوا أيدي سبا وأيادي سبا ؛ أي مذاهب سبا وطرقها . ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ الصبار الذي يصبر عن المعاصي؛ وهو تكثير صابر يمدح بهذا الاسم . فإن أردت أنه صبر عن المعصية لم يستعمل فيه إلا صبار عن كذا . ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه؛ وقد مضى هذا المعنى في « البقرة »[1] .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧١ و ٣٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ فيه أربع قراءات : قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر ويروى عن مجاهد « وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ » بالتخفيف « إبليسُ » بالرفع « ظنَّهُ » بالنصب ؛ أي في ظنه . قال الزجاج : وهو على المصدر ؛ أي صدق عليهم ظنا ظنه إذ صدق في ظنه ؛ فنصب على المصدر أو على الظرف . وقال أبو علي : « ظنَّه » نصب لأنه مفعول به ؛ أي صدق الظن الذي ظنه إذ قال : « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ » وقال : « لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » ؛ ويجوز تعدية الصدق إلى المفعول به ، ويقال : صدق الحديثَ ، أي في الحديث . وقرأ ابن عباس ويحيى بن وثاب والأعمش وعاصم وحمزة والكسائي « صدّق » بالتشديد « ظنَّه » بالنصب بوقوع الفعل عليه . قال مجاهد : ظن ظنا فكان كما ظن فصدق ظنه . وقرأ جعفر بن محمد وأبو الهجهاج (1) « صدَق عليهم » بالتخفيف « إبليسَ » بالنصب « ظنُّه » بالرفع . قال أبو حاتم : لا وجه لهذه القراءة عندي ، والله تعالى أعلم . وقد أجاز هذه القراءة الفراء وذكرها الزجاج وجعل الظن فاعل « صدق » « إبليسَ » مفعول به ؛ والمعنى : أن إبليس سوّل له ظنه فيهم شيئا فصدق ظنه ؛ فكأنه قال : ولقد صدّق عليهم ظن إبليس و « على » متعلقة بـ « صدق » ؛ كما تقول : صدقت عليك فيما ظننته بك ، ولا تتعلق بالظن لاستحالة تقدم شيء من الصلة على الموصول . والقراءة الرابعة « ولقد صدَق عليهم إبليسُ ظنُّه » برفع إبليس والظن ، مع التخفيف في « صدق » على أن يكون ظنه بدلا من إبليس وهو بدل الاشتمال . ثم قيل : هذا في أهل سبأ ؛ أي كفروا وغيّروا وبدّلوا بعد أن كانوا مسلمين إلا قوما منهم آمنوا برسلهم . وقيل : هذا عام ؛ أي صدق إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع الله تعالى ؛ قاله مجاهد . وقال الحسن : لما أهبط آدم عليه السلام من الجنة ومعه حواء وهبط إبليس قال إبليس : أما إذ أصبتُ من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف ! فكان ذلك ظنا من إبليس ؛ فأنزل الله تعالى : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه » . وقال ابن عباس : إن إبليس قال : خُلقتُ من نار وخلق آدم من طين .

(1) كذا في بعض نسخ الأصل وكتاب إعراب القرآن للنحاس . وفي البعض الآخر : « أبو الهياج » . وفي روح المعاني والبحر المحيط : « أبو الجهجاء » .

والنار تحرق كل شيء « لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا » فصدق ظنه عليهم . وقال زيد بن أسلم : إن إبليس قال يارب أرأيت هؤلاء الذين كرمتهم وشرفتهم وفضلتهم علىّ لا تجد أكثرهم شاكرين؛ ظنا منه فصدق عليهم إبليس ظنه . وقال الكلبي : إنه ظن أنه إن أغواهم أجابوه وإن أضلهم أطاعوه ؛ فصدق ظنه . ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ قال الحسن : ما ضربهم بسوط ولا بعصا وإنما ظن ظنا فكان كما ظن بوسوسته. ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نصب على الاستثناء؛ وفيه قولان : أحدهما أنه يراد به بعض المؤمنين؛ لأن كثيرا من المؤمنين من يذنب وينقاد لإبليس في بعض المعاصي؛ أي ماسلم من المؤمنين أيضا إلا فريق وهو المعنىّ بقوله تعالى: « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » . فأما ابن عباس فعنه أنه قال : هم المؤمنون كلهم ؛ فـ« مِن » على هذا للتبيين لا للتبعيض ؛ فإن قيل كيف علم إبليس صدق ظنه وهو لا يعلم الغيب ؟ قيل له : لما نفذ له في آدم مانفذ غلب على ظنه أنه ينفذ له مثل ذلك في ذريته ، وقد وقع له تحقيق ماظن. وجواب آخر وهو ما أجيب من قوله تعالى: « وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ »[(1)] فأعطى القوة والاستطاعة ، فظن أنه يملكهم كلهم بذلك، فلما رأى أنه تاب على آدم وأنه سيكون له نسل يتبعونه إلى الجنة وقال « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » علم أن له تبعا ولآدم تبعا، فظن أن تبعه أكثر من تبع آدم؛ لما وُضع في يديه من سلطان الشهوات، ووضعت الشهوات في أجواف الآدميين ، فخرج على ما ظن حيث نفخ فيهم وزين في أعينهم تلك الشهوات، ومدّهم إليها بالأماني والخدائع، فصدق عليهم الظن الذي ظنه ، والله أعلم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي لم يقهرهم إبليس على الكفر، إنما كان منه الدعاء والتزيين . والسلطان : القوة . وقيل الحجة ؛ أي لم تكن له حجة يستتبعهم

(١) آية ٦٤ سورة الإسراء .

بها، وإنما اتبعوه بشهوة وتقليد وهوى نفس؛ لا عن حجة ودليل. ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ﴾ يريد علم الشهادة الذى يقع به الثواب والعقاب؛ فأما الغيب فقد علمه تبارك وتعالى. ومذهب الفراء أن يكون المعنى : إلا لنعلم ذلك عندكم؛ كما قال: « أين شركائى » على قولكم وعندكم؛ وليس قوله « إِلَّا لِنَعْلَمَ » جواب « وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ » فى ظاهره إنما هو محمول على المعنى؛ أى وما جعلنا له سلطانا إلا لنعلم؛ فالاستثناء منقطع؛ أى لاسلطان له عليهم ولكنا ابتليناهم بوسوسته لنعلم؛ فـ« إلا » بمعنى لكن . وقيل هو متصل ؛ أى ما كان له عليهم من سلطان ، غير أنّا سلّطناه عليهم ليتم الابتلاء . وقيل : « كَانَ » زائدة ؛ أى وماله عليهم من سلطان؛ كقوله : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ » أى أنتم خير أمة . وقيل : لما اتصل طرف منه بقصة سبأ قال : وما كان لإبليس على أولئك الكفار من سلطان . وقيل : وما كان له فى قضائنا السابق سلطان عليهم . وقيل : « إِلَّا لِنَعْلَمَ » إلا لنظهر ؛ وهو كما تقول : النار تحرق الحطب ، فيقول آخر لا بل الحطب يحرق النار ، فيقول الأول تعال حتى نجرب النار والحطب لنعلم أيهما يحرق صاحبه ؛ أى لنظهر ذلك وإن كان معلوما لهم ذلك . وقيل : إلا لتعلموا أنتم . وقيل : أى ليعلم أولياؤنا والملائكة؛ كقوله « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى يحاربون أولياء الله ورسوله . وقيل : أى ليميز؛ كقوله « لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »[1] وغيرها . وقرأ الزهرى « إِلَّا لِيُعْلَمَ » على ما لم يسم فاعله . ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أى أنه عالم بكل شيء . وقيل : يحفظ كل شيء على العبد حتى يجازيه عليه .

قوله تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٥٦ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي هذا الذي مضى ذكره من أمر داود وسليمان وقصة سبأ من آثار قدرتي ، فقل يا محمد لهؤلاء المشركين هل عند شركائكم قدرة على شيء من ذلك . وهذا خطاب توبيخ ، وفيه إضمار : أي ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة لكم من دون الله لتنفعكم أو لتدفع عنكم ما قضاه الله تبارك وتعالى عليكم ؛ فإنهم لا يملكون ذلك ، و ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ أي ما لله من هؤلاء من معين على خلق شيء ، بل الله المنفرد بالإيجاد ؛ فهو الذي يُعبَد ، وعبادة غيره محال .

قوله تعالى : وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ ﴾ أي شفاعة الملائكة وغيرهم . ﴿ عِندَهُ ﴾ أي عند الله . ﴿ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ قراءة العامة « أَذِنَ » بفتح الهمزة ؛ لذكر الله تعالى أولا . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي « أُذِنَ » بضم الهمزة على ما لم يسم فاعله . والآذن هو الله تعالى . و « مَن » يجوز أن ترجع إلى الشافعين ، ويجوز أن ترجع إلى المشفوع لهم . ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : خُلّي عن قلوبهم الفزع . قُطْرُب : أخرج ما فيها من الخوف . مجاهد : كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة ؛ أي إن الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام ؛ إلا أن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة وهم على غاية الفزع من الله ؛ كما قال : « وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ »[(1)] . والمعنى : أنه إذا أذن لهم في الشفاعة وورد عليهم كلام الله فزعوا ؛ لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف أن يقع في تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير ، فإذا سُرِّيَ عنهم قالوا للملائكة فوقهم وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالإذن : ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ أي ماذا أمر الله به ؛ فيقولون لهم ﴿ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ وهو أنه أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين . ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ فله أن يحكم في عباده بما

(١) آية ٢٨ سورة الأنبياء .

يريد . ثم يجوز أن يكون هذا إذنًا لهم في الدنيا في شفاعة أقوام، ويجوز أن يكون في الآخرة . وفي الكلام إضمار ، أي ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ففزع لما ورد عليه من الإذن تهيبًا لكلام الله تعالى، حتى إذا ذهب الفزع عن قلوبهم أجاب بالانقياد . وقيل : هذا الفزع يكون اليوم للملائكة في كل أمر يأمر به الرب تعالى، أي لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم اليوم فزعون، مطيعون لله تعالى دون الجمادات والشياطين . وفي صحيح الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قضى الله في السماء أمرا ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانا لقوله كأنها سلسلة على صَفْوانٍ[1] فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير — قال — والشياطين بعضهم فوق بعض" قال : حديث حسن صحيح . وقال النواس بن سِمْعان قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن الله إذا أراد أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة أو رعدة شديدة خوفا من الله تعالى فإذا سمع أهل السموات ذلك صعقوا وخرّوا لله تعالى سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله تعالى ويقول له من وحيه ما أراد ثم يمرّ جبريل بالملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل فيقول جبريل قال الحق وهو العلي الكبير — قال — فيقول كلهم كما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله تعالى" . وذكر البيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى « حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم » قال : كان لكل قبيل من الجن مقعد من السماء يستمعون منه الوحي ، وكان إذا نزل الوحي سمع له صوت كإمرار السلسلة على الصَّفْوان ، فلا ينزل على أهل سماء إلا صَعِقوا فإذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ، ثم يقول يكون العام كذا ويكون كذا فتسمعه الجن فيخبرون به الكهنةَ والكهنةُ الناسَ [يقولون] يكون العام كذا وكذا فيجدونه كذلك ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم دُحِروا بالشُّهب فقالت العرب حين لم تخبرهم الجن بذلك : هلك من في السماء ، فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيرا ، وصاحب البقر ينحر كل يوم بقرة ،

(١) الصفوان : الصخر الأملس .

وصاحب الغنم يجزر كل يوم شاة؛ حتى أسرعوا فى أموالهم فقالت ثقيف وكانت أعقل العرب: أيها الناس! أمسكوا على أموالكم، فإنه لم يمت من فى السماء، وإن هذا ليس بانتثار، ألستم ترون معالمكم من النجوم كما هى والشمس والقمر والليل والنهار! قال فقال إبليس: لقد حدث فى الأرض اليوم حَدَث، فأتونى من تربة كل أرض فأتوه بها، فجعل يَشُمّها فلما شم تربة مكة قال من ها هنا جاء الحَدَث؛ فنصتوا فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث. وقد مضى هذا المعنى مرفوعا مختصرا فى سورة «الحجر»[1]، ومعنى القول أيضا فى رميهم بالشهب وإحراقهم بها، ويأتى فى سورة «الجن» بيان ذلك إن شاء الله تعالى. وقيل: إنما يفزعون من قيام الساعة. وقال الكلبي وكعب: كان بين عيسى ومحمد عليهما السلام فترة خمسمائة وخمسون سنة لا يجيء فيها الرسل؛ فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم كلم الله تعالى جبريل بالرسالة، فلما سمعت الملائكة الكلام ظنوا أنها الساعة قد قامت، فصعقوا مما سمعوا، فلما انحدر جبريل عليه السلام جعل يمر بكل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رءوسهم ويقول بعضهم لبعض ما ذا قال ربكم فلم يدروا ما قال ولكنهم قالوا قال الحق وهو العلى الكبير؛ وذلك أن محمدا عليه السلام عند أهل السموات من أشراط الساعة. وقال الضحاك: إن الملائكة المعقِّبات الذين يختلفون إلى أهل الأرض يكتبون أعمالهم، يرسلهم الرب تبارك وتعالى، فاذا انحدروا سمع لهم صوت شديد فيحسب الذين هم أسفل من الملائكة أنه من أمر الساعة، فيخرون سُجّدًا ويَصْعقون حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة. وهذا تنبيه من الله تعالى وإخبار أن الملائكة مع اصطفائهم ورفعتهم لا يمكنهم أن يشفعوا لأحد حتى يؤذن لهم، فاذا أذن لهم وسمعوا صَعِقوا، وكان هذه حالهم، فكيف تشفع الأصنام أو كيف تؤملون أنتم الشفاعة ولا تعترفون بالقيامة. وقال الحسن وابن زيد ومجاهد: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين. قال الحسن ومجاهد وابن زيد: فى الآخرة عند نزول الموت، إقامة للحجة عليهم قالت الملائكة لهم: ماذا قال ربكم فى الدنيا قالوا الحق وهو العلى الكبير؛ فأقروا

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠.

حين لا ينفعهم الإقرار ؛ أى قالوا قال الحق . وقراءة العامة « فُزِّع عن قلوبهم » . وقرأ ابن عباس « فَزَّع عن قلوبهم » مسمّى الفاعل وفاعله ضمير يرجع إلى اسم الله تعالى . ومن بناه للمفعول فالجار والمجرور فى موضع رفع ، والفعل فى المعنى لله تبارك وتعالى . والمعنى فى القراءتين : أزيل الفزع عن قلوبهم ؛ حسبما تقدم بيانه . ومثله : أشكاه ، إذا أزال عنه ما يشكوه . وقرأ الحسن « فُزِع » مثل قراءة العامة ؛ إلا أنه خفّف الزاى ، والجار والمجرور فى موضع رفع أيضا ؛ وهو كقولك : انصرف عن كذا إلى كذا . وكذا معنى « فُرِغَ » بالراء والغين المعجمة والتخفيف غير مسمى الفاعل ؛ رويت عن الحسن أيضا وقتادة . وعنهما أيضا « فَرَغ » بالراء والغين المعجمة مسمى الفاعل ؛ والمعنى : فرغ الله تعالى قلوبهم أى كشف عنها ؛ أى فرغها من الفزع والخوف ؛ وإلى ذلك يرجع البناء للمفعول على هذه القراءة . وعن الحسن أيضا « فُرِّغ » بالتشديد .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ لما ذكر أن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرّة مما يقدر عليه الرب قرر ذلك فقال : قل يا محمد للمشركين « مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ » أى من يخلق لكم هذه الأرزاق الكائنة من السموات ؛ أى عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع . «والأرض» أى الخارجة من الأرض عن الماء والنبات ــ أى لا يمكنهم أن يقولوا هذا فعل آلهتنا ــ فيقولون لا ندرى ، فقل إن الله يفعل ذلك الذى يعلم ما فى نفوسكم . وإن قالوا : إن الله يرزقنا فقد تقررت الحجة بأنه الذى ينبغى أن يعبد . ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ هذا على وجه الإنصاف فى الحجة ؛ كما يقول القائل : أحدنا كاذب ، وهو يعلم أنه صادق وأن صاحبه كاذب . والمعنى : ما نحن وأنتم على أمرٍ واحد ، بل على أمرين متضادّين ، وأحد الفريقين مهتدٍ وهو نحن والآخر ضالٌّ وهو أنتم ؛

فكذبهم بأحسن من تصريح التكذيب ؛ والمعنى : أنتم الضالون حين أشركتم بالذى يرزقكم من السموات والأرض . « أو إياكم » معطوف على اسم « إنّ » ولو عطف على الموضع لكان « أو أنتم » ويكون « لعلى هدى » للاول لا غير . واذا قلت : « أو إياكم » كان للثانى أولى، وحذفت من الأول، ويجوز أن يكون للاول، وهو اختيار المبرد ، قال : ومعناه معنى قول المستبصر لصاحبه على صحة الوعيد والاستظهار بالحجة الواضحة : أحدنا كاذب، وقد عرف المعنى؛ كما تقول : أنا أفعل كذا وتفعل أنت كذا وأحدنا مخطئ ، وقد عرف أنه هو المخطئ، فهكذا « وإنا أو إياكم لعلى هُدًى أو فى ضلال مبين » . و « أو » عند البصريين على بابها وليست للشك ، لكنها على ما تستعمله العرب فى مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين وهو عالم بالمعنى . وقال أبو عبيدة والفراء : هى بمعنى الواو ؛ وتقديره : وإنا على هدى وإياكم فى ضلال مبين . وقال جرير :

أثعلبةَ الفوارس أو رياحًا * عَدَلْتَ بهم طُهَيَّةَ والرِّبابا[1]

يعنى : أثعلبة ورياحا . وقال آخر :

فلما اشتد أمر الحرب فينا * تأملنا رياحا أو رِزاما

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٥)

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ﴾ أى اكتسبنا ، ﴿ وَلَا نُسْأَلُ ﴾ نحن أيضا ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى إنما أقصد بما أدعوكم إليه الخير لكم، لا أنه ينالنى ضرر كفركم؛ وهذا كما قال : « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » والله مجازى الجميع . فهذه آية مهادنة ومتاركة ، وهى منسوخة بالسيف . وقيل : نزل هذا قبل آية السيف .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢٦) .

---

(١) رواية الديوان وكتاب سيبويه : « والخشابا » .

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يريد يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى يقضى فيثيب المهتدى ويعاقب الضال ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ ﴾ أى القاضى بالحق ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوال الخلق . وهذا كله منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ يكون « أرونى » هنا من رؤية القلب، فيكون «شركاء» المفعول الثالث ؛ أى عرّفونى هذه الأصنام والأوثان التى جعلتموها شركاء لله عز وجل، وهل شاركت فى خلق شىء، فبينوا ما هو؟ وإلا فلم تعبدونها . ويجوز أن تكون من رؤية البصر، فيكون « شركاء » حالا . ﴿ كلا ﴾ أى ليس الأمر كما زعمتم . وقيل : إن « كلا » ردّ لجوابهم المحذوف ؛ كأنه قال : أرونى الذين ألحقتم به شركاء . قالوا : هى الأصنام . فقال كلا ؛ أى ليس له شركاء ﴿ بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى وما أرسلناك إلا للناس كافة أى عامة ؛ ففى الكلام تقديم وتأخير . وقال الزجاج : أى وما أرسلناك إلا جامعا للناس بالإنذار والإبلاغ . والكافة بمعنى الجامع . وقيل : معناه كافًّا للناس، تكفهم عما هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام . والهاء للمبالغة . وقيل : أى إلا ذا كافة ؛ فحذف المضاف ، أى ذا منع للناس من أن يشذوا عن تبليغك ، أو ذا منع لهم من الكفر ؛ ومنه :

كف الثوب ، لأنه ضم طرفيه . ﴿ بَشِيراً ﴾ أى بالجنة لمن أطاع . ﴿ ونذيرا ﴾ من النار لمن كفر . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما عند الله وهم المشركون؛ وكانوا فى ذلك الوقت أكثر من المؤمنين عددا . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَـذَا الْوَعْدُ ﴾ يعنى موعدكم لنا بقيام الساعة . ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فقال الله تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : ﴿لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ فلا يغرنكم تأخيره . والميعاد الميقات . ويعنى بهذا الميعاد وقت البعث . وقيل وقت حضور الموت ؛ أى لكم قبل يوم القيامة وقت معيّن تموتون فيه فتعلمون حقيقة قولى . وقيل : أراد بهذا اليوم يوم بدر ؛ لأن ذلك اليوم كان ميعاد عذابهم فى الدنيا فى حكم الله تعالى . وأجاز النحويون « ميعاد يومٌ » على أن يكون « ميعادٌ » ابتداء و « يومٌ » بدل منه ، والخبر « لكم » . وأجازوا « ميعادٌ يومًا » يكون ظرفًا ، وتكون الهاء فى « عنه » ترجع إلى « يوم » . ولا يصح « ميعادُ يومَ لا تستأخرون » بغير تنوين ، وإضافة « يوم » الى ما بعده اذا قدرت الهاء عائدة على اليوم ؛ لأن ذلك يكون من إضافة الشىء إلى نفسه من أجل الهاء التى فى الجملة . ويجوز ذلك على أن تكون الهاء للميعاد لا لليوم .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ
بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ
لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ
عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ
بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا
الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يريد كفار قريش . ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال سعيد عن قتادة : « ولا بالذى بين يديه » من الكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقيل من الآخرة . وقال ابن جُريج : قائل ذلك أبو جهل بن هشام . وقيل : إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد فى كتابنا فسلوه ، فلما سألوه فوافق ما قال أهل الكتاب قال المشركون : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع ؛ وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم ، فظهر بهذا تناقضهم وقلة علمهم . ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن حالهم فيما لهم فقال ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ يا محمد ﴿ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى محبوسون فى موقف الحساب ، يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا فى الدنيا أخلاء متناصرين . وجواب « لو » محذوف ؛ أى لرأيت أمرا هائلا فظيعا . ثم ذكر أىّ شىء يرجع من القول بينهم فقال : ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ فى الدنيا من الكافرين ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم القادة والرؤساء ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى أغويتمونا وأضللتمونا . واللغة الفصيحة « لولا أنتم » ومن العرب من يقول « لولاكم » حكاها سيبويه ؛ تكون « لولا » تخفض المضمر ويرتفع المظهر بعدها بالابتداء ويحذف خبره . ومحمد بن يزيد يقول : لا يجوز « لولاكم » لأن المضمر عقيب المظهر ، فلما كان المظهر مرفوعا بالإجماع وجب أن يكون المضمر أيضا مرفوعا . ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى ﴾ هو استفهام بمعنى الإنكار؛ أى ما رددناكم نحن عن الهدى، ولا أكرهناكم . ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ أى مشركين مصرّين على الكفر . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ المكر أصله فى كلام العرب الاحتيال والخديعة؛ وقد مكر به يمكر فهو ماكر ومكّار . قال الأخفش : هو على تقدير : هذا مكر الليل والنهار . قال النحاس : والمعنى ــ والله أعلم ــ بل مكركم فى الليل والنهار، أى مسارتكم إيانا ودعاؤكم لنا إلى الكفر حملنا على هذا . وقال سفيان الثورى : بل عملكم فى الليل والنهار . قتادة : بل مكركم بالليل والنهار صدّنا ؛ فأضيف المكر إليهما لوقوعه فيهما ؛

وهو كقوله تعالى : « إنّ أجَلَ الله إذا جاءَ لا يُؤَخَّر»[1] فأضاف الأجل إلى نفسه ، ثم قال : « فإذا جاءَ أجَلُهُم لا يستأخِرُونَ ساعةً»[2] إذ كان الأجل لهم . وهذا من قبيل قولك : ليله قائم ونهاره صائم . قال المبرّد : أى بل مكركم الليل والنهار ؛ كما تقول العرب : نهاره صائم وليله قائم . وأنشد لجرير :

لقد لُمْتِنا يا أمَّ غَيْلان فى السُّرَى * ونمتِ وما ليلُ المَطِىّ بنـائم

وأنشد سيبويه : * فنام ليلى وتجلّى همى *

أى نمت فيه . ونظيره : «والنّهارَ مُبصِرًا». وقرأ قتادة «بل مكرٌ الليلَ والنهارَ» بتنوين «مكر» ونصب « الليـل والنهار » ، والتقـدير : بل مكرٌ كائن فى الليل والنهـار ، فحذف . وقـرأ سعيد بن جبير « بل مَكَرُّ » بفتح الكاف وشـدّ الراء بمعنى الكرور، وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف . ويجوز أن يرتفع بفعل مضمر دل عليـه « أنحن صددناكم » كأنهم لـما قالوا لهم أنحن صددناكم عن الهدى قالوا بل صدّنا مَكَرُّ الليـل والنهار . وروى عن سـعيد بن جبير «بل مكر الليل والنهار» قال : مرّ الليلُ والنهار عليهم فغفلوا . وقيل : طول السلامة فيهما؛ كقوله « فطال عليهمُ الأَمَدُ»[3] . وقرأ راشد « بل مَكَرَّ الليلِ والنهار » بالنصب ؛ كما تقول : رأيته مَقْدَمَ الحاج؛ وإنما يجوز هذا فيما يعرف ، لو قلت : رأيته مقدَمَ زيد، لم يجز؛ ذكره النحاس . ﴿ إذْ تَأْمُرُونَنَا أنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ أى أشباها وأمثالا ونظراء . قال محمد بن يزيد : فلانٌ نِدُّ فلانٍ؛ أى مثله . ويقال نَديد؛ وأنشد :

أيْنمـا تجعلون الىّ نِـدّا * وما أنتم لذى حسب نَديد

وقد مضى هذا فى « البقرة »[4] . ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ أى أظهروها، وهو من الأضداد يكون بمعنى الإخفاء والإبداء . قال امرؤ القيس :

تجـاوزت أحراسا وأهوال مَعْشر * علىّ حِـراصا لو يُسِرُّون مَقْتَـلِي[5]

---

(١) آية ٤ سورة نوح . (٢) آية ٣٤ سورة الأعراف . (٣) آية ١٦ سورة الحديد .
(٤) راجع جـ١ ص ٢٣٠ طبعة ثانية أو ثالثة. (٥) هذه رواية البيت كما فى نسخ الأصل والديوان، وروايته فى المعلقات : تجاوزت أحراسا اليها ومعشرا * على حراصا لو يشرون مقتلى
« يشرون » بالشين المعجمة : يظهرون .

« يُسِرُّونَ » . وقيل : « وأسروا الندامة » أى تبينت الندامة فى أسرار وجوههم .
وقيل : الندامة لا تظهر ، وإنما تكون فى القلب ، وإنما يظهر ما يتولد عنها ؛ حسبما تقدم بيانه فى سورة « يونس ، وآل عمران » (١) . وقيل : إظهارهم الندامة قولهم : « فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » (٢) . وقيل : أسروا الندامة فيما بينهم ولم يجهروا القول بها ؛ كما قال : « وأَسَرُّوا النَّجْوَى » (٣) . ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الأغلال جمع غُلّ ؛ يقال : فى رقبته غُلّ من حديد . ومنه قيل للمرأة السيئة الخُلُق : غُلٌّ قَمِل ؛ وأصله أن الغُلّ كان يكون من قدّ وعليه شعر فيَقْمَل . وغَلَلْتُ يده إلى عنقه ؛ وقد غُلّ فهو مغلول ؛ يقال : ماله أُلَّ وغُلَّ (٤) .
والغُلّ أيضا والغُلّة : حرارة العطش ، وكذلك الغليل ؛ يقال منه : غُلَّ الرجلُ يُغَلّ غَلَلاً فهو مغلول ؛ على ما لم يسم فاعله ؛ عن الجوهرى . أى جعلت الجوامع فى أعناق التابعين والمتبوعين . قيل من غير هؤلاء الفريقين . وقيل يرجع « الذين كفروا » إليهم . وقيل : تم الكلام عند قوله « لما رأوا العذاب » ثم ابتدأ فقال « وجعلنا الأغلال » بعد ذلك فى أعناق سائر الكفار . ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فى الدنيا .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٥٢ (٢) آية ١٠٢ سورة الشعراء . (٣) آية ٦٢ سورة طه .
(٤) أل : دفع فى قفاه . وغل : جن ؛ فوضع فى عنقه الغل .

قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ قال قتادة : أى أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها وقادة الشر للرسل ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ . وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ أى فُضّلنا عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربكم راضيا بما نحن عليه من الدّين والفضل لم يخوّلنا ذلك . ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لأن من أحسن إليه فلا يعذّبه، فرد الله عليهم قولهم وما احتجوا به من الغنى فقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أى يوسّعه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أى يقتّر، أى إن الله هو الذى يفاضل بين عباده فى الأرزاق امتحانا لهم، فلا يدل شىء من ذلك على ما فى العواقب، فسَعة الرزق فى الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة، فلا تظنوا أموالكم وأولادكم تغنى عنكم غدًا شيئا . ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا لأنهم لا يتأملون . ثم قال تأكيدا : ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ قال مجاهد : أى قُرْبى . والزُّلْفة القربة . وقال الأخفش : أى إزلافا، وهو اسم المصدر، فيكون موضع « قُرْبَى » نصبا، كأنه قال بالتى تقربكم عندنا تقريبا . وزعم الفراء أن « التى » تكون للأموال والأولاد جميعا . وله قول آخر وهو مذهب أبى إسحاق الزجاج ؛ يكون المعنى: وما أموالكم بالتى تقربكم عندنا، ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى، ثم حذف خبر الأول لدلالة الثانى عليه . وأنشد الفراء :

نحن بما عندنا وأنت بما * عندك راضٍ والرأىُ مختلِفُ

ويجوز فى غير القرآن: باللتين و باللاتى و باللواتى و باللَّذَيْن و بالَّذِين؛ للأولاد خاصة؛ أى لا تزيدكم الأموال عندنا رفعة ودرجة، ولا تقربكم تقريبا . ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قال سعيد بن جبير : المعنى إلا من آمن وعمل صالحا فلن يضره مالُه وولدُه فى الدنيا . وروى ليث عن طاوس أنه كان يقول : اللّهمّ ارزقنى الإيمان والعمل، وجنّبنى المالَ والولد؛ فإنى سمعتُ فيما أُوحيتِ « وما أموالُكم ولا أولادُكم بالتى تقربكم عندنا زُلْفَى إلا مَن آمنَ وعمِل صالحا » .

قلت: قول طاوس فيه نظر، والمعنى والله أعلم: جنّبنى المالَ والولد المطغِيين أو اللذين لا خير فيهما؛ فأما المال الصالح والولد الصالح للرجل الصالح فنعم هذا ! وقد مضى هذا فى « آل عمران »

ومريم ، والفرقان»(١) . و « مَن » فى موضع نصب على الاستثناء المنقطع؛ أى لكن من آمن وعمل صالحا فإيمانه وعمله يقربانه منى . وزعم الزجاج أنه فى موضع نصب بالاستثناء على البدل من الكاف والميم التى فى « تقربكم » . النحاس : وهذا القول غلط؛ لأن الكاف والميم للخاطب فلا يجوز البدل، ولو جاز هذا لجاز : رأيتك زيدا . وقول أبى إسحاق هذا هو قول الفراء؛ إلا أن الفراء لايقول بدل لأنه ليس من لفظ الكوفيين، ولكن قوله يئول إلى ذلك، وزعم أن مثله « إلاّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » يكون منصوبا عنده بـ « سينفع » . وأجاز الفراء أن يكون « من » فى موضع رفع بمعنى : ماهو الا من آمن، كذا قال، ولست أحصل معناه . ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ يعنى قوله « مَن جاءَ بالحَسَنَة فَلَهُ عَشْرُ أمثالِهَا » فالضعف الزيادة ؛ أى لهم جزاء التضعيف ، وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول . وقيل : لهم جزاء الأضعاف، فالضعف فى معنى الجمع ، وإضافة الضعف إلى الجزاء كإضافة الشىء إلى نفسه؛ نحو : حق اليقين، وصلاة الأولى . أى لهم الجزاء المضعّف؛ للواحد عشرة إلى ما يريد الله من الزيادة .

وبهذه الآية استدل من فضل الغنى على الفقر . وقال محمد بن كعب : إن المؤمن إذا كان غنياً تقياً آتاه الله أجره مرتين بهذه الآية . ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ قراءة العامة « جزاءُ الضعف » بالإضافة . وقرأ الزُّهرىّ ويعقوب ونصر بن عاصم « جزاءً » منوناً منصوبا « الضعفُ » رفعا ؛ أى فأولئك لهم الضعف جزاءً؛ على التقديم والتأخير . « وجزاءٌ الضعف » على أن يجازوا الضعف . و« جزاءٌ الضعفُ » مرفوعان، الضعفُ بدل من جزاء . وقرأ الجمهور أيضا « فى الغرفات » على الجمع ، وهو اختيار أبى عبيد؛ لقوله « لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا »(٢) . الزمخشرىّ : وقرئ « فى الغرفات » بضم الراء وفتحها وسكونها . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب وحمزة وخلف « فى الغرفة » على التوحيد؛ لقوله تعالى « أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ » . والغرفة قد يراد بها اسم الجمع واسم الجنس . قال ابن عباس : هى غرف

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٢ وجـ ١١ ص ٨٠ وجـ ١٣ ص ١٢ (٢) آية ٥٨ سورة العنكبوت .

من ياقوت وزبرجد ودرّ . وقد مضى بيـان ذلك[1] . ﴿ آمِنُونَ ﴾ أى من العـذاب والموت والأسقام والأحزان. ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا ﴾ فى إبطال أدلتنا وحجتنا وكتابنا . ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ معاندين ، يحسبون أنهـم يفوتوننا بأنفسهم . ﴿ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أى فى جهنم تحضرهم الزبانية فيها .

قوله تعـالى : قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ كرر تأكيدا . ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المغترّين بالأموال والأولاد إن الله يوسّع على من يشاء و يضيّق على من يشاء، فلا تغترّوا بالأموال والأولاد بل أنفقوها فى طاعة الله ، فإن ما أنفقتم فى طاعة الله فهو يخلفه . وفيه إضمار ، أى فهو يخلفه عليكم؛ يقال : أخلف له وأخلف عليـه ؛ أى يعطيكم خلفه و بدله ، وذلك البـدل إما فى الدنيا و إما فى الآخرة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهمّ أعط منفقا خلفاً وأعط ممسكا تلفاً " . وفيه أيضا عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال : " إن الله قال لى أَنْفق أُنفق عليك ... " الحديث . وهذه إشارة إلى الخلف فى الدنيا بمثل المنفق فيها إذا كانت النفقة فى طاعة الله . وقد لا يكون الخلف فى الدنيا فيكون كالدعاء — كما تقدّم[2] — سواء فى الإجابة أو التكفير أو الادخار؛ والادّخار هاهنا مثله فى الأجر .

مسـألة — روى الدَّارَقُطْنِيّ وأبو أحمد بن عَدِيّ عن عبد الحميد الهلالى عن محمد بن المُنْكَدِر عن جابر قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " كلّ معروف صدقة وما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وَقَى به الرجل عرضه فهو صدقة وما أنفق الرجل

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٠٤ و جـ ١٣ ص ٨٣ و ٣٥٩ (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٠٨ وما بعدها .

من نفقة فعلى الله خلفها إلا ما كان من نفقة فى بنيان أو معصية ". قال عبد الحميد : قلت لابن المنكدر «ما وَقَى الرجل عرضه» ؟ قال : يعطى الشاعر وذا اللسان . عبد الحميد وثقه ابن معين .

قلت : أما ما أنفق فى معصية فلا خلاف أنه غير مثاب عليه ولا مخلوف له . وأما البنيان فما كان منه ضروريا يكنّ الإنسانَ ويحفظه فذلك مخلوف عليه ومأجور ببنيانه . وكذلك كحفظ بنيته وستر عورته ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "ليس لابن آدم حقٌّ فى سِوَى هذه الخصال : بيت يسكنه وثوب يُوارِى عورته وجِلْف الخبز والماء" . وقد مضى هذا المعنى فى «الأعراف»[1] مستوفًى .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ لما كان يقال فى الإنسان : إنه يرزق عياله ، والأمير جنده ؛ قال «وهو خير الرازقين» والرازق من الخلق يرزق ؛ لكن ذلك من مال يملك عليهم ثم ينقطع ، والله تعالى يرزق من خزائن لا تفنى ولا تتناهى . ومن أخرج من عدم إلى الوجود فهو الرازق على الحقيقة ؛ كما قال : «إن الله هو الرزاق ذو القُوةِ المتِينُ»[2] .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ[3] جَمِيعاً ﴾ هذا متصل بقوله «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ»[4] . أى لو تراهم فى هذه الحالة لرأيت أمرا فظيعا . والخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، والمراد هو وأمته . ثم قال ولو تراهم أيضا «يوم نحشرهم جميعاً» العابدين والمعبودين ، أى نجمعهم للحساب ﴿ ثُمَّ نَقُولُ[3] لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ . قال سعيد عن قتادة : هذا

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٩ (٢) آية ٥٨ سورة الذاريات . (٣) قوله : «نحشرهم» «نقول» بالنون قراءة نافع . (٤) آية ٣١ من هذه السورة .

استفهام؛ كقوله عز وجل لعيسى « أأنت قلت للناس ٱتخذونى وأمى إلهين من دون الله » .
قال النحاس : فالمعنى أن الملائكة صلوات الله عليهم إذا كذبتهم كان فى ذلك تبكيت لهم ؛ فهو استفهام توبيخ للعابدين . ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيها لك . ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ أى أنت ربنا الذى نتولاه ونطيعه ونعبده ونخلص فى العبادة له . ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ أى يطيعون إبليس وأعوانه . وفى التفاسير : أن حيًّا يقال لهم بنو مُلَيح من خُزاعة كانوا يعبدون الجن، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم، وأنهم ملائكة، وأنهم بنات الله؛ وهو قوله : « وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا »(1) .

قوله تعالى : فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا ﴾ أى شفاعة ونجاة . ﴿ وَلَا ضَرًّا ﴾ أى عذابا وهلاكا . وقيل : أى لا تملك الملائكة دفع ضُرّ عن عابديهم ؛ فحذف المضاف . ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ يجوز أن يقول الله لهم أو الملائكة : ذوقوا .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ ﴾ يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم . ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ أى أسلافكم من

(1) آية ١٥٨ سورة الصافات .

الآلهة التى كانوا يعبدونها . ﴿ وَقَالُوا مَا هَـذا إلا إفْكٌ مُفْتَرًى ﴾ يعنون القرآن ؛ أى ما هـو إلا كذب مختلق . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إنْ هَذَا إلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ فتـارةً قالوا سحر ، وتارةً قالوا إفك . ويحتمل أن يكون منهم من قال سحر ومنهم من قال إفك .

قوله تعـالى : وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَـارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَـكَذَّبُوا رُسُلِي فَـكَيْفَ كَانَ نَـكِيرِ ﴿٤٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ أى لم يقرءوا فى كتاب أوتوه بطلانَ ما جئت به ، ولا سمعوه من رسـول بُعث إليهم ، كما قال « أم آتيناهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ»(١) فليس لتكذيبهم وجه يتشبّث به ولا شبهة متعلق كما يقول أهل الكتاب و إن كانوا مبطلين : نحن أهل كتاب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله ، ثم توعّدهم على تكذيبهم بقوله الحق ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى كذّب قبلهم أقوام كانوا أشـدّ من هؤلاء بطشا وأكثر أموالا وأولادا وأوسع عيشا ، فأهلكتهم كثمود وعاد . ﴿ وَمَا بَلَغُوا ﴾ أى ما بلغ أهل مكة ﴿ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ تلك الأمم . والمعشار والعشر سـواء، لغتان . وقيـل : المعشار عشر العشر . الجوهرى : ومعشار الشيء عشره ، ولا يقولون هـذا فى شيء سوى العشر . وقيل : ما بلغ الذين من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم ؛ حكاه النقاش . وقيل : ما أعطى الله تعالى من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان . قال ابن عباس : فليس أمة أعلمَ من أمته ، ولا كتاب أبين من كتابه . وقيل: المعشار هو عشر العشير، والعشير هو عشر العشر فيكون جزءا من ألف جزء . الماوردى : وهو الأظهر، لأن المراد به المبالغة فى التقليل . ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى عقابى فى الأمم ، وفيه محذوف وتقديره : فأهلكناهم فكيف كان نكيرى .

(١) آية ٢١ سورة الزخرف .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ تمم الحجة على المشركين؛ أى قل لهم يا محمد: ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ ﴾ أى أذكركم وأحذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه. ﴿ بِوَاحِدَةٍ ﴾ أى بكلمة واحدة مشتملة على جميع الكلام، تقتضى نفى الشرك وإثبات الإله. قال مجاهد: هى لا إله إلا الله؛ وهذا قول ابن عباس والسدى. وعن مجاهد أيضا: بطاعة الله. وقيل: بالقرآن؛ لأنه يجمع كل المواعظ. وقيل: تقديره بخصلة واحدة، ثم بينها بقوله ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ فتكون «أن» فى موضع خفض على البدل من «واحدة»، أو فى موضع رفع على إضمار مبتدأ؛ أى هى أن تقوموا. ومذهب الزجاج أنها فى موضع نصب بمعنى لأن تقوموا. وهذا القيام معناه القيام إلى طلب الحق لا القيام الذى هو ضد القعود؛ وهو كما يقال: قام فلان بأمر كذا؛ أى لوجه الله والتقرب إليه. وكما قال تعالى: « وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ »[1]. ﴿ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ أى وحداناً ومجتمعين؛ قاله السدى. وقيل: منفردا برأيه ومشاورا لغيره؛ وهذا قول مأثور. وقال القتبى: مناظرا مع غيره ومفكرا فى نفسه؛ وكله متقارب. ويحتمل رابعا أن المثنى عمل النهار والفرادى عمل الليل؛ لأنه فى النهار معانٌ وفى الليل وحيد؛ قاله الماوردى. وقيل: إنما قال « مثنى وفرادى » لأن الذهن حجة الله على العباد وهو العقل؛ فأوفرهم عقلا أوفرهم حظاً من الله؛ فإذا كانوا فرادى كانت فكرة واحدة، وإذا كانوا مثنى تقابل الذهنان فتراءى من العلم لهما ما أضعف على الانفراد؛ والله أعلم. ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ الوقف عند أبى حاتم وابن الأنبارى على « ثم تتفكروا ». وقيل: ليس هو بوقف؛ لأن المعنى: ثم تتفكروا هل جربتم على صاحبكم كذبا، أو رأيتم فيه جنة، أو فى أحواله من

(١) آية ١٢٧ سورة النساء.

فساد ، أو اختلاف إلى أحد ممن يدعى العلم بالسحر ، أو تعلم الأقاصيص وقرأ الكتب ، أو عرفتموه بالطمع فى أموالكم ، أو تقدرون على معارضته فى سورة واحدة ؛ فإذا عرفتم بهذا الفكر صدقه فما بال هذه المعاندة . ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . ورهطك منهم المخلصين »(١) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف : ياصباحاه(٢)؟ فقالوا : من هذا الذى يهتف ! ؟ قالوا محمد ؛ فاجتمعوا إليه فقال : " يابنى فلان يابنى فلان يابنى عبدمناف يابنى عبد المطلب ـ فاجتمعوا إليه فقال ـ أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقى " ؟ قالوا : ماجربنا عليك كذبا . قال : " فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد " . قال فقال أبولهب : تباً لك ! أما جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قال فنزلت هذه السورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقَدْ تَبَّ » كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة .

قوله تعالى : قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى جُعْل على تبليغ الرسالة ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أى ذلك الجُعْل لكم إن كنت سألتكموه ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى رقيب وعالم وحاضر لأعمالى وأعمالكم ، لا يخفى عليه شيء فهو يجازى الجميع .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴾ أى يبين الحجة ويظهرها . قال قتادة : بالحق بالوحى . وعنه : الحق القرآن . وقال ابن عباس : أى يقذف الباطل بالحق علام الغيوب .

---

(١) قال القسطلانى فى قوله « ورهطك منهم المخلصين » : هو من عطف الخاص على العام ، وكان قرآنا فنسخت تلاوته .

(٢) قوله : « ياصباحاه » بسكون الهاء ، وهى كلمة يقولها المستغيث ؛ وأصلها إذا صاحوا للغارة لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ، ويسمون الغارة يوم الصباح .

وقرأ عيسى بن عمر « علّامَ الغيوب » على أنه بدل ، أى قل إن ربى علام الغيوب يقذف بالحق . قال الزجاج : والرفع من وجهين على الموضع ؛ لأن الموضع موضع رفع ، أو على البدل مما فى يقذف . النحاس : وفى الرفع وجهان آخران : يكون خبرا بعد خبر ، ويكون على إضمار مبتدأ . وزعم الفراء أن الرفع فى مثل هذا أكثر فى كلام العرب إذا أتى بعد خبر «إنّ» ومثله « إنّ ذَلكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ »(١) . وقرئ « الغُيوب » بالحركات الثلاث ؛ فالغُيوب كالبيوت ، والغِيوب(٢) كالصبور ، وهو الأمر الذى غاب وخَفِىَ جداً .

قوله تعالى : قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ قال سعيد عن قتادة : يريد القرآن . النحاس : والتقدير جاء صاحب الحق ؛ أى الكتاب الذى فيه البراهين والحجج . ﴿ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ ﴾ قال قتادة : الشيطان ؛ أى ما يخلق الشيطان أحدا . ﴿ وَمَا يُعِيدُ ﴾ فـ«ما» نفى . ويجوز أن يكون استفهاما بمعنى أىّ شىء ؛ أى جاء الحق فأىّ شىء بقى للباطل حتى يعيده ويبدئه ؛ أى فلم يبق منه شىء ؛ كقوله « فهل تَرَى لهم مِن باقِيَة »(٣) أى لا ترى .

قوله تعالى : قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى ﴾ وذلك أن الكفار قالوا تركتَ دين آبائك فضللت . فقال له قل يا محمد إن ضللت كما تزعمون فإنما أضل على نفسى . وقراءة العامة « ضلَلت » بفتح اللام . وقرأ يحيى بن وثّاب وغيره « قل إن ضَلِلت » بكسر اللام وفتح الضاد من « أَضَلُّ » ؛ والضلال والضلالة ضدّ الرشاد . وقد ضَلَلت (بفتح اللام) أَضِل

(١) آية ٦٤ سورة ص . (٢) عبارة روح المعانى : « ... الغيوب (بالكسر) كالبيوت » . وعبارة البحر : « ... أما الضم فجمع غيب ، وأما الكسر فكذلك استثقلوا ضمتين والواو فكسروا لتناسب الكسر مع الياء والضمة التى فى الياء مع الواو ، وأما الفتح فمفعول للبالغة كالصبور » . (٣) آية ٨ سورة الحاقة .

(بكسر الضاد)؛ قال الله تعالى «قل إن ضَلَلت فإنما أَضِل على نفسي» فهذه لغة نجد وهي الفصيحة. وأهل العالية يقولون «ضَلِلت» بالكسر «أَضَل»[1]؛ أي إثم ضلالتي على نفسي. ﴿وإنِ اهْتَدَيْتُ فبِمَا يُوحِي إلىَّ رَبِّي﴾ من الحكمة والبيان ﴿إنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي سميع ممن دعاه قريب الإجابة. وقيل وجه النظم: قل إن ربي يقذف بالحق ويبين الحجة، وضلالُ من ضل لا يبطل الحجة، ولو ضللت لأضررت بنفسي، لا أنه يبطل حجة الله، وإذا اهتديت فذلك فضل الله إذ ثبتني على الحجة إنه سميع قريب.

قوله تعالى: وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ ذكر أحوال الكفار في وقت ما يضطرون فيه إلى معرفة الحق. والمعنى: لو ترى إذ فزعوا في الدنيا عند نزول الموت أو غيره من بأس الله تعالى بهم؛ روى معناه عن ابن عباس. الحسن: هو فزعهم في القبور من الصيحة. وعنه أن ذلك الفزع إنما هو إذا خرجوا من قبورهم؛ وقاله قتادة. وقال ابن مُغَفَّل: إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة. السُّدي: هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة فلم يستطيعوا فرارا ولا رجوعا إلى التوبة. سعيد بن جُبير: هو الجيش الذي يخسف بهم في البيداء فيبقى منهم رجل فيخبر الناس بما لقي أصحابه فيفزعوا؛ فهذا هو فزعهم. ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا نجاة؛ قاله ابن عباس. مجاهد: فلا مهرب. ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي من القبور. وقيل: من حيث كانوا؛ فهم من الله قريب لا يَعزُبون عنه ولا يفوتونه. وقال ابن عباس: نزلت في ثمانين ألفا يغزون في آخر الزمان الكعبة ليخَرِّبوها، وكما يدخلون البيداء يخسف بهم؛ فهو الأخذ من مكان قريب.

قلت: وفي هذا المعنى خبر مرفوع عن حُذيفة وقد ذكرناه في كتاب التذكرة، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وذكر فتنةً تكون بين أهل المشرق والمغرب —: "فبيناهم

(١) في مختار الصحاح: «بالكسر فيهما» والذي في اللسان: «ضللت بالكسر أضل».

كذلك إذ خرج عليهم السُّفيانى من الوادى اليابس فى فورة ذلك حتى ينزل دمشق فيبعث جيشين جيشا إلى المشرق وجيشا إلى المدينة فيصير الجيش نحو المشرق حتى ينزلوا بأرض بابل فى المدينة الملعونة والبقعة الخبيثة — يعنى مدينة بغداد ، قال — فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ويفتضّون أكثر من مائة امرأة ويقتلون بها ثلاثمائة كبش (١) من ولد العباس ثم يخرجون متوجهين إلى الشام فتخرج راية هدى من الكوفة فتلحق ذلك الجيش منها على ليلتين (٢) فيقتلونهم لا يفلت منهم مخبر ويستنقذون ما فى أيديهم من السّبى والغنائم ويَحُلّ جيشه الثانى بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام ولياليها ثم يخرجون متوجهين إلى مكة حتى إذا كانوا بالبيداء بعث الله جبريل عليه السلام فيقول ياجبريل آذهب فأبِدْهم فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم؛ وذلك قوله تعالى «وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ» فلا يبقى منهم إلا رجلان أحدهما بشير والآخر نذير وهما من جُهينة؛ ولذلك جاء القول : وعند جُهينة الخبر اليقين . وقيل : « أُخِذوا من مكان قريب » أى قبضت أرواحهم فى أماكنها فلم يمكنهم الفرار من الموت ؛ وهذا على قول من يقول : هذا الفزع عند النزع . ويحتمل أن يكون هذا من الفزع الذى هو بمعنى الإجابة ؛ يقال : فزِع الرجلُ أى أجابَ الصارخ الذى يستغيث به إذا نزل به خوف . ومنه الخبر إذ قال للأنصار : "إنكم لتقِلّون عند الطمع وتكثرون عند الفزع" . ومن قال : أراد الخسف أو القتل فى الدنيا كيوم بدر قال : أخذوا فى الدنيا قبل أن يؤخذوا فى الآخرة . ومن قال : هو فزع يوم القيامة قال : أخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها . وقيل : « أخذوا من مكان قريب » من جهنم فألقوا فيها .

قوله تعالى : وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أى بالقرآن . وقال مجاهد : بالله عز وجل . الحسن : بالبعث . قتادة : بالرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال

(١) كبش القوم : رئيسهم، وسيدهم، وحاميتهم، والمنظور إليه فيهم .

(٢) فى كتاب التذكرة «على ميلين» .

ابن عباس والضحاك : التناوش الرجعة ؛ أى يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا، وهيهات من ذلك ! ومنه قول الشاعر :

تمنَّى أن تؤوب إلىّ مىٌّ * وليس إلى تناوشها سبيل

وقال السُّدّى : هى التوبة؛ أى طلبوها وقد بَعُدت؛ لأنه إنما تقبل التوبة فى الدنيا . وقيل: التناوش التناول؛ قال ابن السِّكيت : يقال للرجل إذا تناول رجلا ليأخذ برأسه ولحيته : ناشه ينوشه نَوشا . وأنشد :

فهى تنوش الحوضَ نَوْشًا مِن عَلَا * نَوْشًا به تَقْطع أجوازَ الفَلا (١)

أى تتناول ماء الحوض من فوق وتشرب شربا كثيرا ، وتقطع بذلك الشرب فلوات فلا تحتاج إلى ماء آخر . قال : ومنه المناوشة فى القتال؛ وذلك إذا تدانى الفريقان . ورجل نَوُوش أى ذو بطش . والتناوش : التناول . والانتياش مثله . قال الراجز :

* كانت تنوش العنق انتياشا *

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يقول : أنَّى لهم تناول الإيمان فى الآخرة وقد كفروا به فى الدنيا. وقرأ أبو عمرو والكسائى والأعمش وحمزة « وأنى لهم التناؤش » بالهمز . النحاس : وأبو عبيدة يستبعد هذه القراءة؛ لأن « التناؤش » بالهمز البعد، فكيف يكون : وأنى لهم البعد من مكان بعيد . قال أبو جعفر : والقراءة جائزة حسنة، ولها وجهان فى كلام العرب ، ولا يتأوّل بها هذا المتأوّل البعيد؛ فأحد الوجهين أن يكون الأصل غير مهموز، ثم همزت الواو لأن الحركة فيها خفية، وذلك كثير فى كلام العرب . وفى المصحف الذى نقلته الجماعة عن الجماعة « وإذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ » والأصل « وُقِّتت » لأنه مشتق من الوقت . ويقال فى جمع دار: أدؤر . والوجه الآخر ذكره أبو إسحاق قال : يكون مشتقا من النئيش وهو الحركة فى إبطاء؛ أى من أين لهم الحركة فيما قد بَعُد؛ يقال : نأشت الشىء أخذته

(١) البيت لغيلان بن حريث . والضمير فى قوله « فهى » للابل . وتنوش الحوض : تتناول ملأه . وقوله : « من علا » أى من فوق . يريد أنها عالية الأجسام طوال الأعناق ؛ وذلك النوش الذى تناله هو الذى يعينها على قطع الفلوات . والأجواز : جمع جوز وهو الوسط .

من بُعْد . والنئيش : الشيء البطيء . قال الجوهري : التناؤش (بالهمز) التأخر والتباعد . وقد نأشت الأمر أنأشه نأشا أخرته ؛ فانتأش . ويقال : فعله نئيشا أي أخيرا . قال الشاعر :

تمنّى نئيشا أن يكون أطاعني * وقد حدثت بعد الأمور أمور[1]

وقال آخر :

قعدت زمانا عن طلابك للعلا * وجئت نئيشا بعد ما فاتك الخبر[2]

وقال الفراء : الهمز وترك الهمز في التناوش متقارب؛ مثل : ذِمْت[3] الرجلَ وذأمته أي عبته . ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي من الآخرة . وروى أبو إسحاق عن التيمي عن ابن عباس قال « وأنّى لهم » قال : الردّ؛ سألوه وليس بحين ردّ .

قوله تعالى : وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ ﴾ أي بالله عز وجل . وقيل بمحمد ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعني في الدنيا . ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ العرب تقول لكل من تكلم بما لا يحقّه[4] : هو يقذف ويرجُم بالغيب . ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ على جهة التمثيل لمن يرجم ولا يصيب؛ أي يرمون بالظن فيقولون : لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار؛ رَجْمًا منهم بالظن ؛ قاله قتادة . وقيل : « يقذفون » أي يرمون في القرآن فيقولون : سحر وشعر وأساطير الأولين . وقيل : في محمد فيقولون ساحر شاعر كاهن مجنون . ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي إن الله بعّد لهم أن يعلموا صدق محمد . وقيل : أراد البعد عن القلب ؛ أي من مكان بعيد عن قلوبهم . وقرأ مجاهد « ويُقذَفون بالغيب » غير مسمّى الفاعل ؛ أي يُرمون به . وقيل يقذف به إليهم من يغويهم ويضلهم .

(١) في اللسان مادة نأش : « ويحدث من بعد ... » . (٢) كذا في بعض نسخ الأصل وكتاب الفراء . وفي بعض النسخ « الخير » بالياء المثناة . (٣) في اللسان : ذامه يذيمه ذيما وذاما عابه ، وذمته أذيمه وذأمته وذمته ، كله بمعنى . (٤) حق الأمر يحقه وأحقه : كان منه على يقين .

قوله تعالى : وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ قيل : حيل بينهم وبين النجاة من العذاب . وقيل : حيل بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهليهم . ومذهب قتادة أن المعنى أنهم كانوا يشتهون لما رأوا العذاب أن يقبل منهم أن يطيعوا الله جل وعز وينتهوا إلى ما يأمرهم به الله فحيل بينهم وبين ذلك ؛ لأن ذلك إنما كان في الدنيا وقد زالت في ذلك الوقت . والأصل « حُوِل » فقلبت حركة الواو على الحاء فانقلبت ياء ثم حذفت حركتها لثقلها . ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم ﴾ الأشياع جمع شِيَع ، وشِيَع جمع شيعة . ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي بمن مضى من القرون السالفة الكافرة . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ ﴾ أي من أمر الرسل والبعث والجنة والنار . وقيل : في الدِّين والتوحيد ؛ والمعنى واحد . ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أي يستراب به ؛ يقال : أراب الرجل أي صار ذا ريبة ، فهو مريب . ومن قال هو من الرَّيْب الذي هو الشك والتُّهَمة قال : يقال شكٌّ مريب ؛ كما يقال : عجبٌ عجيب وشعر شاعر ؛ في التأكيد .

ختمت السورة ، والحمد لله رب العالمين .

سورة فاطر

مكية في قول الجميع ، وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يجوز فى « فاطر » ثلاثة أوجه : الخفض على النعت ، والرفع على إضمار مبتدأ، والنصب على المدح . وحكى سيبويه : الحمد لله أهل الحمد [مثله][1] وكذا « جاعِل الملائكةِ » . والفاطر : الخالق . وقد مضى فى « يوسف »[2] وغيرها . والفَطْر . الشق عن الشيء؛ يقال : فطرته فآنفطر . ومنه : فَطَر نابُ البعير طلع؛ فهو بعير فاطر . وتفطّر الشيء تشقق . وسيف فُطار؛ أى فيه تشقق . قال عنترة :

وسيفى كالعقيقة فهو كِمْعِى * سلاحى لا أَفَلّ ولا فُطَارا[3]

والفطر : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : كنت لا أدرى ما «فاطر السموات والأرض» حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر؛ فقال أحدهما : أنا فطرتها؛ أى أنا ابتدأتها . والفَطْر : حلب الناقة بالسبابة والإبهام . والمراد بذكر السموات والأرض العالَم كله، ونبّه بهذا على أن من قدر على الابتداء قادر على الإعادة . ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ﴾ لا يجوز فيه التنوين؛ لأنه لما مضى . ﴿رُسُلًا﴾ مفعول ثان، ويقال على إضمار فعل؛ لأن « فاعلا » إذا كان لما مضى لم يعمل فيه شيئا، وإعماله على أنه مستقبل حذف التنوين منه تخفيفا . وقرأ الضحاك « الحمد لله فطر السموات والأرض » على الفعل الماضي . « جاعِل الملائكةِ رسلا » الرسل منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، صلى الله عليهم أجمعين . وقرأ الحسن « جاعلُ الملائكةِ » بالرفع . وقرأ خُليد بن نشيط « جعل الملائكة » وكله ظاهر . ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ نعت؛ أى أصحاب أجنحة . ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾[4] أى اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة . قال قتادة : بعضهم له جناحان، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة؛ ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون من الأرض إلى السماء، وهى مسيرة كذا فى وقت واحد؛ أى جعلهم رسلا . قال يحيى بن سلام : إلى الأنبياء . وقال السدى : إلى العباد برحمة أو نقمة . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه

(١) زيادة عن كتاب النحاس يقتضيها السياق . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٠ ، جـ ٦ ص ٣٩٧

(٣) عقيقة البرق : شعاعه . والكمع (بكسر فسكون) والكميع : الضجيع . (٤) فى كتاب البحر : « وقيل أولى أجنحة » معترض، و« مثنى » حال، والعامل فعل محذوف يدل عليه « رسلا » ؛ أى يرسلون مثنى وثلاث ورباع » .

السلام له ستمائة جناح . وعن الزهري أن جبريل عليه السلام قال له : " يا محمد، لو رأيت إسرافيل إن له لاثنى عشر ألف جناح منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب و إن العرش لعلى كاهله و إنه فى الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوَصَع ـــ والوصع عصفور صغير ـــ حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته " . و « أُولُو » اسم جمع لذو ، كما أن هؤلاء اسم جمع لذا؛ ونظيرهما فى المتمكنة : المَخَاض والخَلِفة[(1)] . وقد مضى الكلام فى « مثنى وثلاث ورباع» فى «النساء»[(2)] وأنه غير منصرف . ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ أى فى خلق الملائكة؛ فى قول أكثر المفسرين؛ ذكره المهدوى . وقال الحسن : « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ » أى فى أجنحة الملائكة ما يشاء . وقال الزهرى وابن جُريج : يعنى حسن الصوت . وقد مضى القول فيه فى مقدّمة الكتاب[(3)] . وقال الهيثم الفارسى : رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فى منامى؛ فقال : " أنت الهيثم الذى تُزين القرآن بصوتك جزاك الله خيرا " . وقال قتادة : « يَزِيدُ فِي الخلق ما يشاء » الملاحة فى العينين والحسن فى الأنف والحلاوة فى الفم . وقيل : الخط الحسن . وقال مهاجر الكَلاعىّ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الخط الحسن يزيد الكلام وضوحا " . وقيل : الوجه الحسن . وقيل فى الخبر فى هذه الآية : هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن ؛ ذكره القشيرى . النقاش : هو الشعر الجَعْد[(4)] . وقيل : العقل والتمييز . وقيل : العلوم والصنائع . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من النقصان والزيادة . الزمخشرى : والآية مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق؛ من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام فى الأعضاء، وقوة فى البطش، وحصافة فى العقل، وجزالة فى الرأى، وجُرأة فى القلب، وسماحة فى النفس، وذلاقة فى اللسان، ولباقة فى التكلم، وحسن تأتٍّ[(5)] فى مزاولة الأمور؛ وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف .

---

(١) المخاض : الحوامل من النوق ؛ واحدتها خلفة على غير قياس ولا واحد لها من لفظها ؛ كما قالوا لواحدة النساء : امرأة، ولواحدة الإبل : ناقة أو بعير .

(٢) راجع جـ ٥ ص ١٥ وما بعدها .

(٣) راجع (باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى) .

(٤) ما فيه التواء وتقبض . أو القصير منه .

(٥) تأتى فلان لحاجته : إذا ترفق لها وأتاها من وجهها .

قوله تعالى : مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢)

قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ وأجاز النحويون فى غير القرآن « فلا ممسك له » على لفظ « ما » و « لها » على المعنى . وأجازوا « وما يُمسكْ فلا مُرسلَ لها » . وأجازوا « ما يفتحُ الله للناس من رحمة » (بالرفع) تكون « ما » بمعنى الذى . أى إن الرسل بعثوا رحمة للناس فلا يقدر على إرسالهم غير الله . وقيل : ما يأتيهم به الله من مطر أو رزق فلا يقدر أحد أن يمسكه ، وما يمسك من ذلك فلا يقدر أحد على أن يرسله . وقيل : هو الدعاء ؛ قاله الضحاك . ابن عباس : من توبة . وقيل : من توفيق وهداية .

قلت : ولفظ الرحمة يجمع ذلك ؛ إذ هى منكّرة للإشاعة والإبهام ؛ فهى متناولة لكل رحمة على البدل ؛ فهو عام فى جميع ما ذكر . وفى موطأ مالك أنه بلغه أن أبا هريرة كان يقول إذا أصبح وقد مُطر الناس : مطرنا بنَوْء الفتح ، ثم يتلو هذه الآية « مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا » . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم[(1)] .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣)

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ معنى هذا الذكر الشكر . ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ يجوز[(2)] فى « غير » الرفع والنصب والخفض ؛ فالرفع من وجهين : أحدهما — بمعنى هل من خالق إلا الله ، بمعنى ما خالق إلا الله . والوجه الثانى — أن يكون نعتا على الموضع ؛ لأن المعنى : هل خالق غير الله ، و « من » زائدة . والنصب على الاستثناء .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية . (٢) فى بعض نسخ الأصل : « يجوز فى القرآن الرفع ... » الخ وفى البعض الآخر : « يجوز فى غير القرآن » .

والخفض على اللفظ . قال حُميد الطويل : قلت للحسن : من خلق الشر؟ فقال سبحان الله! هل من خالق غير الله جل وعز، خلق الخير والشر. وقرأ حمزة والكسائى : « هل من خالقٍ غيرِ الله » بالخفض . الباقون بالرفع . ﴿ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى المطر . ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ أى النبات . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ من الأَفك (بالفتح) وهو الصرف ؛ يقال : ما أَفكَك عن كذا ، أى ما صرفك عنه . وقيل : من الإفك (بالكسر) وهو الكذب ، ويرجع هذا أيضا إلى ما تقدم؛ لأنه قول مصروف عن الصدق والصواب ؛ أى من أين يقع لكم التكذيب بتوحيد الله . والآية حجة على القدرية لأنه نفى خالقا غير الله وهم يثبتون معه خالقين، على ما تقدم فى غير موضع .

قوله تعالى : وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ يعنى كفار قريش . ﴿ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعزى نبيه ويُسلّيه صلى الله عليه وسلم؛ وليتأسّى بمن قبله فى الصبر . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ قرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حَيْوة وابن مُحَيْصن وحُميد والأعمش وحمزة ويحيى والكسائى وخَلَف (بفتح التاء) على أنه مسمى الفاعل . واختاره أبو عبيد لقوله تعالى: « أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ »[1] الباقون « تُرْجَع » على الفعل المجهول .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ هذا وعظ للمكذبين للرسول بعد إيضاح الدليل على صحة قوله : إن البعث والثواب والعقاب حق . ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ قال سعيد بن جبير: غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة،

(١) آخر سورة الشورى .

حتى يقول : يا ليتني قدمت لحياتي . ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ قال ابن السكيت وأبو حاتم : « الغَرور » الشيطان . وغُرور جمع غَرّ ، وغَرّ مصدر . ويكون « الغُرور » مصدرا وهو بعيد عند غير أبي إسحاق؛ لأن «غررته» متعدّ ، والمصدر المتعدّى إنما هو على فَعْل؛ نحو : ضربته ضربا؛ إلا في أشياء يسيرة لا يقاس عليها؛ قالوا : لزمته لُزوما، ونَهكه المرض نُهوكا . فأما معنى الحرف فأحسن ما قيل فيه ما قاله سعيد بن جبير ، قال : الغَرور بالله أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصي ثم يتمنّى على الله المغفرة . وقراءة العامة «الغرور» (بفتح الغين) وهو الشيطان؛ أي لا يغرنكم بوساوسه في أنه يتجاوز عنكم لفضلكم . وقرأ أبو حَيْوة وأبو السَّمّال العدوي ومحمد بن السَّمَيْقع « الغُرور » (برفع الغين) وهو الباطل؛ أي لا يغرنكم الباطل . وقال ابن السِّكِّيت : والغرور (بالضم) ما اغترّ به من متاع الدنيا . قال الزجاج : ويجوز أن يكون الغرور جمع غارّ؛ مثل قاعد وقعود . النحاس : أو جمع غَرّ ، أو يُشبّه بقولهم : نهكه المرض نهوكا ولزمه لزوما . الزمخشري : أو مصدر « غره » كاللزوم والنهوك .

قوله تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أي فعادوه ولا تطيعوه . ويدلكم على عداوته إخراجه أباكم من الجنة ، وضمانه إضلالكم في قوله : « وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ » (١) الآية . وقوله : « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ » (٢) الآية . فأخبرنا جلّ وعز أن الشيطان لنا عدوّ مبين، واقتص علينا قصته، وما فعل بأبينا آدم صلى الله عليه وسلم ، وكيف انتدب لعداوتنا وغرورنا من قبل وجودنا وبعده ، ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا . وكان الفضيل بن عياض يقول : يا كذاب

(١) آية ١١٩ سورة النساء . (٢) آية ١٦ سورة الأعراف .

يا مُفْتَر، اتق الله ولا تسب الشيطان فى العلانية وأنت صديقه فى السر . وقال ابن السماك : يا عجبا لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »(١) مجودا . و « عدوّ » فى قوله : « إن الشيطان لكم عدوٌّ » يجوز أن يكون بمعنى معادٍ ، فيثنى ويجمع ويؤنث . ويكون بمعنى النسب فيكون موحدا بكل حال ؛ كما قال جل وعز : « فإنهم عدوٌّ لى »(٢) . وفى المؤنث على هذا أيضا عدو . النحاس : فأما قول بعض النحويين إن الواو خفية فجاءوا بالهاء فخطأ ، بل الواو حرف جلد . ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ ﴾ كفت « ما » « إن » عن العمل فوقع بعدها الفعل . ﴿ حِزْبَهُ ﴾ أى أشياعه . ﴿ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ فهذه عداوته . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ يكون « الذين » بدلا « من أصحاب » فيكون فى موضع خفض ، أو يكون بدلا من « حِزْبَهُ » فيكون فى موضع نصب ، أو يكون بدلا من الواو فيكون فى موضع رفع . وقول رابع وهو أحسنها ــ يكون فى موضع رفع بالابتداء ويكون خبره « لهم عذابٌ شديد » ؛ وكأنه سبحانه بين حال موافقته ومخالفته ، ويكون الكلام قد تم فى قوله : « من أصحابِ السعيرِ » ثم ابتدأ فقال : « الذين كفروا لهم عذابٌ شديدٌ » . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فى موضع رفع بالابتداء أيضا ، وخبره ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ أى لذنوبهم . ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وهو الجنة .

قوله تعالى : أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ « مَن » فى موضع رفع بالابتداء ، وخبره محذوف . قال الكسائىّ : والذى يدل عليه قوله تعالى : « فلا تَذهَبْ نَفْسُكَ عليهم حَسَراتٍ » فالمعنى : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ذهبت نفسك عليهم حسرات . قال : وهذا كلام

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٠٩ طبعة ثانية .

(٢) آية ٧٧ سورة الشعراء .

عربيّ طريف لا يعرفه إلا قليل . وذكره الزمخشريّ عن الزجاج . قال النحاس : والذى قاله الكسائىّ أحسن ما قيل فى الآية ؛ لما ذكره من الدلالة على المحذوف ، والمعنى أن الله جل وعز نهى نبيّه عن شدة الاغتمام بهم والحزن عليهم ؛ كما قال جل وعز : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ » قال أهل التفسير : قاتل . قال نصر بن علىّ : سألت الأصمعىّ عن قول النبىّ صلى الله عليه وسلم فى أهل اليمن : " هم أرقّ قلوبا وأبخع طاعة " مامعنى أبخع ؟ فقال : أنصح . فقلت له : إن أهل التفسير مجاهدا وغيره يقولون فى قول الله عز وجل : « لعلك باخعٌ نفسك » : معناه قاتل نفسك . فقال: هو من ذاك بعينه ؛ كأنه من شدة النصح لهم قاتل نفسه . وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير ، مجازه : أفمن زُيّن له سوءُ عمله فرآه حسنا ، فلا تَذْهب نفسُك عليهم حسرات ، فإن الله يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء . وقيل : الجواب محذوف ؛ المعنى أفمن زُيّن له سوءُ عمله كمن هدى ، ويكون يدل على هذا المحذوف « فإنّ الله يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء » . وقرأ يزيد بن القَعْقاع «فلا تُذْهِب نفْسَك» . وفى « أفمن زُيّن له سُوءُ عمله » أربعة أقوال : أحدها — أنهم اليهود والنصارى والمجوس ؛ قاله أبو قلابة . ويكون « سوء عمله » معاندة الرسول عليه الصلاة والسلام . الثانى — أنهم الخوارج ؛ رواه عمر بن القاسم . فيكون « سوء عمله » تحريف التأويل . الثالث — الشيطان ؛ قاله الحسن . ويكون « سوء عمله » الإغواء . الرابع — كفار قريش ؛ قاله الكلبيّ . ويكون « سوء عمله » الشرك . وقال : إنها نزلت فى العاص بن وائل السّهمى والأسود بن المطلب . وقال غيره : نزلت فى أبى جهل بن هشام . ﴿ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ أى صوابا ؛ قاله الكلبيّ . وقيل : جميلا .

قلت : والقول بأن المراد كفار قريش أظهر الأقوال ؛ لقوله تعالى : «ليس عليك هداهم» [1] ، وقوله : « وَلَا يَحْزُنْكَ الذين يُسارِعُون فِى الكفرِ » [2] ، وقوله : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نفسَكَ على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا » [3] ، وقوله : «لعلك باخعٌ نفسك ألّا يكونوا مؤمنين» [4] ،

(١) آية ٢٧٢ سورة البقرة. (٢) آية ١٧٦ سورة آل عمران. (٣) آية ٦ سورة الكهف.
(٤) آية ٣ سورة الشعراء.

وقوله فى هذه الآية : «فلا تَذْهَبْ نفسُك عليهم حسراتٍ» . وهذا ظاهر بيّن؛ أى لا ينفع تأسفك على مقامهم على كفرهم ، فإن الله أضلهم . وهـذه الآية ترد على القـدرية قولهم على ما تقدم؛ أى أفمن زُيّن له سوءُ عمله فرآه حسنا تريد أن تهديه ، و إنما ذلك إلى الله لا إليك ، والذى إليك هو التبليغ . وقرأ أبو جعفر وشيبة وابن مُحَيْصِن « فلا تُذْهِب » بضم التاء وكسر الهاء « نفسَك » نصبا على المفعول ؛ والمعنيان متقاربان . « حسراتٍ » منصوب مفعول من أجله؛ أى فلا تذهب نفسك للحسرات . و «عليهم» صلة «تذهب» ؛ كما تقول : هلك عليه حُبًّا ومات عليه حزنا . وهو بيان للتحسر عليه . ولا يجوز أن يتعلق بالحسرات ؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته . ويجوز أن يكون حالا كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسّر؛ كما قال جرير :

مَشَقَ الهواجرُ لحمَهُنّ مع السُّرَى * حتى ذَهبْنَ كَلا كِلا وصُدورَا

يريد : رجعن كلا كلا وصدورا؛ أى لم يبق إلا كلا كلها وصدورها . ومنه قول الآخر :

فعلى إثرهم تساقط نفسى * حسرات وذكرهم لى سقام

أو مصدرا . ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ ميّت ومَيْت واحد ، وكذا مَيّتة ومَيْتة؛ هذا قول الحُذّاق من النحويين . وقال محمد بن يزيد : هذا قول البصريين ، ولم يستثن أحدا ، واستدل على ذلك بدلائل قاطعة . وأنشد :

ليس من مات فاستراح بمَيْتٍ * إنما المَيْت ميّت الأحياء

إنما المَيْت من يعيش كئيبا * كاسِفًا بالُه قليلَ الرجاء

قال : فهل ترى بين ميّت ومَيْت فرقا ، وأنشد :

هَيْنون لَيْنون أيسارٌ بنو يَسَر * سُواس مَكْرمة أبناء أَيْسار

قال : فقد أجمعوا على أن هَيْنون ولَيْنون واحد، وكذا ميّت وميْت وسيّد وسَيْد . قال : « فسُقْنَاه » بعد أن قال : « واللهُ الذِي أرْسَل الرِّياحَ » وهو من باب تلوين الخطاب . وقال أبو عبيدة : سبيله « فَتَسُوقُه » ؛ لأنه قال : « فَتُثِيرُ سَحَابًا » . الزمخشري : فإن قلت : لم جاء « فتثير » على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟ قلت : لتحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب، أو تهمّ المخاطب أو غير ذلك . كما قال تأبّط شرا :

بأنى قد لقيت الغول تهوى * بسَهْب كالصحيفة صحصحان (١)

فأضربها بلا دهَش فخرت * صريعا لليدين وللجران (٢)

لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يُبصرهم إياها، ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدّة . وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت ، لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : « فسقنا » و « أحيينا » معدولا بهما عن لفظة الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدلّ عليه . وقراءة العامة « الرياح » . وقرأ ابن مُحَيْصن وابن كثير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي « الريح » توحيدا . وقد مضى بيان هذه الآية والكلام فيها مستوفى (٣) . ﴿ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾ أي كذلك تُحيَوْن بعد ما متم ؛ من نشر الإنسان نشورا . فالكاف في محل الرفع ؛ أي مثل إحياء الموات نشر الأموات . وعن أبي رزين العقيلي قال : قلت يا رسول الله ، كيف يحيي الله الموتى ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : " أمّا مررتَ بوادي أهلك مُمْحلًا ثم مررت به يهتز خَضِرا " قلت : نعم يا رسول الله . قال : " فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه " وقد ذكرنا هذا الخبر في « الأعراف (٤) » وغيرها .

---

(١) السهب (بالفتح) : الفضاء المستوى البعيد الأطراف . والصحيفة : الكتاب . والصحصحان (بالفتح) : المستوى من الأرض .   (٢) الجران (بالكسر) : مقدّم العنق من مذبح البعير الى منحره .

(٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٨ طبعة ثانية .   (٤) راجع جـ ٧ ص ٢٣٠

قوله تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ التقدير عند الفراء : من كان يريد علم العزة . وكذا قال غيره من أهل العلم . أى من كان يريد علم العزة التى لا ذلة معها؛ لأن العزة إذا كانت تؤدى إلى ذلة فإنما هى تعرض للذلة، والعزةُ التى لا ذُلّ معها لله عز وجل . ﴿ جميعًا ﴾ منصوب على الحال . وقدّر الزجاج معناه : من كان يريد بعبادته الله عز وجل العزّة ــ والعزة له سبحانه ــ فإن الله عز وجل يُعزه فى الآخرة والدنيا .

قلت : وهذا أحسن، وروى مرفوعا على ما يأتى . ﴿ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ ظاهر هذا إيئاس السامعين من عزته، وتعريفهم أن ما وجب له من ذلك لا مطمع فيه لغيره؛ فتكون الألف واللام للعهد عند العالمين به ــ سبحانه ــ وبما وجب له من ذلك، وهو المفهوم من قوله الحق فى سورة يونس : « وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ » (١) . ويحتمل أن يريد سبحانه أن ينبه ذوى الأقدار والهمم من أين تنال العزة ومن أين تُستحق ؛ فتكون الألف واللام للاستغراق ، وهو المفهوم من آيات هذه السورة . فمن طلب العزة من الله وصدقه فى طلبها بافتقار وذل ، وسكون وخضوع ، وجدها عنده ــ إن شاء الله ــ غير ممنوعة ولا محجوبة عنه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " من تواضع لله رفعه الله " . ومن طلبها من غيره وكّله إلى من طلبها عنده . وقد ذكر قوما طلبوا العزة عند من سواه فقال : « الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ العِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا » (٢) . فأنبأك صريحا لا إشكال فيه أن العزة له يُعز بها من يشاء ويُذل من يشاء . وقال صلى الله عليه وسلم مفسرا لقوله « من كان يريد

(١) آية ٦٥ (٢) آية ١٣٩ سورة النساء .

العزة فلله العزة جميعا » : " من أراد عز الدارين فليطع العزيز " . وهذا معنى قول الزجاج. ولقد أحسن من قال :

وإذا تذللت الرقاب تواضعا * منا إليك فعزها في ذلها

فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر، ويدخل دار العزة — ولله العزة — فليقصد بالعزة الله سبحانه والاعتزاز به ؛ فإنه من اعتز بالعبد أذله الله، ومن اعتز بالله أعزه الله .

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ وتم الكلام، ثم تبتدئ ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ على معنى : يرفعه الله ، أو يرفع صاحبه . ويجوز أن يكون المعنى : والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب ؛ فيكون الكلام متصلا على ما يأتي بيانه . والصعود هو الحركة إلى فوق ، وهو العروج أيضا . ولا يتصور ذلك في الكلام لأنه عرض ، لكن ضرب صعوده مثلا لقبوله ؛ لأن موضع الثواب فوق ، وموضع العذاب أسفل . وقال الزجاج : يقال ارتفع الأمر إلى القاضي أي علمه؛ فهو بمعنى العلم . وخص الكلام الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه . وقوله : « إليه » أي إلى الله يصعد . وقيل : يصعد إلى سمائه والمحل الذي لا يجري فيه لأحد غيره حكم . وقيل : أي يحمل الكتاب الذي كتب فيه طاعات العبد إلى السماء . و « الْكَلِمُ الطَّيِّبُ » هو التوحيد الصادر عن عقيدة طيبة . وقيل : هو التحميد والتمجيد وذكر الله ونحوه . وأنشدوا :

لا ترض من رجل حلاوة قوله * حتى يُزَيِّن ما يقول فَعالُ

فإذا وزنت فَعاله بمقاله * فتوازنا فإخاء ذاك جمالُ

وقال ابن المُقَفَّع : قول بلا عمل ، كثريد بلا دَسَم ، وسحاب بلا مطر، وقوس بلا وتر . وفيه قيل :

لا يكون المقال إلا بفعلٍ * كُلُّ قولٍ بلا فعالٍ هَباءُ

إنّ قولًا بلا فعالٍ جميل * ونِكاحًا بلا وَلِيّ سواء

وقرأ الضحاك «يصعد» بضم الياء،[1] وقرأ جمهور الناس «الكلم» جمع كلمة. وقرأ أبو عبدالرحمن «الكلام».

قلت: فالكلام على هذا قد يطلق بمعنى الكلم و بالعكس؛ وعليه يخرج قول أبي القاسم: أقسام الكلام ثلاثة ؛ فوضع الكلام موضع الكلم ، والله أعلم . ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : المعنى والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب . وفي الحديث " لا يقبل الله قولا إلا بعمل ولا يقبل قولا وعملا إلا بنية ولا يقبل قولا وعملا ونية إلا بإصابة السنّة ". قال ابن عباس: فإذا ذكر العبد الله وقال كلاما طيبا وأدّى فرائضه، ارتفع قوله مع عمله ، وإذا قال ولم يؤدّ فرائضه ردّ قوله على عمله . قال ابن عطية: وهذا قول يردّه معتقد أهل السنة ولا يصح عن ابن عباس، والحق أن العاصي التارك للفرائض إذا ذكر الله وقال كلاما طيبا فإنه مكتوب له متقبل منه ، وله حسناته وعليه سيئاته ؛ والله تعالى يتقبل من كل من اتقى الشرك . وأيضا فإن الكلام الطيب عمل صالح ، وإنما يستقيم قول من يقول: إن العمل هو الرافع للكلم، بأن يتأول أنه يزيده في رفعه وحسن موقعه إذا تعاضد معه، كما أن صاحب الأعمال من صلاة وصيام وغير ذلك ، إذا تخلل أعماله كلِمٌ طيّب وذكر الله تعالى كانت الأعمال أشرف ؛ فيكون قوله : « والعملُ الصالحُ يرفعه » موعظةً وتذكرة وحضًّا على الأعمال . وأما الأقوال التي هي أعمال في نفوسها ؛ كالتوحيد والتسبيح فمقبولة . قال ابن العربي : « إن كلام المرء بذكر الله إن لم يقترن به عمل صالح لم ينفع ؛ لأن من خالف قوله فعله فهو وبال عليه ، وتحقيق هذا : أن العمل إذا وقع شرطا في قبول القول أو مرتبطا، فإنه لا قبول له إلا به ، وإن لم يكن شرطا فيه فإن كلمه الطيب يكتب له، وعمله السيئ يكتب عليه، وتقع الموازنة بينهما، ثم يحكم الله بالفوز والربح والخسران » .

قلت : ما قاله ابن العربي تحقيق . والظاهر أن العمل الصالح شرط في قبول القول الطيب . وقد جاء في الآثار " أن العبد إذا قال : لا إله إلا الله بنية صادقة نظرت الملائكة

(١) في روح المعاني : « وقال ابن عطية : وقرأ الضحاك « يصعد » بضم الياء، ولم يذكر مبنيا للفاعل ولا مبنيا للمفعول، ولا إعراب ما بعده » .

إلى عمله، فإن كان العمل موافقا لقوله صعدا جميعا ، و إن كان عمله مخالفا وقف قوله حتى يتوب من عمله" . فعلى هذا العمل الصالح يرفع الكلمَ الطيب إلى الله . والكناية في « يرفعه » ترجع إلى الكلم الطيب . وهذا قول ابن عباس وشَهْر بن حَوْشَب وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وأبي العالية والضحاك . وعلى أن « الكلم الطيب » هو التوحيد ، فهو الرافع للعمل الصالح؛ لأنه لا يقبل العمل الصالح إلا مع الإيمان والتوحيد . أي والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب؛ فالكناية تعود على العمل الصالح . وروى هذا القول عن شَهْر بن حَوْشَب قال : « الكلم الطيب » القرآن « والعمل الصالح يرفعه » القرآن . وقيل : تعود على الله جل وعز؛ أي أن العمل الصالح يرفعه الله على الكلم الطيب؛ لأن العمل تحقيق الكلم ، والعامل أكثر تعباً من القائل، وهذا هو حقيقة الكلام ؛ لأن الله هو الرافع الخافض . والثاني والأول مجاز ، ولكنه سائغ جائز . قال النحاس : القول الأول أولاها وأصحها لعلو من قال به، وأنه في العربية أولى؛ لأن القراء على رفع العمل . ولو كان المعنى : والعملَ الصالح يرفعه الله ، أو العمل الصالح يرفعه[1] الكلم الطيب، لكان الاختيار نصب العمل . ولا نعلم أحدا قرأه منصوبا إلا شيئا رُوِي عن عيسى بن عمر أنه قال : قرأه أناس « والعملَ الصالحَ يرفعه الله » . وقيل : والعمل الصالح يرفع صاحبه ، وهو الذي أراد العزة وعلم أنها تُطلب من الله تعالى؛ ذكره القشيري .

الثانية — ذكروا عند ابن عباس أن الكلب يقطع الصلاة، فقرأ هذه الآية « إليه يَصْعَد الكلم الطيّبُ والعملُ الصالحُ يرفعه» . وهذا استدلال بعموم على مذهب السلف في القول بالعموم، وقد دخل في الصلاة بشروطها، فلا يقطعها عليه شيء إلا بثبوت ما يوجب ذلك؛ من مثل ما انعقدت به من قرآن أو سنة أو إجماع . وقد تعلق من رأى ذلك بقوله عليه السلام : " يقطع الصلاةَ المرأةُ والحمارُ والكلب الأسود" فقلت : ما بال الكلب الأسود من الكلب الأبيض من الكلب الأحمر؟فقال : " إن الأسود شيطان" خرجه مسلم[2] ، وقد

---

(١) في الاصول : يرفع .　　(٢) أورد المؤلف هذا الحديث بمعناه لا بلفظه .

جاء ما يعارض هـذا ، وهو ما خرّجه البخارى عن ابن أخى ابن شهـاب أنه سأل عمـه عن الصلاة يقطعها شئ ؟ فقال : لا يقطعها شئ ، أخبرنى عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم قالت : لقد كان رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقوم فيصلى من الليل، وإنى لمعترضة بينه وبين القبلة على فراش أهله .

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ذكر الطبرى فى (كتاب آداب النفوس) : حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال حدّثنا سـفيان عن ليث بن أبى سليم عن شَهْر بن حَوْشب الأشعرى فى قوله عز وجل : « والذين يَمْكُرُون السيِّئَاتِ لهم عذابٌ شـديدٌ ومَكْرُ أولئك هو يَبُورُ» قال : هم أصحاب الرياء ؛ وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتـادة . وقال أبو العالية : هم الذين مكروا بالنبىّ صلى الله عليه وسلم لمـا اجتمعوا فى دار الندْوَة . وقال الكلبى : يعنى الذين يعملون السيئات فى الدنيا . مقاتل : يعنى الشرك؛ فتكون «السيئات» مفعولة . و يقال : بار يبور إذا هـلك وبطل . وبارت السوق أى كسدت ؛ ومنه : نعـوذ بالله من بَوار الأَيِّم(١) . وقوله : « وَكُنْتُمْ قَـوْمًا بُورًا(٢) » أى هَلْكَى . والمكر ما عمـل على سبيل احتيال وخديعـة . وقد مضى فى « سـبأ(٣) » .

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعـالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ قال سعيد عن قتادة قال : يعنى آدم عليه السلام؛ والتقدير على هذا : خلق أصلكم من تراب . ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ قال : أى التى أخرجها من ظهور آبائكم . ﴿ثم جعلكم أزواجا﴾ قال : أى زوج بعضكم بعضـا ؛ الذكر زوج الأنثى ليتم البقاء فى الدنيا إلى انقضاء مدّتها . ﴿وَمَا تَحْمِـلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ

(١) الأيم : التى لا زوج لها . (٢) آية ١٢ سورة الفتح . (٣) راجع ص ٣٠٢ من هذا الجزء .

إلّا بِعِلْمِهِ ﴾ أى جعلكم أزواجا فيتزوج الذكر بالأنثى فيتناسلان بعلم الله، فلا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به ؛ فلا يخرج شيء عن تدبيره . ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ سماه معمّرا بما هو صائر إليه . قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : « وما يعمّر من معمّر » إلا كتب عمره ، كم هو سنة كم هو شهرا كم هو يوما كم هو ساعة ؛ ثم يكتب فى كتاب آخر : نقص من عمره يوم ، نقص شهر ، نقص سنة ، حتى يستوفى أجله . وقاله سعيد بن جبير أيضا ، قال : فما مضى من أجله فهو النقصان، وما يستقبل فهو الذى يعمره؛ فالهاء على هذا للمعمّر . وعن سعيد أيضا : يكتب عمره كذا وكذا سنة ، ثم يكتب فى أسفل ذلك : ذهب يوم ، ذهب يومان ، حتى يأتى على آخره . وعن قتادة : المعمّر من بلغ ستين سنة ، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة . ومذهب الفرّاء فى معنى « وما يعمّر من معمّر » أى ما يكون من عمره « ولا يُنْقَص من عمره » بمعنى معمر آخر؛أى ولا ينقص الآخر من عمره إلا فى كتاب . فالكناية فى «عمره» ترجع إلى آخر غير الأوّل. وكنّى عنه بالهاء كأنه الأوّل ؛ ومثله قولك : عندى درهم ونصفه؛ أى نصف آخر . وقيل : إن الله كتب عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع، وتسعين إن عصى، فأيهما بلغ فهو فى كتاب . وهذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام : "من أحب أن يُبْسَط له فى رزقه ويُنْسأ له فى أثره[1] فليصل رحمه" أى أنه يكتب فى اللوح المحفوظ : عمر فلان كذا سنة ، فإن وصل رحمه زيد فى عمره كذا سنة . فبيّن ذلك فى موضع آخر من اللوح المحفوظ ، إنه سيصل رحمه ، فمن أطلع على الأوّل دون الثانى ظن أنه زيادة أو نقصان . وقد مضى هذا المعنى عند قوله تعالى : « يَمْحُو اللهُ ما يشاء ويُثْبِت »[2] والكناية على هذا ترجع إلى العمر . وقيل : المعنى وما يعمّر من معمّر أى هرم، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا فى كتاب؛ أى بقضاء من الله جل وعز . روى معناه عن الضحاك واختاره النحاس، قال : وهو أشبهها بظاهر التنزيل. وروى نحوه عن ابن عباس . فالهاء على هذا يجوز أن تكون للعمر ، ويجوز أن تكون لغير

---

(١) ينسأ : يؤخر . والأثر : الأجل ؛ لأنه تابع للحياة فى أثرها .   (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٢٩

المعمر . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى كتابة الأعمال والآجال غير متعذر عليه . وقراءة العامة « يُنْقَص » بضم الياء وفتح القاف . وقرأت فرقة منهم يعقوب « يَنْقُص » بفتح الياء وضم القاف؛ أى لا ينقص من عمره شيء . يقال : نَقَص الشيءُ بنفسه ونقصه غيرُه، وزاد بنفسه و زاده غيره ، متعدّ ولازم . وقرأ الأعرج والزهرى « مِن عُمْره » بتخفيف الميم . وضمها الباقون . وهما لغتان مثل السُّحْق والسُّحُق . و « يَسِيرٌ » أى إحصاءُ طويلِ الأعمار وقصيرِها لا يتعذّر عليه شيء منها ولا يعزب . والفعل منه : يَسُر . ولو سميت به إنسانا انصرف ؛ لأنه فعيل .

قوله تعالى : وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قال ابن عباس : «فُرَاتٌ» حلو، و «أُجَاج» مُرٌّ . وقرأ طلحة « هذا مَلِح أجاج » بفتح الميم وكسر اللام بغير ألف . وأما المالح فهو الذى يجعل فيه الملح . وقرأ عيسى وابن أبى إسحاق «سيغ شرابه» مثل سيد وميت . ﴿ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ لااختلاف فى أنه منهما جميعا . وقد مضى فى « النحل » الكلام فيه (1) .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ مذهب أبى إسحاق أن الحلية إنما تستخرج من الملح ، فقيل منهما لأنهما مختلطان . وقال غيره : إنما تستخرج الأصداف التى فيها الحلية من الدُّر وغيره من المواضع التى فيها العذب والملح نحو العيون ، فهو مأخوذ منهما ؛ لأن فى البحر عيونا عذبة ، و بينهما يخرج اللؤلؤ عند التمازج . وقيل :

(1) راجع جـ ١٠ ص ٨٥

من مطر السماء . وقال محمد بن يزيد قولا رابعا، قال : إنما تستخرج الحلية من الملح خاصة. النحاس : وهذا أحسنها وليس هذا عنده؛ لأنهما مختلطان، ولكن جمعا ثم أخبر عن أحدهما كما قال جل وعز : «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ»(1) . وكما تقول : لو رأيت الحسن والحجاج لرأيت خيرا وشرًّا . وكما تقول : لو رأيت الأصمعي وسيبويه لملأت يدك لغة ونحوًا . فقد عرف معنى هذا ، وهو كلام فصيح كثير؛ فكذا « وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا » فاجتمعا في الأول وانفرد الملح بالثاني .

الثالثة — وفي قوله : « تَلْبَسُونَهَا » دليل على أن لباس كل شيء بحسبه ؛ فالخاتم يجعل في الإصبع، والسوار في الذراع، والقلادة في العنق، والخلخال في الرِّجل . وفي البخاري والنسائي عن ابن سيرين قال قلت لعبيدة : افتراش الحرير كلابسه ؟ قال نعم . وفي الصحاح عن أنس " فقمت على حصير لنا قد اسودّ من طول ما لبس " . الحديث .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ قال النحاس : أي ماء الملح خاصة، ولولا ذلك لقال فيهما . وقد مخرت السفينة تمخر إذا شقّت الماء . وقد مضى هذا في « النحل »(2) . ﴿ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ قال مجاهد : التجارة في الفلك إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة ؛ كما تقدّم في « البقرة »(3) . وقيل : ما يستخرج من حليته ويصاد من حيتانه . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ على ما آتاكم من فضله . وقيل : على ما أنجاكم من هوله .

قوله تعالى : يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ تقدّم في « آل عمران »(4) وغيرها . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ تقدّم في « لقمان »(5) بيانه ؛

(1) آية ٧٣ سورة القصص . (2) راجع جـ ١٠ ص ٨٩ (3) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ وما بعدها طبعة ثانية . (4) راجع جـ ٤ ص ٥٦ (5) راجع ص ٧٨ من هذا الجزء .

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ أى هـذا الذى من صنعه ما تقرر هو الخالق المدبر، والقادر المقتدر؛ فهو الذى يعبد . ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ يعنى الأصنام . ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ أى لا يقدرون عليـه ولا على خلقه . والقطمير : القشرة الرقيقة البيضاء التى بين التمرة والنواة ؛ قاله أكثر المفسرين. وقال ابن عباس : هو شق النواة ؛ وهو اختيار المبرد، وقاله قتادة . وعن قتادة أيضا : القطمير القمع الذى على رأس النواة . الجوهرى : ويقال هى النكتة البيضاء التى فى ظهر النواة، تنبت منها النخلة .

قوله تعالى : إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ أى إن تستغيثوا بهم فى النوائب لا يسمعوا دعاءكم ؛ لأنها جمادات لا تبصر ولا تسمع . ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ إذ ليس كل سامع ناطقا . وقال قتادة : المعنى لو سمعوا لم ينفعوكم . وقيل : أى لو جعلنا لهم عقولا وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم ، ولما استجابوا لكم على الكفر . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أن يجحدون أنكم عبدتموهم، ويتبرءون منكم . ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين مما يعقل؛ كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين؛ أى يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقا، وأنهم أمروكم بعبادتهم ؛ كما أخبر عن عيسى بقوله : « مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ »[1] . ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضا؛ أى يحييها الله حتى تخبر أنها ليست أهلا للعبادة . ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ هو الله جل وعز ؛ أى لا أحد أخبر بخلق الله من الله، فلا ينبئك مثله فى عمله[2] .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

(١) آية ١١٦ سورة المائدة . (٢) فى بعض النسخ : «علمه» .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى المحتاجون إليه فى بقائكم وكل أحوالكم . الزمخشرى : « فإن قلت لم عرّف الفقراء ؟ قلت : قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم؛ لأن الفقر مما يتبع الضعف، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر ؛ وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف فى قوله : «وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفًا»(١) ، وقال: « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن ضَعْفٍ »(٢) ولو نكر لكان المعنى : أنتم بعض الفقراء . فإن قلت : قد قوبل « الفقراء » بـ « الغنىّ » فما فائدة « الحميد » ؟ قلت : لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم ، وليس كل غنىّ نافعا بغناه إلا إذا كان الغنىّ جوادا منعما ، وإذا جاد وأنعم حمده المنعَم عليهم واستحق عليهم الحمد — ذكر « الحميد » ليدل به على أنه الغنىّ النافع بغناه خلقه، الجواد المنعم عليهم، المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه » . وتخفيف الهمزة الثانية أجود الوجوه عند الخليل ، ويجوز تخفيف الأولى وحدها وتخفيفهما وتحقيقهما جميعا . ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ تكون « هو » زائدة، فلا يكون لها موضع من الإعراب، وتكون مبتدأة فيكون موضعها رفعا .

قوله تعالى : إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ فيه حذف ؛ المعنى إن يشا [أن](٣) يذهبكم؛ أى يفنيكم . ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى أطوع منكم وأزكى . ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أى ممتنع عسير متعذر . وقد مضى هذا فى « إبراهيم »(٤) .

قوله تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

(١) آية ٢٨ سورة النساء . (٢) آية ٥٤ سورة الروم . (٣) زيادة عن النحاس . (٤) راجع جـ ٩ ص ٣٥٤

تقدم الكلام فيه ، وهو مقطوع مما قبله . والأصل « تَوْزَر » حذفت الواو اتباعا ليزر . ﴿ وَازِرَةٌ ﴾ نعت لمحذوف ؛ أى نفس وازرة . وكذا ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا ﴾ قال الفرّاء : أى نفس مثقلة أودابة . قال : وهـذا يقع للذكر والمؤنث . قال الأخفش : أى وإن تدع مثقلة إنسانا إلى حملها وهو ذنوبها . والحِمْل ما كان على الظهر ، والحَمْل حمل المرأة وحمل النخلة ؛ حكاهما الكسائى بالفتح لا غير . وحكى ابن السِّكيت أن حمل النخلة يفتح ويكسر . ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ التقدير على قول الأخفش : ولو كان الإنسان المدعوّ ذا قربى . وأجاز الفرّاء ولو كان ذو قربى . وهذا جائز عند سيبويه ؛ ومثله « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ » فتكون « كان » بمعنى وقع ، أو يكون الخبر محذوفا ؛ أى وإن كان فيمن تطالبون ذو عسرة . وحكى سيبويه : الناس مجزيّون بأعمالهم إن خير فخير ؛ على هذا . وخيرا فخـير ؛ على الأوّل . وروى عن عكرمة أنه قال : بلغنى أن اليهودىّ والنصرانىّ يرى الرجل المسـلم يوم القيامة فيقول له : ألم أكن قد أسديت إليك يداً ، ألم أكن قد أحسنت إليك؟ فيقول بلى . فيقول : انفعنى ؛ فلا يزال المسلم يسأل الله تعالى حتى ينقص من عذابه . وأن الرجل ليأتى إلى أبيه يوم القيامة فيقول : ألم أكن بك بارا ، وعليك مشفقا ، وإليك محسنا ، وأنت ترى ما أنا فيه ؛ فهب لى حسنة من حسناتك ، أواحمل عنى سيئة ؛ فيقول : إن الذى سألتنى يسير ؛ ولكنى أخاف مثل ما تخاف . وأن الأب ليقول لابنه مثلَ ذلك فيرد عليه نحوًا من هـذا . وأن الرجل ليقول لزوجته : ألم أكن أحسن العشرة لكِ ، فاحملى عنى خطيئة لعـلى أنجو ؛ فتقول : إن ذلك ليسير ولكنى أخاف مما تخاف منه . ثم تلا عكرمة : « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » . وقال الفضيل بن عياض : هى المرأة تلق ولدها فتقول : يا ولدى ، ألم يكن بطنى لك وعاء ، ألم يكن ثديى لك سقاء ، ألم يكن حجرى لك وطاء ؛ فيقول : بلى يا أماه ؛ فتقول : يا بنىّ ، قد أثقلتنى ذنوبى فاحمل عنى منها ذنبا واحدا ؛ فيقول : إليك عنى يا أماه ، فإنى بذنبى عنك مشغول .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٧

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ أى إنما يقبل إنذارك من يخشى عقاب الله تعالى، وهو كقوله تعالى: « إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ »(1).

قوله تعالى : ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ أى من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه. وقرئ « وَمَنِ ٱزَّكَّىٰ فَإِنَّمَا يَزَّكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ». ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أى إليه مرجع جميع الخلق.

قوله تعالى : وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ أى الكافر والمؤمن والجاهل والعالم. مثل : « قل لَا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ »(2). ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ قال الأخفش سعيد : « لا » زائدة، والمعنى ولا الظلمات والنور، ولا الظل والحرور. قال الأخفش : والحَرور لا يكون إلا مع شمس النهار، والسَّموم يكون بالليل؛ وقيل بالعكس. وقال رُؤبة ابن العَجّاج : الحرور تكون بالنهار خاصة، والسموم يكون بالليل خاصة؛ حكاه المهدوىّ. وقال الفرّاء : السموم لا يكون إلا بالنهار، والحرور يكون فيهما. النحاس : وهذا أصح؛ لأن الحرور فعول من الحرّ، وفيه معنى التكثير، أى الحرّ المؤذى.

قلت : وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قالت النار رَبِّ أكل بعضى بعضا فأذن لى أتنفس فأذن لها بنفسين نَفَس فى الشتاء ونفس فى الصيف فما وجدتم من برد أو زمهرير فمن نَفَس جهنم وما وجدتم من حرّ أو حَرور فمن نفس جهنم". وروى من حديث الزهرىّ عن سعيد عن أبى هريرة : "فما تجدون من الحر من

(1) آية ١١ سورة يس. (2) آية ١٠٠ من سورة المائدة.

سمومها و شدّة ما تجدون من البرد فمن زمهريرها " وهـذا يجمع تلك الأقوال ، وأن السموم والحرور يكون بالليل والنهار ؛ فتأمله . وقيل : المراد بالظل والحرور الجنة والنار ؛ فالجنة ذات ظل دائم ؛ كما قال تعالى : « أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا »[1] والنارُ ذات حَرور ، وقال معناه السُّدّى . وقال ابن عباس : أى ظل الليل، وحرّ السموم بالنهار . قُطْرُب : الحرور الحر، والظل البرد . ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَاءُ وَلَا ٱلْأَمْوَاتُ ﴾ قال ابن قُتيبة : الأحياء العقلاء، والأموات الجهال . قال قتادة : هـذه كلها أمثال ؛ أى كما لا تستوى هـذه الأشياء كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى يُسمع أولياءه الذين خلقهم لجنته . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ أى الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم؛ أى كما لا تسمع من مات، كذلك لا تسمع من مات قلبه . وقرأ الحسن وعيسى الثقفىّ وعمرو بن ميمون « بِمُسْمِعِ مَن فِى القبور » بحذف التنوين تخفيفا؛ أى هم بمنزلة [أهل] القبور فى أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه .

قوله تعالى : إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾

أى رسول منذر ؛ فليس عليك إلا التبليغ، ليس لك من الهدى شىء، إنما الهدى بيد الله تبارك وتعالى .

قوله تعالى : إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى بشيرا بالجنة أهل طاعته، ونذيرا بالنار أهل معصيته . ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أى سلف فيها نبىّ . قال ابن جريج : إلا العرب .

---

(١) آية ٣٥ سورة الرعد .

قوله تعالى : وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ يعنى كفار قريش . ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أنبياءهم ؛ يسلّى رسوله صلى الله عليه وسلم . ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالمعجزات الظاهرات والشرائع الواضحات . ﴿ وَبِالزُّبُرِ ﴾ أى الكتب المكتوبة . ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أى الواضح . وكرر الزبر والكتاب وهما واحد لاختلاف اللفظين . وقيل : يرجع البينات والزبر والكتاب إلى معنًى واحد ، وهو ما أنزل على الأنبياء من الكتب . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى كيف كان عقوبتى لهم . وأثبت وَرْش عن نافع وشيبة الياء فى « نكيرى » حيث وقعت فى الوصل دون الوقف . وأثبتها يعقوب فى الحالين وحذفها الباقون فى الحالين . وقد مضى هذا كله ، والحمد لله .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ هذه الرؤية رؤية القلب والعلم ؛ أى ألم ينته علمك ورأيت بقلبك أن الله أنزل ؛ فـ « أنّ » واسمها وخبرها سدّت مسدّ مفعولى الرؤية . ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ ﴾ هو من باب تلوين الخطاب . ﴿ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ نصبت « مختلفا » نعتا لـ « ثمرات » . ﴿ أَلْوَانُهَا ﴾ رفع بمختلف ، وصلح أن يكون نعتا لـ « ثمرات » لما عاد عليه من ذكره . ويجوز فى غير القرآن رفعه ؛ ومثله رأيت رجلا خارجا أبوه .

﴿ به ﴾ أى بالماء وهو واحد ، والثمرات مختلفة . ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ الجُدَد جمع جُدّة، وهى الطرائق المختلفة الألوان، وإن كان الجميع حجرا أو ترابا . قال الأخفش : ولو كان جمع جديد لقال : جدد (بضم الجيم والدال) نحو سرير وسرر . وقال زهير :

كأنه أسفع الخدين ذو جُدُدٍ * طاوٍ ويرتع بعد الصيف عريانا

وقيل : إن الجُدَد القِطَع ، مأخوذ من جددت الشيء إذا قطعته ؛ حكاه ابن بحر . قال الجوهرى : والجُدّة الخُطّة التى فى ظهر الحمار تخالف لونه . والجُدّة الطريقة ، والجمع جُدَد ؛ قال تعالى : « ومِن الجِبَالِ جُدَد بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا » أى طرائق تخالف لون الجبل . ومنه قولهم : ركب فلان جُدّةً من الأمر؛ إذا رأى فيه رأيا . وكساء مجدّد فيه خطوط مختلفة . الزمخشرى : وقرأ الزهرى « جدد » بالضم جمع جديدة، وهى الجدة ؛ يقال : جديدة وجُدُد وجدائد ؛ كسفينة وسفن وسفائن . وقد فسّر بها قول أبى ذُؤيب :

* جَوْنُ السَّراةِ له جدائد أربعُ *(1)

وروى عنه «جَدَد» بفتحتين، وهو الطريق الواضح المسفر، وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض . ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ ﴾ وقرئ « و الدواب » مخففا . ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ « ولا الضالين » لأن كل واحد منهما فر من التقاء الساكنين ، فحرك ذلك أولها وحذف هذا آخرهما؛ قاله الزمخشرى . ﴿ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ أى فيهم الأحمر والأبيض والأسود وغير ذلك ، وكل ذلك دليل على صانع مختار . وقال « مختلفٌ ألوانُه » فذكّر الضمير مراعاة لـ«من» ؛ قاله المؤرّج. وقال أبو بكر بن عياش: إنما ذكر الكناية لأجل أنها مردودة إلى «ما» مضمرة؛ مجازه : ومن الناس ومن الدواب ومن الأنعام ما هو مختلف ألوانه ؛ أى أبيض وأحمر وأسود . ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ قال أبو عبيدة : الغِربيب الشديد السواد ؛ ففى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : ومن الجبال

---

(1) صدر البيت : * والدهر لا يبقى على حدثانه *

سود غرابيب . والعرب تقول للشديد السواد الذي لونه كلون الغراب : أسود غربيب ؛ قال الجوهري : وتقول هذا أسود غربيب ؛ أي شديد السواد . و إذا قلت : غرابيب سود ، تجعل السود بدلا من غرابيب لأن توكيد الألوان لا يتقدم . وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله يبغض الشيخ الغربيب " يعني الذي يخضب بالسواد . قال امرؤ القيس :

العين طامحة واليد سابحة * والرِّجْل لافحة والوجه غربيب (١)

وقال آخر يصف كرما :

ومن تعاجيب خلق الله غاطيةٌ * يُعصَر منها مُلاحِيٌّ وغربيب (٢)

﴿كذلك﴾ هنا تمام الكلام؛ أي كذلك تختلف أحوال العباد في الخشية؛ ثم استأنف فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ يعني بالعلماء الذين يخافون قدرته؛ فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية ؛ كما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماءُ » قال : الذين علموا أن الله على كل شيء قدير . وقال الربيع بن أنس : من لم يخش الله تعالى فليس بعالم . وقال مجاهد : إنما العالم من خشي الله عز وجل . وعن ابن مسعود : كفى بخشية الله تعالى علما و بالاغترار جهلا . وقيل لسعد ابن إبراهيم: مَن أفقه أهل المدينة؟ قال أتقاهم لربه عز وجل . وعن مجاهد قال : إنما الفقيه من يخاف الله عز وجل . وعن علي رضي الله عنه قال : إن الفقيه حقَّ الفقيه من لم يُقنط.

---

(١) هذه رواية الأصول . والبيت كما ورد في ديوانه طبع مطبعة الاستقامة :

واليد سابحة والرجل ضارحة * والعين قادحة والمتن ملحوب

والماء منهمر والشد منحدر * والقصب مضطمر واللون غربيب

قوله « سابحة » يعني إذا جرى فرسه ومد يديه فكأنه سابح في الماء . وضرحت الدابة برجلها : رمحت . وقدحت العين : غارت . والمتن : الظهر . وقوله « سلحوب » بالسين ، وفسر بأنه أملس قليل اللحم . وهذا التفسير لم نجده لهذه الكلمة في المظان التي بين أيدينا . والرواية فيه «ملحوب» بالميم . ولحب متن الفرس وعجزه : املاس في حدور؛ ومتن لحوب . و « والشد » العدو . و « القصب » بالضم : الخصر . و « مضطمر » ضامر .

(٢) الغاطية : الشجرة التي طالت اغصانها وانبسطت على الأرض . و « ملاحيّ » : أبيض .

الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم فى معاصي الله تعالى ، ولم يؤمنهم من عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبةً عنه إلى غيره ، إنه لا خير فى عبادة لا علم فيها ، ولا علم لا فقه فيه ، ولا قراءة لا تدبر فيها . وأسند الدارمىّ أبو محمد عن مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم — ثم تلا هذه الآية — إنما يخشى الله من عبادِهِ العلماءُ . إن الله وملائكته وأهل سمواته وأهل أرضيه والنون فى البحر يصلون على الذين يعلمون الناس الخير" الخبر مرسل . قال الدارمى : وحدثنى أبو النعمان حدثنا حماد ابن زيد عن يزيد بن حازم قال حدثنى عمى جرير بن زيد(١) أنه سمع تُبَيْعًا يحدّث عن كعب قال : إنى لأجد نعت قوم يتعلمون لغير العمل ، ويتفقهون لغير العبادة ، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، ويلبسون جلود الضأن ، قلوبهم أمرّ من الصبر ، فبي يغترّون ، وإياى يخادعون ، فبي حلفت لأتيحنّ لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران . خرّجه الترمذىّ مرفوعا من حديث أبي الدرداء . وقد كتبناه فى مقدّمة الكتاب(٢) . الزمخشرىّ : فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ «إنما يخشى اللهُ» بالرفع «من عبادِهِ العلماءَ» بالنصب ، وهو عمر بن عبد العزيز ، وتُحكى عن أبي حنيفة . قلت : الخشية فى هذه القراءة استعارة ، والمعنى : إنما يجلّهم ويعظمهم كما يُجَلّ المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية ؛ لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم ، وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم . والمعاقِب والمثيب حقّه أن يخشى .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

---

(١) فى الأصول : «جرير بن يزيد» وهو تحريف راجع تهذيب التهذيب وسنن الدارمى .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ هذه آية القراء العاملين العالمين الذين يقيمون الصلاة الفرض والنفل ، وكذا في الإنفاق ، وقد مضى في مقدمة الكتاب ما ينبغي أن يتخلق به قارئ القرآن[1] . ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴾ قال أحمد بن يحيى : خبر « إن » « يرجون » . ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ قيل : الزيادة الشفاعة في الآخرة . وهذا مثل الآية الأخرى : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ — إلى قوله — وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ »[2] ، وقوله في آخر النساء : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ »[3] وهناك بيناه . ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ للذنوب . ﴿ شَكُورٌ ﴾ يقبل القليل من العمل الخالص ، ويثيب عليه الجزيل من الثواب .

قوله تعالى : وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١)

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يعني القرآن . ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٣٧ سورة النور . راجع جـ ١٢ ص ٢٧٩
(٣) آية ١٧٣ راجع جـ ٦ ص ٢٦

فيـــه أربع مسائل :

الأولى ـ هذه الآية مشكلة؛ لأنه قال جل وعز : ﴿ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ثم قال : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ وقد تكلم العلماء فيها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . قال النحاس : فمن أصح ما روى فى ذلك ما روى عن عبـاس « فَمِنْهم ظالِمٌ لِنفسِـهِ » قال الكافر؛ رواه ابن عُيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس . وعن ابن عباس أيضا « فَمِنهم ظالِم لِنفسِهِ ومنهم مُقْتَصِدٌ ومِنهم سابِقٌ بِالخيراتِ» قال: نجت فرقتان؛ ويكون التقدير فى العربية: فمنهم من عبادنا ظالم لنفسه ؛ أى كافر . وقال الحسن : أى فاسق . ويكون الضمير الذى فى « يدخلونها » يعود على المقتصِد والسابق لا على الظالم . وعن عكرمة وقتـادة والضحاك والفرّاء أن المقتصد المؤمن العاصى ، والسابق التقىّ على الإطلاق . قالوا : وهذه الآية نظير قوله تعـالى فى سورة الواقعة : « وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً » الآية . قالوا وبعيد أن يكون ممن يصطفى ظالم . ورواه مجاهد عن ابن عباس . قال مجاهد : « فَمِنهم ظالِم لِنفسِهِ » أصحاب المشأمة، « ومِنهم مقتصِد » أصحاب الميمنة، « ومِنهم سابِق بِالخـيراتِ » السابقون من الناس كلهم . وقيــل : الضمير فى « يدخلونها » يعود على الثلاثة الأصناف، على ألا يكون الظالم هاهنا كافرا ولا فاسقا . وممن روى عنه هذا القول عمر وعثمان وأبو الدرداء، وابن مسعود وعقبة بن عمرو وعائشة، والتقدير على هذا القول أن يكون الظالم لنفسه الذى عمل الصغائر. و(المقتصد) قال محمد بن يزيد : هو الذى يعطى الدنيا حقها والآخرة حقها؛ فيكون «جنّاتُ عَدْنٍ يدخلونها» عائدا على الجميع على هذا الشرح والتبيين؛ وروى عن أبى سعيد الخُدْرى . وقال كعب الأحبار : استـوت مناكبهم ـ ورب الكعبة ـ وتفاضلوا بأعمـالهم . وقال أبو إسحاق السَّبِيعى : أما الذى سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج . وروى أسامة بن زيد أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قرأ هــذه الآية وقال : "كلهم فى الجنة" . وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سابِقُنا سابق ومُقْتَصِدُنا ناج وظالمنا مغفورله" . فعلى هــذا القول يقدّر مفعول الاصطفاء من قوله : « أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ

آصْطَفَينا مِن عِبادِنا » مضافا حذف كما حذف المضاف فى « وَآسألِ القَـرْيَة » أى اصطفينا دينهم، فبقى اصطفيناهم؛ فحذف العائد إلى الموصول كما حذف فى قوله : « وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ[1] » أى تزدريهم؛ فالاصطفاء إذًا موجه إلى دينهم؛ كما قال تعـالى : « إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ[2] » . قال النحاس : وقول ثالث ــ يكون الظالم صاحب الكبائر، والمقتصد الذى لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته ؛ فيكون « جناتُ عَدْنٍ يدخلونهـا » للذين سـبقوا بالخيرات لا غير، وهــذا قول جماعة من أهل النظر ؛ لأن الضمير فى حقيقة النظر لمـا يليه أولى .

قلت : القول الوسط أولاها وأصحها إن شاء الله ؛ لأن الكافر والمنافق لم يصطفوا بحمد الله، ولا اصطفى دينهم، وهذا قول ستة من الصحابة ، وحسبك . وستزيده بيانا وإيضاحا فى باقى الآية .

الثانيــة ــ قوله تعـالى : ﴿ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ ﴾ أى أعطينا . والميراث عطاء حقيقة أو مجازا ؛ فإنه يقال فيما صار للإنسان بعد موت آخر . و « الكتابَ » هاهنا يريد به معانى الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده، وكأن الله تعالى لمـا أعطى أمة محمد صلى الله عليه وسلم القرآن، وهو قد تضمن معانى الكتب المنزلة ، فكأنه ورّث أمة محمد عليه السلام الكتاب الذى كان فى الأمم قبلنا . ﴿ آصْطَفَيْنَا ﴾ أى اخترنا . واشتقاقه من الصفو ، وهو الخلوص من شوائب الكدر . وأصله اصتفونا ، فأبدلت التاء طاء والواو ياء . ﴿ مِنْ عِبادِنَا ﴾ قيل المراد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس وغيره . وكان اللفظ يحتمل جميع المؤمنين من كل أمة ، إلا أن عبارة توريث الكتاب لم تكن إلا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، والأوّل لم يرثوه . وقيل : المصطفَوْن الأنبياء ، توارثوا الكتاب بمعنى أنه انتقل عن بعضهم إلى آخر ؛ قال الله تعالى : « وَوَرِثَ سليمانُ داودَ[3] » ، وقال : « يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِن آلِ يعقوب[4] » فإذا جاز أن تكون النبوة موروثة فكذلك الكتاب . ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ من وقع فى صغيرة . قال ابن عطية : وهذا

(١) آية ٣١ سورة هود . (٢) آية ١٣٢ سورة البقرة . (٣) آية ١٦ سورة النمل .
(٤) آية ٦ سورة مريم .

قول مردود من غير ما وجه . قال الضحاك : معنى « فمنهم ظالمٌ لنفسه » أى من ذريتهم ظالم لنفسه وهو المشرك . الحسن : من أممهم ؛ على ما تقدّم ذكره من الخلاف فى الظالم . والآية فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقد ٱختلفت عبارات أرباب القلوب فى الظالم والمقتصد والسابق ؛ فقال سهل بن عبد الله : السابق العالم ، والمقتصد المتعلم ، والظالم الجاهل . وقال ذو النون المصري : الظالم الذاكر الله بلسانه فقط ، والمقتصد الذاكر بقلبه ، والسابق الذى لا ينساه . وقال الأنطاكى : الظالم صاحب الأقوال ، والمقتصد صاحب الأفعال ، والسابق صاحب الأحوال . وقال ٱبن عطاء : الظالم الذى يحب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد الذى يحبه من أجل العقبى ، والسابق الذى أسقط مراده بمراد الحق . وقيل : الظالم الذى يعبد الله خوفا من النار ، والمقتصد الذى يعبد الله طمعا فى الجنة ، والسابق الذى يعبد الله لوجهه لا لسبب . وقيل : الظالم الزاهد فى الدنيا ؛ لأنه ظلم نفسه فترك لها حظا وهى المعرفة والمحبة ، والمقتصد العارف ، والسابق المحب . وقيل : الظالم الذى يجزع عند البلاء ، والمقتصد الصابر على البلاء ، والسابق المتلذذ بالبلاء . وقيل : الظالم الذى يعبد الله على الغفلة والعادة ، والمقتصد الذى يعبده على الرغبة والرهبة ، والسابق الذى يعبده على الهيبة . وقيل : الظالم الذى أعطِىَ فمنع ، والمقتصد الذى أعطى فبذل ، والسابق الذى مُنع فشكر وآثر . يروى أن عابدَيْن التقيا فقال : كيف حال إخوانكم بالبَصْرة؟ قال : بخير ، إن أُعطوا شكروا و إن مُنعوا صبروا . فقال : هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ ! عُبّادنا إن مُنعوا شكروا و إن أُعطوا آثروا . وقيل : الظالم من ٱستغنى بماله ، والمقتصد من ٱستغنى بدينه ، والسابق من ٱستغنى بربه . وقيل : الظالم التالى للقرآن ولا يعمل به ، والمقتصد التالى للقرآن ويعمل به ، والسابق القارئ للقرآن العامل به والعالم به . وقيل : السابق الذى يدخل المسجد قبل تأذين المؤذن ، والمقتصد الذى يدخل المسجد وقد أذّن ، والظالم الذى يدخل المسجد وقد أقيمت الصلاة ؛ لأنه ظلم نفسه الأجر فلم يحصل لها ما حصله غيره . وقال بعض أهل العلم فى هذا : بل السابق الذى يدرك الوقت والجماعة فيدرك الفضيلتين ، والمقتصد الذى إن فاتته الجماعة لم يفرّط

فى الوقت، والظالم الغافل عن الصلاة حتى يفوت الوقت والجماعة، فهو أولى بالظلم . وقيل : الظالم الذى يحب نفسه ، والمقتصد الذى يحب دينه، والسابق الذى يحب ربه . وقيل : الظالم الذى ينتصف ولا ينصف، والمقتصد الذى ينتصف و ينصف، والسابق الذى ينصف ولا ينتصف . وقالت عائشة رضى الله عنها : السابق الذى أسلم قبل الهجرة، والمقتصد من أسلم بعد الهجرة، والظالم من لم يسلم إلا بالسيف؛ وهم كلهم مغفور لهم .

قلت : ذكر هذه الأقوال وزيادة عليها الثعلبيّ فى تفسيره . وبالجملة فهم طرفان وواسطة، وهو المقتصد الملازم للقصد وهو ترك الميل . ومنه قول جابر بن حُنَيّ التَّغْلبيّ :

نعاطى الملوك السِّلم ما قصدوا لنا * وليس علينا قتلهم بمحرّم

أى نعاطيهم الصلح ما ركبوا بنا القصد، أى ما لم يجوروا، وليس قتلهم بمحرّم علينا إن جاروا؛ فلذلك كان المقتصد منزلة بين المنزلتين، فهو فوق الظالم لنفسه ودون السابق بالخيرات . ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يعنى إتياننا الكتاب لهم . وقيل : ذلك الاصطفاء مع علمنا بعيوبهم هو الفضل الكبير . وقيل : وعدُ الجنة لهؤلاء الثلاثة فضل كبير .

الثالثة — وتكلم الناس فى تقديم الظالم على المقتصد والسابق فقيل : التقديم فى الذكر لا يقتضى تشريفا؛ كقوله تعالى : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ »(1) . وقيل : قدم الظالم لكثرة الفاسقين منهم وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقين أقلّ من القليل؛ ذكره الزمخشرى ولم يذكره غيره . وقيل : قدّم الظالم لتأكيد الرجاء فى حقه؛ إذ ليس له شىء يتكل عليه إلا رحمة ربه . واتكل المقتصد على حسن ظنه، والسابقُ على طاعته . وقيل : قدّم الظالم لئلا ييئس من رحمة الله، وأخّر السابق لئلا يعجب بعمله . وقال جعفر بن محمد بن على الصادق رضى الله عنه : قدّم الظالم ليخبر أنه لا يتقرّب إليه إلا بصرف رحمته وكرمه ، وأن الظلم لا يؤثر فى الاصطفائية إذا كانت ثَمّ عناية ، ثم ثنّى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحدمكر الله ؛ وكلهم فى الجنة

---

(1) آية ٢٠ سورة الحشر .

بحرمة كلمة الإخلاص : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وقال محمد بن على الترمذى : جمعهم فى الاصطفاء إزالةً للعلل عن العطاء؛ لأن الاصطفاء يوجب الإرث لا الإرث يوجبُ الاصطفاء، ولذلك قيل فى الحكمة : صحح النسبة ثم ادّع فى الميراث . وقيل : أخّر السابق ليكون أقرب إلى الجنات والثواب؛ كما قدّم الصوامع والبِيَع فى « سورة الحج »[1] على المساجد؛ لتكون الصوامع أقربَ إلى الهدم والخراب ، وتكون المساجد أقربَ إلى ذكر الله . وقيل : إن الملوك إذا أرادوا الجمع بين الأشياء بالذكر قدّموا الأدنى؛ كقوله تعالى : «لَسَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّه لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»[2] وقوله : « يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ »[3] ، وقوله : « لا يَسْتَوِى أصحابُ النارِ وأصحابُ الجنةِ »[4] .

قلت : ولقد أحسن من قال :

وغاية هذا الجود أنت وإنما * يوافى إلى الغايات فى آخر الأمر

الرابعة ـ قوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ جمعهم فى الدخول لأنه ميراث والعاقّ والبارّ فى الميراث سواء إذا كانوا معترفين بالنسب ؛ فالعاصى والمطيع مقرون بالرب . وقرئ «جنّةُ عَدْنٍ» على الإفراد، كأنها جنة مختصة بالسابقين لقلتهم؛ على ما تقدّم . و«جنّاتِ عَدْنٍ» بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر ؛ أى يدخلون جنات عدن يدخلونها . وهذا للجميع؛ وهو الصحيح إن شاء الله تعالى . وقرأ أبو عمرو «يُدْخَلونها» بضم الياء وفتح الخاء . قال : لقوله «يُحَلَّوْنَ» . وقد مضى فى «الحج» الكلام فى قوله تعالى : « يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ولِبَاسُهُم فِيهَا حَرِيرٌ»[5] .

﴿ وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ ﴾ قال أبو ثابت : دخل رجل المسجد فقال اللهم ارحم غُرْبتى وآنس وحدتى ويسّر لى جليسا صالحا . فقال أبو الدَّرداء : لئن كنت صادقا فلأنا أسعد بذلك منك؛ سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول: "«ثم أورثنا الكتاب

(١) راجع ج ١٢ ص ٧٨ (٢) آية ١٦٧ سورة الأعراف . (٣) آية ٤٩ سورة الشورى .
(٤) آية ٢٠ سورة الحشر . (٥) راجع ج ١٢ ص ٢٨

الذين ٱصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات» ــ قال : فيجىء هذا السابق فيدخل الجنة بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا وأما الظالم لنفسه فيحبس فى المقام ويوبخ ويقرع ثم يدخل الجنة فهم الذين قالوا «الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور» " . وفى لفظ آخر " وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون فى طول المحشر ثم هم الذين يتلقاهم[1] الله برحمته فهم الذين يقولون « الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ــ إلى قوله ــ ولا يمسنا فيها لغوب »" . وقيل : هو الذى يؤخذ منه فى مقامه ؛ يعنى يكفر عنه بما يصيبه من الهم والحزن؛ ومنه قوله تعالى : « من يعمل سوءا يجز به[2] » يعنى فى الدنيا . قال الثعلبى : وهذا التأويل أشبه بالظاهر؛ لأنه قال : « جنات عدن يدخلونها » ولقوله : « الذين ٱصطفينا من عبادنا » والكافر والمنافق لم يصطفوا .

قلت : وهذا هو الصحيح، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر" . فأخبر أن المنافق يقرؤه، وأخبر الحق سبحانه وتعالى أن المنافق فى الدرك الأسفل من النار ، وكثير من الكفار اليهود والنصارى يقرءونه فى زماننا هذا . وقال مالك : قد يقرأ القرآن من لا خير فيه . والنصب : التعب . واللغوب : الإعياء .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

(١) فى بعض النسخ : «يتلافاهم» .
(٢) آية ١٢٣ سورة النساء .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ لما ذكر أهل الجنة وأحوالهم ومقالتهم ، ذكر أهل النار وأحوالهم ومقالتهم . ﴿ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ مثل « لا يموت فيها ولا يحيا »[1] . ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ مثل « كُلَّمَا نَضِجَتْ جلودُهم بدّلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب »[2] . ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أي كافر بالله ورسوله . وقرأ الحسن « فيموتون » بالنون ، ولا يكون للنفي حينئذ جواب ، ويكون « فيموتون » عطفا على « يُقْضَى » تقديره لا يقضى عليهم ولا يموتون ؛ كقوله تعالى : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ »[3] . قال الكسائي : « ولا يؤذن لهم فيعتذرون » بالنون في المصحف لأنه رأس آية و « لا يُقْضَى عليهم فيموتوا » لأنه رأس آية . ويجوز في كل واحد منهما ما جاز في صاحبه . ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أي يستغيثون في النار بالصوت العالي ، والصراخ الصوت العالي ، والصارخ المستغيث ، والمُصْرِخ المغيث . قال :

كنا إذا ما أتانا صارخ فَزِعٌ * كان الصراخُ له قرعُ الظَّنابيب[4]

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا ﴾ أي يقولون ربنا أخرجنا من جهنم وردّنا إلى الدنيا . ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ قال ابن عباس : نقل : لا إله إلا الله . وهو معنى قولهم : ﴿ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أي من الشرك ؛ أي نؤمن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية ، ونمتثل أمر الرسل . ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ هذا جواب دعائهم ؛ أي فيقال لهم ، فالقول مضمر . وترجم البخاري : (بابٌ من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر لقوله عز وجل « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يتذكّر فيه من تذكّر وجاءكم النذيرُ » يعني الشيب) حدّثنا عبد السلام بن مُطَهَّر قال حدّثنا عمر بن علي قال حدّثنا مَعْن بن محمد الغفاري عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أعذر الله إلى امرئ أخّر أجله حتى بلّغه ستين سنة " . قال الخطّابي : « أعذر إليه » أي بلغ به أقصى العذر ؛ ومنه قولهم : قد

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٢٧ (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٥٣ (٣) آية ٣٦ سورة المرسلات .

(٤) البيت لسلامة بن جندل . والظنابيب (جمع الظنبوب) وهو مسمار يكون في جبة السنان .

أعذر من أنذر ؛ أى أقام عذر نفسه فى تقديم نذارته . والمعنى : أن من عمره الله ستين سنة لم يبق له عذر ؛ لأن الستين قريب من معترك المنايا ، وهو سن الإنابة والخشوع وترقب المنية ولقاء الله تعالى ؛ ففيه إعذار بعد إعذار، الأول بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، والموتان[(1)] فى الأربعين والستين . قال على وابن عباس وأبو هريرة فى تأويل قوله تعالى « أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ » : إنه ستون سنة . وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال فى موعظته : " ولقد أبلغ فى الإعذار من تقدّم فى الإنذار وإنه لينادى منادٍ من قبل الله تعالى أبناء الستين « أَوَ لم نعمركم ما يتذكّر فيه من تذكّر وجاءكم النذير » ". وذكر الترمذى الحكيم من حديث عطاء بن أبى رَباح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا كان يوم القيامة نودى أبناء الستين وهو العمر الذى قال الله « أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يتذكّر فيه من تذكّر » ". وعن ابن عباس أيضا أنه أربعون سنة . وعن الحسن البصرى ومسروق مثله . ولهذا القول أيضا وجه ، وهو صحيح ؛ والحجة له قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً[(2)] » الآية . ففى الأربعين تناهى العقل ، وما قبل ذلك وما بعده منتقص عنه ، والله أعلم . وقال مالك : أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم ويخالطون الناس ، حتى يأتى لأحدهم أربعون سنة ؛ فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيهم الموت . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « الأعراف[(3)] » . وخرج ابن ماجه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من تجاوز ذلك " .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ وقرئ « وجاءتكم النُّذُر » واختلف فيه ؛ فقيل القرآن . وقيل الرسول ؛ قاله زيد بن على وابن زيد . وقال ابن عباس وعكرمة وسفيان ووكيع والحسين ابن الفضل والفرّاء والطبرى : هو الشيب . وقيل : النذير الحُمَّى . وقيل : موت الأهل والأقارب . وقيل : كمال العقل . والنذير بمعنى الإنذار .

(1) الموتان (بضم الميم وفتحها وسكون الواو) : الموت . (2) آية ١٥ سورة الأحقاف .
(3) راجع جـ ٧ ص ٢٧٦

قلت : فالشيب والحمى وموت الأهل كله إنذار بالموت ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "الحمى رائد الموت" . قال الأزهرى : معناه أن الحمى رسول الموت ، أى كأنها تشعر بقدومه وتنذر بمجيئه . والشيب نذير أيضا ؛ لأنه يأتى فى سن الاكتهال ، وهو علامة لمفارقة سن الصبا الذى هو سن اللهو واللعب . قال :

رأيت الشيب من نذر المنايا * لصاحبه وحسبك من نذير

وقال آخر :

فقلت لها المشيب نذير عمرى * ولست مسودا وجه النذير

وأما موت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان فإنذار بالرحيل فى كل وقت وأوان وحين وزمان . قال :

وأراك تحملهم ولست تردهم * فكأننى بك قد حملت فلم ترد

وقال آخر :

الموت فى كل حين ينشر الكفنا * ونحن فى غفلة عما يراد بنا

وأما كمال العقل فبه تعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحسنات والسيئات ، فالعاقل يعمل لآخرته ويرغب فيما عند ربه ؛ فهو نذير . وأما محمد صلى الله عليه وسلم فبعثه الله بشيرا ونذيرا إلى عباده قطعا لحججهم ؛ قال الله تعالى : « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »(١) ، وقال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »(٢) .

قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا ﴾ يريد عذاب جهنم ؛ لأنكم ما اعتبرتم ولا اتعظتم . ﴿ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أى مانع من عذاب الله .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

(١) آية ١٦٥ سورة النساء . (٢) آية ١٥ سورة الإسراء .

تقدّم معناه فى غير موضع. والمعنى: علم أنه لو ردّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحا، كما قال: «ولو رُدُّوا لعادُوا لِمَا نُهُوا عنه»[1] . و ﴿ عالِمُ ﴾ إذا كان بغير تنوين صلح أن يكون للماضى والمستقبل، وإذا كان منونا لم يجز أن يكون للماضى

قوله تعالى: هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال قتادة: خلفًا بعد خلف وقرنا بعد قرن. والخلف هو التالى للمتقدّم، ولذلك قيل لأبى بكر: ياخليفة الله؛ فقال: لست بخليفة الله، ولكنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا راض بذلك. ﴿ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أى جزاء كفره وهو العقاب والعذاب. ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ أى بغضا وغضبا. ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أى هلاكا وضلالا.

قوله تعالى: قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ «شركاءكم» منصوب بالرؤية، ولا يجوز رفعه، وقد يجوز الرفع عند سيبويه فى قولهم: قد علمت زيدا أبو من هو؟ لأن زيدا فى المعنى مستفهم عنه. ولو قلت: أرأيت زيدا أبو مَن هو؟ لم يجز الرفع. والفرق بينهما أن معنى هذا أخبرنى عنه، وكذا معنى هذا أخبرونى عن شركائكم الذين تدعون من

(١) آية ٢٨ سورة الأنعام.

دون الله، أعبدتموهم لأن لهم شركة فى خلق السموات ، أم خلقوا من الأرض شيئا : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا ﴾ أى أم عندهم كتاب أنزلناه إليهم بالشركة . وكان فى هذا ردٌّ على من عبد غير الله عز وجل ؛ لأنهم لايجدون فى كتاب من الكتب أن الله عز وجل أمر أن يُعبد غيره. ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم « على بيّنة » بالتوحيد، وجمع الباقون . والمعنيان متقاربان إلا أن قراءة الجمع أولى ؛ لأنه لا يخلو من قرأه « على بيّنة » من أن يكون خالف السواد الأعظم، أو يكون جاء به على لغة من قال : جاءنى طلحت ، فوقف بالتاء ، وهذه لغة شاذة قليلة ؛ قاله النحاس . وقال أبو حاتم وأبو عبيد : الجمع أولى لموافقته الخط ؛ لأنها فى مصحف عثمان « بينات » بالألف والتاء . ﴿ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ أى أباطيل تغرّ، وهو قول السادة للسّفلة : إن هذه الآلهة تنفعكم وتقربكم . وقيل : إن الشيطان يَعد المشركين ذلك . وقيل : وعدهم بأنهم ينصرون عليهم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ لما بيّن أن آلهتهم لا تقدر على خلق شىء من السموات والأرض بيّن أن خالقهما وممسكهما هو الله، فلا يوجد حادث إلا بإيجاده، ولا يبقى إلا ببقائه . و « أنْ » فى موضع نصب بمعنى كراهة أن تزولا ، أو لئلا تزولا ، أو يحمل على المعنى ؛ لأن المعنى أن الله يمنع السموات والأرض أن تزولا ، فلا حاجة على هذا إلى إضمار ، وهذا قول الزجاج . ﴿ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ قال الفرّاء : أى ولو زالتا ما أمسكهما من أحد . و « إنْ » بمعنى ما . قال : وهو مثل قوله : « وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ »[1] . وقيل: المراد زوالها

(١) آية ٥١ سورة الروم .

يوم القيامة ؛ وعن إبراهيم قال : دخل رجل من أصحاب ابن مسعود إلى كعب الأحبار يتعلم منه العلم ، فلما رجع قال له ابن مسعود : ما الذى أصبت من كعب ؟ قال سمعت كعبا يقول : إن السماء تدور على قطب مثل قطب الرحى ، فى عمود على منكب ملك ؛ فقال له عبد الله : وددت أنك انقلبت براحلتك ورحلها ، كذب كعب ، ما ترك يهوديته ! إن الله تعالى يقول : « إن الله يمسك السموات والارض أن تزولا » إن السموات لا تدور ، ولو كانت تدور لكانت قد زالت . وعن ابن عباس نحوه ، وأنه قال لرجل مقبل من الشام : من لقيت به ؟ قال كعبا . قال : وما سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : إن السموات على منكب ملك . قال : كذب كعب ، أما ترك يهوديته بعد ! إن الله تعالى يقول : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » والسموات سبع والأرضون سبع ، ولكن لما ذكرهما أجراهما مجرى شيئين ، فعادت الكناية إليهما ؛ وهو كقوله تعالى : « أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما »(١) ثم ختم الآية بقوله : ﴿ إنه كان حليما غفورا ﴾ لأن المعنى فيما ذكره بعض أهل التأويل : إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا من كفر الكافرين ، وقولهم اتخذ الله ولدا . قال الكلبى : لما قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، كادت السموات والأرض أن تزولا عن أمكنتهما ، فمنعهما الله ، وأنزل هذه الآية فيه ؛ وهو كقوله تعالى : « لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه »(٢) الآية .

قوله تعالى : وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

(١) آية ٣٠ سورة الأنبياء . (٢) آية ٨٩ سورة مريم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم، حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم، فلعنوا من كذّب نبيّه منهم، وأقسموا بالله جل اسمه ﴿ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ أى نبي ﴿ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ يعنى ممن كذب الرسل من أهل الكتاب . وكانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بنى إسرائيل، فلما جاءهم ما تمنوه وهو النذير من أنفسهم، نفروا عنه ولم يؤمنوا به . ﴿ اسْتِكْبَارًا ﴾ أى عتوًّا عن الإيمان ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ أى مكر العمل السيئ وهو الكفر وخَدْع الضعفاء، وصدّهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم . وأنث « مِن إحدى الأمَم » لتأنيث أُمة ؛ قاله الأخفش . وقرأ حمزة والأعمش « ومكرِ السَّيِّئْ ولا يَحِيق المكرُ السَّيِّئُ » فحذف الإعراب من الأول وأثبته فى الثانى . قال الزجاج : وهو لحن، وإنما صار لحنا لأنه حذف الإعراب منه . وزعم المبرّد أنه لا يجوز فى كلام ولا فى شعر؛ لأن حركات الإعراب لا يجوز حذفها، لأنها دخلت للفرق بين المعانى . وقد أعظم بعض النحويين أن يكون الأعمش على جلالته ومحله يقرأ بهذا ، قال : إنما كان يقف عليه، فغلط من أدّى عنه، قال : والدليل على هذا أنه تمام الكلام، وأن الثانى لما لم يكن تمام الكلام أعرب باتفاق ، والحركة فى الثانى أثقل منها فى الأول لأنها ضمة بين كسرتين . وقد احتجّ بعض النحويين لحمزة فى هذا بقول سيبويه، وأنه أنشد هو وغيره :

* إذا آعوجَجْن قلتُ صاحِبْ قَوِّمِ (١) *

وقال الآخر :

فاليومَ أشرَبْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ * إثماً مِن الله ولا واغِلِ (٢)

---

(١) تمامه : * بالدوّ أمثال السفين العوّم *

الدوّ : الصحراء . وأمثال السفين : رواحل محملة تقطع الصحراء قطع السفين البحر .

(٢) البيت لامرئ القيس . والمستحقب : المكتسب للاثم الحامل له . والواغل الداخل على القوم يشربون ولم يدع . قال هذا حين قتل أبوه ونذر ألا يشرب الخمر حتى يثأر به ، فلما أخذ ثأره حلت له بزعمه فلا يأثم فى شربها اذ قد وفى بنذره فيها.

وهذا لا حجة فيه ؛ لأن سيبويه لم يجزه ، وإنما حكاه عن بعض النحويين ، والحديث إذا قيل فيه عن بعض العلماء لم يكن فيه حجة ، فكيف وإنما جاء به على وجه الشذوذ ولضرورة الشعر وقد خولف فيه . وزعم الزجاج أن أبا العباس أنشده :

* إذا اعوججن قلت صاح قوّم *

وأنه أنشد :

* فاليوم أشربْ غير مستحقبٍ *

بوصل الألف على الأمر ؛ ذكر جميعه النحاس . الزمخشري : وقرأ حمزة « ومكر السَّيِّئْ » بسكون الهمزة ، وذلك لاستثقاله الحركات ، ولعله اختلس فظن سكونا ، أو وقف وقفة خفيفة ثم ابتدأ «ولا يحيق» . وقرأ ابن مسعود «ومكْراً سيئاً» . وقال المهدوي : ومن سكن الهمزة من قوله : «ومكر السيئ» فهو على تقدير الوقف عليه ، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، أو على أنه أسكن الهمزة لتوالي الكسرات والياءات ، كما قال :

* فاليوم اشرب غير مستحقب *

قال القشيري : وقرأ حمزة «ومكر السيئ» بسكون الهمزة ، وخطأه أقوام . وقال قوم : لعله وقف عليه لأنه تمام الكلام ، فغلط الراوي وروى ذلك عنه في الادراج ، وقد سبق الكلام في أمثال هذا ، وقلنا : ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأه فلا بد من جوازه ، ولا يجوز أن يقال : إنه لحن ، ولعل مراد من صار إلى التخطئة أن غيره أفصح منه ، وإن كان هو فصيحا . ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ أي لا ينزل عاقبة الشرك إلا بمن أشرك . وقيل : هذا إشارة إلى قتلهم ببدر .

وقال الشاعر :

وقد دفعوا المنية فاستقلت * ذراعا بعد ما كانت تحيق

أي تنزل ؛ وهذا قول قُطْرُب . وقال الكلبي : « يحيق » بمعنى يُحيط . والحوق الإحاطة ؛ يقال : حاق به كذا أي أحاط به . وعن ابن عباس أن كعبًا قال له : إني أجد في التوراة «من حفر لأخيه حفرة وقع فيها» ؟ فقال ابن عباس فإني أوجدُك في القرآن ذلك . قال : وأين ؟ قال : فاقرأ «ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهلِهِ» . وفي أمثال العرب «من حفر لأخيه

جُبًّا وقع فيه مُنْكَبًّا » وروى الزهري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تمكر ولا تُعِن ماكرا فإن الله تعالى يقول : « ولا يَحِيق المكر السيئُ إلا بأهلِهِ » ولا تَبْغِ ولا تُعِن باغيًا فإن الله تعالى يقول : « فمن نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسِهِ » وقال تعالى : « إنما بَغْيُكُمْ على أنفسِكم ".
وقال بعض الحكماء :

يأيها الظالم في فعله * والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتّى متى * تحصى المصائب وتنسى النعم

وفي الحديث " المكر والخديعة في النار " . فقوله : " في النار " يعني في الآخرة تدخل أصحابها في النار ؛ لأنها من أخلاق الكفار لا من أخلاق المؤمنين الأخيار ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في سياق هذا الحديث : " وليس من أخلاق المؤمن المكر والخديعة والخيانة " . وفي هذا أبلغ تحذير عن التخلق بهذه الأخلاق الذميمة ، والخروج عن أخلاق الإيمان الكريمة .

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي إنما ينتظرون العذاب الذي نزل بالكفار الأولين . ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا ﴾ أي أجرى الله العذاب على الكفار ، ويجعل ذلك سنة فيهم ، فهو يعذب بمثله من استحقه ، لا يقدر أحد أن يبدّل ذلك ، ولا أن يحوّل العذاب عن نفسه إلى غيره . والسُّنّة الطريقة ، والجمع سُنَن . وقد مضى في « آل عمران »(1) وأضافها إلى الله عز وجل . وقال في موضع آخر : « سُنّةَ من قد أرسلنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا »(2) فأضاف إلى القوم لتعلّق الأمر بالجانبين ؛ وهو كالأجل ، تارة يضاف إلى الله ، وتارة إلى القوم ؛ قال الله تعالى : « فإن أجَلَ اللهِ لآتٍ »(3) وقال : « فإذا جاء أجلهم » .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

(1) ج ٤ ص ٢١٦ (2) آية ٧٧ سورة الإسراء (3) آية ٥ سورة العنكبوت .

بين السنة التي ذكرها ؛ أي أولم يروا ما أنزلنا بعاد وثمود ، وبمدين وأمثالهم لما كذبوا الرسل ، فتدبروا ذلك بنظرهم إلى مساكنهم ودورهم ، وبما سمعوا على التواتر بما حل بهم ، أفليس فيه عبرة وبيان لهم ؛ ليسوا خيرا من أولئك ولا أقوى ، بل كان أولئك أقوى ؛ دليله قوله : ﴿ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي إذا أراد إنزال عذاب بقوم لم يعجزه ذلك . ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ .

قوله تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا ﴾ يعني من الذنوب . ﴿ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ قال ابن مسعود : يريد جميع الحيوان مما دبّ ودرج . قال قتادة : وقد فعل ذلك زمن نوح عليه السلام . وقال الكلبي : « مِن دابة » يريد الجنّ والإنس دون غيرهما ؛ لأنهما مكلفان بالعقل . وقال ابن جرير والأخفش والحسين بن الفضل : أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم .

قلت : والأوّل أظهر ؛ لأنه عن صحابي كبير . قال ابن مسعود : كاد الجُعَل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم . وقال يحيى بن أبي كثير : أمر رجل بالمعروف ونهى عن المنكر ، فقال له رجل : عليك بنفسك ؛ فإن الظالم لا يضر إلا نفسه . فقال أبو هريرة : كذبت ، والله الذي لا إله إلا هو — ثم قال — والذي نفسي بيده إن الحبارى لتموت هزلا في وكرها بظلم الظالم . وقال الثُّمَالي ويحيى بن سلام في هذه الآية : يحبس الله المطر فيهلك كل شيء . وقد مضى في «البقرة» نحو هذا عن عكرمة ومجاهد في تفسير «وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ»(١) هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجدب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم . وذكرنا هنالك حديث البراء

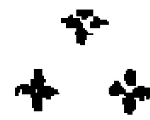
(١) راجع جـ ٢ ص ١٨٦ طبعة ثانية .

ابن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « ويلعنهم اللاعنون » قال : "دواب الأرض" . ﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قال مقاتل : الأجل المسمّى هو ما وعدهم فى اللوح المحفوظ . وقال يحيى : هو يوم القيامة . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ ﴾ أى بمن يستحق العقاب منهم ﴿ بَصِيرًا ﴾ . ولا يجوز أن يكون العامل فى « إذا » « بصيرا » كما لا يجوز اليوم إن زيدا خارج . ولكن العامل فيها « جاء » لشبهها بحروف المجازاة ، والأسماء التى يجازى بها يعمل فيها ما بعدها . وسيبويه لا يرى المجازاة بـ « إذا » إلا فى الشعر، كما قال :

إذا قَصُرت أسيافنا كان وصلها * خطانا إلى أعدائنا فنضارب (١)

ختمت سورة فاطر والحمد لله

(١) البيت لقيس بن الخطيم الانصارى راجع جـ ١ ص ٢٠١ طبعة ثانية أو ثالثة .



بسم الله الرحمن الرحيم

ســـورة يس

وهى مكية بإجماع . وهى ثلاث وثمانون آية ؛ إلا أن فرقة قالت : إن قوله تعالى « وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » نزلت فى بنى سَلِمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، على ما يأتى . وفى كتاب أبى داود عن مَعْقِل بن يَسَار قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "اقرءوا يس على موتاكم" . وذكر الآجرى من حديث أم الدرداء[1] عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ما من ميت يُقرأ عليه سورة يس إلا هوّن الله عليه" . وفى مسند الدارِمىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ سورة يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غُفِر له فى تلك الليلة" خرجه أبو نعيم الحافظ أيضا . وروى الترمذىّ عن أنس قال قال رسول الله صلى عليه وسلم : "إن لكل شىء قلبا وقلبُ القرآن يس ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءةَ القرآن عشر مرات" قال : هذا حديث غريب ، وفى إسناده هرون أبو محمد شيخ مجهول ؛ وفى الباب عن أبى بكر الصدّيق ، ولا يصح حديث أبى بكر من قبل إسناده ، وإسناده ضعيف . وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن فى القرآن لسورةً تَشفع لقارئها ويُغفَر لمستمعها . ألا وهى سورة يس تُدعى فى التوراة المُعِمَّة" قيل : يا رسول الله وما المُعِمَّة ؟ قال : "تَعُمّ صاحبها بخير الدنيا وتدفع عنه أهاويل الآخرة وتدعى الدافعة والقاضية" قيل : يا رسول الله وكيف ذلك ؟ قال : "تدفع عن صاحبها كل سوء وتَقضى له كل حاجة ومن قرأها عدلت له عشرين حجة ومن سمعها كانت له كألف دينار تصدّق بها فى سبيل الله ومن كتبها وشربها أدخلت جوفه ألف دواء وألف نور وألف يقين وألف رحمة وألف رأفة وألف هدًى ونُزِع

---

(1) كذا فى نسخ الأصل والذى فى الدر المنثور : أبى الدرداء .

عنه كلّ داء وغلّ". ذكره الثعلبي من حديث عائشة، والترمذيّ الحكيم فى «نوادر الأصول» من حديث أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه مسندا. وفى مسند الدارميّ عن شَهْر بن حَوْشَب قال قال ابن عباس : من قرأ «يس» حين يُصبح أُعطى يُسْر يومه حتى يُمسى ومن قرأها فى صدر ليلته أعطى يُسْر ليلته حتى يُصبح . وذكر النحاس عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال : لكل شيء قلب وقلب القرآن يس من قرأها نهارا كُفِى همه ومن قرأها ليلا غفر ذنبه . وقال شهر ابن حَوْشَب : يقرأ أهل الجنة « طه » و « يس » فقط. رفع هذه الأخبار الثلاثة الماورديّ فقال : روى الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لكل شيء قلبا وإن قلبَ القرآن يس ومن قرأها فى ليلة اعطى يُسْر تلك الليلة ومن قرأها فى يوم أعطى يسر ذلك اليوم وإن أهل الجنة يرفع عنهم القرآن فلا يقرءون شيئا إلا طه ويس". وقال يحيى بن أبى كثير: بلغنى أن من قرأ سورة «يس» ليلا لم يزل فى فرح حتى يُصبح، ومن قرأها حين يُصبح لم يزل فى فرح حتى يُمسى؛ وقد حدّثنى من جرّبها ؛ ذكره الثعلبي وابن عطية . قال ابن عطية : ويصدّق ذلك التجربة . وذكر الترمذيّ الحكيم فى «نوادر الأصول» عن عبد الأعلى قال حدّثنا محمد بن الصلت عن عمر بن ثابت عن محمد بن مروان عن أبى جعفر قال : من وجد فى قلبه قساوة فليكتب « يس » فى جام بزعفران ثم يشربه ؛ حدّثنى أبى رحمه الله، قال حدّثنا أَصْرَم بن حَوْشَب، عن بقيّة بن الوليد، عن المعتمر بن أشرف، عن محمد ابن على ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القرآن أفضل من كل شيء دون الله وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه فمن وقّر القرآن فقد وقر الله ومن لم يوقّر القرآن لم يوقر الله وحرمة القرآن عند الله كحرمة الوالد على ولده القرآن شافع مشفّع وماحِلٌ[1] مصدّق فمن شَفَع له القرآنُ شفّع ومن مَحَل به القرآن صُدّق. ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار وحملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله الملبَسون نور الله المعلَّمون كلام الله من والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد عادى الله يقول الله تعالى يا حملة القرآن

---

(١) قال ابن الأثير : ماحل أى خصم مجادل مصدّق .

آستجيبوا لربكم بتوقير كتابه يزدكم حبًّا ويحببكم إلى عباده يدفع عن مستمع القرآن بلوى الدنيا [ويدفع عن تالي القرآن][1] بلوى الآخرة ومن آستمع آية من كتاب الله كان له أفضل مما تحت العرش إلى التخوم وإن في كتاب الله لسورة تدعى العزيزة ويدعى صاحبها الشريف يوم القيامة تشفع لصاحبها في أكثر من ربيعة ومضر وهي سورة يس". وذكر الثعلبي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة يس ليلة الجمعة أصبح مغفورا له".

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف الله عنهم يومئذ وكان له بعدد من فيها حسنات".

قوله تعالى : يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يسٓ ﴾ في « يس » أوجه من القراءات ؛ قرأ أهل المدينة والكسائي ﴿ يسٓ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ بإدغام النون في الواو . وقرأ أبو عمرو والأعمش وحمزة « يسِينْ » بإظهار النون . وقرأ عيسى بن عمر « يسِينَ » بنصب النون . وقرأ آبن عباس وآبن أبي إسحق ونصر بن عاصم « يسِينِ » بالكسر . وقرأ هرون الأعور ومحمد بن السَّمَيْقَع « يسِينُ » بضم النون ؛ فهذه خمس قراءات . القراءة الأولى بالإدغام على ما يجب في العربية ؛ لأن النون تدغم في الواو . ومن بيّن قال سبيل حروف الهجاء أن يوقف عليها ، وإنما يكون الإدغام في الإدراج . وذكر سيبويه النصب وجعله من جهتين : إحداهما أن يكون مفعولا ولا يصرفه ؛ لأنه عنده آسم أعجمي بمنزلة هابيل والتقدير آذكر يسين . وجعله سيبويه آسما للسورة . وقوله الآخر أن يكون مبنيا على الفتح مثل كيفَ وأينَ . وأما الكسر فزعم الفراء أنه مشبّه بقول العرب جيرِ لا أفعل ؛ فعلى هذا يكون « يسِينِ » قسما . وقاله آبن عباس . وقيل : مشبّه بأمسِ وحذامِ وهؤلاءِ ورقاشِ . وأما الضم فمشبّه بمنذُ وحيثُ وقطُ ، وبالمنادى المفرد إذا قلت يا رجلُ ، لمن يقف عليه . قال آبن السَّميقع وهرون : وقد جاء في تفسيرها

(١) الزيادة من « نوادر الأصول » للترمذي الحكيم .

يا رجل فالأولى بها الضم . قال ابن الأنبارى : «يس» وقف حسن لمن قال هو افتتاح للسورة . ومن قال : معنى « يس » يا رجل لم يقف عليه . وروى عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما أن معناه يا إنسان، وقالوا فى قوله تعالى : « سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ » أى على آل محمد . وقال سعيد بن جبير : هو اسم من أسماء محمد صلى الله عليه وسلم؛ ودليله « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » . قال السيد الحميرى :

يا نفسى لا تمحضى بالنُّصْح جاهدةً * عَلَى المودَّةِ إلا آلَ ياسينَ

وقال أبو بكر الوراق : معناه يا سيد البشر . وقيل : إنه اسم من أسماء الله؛ قاله مالك . روى عنه أشهب قال : سألته هل ينبغى لأحد أن يتسمى بياسين؟ قال : ما أراه ينبغى لقول الله « يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » يقول هذا اسمى يس . قال ابن العربى هذا كلام بديع ، وذلك أن العبد يجوز له أن يتسمى باسم الرب إذا كان فيه معنى منه؛ كقوله عالم وقادر ومريد ومتكلم . وإنما منع مالك من التسمية بـ « يسين »؛ لأنه اسم من أسماء الله لا يُدرَى معناه؛ فربما كان معناه ينفرد به الربّ فلا يجوز أن يقدم عليه العبد . فإن قيل فقد قال الله تعالى « سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ » قلنا : ذلك مكتوب بهجاء فتجوز التسمية به، وهذا الذى ليس بمتهجّى هو الذى تكلم مالك عليه؛ لما فيه من الإشكال؛ والله أعلم . وقال بعض العلماء : افتتح الله هذه السورة بالياء والسين وفيهما مجمع الخير، ودل المفتتح على أنه قلب ، والقلب أمير على الجسد؛ وكذلك « يس » أمير على سائر السور، مشتمل على جميع القرآن . ثم اختلفوا فيه أيضا؛ فقال سعيد بن جبير وعكرمة : هو بلغة الحبشة . وقال الشعبى : هو بلغة طىء . الحسن : بلغة كلب . الكلبى : هو بالسريانية فتكلمت به العرب فصار من لغتهم . وقد مضى هذا المعنى فى « طه »(1) وفى مقدّمة الكتاب مستوفى . وقد سرد القاضى عياض أقوال المفسرين فى معنى « يس » فحكى أبو محمد مكىّ أنه روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لى عند ربى عشرة أسماء" ذكر أن منها طه ويس اسمان له .

(1) راجع جـ ١١ ص ١٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . و جـ ١ ص ٦٧ وما بعدها طبعة ثانية .

قلت : وذكر الماوردي عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى أسماني في القرآن سبعة أسماء محمد وأحمد وطه ويس والمزمل والمدثر وعبد الله " قاله القاضي . وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق أنه أراد يا سيد ، مخاطبة لنبيه صلى الله عليه وسلم . وعن ابن عباس : « يس » يا إنسان أراد محمدا صلى الله عليه وسلم . وقال : هو قسم وهو من أسماء الله سبحانه . وقال الزجاج : قيل معناه يا محمد وقيل يا رجل وقيل يا إنسان . وعن ابن الحنفية : «يس» يا محمد . وعن كعب : «يس» قسم أقسم الله به قبل أن يخلق السماء والأرض بألفي عام [قال][1] يا محمد « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » ثم قال «وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ» . فإن قدر أنه من أسمائه صلى الله عليه وسلم ، وصح فيه أنه قسم كان فيه من التعظيم ما تقدم ، ويؤكد فيه القسم عطف القسم الآخر عليه . وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قسم آخر بعده لتحقيق رسالته والشهادة بهدايته . أقسم الله تعالى باسمه وكتابه أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده ، وعلى صراط مستقيم من إيمانه ؛ أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق . قال النقاش : لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له ، وفيه من تعظيمه وتمجيده على تأويل من قال إنه ياسيد ما فيه ، وقد قال عليه السلام : " أنا سيد ولد آدم " انتهى كلامه . وحكى القشيري قال ابن عباس : قالت كفار قريش لست مرسلا وما أرسلك الله إلينا ، فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمدا من المرسلين . « والحكيم » المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض ؛ كما قال : « أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » . وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل . وقد يكون « الحكيم » في حق الله بمعنى المحكم بكسر الكاف كالأليم بمعنى المؤلم . (عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أي دين مستقيم وهو الإسلام . وقال الزجاج : على طريق الأنبياء الذين تقدموك ؛ [و] قال : « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » خبر إن و « عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » خبر ثان ؛ أي إنك لمن المرسلين ، وإنك على صراط مستقيم . وقيل : المعنى لمن المرسلين على استقامة ؛ فيكون قوله : « عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » من صلة المرسلين ؛ أي إنك لمن المرسلين

(١) زيادة يقتضيها المقام ، ويدل عليها ما ورد في « الدر المنثور » للسيوطي عن كعب .

الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة ؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللهِ » أى الصراط الذى أمر الله به .

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ قرأ ابن عامر وحفص والأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وخلف « تَنْزِيلَ » بنصب اللام على المصدر؛ أى نزّل الله ذلك تنزيلا . وأضاف المصدر فصار معرفة كقوله : « فَضَرْبَ الرِّقَابِ » أى فضربا للرقاب . الباقون « تَنْزِيلُ » بالرفع على خبر ابتداء محذوف أى هو تنزيل ، أو الذى أنزل إليك تنزيل العزيز الرحيم . هذا وقرئ « تنزِيلِ » بالجر على البدل من « القرآن » والتنزيل يرجع إلى القرآن . وقيل : إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم أى إنك لمن المرسلين ، وإنك « تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » . فالتنزيل على هذا بمعنى الإرسال؛ قال الله تعالى : « قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا يَتْلُو » ويقال : أرسل الله المطر وأنزله بمعنى . ومحمد صلى الله عليه وسلم رحمة الله أنزلها من السماء . ومن نصب قال : إنك لمن المرسلين إرسالا من العزيز الرحيم . و « العزيزِ » المنتقم ممن خالفه « الرحيم » بأهل طاعته .

قوله تعالى : لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ « ما » لا موضع لها من الإعراب عند أكثر أهل التفسير منهم قتادة؛ لأنها نفى والمعنى : لتنذر قوما ما أتى آباءهم قبلك نذير . وقيل: هى بمعنى الذى فالمعنى : لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة أيضا . وقيل : إن « ما » والفعل مصدر ؛ أى لتنذر قوما إنذار آبائهم . ثم يجوز أن تكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء ؛ فالمعنى لم ينذروا برسول من أنفسهم . ويجوز أن يكون بلغهم الخبر ولكن غفلوا وأعرضوا ونسوا . ويجوز أن يكون هذا خطابا لقوم لم يبلغهم خبر نبىّ ، وقد قال الله : « وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ »

وقال : « لِتُنْذِرَ قَوْمًا ما أُتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » أى لم يأتهم نبىّ . وعلى قول من قال بلغهم خبر الأنبياء ، فالمعنى فهم معرضون الآن متغافلون عن ذلك ، ويقال للمعرض عن الشيء إنه غافل عنه . وقيل : ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ عن عقاب الله .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ ﴾ أى وجب العذاب على أكثرهم ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بإنذارك . وهذا فيمن سبق فى علم الله أنه يموت على كفره . ثم بيّن سبب تركهم الإيمان فقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ . قيل : نزلت فى أبى جهل ابن هشام وصاحبيه المخزوميين ؛ وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمدا يصلّى ليرضخنّ رأسه بحجر ؛ فلما رآه ذهب فرفع حجرا ليرميه ، فلما أومأ إليه رجعت يده إلى عنقه ، والتصق الحجر بيده ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما ؛ فهو على هذا تمثيل أى هو بمنزلة من غُلّت يده إلى عنقه فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى ، فقال الرجل الثانى وهو الوليد بن المغيرة : أنا أرضخ رأسه . فأتاه وهو يصلى على حالته ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه ، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقال : والله ما رأيته ولقد سمعت صوته . فقال الثالث : والله لأشدخنّ أنا رأسه . ثم أخذ الحجر وانطلق فرجع القهقرى ينكص على عقبيه حتى خرّ على قفاه مغشيّا عليه . فقيل له : ما شأنك ؟ قال شأنى عظيم ! رأيت الرجل فلما دنوت منه ، وإذا فحل يخطر بذنبه ما رأيت فحلا قط أعظم منه حال بينى وبينه ، فواللاتِ والعُزَّى لو دنوت منه لأكلنى . فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ . وقرأ ابن عباس « إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْمَانِهِمْ » . وقال الزجاج : وقرئ « إنا جعلنا فى أيديهم » . قال النحاس : وهذه القراءة تفسير ولا يقرأ بما خالف المصحف . وفى الكلام حذف على قراءة الجماعة ؛ التقدير : إنا جعلنا فى أعناقهم وفى أيديهم أغلالا فهى إلى الأذقان ، فهى كناية عن الأيدى لا عن الأعناق ؛ والعرب تحذف مثل هذا . ونظيره « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » وتقديره وسرابيل تقيكم البرد فحذف ؛ لأن ما وقى من الحر وقى من البرد ؛ لأن الغُلّ إذا كان فى العنق فلا بد أن يكون فى اليد ، ولا سيما

وقد قال الله عز وجل : «فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ» فقد علم أنه يراد به الأيدى . «فَهُمْ مُقْمَحُونَ» أى رافعو رءوسهم لا يستطيعون الإطراق؛ لأن من غُلّت يده إلى ذَقَنه آرتفع رأسه . روى عبد الله بن يحيى أن على بن أبى طالب عليه السلام أراهم الإقماح ، بجعل يديه تحت لحيته وألصقهما ورفع رأسه . قال النحاس : وهذا أجل ما روى فيه وهو مأخوذ مما حكاه الأصمعى . قال : يقال أقمحت الدابةُ إذا جذبت لجامها لترفع رأسها . قال النحاس : والقاف مبدلة من الكاف لقربها منها . كما يقال : قَهَرته وكَهَرته . قال الأصمعى : يقال أكمحتُ الدابةَ إذا جذبت عنانها حتى ينتصب رأسها . ومنه قول الشاعر :

* ... والرأسُ مُكْمَحُ (١) *

ويقال : أكمحتها وأكفحتها وكبحتها؛ هذه وحدها بلا ألف عن الأصمعى . وقَمَح البعيرُ قُمُوحاً إذا رفع رأسه عند الحوض وآمتنع من الشرب ، فهو بعير قامِحٌ وقَمِحٌ ؛ يقال : شَرِب فتقمّح وآنقمح بمعنى إذا رفع رأسه وترك الشرب رِيًّا . وقد قامحت إبلُك إذا وردت ولم تشرب ، ورفعت رأسها من داء يكون بها أو بَرْد . وهى إبل مُقامحة وبعير مقامح وناقة مقامح أيضا ، والجمع قِماح على غير قياس ؛ قال بشر يصف سفينة :

ونحن على جَوانبها قُعـودٌ * نَغُضّ الطرفَ كالإبل القِماحِ

والإقماح رفع الرأس وغضّ البصر؛ يقال: أقمحه الغُلّ إذا ترك رأسه مرفوعا من ضيقه . وشهرا قِماح أشدّ ما يكون من البرد ، وهما الكانونان سميا بذلك ؛ لأن الإبل إذا وردت آذاها برد الماء فقامحت رءوسها ؛ ومنه قَمِحتُ السويقَ (٢) . وقيل : هو مثل ضربه الله تعالى لهم فى آمتناعهم من الهدى كامتناع المغلول ؛ قاله يحيى بن سلّام وأبو عبيدة . وكما يقال فلان حمار ؛ أى لا يبصر الهدى . وكما قال :

* لهم عن الرشدِ أغلالٌ وأقيادُ *

---

(١) البيت لذى الرمة وتمامه :

تمور بضبعيها وترمى بجوزها * حذارا من الإيعاد والرأس مكمح

(٢) قمح السويق (بكسر الميم) إذا آستفه .

وفى الخبر : إن أبا ذؤيب كان يهوى امرأة فى الجاهلية، فلما أسلم راودته فأبى وأنشأ يقول :

فليس كعهد الدار يا أم مالك * ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل (١) * سوى العدل شيئا فاستراح العواذل

أراد منعنا بموانع الإسلام عن تعاطى الزنى والفسق؛ وقال الفراء أيضا : هذا ضرب مثل؛ أى حبسناهم عن الإنفاق فى سبيل الله؛ وهو كقوله تعالى : «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ» وقاله الضحاك . وقيل : إن هؤلاء صاروا فى الاستكبار عن الحق كمن جعل فى يده غل فجمعت إلى عنقه، فبقى رافعا رأسه لا يخفضه، وغاضا بصره لا يفتحه . والمتكبر يوصف بانتصاب العنق . وقال الأزهرى : إن أيديهم لما غلت عند أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورءوسهم صعدا كالإبل ترفع رءوسها . وهذا المنع بخلق الكفر فى قلوب الكفار، وعند قوم بسلبهم التوفيق عقوبة لهم على كفرهم . وقيل : الآية إشارة إلى ما يفعل بأقوام غدا فى النار من وضع الأغلال فى أعناقهم والسلاسل؛ كما قال تعالى : «إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ» وأخبر عنه بلفظ الماضى . «فَهُم مُّقْمَحُونَ» تقدم تفسيره . وقال مجاهد : «مُقْمَحُونَ» مغلون عن كل خير .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ قال مقاتل : لما عاد أبو جهل إلى أصحابه، ولم يصل إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وسقط الحجر من يده، أخذ

---

(١) يقول : رجع الفتى عما كان عليه من فتوته، وصار كأنه كهل؛ فاستراح العواذل لأنهن لا يجدن ما يعذلن فيه . سوى العدل : أى سوى الحق .

الحجر رجل آخر من بني مخزوم وقال: أنا أقتله بهذا الحجر . فلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم طمس الله على بصره، فلم ير النبي صلى الله عليه وسلم، فرجع إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه، فهذا معنى الآية . وقال محمد بن إسحق في روايته : جلس عُتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل وأمّية بن خلف، يراصدون النبي صلى الله عليه وسلم ليبلغوا من أذاه، فخرج عليهم عليه السلام وهو يقرأ « يس » وفي يده تراب فرماهم به وقرأ « وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا » فأطرقوا حتى مرّ عليهم عليه السلام . وقد مضى هذا في سورة « سبحان »(١) ومضى في « الكهف » الكلام في « سدّا » بضم السين وفتحها وهما لغتان .(٢) ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي غطينا أبصارهم : وقدمضى في أول « البقرة »(٣) . وقرأ ابن عباس وعكرمة ويحيي بن يعمر «فأعشيناهم» بالعين غير معجمة من العَشاء في العين وهو ضعف بصرها حتى لا تبصر بالليل قال :

* مَتَى تأتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارِهِ *(٤)

وقال تعالى: «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ» الآية. والمعنى متقارب والمعنى أعميناهم؛ كما قال:

ومن الحوادثِ لا أبَالَكَ أنّني * ضُرِبتْ عليّ الأرضُ بالأسْدادِ

لا أهتدي فيها لموضعِ تَلْعَةٍ * بينَ العُذَيْبِ وبينَ أرضِ مُرادِ

﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أي الهدى؛ قاله قتادة . وقيل : محمدا حين ائتمروا على قتله؛ قاله السدي . وقال الضحاك : « وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا » أي الدنيا « وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا » أي الآخرة؛ أي عَمُوا عن البعث وعَمُوا عن قبول الشرائع في الدنيا؛ قال الله تعالى: « وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أي زيّنوا لهم الدنيا ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة . وقيل : على هذا « مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا » أي غرورا بالدنيا « وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا » أي تكذيبا بالآخرة. وقيل : «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» الآخرة «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» الدنيا . ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ تقدم في « البقرة »(٥) والآية رد على القدرية وغيرهم .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١١ ص ٥٩ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٩١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) هو الحطيئة، وتمام البيت :
* تجد خير نار عندها خير موقد *
(٥) راجع جـ ١ ص ١٨٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

وعن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أحضر غيلان القَدَري فقال : يا غيلان بلغني أنك تتكلم بالقَدَر ؛ فقال : يكذبون عليّ يا أمير المؤمنين . ثم قال : يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله تعالى «إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا» فقال : اقرأ يا غيلان فقرأ حتى انتهى إلى قوله : «فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا» فقال اقرأ فقال : «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» فقال : والله يا أمير المؤمنين إن شعرت أن هذا في كتاب الله قط . فقال له : يا غيلان اقرأ أول سورة «يس» فقرأ حتى بلغ «وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» فقال غيلان : والله يا أمير المؤمنين كأني لم أرها قط قبل اليوم ؛ اشهد يا أمير المؤمنين أني تائب . فقال عمر : اللهم إن كان صادقا فتب عليه وثبته ، وإن كان كاذبا فسلط عليه من لا يرحمه واجعله آية للمؤمنين ؛ فأخذه هشام فقطع يديه ورجليه وصلبه . وقال ابن عون : فأنا رأيته مصلوبا على باب دمشق . فقلنا : ما شأنك يا غيلان ؟ فقال : أصابتني دعوة الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ يعني القرآن وعمل به . ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أي ما غاب من عذابه وناره؛ قاله قتادة . وقيل : أي يخشاه في مغيبه عن أبصار الناس وانفراده بنفسه . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أي لذنبه ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أي الجنة .

قوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى ﴾ أخبرنا تعالى بإحيائه الموتى رداً على الكفرة . وقال الضحاك والحسن : أي نحييهم بالإيمان بعد الجهل . والأول أظهر أي نحييهم بالبعث للجزاء . ثم توعدهم بذكره كَتْب الآثار وهي :

الثانيــة — وإحصاء كل شيء وكل ما يصنعه الإنسان . قال قتادة : معناه من عمل . وقاله مجاهد وابن زيد . ونظيره قوله : «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ» وقوله : «يُنَبَّأُ

الإنسانُ يومئذٍ بما قدَّم وأخَّر» وقال : «اتقوا اللهَ ولتنظُرْ نفسٌ ما قدَّمتْ لِغَدٍ » فآثار المرء التى تبقى وتذكر بعد الإنسان من خير أو شر يجازى عليها : من أثر حسن ؛ كعلم علّموه ، أو كتاب صنّفوه ، أو حبيس احتبسوه ، أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك ؛ أو سيّئ كوظيفة وظفها بعض الظلّام على المسلمين ؛ وسكة أحدثها فيها تخسيرهم ، أو شيء أحدثه فيه صدّ عن ذكر الله من ألحان وملاه ، وكذلك كل سنة حسنة ، أو سيئة يستنّ بها . وقيل : هى آثار المشّائين إلى المساجد . وعلى هذا المعنى تأوّل الآية عمر وابن عباس وسعيد بن جبير . وعن ابن عباس أيضا أن معنى «وآثارَهُمْ» خُطاهم إلى المساجد . قال النحاس : وهذا أولى ما قيل فيه ؛ لأنه قال : إن الآية نزلت فى ذلك ؛ لأن الأنصار كانت منازلهم بعيدة عن المسجد . وفى الحديث مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال : "يُكتَبُ له برِجلٍ حسنة وتُحطُّ عنه برِجل سيئة ذاهبا وراجعا إذا خرج إلى المسجد".

قلت : وفى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال : كانت بنو سلِمة [(١)] فى ناحية المدينة فأرادوا النُّقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية «إنّا نحنُ نُحيِي المَوْتَى ونكتُبُ ما قدَّموا وآثارَهُم» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن آثاركم تُكتَب" فلم ينتقلوا . قال : هذا حديث [حسن] [(٢)] غريب من حديث الثورى . وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : أراد بنو سَلِمة أن يتحوّلوا إلى قرب المسجد ؛ قال : والبقاع خالية ؛ قال : فبلغ ذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : "يا بنى سَلِمة دياركم تُكتَبْ آثارُكم دياركم تُكتَبْ آثارُكم" فقالوا : ما كان يسرنا أنا كنا تحوّلنا . وقال ثابت البُنَانى : مشيت مع أنس بن مالك إلى الصلاة فأسرعت ؛ فحبسنى فلما انقضت الصلاة قال : مشيت مع النبىّ صلى الله عليه وسلم وأسرعت ، فحبسنى فلما انقضت الصلاة قال "أما علمت أن الآثار تُكتَب" فهذا احتجاج بالآية . وقال قتادة ومجاهد أيضا والحسن : الآثار فى هذه الآية الخُطا . وحكى الثعلبى عن أنس أنه قال : الآثار هى الخُطا إلى الجمعة . وواحد الآثار أَثَر ويقال أَثْر .

---

(١) سلمة بكسر اللام بطن من الأنصار . (٢) الزيادة من صحيح الترمذى .

الثالثة — فى هذه الأحاديث المفسّرة لمعنى الآية دليل على أن البعد من المسجد أفضل ، فلو كان بجوار مسجد ، فهل له أن يجاوزه الى الأبعد ؟ آختلف فيه ؛ فروى عن أنس أنه كان يجاوز المحدَث إلى القديم . وروى عن غيره : الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجرا . وكره الحسن وغيره هذا ؛ وقال : لا يدع مسجدا قربه ويأتى غيره . وهذا مذهب مالك . وفى تخطى مسجده إلى مسجده الأعظم قولان . وخرج آبن ماجه من حديث أنس آبن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة الرجل فى بيته بصلاة وصلاته فى مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاةً وصلاته فى المسجد الذى يُجَمَّع[1] فيه بخمسمائة صلاة " .

الرابعة — " دياركم " منصوب على الإغراء أى آلزموا و"تكتب" جزم على جواب ذلك الأمر . « وكُلَّ » نصب بفعل مضمر يدل عليه « أَحْصَيْنَاهُ » كأنه قال وأحصينا كل شىء أحصيناه . ويجوز رفعه بالآبتداء إلا أن نصبه أولى ، ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل . وهو قول الخليل وسيبويه . والإمام الكتاب المقتدَى به الذى هو حجة . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : أراد اللوح المحفوظ . وقالت فرقة : أراد صحائف الأعمال .

قوله تعالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

(١) يجمع (بالتشديد) من التجميع ، أى يصلى فيه الجمعة .

قوله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أمر أن يضرب لقومه مثلا بأصحاب القرية (١)] هذه القرية هى أنطاكية فى قول جميع المفسرين فيما ذكر الماوردى . نسبت إلى أهل أنطبيس وهو اسم الذى بناها ثم غُيِّر لما عُرِّب . ذكره السهيلى . ويقال فيها : أنتاكية بالتاء بدل الطاء وكان بها فرعون يقال له أنطيخس بن أنطيخس يعبد الأصنام . ذكره المهدوى وحكاه أبو جعفر النحاس عن كعب ووهب . فأرسل الله إليه ثلاثة : وهم صادق ، وصدوق ، وشلوم هو الثالث . هذا قول الطبرى . وقال غيره : شمعون ويوحنا . وحكى النقاش : سمعان ويحيى ولم يذكرا صادقا ولا صدوقا . ويجوز أن يكون « مَثَلًا » و « أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ » مفعولين لاضرب ، أو « أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ » بدلا من « مَثَلًا » أى اضرب لهم مثل أصحاب القرية فحذف المضاف . أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإنذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حل بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل . قيل : رسل من الله على الابتداء . وقيل : إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ ﴾ وأضاف الربّ ذلك إلى نفسه ؛ لأن عيسى أرسلهما بأمر الربّ ، وكان ذلك حين رفع عيسى إلى السماء . ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ قيل ضربوهما وسجنوهما . ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أى فقوينا وشددنا الرسالة « بِثَالِثٍ » . وقرأ أبو بكر عن عاصم « فَعَزَزْنَا بِثَالِثٍ » بالتخفيف وشدد الباقون . قال الجوهرى : وقوله تعالى : « فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ » يخفف ويشدد ، أى قوينا وشددنا . قال الأصمعى : أنشدنى فيه أبو عمرو بن العلاء للتلمس :

أُجُدٌ إذا رَحَلَتْ (٢) تَعَزَّزَ لَحْمُها * وإذا تُشَدّ بِنِسْعِها لا تَنْبِسُ

أى لا ترغو ؛ فعلى هذا تكون القراءتان بمعنى . وقيل : التخفيف بمعنى غلبنا وقهرنا ومنه « وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ » . والتشديد بمعنى قوينا وكثرنا . وفى القصة أن عيسى أرسل

---

(١) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبى .

(٢) وفى اللسان : أجد إذا ضمرت . ويروى فى غيره : عنس إذا ضمرت .

إليهم رسولين، فلقيا شيخا يرعى غنيات له وهو حبيب النجار صاحب «يس» فدعوه إلى الله وقالا: نحن رسولا عيسى ندعوكم إلى عبادة الله. فطالبهما بالمعجزة فقالا : نحن نشفى المرضى، وكان له ابن مجنون . وقيل : مريض على الفراش فمسحاه ، فقام بإذن الله صحيحا، فآمن الرجل بالله . وقيل : هو الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، ففشا أمرهما ، وشفيا كثيرا من المرضى ، فأرسل الملك إليهما — وكان يعبد الأصنام — يستخبرهما فقالا : نحن رسولا عيسى . فقال : وما آيتكما ؟ قالا : نبرئ الأكمه والأبرص ونبرئ المريض بإذن الله ، وندعوك إلى عبادة الله وحده ، فهمّ الملكُ بضربهما . وقال وهب : حبسهما الملك وجلدهما مائة جلدة ، فانتهى الخبر إلى عيسى فأرسل ثالثا . قيل : شمعون الصفا رأس الحواريين لنصرهما ، فعاشر حاشية الملك حتى تمكن منهم ، واستأنسوا به ، ورفعوا حديثه إلى الملك فأنس به ، وأظهر موافقته فى دينه ، فرضى الملك طريقته ؛ ثم قال يوما للملك : بلغنى أنك حبست رجلين دعواك إلى الله ، فلو سألت عنهما ما وراءهما . فقال : إن الغضب حال بينى وبين سؤالهما . قال : فلو أحضرتهما . فأمر بذلك ، فقال لهما شمعون : ما برهانكما على ما تدعيان ؟ فقالا : نبرئ الأكمه والأبرص . فجيء بغلام ممسوح العينين ، موضع عينيه كالجبهة ، فدعوا ربهما فانشق موضع البصر ، فأخذا بندقتين طينا فوضعاها فى خديه ، فصارتا مقلتين يبصر بهما ؛ فعجب الملك وقال : إن هاهنا غلاما مات منذ سبعة أيام ولم أدفنه حتى يجيء أبوه فهل يحييه ربكما ؟ فدعوا الله علانية ، ودعاه شمعون سرا ، فقام الميت حيا، فقال للناس : إنى متّ منذ سبعة أيام، فوُجدت مشركا، فأدخلتُ فى سبعة أودية من النار، فأحذركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله ، ثم فتحت أبواب السماء ، فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة شمعون وصاحبيه ، حتى أحيانى الله، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن عيسى روح الله وكلمته، وأن هؤلاء هم رسل الله. فقالوا له : وهذا شمعون أيضا معهم ؟ فقال : نعم وهو أفضلهم . فأعلمهم شمعون أنه رسول المسيح إليهم ، فأثر قوله فى الملك ، فدعاه إلى الله ، فآمن الملك فى قوم كثير وكفر آخرون . وحكى القشيرى أن الملك آمن ولم يؤمن قومه ، وصاح جبريل صيحة مات كل من بقى منهم من الكفار .

وروى أن عيسى لما أمرهم أن يذهبوا إلى تلك القرية قالوا : يا نبيّ الله إنا لا نعرف نتكلم بألسنتهم ولغاتهم . فدعا الله لهم فناموا بمكانهم، فهبوا من نومتهم وقد حملتهم الملائكة فألقتهم بأرض أنطاكية، فكلم كل واحد صاحبه بلغة القوم؛ فذلك قوله : « وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » فقالوا جميعا ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ. قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ تأكلون الطعام وتمشون فى الأسواق ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يأمر به ولا [من شيء](١) ينهى عنه ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ فى دعواكم الرسالة ؛ فقالت الرسل : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ وإن كذبتمونا ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ فى أن الله واحد ﴿ قَالُوا ﴾ لهم ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أى تشاءمنا بكم . قال مقاتل : حبس عنهم المطر ثلاث سنين فقالوا هذا بشؤمكم . ويقال إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين . ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا ﴾ عن إنذارنا ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ قال الفراء : لنقتلنكم . قال : وعامة ما فى القرآن من الرجم معناه القتل. وقال قتادة : هو على بابه من الرجم بالحجارة. وقيل: لنشتمنكم؛ وقد تقدم جميعه(٢). ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قيل: هو القتل. وقيل : هو التعذيب المؤلم . وقيل : هو التعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب . فقالت الرسل : ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ أى شؤمكم معكم أى حظكم من الخير والشر معكم ولازم فى أعناقكم وليس هو من شؤمنا. قال معناه الضحاك. وقال قتادة: أعمالكم معكم. ابن عباس: معناه الأرزاق والأقدار تتبعكم. الفراء : « طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ » رزقكم وعملكم؛ والمعنى واحد . وقرأ الحسن . « اطَّيُّرُكُمْ »(٣) أى تطيركم . ﴿ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ﴾ قال قتادة : إن ذكرتم تطيرتم. وفيه تسعة أوجه من القراءات : قرأ أهل المدينة « أَيِنْ ذُكِّرْتُمْ » بتخفيف الهمزة الثانية . وقرأ أهل الكوفة «أَإِنْ» بتحقيق الهمزتين . والوجه الثالث « آإِنْ ذُكِّرْتُمْ » بهمزتين بينهما ألف أدخلت الألف كراهة للجمع بين الهمزتين. والوجه الرابع «آين» بهمزة بعدها ألف وبعد الألف همزة مخففة . والقراءة الخامسة « أَأَنْ » بهمزتين مفتوحتين بينهما ألف . والوجه السادس « أَأَنْ » بهمزتين محققتين مفتوحتين . وحكى الفراء : أن هذه القراءة قراءة أبى رزين .

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) راجع ج٩ ص ٩١ طبعة أولى أو ثانية . (٣) قال أبو حيان فى هذه القراءة : «اطيركم» مصدر اطير الذى أصله تطير فادغمت التاء فى الطاء، فاجتلبت همزة الوصل فى الماضى والمصدر.

قلت : وحكاه الثعلبي عن زر بن حبيش وابن السميقع . وقرأ عيسى بن عمر والحسن البصري « قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ » بمعنى حيث . وقرأ يزيد بن القعقاع والحسن وطلحة « ذُكِرْتُمْ » بالتخفيف . ذكر جميعه النحاس . وذكر المهدوي عن طلحة بن مصرف وعيسى الهمذاني « آنْ ذُكِّرْتُمْ » بالمد على أن همزة الاستفهام دخلت على همزة مفتوحة . الماجشون : « أَنْ ذُكِّرْتُمْ » بهمزة واحدة مفتوحة . فهذه تسع قراءات . وقرأ ابن هرمز « طَيْرُكُمْ مَعَكُمْ » . « أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ » أي لإن وعظتم ، وهو كلام مستأنف أي إن وعظتم تطيرتم . وقيل : إنما تطيروا لما بلغهم أن كل نبي دعا قومه فلم يجيبوه كان عاقبتهم الهلاك . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ قال قتادة : مسرفون في تطيركم . يحيى بن سلام : مسرفون في كفركم . وقال ابن بحر : السرف هاهنا الفساد ومعناه بل أنتم قوم مفسدون . وقيل : مسرفون مشركون ، والإسراف مجاوزة الحد والمشرك يجاوز الحد .

قوله تعالى : وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ هو حبيب بن مري وكان نجارا . وقيل : إسكافا . وقيل : قصارا . وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل : هو حبيب

ابن إسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام، وهو ممن آمن بالنبيّ صلى الله عليه وسلم و بينهما ستمائة سنة، كما آمن به تُبّع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما . ولم يؤمن بنبي أحدٌ إلا بعد ظهوره . قال وهب : وكان حبيب مجذوما ، ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم ، لعلهم يرحمونه ويكشفون ضُرّه فما استجابوا له ، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ندعو ربنا القادر فيفرج عنك ما بك . فقال : إن هذا لعجب لى، أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عنى فلم تستطع، [فكيف][1] يفرجه ربكم فى غداة واحدة ؟ قالوا : نعم ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئا ولا تضر . فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به ، كأن لم يكن به بأس، فحينئذ أقبل على التكسب، فإذا أمسى تصدّق بكسبه ، فأطعم عياله نصفا وتصدّق بنصف ، فلما هم قومه بقتل الرسل جاءهم فـ ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ الآية . وقال قتادة : كان يعبد الله فى غار، فلما سمع بخبر المرسلين جاء يسعى، فقال للرسلين : أتطلبون على ما جئتم به أجرا ؟ قالوا: لا، ما أجرنا إلا على الله. قال أبو العالية: فاعتقد صدقهم وآمن بهم وأقبل على قومه فـ « قَالَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ » . ﴿ ٱتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أى لو كانوا متّهمين لطلبوا منكم المال ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ فاهتدوا بهم . ﴿ وَمَا لِىَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى ﴾ قال قتادة : قال له قومه أنت على دينهم؟ ! فقال : « وَمَالِىَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى» أى خلقنى . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وهذا احتجاج منه عليهم . وأضاف الفطرة إلى نفسه؛ لأن ذلك نعمة عليه توجب الشكر، والبعث إليهم : لأن ذلك وعيد يقتضى الزجر؛ فكان إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكرا، وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثرا.﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ يعنى أصناما . ﴿ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ ﴾ يعنى ما أصابه من السقم . ﴿ لَا تُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾ يخلصونى مما أنا فيه من البلاء.﴿ إِنِّى إِذًا ﴾ يعنى إن فعلت ذلك ﴿ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى خسران ظاهر. ﴿ إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ قال ابن مسعود : خاطب الرسل بأنه

---

(١) الزيادة من تفسير الألوسى .

مؤمن بالله وبهم ؛ ومعنى « فَٱسْمَعُونِ » أى فاشهدوا أى كونوا شهودى بالإيمان . وقال كعب ووهب : إنما قال ذلك لقومه إنى آمنت بربكم الذى كفرتم به . وقيل : إنه لما قال لقومه « ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . ٱتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا » رفعوه إلى الملك وقالوا : قد تبعت عدوّنا ، فطول معهم الكلام ليشغلهم بذلك عن قتل الرسل ، إلى أن قال : « إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ » فوثبوا عليه فقتلوه . قال ابن مسعود : وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبه[(1)] من دبره ، وألقى فى بئر وهى الرَّسّ وهم أصحاب الرَّسّ . وفى رواية أنهم قتلوا الرسل الثلاثة . وقال السدى رموه بالحجارة وهو يقول اللهم آهد قومى حتى قتلوه . وقال الكلبى : حفروا حفرة وجعلوه فيها ، وردموا فوقه التراب فمات ردما . وقال الحسن : حرقوه حرقا ، وعلّقوه من سور المدينة وقبره فى سور أنطاكية ؛ حكاه الثعلبى . وقال القشيرى : وقال الحسن لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إلى السماء ، فهو فى الجنة لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة ، فإذا أعاد الله الجنة أدخلها . وقيل : نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه ، فوالله ما خرجت روحه إلا فى الجنة فدخلها ؛ فذلك قوله : « قِيلَ ٱدْخُلِ الْجَنَّةَ » فلما شاهدها « قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى » أى بغفران ربى لى ؛ فما مع الفعل بمنزلة المصدر . وقيل : بمعنى الذى والعائد من الصلة محذوف . ويجوز أن تكون آستفهاما فيه معنى التعجب ، كأنه قال : ليت قومى يعلمون بأى شىء غفر لى ربى ؛ قاله الفرّاء . واعترضه الكسائى فقال : لو صح هذا لقال بم من غير ألف . وقال الفراء : يجوز أن يقال بما بالألف وهو آستفهام وأنشد فيه أبياتا . الزمخشرى : « بِمَ غَفَرَ لِى » بطرح الألف أجود ، وإن كان إثباتها جائزا ؛ يقال : قد علمت بما صنعت هذا وبم صنعت . المهدوى : وإثبات الألف فى الآستفهام قليل . فيوقف على هذا على « يَعْلَمُونَ » . وقال جماعة : معنى قيل « ٱدْخُلِ الْجَنَّةَ » وجبت لك الجنة ؛ فهو خبر بأنه قد آستحق دخول الجنة : لأن دخولها يستحق بعد البعث .

---

(1) القصب المعى .

قلت : والظاهر من الآية أنه لما قتل قيل له آدخل الجنة . قال قتادة : أدخله الله الجنة وهو فيها حىّ يرزق ؛ أراد قوله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » على ما تقدم فى « آل عمران »(١) بيانه . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم الذى هو ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ وقرئ « مِنَ الْمُكَرَّمِينَ » وفى معنى تمنيه قولان : أحدهما أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته . الثانى تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله . قال ابن عباس : نصح قومه حيا وميتا . رفعه القشيرى فقال : وفى الخبر أنه عليه السلام قال فى هذه الآية " إنه نصح لهم فى حياته و بعد موته " وقال آبن أبى ليلى : سُبَّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين؛ على بن أبى طالب وهو أفضلهم ، ومؤمن آل فرعون ، وصاحب يس ، فهم الصدّيقون . ذكره الزمخشرى مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى هذه الآية تنبيه عظيم ، ودلالة على وجوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهل الجهل ، والترؤف على من أدخل نفسه فى غمار الأشرار وأهل البغى ، والتشمر فى تخليصه ، والتلطف فى آفتدائه ، والآشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه . ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته ، والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام ، فلما قتل حبيب غضب الله له وعجل النقمة على قومه ، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم ؛ فذلك قوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أى ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبىّ بعد قتله ؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن . قال الحسن : الجند الملائكة النازلون بالوحى على الأنبياء . وقيل : الجند العساكر ؛ أى لم أحتج فى هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش ولا عساكر بل أهلكتهم بصيحة واحدة . قال معناه ابن مسعود وغيره . فقوله : « وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ » تصغير لأمرهم ؛ أى أهلكناهم بصيحة واحدة من بعد ذلك الرجل ، أو من بعد رفعه إلى السماء . وقيل : « وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ » على من كان قبلهم .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الزمخشري : فإن قلت فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق ؟ فقال : « وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا » وقال : « بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » .

قلت : إنما كان يكفي مَلَك واحد ، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل ، و بلاد ثمود وقوم صالح بصيحة ، ولكن الله فضل محمدا صلى الله عليه وسلم بكل شيء على سائر الأنبياء وأولى العزم من الرسل فضلا عن حبيب النجار ، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز مالم يوله أحدا؛ فمن ذلك أنه أنزل له جنودا من السماء، وكأنه أشار بقوله : « وَمَا أَنْزَلْنَا » . « وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ » إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك ، وما كنا نفعل لغيرك . ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قراءة العامة « واحدةً » بالنصب على تقدير ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة .

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج « صَيْحَةٌ » بالرفع هنا وفي قوله « إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ » جعلوا الكون بمعنى الوقوع والحدوث ، فكأنه قال : ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة . وأنكر هذه القراءة أبو حاتم وكثير من النحويين بسبب التأنيث فهو ضعيف ؛ كما تكون ما قامت إلا هندٌ ضعيفا من حيث كان المعنى ما قام أحد إلا هند . قال أبو حاتم : فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال إن كان إلا صيحةٌ . قال النحاس : لا يمتنع شيء من هذا ، يقال : ما جاءتني إلا جاريتُك بمعنى ما جاءتني امرأةٌ أو جارية إلا جاريتك . والتقدير في القراءة بالرفع ما قاله أبو إسحق ، قال : المعنى إن كانت عليهم صيحة إلا صيحة واحدة ؛ وقدّره غيره ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة . وكان بمعنى وقع كثير في كلام العرب . وقرأ عبد الرحمن بن الأسود — و يقال إنه في حرف عبد الله كذلك — « إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقْيَةً وَاحِدَةً » . وهذا مخالف للمصحف . وأيضا فإن اللغة المعروفة زَقَا يزقو إذا صاح ، ومنه المثل : أثقلُ من الزَّوَاقي ؛ فكان يجب على هذا أن يكونَ زَقوة . ذكره النحاس .

قلت : وقال الجوهري الزَّقْو والزَّقْى مصدر ؛ وقد زَقَا الصدا يَزْقو زُقَاءً أي صاح ؛ وكل صائح زاقٍ ، والزَّقْيَة الصَّيحة .

قلت : وعلى هذا يقال زَقْوة وزَقْيَة لغتان فالقراءة صحيحة لا ٱعتراض عليها . والله أعلم .

﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ أي ميتون هامدون تشبيها بالرماد الخامد . وقال قتادة : هلكى . والمعنى واحد .

قوله تعالى : يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ منصوب ؛ لأنه نداء نكرة ولا يجوز فيه غير النصب عند البصريين . وفي حرف أبيّ « يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ » على الإضافة . وحقيقة الحسرة في اللغة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيرا . وزعم الفراء أن الاختيار النصب ، وأنه لو رفعت النكرة الموصولة بالصلة كان صوابا . وٱستشهد بأشياء منها أنه سمع من العرب : يا مُهْتَمٌّ بأمرنا لا تهتم . وأنشد :

* يا دارُ غَيَّرها البِلَى تغييرا[1] *

قال النحاس : وفي هذا إبطال باب النداء أو أكثره ؛ لأنه يرفع النكرة المحضة ، ويرفع ما هو بمنزلة المضاف في طوله ، ويحذف التنوين متوسطا ، ويرفع ما هو في المعنى مفعول بغير علّة أوجبت ذلك . فأما ما حكاه عن العرب فلا يشبه ما أجازه ؛ لأن تقدير يا مهتم بأمرنا لا تهتم على التقديم والتأخير ، والمعنى يأيها المهتم لا تهتم بأمرنا . وتقدير البيت يأيتها الدار ثم حول المخاطبة ؛ أي يا هؤلاء غير هذه الدار البلى ؛ كما قال الله جل وعز : «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ» فـ « حسرةً» منصوب على النداء كما تقول يا رجلاً أقبل ، ومعنى النداء

(١) البيت للأحوص ؛ وتمامه :

* وسفت عليها الريح بعدك مورا *

هــذا موضع حضور الحسرة . الطبرى : المعنى يا حسرة من العباد على أنفسهم وتندما وتلهفا في آستهزائهم برسل الله عليهم السلام . آبن عباس : «يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ» أى يا ويلا على العباد. وعنه أيضا : حلّ هؤلاء محلّ من يتحسر عليهم . وروى الربيع عن أنس عن أبى العالية أن العباد هاهنا الرسل؛ وذلك أن الكفار لما رأوا العذاب قالوا : «يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ» فتحسروا على قتلهم، وترك الإيمان بهم؛ فتمنوا الإيمان حين لم ينفعهم الإيمان؛ وقاله مجاهد . وقال الضحاك : إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذّبوا الرسل . وقيل : «يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ» من قول الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، لما وثب القوم لقتله . وقيل : إن الرسل الثلاثة هم الذين قالوا لما قتــل القوم ذلك الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، وحلّ بالقوم العذاب يا حسرة على هؤلاء ، كأنهم تمنوا أن يكونوا قد آمنوا . وقيل : هذا من قول القوم قالوا لما قتــلوا الرجل وفارقتهم الرسل ، أو قتلوا الرجل مع الرســل الثلاثة ، على آختــلاف الروايات : يا حسرة على هؤلاء الرسل، وعلى هــذا الرجل ، ليتنا آمنا بهــم فى الوقت الذى ينفع الإيمــان . وتم الكلام على هــذا، ثم آبتــدأ فقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ ﴾ . وقرأ آبن هُرْمُز ومسلم بن جُنْدب وعكرمة « يَا حَسْرَهْ عَلَى الْعِبَادِ » بسكون الهاء للحرص على البيان وتقرير المعنى فى النفس ؛ إذ كان موضع وعظ وتنبيه والعرب تفعل ذلك فى مثــله ، وإن لم يكن موضعا للوقف . ومن ذلك ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقطع قراءته حرفا حرفا ؛ حرصا على البيان والإفهام . ويجوز أن يكون « على العبادِ » متعلقا بالحسرة . ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف لا بالحسرة، فكأنه قدر الوقف على الحسرة فأسكن الهــاء ، ثم قال « على العبادِ » أى أتحسر على العباد . وعن آبن عباس والضحاك وغيرهما « يا حسرةَ العبادِ » مضاف بحــذف على . وهو خلاف المصحف . وجاز أن يكون من باب الإضافة إلى الفاعل فيكون العباد فاعلين؛ كأنهــم إذا شاهدوا العــذاب تحسروا، فهو كقولك يا قيام زيد . ويجوز أن يكون من باب الإضافة إلى المفعول ، فيكون العباد مفعولين؛ فكأن العباد يتحسّر عليهم من يشفق لهم . وقراءة من قرأ « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » مقوية لهذا المعنى.

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ قال سيبويه : أنّ بدل من كم، ومعنى كم هاهنا الخبر، فلذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام. والمعنى ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون . وقال الفراء : « كم » في موضع نصب من وجهين، أحدهما بـ « يَرَوْا » وٱستشهد على هذا بأنه في قراءة ٱبن مسعود « أَلَمْ يَرَوْا مَنْ أَهْلَكْنَا » . والوجه الآخر أن يكون « كم » في موضع نصب بـ « أَهْلَكْنَا » . قال النحاس : القول الأول محال ؛ لأن « كم » لا يعمل فيها ما قبلها ؛ لأنها ٱستفهام، ومحال أن يدخل الأستفهام في خبر ما قبله . وكذا حكمها إذا كانت خبرا، وإن كان سيبويه قد أومأ إلى بعض هـذا فجعل « أَنَّهُمْ » بدلا من كم . وقد ردّ ذلك محمد بن يزيد أشدّ ردّ، وقال : « كم » في موضع نصب بـ « أَهْلَكْنَا » و « أَنَّهُمْ » في موضـع نصب والمعنى عنده بأنهم أي « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » بالاستئصال . قال : والدليل على هذا أنها في قراءة عبد الله « مَنْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » . وقرأ الحسن « إِنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » بكسر الهمزة على الاستئناف . وهـذه الآية ردٌّ على من زعم أن من الخلق من يرجع قبـل القيامة بعد الموت . ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ يريد يوم القيـامة للجزاء . وقرأ ٱبن عامر وعاصم وحمزة « وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا » بتشـديد لمـا . وخفف الباقون . فإن مخففة من الثقيلة وما بعدها مرفوع بالأبتـداء ، وما بعده الخبر . وبطل عملها حين تغير لفظها . ولزمت اللام في الخبر فرقا بينها وبين إن التي بمعنى ما . وما عند أبي عبيدة زائدة . والتقدير عنـده وإن كل لجميع . قال الفرّاء : ومن شدّد جعل « لمـا » بمعنى إلا و « إنْ » بمعنى ما أي ما كل إلا لجميع ؛ كقوله : « إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّـةٌ » . وحكى سيبويه : في قوله سألتك بالله لمّا فعلت . وزعم الكسائي أنه لا يعرف هذا . وقد مضى هـذا المعنى في « هود »(1) . وفي حرف أبيّ « وَإِنْ مِنْهُمْ إِلَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ » .

---

(1) راجع جـ ٩ ص ١٠٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ نبههم الله تعالى بهذا على إحياء الموتى ، وذكرهم توحيده وكمال قدرته ، وهي الأرض الميتة أحياها بالنبات وإخراج الحب منها . ﴿ فَمِنْهُ ﴾ أي من الحب ﴿ يَأْكُلُونَ ﴾ وبه يتغذون . وشدد أهل المدينة « الْمَيِّتَةُ » وخفف الباقون . وقد تقدم[(١)] . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ أي في الأرض . ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ أي بساتين . ﴿ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ وخصصهما بالذكر ؛ لأنهما أعلى الثمار . ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ أي في البساتين . ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴾ الهاء في « ثَمَرِهِ » تعود على ماء العيون ؛ لأن الثمر منه اندرج . قاله الجرجاني والمهدوي وغيرهما . وقيل : أي ليأكلوا من ثمر ما ذكرنا ؛ كما قال : « وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ » . وقرأ حمزة والكسائي « مِنْ ثُمُرِهِ » بضم الثاء والميم . وفتحهما الباقون . وعن الأعمش ضم الثاء وإسكان الميم . وقد مضى الكلام فيه في « الأنعام »[(٢)] . ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ « ما » في موضع خفض على العطف على « مِنْ ثَمَرِهِ » أي ومما عملته أيديهم . وقرأ الكوفيون « وَمَا عَمِلَتْ » بغير هاء . الباقون « عملته » على الأصل من غير حذف . وحذف الصلة أيضا في الكلام كثير لطول الاسم . ويجوز أن تكون « ما » نافية لا موضع لها فلا تحتاج إلى صلة ولا راجع . أي ولم تعمله أيديهم من الزرع الذي أنبته الله لهم . وهذا قول ابن عباس والضحاك ومقاتل . وقال غيرهم : المعنى ومن الذي عملته أيديهم أي من الثمار ، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة ، ومما

(١) راجع جـ ٢ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٤٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

آتخذوا من الحبوب بعلاج كالخبز والدهن المستخرج من السمسم والزيتون . وقيل : يرجع ذلك إلى ما يغرسه الناس . روى معناه عن آبن عباس أيضا . ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ نعمه .

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ نزّه نفسه سبحانه عن قول الكفار؛ إذ عبدوا غيره مع ما رأوه من نعمه وآثار قدرته . وفيه تقدير الأمر؛ أى سبّحوه ونزّهوه عما لا يليق به . وقيل : فيه معنى التعجب؛ أى عجبا لهؤلاء فى كفرهم مع ما يشاهدونه من هذه الآيات ؛ ومن تعجب من شيء قال سبحان الله . والأزواج الأنواع والأصناف ، فكل زوج صنف ؛ لأنه مختلف فى الألوان والطعوم والأشكال والصغر والكبر؛ فاختلافها هو آزدواجها . وقال قتادة : يعنى الذكر والأنثى . ﴿ مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ يعنى من النبات ؛ لأنه أصناف . ﴿ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ يعنى وخلق منهم أولادا أزواجا ذكورا و إناثا . ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى من أصناف خلقه فى البر والبحر والسماء والأرض . ثم يجوز أن يكون ما يخلقه لا يعلمه البشر وتعلمه الملائكة . ويجوز ألا يعلمه مخلوق . ووجه الآستدلال فى هذه الآية أنه إذا آنفرد بالخلق فلا ينبغى أن يشرك به .

قوله تعالى : وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ أى وعلامة دالة على توحيد الله وقدرته و وجوب إلاهيته . والسلخ الكشط والنزع يقال سلخه الله من دينه ، ثم تستعمل بمعنى الإخراج . وقد جعل ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسلخ من الشيء وظهور المسلوخ فهى آستعارة . و﴿ مُظْلِمُونَ ﴾ داخلون فى الظلام ؛ يقال : أظلمنا أى دخلنا فى ظلام الليل، وأظهرنا دخلنا فى وقت الظهر؛ وكذلك أصبحنا وأضحينا وأمسينا . وقيل : « منه » بمعنى عنه؛ والمعنى نسلخ عنه ضياء النهار . « فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ » أى فى ظلمة ؛ لأن ضوء النهار يتداخل فى الهواء فيضيء؛ فإذا خرج منه أظلم .

قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ يجوز أن يكون تقديره وآية لهم الشمس . ويجوز أن يكون الشمس مرفوعا بإضمار فعل يفسره الثانى . ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء ﴿ تَجْرِي ﴾ فى موضع الخبر أى جارية . وفى صحيح مسلم عن أبى ذرّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله عز وجل : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » قال "مستقرها تحت العرش" . وفيه عن أبى ذر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوما : " أتدرون أين تذهب هذه الشمس " قالوا الله ورسوله أعلم ؛ قال : " إن هذه تجرى حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعى ارجعى من حيث جئت فترجع فتصبح طالعةً من مطلعها ثم تجرى حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدةً ولا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعى ارجعى من حيث جئت فترجع فتصبح طالعةً من مطلعها ثم تجرى لا يستنكر الناس منها شيئا حتى تنتهىَ إلى مستقرها ذاك تحت العرش فيقال لها ارتفعى أصبحى طالعة من مغربك فتصبح طالعة من مغربها " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتدرون متى ذلكم ذاك حين « لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا » " . ولفظ البخارى عن أبى ذرّ قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لأبى ذرّ حين غربت الشمس : " تدرى أين تذهب " قلت الله ورسوله أعلم ، قال : " فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذنَ فيؤذنُ لها و يوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذنَ فلا يؤذنُ لها يقال لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » ". ولفظ الترمذى عن أبى ذرّ قال : دخلت المسجد حين غابت الشمس والنبىّ صلى الله عليه وسلم جالس . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " يا أبا ذرّ أتدرى أين تذهب هذه " قال قلت : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها تذهب فتستأذنُ فى السجود فيؤذنُ لها وكأنها قد قيل لها اطلعى من حيث جئت فتطلع من مغربها " قال : ثم قرأ « ذَلِكَ[1] مُسْتَقَرٌّ لَهَا » قال وذلك قراءة عبدالله . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(١) كذا فى الأصول وفى صحيح الترمذى ولعله تحريف ، إذ لا تعرف قراءة بهذا النص ؛ وقراءة عبد الله بن مسعود « والشمس تجرى لا مستقر لها » كما سيأتى .

وقال عكرمة : إن الشمس إذا غربت دخلت محرابا تحت العرش تسبّح الله حتى تصبح ، فإذا أصبحت ٱستعفت ربها من الخروج فيقول لها الرب : ولم ذاك ؟ قالت : إنى إذا خرجت عُبِدت من دونك . فيقول الرب تبارك وتعالى : ٱخرجى فليس عليك من ذالك شىء، سأبعث إليهم جهنم مع سبعين ألف مَلَك يقودونها حتى يدخلوهم فيها . وقال الكلبي وغيره : المعنى تجرى إلى أبعد منازلها فى الغروب ، ثم ترجع إلى أدنى منازلها ، فمستقرها بلوغها الموضع الذى لا تتجاوزه بل ترجع منه ؛ كالإنسان يقطع مسافة حتى يبلغ أقصى مقصوده فيقضى وَطَره ، ثم يرجع إلى منزله الأول الذى ٱبتدأ منه سفره . وعلى تبليغ الشمس أقصى منازلها ، وهو مستقرها إذا طلعت الهَنْعَة ، وذلك اليوم أطول الأيام فى السنة ، وتلك الليلة أقصر الليالى، فالنهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات، ثم يأخذ فى النقصان وترجع الشمس، فإذا طلعت الثريا ٱستوى الليل والنهار ، وكل واحد ثنتا عشرة ساعة ، ثم تبلغ أدنى منازلها وتطلع النَّعائم ، وذلك اليوم أقصر الأيام ، والليل خمس عشرة ساعة ، حتى إذا طلع فَرْغ الدَّلو المؤخَّر ٱستوى الليل والنهار ، فيأخذ الليل من النهار كل يوم عشر ثلث ساعة ، وكل عشرة أيام ثلث ساعة ، وكل شهر ساعة تامة، حتى يستويا ويأخذ الليل حتى يبلغ خمس عشرة ساعة ، ويأخذ النهار من الليل كذلك . وقال الحسن : إن للشمس فى السنة ثلثمائة وستين مطلعا ، تنزل فى كل يوم مطلعا ، ثم لا تنزله إلى الحول ، فهى تجرى فى تلك المنازل وهى مستقرها . وهو معنى الذى قبله سواء . وقال ابن عباس: إنها إذا غربت وٱنتهت إلى الموضع الذى لا تتجاوزه ٱستقرت تحت العرش إلى أن تطلع .

قلت : ما قاله ٱبن عباس يجمع الأقوال فتأمله . وقيل : إلى ٱنتهاء أمدها عند ٱنقضاء الدنيا . وقرأ ٱبن مسعود وٱبن عباس « والشَّمْسُ تَجْرِى لَامُسْتَقَرَّ لَهَا » أى إنها تجرى فى الليل والنهار لا وقوف لها ولا قرار ، إلى أن يكوّرها الله يوم القيامة . وقد ٱحتج من خالف المصحف فقال : أنا أقرأ بقراءة ٱبن مسعود وٱبن عباس . قال أبو بكر الأنبارى : وهذا باطل مردود على من نقله ؛ لأن أبا عمرو روى عن مجاهد عن ٱبن عباس ؛ وٱبن كثير روى

عن مجاهد عن ابن عباس « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » فهذان السندان عن ابن عباس اللذان يشهد بصحتهما الإجماع ، يبطلان ما روى بالسند الضعيف مما يخالف مذهب الجماعة ، وما اتفقت عليه الأمة .

قلت : والأحاديث الثابتة التي ذكرناها ترد قوله فما أجرأه على كتاب الله قاتله الله . وقوله : « لِمستقَرٍّ لها » أي إلى مستقرها والمستقر موضع القرار . ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ﴾ أي الذي ذكر من أمر الليل والنهار والشمس تقدير ﴿ العزيز العليم ﴾ .

قوله تعالى : وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ ﴾ يكون تقديره وآيةٌ لهم القمرُ ، ويجوز أن يكون « وَالْقَمَرُ » مرفوعا بالابتداء . وقرأ الكوفيون « وَالْقَمَرَ » بالنصب على إضمار فعل وهو اختيار أبي عبيد . قال : لأن قبله فعلا وبعده فعلا ؛ قبله « نَسْلَخُ » وبعده « قَدَّرْنَاهُ » . النحاس : وأهل العربية جميعا فيما علمت على خلاف ما قال ، منهم الفراء قال : الرفع أعجب إلىّ وإنما كان الرفع عندهم أولى ؛ لأنه معطوف على ما قبله ومعناه وآيةٌ لهم القمرُ . وقوله : إن قبله « نَسْلَخُ » فقبله ما هو أقرب منه وهو « تَجْرِي » وقبله « وَالشَّمْسُ » بالرفع . والذي ذكره بعده وهو « قَدَّرْنَاهُ » قد عمل في الهاء . قال أبو حاتم : الرفع أولى ؛ لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير فرفعته بالابتداء . ويقال : القمر ليس هو المنازل فكيف قال ﴿ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ ففي هذا جوابان : أحدهما قدرناه ذا منازل مثل « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » . والتقدير الآخر قدرنا له منازل ثم حذفت اللام ، وكان حذفها حسنا لتعدي الفعل إلى مفعولين مثل « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا » . والمنازل ثمانية وعشرون منزلا ، ينزل القمر كل ليلة منها بمنزل ؛ وهي : الشَّرَطان . الْبُطَيْن . الثُّرَيَّا . الدَّبَران . الهَقْعَة . الهَنْعة . الذِّراع . النَّثْرة . الطَّرْف . الجَبْهة . الخَرَاتان . الصَّرْفة . العَوَّاء . السِّماك . الغَفْر . الزُّبَانَيان .

الإكليل . القلب . الشولة . النعائم . البلدة . سعد الذابح . سعد بلع . سعد السعود . سعد الأخبية . الفرغ المقدم . الفرغ المؤخر . بطن الحوت . فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة ، ثم يستتر ثم يطلع هلالا ، فيعود في قطع الفلك على المنازل ، وهى منقسمة على البروج لكل برج منزلان وثلث . فللحمل الشرطان والبطين وثلث الثريا ، وللثور ثلثا الثريا والدبران وثلثا الهقعة، ثم كذلك إلى سائرها .وقد مضى في « الحجر »[1] تسمية البروج والحمد لله . وقيل : إن الله تعالى خلق الشمس والقمر من نار ثم كسيا النور عند الطلوع ، فأما نور الشمس فمن نور العرش ،وأما نور القمر فمن نور الكرسى ، فذلك أصل الخلقة وهذه الكسوة . فأما الشمس فتركت كسوتها على حالها لتشعشع وتشرق ، وأما القمر فأمر الروح الأمين جناحه على وجهه فمحا ضوءه بسلطان الجناح ، وذلك أنه روح والروح سلطانه غالب على الأشياء . فبقى ذلك المحو على ما يراه الخلق ، ثم جعل في غلاف من ماء، ثم جعل له مجرى، فكل ليلة يبدو للخلق من ذلك الغلاف قمرا بمقدار ما يقمرهم حتى ينتهى بدؤه، ويراه الخلق بكماله واستدارته . ثم لا يزال يعود إلى الغلاف كل ليلة شيء منه فينقص من الرؤية والإقمار بمقدار ما زاد في البدء . ويبتدئ في النقصان من الناحية التي لا تراه الشمس وهى ناحية الغروب حتى يعود كالعرجون القديم ، وهو العذق المتقوس ليبسه ودقته . وإنما قيل القمر، لأنه يقمر أى يبيض الجو ببياضه إلى أن يستسر .

الثانية ـــ ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ قال الزجاج : هو عود العذق الذى عليه الشماريخ، وهو فعلون من الانعراج وهو الانعطاف ، أى سار في منازله ، فإذا كان في آخرها دق واستقوس وضاق حتى صار كالعرجون . وعلى هذا فالنون زائدة . وقال قتادة : هو العذق اليابس المنحنى من النخلة . ثعلب : « كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » قال : « العرجون » الذى يبقى من الكباسة في النخلة إذا قطعت، و« القديم » البالى . الخليل : في باب الرباعى « العرجون » أصل العذق وهو أصفر عريض يشبه به الهلال إذا انحنى . الجوهرى :

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩ طبعة أولى أو ثانية

« العرجون » أصل العذق الذى يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسا، وعرجنته ضربه بالعرجون . فالنون على قول هؤلاء أصلية؛ ومنه شعر أعشى بنى قيس :

شرق المسك والعبير بها[1] * فهى صفراء كعرجون القمر

فالعرجون إذا عتق ويبس وتقوس شبه القمر فى دقته وصفرته به . ويقال له أيضا الإهان والكباسة والقنو ، وأهل مصر يسمونه الإسباطة . وقرئ « العرجون » بوزن الفرجون وهما لغتان كالبزيون والبزيون[2]؛ ذكره الزمخشرى وقال : هو عود العذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة . واعلم أن السنة منقسمة على أربعة فصول ، لكل فصل سبعة منازل : فأولها الربيع ، وأوله خمسة عشر يوما من آذار ، وعدد أيامه اثنان وتسعون يوما . تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج : الحمل، والثور، والجوزاء ، وسبعة منازل : الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع . ثم يدخل فصل الصيف فى خمسة عشر يوما من حزيران، وعدد أيامه اثنان وتسعون يوما ؛ تقطع الشمس فيه ثلاثة بروج : السرطان ، والأسد ، والسنبلة ، وسبعة منازل : وهى النثرة والطرف والجبهة والخراتان والصرفة والعواء والسماك . ثم يدخل فصل الخريف فى خمسة عشر يوما من أيلول ، وعدد أيامه أحد وتسعون يوما ، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج ؛ وهى الميزان ، والعقرب ، والقوس ، وسبعة منازل الغفر والزبانان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة . ثم يدخل فصل الشتاء فى خمسة عشر يوما من كانون الأول، وعدد أيامه تسعون يوما وربما كان أحدا وتسعين يوما، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج : وهى الجدى والدلو والحوت، وسبعة منازل سعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية والفرغ المقدم ، والفرغ المؤخر وبطن الحوت . وهذه قسمة السريانيين لشهورها : تشرين الأول، تشرين الثانى، كانون الأول، كانون الثانى، أشباط، آذار ، نيسان ، أيار ، حزيران ، تموز ، آب ، أيلول، وكلها أحد وثلاثون إلا تشرين الثانى ونيسان وحزيران وأيلول ، فهى ثلاثون ، وأشباط ثمانية وعشرون يوما وربع يوم .

(١) كذا فى الأصل ولم نعثر عليه فى ديوانه ، ويحتمل أن يكون : شرق العنبر والمسك بها .

(٢) البزيون : السندس . وقيل هو رقيق الديباج .

وإنما أردنا بهذا أن تنظر في قدرة الله تعالى فذلك قوله تعالى : « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ » فإذا كانت الشمس في منزل أهلّ الهلالُ بالمنزل الذي بعده، وكان الفجر بمنزلتين من قبله ، فإذا كانت الشمس بالثريا في خمسة وعشرين يوما من نيسان، كان الفجر بالشرطين، وأهلّ الهلال بالدبران، ثم يكون له في كل ليلة منزلة حتى يقطع في ثمان وعشرين ليلة ثمانيا وعشرين منزلة . وقد قطعت الشمس منزلتين فيقطعهما ، ثم يطلع في المنزلة التي بعد منزلة الشمس فـ « ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » .

الثالثة ـ قوله تعالى : « الْقَدِيمِ » قال الزمخشري : القديم المحول وإذا قَدُم دَقّ وانحنى واصفر فشبه القمر به من ثلاثة أوجه . وقيل : أقلّ عِدّة الموصوف بالقديم الحَوْل، فلو أن رجلا قال : كل مملوك لي قديم فهو حر، أو كتب ذلك في وصيته عتق من مضى له حول أو أكثر .

قلت : قد مضى في « البقرة »(1) ما يترتب على الأهلة من الأحكام والحمد لله .

قوله تعالى : لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)

قوله تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ رفعت الشمس بالابتداء ، ولا يجوز أن تعمل «لا» في معرفة . وقد تكلم العلماء في معنى هذه الآية ، فقال بعضهم : معناها إن الشمس لا تدرك القمر فتبطل معناه . أي لكل واحد منهما سلطان على حياله ، فلا يدخل أحدهما على الآخر فيذهب سلطانه ، إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك ، فتطلع الشمس من مغربها على ما تقدم في آخر سورة « الأنعام »(2) بيانه . وقيل : إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء ، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء . روي معناه عن ابن عباس والضحاك . وقال مجاهد : أي لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر . وقال قتادة : لكل حدّ وعَلَم لا يعدوه

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٤١ وما بعدها طبعة ثانية . (2) راجع جـ ٧ ص ١٤٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ولا يقصر دونه إذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا . وقال الحسن : إنهما لا يجتمعان فى السماء ليلة الهلال خاصة . أى لا تبقى الشمس حتى يطلع القمر ، ولكن إذا غربت الشمس طلع القمر . يحيى بن سلّام : لا تدرك الشمس القمر ليلة البدر خاصة ؛ لأنه يبادر بالمغيب قبل طلوعها . وقيل : معناه إذا آجتمعا فى السماء كان أحدهما بين يدى الآخر فى منازل لا يشتركان فيها ؛ قاله آبن عباس أيضا . وقيل : القمر فى السماء الدنيا والشمس فى السماء الرابعة فهى لا تدركه . ذكره النحاس والمهدوى . قال النحاس : وأحسن ما قيل فى معناها وأبينه مما لا يُدفَع أن سير القمر سير سريع والشمس لا تدركه فى السير . ذكره المهدوى أيضا . فأما قوله سبحانه : « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » فذلك حين حَبْس الشمس عن الطلوع على ما تقدّم بيانه فى آخر « الأنعام »[(١)] ويأتى فى سورة « القيامة » أيضا . وجمعهما علامة لآنقضاء الدنيا وقيام الساعة . ﴿ وَكُلٌّ ﴾ يعنى من الشمس والقمر والنجوم ﴿ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أى يجرون . وقيل : يدورون . ولم يقل تسبح؛ لأنه وصفها بفعل من يعقل . وقال الحسن : الشمس والقمر والنجوم فى فلك بين السماء والأرض غير ملصَقة ولو كانت ملصَقة ما جرت ؛ ذكره الثعلبى والماوردى . وآستدل بعضهم بقوله تعالى : « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » على أن النهار مخلوق قبل الليل، وأن الليل لم يسبقه بخلق . وقيل : كل واحد منهما يجىء وقته ولا يسبق صاحبه إلى أن يجمع بين الشمس والقمر يوم القيامة ؛ كما قال : « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » وإنما هذا التعاقب الآن لتتم مصالح العباد « وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » ويكون الليل للإجمام والاستراحة، والنهار للتصرف؛ كما قال تعالى : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » وقال : « وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا » أى راحة لأبدانكم من عمل النهار . فقوله : « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » أى غالب النهار؛ يقال : سبق فلان فلانا أى غلبه . وذكر المبرّد قال : سمعت عمارة يقرأ « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ » فقلت ما هذا؟ قال : أردت سابقٌ النهارَ فحذفت التنوين؛ لأنه أخف . قال النحاس : يجوز أن يكون « النهارَ » منصوبا بغير تنوين ويكون التنوين حذف لالتقاء الساكنين .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٤٦ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها عبرة لهم ؛ لأن فى الآيات اعتبارا . الثانى نعمة عليهم ؛ لأن فى الآيات إنعاما . الثالث إنذار لهم ؛ لأن فى الآيات إنذارا . ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّاتِهِمْ[1] فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ من أشكل ما فى السورة ؛ لأنهم هم المحمولون . فقيل المعنى وآية لأهل مكة أنا حملنا ذرية القرون الماضية «فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» فالضميران مختلفان ؛ ذكره المهدوى . وحكاه النحاس عن علىّ بن سليمان أنه سمعه يقوله . وقيل : الضميران جميعا لأهل مكة على أن يكون ذرياتهم أولادهم وضعفاءهم ؛ فالفلك على القول الأوّل سفينة نوح . وعلى الثانى يكون آسما للجنس ؛ خبّر جل وعز بلطفه وآمتنانه أنه خلق السفن يحمل فيها من يصعب عليه المشى والركوب من الذرية والضعفاء ؛ فيكون الضميران على هذا متفقين . وقيل : الذرية الآباء والأجداد حملهم الله تعالى فى سفينة نوح عليه السلام ؛ فالآباء ذرية والأبناء ذرية ؛ بدليل هذه الآية ؛ قاله أبو عثمان . وسمى الآباء ذرية ؛ لأن منهم ذرأ الأبناء . وقول رابع أن الذرية النطف حملها الله تعالى فى بطون النساء تشبيها بالفلك المشحون ؛ قاله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ؛ ذكره الماوردى . وقد مضى فى « البقرة »[2] آشتقاق الذرية والكلام فيها مستوفى . و « المشحون » المملوء الموقر و « الفلك » يكون واحدا وجمعا . وقد تقدّم فى « يونس »[3] القول فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ والأصل يركبونه فحذفت الهاء لطول الاسم[4] وأنه رأس آية . وفى معناه ثلاثة أقوال : مذهب مجاهد وقتادة وجماعة من أهل التفسير

---

(١) « ذرياتهم » بالجمع قراءة نافع . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٠٧ وما بعدها طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ طبعة أولى أو ثانية . (٤) كذا فى كل نسخ الأصل وفى إعراب القرآن للنحاس.

وروى عن ابن عباس أن معنى «مِن مِثْلِهِ» للإبل خلقها لهم للركوب فى البر مثل السفن المركوبة فى البحر؛ والعرب تشبه الإبل بالسفن . قال طرفة :

كَأَنَّ حُدُوجَ المَالِكِيَّةِ غُدْوَةً * خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِن دَدِ (١)

جمع خلية وهى السفينة العظيمة . والقول الثانى أنه للإبل والدواب وكل ما يركب . والقول الثالث أنه للسفن؛ النحاس : وهو أصحها لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس . «وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ» قال : خلق لهم سفنا أمثالها يركبون فيها . وقال أبو مالك : إنها السفن الصغار خلقها مثل السفن الكبار؛ وروى عن ابن عباس والحسن . وقال الضحاك وغيره : هى السفن المتخذة بعد سفينة نوح . قال الماوردي : ويجيء على مقتضى تأويل على رضى الله عنه فى أن الذرية فى الفلك المشحون هى النطف فى بطون النساء قول خامس فى قوله : «وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ» أن يكون تأويله النساء خلقن لركوب الأزواج لكن لم أره محكيا .

* قوله تعالى : ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ أى فى البحر فترجع الكناية إلى أصحاب الذرية، أو إلى الجميع، وهذا يدل على صحة قول ابن عباس ومن قال إن المراد «مِنْ مِثْلِهِ» السفن لا الإبل . ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أى لا مغيث لهم رواه سعيد عن قتادة . وروى شيبان عنه فلا منعة لهم ومعناهما متقاربان . و «صَرِيخَ» بمعنى مُصرِخ فعيل بمعنى فاعل . ويجوز «فلا صريخٌ لهم» ؛ لأن بعده مالا يجوز فيه إلا الرفع ؛ لأنه معرفة وهو ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ والنحويون يختارون لا رجل فى الدار ولا زيد . ومعنى «يُنْقَذُونَ» يخلصون من الغرق . وقيل : من العذاب . ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ قال الكسائى : هو نصب على الاستثناء . وقال الزجاج : نصب مفعول من أجله ؛ أى للرحمة ﴿وَمَتَاعًا﴾ معطوف عليه . ﴿إِلَى حِينٍ﴾ إلى الموت؛ قاله قتادة . يحيى بن سلام : إلى القيامة أى إلا أن نرحمهم ونمتعهم إلى آجالهم، وأن الله عجل عذاب الأمم السالفة، وأخر عذاب أمة محمد صلى الله عليه وسلم وإن كذبوه إلى الموت والقيامة .

(١) الحدوج جمع حدج وهو مركب من مراكب النساء . والمالكية منسوبة إلى مالك بن سعد بن ضبيعة . والنواصف جمع ناصفة وهى الرحبة الواسعة تكون فى الوادى . ودد موضع .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ قال قتادة : يعنى « ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » أى من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم « وَمَا خَلْفَكُمْ » من الآخرة . ابن عباس وابن جبير ومجاهد : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » ما مضى من الذنوب « وَمَا خَلْفَكُمْ » ما يأتى من الذنوب . الحسن : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » ما مضى من أجلكم « وَمَا خَلْفَكُمْ » ما بقى منه . وقيل : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » من الدنيا « وَمَا خَلْفَكُمْ » من عذاب الآخرة ؛ قاله سفيان . وحكى عكس هذا القول الثعلبى عن ابن عباس . قال : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » من أمر الآخرة وما عملوا لها «وَمَا خَلْفَكُمْ» من أمر الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها . وقيل : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » ما ظهر لكم « وَمَا خَلْفَكُمْ » ما خفى عنكم . والجواب محذوف. والتقدير إذا قيل لهم ذلك أعرضوا؛ دليله قوله بعد : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ فاكتفى بهذا عن ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى تصدّقوا على الفقراء . قال الحسن : يعنى اليهود أمروا بإطعام الفقراء . وقيل هم المشركون قال لهم فقراء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أعطونا ما زعمتم من أموالكم أنها لله ؛ وذلك قوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا

ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا » فحرموهم وقالوا : لو شاء الله أطعمكم ــ آستهزاء ــ فلا نطعمكم حتى ترجعوا إلى ديننا . قالوا : ﴿أَنُطْعِمُ﴾ أى أنرزق ﴿مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ كان بلغهم من قول المسلمين أن الرازق هو الله . فقالوا هزءا أنرزق من لو يشاء الله أغناه . وعن آبن عباس : كان بمكة زنادقة ، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن . وكانوا يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون : لو شاء الله لأغنى فلانا ، ولو شاء الله لأعزّ ولو شاء الله لكان كذا . فأخرجوا هذا الجواب مخرج الآستهزاء بالمؤمنين ، وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى . وقيل : قالوا هذا تعلقا بقول المؤمنين لهم « أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى فإذا كان الله رزقنا فهو قادر على أن يرزقكم فلم تلتمسون الرزق منا ؟ . وكان هذا الآحتجاج باطلا ؛ لأن الله تعالى إذا ملّك عبدا مالاً ثم أوجب عليه فيه حقّا فكأنه آنتزع ذلك القدر منه ، فلا معنى للاعتراض . وقد صدقوا فى قولهم لو شاء الله أطعمهم ولكن كذبوا فى الآحتجاج . ومثله قوله : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا » وقوله : « قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » . ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قيل : هو من قول الكفار للؤمنين ، أى فى سؤال المال وفى آتباعكم محمدا . قال معناه مقاتل وغيره . وقيل : هو من قول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لهم . وقيل : من قول الله تعالى للكفار حين ردّوا بهذا الجواب . وقيل : إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان يطعم مساكين المسلمين فلقيه أبو جهل فقال : يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء؟ قال : نعم . قال : فما باله لم يطعمهم؟ قال : آبتلى قوما بالفقر، وقوما بالغنى، وأمر الفقراء بالصبر، وأمر الأغنياء بالإعطاء . فقال : والله يا أبا بكر ما أنت إلا فى ضلال ؛ أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ثم تطعمهم أنت ؛ فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » الآيات . وقيل : نزلت الآية فى قوم من الزنادقة، وقد كان فيهم أقوام يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع، وآستهزءوا بالمسلمين بهذا القول . ذكره القشيرى والماوردى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ ﴾ لما قيل لهم « اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ » قالوا « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » وكان هذا استهزاء منهم أيضا أى لا تحقيق لهذا الوعيد؛ قال الله تعالى : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ ﴾ أى ما ينتظرون ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ وهى نفخة إسرافيل ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أى يختصمون فى أمور دنياهم فيموتون فى مكانهم ؛ وهذه نفخة الصعق . وفى « يَخِصِّمُونَ » خمس قراءات : قرأ أبو عمرو وابن كثير « وَهُمْ يَخَصِّمُونَ » بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد . وكذا روى ورش عن نافع . فأما أصحاب القراءات وأصحاب نافع سوى ورش فرووا عنه « يَخْصِّمُونَ » بإسكان الخاء وتشديد الصاد على الجمع بين ساكنين . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة « وهم يَخْصِمُونَ » بإسكان الخاء وتخفيف الصاد من خصمه . وقرأ عاصم والكسائى « وهم يَخِصِّمُونَ » بكسر الخاء وتشديد الصاد ومعناه يخصم بعضهم بعضا . وقيل : تأخذهم وهم عند أنفسهم يختصمون فى الحجة أنهم لا يبعثون . وقد روى ابن جبير عن أبى بكر عن عاصم وحماد عن عاصم كسر الياء والخاء والتشديد . قال النحاس : القراءة الأولى أبينها والأصل فيها يختصمون فأدغمت التاء فى الصاد فنقلت حركتها إلى الخاء — وفى حرف أبىّ « وهم يختصمون » — وإسكان الخاء لا يجوز ؛ لأنه جمع بين ساكنين وليس أحدهما حرف مدّ ولين . وقيل : أسكنوا الخاء على أصلها ، والمعنى يخصم بعضهم بعضا فحذف المضاف ، وجاز أن يكون المعنى يخصمون مجادلهم عند أنفسهم فحذف المفعول ؛ قال الثعلبى : وهى قراءة أبىّ بن كعب . قال النحاس : فأما « يَخِصِّمُونَ » فالأصل فيه أيضا يختصمون ، فأدغمت التاء فى الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين . وزعم الفرّاء أن هذه القراءة أجود وأكثر ؛ فترك ما هو أولى من إلقاء حركة التاء على الخاء واجتلب لها حركة أخرى وجمع بين ياء وكسرة ، وزعم أنه أجود وأكثر . وكيف يكون أكثر وبالفتح قراءة الخلق من أهل مكة وأهل البصرة وأهل المدينة ! وما روى عن عاصم من كسر الياء والخاء فللإتباع . وقد مضى هذا فى « البقرة »[1] فى « يَخْطَفُ

(1) انظر جـ ١ ص ١٩٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

أَبْصَارَهُمْ » وفى « يونس » فى « يَهِدِّى »(١) . وقال عِكْرِمة فى قوله جل وعز «إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً» قال : هى النفخة الأولى فى الصور . وقال أبو هريرة : يُنفخ فى الصّور والناس فى أسواقهم؛ فمن حالبٍ لقحة ، ومن ذارعٍ ثوبا ، ومن مارٍّ فى حاجة . وروى نعيم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فلا يطويانه حتى تقوم الساعة والرجل يَلِيط(٢) حوضه ليسقى ماشيته فما يسقيها حتى تقوم الساعة والرجل يخفض ميزانه فما يرفعه حتى تقوم الساعة والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما يَتَبلعها حتى تقوم الساعة" . وفى حديث عبد الله بن عمرو "وأوّل من يسمعه رجل يَلُوط حوضَ إبله — قال — فيصعق ويصعَق الناس" الحديث . ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أى لا يستطيع بعضهم أن يوصى بعضا لما فى يده من حقّ . وقيل : لا يستطيع أن يوصى بعضهم بعضا بالتوبة والإقلاع بل يموتون فى أسواقهم ومواضعهم . ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ إذا ماتوا . وقيل : إن معنى « وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ » لا يرجعون إليهم قولا . وقال قتادة : « وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ » أى إلى منازلهم؛ لأنهم قد أعجلوا عن ذلك .

قوله تعالى : وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ »

قوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هذه النفخة الثانية للنشأة . وقد بينا فى سورة « النمل »(٣) أنهما نفختان لا ثلاث . وهذه الآية دالة على ذلك . وروى المبارك بن

(١) راجع جـ٨ ص ٣٤١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) يليط حوضه وفى رواية يلوط حوضه أى يطينه .

(٣) راجع جـ١٣ ص ٢٣٩ طبعة أولى أو ثانية .

فَضَالة عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بين النفختين أربعون سنة الأولى يميت الله بها كلّ حيّ والأخرى يحيي الله بها كلّ ميت ". وقال قتادة : الصُّور جمع صُورَة ؛ أى نفخ فى الصور الأرواح . وصُورَة وصُوَر مثل سُورَة البناء وسُوَر ؛ قال العجّاج:

وربّ ذِى سُرَادِقٍ مَحْجُورِ * سِرْتُ إليه فى أَعالِى السُّوَرِ

وقد روى عن أبى هريرة أنه قرأ « وَنُفِخَ فِى الصُّوَرِ » . النحاس : والصحيح أن « الصور » بإسكان الواو . القَرْن ؛ جاء بذلك التوقيف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك معروف فى كلام العرب . أنشد أهل اللغة :

نحنُ نَطَحْناهُمْ غَداةَ الغَوْرَيْن * بالضَّابِحاتِ فى غُبارِ النَّقْعَيْن

* نَطْحاً شَديداً لا كَنَطْحِ الصُّوَرَيْن *

وقد مضى هذا فى « الأنعام »[1] مستوفى . ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أى القبور . وقرئ بالفاء « مِن الأَجداف » ذكره الزمخشرى . يقال جَدَث وجَدَف . واللغة الفصيحة الجدث بالثاء والجمع أَجْدُث وأجداث ؛ قال المتنخِّل الهُذَلى :

عَرفتُ بأَجْدُثٍ فنِعافِ عِرْقٍ * عَلاماتٍ كتَحْبِيرِ النِّمَاطِ

واجتدث أى اتخذ جَدَثا . ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ أى يخرجون ؛ قاله ابن عباس وقتادة . ومنه قول امرئ القيس :

* فَسُلِّى ثِيابِى مِنْ ثِيابِكِ تَنْسُلِ *

ومنه قيل للولد نَسْل؛ لأنه يخرج من بطن أمه . وقيل : يسرعون، والنَّسَلان والعَسَلان الإسراع فى السير، ومنه مشية الذئب ؛ قال[2] :

عَسَلانَ الذِّئبِ أَمْسَى قارِباً * بَرَدَ الليلُ عليه فَنَسَلْ

يقال : عَسَل الذئبُ ونَسَل يَعْسِل ويَنْسِل من باب ضرب يضرب، ويقال : يَنْسُل بالضم أيضا وهو الإسراع فى المشى ؛ فالمعنى يخرجون مسرعين . وفى التنزيل : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) البيت للبيد ، وقيل هو للنابغة الجعدى .

إلّا كنفسٍ واحدةٍ» وقال: «يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ» وفي«سأل سائل» «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ» أى يسرعون. وفى الخبر: شكونا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم الضعف فقال "عليكم بالنَّسْل" أى بالإسراع فى المشى فإنه ينشط.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ قال ابن الأنبارى: «ياويلنا» وقف حسن ثم تبتدئ ﴿مَنْ بَعَثَنَا﴾. وروى عن بعض القراء «يَاوَيْلَنَا مِنْ بَعْثِنَا» بكسر مِن والثاء من البعث. روى ذلك عن علىّ رضى الله عنه؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على قوله «يَا وَيْلَنَا» حتى يقول ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾. وفى قراءة أبىّ بن كعب «مَنْ هَبَّنَا» بالوصل «مِنْ مَرْقَدِنَا» فهذا دليل على صحة مذهب العامة. قال المهدوى: قرأ ابن أبى ليلى «قَالُوا يَا وَيْلَتَنَا» بزيادة تاء وهو تأنيث الويل ومثله «يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ». وقرأ علىّ رضى الله عنه «يَا وَيْلَتَا مِنْ بَعْثِنَا» فـ«ـمِن» متعلقة بالويل أو حال من «ويلنا» فتتعلق بمحذوف، كأنه قال: ياويلنا كائنا مِن بعثنا؛ وكما يجوز أن يكون خبرا عنه كذلك يجوز أن يكون حالا منه. و«مِن» من قوله «مِنْ مَرْقَدِنَا» متعلقة بنفس البعث. ثم قيل: كيف قالوا هذا وهم من المعذّبين فى قبورهم؟ فالجواب أن أبىّ بن كعب قال: ينامون نومة. وفى رواية فيقولون: ياويلنا من أَهَبَّنَا من مرقدنا. قال أبو بكر الأنبارى: لا يحمل هذا الحديث على أن «أهبّنا» من لفظ القرآن كما قاله من طعن فى القرآن، ولكنه تفسير «بعثنا» أو معبر عن بعض معانيه. قال أبو بكر: وكذا حفظته «مَن هَبَّنَا» بغير ألف فى أهبنا مع تسكين نون مَن. والصواب فيه على طريق اللغة «مَنَ اهَبَّنَا» بفتح النون على أن فتحة همزة أهب ألقيت على نون «من». وأسقطت الهمزة؛ كما قالت العرب: مَنَ اخبرك مَنَ اعلمك؟ وهم يريدون من أخبرك. ويقال: أهببتُ النائمَ فهبَّ النائمُ. أنشدنا أحمد بن يحيى النحوى:

وَعاذِلَةٍ هَبَّتْ بِلَيْـلٍ تَلُومُنِى * ولم يَعتَمِرْنِى قبلَ ذاكَ عَذُولُ

وقال أبو صالح: إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور وهجعوا هجعة إلى النفخة الثانية وبينهما أربعون سنة؛ فذلك قولهم: «مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا» وقاله ابن

عباس وقتادة . وقال أهل المعانى : إن الكفار إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب صار ما عذبوا به فى قبورهم إلى جنب عذابها كالنوم . قال مجاهد : فقال لهم المؤمنون ﴿ هَـٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ ﴾ . قال قتادة : فقال لهم من هدى الله « هَـٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » . وقال الفراء : فقال لهم الملائكة « هَـٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » . النحاس : وهذه الأقوال متفقة ؛ لأن الملائكة من المؤمنين وممن هدى الله عز وجل . وعلى هذا يتأول قول الله عز وجل « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ » وكذا الحديث: " المؤمن عند الله خير من كل ما خلق " . ويجوز أن تكون الملائكة صلى الله عليهم وغيرهم من المؤمنين قالوا لهم : « هَـٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » . وقيل : إن الكفار لما قال بعضهم لبعض « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » صدقوا الرسل لما عاينوا ما أخبروهم به ، ثم قالوا « هَـٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ » فكذبنا به ؛ أقروا حين لم ينفعهم الإقرار . وكان حفص يقف على « مِنْ مَرْقَدِنَا » ثم يبتدئ فيقول « هَٰذَا » . قال أبو بكر بن الأنبارى : « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » وقف حسن ؛ ثم تبتدئ « هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » ويجوز أن تقف على « مَرْقَدِنَا هَٰذَا » فتخفض هذا على الإتباع للمرقد ، وتبتدئ « مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » على معنى بعثكم ما وعد الرحمن ؛ أى بعثكم وعد الرحمن . النحاس : التمام على « مِنْ مَرْقَدِنَا » و « هَٰذَا » فى موضع رفع بالابتداء وخبره « مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » . ويجوز أن يكون فى موضع خفض على النعت لـ « مَرْقَدِنَا » فيكون التمام « مِنْ مَرْقَدِنَا هَٰذَا » . « مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » فى موضع رفع من ثلاث جهات . ذكر أبو إسحق منها اثنتين قال : يكون بإضمار هذا . والجهة الثانية أن يكون بمعنى حق ما وعد الرحمن بعثكم . والجهة الثالثة أن يكون بمعنى بعثكم ما وعد الرحمن . ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ يعنى إن بعثهم وإحياءهم كان بصيحة واحدة وهى قول إسرافيل : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، والشعور المتمزقة ! إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ، وهذا معنى قوله الحق : « يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ » . وقال : « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ » على ما يأتى . وفى قراءة ابن مسعود إن صح عنه « إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقْيَةً

واحدة » والزقية الصيحة؛ وقد تقدم هذا . ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ « فإذا هم » مبتدأ وخبره « جَمِيعٌ » نكرة و « مُحْضَرُونَ » من صفته . ومعنى « مُحْضَرُونَ » مجموعون أحضروا موقف الحساب . وهو كقوله : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ » . قوله تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أى لا تنقص من ثواب عمل . ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ « ما » فى محل نصب من وجهين : الأول أنه مفعول ثانٍ لما لم يسمّ فاعله . والثانى بنزع حرف الصفة ؛ تقديره : إلا بما كنتم تعملون ؛ أى تعملونه فحذف .

قوله تعالى : إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد : شغلهم افتضاض العَذَارى . وذكر الترمذيّ الحكيم فى كتاب مشكل القرآن له : حدّثنا محمد بن حميد الرازى ، حدّثنا يعقوب القُمّى ، عن حفص بن حميد ، عن شمر بن عطية ، عن شقيق بن سلمة ، عن عبد الله بن مسعود فى قوله « إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ » قال : شغلهم افتضاض العَذَارى . حدثنا محمد بن حميد ، حدثنا هرون بن المغيرة ، عن نهشل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس بمثله . وقال أبو قِلَابة : بينا الرجل من أهل الجنة مع أهله إذ قيل له تحوّل إلى أهلك فيقول أنا مع أهلي مشغول ؛ فيقال تحوّل أيضا إلى أهلك . وقيل : أصحاب الجنة فى شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصى ومصيرهم إلى النار ، وما هم فيه من أليم العذاب ، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم ؛ قاله سعيد بن المسيّب وغيره . وقال وَكيع : يعنى فى السماع . وقال ابن كيسان : « فى شغل » أى فى زيارة بعضهم بعضا . وقيل : فى ضيافة الله تعالى . وروى أنه إذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين عبادى الذين

أطاعونى وحفظوا عهدى بالغيب ، فيقومون كأنما وجوههم البدر والكوكب الدرى ، ركبانا على نجب من نور أزمتها من الياقوت ، تطير بهم على رءوس الخلائق ، حتى يقوموا بين يدى العرش ، فيقول الله جل وعز لهم : السلام على عبادى الذين أطاعونى وحفظوا عهدى بالغيب ، أنا اصطفيتكم وأنا اجتبيتكم وأنا اخترتكم ، اذهبوا فادخلوا الجنة بغير حساب «فلا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون» . فيمرون على الصراط كالبرق الخاطف فتفتح لهم أبوابها . ثم إن الخلق فى المحشر موقوفون فيقول بعضهم لبعض : يا قوم أين فلان وفلان ؛ وذلك حين يسأل بعضهم بعضا فينادى مناد «إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون» . و «شغل» و «شغْل» لغتان قرئ بهما مثل الرعب والرعْب ، والسحت والسحْت ؛ وقد تقدم[(1)] . ﴿ فَاكِهُونَ ﴾ قال الحسن : مسرورون . وقال ابن عباس : فرحون . مجاهد والضحاك : معجبون . السدى : ناعمون . والمعنى متقارب . والفكاهة المزاح والكلام الطيب . وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج «فكهون» بغير ألف وهما لغتان كالفاره والفره والحاذر والحذر ؛ قاله الفراء . وقال الكسائى وأبو عبيدة : الفاكه ذو الفاكهة مثل شاحم ولاحم وتامر ولابن ، والفكه المتفكه والمتنعم . و «فكهون» بغير ألف فى قول قتادة معجبون . وقال أبو زيد : يقال رجل فكه إذا كان طيب النفس ضحوكا . وقرأ طلحة بن مصرف «فاكهين» نصبه على الحال . ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ مبتدأ وخبره . ويجوز أن يكون «هم» توكيدا «وأزواجهم» عطف على المضمر و«متكئون» نعت لقوله «فاكهون» . وقراءة العامة «فى ظلال» بكسر الظاء والألف . وقرأ ابن مسعود وعبيد بن عمير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وخلف «فى ظلل» بضم الظاء من غير ألف ؛ فالظلال جمع ظل وظلل جمع ظلة . ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ يعنى السرر فى الحجال واحدها أريكة مثل سفينة وسفائن ؛ قال الشاعر :

كأن احمرار الورد فوق غصونه * بوقت الضحى فى روضة المتضاحك

خدود عذارى قد خجلن من الحيا * تهادين بالريحان فوق الأرائك

(1) راجع جـ ٦ ص ١٠٤ طبعة أولى أو ثانية .

وفى الخبر عن أبى سعيد الخدرى قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن أهل الجنة كلما جامعوا نساءهم عُدْن أبكارا " . وقال ابن عباس : إن الرجل من أهل الجنة ليعانق الحوراء سبعين سنة ، لا يملّها ولا تملّه ، كلما أتاها وجدها بكرا ، وكلما رجع إليها عادت إليه شهوته ، فيجامعها بقوة سبعين رجلا ، لا يكون بينهما منىّ ؛ يأتى من غير منىّ منه ولا منها . ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴾ الدال الثانية مبدلة من تاء ، لأنه يفتعلون من دعا أى من دعا بشىء أعطيه . قاله أبو عبيدة . فمعنى « يَدَّعُونَ » يتمنون من الدعاء . وقيل : المعنى أن من ادعى منهم شيئا فهو له ؛ لأن الله تعالى قد طبعهم على ألا يدّعى منهم أحد إلا ما يجمل ويحسن أن يدّعيه . وقال يحيى بن سلام : « يَدَّعونَ » يشتهون . ابن عباس . يسألون . والمعنى متقارب . قال ابن الأنبارى : « وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ » وقف حسن ، ثم تبتدئ « سَلَامٌ » على معنى ذلك لهم سلام . ويجوز أن يرفع السلام على معنى ولهم ما يدّعون مسلّم خالص . فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على « مَا يَدَّعُونَ » . وقال الزجاج : « سَلام » مرفوع على البدل من « ما » أى ولهم أن يسلّم الله عليهم ، وهذا منى أهل الجنة . وروى من حديث جرير بن عبدالله البجلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نورٌ فرفعوا رءوسهم فإذا الربّ تعالى قد اطلع عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله « سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ » فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركاته عليهم فى ديارهم " ذكره الثعلبى والقشيرى . ومعناه ثابت فى صحيح مسلم وقد بيناه فى « يونس » عند قوله تعالى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » (1) . ويجوز أن تكون « ما » نكرة و « سَلَامٌ » نعتا لها ، أى ولهم ما يدعون مسلّم . ويجوز أن تكون « ما » رفع بالابتداء و « سلام » خبر عنها . وعلى هذه الوجوه لا يوقف على « وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ » . وفى قراءة ابن مسعود « سلاماً » يكون مصدرا ، وإن شئت فى موضع الحال ؛ أى ولهم

---

(1) راجع جـ ٨ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

ما يدعون ذا سلام أو سلامة أو مسلما . فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على « يَدَّعُونَ » .
وقرأ محمد بن كعب القُرَظي « سِلْمٌ » على الاستئناف كأنه قال : ذلك سِلم لهم لا يتنازعون فيه
ويكون « وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ » تاما . ويجوز أن يكون « سلام » بدلا من قوله « وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ »
وخبر « مَا يَدَّعُونَ » لهم . ويجوز أن يكون « سَلَامٌ » خبرا آخر ويكون معنى الكلام
أنه لهم خالص من غير منازع فيه . ﴿ قَوْلًا ﴾ مصدر على معنى قال الله ذلك قولا . أو يقوله
قولا ودل على الفعل المحذوف لفظ مصدره . ويجوز أن يكون المعنى ولهم ما يدعون قولا
أي عِدة من الله . فعلى هذا المذهب الثاني لا يحسن الوقف على « يَدَّعُونَ » . وقال
السجستاني : الوقف على قوله « سَلَامٌ » تام ؛ وهذا خطأ لأن القول خارج
مما قبله .

قوله تعالى : ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ ويقال تميَّزوا وامّازوا وامتازوا بمعنى ؛
ومِزته فانماز وامتاز، وميّزته فتميّز . أي يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال حين يؤمر
بأهل الجنة إلى الجنة ؛ أي اخرجوا من جملتهم . قال قتادة : عُزِلوا عن كل خير . وقال
الضحاك : يمتاز المجرمون بعضهم من بعض، فيمتاز اليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس
فرقة ، والصابئون فرقة ، وعبدة الأوثان فرقة . وعنه أيضا : إن لكل فرقة في النار بيتا
تدخل فيه ويردّ بابه، فتكون فيه أبدا لا تَرى ولا تُرى . وقال داود بن الجراح : فيمتاز المسلمون
من المجرمين إلا أصحاب الأهواء فيكونون مع المجرمين .

قوله تعالى : أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ
إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾
وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ
ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ العهد هنا بمعنى الوصية ، أى ألم أوصكم وأبلغتكم على ألسنة الرسل ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ أى لا تطيعوه فى معصيتى . قال الكسائى : لا للنهى ﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي ﴾ بكسر النون على الأصل، ومن ضم كره كسرة بعدها ضمة . ﴿ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى عبادتى دين قويم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ ﴾ أى أغوى ﴿ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ أى خلقا كثيرا ؛ قاله مجاهد . قتادة : جموعا كثيرة . الكلبي أمما كثيرة؛ والمعنى واحد . وقرأ أهل المدينة وعاصم « جِبِلًّا » بكسر الجيم والباء ، وأبو عمرو وابن عامر « جُبْلًا » بضم الجيم و إسكان الباء ، الباقون « جُبُلًا » بضم الجيم والباء وتخفيف اللام ، وشددها الحسن وابن أبي إسحق وعيسى ابن عمر وعبد الله بن عبيد والنضر بن أنس . وقرأ أبو يحيى والأشهب العقيلي « جِبْلًا » بكسر الجيم و إسكان الباء وتخفيف اللام . فهذه خمس قراءات . قال المهدوى والثعلبي : وكلها لغات بمعنى الخلق . النحاس : أبينها القراءة الأولى . والدليل على ذلك أنهم قد أجمعوا على أن قرءوا « والجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ » فيكون « جِبِلًّا » جمع جِبِلَّة والاشتقاق فيه كله واحد . و إنما هو من جبل الله عز وجل الخلق أى خلقهم . وقد ذكرت قراءة سادسة وهى : « وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِيلًا كَثِيرًا » بالياء . وحكى عن الضحاك أن الجيل الواحد عشرة آلاف، والكثير ما لا يحصيه إلا الله عز وجل؛ ذكره الماوردى . ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ عداوته وتعلموا أن الواجب طاعة الله . ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أى تقول لهم خزنة جهنم هذه جهنم التى وعدتم فكذبتم بها . وروى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة جمع الله الإنس والجن والأولين والآخرين فى صعيد واحد ثم أشرف عنق من النار على الخلائق فأحاط بهم ثم ينادى مناد « هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ » فحينئذ تجثو الأمم على ركبها وتضع كل ذات حمل حملها وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد "

قوله تعالى : ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ فى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : "هل تدرون مم أضحك — قلنا الله ورسوله أعلم قال — من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تُجِرنى من الظُّلم قال يقول بلى فيقول فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقى قال فتنطق بأعماله قال ثم يخلَّى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكنّ وسحقا فعنكنّ كنت أناضل" خرجه أيضا من حديث أبى هريرة . وفيه "ثم يقال له الآن نبعث شاهدنا عليك ويتفكر فى نفسه من ذا الذى يشهد علىّ فيختم على فيه ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه](1) انطقى فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله وذلك ليُعذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى يسخط الله عليه" . وخرج الترمذى عن معاوية بن حَيْدَة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره قال : وأشار بيده إلى الشام فقال "من هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركبانا ومشاة وتجرّون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفِدام توفون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه" فى رواية أخرى "فخذه وكفه" الفدام مِصْفاة الكوز والإبريق ؛ قاله الليث . قال أبو عبيد : يعنى أنهم منعوا الكلام حتى تكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالفِدام الذى يجعل على الإبريق . ثم قيل فى سبب الختم أربعة أوجه : أحدها — لأنهم قالوا

(1) الزيادة من صحيح مسلم .

«وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» نختم الله على أفواههم حتى نطقت جوارحهم ؛ قاله أبو موسى الأشعري . الثاني — ليعرفهم أهل الموقف فيتميزون منهم ؛ قاله ابن زياد . الثالث — لأن إقرار غير الناطق أبلغ فى الحجة من إقرار الناطق ؛ لخروجه مخرج الإعجاز ، وإن كان يوماً لا يحتاج إلى إعجاز . الرابع — ليعلم أن أعضاءه التى كانت أعوانا فى حق نفسه صارت عليه شهودا فى حق ربه . فإن قيل لم قال «وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ» فجعل ما كان من اليد كلاما وما كان من الرجل شهادة ؟ قيل : إن اليد مباشرة لعمله والرجل حاضرة ، وقول الحاضر على غيره شهادة ، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما قال أو فعل ؛ فلذلك عبر عما صدر من الأيدى بالقول ، وعما صدر من الأرجل بالشهادة . وقد روى عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل اليسرى" ذكره الماوردى والمهدوى . وقال أبو موسى الأشعرى : إنى لأحسب أن أول ما ينطق منه فخذه اليمنى ؛ ذكره المهدوى أيضا . قال الماوردى : فاحتمل أن يكون تقدم الفخذ بالكلام على سائر الأعضاء ؛ لأن لذة معاصيه يدركها بحواسه التى هى فى الشطر الأسفل منها الفخذ ، فجاز لقربه منها أن يتقدم فى الشهادة عليها . قال : وتقدمت اليسرى ؛ لأن الشهوة فى ميامن الأعضاء أقوى منها فى مياسرها ؛ فلذلك تقدمت اليسرى على اليمنى لقلة شهوتها .

قلت : أو بالعكس لغلبة الشهوة ، أو كلاهما معًا والكف ؛ فإن بمجموع ذلك يكون تمام الشهوة واللذة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ حكى الكسائى : طَمَس يَطمِس ويَطمُس . والمطموس والطَّميس عند أهل اللغة الأعمى الذى ليس فى عينيه شق . قال ابن عباس : المعنى لأعميناهم عن الهدى ، فلا يهتدون أبدا إلى طريق الحق . وقال الحسن والسدى : المعنى لتركناهم عميًا يترددون . فالمعنى لأعميناهم فلا يبصرون طريقا إلى تصرفهم فى منازلهم ولا غيرها . وهذا اختيار الطبرى . وقوله : «فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ» أى استبقوا الطريق ليجوزوا «فَأَنَّى يُبْصِرُونَ» أى فمن أين يبصرون . وقال عطاء ومقاتل وقتادة وروى عن ابن عباس : ولو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم ،

وأعميناهم عن غيّهم ، وحوّلنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى ، فاهتدوا وأبصروا رشدهم ، وتبادروا إلى طريق الآخرة . ثم قال « فَأَنَّى يُبْصِرُونَ » ولم نفعل ذلك بهم ؛ أى فكيف يهتدون وعين الهدى مطموسة ، على الضلال باقية . وقد روى عن عبد الله بن سلام فى تأيل هذه الآية غير ما تقدم ، وتأولها على أنها فى يوم القيامة . وقال : إذا كان يوم القيامة ومُدّ الصراط ، نادى منادٍ ليقم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، فيقومون برّهم وفاجرهم يتبعونه ليجوزوا الصراط ، فإذا صاروا عليه طمس الله أعين فجّارهم ، فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه ، ثم ينادى منادٍ ليقم عيسى صلى الله عليه وسلم وأمته فيقوم فيتبعونه برّهم وفاجرهم فيكون سبيلهم تلك السبيل ، وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام . ذكره النحاس وقد كتبناه فى التذكرة بمعناه حسب ما ذكره ابن المبارك فى رقائقه . وذكره القشيرى . وقال ابن عباس رضى الله عنه : أخذ الأسود بن الأسود حجرا ومعه جماعة من بنى مخزوم ليطرحه على النبي صلى الله عليه وسلم ، فطمس الله على بصره ، وألصق الحجر بيده ، فما أبصره ولا اهتدى ، ونزلت الآية فيه . والمطموس هو الذى لا يكون بين جفنيه شقّ ، مأخوذ من طَمَسَ الريحُ الأثرَ ؛ قاله الأخفش والقتبي .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ المسخ تبديل الخلقة وقلبها حجرا أو جمادا أو بهيمة . قال الحسن : أى لأقعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم . وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر . وقد يكون المسخ تبديل صورة الإنسان بهيمة ، ثم تلك البهيمة لا تعقل موضعا تقصده فتتحيّر ، فلا تُقبِل ولا تُدبِر . ابن عباس رضى الله عنه : المعنى لو نشاء لأهلكناهم فى مساكنهم . وقيل : المعنى لو نشاء لمسخناهم فى المكان الذى اجترءوا فيه على المعصية . ابن سَلَام : هذا كله يوم القيامة يطمس الله تعالى أعينهم على الصراط . وقرأ الحسن والسُّلَمى وزِرّ بن حُبَيش وعاصم فى رواية أبى بكر « مَكَانَاتِهِم » على الجمع . الباقون بالتوحيد . وقرأ أبو حَيْوة « فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مَضِيًّا » بفتح الميم . والمضى بضم الميم مصدر مضى يَمضى مُضيًّا إذا ذهب .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ قرأ عاصم وحمزة « نُنَكِّسْهُ » بضم النون الاولى وتشديد الكاف من التنكيس . الباقون « نَنْكُسْهُ » بفتح النون الأولى وضم الكاف من نكستُ الشيءَ أنكسُه نكْسًا قلبته على رأسه فانتكس . قال قتادة : المعنى أنه يصير إلى حال الهرَم الذي يشبه حال الصبا . وقال سفيان في قوله تعالى « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ » إذا بلغ ثمانين سنة تغيّر جسمه وضعفت قوّته . قال الشاعر :

من عاش أخلقتِ الأيامُ جِدّتَهُ * وخانه ثِقَتَاه السّمع والبصرُ

فطول العمر يصيّر الشباب هَرَماً ، والقوّة ضعفا ، والزيادة نقصا ، وهذا هو الغالب . وقد تعوّذ صلى الله عليه وسلم من أن يردّ إلى أرذل العمر . وقد مضى في « النحل » بيانه[1] . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أنّ من فعل هذا بكم قادر على بعثكم . وقرأ نافع وابن ذكوان « تعقلون » بالتاء . الباقون بالياء .

قوله تعالى : وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — أخبر تعالى عن حال نبيه صلى الله عليه وسلم ، وردّ قول من قال من الكفار إنه شاعر ، وإن القرآن شعر ، بقوله : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول الشعر ولا يزنه ، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلا كسر وزنه ، وإنما كان يحرز المعاني فقط صلى الله عليه وسلم . من ذلك أنه أنشد يوما قول طرفة :

ستُبدِي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلًا * ويأتيكَ من لم تزوّده بالأخبار

وأنشد يوما وقد قيل له من أشعر الناس فقال الذي يقول :

ألم ترياني كلّما جئتُ طارقاً * وجدتُ بها وإن لم تطيّب طِيباً

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٤٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وأنشـــد يوما :

أتجعلُ نَهبي وَنَهبَ العبـ * ـيدِ بين الأقرعِ وعُيَينَة

وقـد كان عليه السـلام ربمـا أنشد البيت المستقيم فى النـادر . روى أنه أنشـد بيت [عبد الله بن رَوَاحة] :

يَبيتُ يُجافى جَنبَهُ عن فراشـهِ * إذا آستثقلت بالمشركين المضاجعُ

وقال الحسن بن أبى الحسن أنشد النبي عليه السلام :

* كَفَى بالإسلام والشيبِ للمرء ناهيا *

فقال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله إنما قال الشاعر :

هريرةَ ودِّعْ إن تجهزْتَ غاديَا * كَفَى الشيبُ والإسلامُ للمرء نَاهيَا

فقال أبو بكر أو عمر : أشهد أنك رسول الله، يقول الله عز وجل : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » . وعن الخليل بن أحمد : كان الشعر أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام ولكن لا يتأتى له .

الثانيـة ـ إصابته الوزن أحيانا لا يوجب أنه يعْلم الشعر، وكذلك ما يأتى أحيانا من نثر كلامه ما يدخل فى وزن ، كقوله يوم حنين وغيره :

" هـل أنتِ إلا إصبعٌ دَميتِ * وفى سـبيلِ اللهِ ما لَقيتِ "

وقـوله :

" أنَا النبيُّ لا كَذِبْ * أنا آبنُ عبـدِ المطلبْ "

فقد يأتى مثل ذلك فى آيات القرآن ، وفى كل كلام وليس ذلك شـعرا ولا فى معناه ؛ كقوله تعـالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وقوله : « نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ » . وقـوله : « وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ » إلى غير ذلك من الآيات . وقد ذكر آبن العربى منها آيات وتكلم عليها وأخرجها عن الوزن، على أن أبا الحسن الأخفش قال فى قوله : " أنا النبيّ لا كَذِبْ " ليس بشعر . وقال الخليل فى كتاب العين : إن ما جاء من السجع على جزءين لا يكون شعرا . وروى عنه أنه من منهوك الرجز . وقـد قيل :

لا يكون من منهوك الرجز إلا بالوقف على البـاء من قوله : " لا كذب ". ومن قوله : " عبد المطلب " . ولم يعلم كيف قاله النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن العربي : والأظهر من حاله أنه قال " لا كَذِبُ " الباء مرفوعة وبخفض الباء من عبد المطلب على الإضافة . وقال النحاس قال بعضهم : إنمـا الرواية بالإعراب ، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعرا ؛ لأنه إذا فتح الباء من البيت الأول أو ضمها أو نوّنها ، وكسر الباء من البيت الثاني خرج عن وزن الشعر . وقال بعضهم : ليس هذا الوزن من الشعر . وهذا مكابرة العيان ؛ لأن أشعار العرب على هذا قد رواها الخليل وغيره . وأما قوله : " هل أنتِ إلا إصبعٌ دَميتِ " فقيل إنه من بحر السريع ، وذلك لا يكون إلا إذا كسرت التاء من دميت ، فإن سكن لا يكون شعرا بحال ؛ لأن هاتين الكلمتين على هذه الصفة تكون فعولْ ، ولا مدخل لفعول في بحر السريع . ولعل النبي صلى الله عليـه وسلم قالها ساكنة التاء أو متحركة التاء من غير إشباع . والمعوّل عليه في الانفصال على تسليم أن هـذا شعر ، ويسقط الاعتراض ، ولا يلزم منه أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم عالمـا بالشعر ولا شاعرا أن التمثـل بالبيت النزر وإصابة القافيتين من الرجز وغيره ، لا يوجب أن يكون قائلها عالمـا بالشعر ، ولا يسمى شاعرا باتفاق العلماء ، كما أن من خاط خيطا لا يكون خياطا . قال أبو إسحق الزجاج : معنى « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ » وما علمناه أن يشعر أي ما جعلناه شاعرا ، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئا من الشعر . قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل في هـذا . وقـد قيل : إنمـا خبّر الله عز وجل أنه ما علّمه الله الشعر ، ولم يخبر أنه لا ينشد شعرا ، وهذا ظاهر الكلام . وقيل فيه قول بيّن ؛ زعم صاحبه أنه إجماع من أهل اللغـة ، وذلك أنهم قالوا : كل من قال قولا موزونا لا يقصد به إلى شـعر فليس بشعر وإنما وافق الشعر . وهذا قول بيّن . قالوا : وإنما الذي نفاه الله عن نبيه عليه السلام فهو العـلم بالشعر وأصنافه ، وأعاريضه وقوافيه والاتصاف بقوله ، ولم يكن موصوفا بذلك بالاتفاق ، ألا ترى أن قريشا تراوضت فيما يقولون للعرب فيه إذا قدموا عليهم الموسم ، فقال بعضهم : نقول إنه شاعر . فقال أهل الفطنة منهم : والله لتكذبنكم العرب ، فإنهم يعرفون

أصناف الشعر، فوالله ما يشبه شيئا منها، وما قوله بشعر. وقال أنيس أخو أبى ذرّ: لقد وضعت قوله على أقراء الشعر[1] فلم يلتئم أنه شعر. أخرجه مسلم وكان أنيس من أشعر العرب. وكذلك عتبة بن أبى ربيعة لما كلمه: والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر. على ما يأتى بيانه من خبره فى سورة «فصلت» إن شاء الله تعالى. وكذلك قال غيرهما من فصحاء العرب العرباء، واللُّسْن البلغاء. ثم إن ما يجرى على اللسان من موزون الكلام لا يعدّ شعرا، وإنما يعدّ منه ما يجرى على وزن الشعر مع القصد إليه؛ فقد يقول القائل: حدّثنا شيخ لنا وينادى ياصاحب الكسائى، ولا يعدّ هذا شعرا. وقد كان رجل ينادى فى مرضه وهو من عرض العامة العقلاء: اذهبوا بى إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى.

الثالثة ـــ روى ابن القاسم عن مالك أنه سئل عن إنشاد الشعر فقال: لا تكثرن منه فمن عيبه أن الله يقول «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ» قال: ولقد بلغنى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى؛ أن اجمع الشعراء قبلك؛ وسلهم عن الشعر، وهل بقى معهم معرفة؛ وأحضر لبيدا ذلك؛ قال: فجمعهم فسألهم فقالوا إنا لنعرفه ونقوله. وسأل لبيدا فقال: ما قلت بيت شعر منذ سمعت الله عز وجل يقول: «الٓمٓ. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ» قال ابن العربى: هذه الآية ليست من عيب الشعر؛ كما لم يكن قوله: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ» من عيب الكتابة، فلما لم تكن الأمية من عيب الخط، كذلك لا يكون نفى النظم عن النبى صلى الله عليه وسلم من عيب الشعر. روى أن المأمون قال لأبى علىّ المنقرى: بلغنى أنك أمىّ، وأنك لا تقيم الشعر، وأنك تلحن. فقال يا أمير المؤمنين: أما اللحن فربما سبق لسانى منه بشىء، وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكتب ولا يقيم الشعر. فقال له سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتنى رابعا وهو الجهل، يا جاهل! إن ذلك كان للنبى صلى الله عليه وسلم فضيلة، وهو فيك وفى أمثالك نقيصة. وإنما منع النبى صلى الله عليه وسلم ذلك لنفى الظِّنة عنه، لا لعيب فى الشعر والكتابة.

---

(١) أقراء الشعر: أنواعه وطرقه وبحوره ومقاصده.

الرابعــة — قوله تعــالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أي وما ينبغي له أن يقوله ، وجعل الله جلّ وعزّ ذلك علما من أعلام نبيه عليه السلام لئلا تدخل الشبهة على من أرسل إليه ، فيظن أنه قوي على القرآن بمـا في طبعه من القوة على الشعر . ولا ٱعتراض للملحد على هذا بمـا يتفق الوزن فيه من القرآن وكلام الرسول؛ لأن ما وافق وزنه وزن الشعر، ولم يقصد به إلى الشعر ليس بشعر، ولو كان شعرا لكان كل من نطق بموزون من العامة الذين لا يعرفون الوزن شاعرا؛ على ما تقـدّم بيانه . وقال الزجاج : معنى « وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » أي ما يتسهّل له قول الشـعر لا الإنشاء . ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي هذا الذي يتلوه عليكم ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ أي حيّ القلب ؛ قاله قتادة . الضحاك : عاقلا . وقيل : المعنى لتنذر من كان مؤمنا في علم الله . هذا على قراءة التاء خطابا للنبيّ عليه السلام، وهي قراءة نافع وٱبن عامر . وقرأ الباقون بالياء على معنى لينذر الله عزّ وجل، أو لينذر محمد صلى الله عليه وسلم، أو لينذر القرآن . وروى عن ٱبن السَّمَيْقَع « لِيَنْذَرَ » بفتح الياء والذال . ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي وتجب الحجة بالقرآن على الكفرة .

قوله تعـالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣)

قوله تعـالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ ﴾ هذه رؤية القلب ؛ أي أولم ينظروا ويعتبروا ويتفكروا . ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ أي مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة . و « ما » بمعنى الذي وحذفت الهاء لطول الآسم ، وإن جعلت « ما » مصدرية لم تحتج إلى إضمار الهاء . ﴿ أَنْعَامًا ﴾ جمع نعم والنعم مذكر . ﴿ فَهُمْ لَهَـا مَالِكُونَ ﴾ ضابطون قاهرون . ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾ أي سخرناها لهم حتى يقود الصبيّ الجمل العظيم ويضربه ويصرّفه كيف شاء لا يخرج من طاعته . ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ قراءة العامة بفتح الراء ؛ أي مركوبهم ، كما يقال ناقة

حَلوب أى محلوب . وقرأ الأعمش والحسن وآبن السَّمَيْقَع « فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ » بضم الراء على المصدر . وروى عن عائشة أنها قرأت « فَمِنْهَا رَكُوبَتُهُمْ » وكذا فى مصحفها والرَّكُوب والرَّكُوبة واحد مثل الحَلوب والحَلوبة والحَمول والحَمولة . وحكى النحويون الكوفيون : أن العرب تقول آمرأة صَبور وشَكور بغير هاء . ويقولون شاة حَلوبة وناقة رَكوبة ؛ لأنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان له الفعل وبين ما كان الفعل واقعا عليه ، فحذفوا الهاء مما كان فاعلا وأثبتوها فيما كان مفعولا ؛ كما قال[1] :

فيها آثنتان وأربعون حَلُوبَةً * سودًا كخافيةِ الغرابِ الأسْحَمِ

فيجب أن يكون على هذا رَكوبتهم . فأما البصريون فيقولون حذفت الهاء على النسب . والحجة للقول الأول ما رواه الجرمى عن أبى عبيدة قال : الرَّكُوبة تكون للواحد والجماعة والرَّكُوب لا يكون إلا للجماعة . فعلى هذا يكون لتذكير الجمع . وزعم أبو حاتم : أنه لا يجوز «فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ» بضم الراء لأنه مصدر ؛ والرَّكُوب ما يركب . وأجاز الفرّاء « فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ » بضم الراء كما تقول فمنها أكلهم ومنها شربهم . ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ من لحمانها ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها وشحومها ولحومها وغير ذلك . ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ يعنى ألبانها ؛ ولم ينصرفا لأنهما من الجموع التى لا نظير لها فى الواحد . ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ الله على نعمه .

قوله تعالى : وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً ﴾ أى قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا ، ثم آتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل . ﴿لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أى لما يرجون من نصرتها

(١) هو عنترة بن شدّاد .

لهم إن نزل بهم عذاب . ومن العرب من يقول لعله أن يفعل . ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعنى الآلهة . وجمعوا بالواو والنون ؛ لأنه أخبر عنهم بخبر الآدميين . ﴿وَهُمْ﴾ يعنى الكفار ﴿لَهُمْ﴾ أى للآلهة، ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ قال الحسن : يمنعون منهم ويدفعون عنهم، وقال قتادة : أي يغضبون لهم فى الدنيا . وقيل : المعنى أنهم يعبدون الآلهة ويقومون بها، فهم لها بمنزلة الجند وهى لا تستطيع أن تنصرهم . وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى . وقيل : إن الآلهة جند للعابدين محضرون معهم فى النار، فلا يدفع بعضهم عن بعض . وقيل : معناه وهذه الأصنام لهؤلاء الكفار جند الله عليهم فى جهنم ؛ لأنهم يلعنونهم ويتبرءون من عبادتهم . وقيل : الآلهة جند لهم محضرون يوم القيامة لإعانتهم فى ظنونهم . وفى الخبر : إنه يمثّل لكل قوم ما كانوا يعبدونه فى الدنيا من دون الله فيتبعونه إلى النار ، فهم لهم جند محضرون .

قلت : ومعنى هذا الخبر ما ثبت فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة، وفى الترمذى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يجمع اللهُ الناس يوم القيامة فى صعيد واحد ثم يَطَّلِع عليهم ربُّ العالمين فيقولُ أَلَا لِيتبعْ كلُّ إنسانٍ ما كان يعبد فيُمثَّل لصاحب الصّليب صليبُه ولصاحب التصاوير تصاويرُه ولصاحب النار نارُه فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون" وذكر الحديث بطوله . ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ هذه اللغة الفصيحة . ومن العرب من يقول يُحْزِنك . والمراد تسلية نبيه عليه السلام أى لا يحزنك قولهم شاعر ساحر . وتم الكلام ثم استأنف فقال : ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من القول والعمل وما يظهرون فنجازيهم بذلك .

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧)﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ قال ابن عباس : الإنسان هو عبد الله بن أُبَيّ . وقال سعيد بن جبير : هو العاص بن وائل السَّهْمى . وقال الحسن : هو أُبَيّ بن خلف الجُمَحى

وقاله ابن إسحق، ورواه ابن وهب عن مالك . ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهو اليسير من الماء؛ نطف إذا قطر . ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أى مجادل فى الخصومة مبين للحجة . يريد بذلك أنه صار بعد أن لم يكن شيئا مذكورا خصيما مبينا . وذلك أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم بعظم حائل فقال : يامحمد أترى أن الله يحيى هذا بعد ما رَمَّ ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " نعم ويبعثك الله ويدخلك النار " فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أى ونسى أنا أنشأناه من نطفة ميتة فركبنا فيه الحياة . أى جوابه من نفسه حاضر؛ ولهذا قال عليه السلام : " نعم ويبعثك الله ويدخلك النار " ففى هذا دليل على صحة القياس؛ لأن الله جل وعز احتج على منكرى البعث بالنشأة الأولى . « قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » أى بالية . رَمَّ العظمُ فهو رَمِيمٌ ورِمَام . وإنما قال رميم ولم يقل رميمة؛ لأنها معدولة عن فاعلة؛ وما كان معدولا عن وجهه ووزنه كان مصروفا عن إعرابه؛ كقوله : « وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا » أسقط الهاء؛ لأنها مصروفة عن باغية . وقيل : إن هذا الكافر قال للنبى صلى الله عليه وسلم : أرأيت إن سحقتها وأذريتها فى الريح أيعيدها الله ! فنزلت ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى من غير شيء فهو قادر على إعادتها فى النشأة الثانية من شيء وهو عَجْم الذَّنَب . ويقال عَجْبُ الذَّنَب بالباء . ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أى كيف يبدئ ويعيد .

الثانيـــة — في هذه الآية دليل على أن في العظام حياة وأنها تنجس بالموت ، وهو قول أبي حنيفة[1] و بعض أصحاب الشافعي . وقال الشافعي رضي الله عنه : لاحياة فيها . وقد تقدم هـذا في « النحل » . فإن قيل أراد بقوله : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ » أصحاب العظام، وإقامة المضاف مقام المضاف إليه كثير في اللغة، موجود في الشريعة . قلنا : إنما يكون إذا احتيج لضرورة وليس هاهنا ضرورة تدعو إلى هذا الإضمار، ولا يفتقر إلى هذا التقدير، إذ الباري سبحانه قد أخبر به وهو قادر عليه والحقيقة تشهد له ؛ فإن الإحساس الذي هو علامة الحياة موجود فيه ؛ قاله ابن العربي .

قوله تعالى : ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ نبه تعالى على وحدانيته، ودل على كمال قدرته في إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج المحرق اليابس من العود الندي الرطب . وذلك أن الكافر قال : النطفة حارة رطبة بطبع الحياة تخرج منها الحياة، والعظم بارد يابس بطبع الموت فكيف تخرج منه الحياة. فأنزل الله تعالى: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا » أي إن الشجر الأخضر من الماء والماء بارد رطب ضد النار وهما لا يجتمعان، فأخرج الله منه النار فهو القادر على إخراج الضد من الضد ، وهو على كل شيء قدير. ويعني بالآية

---

(١) هـذا يخالف مذهب الحنفية وما تقدم للؤلف في جـ ١٠ ص ١٥٥ من أن أبا حنيفة يقول بطهارة عظم الميتـــة .

ما في المَرْخ والعَفار، وهي زنادة العرب؛ ومنه قولهم: في كل شجر نار واستَمْجَدَ المَرْخُ والعَفارُ؛ فالعَفار الزَّنْد وهو الأعلى، والمَرْخ الزَّنْدة وهي الأسفل؛ يؤخذ منهما غصنان مثل المسواكين يقطران ماء فيحك بعضُهما إلى بعض فتخرج منهما النار. وقال: «مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ» ولم يقل الخضراء وهو جمع، لأنه رده إلى اللفظ. ومن العرب من يقول: الشجر الخضراء؛ كما قال عز وجل: «مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ». ثم قال تعالى محتجا: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أي أمثال المنكرين للبعث. وقرأ سلّام أبو المنذر و يعقوب الحضرمي «يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ» على أنه فعل. ﴿ بَلَى ﴾ أي إن خلق السموات والأرض أعظم من خلقهم؛ فالذي خلق السموات والأرض يقدر على أن يبعثهم. ﴿ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ وقرأ الحسن باختلاف عنه «الْخَالِقُ».

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ قرأ الكسائي «فَيَكُونَ» بالنصب عطفا على «يقول» أي إذا أراد خلق شيء لا يحتاج إلى تعب ومعالجة. وقد مضى هذا في غير موضع. ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ نزّه نفسه تعالى عن العجز والشرك. ومَلَكوتُ ومَلَكُوتَى في كلام العرب بمعنى ملك. والعرب تقول: جَبَرُوتَى خيرٌ من رَحَمُوتَى. وقال سعيد عن قتادة: «مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ» مفاتح كل شيء. وقرأ طلحة بن مصرِّف و إبراهيم التيمي والأعمش «مَلَكَةُ» وهو بمعنى ملكوت إلا أنه خلاف المصحف. ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي تردّون وتصيرون بعد مماتكم. وقراءة العامة بالتاء على الخطاب. وقرأ السُّلَمِيّ و زرّ بن حُبَيش وأصحاب عبد الله «يَرْجِعُونَ» بالياء على الخبر.

---

(١) استمجد المرخ والعفار: أي استكثرا وأخذا من النار ما هو حسبهما. وهو مثل يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض.

تفسير سورة الصافات

مكية فى قول الجميع

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَـٰرِقِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا . فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هذه قراءة أكثر القراء . وقرأ حمزة بالإدغام فيهنّ . وهذه القراءة التى نفر منها أحمد بن حنبل لما سمعها . النحاس : وهى بعيدة فى العربية من ثلاث جهات ؛ إحداهن أن التاء ليست من مخرج الصاد ، ولا من مخرج الزاى ، ولا من مخرج الذال ، ولا من أخواتهن ، وإنما أختاها الطاء والدال ، وأخت الزاى الصاد والسين ، وأخت الذال الظاء والثاء . والجهة الثانية أن التاء فى كلمة وما بعدها فى كلمة أخرى . والجهة الثالثة أنك إذا أدغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين ، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين فى مثل هذا إذا كانا فى كلمة واحدة نحو دابّة وشابّة . ومجاز قراءة حمزة أن التاء قريبة المخرج من هذه الحروف . « والصَّافَّاتِ » قسم ؛ الواو بدل من الباء . والمعنى بربّ الصافات « وَالزَّاجِرَاتِ » عطف عليه . ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب القسم . وأجاز الكسائى فتح إن فى القسم والمراد بـ « الصافاتِ » وما بعدها إلى قوله : « فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا » الملائكة فى قول ابن عباس وابن مسعود وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة . تصفّ فى السماء كصفوف الخلق فى الدنيا للصلاة . وقيل : تصفّ أجنحتها فى الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله بما يريد . وهذا كما تقوم العبيد بين أيدى ملوكهم صفوفا . وقال الحسن : « صَفًّا » لصفوفهم عند ربهم فى صلاتهم . وقيل : هى الطير ؛ دليله قوله

تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ » . والصفّ ترتيب الجمع على خط كالصفّ فى الصلاة . « والصَّافَّاتِ » جمع الجمع ؛ يقال : جماعة صافة ثم يجمع صافّات . وقيل : الصافّات جماعة الناس المؤمنين إذا قاموا صفّا فى الصلاة أو فى الجهاد ؛ ذكره القشيرى . « فَالزَّاجِرَاتِ » الملائكة فى قول ابن عباس وابن مسعود ومسروق وغيرهم على ما ذكرناه . إما لأنها تزجر السحاب وتسوقه فى قول السدّى . وإما لأنها تزجر عن المعاصى بالمواعظ والنصائح . وقال قتادة : هى زواجر القرآن . « فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا » الملائكة تقرأ كتاب الله تعالى ؛ قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جبير والسدى . وقيل : المراد جبريل وحده فذكر بلفظ الجمع ؛ لأنه كبير الملائكة فلا يخلو من جنود وأتباع . وقال قتادة : المراد كل من تلا ذكر الله تعالى وكتبه . وقيل : هى آيات القرآن وصفها بالتلاوة كما قال تعالى : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ » . ويجوز أن يقال لآيات القرآن تاليات ؛ لأن بعض الحروف يتبع بعضا ؛ ذكره القشيرى . وذكر الماوردى أن المراد بالتاليات الأنبياء يتلون الذكر على أممهم . فإن قيل : ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة فى الصفات ، قيل له : إما أن تدل على ترتب معانيها فى الوجود ؛ كقوله[1] :

يَالَهْفَ زَيَّابَةَ[1] لِلحارِثِ الصَّـ * ـابِحِ فَالغَانِمِ فَالآيِبِ

كأنه قال : الذى صبّح فغنم فآب . وإما على ترتبها فى التفاوت من بعض الوجوه كقولك : خذ الأفضل فالأكمل ، واعمل الأحسن فالأجمل . وإما على ترتب موصوفاتها فى ذلك كقوله : رحم الله المحلّقين فالمقصّرين . فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة فى الصفات ؛ قاله الزمخشرى . « إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ » جواب القسم . قال مقاتل : وذلك أن الكفار بمكة قالوا أجعل الآلهة إلها واحدا ، وكيف يسع هذا الخلق فرد إله ! فأقسم الله بهؤلاء تشريفا .

---

(١) هو سلمة بن ذهل ويعرف بابن زيابة وزيابة أبوه ، وقيل اسم أمه . يقول يالهف أبى على الحرث إذ صبح قومى بالغارة فغنم وآب سالما ألا أكون لقيته فقتلته . ويريد يالهف نفسى . والحرث هو الحرث بن همام الشيبانى كما فى شرح أشعار الحماسة . وبعد هذا البيت :

والله لو لاقيته خاليا * لآب سيفانا مع الغالب

ونزلت الآية . قال ابن الأنبارى : وهو وقف حسن، ثم تبتدئ ﴿رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على معنى هو رب السموات . النحاس : ويجوز أن يكون «رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ» خبرا بعد خبر، ويجوز أن يكون بدلا من « وَاحِدٌ » .

قلت : وعلى هذين الوجهين لا يوقف على «لَوَاحِدٌ» . وحكى الأخفش «رَبَّ السَّمٰوَاتِ — وَرَبَّ الْمَشَارِقِ » بالنصب على النعت لاسم إن . بيّن سبحانه معنى وحدانيته وألوهيته وكمال قدرته بأنه « رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى خالقهما ومالكهما ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أى مالك مطالع الشمس . ابن عباس : للشمس كل يوم مشرق ومغرب؛ وذلك أن الله تعالى خلق للشمس ثلثمائة وخمسة وستين كوّة فى مطلعها، ومثلها فى مغربها على عدد أيام السنة الشمسية، تطلع فى كل يوم فى كوة منها، وتغيب فى كوة، لا تطلع فى تلك الكوة إلا فى ذلك اليوم من العام المقبل . ولا تطلع إلا وهى كارهة فتقول : ربّ لا تطلعنى على عبادك فانى أراهم يعصونك . ذكره أبو عمر فى كتاب التمهيد ، وابن الأنبارى فى كتاب الرد عن عكرمة ؛ قال : قلت لابن عباس أرأيت ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فى أميّة بن أبى الصّلت "آمن شعره وكفر قلبه" قال : هو حق فما أنكرتم من ذلك ؟ قلت : أنكرنا قوله :

والشمسُ تطلُعُ كلَّ آخِرِ ليلةٍ * حمراءَ يُصبِحُ لونُها يتوَرَّدُ
ليست بطالعةٍ لَهُم فى رِسْلِها * إلّا مُعَذَّبةً وإلّا تُجْلَدُ

ما بال الشمس تُجْلَد؟ فقال : والذى نفسى بيده ما طلعت شمس قط حتى ينخسها سبعون ألف ملك، فيقولون لها اطلُعى اطلُعى، فتقول لا أطلُع على قوم يعبدوننى من دون الله، فيأتيها ملَك فيستقلّ لضياء بنى آدم ، فيأتيها شيطان يريد أن يصدّها عن الطلوع فتطلعُ بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها، فذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما طلعت إلا بين قرنى شيطان ولا غربت إلا بين قرنى شيطان وما غربت قط إلا خرّت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدّها عن السجود فتغرُب بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها" لفظ ابن الأنبارى . وذكر

عن عِكرمة عن ابن عباس قال : صدّق رسول الله صلى الله عليه وسلم أمية بن أبى الصلت فى هذا الشعر :

زُحَلٌ وثَوْرٌ تحتَ رِجلِ يمينه * والنسر للأخرى وليثٌ مُرْصَدُ
والشمسُ تَطلُع كلَّ آخرِ ليلةٍ * حمراءَ يُصبِحُ لونُها يَتَوَرَّدُ
ليست بطالعةٍ لهم فى رِسْلِها * إلّا مُعَذَّبَةً وإلّا تُجْلَدُ

قال عكرمة : فقلت لابن عباس يامولاى أتجلد الشمس؟ فقال : إنما اضطره الرَّوِىّ إلى الجلد لكنها تخاف العقاب . ودلّ بذكر المطالع على المغارب ؛ فلهذا لم يذكر المغارب ، وهو كقوله : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » . وخصّ المشارق بالذكر ؛ لأن الشروق قبل الغروب . وقال فى سورة « الرحمن » « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » أراد بالمشرقين أقصى مطلع تطلُع منه الشمس فى الأيام الطوال، وأقصر يوم فى الأيام القصار على ما تقدّم فى « يس » (١) والله أعلم .

قوله تعالى : إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ قال قتادة : خلقت النجوم ثلاثا؛ رجوما للشياطين، ونورا يهتدى بها ، وزينة لسماء الدنيا . وقرأ مسروق والأعمش والنَّخَعى وعاصم وحمزة « بِزِينَةٍ » مخفوض منوّن « الْكَوَاكِبِ » خفض على البدل من « زينة » لأنها هى . وقرأ أبو بكر كذلك إلا أنه نصب « الكواكبَ » بالمصدر الذى هو زينة . والمعنى بأن زينا الكواكب فيها . ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى ؛ كأنه قال : إنا زيناها « بِزِينة » أعنى « الكواكبَ » . وقيل : هى بدل من زينة على الموضع .

---

(١) راجع ص ٢٧ وما بعدها من هذا الجزء .

ويجوز « بِزِينَةِ الْكَوَاكِبُ » بمعنى بأن زينتها الكواكبُ . أو بمعنى هى الكواكبُ .
الباقون « بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ » على الإضافة . والمعنى زينا السماء الدنيا بتزيين الكواكب ،
أى بحسن الكواكب . ويجوز أن يكون كقراءة من نون إلا أنه حذف التنوين آستخفافا .
﴿ وَحِفْظًا ﴾ مصدر أى حفظناها حفظا . ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ لما أخبر أن الملائكة
تنزل بالوحى من السماء، بيّن أنه حرس السماء عن آستراق السمع بعد أن زيّنها بالكواكب .
والمارد العاتى من الجن والإنس، والعرب تسميه شيطانا .

قوله تعالى : ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى﴾ قال أبو حاتم : أى لئلا يسمعوا ثم حذف
أن فرفع الفعل . الملأ الأعلى أهل السماء الدنيا فما فوقها، وسمى الكل منهم أعلى بالإضافة إلى
ملإ الأرض . الضمير فى « يَسَّمَّعُونَ » للشياطين . وقرأ جمهور الناس « يَسْمَعُونَ » بسكون
السين وتخفيف الميم . وقرأ حمزة وعاصم فى رواية حفص « لا يَسَّمَّعُونَ » بتشديد السين
والميم من التسميع . فينتفى على القراءة الأولى سماعهم ، وإن كانوا يستمعون وهو المعنى
الصحيح . ويعضده قوله تعالى: « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ » . وينتفى على القراءة الأخيرة
أن يقع منهم آستماع أو سماع . قال مجاهد : كانوا يتسمّعون ولكن لا يسمعون . وروى
عن آبن عباس « لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ » قال : هم لا يسمّعون ولا يتسمعون . وأصل
«يَسَّمَّعُونَ» يتسمّعون فأدغمت التاء فى السين لقربها منها . وآختارها أبو عبيد؛ لأن العرب
لا تكاد تقول سمعت إليه وتقول تسمّعت إليه. ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ أى يُرمَون من
كل جانب؛ أى بالشّهب . ﴿ دُحُورًا ﴾ مصدر ؛ لأن معنى « يُقْذَفُونَ » يُدحَرون . دحرته
دَحْرًا ودُحُورا أى طردته . وقرأ السُّلَمى ويعقوب الحضرمى « دَحُورًا » بفتح الدال يكون
مصدرا على فَعول . وأما الفرّاء فإنه قدره على أنه آسم الفاعل . أى ويقذفون بما يدحرهم
أى بدحور ثم حذف الباء ؛ والكوفيون يستعملون هذا كثيرا [كما أنشدوا][1] :

* تَمُرُّونَ الديارَ ولَمْ تَعوجُوا *

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس . والبيت لجرير وتمامه :

* كلامكم على إذن حرام *

واختلف هل كان هذا القذف قبل المبعث ، أو بعده لأجل المبعث ؛ على قولين . وجاءت الأحاديث بذلك على ما يأتى من ذكرها فى سورة «الجن» عن ابن عباس . وقد يمكن الجمع بينهما أن يقال: إن الذين قالوا لم تكن الشياطين تُرمَى بالنجوم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم رميت؛ أى لم تكن تُرمَى رميا يقطعها عن السمع ، ولكنها كانت تُرمَى وقتا ولا تُرمَى وقتا ، وتُرمَى من جانب ولا تُرمَى من جانب . ولعل الإشارة بقوله تعالى: « وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » إلى هذا المعنى ، وهو أنهم كانوا لا يقذفون إلا من بعض الجوانب فصاروا يرمون واصبا . وإنما كانوا من قبل كالمتجسسة من الإنس ، يبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره ، ويَسلَم واحد ولا يَسلَم غيره ، بل يقبض عليه و يعاقب و ينكل . فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم زِيد فى حفظ السماء، وأعدت لهم شهب لم تكن من قبل؛ ليدحروا عن جميع جوانب السماء، ولا يقروا فى مقعد من المقاعد التى كانت لهم منها؛ فصاروا لا يقدرون على سماع شىء مما يجرى فيها، إلا أن يختطف أحد منهم بخفة حركته خطفة ، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض فيلقيها إلى إخوانه فيحرقه ؛ فبطلت من ذلك الكهانة وحصلت الرسالة والنبوّة . فإن قيل : إن هذا القذف إن كان لأجل النبوّة فلم دام بعد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فالجواب أنه دام بدوام النبوّة ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبر ببطلان الكهانة فقال : " ليس منا من تكهّن " فلو لم تحرس بعد موته لعادت الجنّ إلى تسمّعها، وعادت الكهانة . ولا يجوز ذلك بعد أن بطل، ولأن قطع الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوّة فعادت الكهانة دخلت الشبهة على ضعفاء المسلمين، ولم يُؤمَن أن يظنوا أن الكهانة إنما عادت لتناهى النبوّة، فصح أن الحكمة تقتضى دوام الحراسة فى حياة النبي عليه السلام، و بعد أن توفاه الله إلى كرامته صلى الله عليه وعلى آله . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أى دائم ؛ عن مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس : شديد . الكلبي والسدّى وأبو صالح : موجع؛ أى الذى يصل وجعه إلى القلب؛ مأخوذ من الوصب وهو المرض ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ استثناء من قوله : « وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ » . وقيل : الاستثناء يرجع إلى غير

الوحى ؛ لقوله تعالى : « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ » فيسترق الواحد منهم شيئا مما يتفاوض فيه الملائكة، مما سيكون فى العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض ؛ وهذا لخفة أجسام الشياطين فيرجمون بالشهب حينئذ . وروى فى هذا الباب أحاديث صحاح ، مضمّنها أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء، فتقعد للسمع واحدا فوق واحد، فيتقدّم الأجسر نحو السماء ثم الذى يليه ثم الذى يليه، فيقضى الله تعالى الأمر من أمر الأرض، فيتحدّث به أهل السماء فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فيلقيه إلى الذى تحته فربما أحرقه شهاب، وقد ألقى الكلام، وربما لم يحرقه على ما بيناه . فتنزل تلك الكلمة إلى الكهّان ، فيكذبون معها مائة كذبة ، وتصدق تلك الكلمة فيصدّق الجاهلون الجميع كما بيناه فى « الأنعام »[(1)] . فلما جاء الله بالإسلام حرست السماء بشدة ، فلا يفلت شيطان سمع بتة . والكواكب الراجمة هى التى يراها الناس تنقضّ . قال النقاش ومكى : وليست بالكواكب الجارية فى السماء ؛ لأن تلك لا ترى حركتها ، وهذه الراجمة ترى حركتها ؛ لأنها قريبة منا . وقد مضى فى هذا الباب فى سورة « الحجر »[(2)] من البيان ما فيه كفاية . وذكرنا فى « سبإ »[(3)] حديث أبى هريرة . وفيه "والشياطين بعضهم فوق بعض" وقال فيه الترمذى حديث حسن صحيح . وفيه عن ابن عباس : "ويختطف الشياطين السمع فيُرمَون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يحرّفونه ويزيدون" . قال هذا حديث حسن صحيح . والخطف أخذ الشيء بسرعة ؛ [يقال][(4)] خَطَفَ وخَطِفَ وخَطَّفَ وخِطَّفَ وخِطِّفَ . والأصل فى المشدّدات اختطف فأدغم التاء فى الطاء ؛ لأنها أختها وفتحت الخاء ؛ لأن حركة التاء ألقيت عليها . ومن كسرها فلالتقاء الساكنين . ومن كسر الطاء أتبع الكسر الكسر . ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ أى مضيء ؛ قاله الضحاك والحسن وغيرهما . وقيل : المراد كواكب النار تتبعهم حتى تسقطهم فى البحر . وقال ابن عباس فى الشهب : تحرقهم من غير موت . وليست الشهب التى يرجم الناس بها

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٩٦ طبعة أولى أو ثانية . (٤) زيادة يقتضيها السياق ، ويدل عليها ما فى إعراب القرآن للنحاس .

من الكواكب الثوابت . يدل على ذلك رؤية حركاتها ، والثابتة تجرى ولا ترى حركاتها لبعدها . وقد مضى هذا . وجمع شهاب شهب والقياس فى القليل أشهبة وإن لم يسمع من العرب . و « ثَاقِبٌ » معناه مضيء؛ قاله الحسن ومجاهد وأبو مِجْلَز . ومنه قوله :

* وزَنْدُكَ أَثْقَبُ أزنادِها *

أى أضوأ . وحكى الأخفش فى الجمع : شُهُبٌ ثُقُبٌ وثواقب وثقاب . وحكى الكسائى : ثَقَبَتِ النارُ تَثْقُب ثَقابةً وثُقوبا إذا ٱتقدت وأثقبتها أنا . وقال زيد بن أسلم فى الثاقب: إنه المستوقد؛ من قولهم: أَثْقِب زَنْدَك أى ٱستوقد نارَك . وقاله الأخفش . وأنشد قول الشاعر:

بينما المــرءُ شِهابٌ ثاقِبٌ * ضَرَبَ الدهرُ سَناه فَخَمَدْ

قوله تعالى : فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ أى سلهم يعنى أهل مكة ؛ مأخوذ من ٱستفتاء المفتى . ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴾ قال مجاهد: أى من خلقنا من السموات والأرض والجبال والبحار . وقيل: يدخل فيه الملائكة ومن سلف من الأمم الماضية . يدل على ذلك أنه أخبر عنهم «بمن» قال سعيد بن جبير : الملائكة . وقال غيره : « مَنْ » الأمم الماضية وقد هلكوا وهم أشدّ خلقا منهم . نزلت فى أبى الأشد بن كَلَدة، سمى بأبى الأشد لشدّة بطشه وقوّته . وسيأتى فى «البلد» ذكره . ونظير هذه « لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » وقوله « أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ » . ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ أى لاصق؛ قاله ٱبن عباس . ومنه قول علىّ رضى الله عنه :

تَعَلَّمْ فإنَّ اللهَ زادكَ بَسطةً * وأخلاقَ خيرٍ كلُّها لكَ لازِبُ

وقال قتادة وآبن زيد : معنى « لَازِبٍ » لازق . الماوردي : والفرق بين اللّاصق واللّازق أن اللّاصق هو الذى قد لصق بعضه ببعض ، واللّازق هو الذى يلتزق بما أصابه . وقال عِكرمة : « لَازِبٍ » لزج . سعيد بن جبير : أى جيد حرّ يلصق باليد . مجاهد « لازب » لازم . والعرب تقول : طينٌ لازِب ولازِم ، تبدل الباء من الميم . ومثله قولهم لاتِب ولازِم على إبدال الباء بالميم . واللازب الثابت ؛ تقول : صار الشيءُ ضربةَ لازِبٍ ، وهو أفصح من لازم . قال النابغة :

ولا تَحْسَبونَ الخيرَ لا شَرَّ بعدَهُ * ولا تَحْسَبونَ الشرَّ ضربةَ لَازِبِ

وحكى الفرّاء عن العرب : طين لاتِبٌ بمعنى لازِم . واللاتِب الثابت؛ تقول منه : لَتَبَ يَلْتُبُ لَتْبًا ولُتُوبا ، مثل لَزَبَ يَلْزُب بالضم لزوبا ؛ وأنشد أبو الجرّاح فى اللّاتِب :

فإن يَكُ هـذا من نَبيذٍ شَرِبْتُهُ * فإنّى من شُرْبِ النَّبيذِ لَتَائِبُ

صُداعٌ وتَوْصِيمُ العِظَامِ وفَتْرَةٌ * وغَمٌّ مع الإشْراقِ فى الجَوْفِ لَاتِبُ (١)

واللّاتِب أيضا اللّاصق مثل اللّازب ، عن الأصمعى حكاه الجوهرى . وقال السدّى والكلبى فى اللّازب : إنه الخالص . مجاهد والضحاك : إنه المنتن .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم بفتح التاء خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ أى بل عجبت مما نزل عليك من القرآن وهم يسخرون به . وهى قراءة شُرَيح و[أنكر قراءة الضم وقال :] (٢) إن الله لا يعجب من شىء ، وإنما يعجب من لا يعلم . وقيل : المعنى بل عجبت من إنكارهم للبعث . وقرأ الكوفيون إلا عاصما بضم التاء ، وآختارها أبو عبيد والفرّاء وهى مروية عن علىّ وآبن مسعود ؛ رواها شعبة عن الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ « بَلْ عَجِبْتُ » بضم التاء . ويروى عن آبن عباس . قال الفرّاء فى قوله سبحانه : « بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ » قرأها الناس بنصب

---

(١) قوله : وغم مع الإشراق كرواية اللسان . ورواية الطبرى : وغَنّى مع الإشراق .

(٢) الزيادة من تفسير الألوسى .

التاء ورفعها والرفع أحبّ إلىّ؛ لأنها عن علىّ وعبد الله وآبن عباس. وقال أبو زكريا الفرّاء: العجب إن أسند إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد، وكذلك قوله: «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» ليس ذلك من الله كمعناه من العباد. وفى هذا بيان الكسر لقول شُرَيْح حيث أنكر القراءة بها. روى جرير والأعمش عن أبى وائل شَقِيق بن سَلَمة قال: قرأها عبد الله يعنى آبن مسعود «بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ» قال شريح: إن الله لا يعجب من شىء إنما يعجب من لا يعلم. قال الأعمش: فذكرته لإبراهيم فقال: إن شُرَيْحًا كان يعجبه رأيه، إن عبد الله كان أعلم من شُرَيْح وكان يقرؤها عبد الله «بَلْ عَجِبْتُ». قال الهَرَوِىّ: وقال بعض الأئمة معنى قوله: «بَلْ عَجِبْتُ» بل جازيتهم على عجبهم؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم فى غير موضع بالتعجب من الحق؛ فقال: «وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ» وقال: «إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ». «أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ» فقال تعالى: «بَلْ عَجِبْتُ» بل جازيتهم على التعجب.

قلت: وهذا تمام معنى قول الفرّاء وآختاره البيهقى. وقال علىّ بن سليمان: معنى القراءتين واحد التقدير قل يا محمد بل عجبت؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم مخاطب بالقرآن. النحاس: وهذا قول حسن وإضمار القول كثير. البيهقى: والأول أصح. المهدوى: ويجوز أن يكون إخبار الله عن نفسه بالعجب محمولا على أنه أظهر من أمره وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين؛ كما يُحمَل إخباره تعالى عن نفسه بالضحك لمن يرضى عنه — على ما جاء فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم — على أنه أظهر له من رضاه عنه ما يقوم له مقام الضحك من المخلوقين مجازا وآتساعا. قال الهروىّ: ويقال معنى "عَجِبَ رَبُّكُمْ" أى رضى وأثاب فسماه عجبا وليس بعجب فى الحقيقة؛ كما قال تعالى: «وَيَمْكُرُ اللَّهُ» معناه ويجازيهم الله على مكرهم، ومثله فى الحديث "عَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ إِلِّكُمْ وقُنُوطكم". وقد يكون العجب بمعنى وقوع ذلك العمل عند الله عظيما. فيكون معنى قوله: «بل عجبت» أى بل عظم فعلهم عندى. قال البيهقى: ويشبه أن يكون هذا معنى حديث عقبة بن عامر قال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " عجب ربك من شاب ليست له صبوة " وكذلك ماخرجه البخارى عن [أبى هريرة(١) عن النبى صلى الله عليه وسلم قال "عجب الله من قوم يدخلون الجنة فى السلاسل "] قال البيهق : وقد يكون هذا الحديث وما ورد من أمثاله أنه يُعجِّب ملائكته من كرمه ورأفته بعباده، حين حملهم على الإيمان به بالقتال والأسر فى السلاسل ، حتى إذا آمنوا أدخلهم الجنة . وقيل : معنى « بَلْ عَجِبْتُ » بل أنكرت . حكاه النقاش . وقال الحسين بن الفضل: التعجب من الله إنكار الشيء وتعظيمه وهو لغة العرب . وقد جاء فى الخبر " عجب ربكم من إلكم وقنوطكم " . ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ قيل : الواو واو الحال أى عجبت منهم فى حال سخريتهم . وقيل : تم الكلام عند قوله : « بَلْ عَجِبْتَ » ثم آستأنف فقال : « وَيَسْخَرُونَ » أى مما جئت به إذا تلوته عليهم . وقيل : يسخرون منك إذا دعوتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا ﴾ أى وعظوا بالقرآن فى قول قتادة . ﴿ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ لا ينتفعون به . وقال سعيد بن جبير . أى إذا ذكر لهم ما حل بالمكذبين من قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا . ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ أى معجزة ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أى يسخرون فى قول قتادة. ويقولون إنها سحر . وآستسخر وسخر بمعنًى مثل آستقر وقر وآستعجب وعجب . وقيل: « يَسْتَسْخِرُونَ » أى يستدعون السخرى من غيرهم . وقال مجاهد : يستهزئون . وقيل : أى يظنون أن تلك الآية سخرية . ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أى إذا عجزوا عن مقابلة المعجزات بشيء قالوا هذا سحر وتخييل وخداع . ﴿ أَئِذَا مِتْنَا ﴾ أى أنبعث إذا متنا . فهو آستفهام إنكار منهم وسخرية ﴿ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ أى أو تبعث آباؤنا . دخلت ألف الآستفهام على حرف العطف . وقرأ نافع « أَوْ آبَاؤُنَا » بسكون الواو . وقد مضى هذا فى سورة «الأعراف»(٢) فى قوله تعالى : « أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى » .

---

(١) الزيادة من البخارى وفى الأصل بياض .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٥٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾ أى نعم تبعثون . ﴿ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أى صاغرون أذلاء ؛ لأنهم إذا رأوا وقوع ما أنكروه فلا محالة يذلون . وقيل : أى ستقوم القيامة وإن كرهتم ، فهذا أمر واقع على رغمكم و إن أنكرتموه اليوم بزعمكم . ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أى صيحة واحدة ؛ قاله الحسن وهى النفخة الثانية . وسميت الصيحة زجرة ؛ لأن مقصودها الزجر ؛ أى يزجر بها كزجر الإبل والخيل عند السَّوق . ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ قيام ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ أى ينظر بعضهم إلى بعض . وقيل : المعنى ينتظرون ما يفعل بهم . وقيل : هى مثل قوله : « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » . وقيل : أى ينظرون إلى البعث الذى أنكروه .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ نادوا على أنفسهم بالويل ؛ لأنهم يومئذ يعلمون ما حلّ بهم . وهو منصوب على أنه مصدر عند البصريين . وزعم الفرّاء أن تقديره يا وَىْ لنا و وَىْ بمعنى حُزْن . النحاس : ولو كان كما قال لكان منفصلا وهو فى المصحف متصل ، ولا نعلم أحدا يكتبه إلا متصلا . و « يَوْمُ الدِّينِ » يوم الحساب . وقيل : يوم الجزاء . ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ قيل : هو من قول بعضهم لبعض ، أى هذا اليوم الذى كذّبنا به . وقيل : هو من قول الله تعالى لهم . وقيل : من قول الملائكة ؛ أى هذا يوم الحكم بين الناس فيبين المحقّ من المبطل . فـ« فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » .

قوله تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا
عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم
مِّن سُلْطَٰنٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا
لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ
فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ
كَانُوٓا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ هو من قول الله تعالى للملائكة : « ٱحْشُرُوا » المشركين « وَأَزْوَاجَهُمْ » أى أشياعهم فى الشرك ، والشرك الظلم ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » فيحشر الكافر مع الكافر؛ قاله قتادة وأبو العالية . وقال عمر ابن الخطاب فى قول الله عز وجل : « ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » قال : الزانى مع الزانى ، وشارب الخمر مع شارب الخمر، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة . وقال ابن عباس : « وَأَزْوَاجَهُمْ » أى أشباههم . وهذا يرجع إلى قول عمر . وقيل : « وَأَزْوَاجَهُمْ » نساؤهم المرافقات على الكفر؛ قاله مجاهد والحسن ورواه النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب . وقال الضحاك : « وَأَزْوَاجَهُمْ » قرناءهم من الشياطين . وهذا قول مقاتل أيضا : يحشر كل كافر مع شيطانه فى سلسلة . ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللهِ ﴾ أى من الأصنام والشياطين وإبليس . ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ أى سوقوهم إلى النار . وقيل : « فَٱهْدُوهُمْ » أى دُلّوهم . يقال هديته إلى الطريق وهديته الطريق؛ أى دللته عليه . وأهديتُ الهدية وهَديتُ العروسَ، ويقال أهديتها ، أى جعلتها بمنزلة الهدية .

قوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ وحكى عيسى بن عمر « أَنَّهُمْ » بفتح الهمزة . قال الكسائى : أى لأنهم وبأنهم . يقال : وَقفتُ الدابةَ أقفها وَقْفا فوقفت هى وقوفا يتعدى ولا يتعدى ؛ أى ٱحبسوهم . وهذا يكون قبل السَّوق إلى الجحيم وفيه تقديم وتأخير،

أى قفوهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار . وقيل : يساقون إلى النار أولا ثم يحشرون للسؤال إذا قربوا من النار « إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ » عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم؛ قاله القرظى والكلبى . الضحاك : عن خطاياهم . ابن عباس : عن لا إله إلا الله . وعنه أيضا : عن ظلم الخلق . وفى هذا كله دليل على أن الكافر يحاسب . وقد مضى فى « الحِجْر »[1] الكلام فيه . وقيل سؤالهم أن يقال لهم « أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ » إقامة للحجة . ويقال لهم ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ على جهة التقريع والتوبيخ ؛ أى ينصر بعضكم بعضا فيمنعه من عذاب الله . وقيل : هو إشارة إلى قول أبى جهل يوم بدر « نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ » . وأصله تتناصرون فطرحت إحدى التاءين تخفيفا ، وشدّد البزّى التاء فى الوصل .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ قال قتادة : مستسلمون فى عذاب الله عز وجل . ابن عباس : خاضعون ذليلون . الحسن : منقادون . الأخفش : ملقون بأيديهم . والمعنى متقارب . ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ يعنى الرؤساء والأتباع ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ يتخاصمون . ويقال لا يتساءلون فسقطت لا . النحاس : وإنما غلط الجاهل باللغة فتوهم أن هذا من قوله « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » إنما هو لا يتساءلون بالأرحام ، فيقول أحدهم أسألك بالرحم الذى بينى و بينك لما نفعتنى أو أسقطت لى حقا لك علىّ أو وهبت لى حسنة . وهذا بيّن ؛ لأن قبله « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ » أى ليس ينتفعون بالأنساب التى بينهم كما جاء فى الحديث " إن الرجل ليسر بأن يصح له على أبيه أو على ابنه حق فيأخذه منه لأنها الحسنات والسيئات " . وفى حديث آخر " رحم الله امرءا كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فأتاه فاستحله قبل أن يطالبه به فيأخذ من حسناته فإن لم تكن له حسنات زيد عليه من سيئات المطالب " . و « يَتَسَاءَلُونَ » هاهنا إنما هو أن يسأل بعضهم بعضا و يوبخه فى أنه أضله أو فتح له بابا من المعصية ؛ يبين ذلك أن بعده ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قال مجاهد : هو قول الكفار للشياطين . قتادة : هو قول الإنس للجن . وقيل : هو من قول

(١) راجع جـ ١٠ ص ٦٠ طبعة أولى أو ثانية .

الأتباع للتبوعين : دليله قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ » الآية . قال سعيد عن قتادة : أى تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها . وعن ابن عباس نحو منه . وقيل : تأتوننا عن اليمين التى نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النصح . والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين وتسميه السانح . وقيل : « تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ » تأتوننا مجىء من إذا حلف لنا صدقناه . وقيل : تأتوننا من قبل الدين فتهونون علينا أمر الشريعة وتنفروننا عنها .

قلت : وهذا القول حسن جدا؛ لأن من جهة الدين يكون الخير والشر، واليمين بمعنى الدين. أى كنتم تزينون لنا الضلالة . وقيل : اليمين بمعنى القوة . أى تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر ؛ قال الله تعالى : « فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ » أى بالقوة وقوة الرجل فى يمينه ؛ وقال الشاعر:

إذا مَا رَايةٌ رُفِعتْ لمجدٍ * تلقّاها عَرابةُ باليمين

أى بالقوة والقدرة . وهذا قول ابن عباس . وقال مجاهد : « تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ » أى من قبل الحق أنه معكم . وكله متقارب المعنى . ﴿ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ قال قتادة : هذا قول الشياطين لهم . وقيل : من قول الرؤساء ؛ أى لم تكونوا مؤمنين قط حتى ننقلكم منه إلى الكفر ، بل كنتم على الكفر فأقمتم عليه للإلف والعادة . ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى من حجة فى ترك الحق . ﴿ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾ أى ضالين متجاوزين الحد . ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ﴾ هو أيضا من قول المتبوعين ؛ أى وجب علينا وعليكم قول ربنا، فكلنا ذائقو العذاب ، كما كتب الله وأخبر على ألسنة الرسل « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » . وهذا موافق للحديث " إن الله جلّ وعزّ كتب للنار أهلا وللجنة أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم " . ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴾ أى زينا لكم ما كنتم عليه من الكفر ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ بالوسوسة والاستدعاء . ثم قال خبرا عنهم : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ الضال والمضل . ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ أى مثل هذا الفعل ﴿ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ أى المشركين . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى إذا قيل لهم قولوا فأضمر القول .

و « يستكبرون » فى موضع نصب على خبر كان . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على أنه خبر إنّ وكان ملغاة . ولما قال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى طالب عند موته وآجتماع قريش "قولوا لا إله إلا الله تملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم" أبوا وأنفوا من ذلك . وقال أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "أنزل الله تعالى فى كتابه فذكر قوما آستكبروا فقال « إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ »" وقال تعالى: « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا » وهى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) آستكبر عنها المشركون يوم الحديبية يوم كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قضية المدّة . ذكر هذا الخبر البيهقى والذى قبله القشيرى .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ أى لقول شاعر مجنون، فردّ الله جل وعز عليهم فقال : ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴾ يعنى القرآن والتوحيد ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فيما جاءوا به من التوحيد . ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ الأصل لذائقون فحذفت النون آستخفافا وخفضت للإضافة . ويجوز النصب كما أنشد سيبويه :

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتِبٍ * وَلَا ذَاكِرِ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلَا

وأجاز سيبويه « والمقيمى الصَّلَاةَ » على هذا . ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى إلا بما عملتم من الشرك ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ آستثناء ممن يذوق العذاب . وقراءة أهل المدينة والكوفة « المخلَصين » بفتح اللام يعنى الذين أخلصهم الله لطاعته ودينه وولايته . الباقون بكسر اللام ؛ أى الذين أخلصوا لله العبادة . وقيل : هو آستثناء منقطع ؛ أى إنكم أيها المجرمون ذائقو العذاب لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ يعنى المخلصين ؛ أى لهم عطية معلومة لا تنقطع . قال قتادة : يعنى الجنة . وقال غيره : يعنى رزق الجنة . وقيل : هى الفواكه التى ذكر . قال مقاتل : حين يشتهونه . وقال آبن السائب : إنه بمقدار الغداة والعشىّ ؛ قال الله تعالى : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » . ﴿ فَوَاكِهُ ﴾ جمع فاكهة ؛ قال الله تعالى : « وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ » وهى الثمار كلها رطبها ويابسها ؛ قاله آبن عباس . ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ أى ولهم إكرام من الله جل وعز برفع الدرجات وسماع كلامه ولقائه . ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أى فى بساتين يتنعمون فيها . وقد تقدّم أن الجنان سبع فى سورة « يونس »(١) منها النعيم .

قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ قال عكرمة ومجاهد : لا ينظر بعضهم فى قفا بعض تواصلا وتحابيا . وقيل : الأسرة تدور كيف شاءوا فلا يرى أحد قفا أحد . وقال آبن عباس : على سرر مكللة بالدر والياقوت والزبرجد ؛ السرير ما بين صنعاء إلى الجابية ، وما بين عدن إلى أيلة . وقيل : تدور بأهل المنزل الواحد . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ لما ذكر مطاعمهم ذكر شرابهم . والكأس عند أهل اللغة آسم شامل لكل إناء مع شرابه ؛ فإن كان فارغا فليس بكأس . قال الضحاك والسدى : كل كأس فى القرآن فهى الخمر ، والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كأس ، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا إناء وقدح . النحاس : وحكى من يوثق به من أهل اللغة

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٩ وما بعدها طبعة أو أولى ثانية .

أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر كأس ، فإذا لم يكن فيه خمر فهو قدح؛ كما يقال للخِوان إذا كان عليه طعام مائدة، فإذا لم يكن عليه طعام لم تقل له مائدة . قال أبو الحسن ابن كيسان : ومنه ظعينة للهودج إذا كان فيه المرأة . وقال الزجاج : « بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ » أى من خمر تجرى كما تجرى العيون على وجه الأرض . والمعين الماء الجارى الظاهر . ﴿ بَيْضَاءَ ﴾ صفة للكأس . وقيل : للخمر . ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ قال الحسن : خمر الجنة أشد بياضا من اللبن . « لذة » قال الزجاج : أى ذات لذة فحذف المضاف . وقيل : هو مصدر جعل اسما أى بيضاء لذيذة ؛ يقال شراب لَذٌّ ولذيذ مثل نبات غَضٌّ وغضيض . فأما قول القائل[1] :

ولذٍ كطعم الصَّرْخَدِيِّ تركتُه * بأرض العِدا مِنْ خَشيةِ الحَدَثانِ

فإنه يريد النوم . وقيل : « بيضاء » أى لم يعتصرها الرجال بأقدامهم . ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أى لا تغتال عقولهم ، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع . ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ أى لا تذهب عقولهم بشربها ، يقال : الخمر غول للحِلْم ، والحرب غول للنفوس ؛ أى تذهب بها . ويقال : نُزِفَ الرجلُ يُنْزَف فهو منزوفٌ ونزيفٌ إذا سكر . قال امرؤ القيس :

وإذ هى تمشى كمشى النَّزيـ * ـفِ يَصْرَعُه بالكثيب البَهَرْ[2]

وقال أيضا :

نَزِيفٌ إذا قامتْ لِوجهٍ تمايلَتْ * تُراشِي الفؤادَ الرَّخْصَ ألّا تَخَتَّرا[3]

وقال آخر[4] :

فلثمتُ فاهَا آخذًا بقرونها * شُرْبَ النَّزِيفِ ببرد ماءِ الحَشْرَجِ

---

(١) هو الراعى . ويروى :

ولذ كطعم الصرخدى طرحته * عشية خمس القوم والعين عاشقه

والصرخد موضع ينسب اليه الشراب . أراد أنه لما دخل ديار أعدائه لم ينم حذارا لهم .

(٢) البهر : الكلال وانقطاع النفس . (٣) الخثر : ضعف يأخذ عند شراب الدواء أو السم . يقول : هى سكرى من الشراب ، اذا قامت به لوجه وجدت فتورا فى عظامها وكسلا ، فهى تدارى فؤادها وتراشيه ألا يعذبها فى مشيتها .

(٤) هو جميل بن معمر . وقيل البيت : لعمر بن أبى ربيعة . والحشرج نقرة فى الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو .

وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي من أنزف القومُ إذا حان منهم النَّزْف وهو السُّكر. يقال: أحصدَ الزرعُ إذا حان حَصادُه، وأقطفَ الكرمُ إذا حان قِطافُه، وأركبَ المهرُ إذا حان ركوبه. وقيل: المعنى لا ينفدون شرابهم؛ لأنه دأبهم؛ يقال: أنزف الرجلُ فهو منزوف إذا فنيت خمره. قال الحطيئة[1]:

لَعَمْـــرِى لئن أَنزفتمُ أو صَحَوْتُمُ * لبئس النَّدامَى كنتمُ آلَ أَبْجَرَا

النحاس: والقراءة الأولى أبين وأصح في المعنى؛ لأن معنى «يُنْزَفُونَ» عند جلّة أهل التفسير منهم مجاهد لا تذهب عقولهم، فنفى الله عز وجل عن خمر الجنة الآفات التي تلحق في الدنيا من خمرها من الصداع والسكر. ومعنى «يُنْزِفُونَ» الصحيح فيه أنه يقال: أنزف الرجل إذا نفد شرابه، وهو يبعد أن يوصف به شراب الجنة؛ ولكن مجازه أن يكون بمعنى لا ينفد أبدا. وقيل: «لَايُنْزِفُونَ» بكسر الزاي لا يسكرون؛ ذكره الزجاج وأبو علي على ما ذكره القشيري. المهدوي: ولا يكون معناه يسكرون؛ لأن قبله «لَا فِيهَا غَوْلٌ» أي لا تغتال عقولهم فيكون تكرارا؛ ويسوغ ذلك في «الواقعة». ويجوز أن يكون معنى «لَافِيهَا غَوْلٌ» لا يمرضون فيكون معنى «وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ» لا يسكرون أو لا ينفد شرابهم. قال قتادة: الغول وجع البطن. وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد «لَا فِيهَا غَوْلٌ» قال لا فيها وجع بطن. الحسن: صداع. وهو قول ابن عباس «لَا فِيهَا غَوْلٌ» لا فيها صداع. وحكى الضحاك عنه أنه قال: في الخمر أربع خصال؛ السكر والصداع والقيء والبول؛ فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال. مجاهد: داء. ابن كيسان: مغص. وهذه الأقوال متقاربة. وقال الكلبي: «لَا فِيهَا غَوْلٌ» أي إثم؛ نظيره «لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ». وقال الشعبي والسدي وأبو عبيدة: لا تغتال عقولهم فتذهب بها. ومنه قول الشاعر:

وما زالتِ الكأْسُ تغتالُنا * وتَذهبُ بالأولِ الأولِ

(١) نسبه الجوهري إلى الأبيردى. وأبجر هو أبجر بن جابر العجلي وكان نصرانيا.

أى تصرع واحدا واحدا . وإنما صرف الله تعالى السكر عن أهل الجنة لئلا ينقطع الالتذاذ عنهم بنعيمهم . وقال أهل المعانى : الغول فساد يلحق فى خفاء . يقال : آغتاله آغتيالا إذا أفسد عليه أمره فى خفية . ومنه الغول والغيلة وهو القتل خفية .

قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أى نساء قد قصرن طرفهنّ على أزواجهنّ فلا ينظرن إلى غيرهم؛ قاله آبن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغيرهم . عكرمة : « قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» أى محبوسات على أزواجهنّ . والتفسير الأوّل أبين؛ لأنه ليس فى الآية مقصورات ولكن فى موضع آخر «مقصورات» يأتى بيانه . و«قاصرات» مأخوذ من قولهم : قد آقتصر على كذا إذا آقتنع به وعدل عن غيره؛ قال آمرؤ القيس :

من القاصراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ * من الذَّرِّ فَوْقَ الإِتْبِ منها لأَثَّرا

ويروى : فوق الخد . والأوّل أبلغ . والإتب القميص ، والمحول الصغير من الذر . وقال مجاهد أيضا : معناه لا يَغَرْن . ﴿ عِينٌ ﴾ عظام العيون الواحدة عيناء ؛ وقاله السدى . مجاهد : « عِينٌ » حسان العيون . الحسن : الشديدات بياض العين الشديدات سوادها . والأوّل أشهر فى اللغة . يقال : رجل أعين واسع العين بيّن العَيَن والجمع عِين . وأصله فُعل بالضم فكسرت العين ؛ لئلا تنقلب الواو ياء . ومنه قيل لبقر الوحش عِين والثور أعين والبقرة عيناء . ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ أى مصون . قال الحسن وآبن زيد : شبهن ببيض النعام ، تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار ، فلونها أبيض فى صفرة وهو أحسن ألوان النساء . وقال آبن عباس وآبن جبير والسدى : شبهن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدى . وقال عطاء : شبهن بالسِّحاء الذى يكون بين القشرة العليا ولباب البيض . وسَحَاة كل شىء قشره والجمع سَحًا . قاله الجوهرى . ونحوه قول الطبرى؛ قال : هو القشر الرقيق الذى على البيضة بين ذلك . وروى نحوه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . والعرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها . قال آمرؤ القيس :

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها * تمتعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ

وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة: كأنه بيض النعام المغطّى بالريش
وقيـل : المكنون المصون عن الكسر أى إنهن عذارى . وقيـل : المراد بالبيض اللؤلؤ ؛
كقوله تعـالى : «وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ» أى فى أصـدافه . قاله ابن عباس
أيضا . ومنه قول الشاعر :

وهى بيضـاءُ مِثـلُ لُـؤْلُؤةِ الغـ * ـوّاصِ مِيزَتْ من جَوْهَرٍ مَكْنُونِ

وإنمـا ذكر المكنون والبيض جمع؛ لأنه ردّ النعت إلى اللفظ .

قوله تعـالى : فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ
مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا
مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾
فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾
وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾
إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾
لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى يتفاوضون فيما بينهم أحاديثهم فى الدنيا . وهو من تمـام الأنس فى الجنة . وهو معطوف على معنى « يُطَافُ عَلَيْهِمْ » المعنى يشربون فيتحادثون على الشّراب كعادة الشُّراب . قال بعضهم :

وما بَقِيتْ من اللّذاتِ إلّا * أحاديثُ الكِرامِ على المُـدامِ

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم فى الدنيا ؛ إلا أنه جىء به ماضيا على عادة الله تعالى فى إخباره .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ أى من أهل الجنة ﴿ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ أى صديق ملازم ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ أى بالبعث والجزاء . وقال سعيد بن جبير : قرينه شريكه . وقد مضى فى « الكهف » ذكرهما وقصتهما والاختلاف فى آسميهما مستوفى عند قوله تعالى : « وَآضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ »(1) وفيهما أنزل الله جل وعز « قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ » إلى « مِنَ الْمُحْضَرِينَ » وقيل : أراد بالقرين قرينه من الشيطان كان يوسوس إليه بإنكار البعث . وقرئ « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » بتشديد الصاد . رواه علىّ بن كيسة عن سليم عن حمزة . قال النحاس : ولا يجوز « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » لأنه لا معنى للصدقة هاهنا . وقال القشيرى : وفى قراءة عن حمزة « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » بتشديد الصاد وآعترض عليه بأن هذا من التصديق لا من التصدّق والاعتراض باطل؛ لأن القراءة إذا ثبتت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فلا مجال للطعن فيها . فالمعنى « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » بالمال طلبا فى ثواب الآخرة . ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أى مجزيون محاسبون بعد الموت فـ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى لأهل الجنة ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾ . وقيل : هو من قول المؤمن لإخوانه فى الجنة هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين . وقيل : هو من قول الملائكة . وليس « هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ » بآستفهام، إنما هو بمعنى الأمر أى آطلعوا؛ قاله آبن الأعرابى وغيره . ومنه لما نزلت آية الخمر، قام عمر قائما بين يدى النبىّ صلى الله عليه وسلم، ثم رفع رأسه إلى السماء، ثم قال : يا رب بيانا أشفى من هذا فى الخمر . فنزلت «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» قال : فنادى عمر آنتهينا يا ربنا آنتهينا يا ربنا . وقرأ آبن عباس : «هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ» بإسكان الطاء خفيفة « فَأُطْلِعَ » بقطع الألف مخففة على معنى هل أنتم مقبلون فأقبل . قال النحاس : « فَأُطْلِعَ فَرَآهُ » فيه قولان : أحدهما أن يكون فعلا مستقبلا معناه فأطلع أنا، ويكون منصوبا على أنه جواب الاستفهام . والقول الثانى أن يكون فعلا ماضيا ويكون آطّلع وأُطلِع واحدا . قال الزجاج : يقال طَلَع وأَطلَع وآطّلع بمعنى واحد . وقد حكى

« هَـلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونِ » بكسر النون وأنكره أبو حاتم وغيره . النحاس : وهو لحن لا يجوز ؛ لأنه جمع بين النون والإضافة ، ولو كان مضافا لكان هـل أنتم مُطْلِعِيّ ، وإن كان سيبويه والفراء قد حكيا مثله . وأنشدا :

هُمُ القـائلونَ الخيرَ والآمِرونَهُ ✱ إذا ما خَشَوا مِن مُحْدَثِ الأمرِ مُعْظَمَا

وأنشد الفراء : والفاعلونه . وأنشد سيبويه وحده :

✱ ولم يَرْتَفِق والناسُ مُحتَضِرونَهُ[(١)] ✱

وهذا شاذ خارج عن كلام العرب ، وما كان مثل هـذا لم يحتجّ به فى كتاب الله عز وجل ، ولا يدخل فى الفصيح . وقد قيل فى توجيهه : إنه أجرى آسم الفاعل مجرى المضارع لقربه منه ، بخرى «مُطْلِعُونِ» مجرى يطلعون . ذكره أبو الفتح عثمان بن جنى وأنشد :

أرأيتَ إن جئتُ به أُمْلُودَا ✱ مُرَجَّـلاً ويَلْبَسُ الـبُرُودَا

✱ أقائلُنَّ أَحضروا الشُّهُودَا[(٢)] ✱

فأجرى أقائلُنّ مجرى أتقولُن . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : «هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ . فَٱطَّلَعَ فَرَآهُ» إنّ فى الجنة كُوًى ينظر أهلها منها إلى النار وأهلها . وكذلك قال كعب فيما ذكر آبن المبارك ؛ قال : إن بين الجنـة والنار كُوًى ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له فى الدنيا آطلع من بعض الكُوَى . قال الله تعـالى : «فَٱطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَـوَاءِ الْجَحِيمِ» أى فى وسط النار والحَسَكُ حواليه ؛ قاله آبن مسعود . ويقال : تعبت حتى آنقطع سَوَائى . أى وسطى . وعن أبى عبيدة : قال لى عيسى بن عمر كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سَوَائى . وعن قتادة قال قال بعض العلماء : لولا أن الله جل وعز عرّفه إياه لمـا عرفه ، لقد تغيّر حِبْرُه وسِبْرُه[(٣)] . فعند ذلك يقول : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَـتُرْدِينِ ﴾ « إن » مخففة من الثقيلة دخلت على كاد كما

(١) تمـامه : ✱ جميعا وأيدى المعتفين رواهقه ✱
يقول : غشيه المعتفون وهم السائلون ، واحتضره الناس جميعا للعطاء ، فجلس لهم جلوس متصرف متبذل غير مرتفق .

(٢) وروى : أحضرى ؛ خطاب للمرأة ، وهو الوجه ، على ما أورده الرضى فى خزانة الأدب حيث قال : ورواه أحضروا بواو الجمع ولا وجه له . والرجز أورده السكرى فى أشعار هذيل لرجل منهم بلفظ : أقائلون أعجلى الشهودا .

(٣) الحبر والسبر : اللون والهيئة .

تدخل على كان . ونحوه «إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا» واللام هي الفارقة بينها وبين النافية . ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في النار . وقال الكسائي : « لَتُرْدِينِ » أي لتهلكني والردى الهلاك . وقال المبرد : لو قيل « لتردين » لتوقعني في النار لكان جائزا . «وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي» أي عصمته وتوفيقه بالاستمساك بعروة الإسلام والبراءة من القرين السوء . وما بعد لولا مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف . «لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ» قال الفراء : أي لكنت معك في النار محضرا . وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا في الشر، قاله الماوردي .

قوله تعالى : ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ وقرئ « بمائتين » والهمزة في « أفما » للاستفهام دخلت على فاء العطف، والمعطوف محذوف معناه أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين. ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ يكون استثناء ليس من الأول ويكون مصدرا؛ لأنه منعوت . وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يُذبح الموت ويقال : يأهل الجنة خلود ولا موت ويأهل النار خلود ولا موت . وقيل : هو من قول المؤمن على جهة الحديث بنعمة الله في أنهم لا يموتون ولا يعذبون . أي هذه حالنا وصفتنا . وقيل : هو من قول المؤمن توبيخا للكافر لما كان ينكره من البعث ، وأنه ليس إلا الموت في الدنيا . ثم قال المؤمن مشيرا إلى ما هو فيه ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يكون «هو» مبتدأ وما بعده خبر عنه والجملة خبر إن . ويجوز أن يكون «هو» فاصلا . ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون من كلام المؤمن لما رأى ما أعد الله له في الجنة وما أعطاه قال « لِمِثْلِ هَٰذَا » العطاء والفضل « فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » نظير ما قال له الكافر « أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا » . ويحتمل أن يكون من قول الملائكة . وقيل : هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا . أي قد سمعتم ما في الجنة من الخيرات والجزاء و « لِمِثْلِ هَٰذَا » الجزاء « فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » . النحاس : وتقدير الكلام ـــ والله أعلم ـــ فليعمل العاملون لمثل هذا؛ فإن قال قائل : الفاء في العربية تدل على أن الثاني بعد الأول ، فكيف صار ما بعدها يُنوى به التقديم ؟ فالجواب أن التقديم كمثل التأخير؛ لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة .

قوله تعالى : أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ مبتدأ وخبر وهو من قول الله جل وعز . ﴿ نُّزُلًا ﴾ على البيان؛ والمعنى أنعيم الجنة خير نزلا ﴿ أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾ خير نزلا . والنُّزُل فى اللغة الرزق الذى له سعة — النحاس — وكذا النُّزْل إلا أنه يجوز أن يكون النُّزْل بإسكان الزاى لغة، ويجوز أن يكون أصله النُّزُل ومنه أقيم للقوم نُزُلهم واشتقاقه أنه الغذاء الذى يصلح أن ينزلوا معه ويقيموا فيه . وقد مضى هذا فى آخر سورة « آل عمران »[1] وشجرة الزقوم مشتقة من التزقم وهو البلع على جهد لكراهتها ونتنها . قال المفسرون : وهى فى الباب السادس وأنها تحيا بلهب النار كما تحيا الشجرة ببرد الماء؛ فلا بد لأهل النار من أن ينحدر إليها من كان فوقها فيأكلون منها، وكذلك يصعد إليها من كان أسفل . واختلف فيها هل هى من شجر الدنيا التى تعرفها العرب أم لا على قولين — أحدهما أنها معروفة من شجر الدنيا . ومن قال بهذا اختلفوا فيها؛ فقال قطرب : إنها شجرة مرة تكون بتهامة من أخبث الشجر . وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل . القول الثانى : إنها لا تعرف فى شجر الدنيا . فلما نزلت هذه الآية فى شجرة الزقوم قالت كفار قريش : ما نعرف هذه الشجرة . فقدم عليهم رجل من إفريقية فسألوه فقال : هو عندنا الزُّبْد والتمر . فقال ابن الزِّبَعْرى : أكثر الله فى بيوتنا الزقوم . فقال أبو جهل لجاريته : زَقِّمينا ؛ فأتته بزبد وتمر . ثم قال لأصحابه : تزقَّموا؛ هذا الذى يخوفنا به محمد؛ يزعم أن النار تنبت الشجر والنار تحرق الشجر .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٢١ طبعة أولى أو ثانية

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى المشركين، وذلك أنهم قالوا : كيف تكون فى النار شجرة وهى تحرق الشجر ؟ وقد مضى هذا المعنى فى « سبحان »(١) واستخفافهم فى هذا كقولهم فى قوله تعالى : «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ» . ما الذى يخصص هذا العدد؟ حتى قال بعضهم : أنا أكفيكم منهم كذا فاكفونى الباقين . فقال الله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » والفتنة الاختبار، وكان هذا القول منهم جهلا، إذ لا يستحيل فى العقل أن يخلق الله فى النار شجرا من جنسها لا تأكله النار، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب وخزنة النار . وقيل : هذا الاستبعاد الذى وقع للكفار هو الذى وقع الآن للملحدة، حتى حملوا الجنة والنار على نعيم أو عقاب تتخلله الأرواح، وحملوا وزن الأعمال والصراط واللوح والقلم على معانى زوروها فى أنفسهم، دون ما فهمه المسلمون من موارد الشرع، وإذا ورد خبر الصادق بشىء موهوم فى العقل، فالواجب تصديقه وإن جاز أن يكون له تأويل، ثم التأويل فى موضع إجماع المسلمين على أنه تأويل باطل لا يجوز، والمسلمون مجمعون على الأخذ بهذه الأشياء من غير مصير الى علم الباطن . وقيل إنها فتنة أى عقوبة للظالمين، كما قال : « ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ أى قعر النار ومنها منشؤها ثم هى متفرعة فى جهنم . ﴿ طَلْعُهَا ﴾ أى ثمرها، سمى طلعا لطلوعه . ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ قيل : يعنى الشياطين بأعيانهم شبهها برءوسهم لقبحهم، ورءوس الشياطين متصور فى النفوس وإن كان غير مرئى . ومن ذلك قولهم لكل قبيح هو كصورة الشيطان، ولكل صورة حسنة هو كصورة ملك . ومنه قوله تعالى مخبرا عن صواحب يوسف : « مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » وهذا تشبيه تخييلى، روى معناه عن ابن عباس والقرظى . ومنه قول امرئ القيس :

* ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ(٢) *

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) أراد بالمسنونة الزرق سهاما محددة الأزجة صافية . وصدر البيت :

* أيقتلنى والمشرفى مضاجعى *

وإن كانت الغول لا تعرف؛ ولكن لما تصوّر من قبحها في النفوس . وقد قال الله تعالى : « شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » فمردة الإنس شياطين مرئية . وفي الحديث الصحيح " ولكأن نخلها رءوس الشياطين " وقد ادعى كثير من العرب رؤية الشياطين والغيلان . وقال الزجاج والفراء : الشياطين حيات لها رءوس وأعراف ؛ وهي من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها جسما . قال الراجز وقد شبه المرأة بحية لها عُرْف :

عَنْجَـــرِدٌ تَحْلِفُ حينَ أحلِفُ * كَمِثْـــلِ شيطانِ الحَمَاطِ أَعْرَفُ

الواحدة حَمَاطة والأعرف الذي له عُرْف . وقال الشاعر يصف ناقته :

تُلاعِبُ مَثْـــنَى حَضْرَمِيٍّ كأنّه * تَمَعُّجُ شيطانٍ بذي خِرْوِعٍ قَفْرِ

التمعّج الأعوجاج في السير، وسهم عَمُوج يتلوّى في ذهابه ، وتَمَعَّجت الحية إذا تلوت في سيرها . وقال يصف زمام الناقة[1] :

تُلاعِبُ مَثْـــنَى حَضْرَمِيٍّ كأنه * تَمَعُّجُ شيطانٍ بذي خِرْوِعٍ قَفْرِ

وقيل : إنما شبه ذلك بنبت قبيح في اليمن يقال له الأَسْتَن والشيطان . قال النحاس : وليس ذلك معروفا عند العرب . الزمخشري : هو شجر خشن منتن مرّ منكر الصورة يسمى ثمره رءوس الشياطين . النحاس : وقيل الشياطين ضرب من الحيات قباح . ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة . وقال في « الغاشية » « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ » وسيأتي . ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ أي بعد الأكل من الشجرة ﴿ لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴾ الشَّوب الخلط ، والشَّوب والشُّوب لغتان كالفَقر والفُقر والفتح أشهر . قال الفراء : شاب طعامه وشرابه إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوبا وشيابة . فأخبر أنه يشاب لهم . والحميم الماء الحار ليكون أشنع . قال الله تعالى : « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » . السدي : يشاب لهم الحميم بغسّاق أعينهم وصديد من قيحهم ودمائهم . وقيل يمزج لهم الزقوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم؛ تغليظا لعذابهم وتجديدا

(1) كذا في الأصل ولعل العبارة والبيت هنا تكرار مع ما سبق ، وصواب العبارة الأولى « قال الشاعر يصف زمام ناقته » بزيادة لفظ زمام .

لبلائهم . ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ قيل : إن هـذا يدل على أنهم كانوا حين أكلوا الزقوم فى عذاب غير النار ثم يردّون إليها . وقال مقاتل : الحميم خارج الجحيم فهم يوردون الحميم لشربه ثم يردّون إلى الجحيم ؛ لقوله تعالى : « هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » . وقرأ ٱبن مسعود « ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ » وقال أبو عبيدة : يجوز أن تكون « ثم » بمعنى الواو . القشيري : ولعل الحميم فى موضع من جهنم على طرف منها .

قوله تعالى : إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾ أى صادفوهم كذلك فٱقتدوا بهم . ﴿ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ أى يسرعون ؛ عن قتادة . وقال مجاهد : كهيئة الهرولة . قال الفراء : الإهراع الإسراع برعدة . وقال أبو عبيدة : « يُهْرَعُونَ » يُستحثّون من خلفهم . ونحوه قول المبرّد . قال : المُهْرَع المستحثّ ؛ يقال : جاء فلان يُهْرَع إلى النار إذا ٱستحثه البرد إليها . وقيل : يُزعَجون من شدّة الإسراع ؛ قاله الفضل . الزجاج : يقال هُرِع وأُهْرِع إذا ٱستحث وأزعج .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى من الأمم الماضية . ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ أى رسلا أنذروهم العذاب فكفروا . ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى آخر أمرهم . ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى الذين ٱستخلصهم الله من الكفر. وقد تقدّم (١) . ثم قيل : هو ٱستثناء من « المنذَرين » . وقيل هو من قوله تعالى : « وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ » .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ من النداء الذى هو الاستغاثة ؛ ودعا قيل بمسئلة هلاك قومه . فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً » . ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ قال الكسائى : أى « فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ » له كنّا . ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ يعنى أهل دينه ، وهم من آمن معه ، وكانوا ثمانين على ما تقدّم (١) . ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو الغرق . ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ قال ابن عباس : لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه ؛ فذلك قوله : « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » . وقال سعيد بن المسيّب : كان ولد نوح ثلاثة والناس كلهم من ولد نوح ؛ فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى ؛ وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب : السند والهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم ؛ ويافث أبو الصقالبة والترك [واللان] (٢) والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك . وقال قوم : كان لغير ولد نوح أيضا نسل ؛ بدليل قوله : « ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ » . وقوله : « قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ » فعلى هذا معنى الآية « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » دون ذرية من كفر فإنا أغرقنا أولئك .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٥ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) فى الأصول : «والأبر» ولعله تحريف إذ لا تعرف أمة من ولد يافث بهذا الاسم والذى ذكره المسعودى وغيره واللان من ولد يافث .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى تركنا عليه ثناء حسنا فى كل أمة ، فإنه محبب إلى الجميع؛ حتى إن فى المجوس من يقول إنه أفريدون . روى معناه عن مجاهد وغيره . وزعم الكسائى أن فيه تقديرين : أحدهما « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ » يقال «سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ» أى تركنا عليه هذا الثناء الحسن . وهذا مذهب أبى العباس المبرّد . أى تركنا عليه هذه الكلمة باقية؛ يعنى يسلمون عليه تسليما و يدعون له؛ وهو من الكلام المحكى؛ كقوله تعالى : « سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا » . والقول الآخر أن يكون المعنى وأبقينا عليه ؛ وتم الكلام ثم ابتدأ فقال : « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ » أى سلامة له من أن يذكر بسوء « فِي الْآخِرِينَ » . قال الكسائى : وفى قراءة ابن مسعود « سلاما » منصوب بـ« تركنا » . أى تركنا عليه ثناء حسنا سلاما . وقيل : « فِي الْآخِرِينَ » أى فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : فى الأنبياء إذ لم يبعث بعده نبى إلا أمر بالاقتداء به؛ قال الله تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا » . وقال سعيد ابن المسيب : و بلغنى أنه من قال حين يمسى «سلامٌ على نوحٍ فِي العالمين» لم تلدغه عقرب . ذكره أبو عمر فى التمهيد . وفى الموطأ عن خَوْلة بنت حكيم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من نزل منزلا فليقل أعوذ بكلمات الله التامّات من شر ما خلق فإنه لن يضره شيء حتى يرتحل" . وفيه عن أبى هريرة أن رجلا من أسلم قال : ما نمت هذه الليلة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أى شىء" فقال: لدغتنى عقرب؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما إنك لو قلت حين أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرّك" .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى نبقى عليهم الثناء الحسن . والكاف فى موضع نصب . أى جزاء كذلك . ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا بيان إحسانه . قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أى من كفر . وجمعه أُخر . والأصل فيه أن يكون معه «من» إلا أنها حذفت؛ لأن المعنى معروف، ولا يكون آخرا إلا وقبله شيء من جنسه . و« ثم » ليس للتراخى ها هنا بل هو لتعديد النعم؛ كقوله : «أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ . ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا » أى ثم أخبركم أنى قد أغرقت الآخرين، وهم الذين تأخروا عن الإيمان .

قوله تعالى : وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ قال ابن عباس : أى من أهل دينه . وقال مجاهد : أى على منهاجه وسنته . قال الأصمعى : الشيعة الأعوان ، وهو مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذى يوقد مع الكبار حتى يستوقد . وقال الكلبى والفراء : المعنى وإن من شيعة محمد لإبراهيم . فالهاء فى «شيعته» على هذا لمحمد عليه السلام . وعلى الأول لنوح وهو أظهر، لأنه هو المذكور أولا ، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان هود وصالح، وكان بين نوح و إبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة . حكاه الزمخشرى .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أى مخلص من الشرك والشك . وقال عوف الأعرابى : سألت محمد بن سيرين ما القلب السليم ؟ فقال : الناصح لله عز وجل فى خلقه . وذكر الطبرى عن غالب القطان وعوف وغيرهما عن محمد بن سيرين أنه كان يقول للحجاج : مسكين أبو محمد إن عذبه الله فبذنبه، وإن غفر له فهنيئا له ، وإن كان قلبه سليما فقد أصاب الذنوب من هو خير منه . قال عوف : فقلت لمحمد ما القلب السليم ؟ قال : أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة ، وأن الله يبعث من فى القبور . وقال هشام بن عروة : كان أبى يقول لنا : يا بَنِيّ لا تكونوا لعّانين، ألم تروا إلى إبراهيم لم يلعن شيئا قط ، فقال تعالى : « إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» . ويحتمل مجيئه إلى ربه وجهين: أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته، الثانى عند إلقائه فى النار . ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ وهو آزر وقد مضى الكلام[1] فيه . ﴿ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ تكون «ما» فى موضع رفع بالابتداء و«ذا» خبره . ويجوز أن تكون

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

«ما» و«ذا» فى موضع نصب بـ«تعبدون». ﴿أَئِفْكًا﴾ نصب على المفعول به بمعنى أتريدون إفكا. قال المبرّد: والإفك أسوأ الكذب، وهو الذى لا يثبت و يضطرب، ومنه ٱئتفكت بهم الأرض. ﴿آلِهَةً﴾ بدل من إفك ﴿دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ﴾ أى تعبدون. ويجوز أن يكون حالا بمعنى أتريدون آلهة من دون الله آفكين. ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى ما ظنكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره فهو تحذير، مثل قوله: «مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ». وقيل: أى شيء أوهمتموه حتى أشركتم به غيره.

قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قال ٱبن زيد عن أبيه: أرسل إليه ملكهم إن غدًا عيدُنا فاخرج معنا، فنظر إلى نجم طالع فقال: إن هذا يطلع مع سقمى. وكان علم النجوم مستعملا عندهم منظورا فيه، فأوهمهم هو من تلك الجهة، وأراهم من معتقدهم عذرا لنفسه؛ وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظر فى النجوم. وقال ٱبن عباس: كان علم النجوم من النبوة، فلما حبس الله تعالى الشمس على يوشع بن نون أبطل ذلك، فكان نظر إبراهيم فيها علمًا نبويا. وحكى جُوَيبر عن الضحاك: كان علم النجوم باقيا إلى زمن عيسى عليه السلام، حتى دخلوا عليه فى موضع لا يطلع عليه منه، فقالت لهم مريم: من أين علمتم بموضعه؟ قالوا: من النجوم. فدعا ربه عند ذلك فقال: اللهم لا تفهمهم فى علمها، فلا يعلم علم النجوم أحد؛ فصار حكمها فى الشرع محظورا، وعلمها فى الناس مجهولا. قال الكلبى: وكانوا فى قرية بين البصرة والكوفة يقال لها هرمزجرد[1]، وكانوا ينظرون فى النجوم. فهذا قول. وقال الحسن: المعنى أنهم لما كلّفوه الخروج معهم تفكر فيما يعمل. فالمعنى على هذا أنه نظر فيما نجم له من الرأى؛ أى فيما طلع له منه، فعلم أن كل حىّ يسقم فقال: «إِنِّي سَقِيمٌ». الخليل والمبرد: يقال للرجل إذا فكر فى الشيء يدبّره نظر فى النجوم. وقيل: كانت الساعة التى دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعةً تغشاه فيها الحمّى. وقيل: المعنى فنظر فيما نجم من الأشياء فعلم أن لها خالقا

(١) ذكر هذا الاسم الطبرى فى تاريخه جـ ٢ ص ٣٤٦ طبعة ليدن م.

ومدبِّرا، وأنه يتغير كتغيرها فقال : « إِنِّي سَقِيمٌ » . وقال الضحاك : معنى « سَقِيمٌ » سأسقم سقم الموت؛ لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت، وهذا تورية وتعريض؛ كما قال للملك لما سأله عن سارة هي أختي؛ يعني أخوة الدين . وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك أيضا : أشار لهم إلى مرض وسقم يُعدي كالطاعون، وكانوا يهربون من الطاعون، « فـ » لذلك « تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ » أي فارّين منه خوفا من العدوى . وروى الترمذيّ الحكيم قال : حدثنا أبي قال حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط عن السديّ عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس . وعن سَمُرة عن الهَمْداني عن ابن مسعود قال قال أبو إبراهيم : إن لنا عيدا لو خرجت معنا لأعجبك ديننا . فلما كان يوم العيد خرجوا إليه وخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه، وقال إني سقيم أشتكي رجلي، فوطئوا رجله وهو صريع، فلما مضوا نادى في آخرهم « وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ » . قال أبو عبد الله : وهذا ليس بمعارض لما قال ابن عباس وابن جبير؛ لأنه يحتمل أن يكون قد اجتمع له أمران .

قلت : وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم " لَمْ يكذبْ إبراهيم النبي عليه السلام إلا ثلاثَ كَذَبات " الحديث[1] . وقد مضى في سورة « الأنبياء » . وهو يدل على أنه لم يكن سقيما وإنما عرَّض لهم . وقد قال جلّ وعزّ : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ » . فالمعنى إني سقيم فيما أستقبل فتوهموا هم أنه سقيم الساعة . وهـذا من معاريض الكلام على ما ذكرنا ، ومنه المثل السائر[2] « كَفَى بالسلامة داءً » وقول لبيد :

فدعوتُ ربِّي بالسَّلامَةِ جاهدًا * لِيُصحِّنِي فإذا السَّــلامَةُ داءُ

وقد مات رجل بغتة فالتف عليه الناس فقالوا : مات وهو صحيح ! فقال أعرابي : أصحيح من الموت في عنقـه ! فإبراهيم صادق، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم واصطفائهم عُدّ هذا ذنبا؛ ولهذا قال « وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » وقد مضى هذا كله مبينا والحمد لله[3] . وقيل : أراد سقيم النفس لكفرهم . والنجوم يكون جمع نجم ويكون واحدا مصدرا .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٠٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس حديثا عن ابن عباس بإسناد ضعيف . (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٠٠ و جـ ١٣ ص ١١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ قال السدى : ذهب إليهم . وقال أبو مالك : جاء إليهم . وقال قتادة : مال إليهم . وقال الكلبي : أقبل عليهم . وقيل : عدل . والمعنى متقارب . فراغ يروغ روغا وروغانا إذا مال . وطريق رائغ أى مائل . وقال الشاعر :

ويُرِيكَ مِن طَرَفِ اللسانِ حَلاوة ✽ ويَرُوغ عنكَ كما يَرُوغ الثعلبُ

فقال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ فخاطبها كما يخاطب من يعقل؛ لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة . وكذا ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ . قيل : كان بين يدى الأصنام طعام تركوه ليأكلوه إذا رجعوا من العيد، وإنما تركوه لتصيبه بركة أصنامهم بزعمهم . وقيل : تركوه للسدنة . وقيل : قرّب هو إليها طعاما على جهة الاستهزاء؛ فقال : «أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ» . ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ خصّ الضرب باليمين لأنها أقوى والضرب بها أشد ؛ قاله الضحاك والربيع بن أنس . وقيل : المراد باليمين اليمين التى حلفها حين قال : « وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم » . وقال الفراء وثعلب : ضربا بالقوة واليمين القوة . وقيل : بالعدل واليمين ها هنا العدل . ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ » أى بالعدل، فالعدل لليمين والجور للشمال . ألا ترى أن العدوّ عن الشمال والمعاصى عن الشمال والطاعة عن اليمين ؛ ولذلك قال : « إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ » أى من قبل الطاعة . فاليمين هو موضع العدل من المسلم والشمال موضع الجور . ألا ترى أنه بايع الله بيمينه يوم الميثاق ؛ فالبيعة باليمين ؛ فلذلك يُعطَى كتابه غدا بيمينه ؛ لأنه وفى بالبيعة ، ويُعطَى الناكث للبيعة الهارب برقبته من الله بشماله ؛ لأن الجور هناك . فقوله : « فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ » أى بذلك العدل الذى كان بايع الله عليه يوم الميثاق ثم وفّى له هاهنا . فجعل تلك الأوثان جُذاذا؛ أى فُتاتا كالجذيذة.

وهي السّويق وليس من قبيل القوة ؛ قاله الترمذي الحكيم . ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ قرأ حمزة « يُزِفُّونَ » بضم اليـاء . الباقون بفتحها ، أي يسرعون ؛ قاله ابن زيد . قتادة والسدي : يمشون . وقيل : المعنى يمشون بجمعهم على مهل آمنين أن يصيب أحد آلهتهم بسوء . وقيل: المعنى يتسللون تسللا بين المشي والعَـدْو ؛ ومنه زَفيف النعامة . وقال الضحاك : يسعون . وحكى يحيى بن سلّام : يُرعَدون غضبا . وقيـل : يختالون وهو مشي الخيلاء؛ قاله مجاهد . ومنه أُخذ زِفاف العروس إلى زوجها . وقال الفرزدق :

وجاء قَرِيعُ الشَّولِ قبـلَ إفَالِهَـا ※ يَزِفُّ وجاءت خَلْفَـه وهي زُفَّفُ(١)

ومن قـرأ « يُزِفُّونَ » فمعناه يزفون غيرهم أي يحملونهـم على التزفيف . وعلى هـذا فالمفعول محذوف . قال الأصمعي : أزففت الإبل أي حملتها على أن تَزِفّ . وقيـل : هما لغتان يقال زَفّ القـومُ وأزفُّوا وزففتُ العروسَ وأزففتها وآزدففتها بمعنى ، والمِزفّة المحفّة التي تُزَفّ فيها العروس . حكى ذلك عن الخليل . النحاس : « يُزِفُّونَ » بضم الياء زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هـذه اللغة ، وقد عرفها جماعة من العلماء منهـم الفراء وشبّهها بقولهم : أطردت الرجل أي صيرته إلى ذلك وطردته نحيته؛ وأنشد هو وغيره :

تمـنَّى حُصينٌ أن يسـودَ جِذَاعةً ※ فأمسى حُصينٌ قـد أُذِلَّ وأُقهِرَا(٢)

أي صير إلى ذلك ؛ فكذلك « يُزِفّون » يصيرون إلى الزفيف . قال محمد بن يزيد : الزفيف الإسراع . وقال أبو إسحق : الزفيف أول عَدْو النعام . وقال أبو حاتم : وزعم الكسائي أن قوما قرءوا « فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ » خفيفة من وَزَف يَزِف مثل وَزَن يَزِن . قال النحاس : فهـذه حكاية أبي حاتم وأبو حاتم لم يسمع من الكسائي شيئا . وروى الفراء وهو صاحب الكسائي عن الكسائي أنه لا يعرف « يَزِفُونَ » مخففة . قال الفراء : وأنا لا أعرفها . قال

(١) القريع : الفحل المختار للضراب . الشول من النوق جمع شائلة على غير قياس ؛ وهي الناقة التي أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر بخف لبنها . و إفالها : صغارها . و يزف : يعدو . يريد أن القريع يفر من شدة البرد وكذا الإفال .

(٢) البيت للمخبل السعدي يهجو الزبرقان وقومه ؛ وهم المعروفون بالجذاع . والأصمعي يرويه كما في اللسان مادة قهر؛ قد أذل وأقهرا بالبناء للعلوم ؛ أي صار أمره إلى الذل والقهر .

أبو إسحق : وقد عرفها غيرهما [أنه يقال] وَزَف يَزِف إذا أسرع . قال النحاس : ولا نعلم أحدا قرأ يَزِفون .

قلت : هي قراءة عبد الله بن يزيد فيما ذكر المهدوي . الزمخشري : و « يُزَفُّونَ » على البناء للمفعول ، و « يُزْفُونَ » من زَفَاه إذا حَدَاه ؛ كأنّ بعضهم يزفو بعضا لتسارعهم إليه . وذكر الثعلبي عن الحسن ومجاهد وابن السَّمَيْقع « يَرِفُونَ » بالراء [من] رفيف النعام وهو رَكض بين المشي والطيران .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ فيه حذف ؛ أي قالوا من فعل هذا بآلهتنا ، فقال محتجا : « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ » أي أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها بأيديكم تَنْجُرونها . والنحت النجر والبري ؛ نحته ينحِته بالكسر نحتا أي براه والنُّحاتة البُراية والمِنحَت ما ينحت به . ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ « ما » في موضع نصب أي وخالق ما تعملونه من الأصنام ، يعني الخشب والحجارة وغيرهما . كقوله : « بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ » وقيل : إن « ما » استفهام ومعناه التحقير لعملهم . وقيل : هي نفي والمعنى وما تعملون ذلك لكن الله خالقه . والأحسن أن تكون « ما » مع الفعل مصدرا ، والتقدير والله خلقكم وعملكم . وهذا مذهب أهل السنة أن الأفعال خلقٌ لله عز وجل واكتسابٌ للعباد . وفي هذا إبطال مذاهب القَدَرية والجَبْرية . وروى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله خالق كل صانع وصنعته " ذكره الثعلبي . وخرّجه البيهقي من حديث حُذَيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عز وجل صنع كل صانع وصنعته فهو الخالق وهو الصانع سبحانه " وقد بيناهما في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى .

قوله تعالى : قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُ بُنْيَانًا ﴾ أى تشاوروا فى أمره لما غلبهم بالحجة حسب ما تقدّم فى « الأنبياء » بيانه فـ«قَالُوا ٱبْنُوا لَهُ بُنْيَانًا » تملئونه حطبا فتضرمونه ، ثم ألقوه فيه وهو الجحيم . قال ابن عباس : بنوا حائطا من حجارة طوله فى السماء ثلاثون ذراعا، وملئوه نارا وطرحوه فيها . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : فلما صار فى البنيان قال : حسبى الله ونعم الوكيل. والألف واللام فى « الجحيم » تدل على الكناية؛ أى فى جحيمه؛ أى فى جحيم ذلك البنيان . وذكر الطبرى أن قائل ذلك اسمه الهيزن (٢) رجل من أعراب فارس وهم الترك، وهو الذى جاء فيه الحديث " بينما رجل يمشى فى حلّة له يتبختر فيها فخسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة " والله أعلم . ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ﴾ أى بإبراهيم والكيد المكر أى احتالوا لإهلاكه . ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ المقهورين المغلوبين إذ نفذت حجته من حيث لم يمكنهم دفعها، ولم ينفذ فيه مكرهم ولا كيدهم .

قوله تعالى : وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

فيه مسئلتان :

الأولى ــ هذه الآية أصل فى الهجرة والعزلة . وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام، وذلك حين خلصه الله من النار « قَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى » أى مهاجر من بلد قومى ومولدى، إلى حيث أتمكن من عبادة ربى فإنه « سَيَهْدِينِ » فيما نويت إلى الصواب . قال مقاتل : هو أوّل من هاجر من الخلق مع لوط وسارّة ، إلى الأرض المقدّسة وهى أرض الشام . وقيل : ذاهب بعملى وعبادتى وقلبى ونيتى . فعلى هذا ذهابه بالعمل لا بالبدن . وقد مضى بيان هذا فى « الكهف » (٣) مستوفى . وعلى الأول بالمهاجرة إلى الشام وبيت المقدس .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٠٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) تقدّم فى جـ ١١ ص ٣٠٣ أن اسمه هيزر .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٦٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وقيل : خرج إلى حرّان فأقام بها مدّة . ثم قيل : قال ذلك لمن فارقه من قومه فيكون ذلك توبيخا لهم . وقيل : قاله لمن هاجر معه من أهله فيكون ذلك منه ترغيبا . وقيل : قال هذا قبل إلقائه في النار . وفيه على هذا القول تأويلان : أحدهما ــ إني ذاهب إلى ما قضاه عليّ ربي . الثاني ــ إني ميت كما يقال لمن مات قد ذهب إلى الله تعالى ؛ لأنه عليه السلام تصوّر أنه يموت بإلقائه في النار، على المعهود من حالها في تلف ما يلقى فيها ، إلى أن قيل لها « كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا » فحينئذ سلم إبراهيم منها . وفي قوله « سيهدين » على هذا القول تأويلان : أحدهما ــ « سَيَهْدِينِ » إلى الخلاص منها . الثاني ــ إلى الجنة . وقال سليمان ابن صُرَد وهو ممن أدرك النبيّ صلى الله عليه وسلم : لما أرادوا إلقاء إبراهيم في النار جعلوا يجمعون له الحطب ، فجعلت المرأة العجوز تحمل على ظهرها وتقول : أذهب به إلى هذا الذي يذكر آلهتنا ؛ فلما ذُهب به ليطرح في النار « قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي » فلما طرح في النار قال : (حسبي الله ونعم الوكيل) فقال الله تعالى : « يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا » فقال أبو لوط وكان ابن عمه : إن النار لم تحرقه من أجل قرابته مني . فأرسل الله عنقا من النار فأحرقه .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لما عرفه الله أنه مخلصه دعا الله ليعضُده بولد يأنس به في غربته . وقد مضى في «آل عمران»(1) القول في هذا . وفي الكلام حذف أي هب لي ولدا صالحا من الصالحين وحذف مثل هذا كثير. قال الله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ أي إنه يكون حليما في كبره فكأنه بُشّر ببقاء ذلك الولد ؛ لأن الصغير لا يوصف بذلك ، فكانت البشرى على ألسنة الملائكة كما تقدم في « هود »(2) . ويأتي أيضا في « الذاريات »(3) .

قوله تعالى : فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٧٣ طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع جـ ٩ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .
(3) في تفسير آية ٢٨ من السورة المذكورة .

شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ
أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا
مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ
وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

فيـــه سبع عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ ﴾ أى فوهبنا له الغلام، فلما بلغ معه المبلغ الذى يسعى مع أبيـه فى أمور دنياه معينا له على أعمـاله ﴿ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ ﴾ . وقال مجاهد : « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ » أى شب وأدرك سـعيُه سعىَ إبراهيم . وقال الفراء : كان يومئذ ٱبن ثلاث عشرة سنة . وقال ٱبن عباس : هو الاحتلام . قتادة : مشى مع أبيه . الحسن ومقاتل : هو سعى العقل الذى تقوم به الحجة . ٱبن زيد : هو السعى فى العبادة ، ٱبن عباس : صام وصلى ألم تسمع الله عز وجل يقول «وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا» .

وٱختلف العلمـاء فى المأمور بذبحـه . فقال أكثرهم : الذبيح إسحق . وممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب وٱبنه عبد الله وهو الصحيح عنه . روى الثورى وٱبن جريج يرفعانه إلى ٱبن عباس قال : الذبيح إسحق. وهو الصحيح عن عبد الله بن مسعود أن رجلا قال له : يابن الأشياخ الكرام. فقال عبد الله : ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله صلى الله عليهم وسلم. وقد روى حماد بن زيد يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم

صلى الله عليه وسلم ". وروى أبو الزبير عن جابر قال : الذبيح إسحق. وذلك مروى أيضا عن علىّ بن أبي طالب رضي الله عنه . وعن عبد الله بن عمر أن الذبيح إسحق . وهو قول عمر رضي الله عنه . فهؤلاء سبعة من الصحابة. وقال به من التابعين وغيرهم عَلْقَمة والشَّعْبي ومجاهد وسعيد بن جُبَير وكعب الأحبار وقتادة ومسروق وعكرمة والقاسم بن أبي بَزّة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط[1] والزهري والسدي وعبد الله بن أبي الهذيل ومالك بن أنس ، كلهم قالوا : الذبيح إسحق . وعليه أهل الكتابين اليهود والنصارى ، واختاره غير واحد منهم النحاس[2] والطبريّ وغيرهما . قال سعيد بن جبير : أُرِيَ إبراهيمُ ذبح إسحق في المنام ، فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة ، حتى أتى به المنحر من مِنًى ؛ فلما صرف الله عنه الذبح وأمره أن يذبح الكبش فذبحه ، وسار به مسيرة شهر في رَوْحة واحدة طويت له الأودية والجبال . وهذا القول أقوى في النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين . وقال آخرون : هو إسمعيل . وممن قال ذلك أبو هريرة وأبو الطفيل عامر بن واثلة . وروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس أيضا ، ومن التابعين سعيد بن المسيّب والشَّعبي ويوسف بن مِهْران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القُرَظيّ والكلبي وعلقمة . وسئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فأنشد :

إنّ الذبيح هُديتَ إسمعيلُ * نَطَق الكتابُ بذاك والتنزيلُ
شرفٌ به خصّ الإلهُ نبيَّنا * وأتى به التفسيرُ والتأويلُ
إن كنتَ أُمّتَه فلا تُنكِرْ لهُ * شرفًا به قد خَصّه التفضيلُ

وعن الأصمعي قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أصمعي أين عزب عنك عقلك ومتى كان إسحق بمكة ؟ وإنما كان إسمعيل بمكة ، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن الذبيح

(١) في التهذيب قال ابن أبي خيثمة سمعت ابن معين يقول عبد الرحمن بن عبد الله بن سابط ومن قال عبد الرحمن ابن سابط فقد أخطأ ، وكذا ذكره البخاري . وفي اسم أبيه خلاف . (٢) في نسخة : النقاش .

إسمعيل" والأول أكثر عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وعن التابعين . واحتجوا بأن الله عز وجل قد أخبر عن إبراهيم حين فارق قومه ، فهاجر إلى الشام مع امرأته سارة وابن أخيه لوط فقال : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ » أنه دعا فقال : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » فقال تعالى : « فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ » ؛ ولأن الله قال : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » فذكر أن الفداء في الغلام الحليم الذي بُشِّر به إبراهيم وإنما بُشِّر بإسحق ؛ لأنه قال : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ » وقال هنا : « بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » وذلك قبل أن يتزوج هاجر وقبل أن يولد له إسمعيل، وليس في القرآن أنه بُشِّر بولد إلا إسحق . احتج من قال إنه إسمعيل : بأن الله تعالى وصفه بالصبر دون إسحق في قوله تعالى : «وَإِسْمَعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ» وهو صبره على الذبح ، ووصفه بصدق الوعد في قوله : « إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ » ؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به؛ ولأن الله تعالى قال : «وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا» فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبيا، وأيضا فإن الله تعالى قال : « فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ » فكيف يؤمر بذبح إسحق قبل إنجاز الوعد في يعقوب . وأيضا ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة ، فدل على أن الذبيح إسمعيل، ولو كان إسحق لكان الذبح يقع ببيت المقدس . وهذا الاستدلال كله ليس بقاطع؛ أما قولهم : كيف يأمره بذبحه وقد وعده بأنه يكون نبيا، فإنه يحتمل أن يكون المعنى ؛ وبشرناه بنبوته بعد أن كان من أمره ما كان ؛ قاله ابن عباس . وسيأتي . ولعله أُمر بذبح إسحق بعد أن ولد لإسحق يعقوب . ويقال لم يرد في القرآن أن يعقوب يولد من إسحق وأما قولهم : ولو كان الذبيح إسحق لكان الذبح يقع ببيت المقدس ، فالجواب عنه ما قاله سعيد بن جبير على ما تقدم . وقال الزجاج : الله أعلم أيهما الذبيح . وهذا مذهب ثالث .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قال مقاتل : رأى ذلك إبراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات . وقال محمد بن كعب :

كانت الرسل يأتيهم الوحى من الله تعالى أيقاظا ورقودا، فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم . وهذا ثابت فى الخبر المرفوع . قال صلى الله عليه وسلم : "إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا" . وقال ٱبن عباس : رؤيا الأنبياء وحى ؛ وٱستدل بهذه الآية . وقال السدى : لما بُشّر إبراهيمُ بإسحق قبل أن يولد له قال هو إذًا لله ذبيح . فقيل له فى منامه : قد نذرت نذرا فَفِ بنذرك . ويقال : إن إبراهيم رأى فى ليلة التروية كأن قائلا يقول : إن الله يأمرك بذبح ٱبنك، فلما أصبح رَوَّى فى نفسه أى فكَّر أهذا الحُلْم من الله أم من الشيطان؟ فسمّى يوم التَّرْوية . فلما كانت الليلة الثانية رأى ذلك أيضا وقيل له الوعد ، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فسمى يوم عرفة . ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهمّ بنحره فسمى يوم النَّحْر . وروى أنه لما ذبحه قال جبريل : الله أكبر الله أكبر . فقال الذبيح : لا إله إلا الله والله أكبر . فقال إبراهيم : الله أكبر والحمد لله . فبقى سُنّة . وقد ٱختلف الناس فى وقوع هذا الأمر وهى :

الثالثة — فقال أهل السنة : إن نفس الذبح لم يقع ، وإنما وقع الأمر بالذبح قبل أن يقع الذبح، ولو وقع لم يُتصوَّر رفعه ، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل ؛ لأنه لو حصل الفراغ من ٱمتثال الأمر بالذبح ما تحقق الفداء . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ : أى حققت ما نبهناك عليه، وفعلت ما أمكنك ثم ٱمتنعت لما منعناك . هذا أصح ما قيل به فى هذا الباب . وقالت طائفة : ليس هذا مما ينسخ بوجه ؛ لأن معنى ذبحت الشىء قطعته . وٱستدل على هذا بقول مجاهد : قال إسحق لإبراهيم لا تنظر إلىّ فترحمنى ، ولكن ٱجعل وجهى إلى الأرض ، فأخذ إبراهيم السكين فأمرّها على حلقه فانقلبت . فقال له مالكَ ؟ قال : ٱنقلبت السكين . قال ٱطعنّى بها طعنا . وقال بعضهم : كان كلما قطع جزءا التأم . وقالت طائفة : وجد حلقه نحاسا أو مغشّى بنحاس ، وكان كلما أراد قطعا وجد منعا . وهذا كله جائز فى القدرة الإلهية، لكنه يفتقر إلى نقل صحيح ، فإنه أمر لا يدرك بالنظر وإنما طريقه الخبر . ولو كان قد جرى ذلك لبينه الله تعالى تعظيما لرتبة إسمعيل

وإبراهيم صلوات الله عليهما ، وكان أولى بالبيان من الفـداء . وقال بعضهـم : إن إبراهيم ما أمر بالذبح الحقيـقى الذى هو فَرْى الأوداج وإنهـار الدم ، وإنمـا رأى أنه أضجعه للذبح فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيقى ، فلما أتى بما أمر به من الإضجاع قيل له « قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا » وهذا كله خارج عن المفهوم . ولا يظن بالخليل والذبيح أن يفهما من هذا الأمر ما ليس له حقيقة حتى يكون منهما التوهم . وأيضا لو صحت هذه الأشياء لمـا ٱحتيج الى الفداء .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَٱنْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ قرأ أهل الكوفة غير عاصم «مَاذَا تُرِى» بضم التاء وكسر الراء من أُرِى يُرِى . قال الفراء : أى فٱنظر ماذا ترى من صبرك وجزعك . قال الزجاج : لم يقل هذا أحد غيره ، وإنمـا قال العلماء ماذا تشير ؛ أى ما تريك نفسك من الرأى . وأنكر أبو عبيد « تُرِى » وقال : إنمـا يكون هذا من رؤية العين خاصة . وكذلك قال أبو حاتم . النحاس : وهـذا غلط ، وهـذا يكون من رؤية العين وغيرها وهو مشهور ؛ يقال : أريت فلانا الصواب وأريته رشده ، وهذا ليس من رؤية العين . الباقون « تَرَى » مضارع رَأَيْتَ . وقد روى عن الضحاك والأعمش «تُرَى» غير مسمى الفاعل . ولم يقل له ذلك على وجه المؤامرة فى أمر الله ، وإنمـا شاوره ليعلم صـبره لأمر الله ، أو لتقر عينه إذا رأى من ٱبنه طاعة فى أمر الله فـ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أى ما تؤمر به فحذف الجار كما حذف من قوله :

* أَمَرْتُكَ الخيرَ فٱفعلْ مَا أُمِرتَ بِهِ

فوصل الفعل إلى الضمير فصار تؤمره ثم حذفت الهاء ؛ كقوله : « وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَى » أى ٱصطفاهم على ما تقدّم[1] . و « ما » بمعنى الذى . ﴿ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ ﴾ قال بعض أهل الإشارة : لمـا استثنى وفقـه الله للصبر . وقد مضى الكلام فى « يَا أَبَتِ » وكذلك فى « يَا بُنَىَّ » فى « يوسف »[2] وغيرها .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٩ ص ١٢١ طبعة أولى أو ثانية ، وجـ ٢ ص ١٣٦ طبعة ثانية .

الخامسة ــ قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ أي انقادا لأمر الله . وقرأ ابن مسعود وابن عباس وعليّ رضوان الله عليهم « فَلَمَّا سَلَّمَا » أي فوضا أمرهما إلى الله . وقال ابن عباس : استسلما . وقال قتادة : أسلم أحدهما نفسه لله عز وجل وأسلم الآخر ابنه . ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ قال قتادة : كبه وحوّل وجهه إلى القبلة . وجواب لما محذوف عند البصريين تقديره « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ » فديناه بكبش . وقال الكوفيون : الجواب « نَادَيْنَاهُ » والواو زائدة مقحمة، كقوله : « فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا » أي أوحينا . وقوله : « وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ » أي اقترب . وقوله : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ » أي قال لهم . وقال امرؤ القيس :

* فلما أجزنا ساحةَ الحيِّ وانتحى (١) *

أي انتحى والواو زائدة . وقال أيضا :

حتّى إذا حَمَلَتْ بُطونُكُمُ * ورأيتم أبناءَكم شَبُّوا

وقَلَبْتُمُ ظهرَ المِجَنِّ لنا * إن اللئيمَ الفاجرَ الخَبُّ

أراد قلبتم . النحاس : والواو من حروف المعاني لا يجوز أن تزاد . وفي الخبر : إن الذبيح قال لإبراهيم عليه السلام حين أراد ذبحه : يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن، وأسرعْ مَرَّ السكين على حلْقي ليكون الموت أهون عليّ واقذفني للوجه؛ لئلا تنظر إلى وجهي فترحمني؛ ولئلا أنظر إلى الشفرة فأجزع، وإذا أتيت إلى أمي فأقرئها مني السلام . فلما جَرّ إبراهيمُ عليه السلام السكين ضرب الله عليه صفيحة من نحاس، فلم تعمل السكين شيئا ، ثم ضرب به على جبينه وحَزّ في قفاه فلم تعمل السكين شيئا . فذلك قوله تعالى : « وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ » كذلك قال ابن عباس : معناه كبّه على وجهه فنودي « يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا » فالتفت فإذا بكبش . ذكره المهدوي . وقد تقدمت الإشارة إلى عدم صحته، وأن المعنى لما اعتقد الوجوب وتهيأ للعمل ؛ هذا بهيئة

---

(١) تمامه : * بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل *

الذبح ، وهذا بصورة المذبوح ، أعطيا محلا للذبح فداء ولم يكن هناك من سكين . وعلى هذا يتصوّر النسخ قبل الفعل على ما تقدّم . والله أعلم . قال الجوهري : "وتَلَّهُ لِلْجَبِينِ" أي صرعه ، كما تقول : كبه لوجهه . الهروى : والتل الدفع والصرع ؛ ومنه حديث أبي الدرداء ، رضي الله عنه : "وتركوك لِمَتَلِّك" أي لمصرعك . وفي حديث آخر : "فجاء بناقة كَوْماءَ فتَلَّها" أي أناخها . وفي الحديث "بينا أنا نائم أُتيت بمفاتيح خزائن الأرض فتُلَّت في يدى" قال ابن الأنباري : أي فألقيت في يدى ؛ يقال : تَلَلْت الرجل إذا ألقيته . قال ابن الأعرابي : فصبّت في يدى ؛ والتَّل الصّب ، يقال : تلّ يتُلّ إذا صبّ ، وتلّ يتِل بالكسر إذا سقط . قلت : وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُتى بشراب فشرب منه ، وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ ؛ فقال للغلام : "أتأذن لى أن أعطى هؤلاء" فقال الغلام : لا والله لا أوثر بنصيبي منك أحدا . قال : فتلّه رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده ؛ يريد جعله في يده وقال بعض أهل الإشارة : إن إبراهيم آدعى محبة الله ، ثم نظر إلى الولد بالمحبة ، فلم يرض حبيبه محبة مشتركة ؛ فقيل له : يا إبراهيم آذبح ولدك في مرضاتي ، فشمر وأخذ السكين وأضجع ولده ، ثم قال : اللهم تقبله مني في مرضاتك . فأوحى الله إليه : يا إبراهيم لم يكن المراد ذبح الولد ، وإنما المراد أن تردّ قلبك إلينا ، فلما رددت قلبك بكليته إلينا رددنا ولدك إليك . وقال كعب وغيره : لما أرى إبراهيم ذبح ولده في منامه ، قال الشيطان : والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحدا أبدا . فتمثل الشيطان لهم في صورة الرجل ، ثم أتى أم الغلام وقال : أتدرين أين يذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت لا . قال : إنه يذهب به ليذبحه . قالت : كلا هو أرأف به من ذلك . فقال : إنه يزعم أن ربه أمره بذلك . قالت : فإن كان ربه قد أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه . ثم أتى الغلام فقال : أتدرى أين يذهب بك أبوك ؟ قال : لا . قال : فإنه يذهب بك ليذبحك . قال ولم ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك . قال : فليفعل ما أمره الله به ، سمعا وطاعة لأمر الله . ثم جاء إبراهيم فقال : أين تريد ؟ والله إنى لأظن أن الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك

بذبح ٱبنك. فعرفه إبراهيم فقال : إليك عنى يا عدو الله فوالله لأمضين لأمر ربى. فلم يصب الملعون منهم شيئا . وقال ٱبن عباس : لما أمر إبراهيم بذبح ٱبنه عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات، حتى ذهب ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الأخرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى . وٱختلف فى الموضع الذى أراد ذبحه [فيه] فقيل : بمكة فى المقام . وقيل : فى المنحر بمنى عند الجمار التى رمى بها إبليس لعنه الله؛ قاله ٱبن عباس وٱبن عمر ومحمد بن كعب وسعيد بن المسيب . وحكى عن سعيد بن جبير أنه ذبحه على الصخرة التى بأصل ثبير بمنى . وقال ٱبن جريج : ذبحه بالشام وهو من بيت المقدس على ميلين . والأول أكثر؛ فإنه ورد فى الأخبار تعليق قرن الكبش فى الكعبة ، فدل على أنه ذبحه بمكة . وقال ٱبن عباس : فوالذى نفسى بيده لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه من ميزاب الكعبة وقد يبس . أجاب من قال بأن الذبح وقع بالشام : لعل الرأس حمل من الشام الى مكة . والله أعلم .

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى نجزيهم بالخلاص من الشدائد فى الدنيا والآخرة . ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ أى النعمة الظاهرة . يقال : أبلاه الله إبلاء وبلاء إذا أنعم عليه . وقد يقال : بلاه . قال زهير :

* فأبلاهما خير البلاء الذى يبلو[1] *

فزعم قوم أنه جاء باللغتين . وقال آخرون : بل الثانى من بلاه يبلوه إذا ٱختبره، ولا يقال من الاختبار إلا بلاه يبلوه، ولا يقال من الابتلاء يبلوه . وأصل هذا كله من الاختبار أن يكون بالخير والشر؛ قال الله عز وجل : « وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً » . وقال أبو زيد : هذا من البلاء الذى نزل به فى أن يذبح ٱبنه؛ قال : وهذا من البلاء المكروه .

---

(١) صدر البيت : * جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم *

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ الذِّبح اسم المذبوح وجمعه ذبوح، كالطِّحن اسم المطحون . والذَّبح بالفتح المصدر . « عَظِيمٍ » أى عظيم القدر ولم يرد عظيم الجثة وإنما عظم قدره لأنه فدى به الذبيح ؛ أو لأنه متقبل . قال النحاس : عظيم فى اللغة يكون للكبير وللشريف . وأهل التفسير على أنه هاهنا للشريف ، أو المتقبَّل . وقال ٱبن عباس : هو الكبش الذى تقرّب به هابيل، وكان فى الجنة يرعى حتى فدى الله به إسمعيل . وعنه أيضا : إنه كبش أرسله الله من الجنة كان قد رعى فى الجنة أربعين خريفا . وقال الحسن : ما فدِى إسمعيل إلا بتيس من الأروى هبط عليه من ثَبِير ، فذبحه إبراهيم فداء عن ٱبنه، وهذا قول على رضى الله عنه . فلما رآه إبراهيم أخذه فذبحه وأعتق ٱبنه ، وقال : يا بنى اليوم وُهِبت لى . وقال أبو إسحق الزجاج : قد قيل أنه فدى بوعل والوعْل التيس الجبلى . وأهل التفسير على أنه فُدِى بكبش .

الثامنــة — فى هذه الآية دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر . وهذا مذهب مالك وأصحابه . قالوا : أفضل الضحايا الفحول من الضأن، وإناث الضأن أفضل من فحول المعز، وفحول المعز خير من إناثها، وإناث المعز خير من الإبل والبقر . وحجتهم قوله سبحانه وتعالى : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » أى ضخم الجثة سمين، وذلك كبش لا جمل ولا بقرة . وروى مجاهد وغيره عن ٱبن عباس أنه سأله رجل إنى نذرت أن أنحر ٱبنى فقال : يجزيك كبش سمين ثم قرأ « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » . وقال بعضهم : لو علم الله حيوانا أفضل من الكبش لفدى به إسحق . وضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين . وأكثر ما ضحى به الكباش . وذكر ٱبن أبى شيبة عن ٱبن عُلَيّة عن الليث عن مجاهد قال : الذِّبح العظيم الشاة .

التاسعة — واختلفوا أيما أفضل الأضحية أو الصدقة بثمنها . فقال مالك وأصحابه : الضحية أفضل إلا بمنى؛ لأنه ليس موضع الأضحية . حكاه أبو عمر . وقال ابن المنذر : وروينا عن بلال أنه قال : ما أبالى ألا أضحى إلا بديك ولأن أضعه فى يتيم قد تَرِب فيه

هكذا قال المحدث ـــ أحب إليّ من أن أضحى به . وهذا قول الشعبي إن الصدقة أفضل . وبه قال مالك وأبو ثور . وفيــه قول ثانٍ : إن الضحية أفضل؛ هــذا قول ربيعــة وأبي الزناد . وبه قال أصحاب الرأى . زاد أبو عمر وأحمــد بن حنبل قالوا : الضحية أفضل من الصدقة؛ لأن الضحية ســنّة مؤكدة كصلاة العيد . ومعلوم أن صلاة العيد أفضــل من سائر النوافل . وكذلك صلوات السنن أفضــل من التطوّع كله . قال أبو عمر : وقد روى فى فضل الضحايا آثار حسان، فمنها ما رواه سعيد بن داود بن أبي زَنْبَر عن مالك عن ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من نفقة بعــد صلة الرحم أفضل عند الله من إهراق الدم " قال أبو عمر : وهو حديث غريب من حديثٌ مالك . وعن عائشة قالت : يأيهــا الناس ضحوا وطيبوا أنفسا ؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وســلم يقول : " ما من عبد توجه بأضحيته إلى القبلة إلا كان دمها وقرنها وصوفها حسناتٍ محضراتٍ فى ميزانه يوم القيامة فإن الدم إن وقع فى التراب فإنما يقع فى حِرْز الله حتى يوفيه صاحبه يوم القيامة " ذكره أبو عمر فى كتاب التمهيد . وخرجه الترمذى أيضــا عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما عمِــل آدمىٌّ من عملٍ يوم النَّحرِ أحبَّ إلى الله من إهراق الدم إنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأشــعارها وأظلافها وإنّ الدم ليقعُ من الله بمكانٍ قبل أن يقع إلى الأرض فطيبوا بها نفسا" قال : وفى الباب عن عِمْران بن حُصَين وزيد بن أَرْقَم . وهذا حديث حسن .

العاشـــرة ـــ إن الضحية ليست بواجبة ولكنها سنّة ومعروف . وقال عكرمة : كان ابن عباس يبعثنى يوم الأضحى بدرهمين أشترى له لحما، ويقول : من لقيتَ فقل هذه أضحية ابن عباس . قال أبو عمر : ومحمل هــذا وما روى عن أبى بكر وعمر أنهما لا يضحيان عنــد أهل العلم ؛ لئلا يعتقد فى المواظبة عليها أنها واجبة فرض ، وكانوا أئمة يقتدى بهم من بعدهم ممن ينظر فى دينه إليهم ؛ لأنهم الواسطة بين النبى صلى الله عليــه وسلم وبين أمته ، فساغ لهم من الاجتهاد فى ذلك ما لا يسوغ اليوم لغيرهم . وقــد حكى الطحاوى فى مختصره : وقال

أبو حنيفة : الأضحية واجبة على المقيمين الواجدين من أهل الأمصار، ولا تجب على المسافر. قال : وتجب على الرجل من الأضحية على ولده الصغير مثل الذى تجب عليه عن نفسه . وخالفه أبو يوسف ومحمد فقالا : ليست بواجبة ولكنها سنة غير مرخص لمن وجد السبيل إليها فى تركها . قال : وبه نأخذ . قال أبو عمر : وهذا قول مالك؛ قال : لا ينبغى لأحد تركها مسافرا كان أو مقيما ، فإن تركها فبئس ما صنع إلا أن يكون له عذر إلا الحاج بمنى . وقال الإمام الشافعى : هى سنة على جميع الناس وعلى الحاج بمنى وليست بواجبة . وقد آحتج من أوجبها بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أبا بُردة بن نِيَار أن يعيد ضحية أخرى ؛ لأن ما لم يكن فرضا لا يؤمر فيه بالإعادة . آحتج آخرون بحديث أمّ سَلَمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا دخل العشر وأراد أحدكم أن يضحى" قالوا فلو كان ذلك واجبا لم يجعل ذلك إلى إرادة المضحِّى . وهو قول أبى بكر وعمر وأبى مسعود البدرىّ وبلال .

الحادية عشرة — والذى يضحى به بإجماع المسلمين الأزواج الثمانية؛ وهى الضأن والمعز والإبل والبقر . قال آبن المنذر : وقد حكى عن الحسن بن صالح أنه قال : يضحى ببقرة الوحش عن سبعة وبالظبى عن رجل . وقال الإمام الشافعى : لو نزا ثور وحشى على بقرة أنسية أو ثور أنسى على بقرة وحشية لا يجوز شىء من هذا أضحية . وقال أصحاب الرأى : جائز؛ لأن ولدها بمنزلة أمه . وقال أبو ثور : يجوز إذا كان منسوبا إلى الأنعام .

الثانية عشرة — قد مضى فى سورة «الحج»(١) الكلام فى وقت الذبح والأكل من الأضحية مستوفى . وفى صحيح مسلم عن أنس قال : "ضحى النبي صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمّى وكبّر ووضع رجله على صِفَاحهما" فى رواية قال "ويقول بسم الله والله أكبر" وقد مضى فى آخر «الأنعام»(٢) حديث عمران بن حُصَين ومضى فى «المائدة»(٣) القول فى التذكية وبيانها وما يُذَكَّى به، وأن ذكاة الجنين ذكاة أمه مستوفى . وفى صحيح مُسلم

(١) راجع جـ ١٢ ص ٤٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٥٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٥٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أمر بكبش أقرن يطأ في سواد ويبرك في سواد وينظر في سواد فأتي به ليضحي به " فقال لها : " يا عائشة هلمي المدية " ثم قال " اشحذيها بحجر " ففعلت ، ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه ثم ذبحه ، ثم قال : " بسم الله اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد " ثم ضحى به . وقد اختلف العلماء في هذا فكان الحسن البصري يقول في الأضحية : بسم الله والله أكبر هذا منك ولك تقبل من فلان . وقال مالك : إن فعل ذلك فحسن، و إن لم يفعل وسمى الله أجزأه . وقال الشافعي : والتسمية على الذبيحة بسم الله ، فإن زاد بعد ذلك شيئا من ذكر الله ، أو صلى على محمد عليه السلام لم أكرهه ، أو قال اللهم تقبل مني ، أو قال تقبل من فلان فلا بأس . وقال النعمان : يكره أن يذكر مع اسم الله غيره ؛ يكره أن يقول : اللهم تقبل من فلان عند الذبح . وقال : لا بأس إذا كان قبل التسمية وقبل أن يضجع للذبح . وحديث عائشة يرد هذا القول . وقد تقدم أن إبراهيم عليه السلام قال لما أراد ذبح ابنه : الله أكبر والحمد لله . فبقي سنة .

الثالثة عشرة — روى البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: ماذا يتقى من الضحايا ؟ فأشار بيده وقال : " أربعا — وكان البراء يشير بيده ويقول يدي أقصر من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم — العرجاء البين ظلعها والعوراء البين عورها والمريضة البين مرضها والعجفاء التي لا تنقي[(1)] " لفظ مالك ولا خلاف فيه . واختلف في اليسير من ذلك . وفي الترمذي عن علي رضي الله عنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستشرف[(2)] العين والأذن وألا نضحي بمقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء . قال : والمقابلة ما قطع طرف أذنها ، والمدابرة ما قطع من جانب الأذن ، والشرقاء المشقوقة ، والخرقاء المثقوبة ؛ قال هذا حديث حسن صحيح . وفي الموطإ عن نافع : أن عبد الله بن عمر كان يتقي من الضحايا والبدن التي لم تسنن والتي نقص من خلقها . قال مالك : وهذا أحب ما سمعت إلي . قال

---

(1) التي : مخ العظام وشحمها . يريد أنه لا يوجد فيها شحم لهزالها وضعفها .

(2) نستشرف ؛ يعني نتطلع العين والأذن ، ونبحث عنهما لئلا يكون فيهما عيب .

القتبي : لم تُسنَّن أي لم تنبت أسنانها كأنها لم تُعطَ أسنانا . وهذا كما يقال : فلان لم يُلبَن أي لم يُعطَ لبنا ، ولم يُسمَّن أي لم يُعطَ سمنا ، ولم يُعسَّل أي لم يُعطَ عسلا[1] . وهذا مثل النهي في الأضاحي عن الهتماء . قال أبو عمر : ولا بأس أن يضحى عند مالك بالشاة الهتماء إذا كان سقوط أسنانها من الكبر والهرم وكانت سمينة ، فإن كانت ساقطة الأسنان وهي فتية لم يجز أن يضحى بها ؛ لأنه عيب غير خفيف . والنقصان كله مكروه وشرحه وتفصيله في كتب الفقه . وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم " آستشرفوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم " ذكره الزمخشري .

الرابعة عشر — ودلت الآية على أن من نذر نحر آبنه أو ذبحه أنه يفديه بكبش كما فدى به إبراهيم آبنه ؛ قاله آبن عباس . وعنه رواية أخرى : ينحر مائة من الإبل كما فدى بها عبد المطلب آبنه . روى الروايتين عنه الشعبي . وروى عنه القاسم بن محمد : يجزيه كفارة يمين . وقال مسروق : لا شيء عليه . وقال الشافعي : هو معصية يستغفر الله منها . وقال أبو حنيفة : هي كلمة يلزمه بها في ولده ذبح شاة ولا يلزمه في غير ولده شيء . وقال محمد : عليه في الحالف بنحر عبده مثل الذي عليه في الحلف بنحر ولده إذا حنث . وذكر آبن عبد الحكم عن مالك فيمن قال أنا أنحر ولدي عند مقام إبراهيم في يمين ثم حنث فعليه هدي . قال : ومن نذر أن ينحر آبنه ولم يقل عند مقام إبراهيم ولا أراده فلا شيء عليه . قال : ومن جعل آبنه هديا أهدى عنه ؛ قال القاضي آبن العربي : يلزمه شاة كما قال أبو حنيفة ؛ لأن الله تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعا ، فألزم الله إبراهيم ذبح الولد ، وأخرجه عنه بذبح شاة ، وكذلك إذا نذر العبد ذبح ولده يلزمه أن يذبح شاة ؛ لأن الله تعالى قال :

(١) عقب صاحب لسان العرب في مادة « سنن » على رواية القتبي وتفسيره بقوله : « وقد وهم القتبي في الرواية والتفسير ؛ لأنه روى الحديث " لم تسنَن " بفتح النون الأولى ، وإنما حفظه من محدّث لم يضبطه ، وأهل الثبت والضبط رووه " لم تسنِن " بكسر النون وهو الصواب في العربية ، والمعنى لم تسن فأظهر التضعيف ليكون النون الأخيرة ، كما يقال : لم يجلل . وإنما أراد ابن عمر أنه يضحى بأضحية لم تثن ؛ أي لم تصير ثنية وإذا أثنت فقد أسنت . ثم قال : وأما خطأ القتبي من الجهة الأخرى فقوله : سننت البدنة إذا نبتت أسنانها وسنها الله غير صحيح ، وقوله : لم يلبن ولم يسمن أي لم يعط لبنا وسمنا غير صحيح ، وإنما معناهما لم يطعم سمنا ولم يسق لبنا » .

« مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » والإيمان التزام أصلىٌّ والنذر التزام فرعىٌّ فيجب أن يكون محمولا عليه . فإن قيل كيف يؤمر إبراهيم بذبح الولد وهو معصية والأمر بالمعصية لا يجوز . قلنا هذا اعتراض على كتاب الله، ولا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلام ، فكيف بمن يفتى فى الحلال والحرام ، وقد قال الله تعالى : « ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ » والذى يجلو الإلباس عن قلوب الناس فى ذلك أن المعاصى والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للأعيان، وإنما الطاعات عبارة عما تعلق به الأمر من الأفعال ، والمعصية عبارة عما تعلق به النهى من الأفعال ، فلما تعلق الأمر بذبح الولد إسمعيل من إبراهيم صار طاعة وٱبتلاء ، ولهذا قال الله تعالى : « إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ» فى الصبر على ذبح الولد والنفس، ولما تعلق النهى بنا فى ذبح أبنائنا صار معصية . فإن قيل: كيف يصير نذرا وهو معصية . قلنا إنما يكون معصية لو كان يقصد ذبح الولد بنذره ولا ينوى الفداء ؟ فإن قيل : فلو وقع ذلك وقصد المعصية ولم ينو الفداء ؟ قلنا : لو قصد ذلك لم يضره فى قصده ولا أثر فى نذره ؛ لأن نذر الولد صار عبارة عن ذبح الشاة شرعا .

الخامسة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أى على إبراهيم ثناء جميلا فى الأمم بعده ، فما من أمة إلا تصلى عليه وتحبه . وقيل : هو دعاء إبراهيم عليه السلام « وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » . وقال عكرمة : هو السلام على إبراهيم أى سلاما منا . وقيل : سلامة له من الآفات مثل « سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ » حسب ما تقدم . ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى من الذين أعطوا العبودية حقها حتى استحقوا الإضافة إلى الله تعالى .

السادسة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال ٱبن عباس : بشر بنبوته وذهب إلى أن البشارة كانت مرتين[(1)]؛ فعلى هذا الذبيح هو إسحق بشر بنبوته جزاء على صبره ورضاه بأمر ربه وٱستسلامه له . ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ أى ثنّينا عليهما النعمة . وقيل كثّرنا ولدهما ؛ أى باركنا على إبراهيم وعلى أولاده ، وعلى إسحق حين أخرج أنبياء بنى

(1) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى : بشر بنبوته ووقعت البشارة به مرتين .

إسرائيل من صلبه . وقد قيل : إن الكناية فى « عَلَيْهِ » تعود على إسمعيل وأنه هو الذبيح . قال المفضل : الصحيح الذى يدل عليه القرآن أنه إسمعيل وذلك أنه قصّ قصّة الذبيح ، فلما قال فى آخر القصّة : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » ثم قال : « سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ » قال : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ » أى على إسمعيل « وَعَلَى إِسْحَقَ » كنى عنه؛لأنه قد تقدّم ذكره ثم قال: « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا » فدل على أنها ذرية إسمعيل و إسحق ،وليس تختلف الرواة فى أن إسمعيل كان أكبر من إسحق بثلاث عشرة سنة .

قلت : قد ذكرنا أولا مايدل على أن إسحق أكبر من إسمعيل، وأن المبشر به هو إسحق بنص التنزيل ؛ فإذا كانت البشارة باسحق نصّا فالذبيح لاشك هو إسحق ، وبشر به إبراهيم مرتين؛ الأولى بولادته والثانية بنبوّته؛ كما قال ابن عباس، ولا تكون النبوّة إلا فى حال الكبر و«نبيا» نصب على الحال والهاء فى « عليه » عائدة إلى إبراهيم وليس لإسمعيل فى الآية ذكر حتى ترجع الكناية إليه . وأما ماروى من طريق معاوية قال : سمعت رجلا يقول للنبي صلى الله عليه وسلم يابن الذبيحين ؛ فضحك النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قال معاوية : إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم، نذر لله إن سهّل عليه أمرها ليذبحن أحدَ ولده لله ، فسهّل الله عليه أمرها، فوقع السّهم على عبد الله، فمنعه أخواله بنو مخزوم؛ وقالوا : أفد ابنك ؛ ففداه بمائة من الإبل وهو الذبيح ، و إسمعيل هو الذبيح الثانى فلا حجة فيه؛ لأن سنده لايثبت على ماذكرناه فى كتاب «الأعلام فى معرفة مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام» ؛ ولأن العرب تجعل العم أبا؛ قال الله تعالى : « قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحَقَ» وقال تعالى : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ » وهما أبوه وخالته . وكذلك ماروى عن الشاعر الفرزدق عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم لو صح إسناده فكيف والفرزدق فى نفسه مقال .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ﴾ لما ذكر البركة فى الذرية والكثرة قال : منهم محسن ومنهم مسيء، وأن المسيء لاتنفعه بنوة النبوّة، فاليهود والنصارى

وإن كانوا من ولد إسحق، والعرب وإن كانوا من ولد إسمعيل، فلا بد من الفرق بين المحسن والمسيء والمؤمن والكافر؛ وفى التنزيل: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ» الآية؛ أى أبناء رسل الله فرأوا لأنفسهم فضلا. وقد تقدم[1].

قوله تعالى: وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَرُونَ ﴾ لما ذكر إنجاء إسحق من الذبح، وما منّ به عليه بعد النبوّة، ذكر ما منّ به أيضا على موسى وهرون من ذلك. وقوله: ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ قيل: من الرق الذى لحق بنى إسرائيل. وقيل من الغرق الذى لحق فرعون. ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ﴾ قال الفراء: الضمير لموسى وهرون وحدهما؛ وعلى هذا إن الاثنين جمع؛ دليله قوله: «وَآتَيْنَاهُمَا» «وَهَدَيْنَاهُمَا». وقيل: الضمير لموسى وهرون وقومهما وهذا هو الصواب؛ لأن قبله «وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا». و﴿ الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾ التوراة؛ يقال استبان كذا أى صار بيّنا، واستبانه فلان مثل تبين الشىء بنفسه وتبينه فلانٌ. و﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الدِّين القويم الذى لا اعوجاج فيه وهو دين الإسلام. ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ يريد الثناء الجميل. ﴿ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَرُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدّم.

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢٠ طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى : وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال المفسرون : إلياس نبي من بني إسرائيل . وروى عن ابن مسعود قال : إسرائيل هو يعقوب وإلياس هو إدريس . وقرأ « وَإِنَّ إِدْرِيسَ » وقاله عكرمة . وقال : هو في مصحف عبد الله « وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » وانفرد بهذا القول . وقال ابن عباس : هو عم اليسع (١) . وقال ابن إسحق وغيره : كان القيم بأمر بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوقنا ثم حزقيل ، ثم لما قبض الله حزقيل النبي عظمت الأحداث في بني إسرائيل ، ونسوا عهد الله وعبدوا الأوثان من دونه ، فبعث الله إليهم إلياس نبيا وتبعه اليسع وآمن به ، فلما عتا عليه بنو إسرائيل دعا ربه أن يريحه منهم فقيل له : أخرج يوم كذا وكذا إلى موضع كذا وكذا فما استقبلك من شيء فاركبه ولا تهبه . فخرج ومعه اليسع فقال : يا إلياس ما تأمرني . فقذف إليه بكسائه من الجو الأعلى ، فكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل ، وكان ذلك آخر العهد به . وقطع الله على إلياس لذة المطعم والمشرب ، وكساه الريش وألبسه النور ، فطار مع الملائكة ، فكان إنسيا ملكيا سماويا أرضيا . قال ابن قتيبة : وذلك أن الله تعالى قال لإلياس « سلني أعطك » . قال : ترفعني إليك وتؤخر عني مذاقة الموت . فصار يطير مع الملائكة . وقال بعضهم : كان قد مرض وأحس الموت فبكى ، فأوحى الله إليه : لم تبك ؟ حرصا على الدنيا ، أو جزعا من الموت ، أو خوفا من النار ؟ قال : لا ولا شيء من هذا وعزتك ، إنما جزعي كيف يحمدك الحامدون بعدي ولا أحمدك ، ويذكرك

(١) قال بعض المفسرين هو ابن عم اليسع .

الذاكرون بعدى ولا أذكرك ، و يصوم الصائمون بعدى ولا أصوم ، و يصلّى المصلون ولا أصلّى .
فقيل له : « يا إلياس وعزتى لأؤخرنك إلى وقت لا يذكرنى فيه ذاكر » . يعنى يوم القيامة .
وقال عبد العزيز بن أبى رواد : إن إلياس والخضر عليهما السلام يصومان شهر رمضان فى كل عام ببيت المقدس يوافيان الموسم فى كل عام . وذكر ابن أبى الدنيا ؛ إنهما يقولان عند افتراقهما عن الموسم : ما شاء الله ماشاء الله ، لا يسوق الخير إلا الله ؛ ما شاء الله ما شاء الله ، لا يصرف السوء إلا الله ؛ ما شاء الله ما شاء الله ، ما يكون من نعمة فمن الله ؛ ما شاء الله ما شاء الله ، توكلت على الله حسبنا الله ونعم الوكيل . وقد مضى فى «الكهف»(1) . وذكر من طريق مكحول عن أنس قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بفج الناقة عند الحجر ، إذا نحن بصوت يقول : اللهم اجعلنى من أمة محمد المرحومة ، المغفور لها ، المتوب عليها ، المستجاب لها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أنس انظر ما هذا الصوت " فدخلت الجبل ، فإذا أنا برجل أبيض اللحية والرأس ، عليه ثياب بيض ، طوله أكثر من ثلثمائة ذراع ، فلما نظر إلىّ قال : أنت رسول النبي ؟ قلت نعم ؛ قال : ارجع إليه فأقرئه منى السلام وقل له : هذا أخوك إلياس يريد لقاءك . فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وأنا معه ، حتى إذا كنا قريبا منه ، تقدّم النبي صلى الله عليه وسلم وتأخرت ، فتحدثا طويلا ، فنزل عليهما شيء من السماء شبه السفرة فدعوانى فأكلت معهما ، فإذا فيها كمأة ورمان وكرفس ، فلما أكلت قمت فتنحيت ، وجاءت سحابة فاحتملته فإذا أنا أنظر إلى بياض ثيابه فيها تهوى به ؛ فقلت للنبي صلى الله عليه وسلم : بأبى أنت وأمى ! هذا الطعام الذى أكلنا أمن السماء نزل عليه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " سألته عنه فقال يأتينى به جبريل فى كل أربعين يوما أكلة وفى كل حول شربة من ماء زمزم وربما رأيته على الجب يملأ بالدلو فيشرب وربما سقانى " .

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ يعنى لبنى إسرائيل . ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعنى الله عز وجل وتخافون عقابه . ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ اسم صنم لهم كانوا يعبدونه وبذلك سميت مدينتهم بعلبك .

(1) راجع جـ ١١ ص ٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

قال ثعلب : اختلف الناس في قوله عز وجل هاهنا «بَعْلًا» فقالت طائفة : البعل هاهنا الصنم . وقالت طائفة : البعل هاهنا ملك . وقال ابن إسحق : امرأة كانوا يعبدونها . والأول أكثر . وروى الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس : «أَتَدْعُونَ بَعْلًا» قال : صنما . وروى عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس : «أَتَدْعُونَ بَعْلًا» قال : ربًّا . النحاس : والقولان صحيحان ؛ أي أتدعون صنما عملتموه ربًّا . يقال : هذا بعل الدار أي ربها . فالمعنى أتدعون ربًّا اختلقتموه ، و«أتدعون» بمعنى أتسمون . حكى ذلك سيبويه . وقال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي : البعل الرب بلغة اليمن . وسمع ابن عباس رجلا من أهل اليمن يسوم ناقة بمنى فقال : من بعل هذه ؟ . أي من ربها ومنه سمي الزوج بعلا . قال أبو دؤاد (١) :

ورأيتُ بعلَكِ في الوغى * متقلِّدًا سيفًا ورُمحا

مقاتل : صنم كسره إلياس وهرب منهم . وقيل : كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعا ، وله أربعة أوجه ، فُتِنوا به وعظَّموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياءه ، فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسَّدَنة يحفظونها ويعلمونها الناس ، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام . وبه سميت مدينتهم بعلبك كما ذكرنا . ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ أي أحسن من يقال له خالق . وقيل : المعنى أحسن الصانعين ؛ لأن الناس يصنعون ولا يخلقون . ﴿ اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بالنصب في الأسماء الثلاثة قرأ الربيع بن خيثم والحسن وابن أبي إسحق وابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي . وإليها يذهب أبو عبيد وأبو حاتم . وحكى أبو عبيد أنها على النعت . النحاس : وهو غلط وإنما هو على البدل ولا يجوز النعت هاهنا ؛ لأنه ليس بتحلية . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر وشيبة ونافع بالرفع . قال أبو حاتم : بمعنى هو الله ربكم . قال النحاس : وأولى مما قال إنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف . ورأيت علي بن سليمان يذهب إلى أن الرفع

(١) هكذا في كل نسخ الأصل ونسبه في الكامل لعبد الله بن الزبعرى ورواه كما في المعاجم : ياليت زوجك في الوغى الخ وقد مضى للمصنف .

أولى وأحسن؛ لأن قبله رأس آية فالاستئناف أولى . آبن الأنبارى : من نصب أو رفع لم يقف على « أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ » على جهة التمام؛ لأن الله عز وجل مترجَم عن « أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ » من الوجهين جميعا .

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أخبر عن قوم إلياس أنهم كذبوه . ﴿ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى فى العذاب . ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى من قومه فإنهم نجوا من العذاب . وقرئ « المخلِصين » بكسر اللام وقد تقدّم . ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ تقدّم . ﴿ سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴾ قراءة الأعرج وشيبة ونافع . وقرأ عكرمة وأبو عمرو وآبن كثير وحمزة والكسائى : «سلام على إلياسين» . وقرأ الحسن « سلام على الياسين » بوصل الألف كأنها ياسين دخلت عليها الألف واللام التى للتعريف . والمراد إلياس عليه السلام وعليه وقع التسليم ولكنه آسم أعجمى . والعرب تضطرب فى هذه الأسماء الأعجمية ويكثر تغييرهم لها . قال ابن جنى : العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعبا؛ فياسين وإلياس والياسين شىء واحد. الزمخشرى: وكان حمزة إذا وصل نصب وإذا وقف رفع . وقرئ « على إلياسين » و « إدْرِيسين وإدْرَسين وإدْرَاسِين » على أنها لغات فى إلياس وإدريس . ولعل لزيادة الياء والنون فى السريانية معنى . النحاس : ومن قرأ « سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ » فكأنه والله أعلم جعل آسمه إلياس وياسين ثم سلم على آله؛ أى أهل دينه ومن كان على مذهبه ، وعلم أنه إذا سلم على آله من أجله فهو داخل فى السلام ؛ كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " اللهم صلّ على آل أبى أوفى " وقال الله تعالى : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » . ومن قرأ « إلياسين» فللعلماء فيه غير قول . فروى هرون عن ابن أبى إسحق قال : إلياسين مثل إبراهيم يذهب إلى أنه اسم له . وأبو عبيدة يذهب إلى أنه جُمع جمعَ التسليم على أنه وأهل بيته سلّم عليهم ؛ وأنشد :

* قَدْنِيَ من نَصْرِ الْخُبَيْبَيْنِ قَدِى *[1]

(١) تمامه : * ليس الإمام بالشحيح الملحد *

والبيت من أرجوزة لحميد الأرقط يمدح عبد الملك بن مروان ، ويعرض بعبد الله بن الزبير ؛ يرميه بالبخل والإلحاد فى الحرم . وقيل هو لأبى بجدلة .

فقال : قِدنى وقِدِى لغتان بمعنى حَسْب . وإنما يريد أباخُبَيْب عبدالله بن الزبير فجمعه على أن من كان على مذهبه داخل معه . وغير أبي عبيدة يرويه : الخُبَيْبِين على التثنية ، يريد عبدالله ومُصْعبا . ورأيت عليّ بن سليمان يشرحه بأكثر من هذا ؛ [قال](١) فإن العرب تسمى قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم ، فيقولون: المهالبة على أنهم سموا كل رجل منهم بالمهلَّب. قال : فعلى هذا « سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ » سمّى كل رجل منهم بإلياس . وقد ذكر سيبويه فى كتابه شيئا من هذا ، إلا أنه ذكر أن العرب تفعل هذا على جهة النسبة ، فيقولون: الأشعرون يريدون به النسب . المهدوى : ومن قرأ « إلياسين » فهو جمع يدخل فيه إلياس فهو جمع إلياسيّ فحذفت ياء النسبة ؛ كما حذفت ياء النسبة فى جمع المكسَّر فى نحو المهالبة فى جمع مهلبيّ ؛ كذلك حذفت فى المسلَّم فقيل المهلَّبون . وقد حكى سيبويه : الأشعرون والنميرون يريدون الأشعريين والنميريين . السهيليّ : وهذا لا يصح بل هى لغة فى إلياس ، ولو أراد ما قالوه لأدخل الألف واللام كما تدخل فى المهالبة والأشعريين ؛ فكان يقول : « سَلَامٌ على الإلياسين » لأن العَلَم إذا جمع ينكر حتى يعرّف بالألف واللام ؛ لا تقول: سلام على زيدِين ، بل على الزيدين بالألف واللام . فإلياس عليه السلام فيه ثلاث لغات . النحاس : واحتج أبو عبيد فى قراءته « سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ » وأنه اسمه كما أن اسمه إلياس ؛ لأنه ليس فى السورة سلام على « آل » لغيره من الأنبياء صلى الله عليهم وسلم ، فكما سُمّى الأنبياء كذا سُمّى هو . وهذا الاحتجاج أصله لأبي عمرو وهو غير لازم ؛ لأنا بينا قول أهل اللغة أنه إذا سلم على آله من أجله فهو سلام عليه . والقول بأن اسمه « إلياسين » يحتاج إلى دليل ورواية ؛ فقد وقع فى الأمر إشكال . قال الماوردى : وقرأ الحسن « سَلَامٌ على يَاسِينَ » بإسقاط الألف واللام وفيه وجهان : أحدهما أنهم آل محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس . الثانى أنهم آل ياسين ؛ فعلى هذا فى دخول الزيادة فى ياسين وجهان : أحدهما أنها زيدت لتساوى الآى ؛ كما قال فى موضع : « طورِسيناء » وفى موضع آخر « طورِسِينِين » فعلى هذا يكون

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .

السلام على أهله دونه وتكون الإضافة إليه تشريفا له ؛ الثانى أنها دخلت للجمع فيكون داخلا فى جملتهم فيكون السلام عليه وعليهم . قال السهيلى : قال بعض المتكلمين فى معانى القرآن آل ياسين آل محمد عليه السلام، ونزع إلى قول من قال فى تفسير « يسٓ » يا محمد . وهذا القول يبطل من وجوه كثيرة : أحدها أن سياقة الكلام فى قصة إلياسين يلزم أن تكون كما هى فى قصة إبراهيم ونوح وموسى وهرون وأن التسليم راجع عليهم ، ولا معنى للخروج عن مقصود الكلام لقول قيل فى تلك الآية الأخرى مع ضعف ذلك القول أيضا؛ فإن « يسٓ » و « حم » و « الٓمٓ » ونحو ذلك القول فيها واحد، إنما هى حروف مقطعة ، إما مأخوذة من أسماء الله تعالى كما قال ابن عباس ، وإما من صفات القرآن ، وإما كما قال الشعبى : لله فى كل كتاب سر، وسره فى القرآن فواتح القرآن . وأيضا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لى خمسة أسماء" ولم يذكر فيها « يسٓ » . وأيضا فإن « يسٓ » جاءت التلاوة فيها بالسكون والوقف ، ولو كان اسما للنبى صلى الله عليه وسلم لقال « يسنُ » بالضم ؛ كما قال تعالى : « يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ » وإذا بطل هذا القول لما ذكرناه فـ«إلياسين» هو إلياء المذكور وعليه وقع التسليم . وقال أبو عمرو بن العلاء: هو مثل إدريس وإدراسين ، وكذلك هو فى مصحف ابن مسعود «وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» ثم قال: « سلام على إدراسين» . ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم .

قوله تعالى : وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ﴾ تقدم قصة لوط[1] . ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أى بالعقوبة . ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٥ و جـ ٩ ص ٧٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

خاطب العرب أى تمرون على منازلهم وآثارهم « مُصْبِحِينَ » وقت الصباح ﴿ وَبِاللَّيْلِ ﴾ تمرون عليهم أيضا . وتم الكلام . ثم قال : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى تعتبرون وتتدبرون .

قوله تعالى : وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ يونس هو ذو النون، وهو ابن متّى، وهو ابن العجوز التى نزل عليها إلياس، فاستخفى عندها من قومه ستة أشهر ويونس صبيّ يرضع، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتؤانسه ، ولا تدخر عنه كرامة تقدر عليها . ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت فلحق بالجبال ، ومات ابن المرأة يونسُ، فخرجت فى إثر إلياس تطوف وراءه فى الجبال حتى وجدته ، فسألته أن يدعو الله لها لعله يحيى لها ولدها ، فجاء إلياس إلى الصبي بعد أربعة عشر يوما من موته، فتوضأ وصلى ودعا الله فأحيا الله يونس ابن متّى بدعوة إلياس عليه السلام . وأرسل الله يونس إلى أهل نِينَوَى من أرض الموصل ، وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا، حسب ما تقدّم بيانه فى سورة «يونس»(1) ومضى فى «الأنبياء»(2) قصة يونس فى خروجه مغاضبا . واختلف فى رسالته هل كانت قبل التقام الحوت إياه أو بعده . قال الطبرى عن شهر بن حَوْشَب : إن جبريل عليه السلام أتى يونس فقال : انطلق إلى أهل نِينَوَى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم . قال : ألتمس دابة . قال : الأمر أعجل من ذلك . قال : ألتمس حذاء . قال : الأمر أعجل من ذلك. قال : فغضب فانطلق إلى السفينة فركب، فلما ركب السفينة احتبست السفينة لا تتقدّم ولا تتأخر. قال: فتساهموا،

(1) جـ ٨ ص ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية . (2) جـ ١١ ص ٣٢٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قال : فسهم ، فجاء الحوت يبصبص بذنبه ؛ فنودى الحوت : أيا حوت! إنا لم نجعل لك يونس رزقا ، إنما جعلناك له حرزا ومسجدا . قال : فالتقمه الحوت من ذلك المكان حتى مر به إلى الأبلة ، ثم انطلق به حتى مر به على دجلة ، ثم انطلق حتى ألقاه فى نينوى . حدثنا الحرث قال حدثنا الحسن قال حدثنا أبو هلال قال حدثنا شهر بن حوشب عن ابن عباس قال : إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت ؛ واستدل هؤلاء بأن الرسول لا يخرج مغاضبا لربه ، فكان ما جرى منه قبل النبوة . وقال آخرون : كان ذلك منه بعد دعائه من أرسل [إليهم] إلى ما أمره الله بدعائهم إليه ، وتبليغه إياهم رسالة ربه ، ولكنه وعدهم نزول ما كان حذرهم من بأس الله فى وقت وقته لهم ، ففارقهم إذ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله ، فلما أظل القوم العذاب وغشيهم ـــ كما قال الله تعالى فى تنزيله ـــ تابوا إلى الله ، فرفع الله العذاب عنهم ، وبلغ يونس سلامتهم وارتفاع العذاب الذى كان وعدهموه فغضب من ذلك وقال : وعدتهم وعدا فكذب وعدى . فذهب مغاضبا ربه وكره الرجوع إليهم ، وقد جربوا عليه الكذب . رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس . وقد مضى هذا فى «الأنبياء» وهو الصحيح على ما يأتى عند قوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » . ولم ينصرف يونس ؛ لأنه اسم أعجمى ولو كان عربيا لانصرف وإن كانت فى أوله الياء ؛ لأنه ليس فى الأفعال يُفْعُل كما أنك إذا سميت بيُعْفُر صرفته وإن سميت بيَعْفُر لم تصرفه (١) .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ قال المبرد : أصل أبق تباعد ومنه غلام آبق . وقال غيره : إنما قيل ليونس أبق ؛ لأنه خرج بغير أمر الله عز وجل مستترا من الناس . ﴿ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أى المملوء . « والفلك » يذكر ويؤنث ويكون واحدا وجمعا وقد تقدم (٢) . قال الترمذى الحكيم : سماه آبقا لأنه أبق عن العبودية ، وإنما العبودية ترك الهوى وبذل النفس عند أمور الله ، فلما لم يبذل النفس عند ما اشتدت عليه العزمة من الملك حسب ما تقدم بيانه فى « الأنبياء » ، وآثر هواه لزمه اسم الآبق ، وكانت عزمة الملك فى أمر الله

(١) وذلك لأنه زال عنه شبه الفعل بخلاف يعفر فانه على وزن يقتل فنع الصرف .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

لا فى أمر نفسه، وبحظ حق الله لا بحظ نفسه ، فتحرى يونس فلم يصب الصواب الذى عند الله فسماه آبقا ومُليما .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ قال المبرد : فقارع قال : وأصله من السهام التى تُجال . ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ قال : من المغلوبين . قال الفراء : دحضت حجته وأدحضها الله . وأصله من الزلق؛ قال الشاعر :

قَتَلْنا المُدْحَضِينَ بكُلِّ فَجٍّ فقد قرّتْ بقتلِهِمُ العيونُ

أى المغلوبين .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أى أتى بما يلام عليه . فأما الملوم فهو الذى يلام آستحق ذلك أو لم يستحق . وقيل : المليم المعيب . يقال لام الرجل إذا عمل شيئا فصار معيبا بذلك العمل . ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ قال الكسائى لم تكسر أن لدخول اللام ؛ لأن اللام ليست لها . النحاس : والأمر كما قال ؛ إنما اللام فى جواب لولا . « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » أى من المصلين ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى عقوبة له ؛ أى يكون بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة . وآختلف كم أقام فى بطن الحوت . فقال السدى والكلبى ومقاتل بن سليمان : أربعين يوما . الضحاك : عشرين يوما . عطاء : سبعة أيام . مقاتل بن حيان : ثلاثة أيام . وقيل : ساعة واحدة . والله أعلم .

الخامسة — روى الطبرى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لما أراد الله — تعالى ذكره — حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش لحما ولا تكسر عظما فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر فلما آنتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًّا فقال فى نفسه ما هذا فأوحى الله تبارك وتعالى إليه وهو فى بطن الحوت إن هذا تسبيح دوابّ البحر" قال : "فسبح وهو فى بطن الحوت" قال : "فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة" قال : "ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر قالوا العبد الصالح الذى كان

يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت بقذفه فى الساحل كما قال تعالى « وَهُوَ سَقِيمٌ ». وكان سقمه الذى وصفه به الله تعالى ذكره أنه ألقاه الحوت على الساحل كالصبى المنفوس قد نشر اللحم والعظم. وقد روى: أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح، ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر، فلفظه سالما لم يتغير منه شىء فأسلموا؛ ذكره الزمخشرى فى تفسيره. وقال ابن العربى: أخبرنى غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبى المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى أنه سئل عن البارى فى جهة؟ فقال: لا، هو يتعالى عن ذلك. قيل له: ما الدليل عليه؟ قال: الدليل عليه قول النبى صلى الله عليه وسلم: "لا تفضلونى على يونس بن متى" فقيل له: ما وجه الدليل فى هذا الخبر؟ فقال: لا أقوله حتى يأخذ ضيفى هذا ألف دينار يقضى بها دينا. فقام رجلان فقالا: هى علينا. فقال: لا يتبع بها اثنين؛ لأنه يشق عليه. فقال واحد: هى علىّ. فقال: إن يونس بن متى رمى بنفسه فى البحر فالتقمه الحوت، فصار فى قعر البحر فى ظلمات ثلاث، ونادى « لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » كما أخبر الله عنه، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم حين جلس على الرفرف الأخضر وارتقى به صعدا، حتى انتهى به إلى موضع يسمع فيه صريف الأقلام، وناجاه ربه بما ناجاه به، وأوحى إليه ما أوحى بأقرب إلى الله تعالى من يونس فى بطن الحوت فى ظلمة البحر.

السادسة — ذكر الطبرى: أن يونس عليه السلام لما ركب فى السفينة أصاب أهلها عاصف من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدكم. فقال يونس وعرف أنه هو صاحب الذنب: هذه خطيئتى فألقونى فى البحر، وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم « فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » فقال لهم: قد أخبرتكم أن هذا الأمر بذنبى. وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية فكان من المدحضين، وأنهم أبوا أن يلقوه فى البحر حتى أعادوا سهامهم الثالثة فكان من المدحضين. فلما رأى ذلك ألقى نفسه فى البحر، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت. وروى أنه لما ركب فى السفينة تقنّع ورقد، فساروا غير بعيد إذ جاءتهم

ريح كادت السفينة أن تغرق ، فآجتمع أهل السفينة فدعوا فقالوا : أيقظوا الرجل النائم يدعو معنا ؛ فدعا الله معهم فرفع الله عنهم تلك الريح ، ثم آنطلق يونس إلى مكانه فرقد ، فجاءت ريح كادت السفينة أن تغرق ، فأيقظوه ودعوا الله فآرتفعت الريح . قال : فبينما هم كذلك إذ رفع حوت عظيم رأسه إليهم أراد أن يبتلع السفينة ، فقال لهم يونس : يا قوم! هذا من أجلي فلو طرحتموني في البحر لسرتم ولذهب الريح عنكم والروع . قالوا : لا نطرحك حتى نتساهم فمن وقعت عليه رميناه في البحر . قال : فتساهموا فوقع على يونس ، فقال لهم : يا قوم آطرحوني فمن أجلي أوتيتم ؛ فقالوا : لا نفعل حتى نتساهم مرة أخرى . ففعلوا فوقع على يونس . فقال لهم : يا قوم آطرحوني فمن أجلي أوتيتم . فذلك قول الله عز وجل : « فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » أي وقع السهم عليه؛ فآنطلقوا به إلى صدر السفينة ليلقوه في البحر، فإذا الحوت فاتح فاه ، ثم جاءوا به إلى جانب السفينة ؛ فإذا بالحوت ، ثم رجعوا به إلى الجانب الآخر فإذا بالحوت فاتح فاه ، فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فآلتقمه الحوت ؛ فأوحى الله تعالى إلى الحوت : إني لم أجعله لك رزقا ولكن جعلت بطنك له وعاء . فمكث في بطن الحوت أربعين ليلة فنادى في الظلمات « أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَآسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ» وقد تقدم ويأتي . ففي هذا من الفقه أن القُرْعة كانت معمولا بها في شرع من قبلنا ، وجاءت في شرعنا على ما تقدم في « آل عمران » قال آبن العربي (1) : وقد وردت القُرْعة في الشرع في ثلاثة مواطن ؛ الأول — كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، الثاني — أن النبي صلى الله عليه وسلم رفع إليه أن رجلا أعتق ستة أعبد لا مال له غيرهم، فأقرع بينهم؛ فأعتق آثنين وأرقّ أربعة. الثالث — أن رجلين آختصما إليه في مواريث قد درست فقال : " آذهبا وتوخّيا الحق وآستهما وليحلل كل واحد منكما صاحبه " . فهذه ثلاثة مواطن ، وهي القَسْم في النكاح والعتق والقسمة ، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال

(1) راجع جـ ٤ ص ٨٦ طبعة أولى أو ثانية .

وحسم داء التشهى . وٱختلف علماؤنا فى القرعة بين الزوجات فى الغزو على قولين؛ الصحيح منهما الإقراع . وبه قال فقهاء الأمصار؛ وذلك أن السفر بجميعهن لا يمكن ، وٱختيار واحدة منهن إيثار فلم يبق إلا القرعة . وكذلك فى مسألة الأعبد الستة؛ فإن كل اثنين منهما ثلث، وهو القدر الذى يجوز له فيه العتق فى مرض الموت، وتعيينهما بالتشهى لا يجوز شرعا، فلم يبق إلا القرعة . وكذلك التشاجر إذا وقع فى أعيان المواريث لم يميز الحق إلا القُرعة، فصارت أصلا فى تعيين المستحق إذا أشكل . قال : والحق عندى أن تجرى فى كل مشكل، فذلك أبين لها، وأقوى لفصل الحكم فيها، وأجلى لرفع الإشكال عنها؛ ولذلك قلنا إن القرعة بين الزوجات فى الطلاق كالقرعة بين الإماء فى العتق .

السابعة ــ الاقتراع على إلقاء الآدمى فى البحر لا يجوز . وإنما كان ذلك فى يونس وزمانه مقدّمة لتحقيق برهانه، وزيادة فى إيمانه، فإنه لا يجوز لمن كان عاصيا أن يقتل ولا يرمى به فى النار أو البحر، وإنما تجرى عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته . وقد ظنّ بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم فٱضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة تضرب عليهم، فيطرح بعضهم تخفيفا؛ وهذا فاسد؛ فإنها لا تخفّ برمى بعض الرجال وإنما ذلك فى الأموال، ولكنهم يصبرون على قضاء الله عز وجل .

الثامنة ــ أخبر الله عز وجل أن يونس كان من المسبِّحين، وأن تسبيحه كان سبب نجاته؛ ولذلك قيل : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر . قال ٱبن عباس : «مِنَ الْمُسَبِّحِينَ» من المصلّين . قال قتادة : كان يصلّى قبل ذلك فحفظ الله عز وجل له فنجّاه . وقال الربيع بن أنس : لولا أنه كان له قبل ذلك عمل صالح «لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» قال : ومكتوب فى الحكمة ــ إن العمل الصالح يرفع ربه إذا عثر . وقال مقاتل : «مِنَ الْمُسَبِّحِينَ» من المصلّين المطيعين قبل المعصية . وقال وهب : من العابدين . وقال الحسن : ما كان له صلاة فى بطن الحوت، ولكنه قدّم عملا صالحا فى حال الرخاء فذكره الله به فى حال البلاء، وإن العمل الصالح ليرفع صاحبه، وإذا عثر وجد متكأ .

قلت : ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: " من استطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل " فيجتهد العبد، ويحرص على خصلة من صالح عمله، يخاص فيها بينه و بين ربه، و يدخرها ليوم فاقته وفقره، ويخبؤها بجهده، و يسترها عن خلقه، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه . وقد خرج البخارى ومسلم من حديث ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بينما ثلاثة نفر — فى رواية ممن كان قبلكم — يتماشون أخذهم المطر فأووا إلى غار فى جبل فانحطت على فم الغار صخرة من الجبل فانطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا الله بها لعله يفرجها عنكم " الحديث بكماله وهو مشهور، شهرته أغنت عن تمامه . وقال سعيد بن جبير : لما قال فى بطن الحوت «لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» قذفه الحوت . وقيل : «مِنَ الْمُسَبِّحِينَ» من المصلين فى بطن الحوت .

قلت : والأظهر أنه تسبيح اللسان الموافق للجنان، وعليه يدل حديث أبى هريرة المذكور قبل الذى ذكره الطبرى . قال : فسبح فى بطن الحوت . قال : فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا : ياربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة . وتكون « كان » على هذا القول زائدة . أى فلولا أنه من المسبحين . وفى كتاب أبى داود عن سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " دعاء ذى النون فى بطن الحوت « لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» لم يدع به رجل مسلم فى شىء قط إلا استجيب له " وقد مضى هذا فى سورة « الأنبياء »[1] فيونس عليه السلام كان قبل مصليا مسبحا، وفى بطن الحوت كذلك . وفى الخبر: فنودى الحوت، إنا لم نجعل يونس لك رزقا، إنما جعلناك له حرزا ومسجدا. وقد تقدم.

قوله تعالى : فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٢٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ روى أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل . وقال ابن قُسَيْط عن أبي هريرة : طرح يونس بالعراء وأنبت الله عليه يقطينة ؛ فقلنا يا أبا هريرة : وما اليقطينة ؟ قال : شجرة الدُّبَّاء ؛ هيأ الله له أُرْوِيَة[1] وحشية تأكل من خَشَاش الأرض — أو هَشَاش الأرض — فتَفَشَّج[2] عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خرج به — يعني الحوت — حتى لَفَظَه في ساحل البحر ، فطرحه مثل الصبي المنفوس لم ينقص من خلقه شيء . وقيل : إن يونس لما ألقاه الحوت على ساحل البحر أنبت الله عليه شجرة من يقطين ، وهي فيما ذكر شجرة القرع تتقطر عليه من اللبن حتى رجعت إليه قوته . ثم رجع ذات يوم إلى الشجرة فوجدها يبست ، فحزن و بكى عليها فعوتب ؛ فقيل له : أحزنت على شجرة و بكيت عليها ، ولم تحزن على مائة ألف وزيادة من بني إسرائيل ، من أولاد إبراهيم خليلي ، أسرى في أيدي العدو ، وأردت إهلاكهم جميعا . وقيل : هي شجرة التين . وقيل : شجرة الموز تَغَطَّى بورقها ، واستظل بأغصانها ، وأفطر على ثمارها . والأكثر على أنها شجرة اليقطين على ما يأتي . ثم إن الله تبارك وتعالى اجتباه فجعله من الصالحين . ثم أمره أن يأتي قومه ويخبرهم أن الله تعالى قد تاب عليهم ، فعمد إليهم حتى لقي راعيا فسأله عن قوم يونس وعن حالهم وكيف هم ، فأخبره أنهم بخير ، وأنهم على رجاء أن يرجع إليهم رسولهم . فقال له : فأخبرهم أني قد لقيت يونس . فقال : لا أستطيع إلا بشاهد . فسمى له عنزا من غنمه فقال : هذه تشهد لك أنك لقيت يونس . قال : وماذا ؟ قال : وهذه البقعة التي أنت فيها تشهد لك أنك لقيت يونس . قال : وماذا ؟ قال : وهذه الشجرة تشهد لك أنك لقيت يونس . وأنه رجع الراعي إلى قومه فأخبرهم أنه لقي يونس فكذبوه وهمّوا به شرا فقال : لا تعجلوا عليّ حتى أصبح ، فلما أصبح غدا بهم إلى البقعة التي لقي فيها يونس ، فاستنطقها فأخبرتهم أنه لقي يونس ، واستنطق الشاة والشجرة فأخبرتاهم أنه لقي يونس ، ثم إن يونس أتاهم بعد ذلك .

---

(١) الأروية : الأنثى من الوعول . (٢) تفشج : تفرج ما بين رجليها .

ذكر هذا الخبر وما قبله الطبري رحمه الله . « فَنَبَذْنَاهُ » طرحناه . وقيل : تركناه . «بِالْعَرَاءِ» بالصحراء ؛ قاله ابن الأعرابي . الأخفش : بالفضاء . أبو عبيدة : الواسع من الأرض . الفراء : العراء المكان الخالي . قال وقال أبو عبيدة : العراء وجه الأرض ؛ وأنشد لرجل من خزاعة :

ورفعتُ رِجْلًا لا أخافُ عِثارَها * ونَبَذْتُ بالبلدِ العَراءِ ثيابي

وحكى الأخفش في قوله : «وَهُوَ سَقِيمٌ» جمع سقيم [سقمى و] (١) سقامى وسقام . وقال في هذه السورة : «فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ» وقال في «نون والقلم» : «لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ » والجواب أن الله عز وجل خبرها هنا أنه نبذه بالعراء وهو غير مذموم ولولا رحمة الله عز وجل لنبذ بالعراء وهو مذموم ؛ قاله النحاس . وقوله : « وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ » يعني « عَلَيْهِ » أي عنده ؛ كقوله تعالى : « وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ » أي عندي . وقيل : « عَلَيْهِ » بمعنى له . « شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ » اليقطين شجر الدُّبَّاء : وقيل : غيرها ؛ ذكره ابن الأعرابي . وفي الخبر : " الدُّبَّاء والبطيخ من الجنة " وقد ذكرناه في كتاب التذكرة . وقال المبرّد : يقال لكل شجرة ليس لها ساق يفترش ورقها على الأرض يقطينة نحو الدُّبَّاء والبطيخ والحنظل ، فإن كان لها ساق يقلها فهي شجرة فقط ، وإن كانت قائمة أي بعروق تفترش فهي نجمة وجمعها نجم . قال الله تعالى : « وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ » وروي نحوه عن ابن عباس والحسن ومقاتل . قالوا : كل نبت يمتد ويبسط على الأرض ولا يبقى على استواء وليس له ساق نحو القثاء والبطيخ والقرع والحنظل فهو يقطين . وقال سعيد بن جبير : هو كل شيء ينبت ثم يموت من عامه فيدخل في هذا الموز .

قلت : وهو مما له ساق . الجوهري : واليقطين مالا ساق له كشجر القرع ونحوه . الزجاج : اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان إذا أقام به فهو يَفْعيل . وقيل : هو اسم أعجمي . وقيل : إنما خص اليقطين بالذكر ؛ لأنه لا ينزل عليه ذباب . وقيل : ما كان ثَمَّ يقطين

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس ، وهي عبارته عن الأخفش .

فأنبته الله فى الحال . القشيرى : وفى الآية ما يدل على أنه كان مفروشا ليكون له ظل . الثعلبى : كانت تظله فرأى خضرتها فأعجبته ، فيبست فجعل يتحزن عليها ؛ فقيل له : يايونس أنت الذى لم تخلق ولم تسق ولم تُنبت تحزن على شجيرة ، فأنا الذى خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون تريد منى أن أستأصلهم فى ساعة واحدة ، وقد تابوا وتبت عليهم ! فأين رحمتى يا يونس أنا أرحم الراحمين . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يأكل الثريد باللحم والقرع وكان يحب القرع ويقول : " إنها شجرة أخى يونس " وقال أنس : قدم للنبىّ صلى الله عليه وسلم مَرَق فيه دُبّاء وقَدِيد فجعل يتبع الدُّبّاء حوالى القَصْعة . قال أنس : فلم أزل أحبّ الدُّبّاء من يومئذ . أخرجه الأئمة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قد تقدّم عن ابن عباس أن رسالة يونس عليه السلام إنما كانت بعد مانبذه الحوت . وليس له طريق إلا عن شَهْر بن حَوْشَب . النحاس : وأجود منه إسنادا وأصح ما حدّثناه عن علىّ بن الحسين قال : حدّثنا الحسن بن محمد قال حدّثنا عمرو بن العَنْقَزِىّ قال حدّثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون قال حدّثنا عبد الله بن مسعود فى بيت المال عن يونس النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : إن يونس وعد قومه العذاب وأخبرهم أن يأتيهم إلى ثلاثة أيام ، ففرّقوا بين كلّ والدة وولدها ، وخرجوا فجاروا إلى الله عز وجل واستغفروا ، فكفّ الله عز وجل عنهم العذاب ، وغدا يونس عليه السلام ينتظر العذاب فلم ير شيئا ــ وكان من كذَب ولم تكن له بينة قُتِل ــ فخرج يونس مغاضبا ، فأتى قوما فى سفينة فحملوه وعرفوه ، فلما دخل السفينة ركدت السفينة والسفن تسير يمينا وشمالا ؛ فقالوا : ما لسفينتكم ؟ فقالوا : لا ندرى . فقال يونس عليه السلام : إن فيها عبدا آبقا من ربه جل وعز وإنها لن تسير حتى تلقوه . قالوا أما أنت يا نبىّ الله فإنا لا نلقيك . قال : فاقترعوا فمن قُرع فليقع ، فاقترعوا فقرعهم يونس فأبوا أن يدعوه ، قال : فاقترعوا ثلاثا فمن قُرِع فليقع . فاقترعوا فقرعهم يونس ثلاث مرات أو قال ثلاثا فوقع . وقد وكل الله به جل وعز حوتا فابتلعه وهو يهوى به إلى قرار الأرض ، فسمع يونس عليه السلام

تسبيح الحصى « فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » قال : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت . قال « فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ » قال : كهيئة الفرخ الممعوط الذى ليس عليه ريش . قال : وأنبت الله عليه شجرة من يقطين فنبتت ، فكان يستظل بها ويصيب منها ، فيبست فبكى عليها فأوحى الله جل وعز إليه : أتبكى على شجرة يبست ، ولا تبكى على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم ! قال : وخرج رسول الله يونس فإذا هو بغلام يرعى ، قال : ياغلام من أنت؟ قال : من قوم يونس . قال : فإذا جئت إليهم فأخبرهم أنك قد لقيت يونس . قال : إن كنت يونس فقد علمت أنه من كذب قُتل إذا لم تكن له بينة فمن يشهد لى؟ قال : هذه الشجرة وهذه البقعة . قال : فمرهما ، فقال لهما يونس : إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له . قالتا نعم . قال : فرجع الغلام إلى قومه وكان فى منعة وكان له إخوة ، فأتى الملك فقال : إنى قد لقيت يونس وهو يقرأ عليك السلام . قال : فأمر به أن يقتل ، فقالوا : إن له بينة فأرسلوا معه . فأتى الشجرة والبقعة فقال لهما : نشدتكما بالله جل وعز أتشهدان أنى لقيت يونس؟ قالتا : نعم ! قال : فرجع القوم مذعورين يقولون له : شهدت له الشجرة والأرض! فأتوا الملك فأخبروه بما رأوا . قال عبد الله : فتناول الملك يد الغلام فأجلسه فى مجلسه ، وقال : أنت أحق بهذا المكان منى . قال عبد الله : فأقام لهم ذلك الغلام أمرهم أربعين سنة . قال أبو جعفر النحاس : فقد تبين فى هذا الحديث أن يونس كان قد أرسل قبل أن يلتقمه الحوت بهذا الإسناد الذى لا يؤخذ بالقياس . وفيه أيضا من الفائدة أن قوم يونس آمنوا وندموا قبل أن يروا العذاب ؛ لأن فيه أنه أخبرهم أنه يأتيهم العذاب إلى ثلاثة أيام ، ففرقوا بين كل والدة وولدها ، وضجوا ضجة واحدة إلى الله عز وجل . وهذا هو الصحيح فى الباب ، وأنه لم يكن حكم الله عز وجل فيهم كحكمه فى غيرهم فى قوله عز وجل : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » وقوله عز وجل : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ » الآية

وقال بعض العلماء : إنهم رأوا مخائل العذاب فتابوا . وهذا لا يمتنع ؛ وقد تقدم ما للعلماء فى هذا فى سورة « يونس »(١) فلينظر هناك .

قوله تعالى : « أَوْ يَزِيدُونَ » قد مضى فى « البقرة »(٢) محامل « أو » فى قوله تعالى : « أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » . وقال الفراء : « أو » بمعنى بل . وقال غيره : إنها بمعنى الواو ؛ ومنه قول الشاعر :

فلمّا اشتد أمرُ الحربِ فينا تأملنا رِياحا أو رِزَامَا

أى ورزاما . وهذا كقوله تعالى : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ » . وقرأ جعفر بن محمد «إلى مائة ألف ويزيدون» بغير همزة «يزيدون» فى موضع رفع بأنه خبر مبتدإ محذوف أى وهم يزيدون . النحاس : ولا يصح هذان القولان عند البصريين ، وأنكروا كون « أو » بمعنى بل وبمعنى الواو ؛ لأن بل للاضراب عن الأوّل والإيجاب لما بعده ، وتعالى الله عز وجل عن ذلك ، أو خروج من شىء إلى شىء وليس هذا موضع ذلك ؛ والواو معناه خلاف معنى « أو » فلو كان أحدهما بمعنى الآخر لبطلت المعانى ؛ ولو جاز ذلك لكان وأرسلناه إلى أكثر من مائتى ألف أخصر . وقال المبرد : المعنى وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لقلتم هم مائة ألف أو أكثر ، وإنما خوطب العباد على ما يعرفون . وقيل : هو كما تقول : جاءنى زيد أو عمرو وأنت تعرف من جاءك منهما إلا أنك أبهمت على المخاطب . وقال الأخفش والزجاج : أى أو يزيدون فى تقديركم . قال ابن عباس : زادوا على مائة ألف عشرين ألفا . ورواه أبىّ بن كعب مرفوعا . وعن ابن عباس أيضا : ثلاثين ألفا . الحسن والربيع : بضعا وثلاثين ألفا . وقال مقاتل بن حيان : سبعين ألفا . ﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ أى إلى منتهى آجالهم .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ١ ص ٤٦٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ لما ذكر أخبار الماضين تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم آحتج على كفار قريش في قولهم : إن الملائكة بنات الله ؛ فقال : « فَٱسْتَفْتِهِمْ » . وهو معطوف على مثله في أول السورة و إن تباعدت بينهم المسافة؛ أي فسل يا محمد أهل مكة « أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ ». وذلك أن جُهَينة وخُزَاعة و بني مُلَيح و بني سلمة وعبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله . وهذا سؤال توبيخ. ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ أي حاضرون لخلقنا إياهم إناثا . وهذا كما قال الله عز وجل: « وَجَعَلُوا ٱلْمَلَائِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ » . ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ ﴾ وهو أسوأ الكذب ﴿ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في قولهم إن لله ولدا وهو الذي لا يلد ولا يولد . و « إنّ » بعد « أَلَا » مكسورة؛ لأنها مبتدأة . وحكى سيبويه أنها تكون بعد أمَا مفتوحة أو مكسورة ؛ فالفتح على أن تكون أَمَا بمعنى حقًّا والكسر على أن تكون أَمَا بمعنى أَلَا . النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول يجوز فتحها بعد أَلَا تشبيها بأَمَا ، وأمّا في الآية فلا يجوز إلا كسرها؛ لأن بعدها الرفع . وتمام الكلام « لَكَاذِبُونَ » ثم يبتدئ ﴿ أَصْطَفَى ﴾ على معنى التقريع والتوبيخ كأنه قال : ويحكم « أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ » أي آختار البنات وترك البنين . وقراءة العامة « أَصْطَفَى » بقطع الألف ؛ لأنها ألف آستفهام دخلت على ألف الوصل، فحذفت ألف الوصل وبقيت ألف الآستفهام مفتوحة مقطوعة على

حالها مثل « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » على ما تقدّم[١] . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وحمزة « ٱصْطَفَى » بوصل الألف على الخبر بغير استفهام . وإذا ابتدأ كسر الهمزة . وزعم أبو حاتم أنه لا وجه لها ؛ لأن بعدها ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ فالكلام جارٍ على التوبيخ من جهتين : إحداهما أن يكون تبيينا وتفسيرا لما قالوه من الكذب ويكون « مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » منقطعا مما قبله . والجهة الثانية أنه قد حكى النحويون ـ منهم الفراء ـ أن التوبيخ يكون بٱستفهام وبغير ٱستفهام كما قال جل وعز « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا » . وقيل : هو على إضمار القول؛ أى ويقولون « ٱصْطَفَى الْبَنَاتِ » . أو يكون بدلا من قوله : « وَلَدَ اللَّهُ » لأن ولادة البنات وٱتخاذهنّ اصطفاء لهنّ، فأبدل مثال الماضى من مثال الماضى فلا يوقف على هذا على « لَكَاذِبُونَ » . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فى أنه لا يجوز أن يكون له ولد . ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ حجة وبرهان . ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ ﴾ أى بحججكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى قولكم .

قوله تعالى : وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ أكثر أهل التفسير أن الجنة ها هنا الملائكة . روى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : قالوا ـ يعنى كفار قريش ـ الملائكة بنات الله؛ جل وتعالى . فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : فمن أمهاتهن . قالوا : مخدرات الجنّ . وقال أهل الاشتقاق : قيل لهم جِنّة لأنهم لا يُرَوْن . وقال مجاهد : إنهم بطن من بطون الملائكة يقال لهم الجنّة . وروى عن ابن عباس . وروى إسرائيل عن السدى عن أبى مالك قال : إنما قيل لهم جِنّة لأنهم خُزّان على الجنان والملائكة كلهم جِنّة . « نَسَبًا » مصاهرة؛ قال قتادة والكلبى ومقاتل : قالت اليهود لعنهم الله إن الله صاهر الجنّ فكانت

(١) راجع جـ ١١ ص ١٤٧ طبعة أولى أو ثانية .

الملائكة من بينهم. وقال مجاهد والسدى ومقاتل أيضا : القائل ذلك كنانة وخزاعة؛ قالوا : إن الله خطب إلى سادات الجن فزوجوه من سروات بناتهم، فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن . وقال الحسن : أشركوا الشيطان فى عبادة الله فهو النسب الذى جعلوه .

قلت : قول الحسن فى هذا أحسن؛ دليله قوله تعالى : « إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى فى العبادة . وقال ابن عباس والضحاك والحسن أيضا : هو قولهم إن الله تعالى وإبليس أخوان؛ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ ﴾ أى الملائكة ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعنى قائل هذا القول ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ فى النار؛ قاله قتادة . وقال مجاهد : للحساب . الثعلبي : الأول أولى؛ لأن الإحضار تكرر فى هذه السورة ولم يرد الله به غير العذاب . ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى تنزيها لله عما يصفون . ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ فإنهم ناجون من النار .

قوله تعالى : فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ «ما» بمعنى الذى . وقيل : بمعنى المصدر، أى فإنكم وعبادتكم لهذه الأصنام . وقيل : أى فإنكم مع ما تعبدون من دون الله . يقال : جاء فلان وفلان . وجاء فلان مع فلان . ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى على الله ﴿ بِفَاتِنِينَ ﴾ بمضلين . النحاس . أهل التفسير مجمعون فيما علمت على أن المعنى ؛ ما أنتم بمضلين أحدا إلا من قدر الله عن وجل عليه أن يضل . وقال الشاعر :

فرد بنعمته كيده * عليه وكان لنا فاتنا

أى مضلا .

الثانيــة ـ فى هذه الآية ردٌّ على القَدَرية . قال عمــرو بن ذرّ : قدمنا على عمر بن عبد العزيز فذُكِرَ عنده القَدَر ، فقال عمر : لو أراد الله ألّا يُعصَى ما خَلق إبليس وهو رأس الخطيئة ، وإن فى ذلك لعلماً فى كتاب الله جل وعز ، عرفه من عرفه ، وجهله من جهله ؛ ثم قرأ " فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ " إلا من كتب الله عز وجل عليه أن يصلى الجحيم . وقال : فصلَت هذه الآية بين الناس ، وفيها من المعانى أن الشياطين لا يصلون إلى إضلال أحد إلا من كتب الله عليه أنه لا يهتدى ، ولو علم الله جل وعز أنه يهتدى لحال بينه وبينهم . وعلى هــذا قوله تعالى : « وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ » أى لست تصل منهم إلى شىء إلا إلى ما فى علمى . وقال لَبِيد بن ربيعة فى تثبيت القَدَرِ فأحسن :

إنّ تَقْــوَى ربِّنا خير نَفَــلْ * وبإذنِ اللهِ رَيْثِى وَعَجَــلْ
أَحَمَــدُ اللهَ فــلا نِــدَّ لهُ * بِيَــديهِ الخَــيرُ ما شاء فَعَلْ
مَنْ هَداهُ سُبُلَ الخيرِ اهتدَى * ناعِمِ البالِ ومَنْ شاء أَضَلْ

قال الفراء : أهل الحجاز يقولون فتنت الرجل وأهل نجد يقولون أفتنته .

الثالثــة ـ روى عن الحسن أنه قرأ « إِلَّا مَنْ هُوَ صَالُ الْجَحِيمِ » بضم اللام . النحاس : وجماعة أهل التفسير يقولون إنه لحن ؛ لأنه لا يجوز هذا قاضُ المدينةِ . ومن أحسن ما قيل فيــه ما سمعت على بن سليمان يقوله ؛ قال : هو محمول على المعنى ؛ لأن معنى « من » جماعة ، فالتقدير صالون ، فحذفت النون للإضافة ، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين . وقيل : أصله فاعل إلا أنه قلب من صال إلى صايل وحذفت الياء وبقيت اللام مضمومة فهو مثل « شَفَا جُرُفٍ هَارٍ » . ووجه ثالث أن تحذف لام صال تخفيفا وتجــرى الإعراب على عينه ، كما حذف من قولهم : ما باليت به بالة . وأصلها بالية من بالى كعافية من عافى ؛ ونظيره قراءة من قرأ « وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ » « وَلَهُ الْجَوَارُ الْمُنْشَآتُ » أجرى الإعراب على العين . والأصل فى قراءة الجماعة صالِى بالياء فحذفها الكاتب من الخط لسقوطها فى اللفظ .

قوله تعـالى : وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَـامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾

هذا من قول الملائكة تعظيما لله عز وجل، وإنكارا منهم عبادة من عبدهم. ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ قال مقاتل : هـذه الثلاث الآيات نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند سِدْرة المنتهى، فتأخر جبريل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أهنا تفارقني" فقال : ما أستطيع أن أتقدم عن مكانى. وأنزل الله تعالى حكاية عن قول الملائكة : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » الآيات . والتقـدير عند الكوفيين : وما منا إلا من له مقام معلوم . فحذف الموصول . وتقـديره عند البصريين : وما منا ملَك إلا له مقام معلوم؛ أى مكان معلوم فى العبادة؛ قاله ابن مسعود وابن جُبَير . وقال ابن عباس : مافى السموات موضع شبرٍ إلا وعليه ملَك يصلّى ويسبّح . وقالت عائشة رضى الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم : "مافى السماء موضع قدم إلا عليه ملَك ساجد أو قائم". وعن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أَطَّت السماءُ وحقٌّ لها أن تَئِطّ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَك واضع جبهته ساجدا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذّذتم بالنساء على الفـرش ولخرجتم إلى الصُّعُـدات تجأرون إلى الله لوددت أنى كنت شجرة تُعْضَد" خرجه أبو عيسى الترمذى وقال فيه حديث [حسن][1] غريب . ويروى من غير هـذا الوجه أن أبا ذر قال : لوددت أنى كنت شجرة تُعْضَد . ويروى عن أبى ذر موقوفا . وقال قتادة : كان يصلى الرجال والنساء جميعا حتى نزلت هذه الآية « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » . قال : فتقـدم الرجال وتأخر النســاء . « وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ » قال الكلبي : صفوفهـم كصفوف أهل الدنيا فى الأرض . وفى صحيح مسـلم عن جابر بن سَمُرة قال : خرج علينا رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ونحن فى المسجد؛ فقال : " ألا تَصُفّون كما تَصُفّ الملائكة عند ربها" فقلنا يا رسول الله كيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال ؟

(١) الزيادة من صحيح الترمذى .

"يُتمون الصفوف الأُوَل ويتراصُّون فى الصفّ" وكان عمر يقول إذا قام للصلاة : أقيموا صفوفكم واستووا إنما يريد الله بكم هَدْى الملائكة عند ربها ويقرأ « وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ » تأخر يافلان تقدّم يافلان؛ ثم يتقدّم فيكبر . وقد مضى فى سورة « الحجر »[1] بيانه . وقال أبو مالك: كان الناس يصلون متبدّدين فأنزل الله تعالى «وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ» فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يصطفوا . وقال الشعبي : جاء جبريل أو ملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه؛ إن الملائكة لتصلى وتسبّح ما فى السماء ملك فارغ . وقيل : أى لنحن الصافّون أجنحتنا فى الهواء وقوفا ننتظر ما نؤمر به . وقيل : أى نحن الصافّون حول العرش . « وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ » أى المصلّون ؛ قاله قتادة : وقيل : أى المنزّهون الله عما أضافه إليه المشركون . والمراد أنهم يخبرون أنهم يعبدون الله بالتسبيح والصلاة وليسوا معبودين ولا بنات الله . وقيل : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ» من قول الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين للمشركين؛ أى لكل واحد منا ومنكم فى الآخرة مقام معلوم وهو مقام الحساب . وقيل : أى منّا من له مقام الخوف، ومنا من له مقام الرجاء، ومنا من له مقام الإخلاص، ومنّا من له مقام الشكر . إلى غيرها من المقامات .

قلت : والأظهر أن ذلك راجع إلى قول الملائكة «وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ» والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

عاد إلى الإخبار عن قول المشركين ، أى كانوا قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إذا عُيِّروا بالجهل قالوا : «لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ» أى لو بُعث إلينا نبي ببيان الشرائع لاتّبعناه. ولمّا خففت « إن » دخلت على الفعل ولزمتها اللام فرقا بين النفى والإيجاب . والكوفيون

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

يقولون : «إنْ» بمعنى ما واللام بمعنى إلا . وقيل : معنى « لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا » أى كتابا من كتب الأنبياء ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى لو جاءنا ذكر كما جاء الأولين لأخلصنا العبادة لله . ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ أى بالذكر . والفراء يقدره على حذف؛ أى فجاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالذكر فكفروا به . وهذا تعجيب منهم؛ أى فقد جاءهم نبيّ وأنزل عليهم كتاب فيه بيان ما يحتاجون إليه فكفروا وما وفوا بما قالوا . ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قال الزجاج : يعلمون مغبة كفرهم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ قال الفراء : أى بالسعادة . وقيل : أراد بالكلمة قوله عز وجل « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » قال الحسن : لم يُقتَل من أصحاب الشرائع قط أحد. ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ أى سبق الوعد بنصرهم بالحجة والغلبة . ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ على المعنى ولو كان على اللفظ لكان هو الغالب مثل « جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ» . وقال الشيباني: جاء هاهنا على الجمع من أجل أنه رأس آية .

قوله تعالى : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى أعرض عنهم . ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال قتادة : إلى الموت . وقال الزجاج : إلى الوقت الذى أمهلوا إليه . وقال ابن عباس : يعنى القتل ببدر . وقيل يعنى فتح مكة . وقيل : الآية منسوخة بآية السيف . ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قال قتادة : سوف يبصرون حين لاينفعهم الإبصار . وعسى من الله للوجوب وعبر بالإبصار عن تقريب الأمر؛ أى عن قريب يبصرون : وقيل : المعنى فسوف يبصرون العذاب يوم

القيامة . ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم متى هـذا العذاب ؛ أى لا تستعجلوه فإنه واقع بكم .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ أى العذاب . قال الزجاج : وكان عذاب هؤلاء بالقتل . ومعنى « بِسَاحَتِهِمْ » أى بدارهم؛ عن السدى وغيره . والساحة والسَّحْسَة فى اللغة فِناء الدار الواسع . الفراء : « نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ » ونزل بهم سواء . ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى بئس صباح الذين أنذروا بالعذاب . وفيه إضمار أى فساء الصباح صباحهم . وخصّ الصباح بالذكر ؛ لأن العذاب كان يأتيهم فيـه . ومنه الحديث الذى رواه أنس رضى الله عنه قال : لمـا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم خَيْبر، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المَساحى، فقالوا : محمد والخميس(١)، ورجعوا إلى حصنهم؛ فقال صلى الله عليه وسلم : " الله أكبر خَرِبت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين " وهو يبين معنى « فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ » يريد النبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ كرر تأكيدا وكذا ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تأكيد أيضا .

قوله تعـالى : سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

فيـه أربع مسـائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ ﴾ نزّه سبحانه نفسه عما أضاف إليه المشركون . ﴿ رَبِّ الْعِـزَّةِ ﴾ على البـدل . ويجوز النصب على المـدح ، والرفع بمعنى هو ربّ العـزة . ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى من الصاحبة والولد . وسـئل رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن معنى « سبحان الله » فقال : " هو تنزيه الله عن كل سوء " وقد مضى فى « البقرة »(٢) مستوفى .

الثانيـة ـ سـئل محمد بن سُحْنون عن معنى « رَبِّ الْعِزَّةِ » لِم جاز ذلك والعـزّة من صفات الذات، ولا يقال ربّ القدرة ونحوها من صفات ذاته جل وعز؟ فقال : العزة تكون

---

(١) الخميس الجيش . (٢) راجع جـ١ ص ٢٧٦ و٢٨٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة وجـ٢ ص ٧٦ وما بعدها طبعة ثانية .

صفة ذات وصفة فعل ، فصفة الذات نحو قوله : « فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا » وصفة الفعل نحو قوله : « رَبِّ الْعِزَّةِ » والمعنى ربّ العزّة التي يتعاز بها الخلق فيما بينهم فهي من خلق الله عز وجل . قال وقد جاء في التفسير : إن العزة هاهنا يراد بها الملائكة . قال وقال بعض علمائنا : من حلف بعزّة الله فإن أراد عزّته التي هي صفته فحنث فعليه الكفارة، وإن أراد التي جعلها الله بين عباده فلا كفّارة عليه . الماوردى : « رَبِّ الْعِزَّةِ » يحتمل وجهين، أحدهما مالك العزّة، الثاني ربّ كل شيء متعزّز من ملك أو متجبّر .

قلت : وعلى الوجهين فلا كفّارة إذا نواها الحالف .

الثالثة — روى من حديث أبي سعيد الخدريّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول قبل أن يُسلّم « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ » إلى آخر السورة؛ ذكره الثعلبي .

قلت : قرأت على الشيخ الإمام المحدّث الحافظ أبي عليّ الحسن بن محمد بن محمد بن محمد ابن عمروك البكريّ بالجزيرة قُبالة المنصورة من الديار المصرية، قال أخبرتنا الحرّة أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الشعرى بنيسابور في المرة الأولى، أخبرنا أبو محمد إسمعيل ابن أبي بكر القاريّ، قال حدّثنا أبو الحسن عبد الغافر بن محمد الفارسيّ، قال حدّثنا أبو سهل بشر بن أحمد الاسفرايني ، قال حدّثنا أبو سليمان داود بن الحسين البيهقي ، قال حدّثنا أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن عبد الرحمن التميمي النيسابوري، قال حدّثنا هُشَيم عن أبي هرون العبدي عن أبي سعيد الخدريّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال الماوردى : روى الشعبي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ذكره الثعلبي من حديث عليّ رضي الله عنه موقوفا .

الرابعة ـ قوله تعالى : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » أى الذين بلغوا عن الله تعالى التوحيد والرسالة . وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا سلّمتم علىّ فسلّموا على المرسلين فإنما أنا رسول من المرسلين " وقيل : معنى « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » أى أمن لهم من الله جل وعز يوم الفزع الأكبر . « وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى على إرسال المرسلين مبشرين ومنذرين . وقيل : أى على جميع ما أنعم الله به على الخلق أجمعين . وقيل : أى على هلاك المشركين ؛ دليله « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

قلت : والكل مراد والحمد يعم . ومعنى « يَصِفُونَ » يكذبون ، والتقدير عما يصفون من الكذب . تم تفسير سورة الصافات .

سورة ص

مكية فى قول الجميع ، وهى ست وثمانون آية . وقيل ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ صٓ ﴾ قراءة العامة « صٓ » بجزم الدال على الوقف ؛ لأنه حرف من حروف الهجاء مثل « الٓمٓ » و « الٓمٓر » . وقرأ أبىّ بن كعب والحسن وابن أبى إسحق ونصر ابن عاصم « صادِ » بكسر الدال بغير تنوين . ولقراءته مذهبان : أحدهما أنه من صادى يصادى إذا عارض ، ومنه « فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى » أى تعرّض . والمصاداة المعارضة ، ومنه الصَّدَى وهو ما يعارض الصوت فى الأماكن الخالية . فالمعنى صادِ القرآنَ بعملك ؛ أى عارضه بعملك وقابله به ، فاعمل بأوامره ، وانته عن نواهيه . النحاس : وهذا المذهب يروى عن الحسن أنه فسر به قراءته رواية صحيحة . وعنه أن المعنى اتْلُه وتعرض لقراءته . والمذهب

الآخر أن تكون الدال مكسورة لالتقاء الساكنين . وقرأ عيسى بن عمر « صادَ » بفتح الدال ومثله «قافَ» و «نونَ» بفتح آخرها. وله فى ذلك ثلاثة مذاهب : أحدهن أن يكون بمعنى آتل. والثانى أن يكون فتح لالتقاء الساكنين وآختار الفتح للإتباع ؛ ولأنه أخف الحركات . والثالث أن يكون منصوبا على القسم بغير حرف ؛ كقولك : اللهَ لأفعلنّ، وقيل : نصب على الإغراء . وقيل : معناه صادَ محمدٌ قلوبَ الخلق وآستمالها حتى آمنوا به . وقرأ آبن أبى إسحق أيضا «صادٍ» بكسر الدال والتنوين على أن يكون مخفوضا على حذف حرف القسم، وهذا بعيد وإن كان سيبويه قد أجاز مثله . ويجوز أن يكون مشبها بما لا يتمكن من الأصوات وغيرها . وقرأ هرون الأعور ومحمد بن السَّمَيْقَع « صادُ » و « قافُ » ونونُ » بضم آخرهن ؛ لأنه المعروف بالبناء فى غالب الحال، نحو منذُ وقطُ وقبلُ وبعدُ. و « صٓ » إذا جعلته آسما للسورة لم ينصرف ؛ كما أنك إذا سميت مؤنثا بمذكر لا ينصرف وإن قلت حروفه . وقال آبن عباس وجابر بن عبد الله وقد سئلا عن « صٓ » فقالا : لا ندرى ما هى . وقال عكرمة : سأل نافع آبن الأزرق آبن عباس عن «صٓ» فقال : «صٓ» كان بحرا بمكة وكان عليه عرش الرحمن إذ لا ليل ولا نهار . وقال سعيد بن جبير : « صٓ » بحر يحيي الله به الموتى بين النفختين . وقال الضحاك : معناه صدق الله . وعنه أن « صٓ » قَسَمٌ أقسم الله به وهو من أسمائه تعالى، وقاله السدى، وروى عن آبن عباس . وقال محمد بن كعب: هو مفتاح أسماء الله تعالى صمدٌ وصانعُ المصنوعات وصادقُ الوعد . وقال قتادة : هو آسم من أسماء الرحمن . وعنه أنه آسم من أسماء القرآن . وقال مجاهد : هو فاتحة السورة . وقيل : هو مما آستأثر الله تعالى بعلمه، وهو معنى القول الأوّل . وقد تقدّم جميع هذا فى « البقرة »(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنِ ﴾ خفض بواو القسم والواو بدل من الباء؛ أقسم بالقرآن تنبيها على جلالة قدره؛ فإن فيه بيان كل شىء، وشفاء لما فى الصدور، ومعجزة للنبي صلى الله عليه وسلم . ﴿ ذِى الذِّكْرِ ﴾ خفض على النعت وعلامة خفضه الياء، وهو آسم معتل والأصل فيه ذَوَى على فَعَل . قال آبن عباس ومقاتل : معنى « ذِى الذِّكْرِ » ذى البيان . الضحاك :

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

ذى الشرف أى من آمن به كان شرفا له فى الدارين؛ كما قال تعالى: « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أى شرفكم . وأيضا القرآن شريف فى نفسه لإعجازه وآشتماله على ما لا يشتمل عليه غيره . وقيل : « ذِي الذِّكْرِ » أى فيه ذكر ما يحتاج إليه من أمر الدين . وقيل : « ذِي الذكرِ » أى فيه ذكر أسماء الله وتمجيده . وقيل : أى ذى الموعظة والذكر . وجواب القسم محذوف . وآختلف فيه على أوجه : فقيل جواب القسم «صٓ» ؛ لأن معناه حقّ فهى جواب لقوله : « وَالْقُرْآنِ » كما تقول : حقًّا واللهِ، نزل واللهِ، وجب واللهِ، فيكون الوقف من هذا الوجه على قوله : « وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ » حسنا وعلى « فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » تماما. قاله آبن الأنبارى . وحكى معناه الثعلبى عن الفراء . وقيل : الجواب « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » لأن « بل » نفى لأمر سبق وإثبات لغيره ؛ قاله القتبىّ ؛ فكأنه قال : « وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » عن قبول الحق وعداوة لمحمد صلى الله عليه وسلم . أو « وَالْقُرْآنِ ذِي الذكرِ » ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب ؛ لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة بل هم فى تكبر عن قبول الحق . وهو كقوله : « قٓ . وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوا » وقيل : الجواب « كَمْ أَهْلَكْنَا » كأنه قال : والقرآن لكَمْ أهلكنا ؛ فلما تأخرت « كم » حذفت اللام منها ؛ كقوله تعالى : « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا » ثم قال : « قَدْ أَفْلَحَ » أى لقد أفلح . قال المهدوى : وهذا مذهب الفراء . آبن الأنبارى : فمن هذا الوجه لا يتم الوقف على قوله : « فِي عِزَّةٍ وشِقَاقٍ » . وقال الأخفش : جواب القسم « إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ » ونحو منه قوله تعالى : « تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » وقوله : « وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ . إِنْ كُلُّ نَفْسٍ » . آبن الأنبارى : وهذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما وكثرت الآيات والقصص . وقال الكسائى : جواب القسم قوله : « إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ » . آبن الأنبارى : وهذا أقبح من الأوّل ؛ لأن الكلام أشدّ طولا فيما بين القسم وجوابه . وقيل الجواب قوله : « إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ » . وقال قتادة : الجواب محذوف تقديره « وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ » لتبعثنّ ونحوه .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ ﴾ أى فى تكبر وآمتناع من قبول الحق ؛ كما قال جل وعز: « وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ » والعزّة عند العرب الغلبة والقهر. يقال : من عزّ بزّ يعنى من غلب سلب . ومنه « وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ » أراد غلبنى . وقال جرير :

يَعُزُّ على الطريقِ بمَنْكِبيه * كما ٱبْتَرَكَ الخليعُ على القِداحِ (١)

أراد يغلب . ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ أى فى إظهار خلاف ومباينة . وهو من الشّق كأنّ هذا فى شقّ وذلك فى شقّ . وقد مضى فى « البقرة » (٢) مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أى من قوم كانوا أمنع من هؤلاء . و « كم » لفظة التكثير ﴿ فَنَادَوْا ﴾ أى بالآستغاثة والتوبة . والنداء رفع الصوت؛ ومنه الخبر: " ألقه على بلالٍ فإنه أندى منك صوتا " أى أرفع . ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال الحسن : نادوا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل . النحاس : وهذا تفسير منه لقوله عز وجل : « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » فأما إسرائيل فروى عن أبى إسحق عن التيمى عن ٱبن عباس « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » قال : ليس بحين نَزْوٍ (٣) ولا فرار؛ قال : ضُبط القوم جميعا قال الكلبي: كانوا إذا قاتلوا فآضطروا قال بعضهم لبعض مناص؛ أى عليكم بالفرار والهزيمة؛ فلما أتاهم العذاب قالوا مناص؛ فقال الله عز وجل : « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » قال القشيرى : وعلى هذا فالتقدير؛ فنادوا مناص فحذف لدلالة بقية الكلام عليه ؛ أى ليس الوقت وقت ما تنادون به . وفى هذا نوع تحكم؛ إذ يبعد أن يقال : كل من هلك من القرون كانوا يقولون مناص عند الاضطرار . وقيل : المعنى « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » أى لا خلاص وهو نصب بوقوع لا عليه . قال القشيرى : وفيه نظر لأنه لا معنى على هذا للواو فى « وَلَاتَ حِينَ

---

(١) البيت فى وصف جمل؛ يقول : يغلب هذا الجمل الإبل على لزوم الطريق؛ فشبه حرصه على لزوم الطريق؛ وإلحاحه على السير بحرص هذا الخليع على الضرب بالقداح لعله يسترجع بعض ما ذهب من ماله . والخليع المخلوع المقمور ماله . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٣ طبعة ثانية .

(٣) النزو : ضرب من العدو .

مَناصٍ » وقال الجرجاني : أي فنادوا حين لا مناص؛ أي ساعة لا منجىً ولا فوت، فلما قدم « لا » وأخر « حين » اقتضى ذلك الواو ، كما يقتضي الحال إذا جعل ابتداء وخبرا؛ مثل قولك : جاء زيد راكبا؛ فإذا جعلته مبتدأ وخبرا اقتضى الواو مثل جاءني زيد وهو راكب، فحين ظرف لقوله « فَنَادَوْا » والمناص بمعنى التأخر والفرار والخلاص ؛ أي نادوا لطلب الخلاص في وقت لا يكون لهم فيه خلاص . قال الفرّاء :

* أَمِنْ ذكر ليلى إذ نأتك تَنُوصُ (١) *

يقال : ناص عن قِرْنه يَنُوص نَوْصا ومَناصا أي فرّ وزاغ . النحاس : ويقال : ناص ينوص إذا تقدم .

قلت : فعلى هذا يكون من الأضداد، والنَّوص الحمار الوحشي واستناص أي تأخر؛ قاله الجوهري . وتكلم النحويون في « وَلَاتَ حِينَ » وفي الوقف عليه ، وكثّر فيه أبو عبيدة القاسم بن سلّام في كتاب القراءات وكل ما جاء به إلا يسيرا مردود . فقال سيبويه : «لات» مشبهة بليس والاسم فيها مضمر؛ أي ليست أحياننا حين مناص . وحكى أن من العرب من يرفع بها فيقول : ولات حينُ مناصٍ . وحكى أن الرفع قليل ويكون الخبر محذوفا كما كان الاسم محذوفا في النصب؛ أي ولات حينُ مناصٍ لنا . والوقف عليها عند سيبويه والفراء «ولات» بالتاء ثم تبتدئ «حِين مَنَاص» وهو قول ابن كيسان والزجاج . قال أبو الحسن بن كيسان : والقول كما قال سيبويه ؛ لأنه شبهها بليس فكما يقال ليست يقال لات . والوقوف عليها عند الكسائي بالهاء ولَاهْ . وهو قول المبرّد محمد بن يزيد . وحكى عنه علي بن سليمان أن الحجة في ذلك أنها دخلت عليها الهاء لتأنيث الكلمة، كما يقال ثُمَّهْ ورُبَّهْ . وقال القشيري : وقد يقال: ثُمَّتْ بمعنى ثُمَّ، ورُبَّتْ بمعنى رُبَّ؛ فكأنهم زادوا في لا هاء فقالوا لاه، كما قالوا في ثَمَّ ثَمَّهْ ثم عند الوصل صارت تاء . وقال الثعلبي : وقال أهل اللغة و « لَاتَ حِينَ » مفتوحتان كأنهما

(١) تمامه : * فتقصر عنها خطوة وتبوص *

والبوص بالباء الموحدة التقدم

كلمة واحدة ، و إنما هى « لا » زيدت فيها التاء نحو ربّ ورُبّتْ وثمّ وثُمّتْ . قال أبو زبيد الطائى :

طَلَبُوا صُلْحَنا ولاتَ أَوانٍ * فأَجَبْنا أنْ ليس حينَ بقاءِ

وقال آخر :

تذكّرَ حُبَّ ليلى لاتَ حِينًا * وأمسى الشَّيْبُ قد قَطَعَ القَرِينا

ومن العرب من يخفض بها؛ وأنشد الفراء :

فلتَعْرِفَنّ خَلائقًا مَشْمُولَةً * ولتَنْدَمَنّ ولاتَ ساعةَ مَنْدَمِ

وكان الكسائى والفراء والخليل وسيبويه والأخفش يذهبون إلى أن « ولات حين » التاء منقطعة من حين ، و يقولون معناها وليست . وكذلك هو فى المصاحف الجدد والعتق بقطع التاء من حين . وإلى هذا كان يذهب أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنّى. وقال أبو عبيد القاسم ابن سلام . الوقف عندى على هذا الحرف « ولا » والابتداء « تَحِينَ مَنَاصٍ » فتكون التاء مع حين . وقال بعضهم : « لات » ثم يبتدئ فيقول « حِينَ مَنَاصٍ » . قال المهدوى : وذكر أبو عبيد أن التاء فى المصحف متصلة بحين وهو غلط عند النحويين ، وهو خلاف قول المفسرين . ومن حجة أبى عبيد أن قال : إنا لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا فى حين وأوان والآن . وأنشد لأبى وَجْزَة السعدىّ :

العاطفونَ تَحِينَ مامِنْ عاطِفٍ * والمُطْعِمون زَمانَ أَيْنَ المُطْعِمُ .

وأنشد لأبى زبيد الطائى :

طلبوا صلحنا ولا تأوانٍ * فأجبنا أن ليس حين بقاءِ .

فأدخل التاء فى أوان . قال أبو عبيد : ومن إدخالهم التاء فى الآن ، حديث ابن عمر وسأله رجل عن عثمان بن عفان رضى الله عنه، فذكر مناقبه ثم قال : اذهبْ بها تَلانَ معك. وكذلك قول الشاعر[1] :

نوِّلِى قَبْلَ نَأْيِ دارِى جُمانا * وصِلِينا كما زَعَمْتِ تَلانَا

---

(١) هو جميل بن معمر وبعده : . إن خير المواصلين صفاء * من يوافى خليله حيث كانا

قال أبو عبيد : ثم مع هذا كله إنى تعمدت النظر فى الذى يقال له الإمام ـ مصحف عثمان ـ فوجدت التاء متصلة مع حين قد كتبت تحين . قال أبو جعفر النحاس : أما البيت الأول الذى أنشده لأبى وَجْزَة فرواه العلماء باللغة على أربعة أوجه، كلها على خلاف ما أنشده؛ وفى أحدها تقديران؛ رواه أبو العباس محمد بن يزيد :

* العاطِفونَ ولاتَ ما مِن عاطِفِ *

والرواية الثانية :

* العاطِفونَ ولاتَ حِينَ تَعاطُفِ *

والرواية الثالثة رواها ابن كيسان :

* العاطِفونةَ حِينَ ما مِن عاطِفِ *

جعلها هاء فى الوقف وتاء فى الإدراج، وزعم أنها لبيان الحركة شبهت بهاء التأنيث . والرواية الرابعة :

* العاطِفونهُ حِين ما مِن عاطِفِ *

وفى هذه الرواية تقديران : أحدهما وهو مذهب إسمعيل بن إسحق أن الهاء فى موضع نصب؛ كما تقول: الضاربون زيدا فإذا كنيت قلت الضاربوهُ . وأجاز سيبويه فى الشعر الضاربونهُ، فجاء إسمعيل بالتأنيث على مذهب سيبويه فى إجازته مثله . والتقدير الآخر العاطفونهْ على أن الهاء لبيان الحركة، كما تقول : مرّ بنا المسلمونهْ فى الوقف، ثم أجريت فى الوصل مجراها فى الوقف ؛ كما قرأ أهل المدينة « مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ » وأما البيت الثانى فلا حجة له فيه؛ لأنه يوقف عليه (ولات أوان) غير أن فيه شيئا مشكلا؛ لأنه يروى (ولات أوانٍ) بالخفض، وإنما يقع ما بعد لات مرفوعا أو منصوبا . وإن كان قد روى عن عيسى بن عمر أنه قرأ « ولاتِ حِينِ مناصٍ » [بكسر التاء من لات والنون من حين فإن الثبت عنه أنه قرأ « ولاتِ حينَ مناص »] (١) فبنى « لاتِ » على الكسر ونصب « حينَ » فأما (ولاتَ أوانٍ) ففيه تقديران ؛ قال الأخفش : فيه مضمر أى ولات حين أوان .

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .

قال النحاس : وهذا القول بيّن الخطإ . والتقدير الآخر عن أبي إسحق قال : تقديره ولات أواننا فحذف المضاف إليه فوجب ألا يعرب ، وكسره لالتقاء الساكنين . وأنشده محمد بن يزيد (ولات أوانُ) بالرفع . وأما البيت الثالث فبيت مولد لا يعرف قائله ولا تصح به حجة. على أن محمد بن يزيد رواه (كما زعمت الان) . وقال غيره : المعنى كما زعمت أنت الآن . فأسقط الهمزة من أنت والنون . وأما احتجاجه بحديث ابن عمر ، لما ذكر للرجل مناقب عثمان فقال له : اذهب بها تَلاَنَ إلى أصحابك فلا حجة فيه ؛ لأن المحدّث إنما يروى هذا على المعنى . والدليل على هذا أن مجاهدا يروى عن ابن عمر هذا الحديث وقال فيه : اذهب فاجهد جهدك . ورواه آخر : اذهب بها الآن معك . وأما احتجاجه بأنه وجدها في الإمام « تَحِينَ » فلا حجة فيه ؛ لأن معنى الإمام أنه إمام المصاحف فإن كان مخالفا لها فليس بإمام لها ، وفي المصاحف كلها « ولات » فلو لم يكن في هذا إلا هذا الاحتجاج لكان مقنعا . وجمع مناص مناوص .

قوله تعالى : وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ «أن» في موضع نصب والمعنى من أن جاءهم . قيل : هو متصل بقوله « فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » أي في عزة وشقاق وعجبوا ، وقوله : « كَمْ أَهْلَكْنَا » معترض . وقيل : لا بل هذا ابتداء كلام ؛ أي ومن جهلهم أنهم أظهروا التعجب من أن جاءهم منذر منهم . ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ ﴾ أي يجيء بالكلام المموّه الذي يخدع به الناس ؛ وقيل : يفرق بسحره بين الوالد وولده والرجل وزوجته ﴿ كَذَّابٌ ﴾ أي في دعوى النبوّة .

قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ مفعولان أي صيّر الآلهة إلها واحدا . ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ أي عجيب . وقرأ السلمي «عُجَّابٌ» بالتشديد . والعُجَاب والعُجاب

والعَجَب سواء . وقد فرّق الخليل بين عَجِيب وعُجَاب فقال : العَجِيب العَجَب ، والعُجَاب الذى قد تجاوز حدّ العَجَب ، والطويل الذى فيه طول ، والطُّوَال الذى قد تجاوز حدّ الطُّول . وقال الجوهرى : العَجِيب الأمر الذى يتعجب منه ، وكذلك العُجَاب بالضم ، والعُجَّاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأعجوبة . وقال مقاتل : «عُجَّابٌ» لغة أزد شنوءة . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مرض أبو طالب فجاءت قريش إليه ، وجاء النبي صلى الله عليه وسلم ، وعند رأس أبي طالب مجلس رجل ، فقام أبو جهل كي يمنعه ، قال : وشكوه إلى أبي طالب ، فقال : يا بن أخى ما تريد من قومك؟ فقال : "ياعم إنما أريد منهم كلمة تذلّ لهم بها العرب وتؤدّى إليهم بها الجزية العجم" فقال : وما هى ؟ قال : "لا إله إلا الله" قال : فقالوا «أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا» قال : فنزل فيهم القرآن «صۤ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ» حتى بلغ «إِنْ هَذَا إِلَّا ٱخْتِلَاقٌ» خرّجه الترمذى أيضا بمعناه . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقيل : لما أسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه شقّ على قريش إسلامه فاجتمعوا إلى أبى طالب وقالوا : اقض بيننا وبين ابن أخيك . فأرسل أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السواء[(1)] ، فلا تمل كل الميل على قومك . قال : "وماذا يسألونى" قالوا : ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أتعطونني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم" فقال أبو جهل : لله أبوك ! لنعطينكها وعشر أمثالها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "قولوا لا إله إلا الله" فنفروا من ذلك وقاموا ، فقالوا : «أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا» فكيف يسع الخلق كلهم إله واحد . فأنزل الله فيهم هذه الآيات إلى قوله : «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ» .

---

(1) فى نسخ الأصل : يسألك ذا السواء . وفى أبى السعود : يسألونك السواء والإنصاف . وفى البيضاوى كما فى الكشاف : يسألونك السؤال . وعلق عليه الشهاب بقوله : والظاهر أنه تحريف وأنه السواء أى العدل كما وقع فى غيره من التفاسير اهـ .

قوله تعالى : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا ﴾ « الملأ » الأشراف ، والانطلاق الذهاب بسرعة ؛ أى انطلق هؤلاء الكافرون من عند الرسول عليه السلام يقول بعضهم لبعض « أَنِ ٱمْشُوا » أى امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا فى دينه ﴿ وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾. وقيل : هو إشارة إلى مشيهم إلى أبى طالب فى مرضه كما سبق. وفى رواية محمد بن إسحق أنهم أبو جهل بن هشام ، وشيبة وعُتبة ابنا ربيعة ابن عبد شمس ، وأمية بن خلف ، والعاص ابن وائل ، وأبو معيط ؛ جاءوا إلى أبى طالب فقالوا : أنت سيدنا وأنصفنا فى أنفسنا ، فاكفنا أمر ابن أخيك وسفهاء معه ، فقد تركوا آلهتنا وطعنوا فى ديننا . فأرسل أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له : إن قومك يدعونك إلى السواء والنَّصَفة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنما أدعوهم إلى كلمة واحدة " فقال أبو جهل وعشرا . قال : " تقولون لا إله إلا الله " فقاموا وقالوا : « أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا » الآيات . « أَنِ ٱمْشُوا » « أن » فى موضع نصب والمعنى بأن امشوا . وقيل : « أن » بمعنى أى ؛ أى « وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ » أى امشوا ؛ وهذا تفسير انطلاقهم لا أنهم تكلموا بهذا اللفظ . وقيل : المعنى وانطلق الأشراف منهم فقالوا للعوام : « ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ » أى على عبادة آلهتكم « إِنَّ هَٰذَا » أى هذا الذى جاء به محمد عليه السلام ﴿ لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ أى يراد بأهل الأرض من زوال نعم قوم

تغير تنزل بهم . وقيل : « إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ » كلمة تحذير ؛ أى إنما يريد محمد بما يقول الانقياد له ليعلو علينا، ونكون له أتباعا فيتحكم فينا بما يريد، فاحذروا أن تطيعوه . وقال مقاتل : إن عمر لما أسلم وقوى به الإسلام شق ذلك على قريش فقالوا : إن إسلام عمر فى قوة الإسلام لشىء يراد .

قوله تعالى : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ قال ابن عباس والقرظى وقتادة ومقاتل والكلبى والسدى : يعنون ملة عيسى النصرانية وهى آخر الملل . والنصارى يجعلون مع الله إلها . وقال مجاهد وقتادة أيضا : يعنون ملة قريش . وقال الحسن : ما سمعنا أن هذا يكون فى آخر الزمان . وقيل : أى ما سمعنا من أهل الكتاب أن محمدا رسول حق ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ أى كذب وتخرص؛ عن ابن عباس وغيره . يقال : خلق واختلق أى ابتدع ، وخلق الله عز وجل الخلق من هذا؛ أى ابتدعهم على غير مثال .

قوله تعالى : ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ هو استفهام إنكار، والذكر ها هنا القرآن، أنكروا اختصاصه بالوحى من بينهم؛ فقال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ أى من وحيى وهو القرآن . أى قد علموا أنك لم تزل صدوقا فيما بينهم ، وإنما شكوا فيما أنزلته عليك هل هو من عندى أم لا . ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ أى إنما اغتروا بطول الإمهال ، ولو ذاقوا عذابى على الشرك لزال عنهم الشك ، ولما قالوا ذلك ؛ ولكن لا ينفع الإيمان حينئذ . و « لَمَّا » بمعنى لم وما زائدة كقوله : « عَمَّا قَلِيلٍ » و « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ » .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ قيل : أم لهم هذا فيمنعوا محمدا عليه السلام مما أنعم الله عز وجل به عليه من النبوة . و « أم » قد ترد بمعنى التقريع إذا كان الكلام متصلا بكلام قبله ؛ كقوله تعالى : « الم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » . وقد قيل إن قوله : « أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ » متصل بقوله : « وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » فالمعنى أن الله عز وجل يرسل من يشاء؛ لأن خزائن السموات والأرض له . ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾

أى فإن آدعوا ذلك ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ أى فليصعدوا إلى السموات، وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحى على محمد . يقال : رَقِىَ يَرْقَى وآرتقى إذا صَعِد . ورَقَى يَرْقِى رَقْيا مثل رَمَى يَرْمِى رَمْيا من الرقيـة . قال الربيع بن أنس : الأسباب أرقّ من الشعر وأشـدّ من الحديد ولكن لا ترى . والسبب فى اللغة كل ما يوصل به إلى المطلوب من حبل أو غيره . وقيل : الأسباب أبواب السموات التى تنزل الملائكة منها ؛ قاله مجاهد وقتادة . قال زهير :

* ولَوْ رَامَ أسبابَ السماءِ بِسُلَّمِ[1] *

وقيـل : الأسـباب السموات نفسها ؛ أى فليصعدوا سمـاء سماء . وقال السـدى : « فى الْأَسْبَابِ » فى الفضل والدين . وقيل : أى فليعلوا فى أسباب القوة إن ظنوا أنها مانعة . وهو معنى قول أبى عبيدة . وقيل : الأسباب الحبال ؛ يعنى إن وجدوا حبلا أو سببا يصعدون فيه إلى السماء فليرتقوا ؛ وهذا أمر توبيخ وتعجيز . ثم وعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر عليهم فقال : ﴿ جُندٌ مَا هُنَالِكَ ﴾ « ما » صلة وتقديره هم جند ، فـ « جُندٌ » خبر ابتداء محذوف . ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ أى مقموع ذليل قد آنقطعت حجتهم ؛ لأنهم لا يصلون إلى أن يقولوا هذا لنا . ويقال : هُزِمت القـربة إذا آنكسرت ، وهزمتُ الجيش كسرته . والكلام مرتبط بمـا قبـل ؛ أى « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِـقَاقٍ » وهم جند من الأحزاب مهزومون ، فلا تغمك عزتهـم وشقاقهم ، فإنى أهزم جمعهم وأسلب عزهم . وهـذا تأنيس للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد فُعِل بهم هذا فى يوم بَدْر . قال قتادة : وعد الله أنه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلهـا يوم بَدْر . و « هُنَالِكَ » إشارة لبدر وهو موضع تحزبهم لقتال محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : المراد بالأحزاب الذين أتوا المدينة وتحزبوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد مضى ذلك فى « الأحزاب »[2] . والأحزاب الجند ، كما يقال جند من قبائل شتّى . وقيـل : أراد بالأحزاب القرون المـاضية من الكفّار . أى هؤلاء جنـد على طريقة أولئك ؛ كقوله

---

(١) صدر البيت : * ومن هاب أسباب المنايا ينلنه *

(٢) راجع جـ ١٤ ص ١٢٨ وما بعدها طبعة أو ثانية .

تعالى : « فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي » أي على ديني ومذهبي .
وقال الفراء : المعنى هم جندٌ مغلوب؛ أي ممنوع عن أن يصعد إلى السماء . وقال القتبي : يعني أنهم جند لهذه الآلهة مهزوم، فهم لا يقدرون على أن يدّعوا الشيء من آلهتهم، ولا لأنفسهم شيئا من خزائن رحمة الله، ولا من ملك السموات والأرض .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُولَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ذكرها تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم وتسلية له ، أي هؤلاء من قومك يامحمد جند من الأحزاب المتقدّمين الذين تحزّبوا على أنبيائهم، وقد كانوا أقوى من هؤلاء فأهلكوا. وذكر الله تعالى القوم بلفظ التأنيث، وآختلف أهل العربية في ذلك على قولين: أحدهما ـ أنه قد يجوز فيه التذكير والتأنيث . الثاني ـ أنه مذكر اللفظ لا يجوز تأنيثه، إلا أن يقع المعنى على العشيرة والقبيلة ، فيغلب في اللفظ حكم المعنى المضمر تنبيها عليه؛ كقوله تعالى : « كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ » ولم يقل ذكرها ؛ لأنه لما كان المضمر فيه مذكرا ذكره، وإن كان اللفظ مقتضيا للتأنيث . ووصف فرعون بأنه ذو الأوتاد . وقد آختلف في تأويل ذلك ؛ فقال آبن عباس : المعنى ذو البناء المحكم . وقال الضحاك : كان كثير البنيان والبنيان يسمى أوتادا . وعن آبن عباس أيضا وقتادة وعطاء : أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يُلعب له عليها . وعن الضحاك أيضا : ذو القوة والبطش . وقال الكلبي ومقاتل : كان يعذّب الناس بالأوتاد، وكان إذا غضب على أحد مدّه مستلقيا بين أربعة أوتاد في الأرض، ويرسل عليه العقارب والحيات حتى يموت . وقيل : كان يشبح المعذب بين أربع سوارٍ؛ كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد ويتركه حتى يموت . وقيل: ذو الأوتاد أي ذو الجنود الكثيرة فسميت الجنود أوتادا ؛

لأنهم يقوون أمره كما يقوى الوتد البيت . وقال ابن قتيبة : العرب تقول هم فى عز ثابت الأوتاد، يريدون دائما شديدا . وأصل هذا أن البيت من بيوت الشعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد . قال الأسود بن يعفر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة * فى ظل ملك ثابت الأوتاد

وواحد الأوتاد وتد بالكسر ، وبالفتح لغة . وقال الأصمعى : يقال وتد واتد كما يقال شغل شاغل . وأنشد (١) :

لاقت على الماء جذيلا واتدا * ولم يكن يخلفها المواعدا

قال : شبه الرجل بالجذل . ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ أى الغيضة . وقد مضى ذكرها فى « الشعراء » (٢) . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر « لَيْكَةَ » بفتح اللام والتاء من غير همز . وهمز الباقون وكسروا التاء . وقد تقدم هذا . ﴿ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ أى هم الموصوفون بالقوة والكثرة ؛ كقولك فلان هو الرجل . ﴿إِنْ كُلٌّ﴾ بمعنى ما كل . ﴿ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أى فنزل بهم العذاب لذلك التكذيب . وأثبت يعقوب الياء فى « عذابي » و « عقابي » فى الحالين وحذفها الباقون فى الحالين . ونظير هذه الآية قوله عز وجل : « وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ » فسمى هذه الأمم أحزابا .

قوله تعالى : وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ « يَنْظُرُ » بمعنى ينتظر ؛ ومنه قوله تعالى : « انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ » . « هَٰؤُلَاءِ » يعنى كفار مكة . « إِلَّا صَيْحَةً

---

(١) البيت لأبى محمد الفقعسى . والضمير فى لاقت ضمير الإبل . (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وَاحِدَةً » أى نفخة القيامة . أى ما ينتظرون بعد ما أصيبوا ببدر إلا صيحة القيامة . وقيل : ما ينتظر أحياؤهم الآن إلا الصيحة التى هى النفخة فى الصور، كما قال تعالى : « مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً » وهذا إخبار عن قرب القيامة والموت . وقيل : أى ما ينتظر كفار آخر هذه الأمة المتدينين بدين أولئك إلا صيحة واحدة وهى النفخة . وقال عبد الله بن عمرو : لم تكن صيحة فى السماء إلا بغضب من الله عن وجل على أهل الأرض . ﴿ مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ أى من ترداد؛ عن ابن عباس . مجاهد : مالها رجوع . قتادة : مالها من مثنوية . السدى : مالها من إفاقة . وقرأ حمزة والكسائى «مَا لَهَا مِنْ فُوَاقٍ» بضم الفاء. الباقون بالفتح . الجوهرى : والفَواق والفُواق ما بين الحلبتين من الوقت ؛ لأنها تُحلَب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتَدِرّ ثم تُحلَب . يقال : ما أقام عنده إلا فُوَاقا؛ وفى الحديث : " العيادة قدر فواق الناقة " . وقوله تعالى : « مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ » يقرأ بالفتح والضم أى مالها من نظرة وراحة وإفاقة . والفِيقة بالكسر آسم اللبن الذى يجتمع بين الحلبتين : صارت الواو ياء لكسر ما قبلها؛ قال الأعشى يصف بقرة :

حتى إذا فِيقَةٌ فى ضَرعِها آجتمعتْ * جاءتْ لِتُرضِعَ شِقّ النَّفْسِ لو رَضَعا

والجمع فِيَق ثم أفواق مثل شِبر وأشبار ثم أفاويق . قال آبن همّام السَّلُولى :

وذَمُّوا لنا الدُّنيا وهُمْ يَرْضَعُونَها * أَفاوِيقَ حتى ما يدِرُّ لها ثُعْلُ (1)

والأفاويق أيضا ما آجتمع فى السحاب من ماء ، فهو يمطر ساعة بعد ساعة . وأفاقت الناقة إفاقة أى آجتمعت الفِيقة فى ضرعها، فهى مُفِيق ومُفِيقَة — عن أبى عمرو — والجمع مفاويق . وقال الفرّاء وأبو عبيدة وغيرهما : « مِنْ فَوَاقٍ » بفتح الفاء أى راحة لا يفيقون فيها ، كما يفيق المريض والمغشى عليه . و « مِنْ فُوَاقٍ » بضم الفاء من آنتظار . وقد تقدّم أنهما بمعنى وهو ما بين الحلبتين .

---

(1) البيت فى ذم علماء الدنيا . والثعل زيادة فى أطباء الناقة والبقرة والشاة ؛ وهو لا يدر؛ وإنما ذكره للمبالغة .

قلت: والمعنى المراد أنها ممتدّة لا تقطيع فيها. وروى أبو هريرة قال: حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى طائفة من أصحابه؛ الحديث. وفيه " يأمر الله عز وجل إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول ٱنفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله ويأمره فيمدّها ويديمها ويطوّلها يقول الله عز وجل «مَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ» وذكر الحديث، خرجه على بن معبد وغيره كما ذكرناه فى كتاب التذكرة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ قال مجاهد: عذابنا. وكذا قال قتادة: نصيبنا من العذاب. الحسن: نصيبنا من الجنة لنتنعم به فى الدنيا. وقاله سعيد بن جبير. ومعروف فى اللغة أن يقال للنصيب قِطٌّ وللكتاب المكتوب بالجائزة قِطٌّ. قال الفراء: القِطّ فى كلام العرب الحظّ والنصيب. ومنه قيل للصك قِطّ. وقال أبو عبيدة والكسائى: القِطّ الكتاب بالجوائز والجمع القطوط؛ قال الأعشى:

ولا الملكُ النّعمانُ يومَ لقيتُـهُ * بِغِبْطتِهِ يُعطى القُطوطَ ويَأْفِقُ

يعنى كتب الجوائز. ويروى: بأُمّتِهِ بدل بغبطته، أى بنعمته وحاله الجليلة، ويأفق يصلح. ويقال فى جمع قِط أيضا قِططة وفى القليل أَقْطٍ وأَقْطاط. ذكره النحاس. وقال السدى: سألوا أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة ما يوعدون به. وقال إسمعيل بن أبى خالد: المعنى عجل لنا أرزاقنا. وقيل: معناه عجل لنا ما يكفينا؛ من قولهم: قَطْنِى؛ أى يكفينى. وقيل: إنهم قالوا ذلك ٱستعجالا لكتبهم التى يعطونها بأيمانهم وشمائلهم حين تلى عليهم بذلك القرآن. وهو قوله تعالى: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ». «وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ». وأصل القِطّ القَطّ وهو القطع، ومنه قَطّ القلم؛ فالقِط ٱسم للقطعة من الشىء كالقَسْم والقِسْم فأطلق على النصيب والكتاب والرزق لقطعه عن غيره؛ إلا أنه فى الكتاب أكثر ٱستعمالا وأقوى حقيقة. قال أمية بن أبى الصَّلْت:

قَوْمٌ لهم ساحةُ العِراقِ وما * يُجْبَى إليه وَالقِطُّ والقَلَمُ

﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أى قبل يوم القيامة فى الدنيا إن كان الأمر كما يقول محمد . وكل هذا آستهزاء منهم .

قوله تعالى : ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر لما آستهزءوا به . وهذه منسوخة بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ﴾ لما ذكر من أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم، أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر على أذاهم، وسلّاه بكل ما تقدّم ذكره . ثم أخذ فى ذكر داود وقصص الأنبياء ؛ ليتسلى بصبر من صبر منهم ؛ وليعلم أن له فى الآخرة أضعاف ما أعطيه داود وغيره من الأنبياء . وقيل : المعنى آصبر على قولهم، وآذكر لهم أقاصيص الأنبياء؛ لتكون برهانا على صحة نبوّتك . « ذَا الْأَيْدِ » ذا القوّة فى العبادة . وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، وذلك أشد الصوم وأفضله ؛ وكان يصلى نصف الليل، وكان لا يفر إذا لاقى العدوّ، وكان قويا فى الدعاء إلى الله تعالى . وقوله : « عَبْدَنَا » إظهارا لشرفه بهذه الإضافة . ويقال : الأَيْدُ والآدُ كما تقول العيب والعاب . قال[(1)] :

لم يَكُ يَنْآدُ فأمسى آنْآدا *

ومنه رجل أَيِّدٌ أى قوىّ . وتَأَيَّدَ الشىء تقوّى ؛ قال الشاعر :

إذا القـوسُ وتَّرَها أَيِّدٌ * رَمَى فأصابَ الكُلَى والذُّرا

يقول : إذا الله وتّر القوسَ التى فى السحاب رَمَى كُلَى الإبل وأسمنَها بالشحم . يعنى من النبات الذى يكون من المطر . ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ قال الضحاك : أى توّاب . وعن غيره : أنه كلما ذكر

(١) هو العجاج . وآنْآد العود ينآد آنئيادا فهو منآد إذا انثنى وأعوج . وصدر البيت .

* من أن تبدلت بآدى آدا *

ذنبه أو خطر على باله آستغفر منه ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة " . ويقال آب يؤوب إذا رجع ؛ كما قال[1] :

وكلُّ ذِى غَيْبَةٍ يؤوبُ * وغائبُ الموتِ لا يؤوبُ

فكان داود رجّاعا إلى طاعة الله ورضاه فى كل أمر فهو أهل لأن يقتدى به .

قوله تعالى : إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ « يُسَبِّحْنَ » فى موضع نصب على الحال . ذكر تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة وهو تسبيح الجبال معه . قال مقاتل : كان داود إذا ذكر الله جل وعز ذكرت الجبال معه، وكان يفقه تسبيح الجبال . وقال ابن عباس : « يُسَبِّحْنَ » يصلين . وإنما يكون هذا معجزة إذا رآه الناس وعرفوه . وقال محمد بن إسحق : أوتى داود من حسن الصوت ما يكون له فى الجبال دوىّ حسن، وما تصغى لحسنه [الطير[2]] وتصوّت معه، فهذا تسبيح الجبال والطير . وقيل : سخرها الله عز وجل لتسير معه فذلك تسبيحها ؛ لأنها دالة على تنزيه الله عن شبه المخلوقين . وقد مضى القول فى هذا فى « سبإ[3] » وفى « سبحان[4] » عند قوله تعالى « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » وأن ذلك تسبيح مقال على الصحيح من الأقوال . والله أعلم . ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ الإشراق أيضا آبيضاض الشمس بعد طلوعها . يقال : شَرَقت الشمسُ إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت . فكان داود يسبح إثر صلاته عند طلوع الشمس وعند غروبها .

الثانية ــ روى عن آبن عباس أنه قال: كنت أمر بهذه الآية «بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ» ولا أدرى ما هى ، حتى حدّثتنى أم هانئ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ،

(١) هو عبيد بن الأبرص . (٢) زيادة يقتضيها المعنى . (٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٨ طبعة أولى أو ثانية .

فدعا بوضوء فتوضأ، ثم صلى صلاة الضحى، وقال : " يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق " .
وقال عكرمة قال ابن عباس : كان فى نفسى شىء من صلاة الضحى حتى وجدتها فى القرآن « يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ » . قال عكرمة : وكان ابن عباس لا يصلى صلاة الضحى ثم صلاها بعد . وروى أن كعب الأحبار قال لابن عباس : إنى أجد فى كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس هى صلاة الأوابين . فقال ابن عباس : وأنا أوجدك فى القرآن ؛ ذلك فى قصة داود « يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ »

الثالثة — صلاة الضحى نافلة مستحبة، وهى فى الغداة بإزاء العصر فى العشى ؛ لا ينبغى أن تصلى حتى تبيض الشمس طالعة، ويرتفع كدرها، وتشرق بنورها؛ كما لا تصلى العصر اذا اصفرت الشمس . وفى صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة الأوابين حين ترمض الفصال " الفصال والفصلان جمع فصيل، وهو الذى يفطم من الرضاعة من الإبل . والرمضاء شدة الحر فى الأرض . وخص الفصال بالذكر؛ لأنها هى التى ترمض قبل انتهاء شدة الحر التى ترمض بها أمهاتها لقلة جلدها، وذلك يكون فى الضحى أو بعده بقليل، وهو الوقت المتوسط بين طلوع الشمس وزوالها ؛ قاله القاضى أبو بكر بن العربى . ومن الناس من يبادر بها قبل ذلك استعجالا ؛ لأجل شغله فيخسر عمله ؛ لأنه يصليها فى الوقت المنهى عنه ويأتى بعمل هو عليه لا له .

الرابعة — روى الترمذى من حديث انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صلى الضحى ثنتى عشرة ركعة بنى الله له قصرا من ذهب فى الجنة " قال حديث غريب . وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يصبح على كل سُلامى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن المنكر صدقة ويجزى من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى " . وفى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حافظ على شُفعة الضحى غُفر له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر " . وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة

قال : " أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى ونوم على وتر" لفظ البخاري . وقال مسلم : "وركعتي الضحى" وخرّجه من حديث أبي الدرداء كما خرّجه البخاري من حديث أبي هريرة . وهذا كله يدل على أن أقل الضحى ركعتان وأكثره ثنتا عشرة .. والله أعلم . وأصل السُّلامى (بضم السين) عظام الأصابع والأكف والأرجل، ثم استعمل في سائر عظام الجسد ومفاصله . وروى من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلثمائة مفصل فمن كبر الله وحمد الله وهلل الله وسبح الله واستغفر الله وعزل حجرا عن طريق الناس أو شوكة أو عظما عن طريق الناس وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلثمائة سلامى فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار" قال أبو توبة : وربما قال "يمسي" كذا خرجه مسلم . وقوله : " ويجزى من ذلك ركعتان " أي يكفى من هذه الصدقات عن هذه الأعضاء ركعتان . وذلك أن الصلاة عمل بجميع أعضاء الجسد؛ فإذا صلى فقد قام كل عضو بوظيفته التي عليه في الأصل . والله أعلم .

قوله تعالى : وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ معطوف على الجبال . قال الفراء : ولو قرئ « وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ» لجاز؛ لأنه لم يظهر الفعل . قال ابن عباس : كان داود عليه السلام إذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير فسبحت معه . فاجتماعها إليه حشرها . فالمعنى وسخرنا الطير مجموعة إليه لتسبح الله معه . وقيل : أي وسخرنا الريح لتحشر الطيور إليه لتسبح معه ، أو أمرنا الملائكة تحشر الطيور . ﴿ كُلٌّ لَهُ ﴾ أي لداود ﴿ أَوَّابٌ ﴾ أي مطيع؛ أي تأتيه وتسبح معه . وقيل : الهاء لله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أي قويناه حتى ثبت . قيل : بالهيبة وإلقاء الرعب منه في القلوب . وقيل : بكثرة الجنود . وقيل : بالتأييد والنصر . وهذا اختيار ابن العربي .

فلا ينفع الجيش الكثير التفافه على غير منصور وغير مُعانٍ . وقال ابن عباس رضي الله عنه كان داود أشد ملوك الأرض سلطانا . كان يحرس محرابه كل ليلة نيف وثلاثون ألف رجل ، فإذا أصبح قيل : ارجعوا فقد رضي عنكم نبي الله . والمُلْك عبارة عن كثرة الملك ، فقد يكون للرجل ملك ولكن لا يكون ملكا حتى يكثر ذلك ؛ فلو ملك الرجل دارا وامرأة لم يكن ملكا حتى يكون له خادم يكفيه مؤنة التصرف في المنافع التي يفتقر إليها لضرورته الآدمية . وقد مضى هذا المعنى في « براءة »(١) وحقيقة الملك في « النمل » مستوفى

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ أي النبوة ؛ قاله السدي . مجاهد : العدل . أبو العالية : العلم بكتاب الله تعالى . قتادة : السنة . شريح : العلم والفقه . ﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي وقتادة : يعني الفصل في القضاء . وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل . وقال ابن عباس : بيان الكلام . علي بن أبي طالب : هو البينة على المدعي واليمين على من أنكر . وقاله شُرَيح والشَّعْبي وقتادة أيضا . وقال أبو موسى الأشعري والشَّعبي أيضا : هو قوله أما بعد ، وهو أول من تكلم بها . وقيل : « فَصْلُ الْخِطَابِ » البيان الفاصل بين الحق والباطل . وقيل : هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل . والمعنى في هذه الأقوال متقارب . وقول علي رضي الله عنه يجمعه ؛ لأن مدار الحكم عليه في القضاء ما عدا قول أبي موسى .

الثانيــة ــ قال القاضي أبو بكر بن العربي : فأما علم القضاء فَلَعَمْرُ إلهك إنه لنوع من العلم مجرد ، وفصل منه مؤكَّد ، غير معرفة الأحكام والبصر بالحلال والحرام ؛ ففي الحديث " أقضاكم علي وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل " وقد يكون الرجل بصيرا بأحكام الأفعال ، عارفا بالحلال والحرام ، ولا يقوم بفصل القضاء . يروى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن حفر قوم زُبْيَة للأسد ،

(١) راجع جـ ٨ ص ١٧١ طبعة أولى أو ثانية .

فوقع فيها الأسد، وازدحم الناس على الزبية فوقع فيها رجل وتعلق بآخر، وتعلق الآخر بآخر، حتى صاروا أربعة، فجرحهم الأسد فيها فهلكوا ، وحمل القوم السلاح وكاد يكون بينهم قتال ؛ قال فأتيتهم فقلت : أتقتلون مائتي رجل من أجل أربعة أناس ! تعالوا أقض بينكم بقضاء؛ فإن رضيتموه فهو قضاء بينكم ، وإن أبيتم رفعتم ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أحق بالقضاء . فجعل للأول ربع الدية، وجعل للثاني ثلث الدية ، وجعل للثالث نصف الدية ، وجعل للرابع الدية ، وجعل الديات على من حفر الزُّبْيَة على قبائل الأربع ؛ فسخط بعضهم ورضي بعضهم، ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصوا عليه القصة ؛ فقال : " أنا أقضي بينكم " فقال قائل : إن عليا قد قضى بيننا . فأخبروه بما قضى علي ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "القضاء كما قضى علي" في رواية : فأمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء علي . وكذلك يروى في المعرفة بالقضاء أن أبا حنيفة جاء إليه رجل فقال : إن ابن أبي ليلى — وكان قاضيا بالكوفة — جلد امرأة مجنونة قالت لرجل يا ابن الزانيين حدين في المسجد وهي قائمة . فقال : أخطأ من ستة أوجه . قال ابن العربي : وهذا الذي قاله أبو حنيفة بالبديهة لا يدركه أحد بالروية إلا العلماء . فأما قضية علي فلا يدركها الشادي ، ولا يلحقها بعد التمرن في الأحكام إلا العاكف المتمادي . وتحقيقها أن هؤلاء الأربعة المقتولون خطأ بالتدافع على الحفرة من الحاضرين عليها ، فلهم الديات على من حضر على وجه الخطأ ، بيد أن الأول مقتول بالمدافعة قاتل ثلاثة بالمجاذبة ، فله الدية بما قُتِل ، وعليه ثلاثة أرباع الدية بالثلاثة الذين قتلهم . وأما الثاني فله ثلث الدية وعليه الثلثان بالاثنين اللذين قتلهما بالمجاذبة . وأما الثالث فله نصف الدية وعليه النصف ؛ لأنه قتل واحدا بالمجاذبة فوقعت المحاصة وغرمت العواقل هذا التقدير بعد القصاص الجاري فيه . وهذا من بديع الاستنباط . وأما أبو حنيفة فإنه نظر إلى المعاني المتعلقة فرآها ستة : الأول أن المجنون لا حد عليه ؛ لأن الجنون يسقط التكليف . وهذا إذا كان القذف في حالة الجنون ، وأما إذا كان يجن مرة ويفيق أخرى فإنه يحد بالقذف في حالة إفاقته . والثاني قولها يا ابن الزانيين فجلدها حدين لكل أب حد، فإنما خطأه أبو حنيفة على مذهبه في أن حد

القذف يتداخل ؛ لأنه عنده حق الله تعالى كحد الخمر والزنى ؛ وأما الشافعي ومالك فإنهما يريان أن الحد بالقذف حق للآدمي ، فيتعدد بتعدد المقذوف . الثالث أنه جلد بغير مطالبة المقذوف، ولا تجوز إقامة حد القذف بإجماع من الأمة ، إلا بعد المطالبة بإقامته ممن يقول إنه حق لله تعالى ، ومن يقول إنه حق الآدمي . وبهذا المعنى وقع الاحتجاج لمن يرى أنه حق للآدمي ؛ إذ لو كان حقا لله لما توقف على المطالبة كحد الزنى . الرابع أنه والى بين الحدين ، ومن وجب عليه حدان لم يوالَ بينهما ، بل يحد لأحدهما ثم يترك حتى يندمل الضرب ، [أو يستبل المضروب](1) ثم يقام عليه الحد الآخر . الخامس أنه حدها قائمة ، ولا تحد المرأة إلا جالسة مستورة ؛ قال بعض الناس : في زنبيل . السادس أنه أقام الحد في المسجد ولا تقام الحدود فيه إجماعا . وفي القضاء في المسجد والتعزير فيه خلاف . قال القاضي : فهذا هو فصل الخطاب وعلم القضاء ، الذي وقعت الإشارة إليه على أحد التأويلات في الحديث المروي " أقضاكم علي " . وأما من قال : إنه الإيجاز فذلك للعرب دون العجم ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم دون العرب ؛ وقد بين هذا بقوله : " وأوتيت جوامع الكلم " . وأما من قال : إنه قوله أما بعد ؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته " أما بعد " . ويروى أن أول من قالها في الجاهلية سحبان بن وائل، وهو أول من آمن بالبعث ، وأول من توكأ على عصا ، وعمّر مائة وثمانين سنة . ولو صح أن داود عليه السلام قالها ، لم يكن ذلك منه بالعربية على هذا النظم، وإنما كان بلسانه . والله أعلم .

قوله تعالى : وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ

(1) الزيادة من ابن العربي .

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾

فيـــه أربع وعشرون مسئلة .

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ « الْخَصْمُ » يقع على الواحد والاثنين والجماعة ؛ لأن أصله المصدر . قال الشاعر :

وخَصْمٌ غِضَابٌ يَنْفُضونَ لِحَاهُمُ * كنفضِ البَرَاذِينِ العِرابِ المَخَاليا

النحاس : ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يراد به هاهنا مَلَكان . وقيل : « تَسَوَّرُوا » و إن كانا اثنين حملًا على الخصم ، إذ كان بلفظ الجمع ومضارعا له ، مثل الركب والصحب . وتقديره للاثنين ذوا خصم وللجماعة ذوو خصم . ومعنى « تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » أتوه من أعلى سوره . يقال : تسوّر الحائط تسلّقه ، والسور حائط المدينة وهو بغير همز ، وكذلك السُّور جمع سورةٍ مثل بُسْرَةٍ و بُسْرٍ وهى كل منزلة من البناء . ومنه سورة القرآن ؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى . وقد مضى فى مقدمة الكتاب بيان هذا (١) . وقول النابغة :

ألم تَرَ أنَّ الله أعطاكَ سُورَةً * تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَها يَتَذَبْذَبُ

يريد شرفا ومنزلة . فأما السؤر بالهمز فهو بقية الطعام فى الإناء . ابن العربى : والسؤر الوليمة بالفارسى . وفى الحديث : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب " إن جابرا قد صنع لكم سؤرا فحيّهلا بكم " والمحراب هنا الغرفة ؛ لأنهم تسوّروا عليه فيها ؛ قاله يحيى بن سلام . وقال أبو عبيدة : إنه صدر المجلس ، ومنه محراب المسجد . وقد مضى القول فيه فى غير موضع (٢) . ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ ﴾ جاءت « إِذْ » مرتين ؛ لأنهما فعلان . وزعم

---

(١) راجع جـ ١ ص ٦٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٧١ و جـ ١١ ص ٨٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الفرّاء : أن إحداهما بمعنى لمّا ؛ وقول آخر أن تكون الثانيــة مع ما بعدها تبيينا لمـا قبلها . قيــل - إنهما كانا إنسيين؛ قاله النقاش . وقيــل : ملَكين ؛ قاله جماعة . وعينهما جماعة فقالوا : إنهما جبريل وميكائيل . وقيــل : ملَكين فى صورة إنسيين بعثهما الله إليه فى يوم عبادته ، فمنعهما الحرس الدخول، فتسوّروا المحراب عليــه ، فما شعر وهو فى الصلاة إلا وهما بين يديه جالسين ؛ وهو قوله تعــالى : « وَهَــلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » أى علوا ونزلوا عليه من فوق المحراب؛ قاله سفيان الثورى وغيره . وسبب ذلك ماحكاه آبن عباس أن داود عليه الســلام حدّث نفسه إن آبتلى أن يعتصم . فقيل له : إنك ستبتلى وتعلم اليوم الذى تبتلى فيه فخذ حِذرك . فأخذ الزّبور ودخل المحراب ومنع من الدخول عليــه ، فبينا هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر كأحسن ما يكون من الطير ، فجعل يدرُج بين يديه ، فهمّ أن يتناوله بيده ، فآستدرج حتى وقع فى كوّة المحراب، فدنا منه ليأخذه فطار ، فآطلع ليبصره فأشرف على آمرأة تغتسل ، فلما رأته غطت جســدها بشعرها . قال الســدى : فوقعت فى قلبه . قال آبن عباس : وكان زوجها غازيا فى سبيل الله وهو أوريا بن حنان ، فكتب داود إلى أمير الغزاة أن يجعل زوجها فى حَمَلة التابوت ، وكان حَمَــلة التابوت إما أن يفتح الله عليهم أو يقتلوا، فقدّمه فيهم فقتل، فلما آنقضت عدّتها خطبها داود، وآشترطت عليه إن ولدت غلاما أن يكون الخليفة بعده، وكتبت عليه بذلك كتابا ، وأشهدت عليه خمسين رجلا من بنى إسرائيل، فلم تستقر نفسه حتى ولدت سليمان وشبّ ، وتسوّر الملَكان وكان من شأنهما ماقص الله فى كتابه . ذكره المــاوردى وغيره . ولا يصح . قال آبن العربى : وهو أمثل ما روى فى ذلك[1] .

(١) ما أورده القرطبى هنا فى حق داود عليه الصلاة والسلام من قبيل الإسرائيليات ولا صحة لهـا ، وهو هراء وآفتراء كما قال البيضاوى ، ومـا يقدح فى عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولقد أحسن أبو حيان وأجاد حيث يقول : ونعلم قطعا أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم فى شىء منها ، ضرورة أنا لو جوزنا عليهم شيئا من ذلك بطلت الشرائع ، ولم نثق بشىء ممـا يذكرون أنه أوحى الله به إليهم ، فمـا حكى الله تعالى فى كتابه يمر على ما أراده تعالى ، وما حكى القصاص ممـا فيه غض من منصب النبوة طرحناه ؛ ونحن كما قال الشاعر :

ونؤثر حكم العقل فى كل شــبهة * إذا آثر الأخبار جلاس قصاص

والرقاشى مطروح الرواية عند التحقيق . وسيأتى للؤلف أن ينقل عن النحاس فى صفحة ١٧٥ ما يؤيد ما أوردناه .

قلت : ورواه مرفوعا بمعناه الترمذيّ الحكيم فى «نوادر الأصول» عن يزيد الرقاشيّ ، سمع أنس بن مالك يقول، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن داود النبي عليه السلام حين نظر إلى المرأة فهمّ بها قطع على بنى إسرائيل بَعْثًا وأوصى صاحب البَعْث فقال إذا حضر العدوّ قرِّب فلانا وسماه قال فقرَّبه بين يدى التابوت — قال — وكان ذلك التابوت فى ذلك الزمان يُستَنصَر به فمن قُدِّم بين يدى التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش الذى يقاتله فقُدِّم فقُتِل زوجُ المرأة ونزل الملكان على داود فقصّا عليه القصّة " . وقال سعيد عن قتادة : كتب إلى زوجها وذلك فى حِصار عَمّان مدينة بلقاء(1) أن يأخذوا بحلقة الباب ، وفيه الموت الأحمر، فتقدّم فقتل . وقال الثعلبي قال قوم من العلماء : إنما آمتحن الله داود بالخطيئة، لأنه تمنى يوما على ربه منزلة إبراهيم و إسحق و يعقوب ، وسأله أن يمتحنه نحو ما آمتحنهم، و يعطيه نحو ما أعطاهم . وكان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام، يوم يقضى فيه بين الناس، و يوم يخلو فيه بعبادة ربه ، و يوم يخلو فيه بنسائه وأشغاله . وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم و إسحق و يعقوب . فقال : يارب ! إن الخير كله قد ذهب به آبائى ؛ فأوحى الله تعالى إليه : إنهم آبتلوا ببلايا لم يبتل بها غيرهم فصبروا عليها ؛ آبتلى إبراهيم بنمروذ و بالنار و بذبح آبنه ، وآبتلى إسحق بالذبح وآبتلى يعقوب بالحزن على يوسف وذهاب بصره، ولم تُبتَل أنت بشيء من ذلك. فقال داود عليه السلام: فآبتلنى بمثل ما آبتليتهم، وأعطنى مثل ما أعطيتهم ، فأوحى الله تعالى إليه : إنك مبتلى فى شهر كذا فى يوم الجمعة . فلما كان ذلك اليوم دخل محرابه، وأغلق بابه ، وجعل يصلى و يقرأ الزبور . فبينا هو كذلك إذ مثل له الشيطان فى صورة حمامة من ذهب ، فيها من كل لون حسن ، فوقفت بين رجليه، فمدّ يده ليأخذها فيدفعها لآبن له صغير ، فطارت غير بعيد ولم تؤيسه من نفسها ، فامتد إليها ليأخذها فتنحت، فتبعها فطارت حتى وقعت فى كوة، فذهب ليأخذها فطارت ونَظرَ داود يرتفع فى إثرها ليبعث إليها من يأخذها ، فنظر آمرأة فى بستان على شط بركة

---

(1) مدينة بلقاء يريد بها قصبة البلقاء .

تغتسل ؛ قاله الكلبي . وقال السدى : تغتسل عريانة على سطح لها ؛ فرأى أجمل النساء خَلْقا ، فأبصرت ظله فنقضت شعرها فغطى بدنها ، فزاده إعجابا بها . وكان زوجها أوريا بن حنان ، فى غزوة مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود ، فكتب داود إلى أيوب أن ابعث بأوريا إلى مكان كذا وكذا ، وقَدِّمه قبل التابوت ، وكان من قدّم قبل التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله عليه أو يستشهد . فقدّمه ففتح له فكتب إلى داود يخبره بذلك . قال الكلبي : وكان أوريا سيف الله فى أرضه فى زمان داود ، وكان إذا ضرب ضربة وكبّر كبّر جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله ، وكبّرت ملائكة السماء بتكبيره حتى ينتهى ذلك إلى العرش ، فتكبّر ملائكة العرش بتكبيره . قال : وكان سيوف الله ثلاثة(١) ؛ كالب بن يوفنا فى زمن موسى ، وأوريا فى زمن داود ، وحمزة بن عبد المطلب فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما كتب أيوب إلى داود يخبره أن الله قد فتح على أوريا كتب داود إليه : أن ابعثه فى بعث كذا وقدّمه قبل التابوت ؛ ففتح الله عليه ، فقتل فى الثالثة شهيدا . فتزوج داود تلك المرأة حين انقضت عدّتها . فهى أم سليمان بن داود . وقيل : سبب امتحان داود عليه السلام أن نفسه حدثته أنه يطيق قطع يوم بغير مقارفة شىء . قال الحسن : إن داود جزأ الدهر أربعة أجزاء ؛ جزءا لنسائه ، وجزءا للعبادة ، وجزءا لبنى إسرائيل يذاكرونه ويذاكرهم ويبكونه ويبكيهم ، ويوما للقضاء ، فتذاكروا هل يمرّ على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبا ؟ فأضمر داود أنه يطيق ذلك ، فأغلق الباب على نفسه يوم عبادته ، وأمر ألا يدخل عليه أحد ، وأكب على قراءة الزبور ، فوقعت حمامة من ذهب بين يديه . وذكر نحو ما تقدّم . قال علماؤنا : وفى هذا دليل وهى .

الثانية ــ على أنه ليس على الحاكم أن ينتصب للناس كل يوم ، وأنه ليس للإنسان أن يترك وطء نسائه وإن كان مشغولا بالعبادة . وقد مضى هذا المعنى فى « النساء »(٢) . وحكم كعب بذلك فى زمن عمر بحضره رضى الله عنهما . وقد قال عليه السلام

---

(١) فى النسخة الخيرية : وكان سيوف الله هكذا ثلاثة . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٩ طبعة أولى أو ثانية .

لعبد الله بن عمر : " إن لزوجك عليك حقا " الحديث . وقال الحسن أيضا ومجاهد : إن داود عليه السلام قال لبنى إسرائيل حين آستخلف : والله لأعدلن بينكم، ولم يستثن فابتلى بهذا . وقال أبو بكر الوراق : كان داود كثير العبادة فأعجب بعمله وقال : هل فى الأرض أحد يعمل كعملى . [فأرسل][1] الله إليه جبريل؛ فقال إن الله تعالى يقول لك: عجبتَ بعبادتك ، والعجب يأكل العبادة كما تأكل النار الحطب، فإن أعجبتَ ثانية وكلتك إلى نفسك . قال : يا رب كِلْنى إلى نفسى سنة . قال : إن ذلك لكثير . قال : فشهرا . قال : إن ذلك لكثير . قال : فيوما . قال: إن ذلك لكثير . قال : يا رب فكِلْنى إلى نفسى ساعة . قال : فشأنك بها . فوكّل الأحراس، ولبس الصوف، ودخل المحراب ، ووضع الزّبور بين يديه ؛ فبينما هو فى عبادته إذ وقع الطائر بين يديه، فكان من أمر المرأة ما كان . وقال سفيان الثورى قال داود ذات يوم: يا رب ما من يوم إلا ومن آل داود لك فيه صائم، وما من ليلة إلا ومن آل داود لك فيها قائم . فأوحى الله إليه : يا داود منك ذلك أو منى ؟ وعزتى لأكلنك إلى نفسك . قال : يا رب آعف عنّى . قال : أكلك إلى نفسك سنة . قال : لا بعزّتك . قال : فشهرا . قال : لا بعزّتك . قال : فأسبوعا . قال : لا بعزّتك . قال : فيوما . قال : لا بعزّتك . قال : فساعة . قال : لا بعزّتك . قال : فلحظة . فقال له الشيطان : وما قدر لحظة . قال : كِلْنى إلى نفسى لحظة . فوكله الله إلى نفسه لحظة . وقيل له : هى فى يوم كذا فى وقت كذا . فلما جاء ذلك اليوم جعله للعبادة، ووكل الأحراس حول مكانه . قيل : أربعة آلاف . وقيل : ثلاثين ألفا أو ثلاثة وثلاثين ألفا . وخلا بعبادة ربه، ونشر الزّبور بين يديه، فجاءت الحمامة فوقعت له، فكان من أمره فى لحظته مع المرأة ما كان . وأرسل الله عز وجل إليه الملَكين بعد ولادة سليمان، وضربا له المثل بالنعاج، فلما سمع المثل ذكر خطيئته فخرّ ساجدا أربعين ليلة على ما يأتى .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهما أتياه ليلا فى غير وقت دخول الخصوم . وقيل : لدخولهم عليه بغير إذنه . وقيل : لأنهم تسوّروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب .

(١) فى الأصول : « فأوحى » .

قال ابن العربي : وكان محراب داود عليه السلام من الامتناع بالارتفاع، بحيث لا يرتقي إليه آدمي بحيلة إلا أن يقيم إليه أياما أو أشهرا بحسب طاقته، مع أعوان يكثر عددهم، وآلات جمة مختلفة الأنواع . ولو قلنا : إنه يوصل إليه من باب المحراب لما قال الله تعالى مخبرا عن ذلك «تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ» إذلا يقال تسور المحراب والغرفة لمن طلع إليها من درجها، وجاءها من أسفلها إلا أن يكون ذلك مجازا؛ وإذا شاهدت الكوة التي يقال إنه دخل منها الخصمان علمت قطعا أنهما ملكان؛ لأنها من العلو بحيث لا ينالها إلا علوي . قال الثعلبي : وقد قيل كان المتسوران أخوين من بني إسرائيل لأب وأم . فلما قضى داود بينهما بقضية قال له ملك من الملائكة : فهلا قضيت بذلك على نفسك يا داود . قال الثعلبي : والأول أحسن أنهما كانا ملكين نبها داود على ما فعل .

قلت : وعلى هذا أكثر أهل التأويل . فإن قيل : كيف يجوز أن يقول الملكان «خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ» وذلك كذب والملائكة عن مثله منزهون . فالجواب عنه أنه لا بد في الكلام من تقدير، فكأنهما قالا : قدرنا كأننا خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق؛ وعلى ذلك يحمل قولهما : « إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » لأن ذلك وإن كان بصورة الخبر فالمراد إيراده على طريق التقدير لينبه داود على ما فعل؛ والله أعلم .

الرابعة ـ إن قيل : لم فزع داود وهو نبي، وقد قويت نفسه بالنبوة، واطمأنت بالوحي، ووثقت بما آتاه الله من المنزلة، وأظهر على يديه من الآيات، وكان من الشجاعة في غاية المكانة؟ قيل له : ذلك سبيل الأنبياء قبله، لم يأمنوا القتل والإذاية ومنهما كان يخاف . ألا ترى إلى موسى وهرون عليهما السلام كيف قالا : « إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى » فقال الله عز وجل «لَا تَخَافَا» . وقالت الرسل للوط : « لَا تَخَفْ » . «إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ » وكذا قال الملكان هنا : «لَا تَخَفْ» . قال محمد بن إسحق : بعث الله إليه ملكين يختصمان إليه وهو في محرابه ـ مثلا ضربه الله له ولأوريا ـ فرآهما وهما قائمين على رأسه؛ فقال : ما أدخلكما علي؟ قالا : «لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ» فجئناك لتقضي بيننا .

الخامسة — قال ابن العربي : فإن قيل كيف لم يأمر بإخراجهما إذ قد علم مطلبهما، وهلا أدبهما وقد دخلا عليه بغير إذن؟ فالجواب عليه من أربعة أوجه : الأول — أنا لم نعلم كيفية شرعه في الحجاب والإذن ، فيكون الجواب بحسب تلك الأحكام ، وقد كان ذلك في ابتداء شرعنا مهملا في هذه الأحكام، حتى أوضحها الله تعالى بالبيان . الثاني — أنا لو نزلنا الجواب على أحكام الحجاب ، لاحتمل أن يكون الفزع الطارئ عليه أذهله عما كان يجب في ذلك له . الثالث — أنه أراد أن يستوفى كلامهما الذى دخلا له حتى يعلم آخر الأمر منه، ويرى هل يحتمل التقحم فيه بغير إذن أم لا؟ وهل يقترن بذلك عذر لهما أم لا يكون لهما عذر فيه؟ فكان من آخر الحال ما انكشف أنه بلاء ومحنة ، ومثل ضربه الله في القصة، وأدب وقع على دعوى العصمة . الرابع — أنه يحتمل أن يكون في مسجد ولا إذن في المسجد لأحد إذ لا حجر فيه على أحد .

قلت : وقول خامس ذكره القشيري ؛ وهو أنهما قالا : لما لم يأذن لنا الموكلون بالحجاب، توصلنا إلى الدخول بالتسور، وخفنا أن يتفاقم الأمر بيننا . فقبل داود عذرهم ، وأصغى إلى قولهم .

السادسة — قوله تعالى : « خَصْمَانِ » إن قيل : كيف قال « خَصْمَانِ » وقبل هذا « إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » فقيل : لأن الاثنين جمع ؛ قال الخليل : كما تقول نحن فعلنا إذا كنتما اثنين . وقال الكسائي : جمع لما كان خبرا، فلما انقضى الخبر وجاءت المخاطبة، خبّر الاثنان عن أنفسهما فقالا خصمان . وقال الزجاج : المعنى نحن خصمان . وقال غيره : القول محذوف ؛ أي يقول « خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ » قال الكسائي : ولو كان بغى بعضهما على بعض لجاز. الماوردي : وكانا ملكين، ولم يكونا خصمين ولا باغيين، ولا يأتي منهما كذب؛ وتقدير كلامهما ما تقول : إن أتاك خصمان قالا بغى بعضنا على بعض. وقيل: أي نحن فريقان من الخصوم بغى بعضنا على بعض . وعلى هذا يحتمل أن تكون الخصومة بين اثنين ومع كل واحد جمع . ويحتمل أن يكون لكل واحد من هذا الفريق خصومة

مع كل واحد من الفريق الآخر ، لحضروا الخصومات ولكن ابتدأ منهم اثنان ، فعرف داود بذكر النكاح القصة . وأغنى ذلك عن التعرض للخصومات الأخر . والبغي التعدّي والخروج عن الواجب . يقال بغى الجُرْح إذا أفرط وجعه وترامى إلى ما يفحش ، ومنه بغت المرأة إذا أتت الفاحشة .

السابعــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ أى لا تجُـرْ ؛ قاله السدّى . وحكى أبو عبيد : شططت عليه وأشططت أى جُرت . وفى حديث تميم الدارى : (إنك لشاطّى) أى جائر علىّ فى الحكم . وقال قتادة : لا تَمِل . الأخفش : لا تُسرف . وقيـل : لا تفرط . والمعنى متقارب . والأصل فيـه البعد من شطتِ الدارُ أى بعدت ؛ شطّتِ الدارُ تَشِطّ وتَشُطّ شطًّا وشُطُوطا بعدت . وأشطّ فى القضية أى جار ، وأشطّ فى السّوْم واشتط أى أبعد ، وأشطُّوا فى طلبى أى أمعنوا . قال أبو عمرو : الشطط مجاوزة القدر فى كل شيء . وفى الحديث : " لهـا مهر مثلها لا وَكْس ولا شَطَطَ " أى لا نقصان ولا زيادة . وفى التنزيل : « لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا » أى جورًا من القول وبُعدًا عن الحقّ . ﴿ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ أى أرشدنا إلى قصد السبيل .

الثامنــة ــ قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْـعُونَ نَعْجَةً ﴾ أى قال الملَك الذى تكلم عن أوريا « إِنَّ هَـٰذَا أَخِي » أى على دينى ، وأشار إلى المدّعَى عليه . وقيل : أخى أى صاحبى . « لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » وقرأ الحسن : « تَسْعٌ وَتَسْعُونَ نَعْجَةً » بفتح التاء فيهما وهى لغة شاذة ، وهى الصحيحة من قراءة الحسن ؛ قاله النحاس . والعرب تكنى عن المرأة بالنعجة والشاة ؛ لمـا هى عليه من السكون والمعجزة وضعف الجانب . وقد يكنى عنها بالبقرة والحِجْرة والناقة ؛ لأن الكل مركوب قال ابن عون :

أنا أبوهنّ ثلاثٌ هُنَّــهْ * رابعةٌ فى البيت صُغْرا هُنَّهْ
ونعجتى خمسًا توفّيهنّــهْ * ألَا فتًى سَمْحٌ يغذّيهنّــهْ
طَيَّ النّقا فى الجوع يَطْويهنَّهْ * ويلُ الرّغيف ويلَه منهنّهْ

وقال عنترة :

يا شاةَ ما قَنَصٍ لِمن حَلَّتْ لَهُ * حَرُمتْ علىَّ وليتَها لم تَحْرُمِ
فَبَعَثْتُ جاريتى فقلتُ لها اذْهَبِى * فتَجَسَّسِى أخبارَها لى واَعْلَمِ
قالتْ رأيْتُ مِن الأعادِى غِرَّةً * والشاةُ مُمْكِنَةٌ لمن هو مُرْتَمِ
فكأنّما التَفَتَتْ بِجِيدِ جِدايةٍ * رَشَإٍ مِنَ الغِزْلانِ حُرٍّ أرْثَمِ

وقال آخر[1] :

فرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عَنْ شاتِهِ * فأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِها وطِحَالَها

وهذا من أحسن التعريض حيث كنى بالنعاج عن النساء . قال الحسين بن الفضل : هذا من الملكين تعريض وتنبيه كقولهم ضرب زيد عمرا ، وما كان ضرب ولا نعاج على التحقيق ؛ كأنه قال نحن خصمان هذه حالنا . قال أبو جعفر النحاس : وأحسن ما قيل فى هذا أن المعنى ؛ يقول خصمان بغى بعضنا على بعض على جهة المسئلة ؛ كما تقول : رجل يقول لامرأته كذا ، ما يجب عليه ؟

قلت : وقد تأول المزنى صاحب الشافعى هذه الآية ، وقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن شهاب الذى خرجه « الموطأ » وغيره : " هو لكَ يا عبدُ بنَ زَمْعَةَ " على نحو هذا ؛ قال المزنى : يحتمل هذا الحديث عندى — والله أعلم — أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم أجاب عن المسئلة فأعلمهم بالحكم أن هذا يكون إذا ادعى صاحب فراش وصاحب زنى ، لا أنه قبل على عتبة قول أخيه سعد ، ولا على زَمْعَة قول ابنه إنه ولد زنى[2] ، لأن كل واحد منهما أخبر عن غيره . وقد أجمع المسلمون أنه لا يقبل إقرار أحد على غيره . وقد ذكر الله سبحانه فى كتابه مثل ذلك فى قصة داود والملائكة ؛ إذ دخلوا عليه ففزع منهم ، قالوا لا تخف خصمان ولم يكونوا خصمين ، ولا كان لواحد منهم تسع وتسعون نعجة ، ولكنهم كلموه على المسئلة ليعرف بها ما أرادوا تعريفه . فيحتمل أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم

(١) هو الأعشى . (٢) قوله : « إنه ولد زنى » أولى بقول سعد بن أبى وقاص . راجع الحديث فى « الموطأ » جـ ٦ ص ٤ طبعة السلطان عبد الحفيظ .

حكم فى هذه القصة على المسئلة، وإن لم يكن أحد يؤنسنى على هذا التأويل فى الحديث؛ فإنه عندى صحيح . والله أعلم .

التاسعة ـ قال النحاس : وفى قراءة ابن مسعود «إِنَّ هَذَا أَخِى كَانَ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى» و «كان» هنا مثل قوله عز وجل : «وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا» فأما قوله «أنثى» فهو تأكيد، كما يقال : هو رجل ذكر وهو تأكيد . وقيل : لما كان يقال هذه مائة نعجة، وإن كان فيها من الذكور شيء يسير، جاز أن يقال أنثى ليعلم أنه لا ذكر فيها . وفى التفسير : له تسع وتسعون امرأة . قال ابن العربي : إن كان جميعهن أحرارا فذلك شرعه، وإن كن إماء فذلك شرعنا . والظاهر أن شرع من تقدم قبلنا لم يكن محصورا بعدد، وإنما الحصر فى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، لضعف الأبدان وقلة الأعمار . وقال القشيري : ويجوز أن يقال لم يكن له هذا العدد بعينه، ولكن المقصود ضرب مثل، كما تقول : لو جئتنى مائة مرة لم أقض حاجتك، أى مرارا كثيرة . قال ابن العربي : قال بعض المفسرين لم يكن لداود مائة امرأة، وإنما ذكر التسعة والتسعين مثلا؛ المعنى : هذا غني عن الزوجة وأنا مفتقر إليها، وهذا فاسد من وجهين : أحدهما ـ أن العدول عن الظاهر بغير دليل لا معنى له، ولا دليل يدل على أن شرع من قبلنا كان مقصورا من النساء على ما فى شرعنا . الثاني ـ أنه روى البخارى وغيره أن سليمان قال : "لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل امرأة غلاما يقاتل فى سبيل الله ونسى أن يقول إن شاء الله" وهذا نص .

العاشرة ـ قوله تعالى : ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أى امرأة واحدة : ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أى انزل لى عنها حتى أكفلها . وقال ابن عباس : أعطنيها . وعنه : تحول لى عنها . وقاله ابن مسعود . وقال أبو العالية : ضمها إلى حتى أكفلها . وقال ابن كيسان : اجعلها كفلى ونصيبى . ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أى غلبنى . قال الضحاك : إن تكلم كان أفصح منى، وإن حارب كان أبطش منى . يقال : عزه يعزه (بضم العين فى المستقبل) عزا غلبه . وفى المثل : من عز بز؛ أى من غلب سلب . والاسم العزة وهى القوة والغلبة . قال الشاعر :

قَطَـاةٌ عَزَّهَا شَرَكٌ فباتَتْ * تُجَاذِبُهُ وقَـد عَلِقَ الجَنَاحُ

وقرأ عبد الله بن مسعود وعبيد بن عمير « وَعَازَّنِي فِي الْخِطَابِ » أي غالبني؛ من المعازّة وهي المغالبة؛ عازّه أي غالبه . قال ابن العربي : واختلف في سبب الغلبة ؛ فقيل : معناه غلبني ببيانه . وقيل : غلبني بسلطانه؛ لأنه لما سأله لم يستطع خلافه . كان ببلادنا أمير يقال له سير بن أبي بكر[1] فكلمته في أن يسأل لي رجلا حاجة ، فقال لي : أما علمت أن طلب السلطان للحاجة غصب لها . فقلت : أما إذا كان عدلا فلا . فعجبت من عجمته وحفظه لما تمثل به وفطنته، كما عجب من جوابي له واستغربه .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ قال النحاس : فيقال إن هذه كانت خطيئة داود عليه السلام؛ لأنه قال : لقد ظلمك من غير تثبت ببينة، ولا إقرار من الخصم؛ هل كان هذا كذا أو لم يكن . فهذا قول .

وسيأتي بيانه في المسئلة بعد هذا، وهو حسن إن شاء الله تعالى. قال أبو جعفر النحاس: فأما قول العلماء الذين لا يدفع قولهم؛ منهم عبد الله بن مسعود وابن عباس ، فإنهم قالوا : ما زاد داود صلى الله على نبينا وعليه على أن قال للرجل انزل لي عن امرأتك. قال أبو جعفر: فعاتبه الله عز وجل على ذلك ونبهه عليه ، وليس هذا بكبير من المعاصي ، ومن تخطى إلى غير هذا فإنما يأتي بما لا يصح عن عالم، ويلحقه فيه إثم عظيم. كذا قال في كتاب «إعراب القرآن». وقال في كتاب «معاني القرآن» له بمثله . قال رضي الله عنه: قد جاءت أخبار وقصص في أمر داود عليه السلام وأوريا، وأكثرها لا يصح ولا يتصل إسناده، ولا ينبغي أن يجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها . وأصح ما روى في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : ما زاد داود عليه السلام على أن قال « أَكْفِلْنِيهَا » أي انزل لي عنها . وروى المنهال عن سعيد بن جبير قال: ما زاد داود صلى الله عليه وسلم على أن قال : « أَكْفِلْنِيهَا » أي تحوّل لي عنها وضمها إليّ، قال أبو جعفر : فهذا أجل ما روى في هذا، والمعنى عليه أن داود عليه السلام سأل أوريا أن يطلق امرأته، كما يسأل الرجلُ الرجلَ أن يبيعه جاريته، فنبهه الله

(١) هو الأمير أبو بكر سير من أمراء المرابطين أحد قواد يوسف بن تاشفين المشاهير تركه بالأندلس حين عزم الرجوع إلى بلاده . اهـ نفح الطيب .

عز وجل على ذلك ، وعاتبه لما كان نبيا وكان له تسع وتسعون أنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا بالتزيد منها ، فأما غير هذا فلا ينبغي الاجتراء عليه . قال ابن العربي : وأما قولهم إنها لما أعجبته أمر بتقديم زوجها للقتل في سبيل الله فهذا باطل قطعا ؛ فإن داود صلى الله عليه وسلم لم يكن ليريق دمه في غرض نفسه ، وإنما كان من الأمر أن داود قال لبعض أصحابه : انزل لي عن أهلك وعزم عليه في ذلك ، كما يطلب الرجل من الرجل الحاجة برغبة صادقة ؛ كانت في الأهل أو في المال . وقد قال سعيد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما : إن لي زوجتين أنزل لك عن أحسنهما ؛ فقال له : بارك الله لك في أهلك . وما يجوز فعله ابتداء يجوز طلبه ، وليس في القرآن أن ذلك كان ، ولا أنه تزوجها بعد زوال عصمة الرجل عنها ، ولا ولادتها لسليمان ، فعمن يروى هذا ويسند ؟ ! وعلى من في نقله يعتمد ، وليس يأثره عن الثقات الأثبات أحد . أما أن في سورة «الأحزاب» نكتة تدل على أن داود قد صارت له المرأة زوجة ، وذلك قوله : « مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » يعني في أحد الأقوال تزويج داود المرأة التي نظر إليها ، كما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش ، إلا أن تزويج زينب كان من غير سؤال للزوج في فراق ، بل أمره بالتمسك بزوجته ، وكان تزويج داود للمرأة بسؤال زوجها فراقها . فكانت هذه المنقبة لمحمد صلى الله عليه وسلم على داود مضافة إلى مناقبه العلية صلى الله عليه وسلم . ولكن قد قيل : إن معنى «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» تزويج الأنبياء بغير صداق من وهبت نفسها لهم من النساء بغير صداق . وقيل : أراد بقوله : «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» أن الأنبياء صلوات الله عليهم فرض لهم ما يمتثلونه في النكاح وغيره . وهذا أصح الأقوال . وقد روى المفسرون أن داود عليه السلام نكح مائة امرأة ؛ وهذا نص القرآن . وروي أن سليمان كانت له ثلاثمائة امرأة وسبعمائة جارية ؛ وربك أعلم . وذكر الكيا الطبري في أحكامه في قول الله عز وجل : « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » الآية ؛ ذكر المحققون الذين يرون تنزيه الأنبياء عليهم السلام عن الكبائر ، أن داود عليه

السلام كان قد أقدم على خطبة امرأة قد خطبها غيره ، يقال هو أوريا ؛ فمال القوم إلى تزويجها من داود راغبين فيه ، وزاهدين فى الخاطب الأول، ولم يكن بذلك داود عارفا ، وقد كان يمكنه أن يعرف ذلك فيعدل عن هذه الرغبة، وعن الخطبة بها فلم يفعل ذلك، من حيث أعجب بها إما وصفا أو مشاهدة على غير تعمد ؛ وقد كان لداود عليه السلام من النساء العدد الكثير ، وذلك الخاطب لا امرأة له ، فنبهه الله تعالى على ما فعل بما كان من تسور الملكين، وما أورداه من التمثيل على وجه التعريض ؛ لكى يفهم من ذلك موقع العتب فيعدل عن هذه الطريقة ، ويستغفر ربه من هذه الصغيرة .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ فيه الفتوى فى النازلة بعد السماع من أحد الخصمين، وقبل أن يسمع من الآخر بظاهر هذا القول . قال ابن العربى : وهذا مما لا يجوز عند أحد، ولا فى ملة من الملل، ولا يمكن ذلك للبشر . وإنما تقدير الكلام أن أحد الخصمين ادعى والآخر سلم فى الدعوى، فوقعت بعد ذلك الفتوى . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر" وقيل : إن داود لم يقض للآخر حتى اعترف صاحبه بذلك . وقيل : تقديره لقد ظلمك إن كان كذلك . والله أعلم بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه .

قلت : ذكر هذين الوجهين القشيرى والماوردى وغيرهما . قال القشيرى : وقوله «لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ» من غير أن يسمع كلام الخصم مشكل؛ فيمكن أن يقال : إنما قال هذا بعد مراجعة الخصم الآخر وبعد اعترافه . وقد روى هذا وإن لم تثبت روايته، فهذا معلوم من قرائن الحال، أو أراد لقد ظلمك إن كان الأمر على ما تقول، فسكته بهذا وصبره إلى أن يسأل خصمه . قال ويحتمل أن يقال : كان من شرعهم التعويل على قول المدعى عند سكوت المدعى عليه، إذا لم يظهر منه إنكار بالقول . وقال الحليمى أبو عبد الله فى كتاب منهاج الدين له : ومما جاء فى شكر النعمة المنتظرة إذا حضرت ، أوكانت خافية فظهرت السجود لله عز وجل . قال والأصل فى ذلك قوله عز وجل : « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ

الخصم » إلى قوله : « وَحُسْنَ مَآبٍ » . أخبر الله عز وجل عن داود عليه السلام، أنه سمع قول المتظلم من الخصمين، ولم يخبر عنه أنه سأل الآخر، إنما حكى أنه ظلمه، فكان ظاهر ذلك أنه رأى فى المتكلم مخائل الضعف والهضيمة ، فحمل أمره على أنه مظلوم كما يقول ، ودعاه ذلك إلى ألا يسأل الخصم ؛ فقال له مستعجلا : « لَقَدْ ظَلَمَكَ » مع إمكان أنه لو سأله لكان يقول : كانت لى مائة نعجة ولا شيء لهذا، فسرق منى هذه النعجة، فلما وجدتها عنده قلت له آرددها، وما قلت له أكفلنيها، وعلم أنى مرافعه إليك، فجرّنى قبل أن أجرّه، وجاءك متظلما من قبل أن أحضره، لتظنّ أنه هو المحق وأنى أنا الظالم . ولما تكلم داود بما حملته العجلة عليه ، علم أن الله عز وجل خلاه ونفسه فى ذلك الوقت ، وهو الفتنة التى ذكرناها، وأن ذلك لم يكن إلا عن تقصير منه، فآستغفر ربه وخر راكعا لله تعالى شكرا على أن عصمه، بأن آقتصر على تظليم المشكو، ولم يزده على ذلك شيئا من آنتهار أو ضرب أو غيرهما، مما يليق بمن تصور فى القلب أنه ظالم، فغفر الله له ثم أقبل عليه يعاتبه؛ فقال : « يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » فبان بما قصه الله تعالى من هذه الموعظة ، التى توخاه بها بعد المغفرة ، أن خطيئته إنما كانت التقصيرَ فى الحكم ، والمبادرةَ إلى تظليم من لم يثبت عنده ظلمه . ثم جاء عن آبن عباس أنه قال سجدها داود شكرا، وسجدها النبي صلى الله عليه وسلم آتباعا ، فثبت أن السجود للشكر سنة متواترة عن الأنبياء صلوات الله عليهم . ﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ أى بسؤاله نعجتك؛ فأضاف المصدر إلى المفعول، وألقى الهاء من السؤال؛ وهو كقوله تعالى: « لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ » أى من دعائه الخير .

الثالثة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ يقال : خليط وخلطاء ولا يقال طويل وطولاء؛ لثقل الحركة فى الواو . وفيه وجهان : أحدهما أنهما الأصحاب . الثانى أنهما الشركاء .

قلت : إطلاق الخلطاء على الشركاء فيه بعد، وقد ٱختلف العلماء فى صفة الخلطاء، فقال أكثر العلماء : هو أن يأتى كل واحد بغنمه فيجمعها راع واحد والدلو والمراح. وقال طاوس وعطاء : لا يكون الخلطاء إلا الشركاء . وهذا خلاف الخبر، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : " لا يُجمع بين مفترق ولا يفرّق بين مجتمع خشية الصدقة وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية " وروى " فإنهما يترادّان الفضل " ولا موضع لتراد الفضل بين الشركاء ؛ فاعلمه . وأحكام الخلطة مذكورة فى كتب الفقه . ومالك وأصحابه وجمع من العلماء لا يرون [الصدقة][1] على من ليس فى حصته ما تجب فيه الزكاة . وقال الربيع والليث وجمع من العلماء منهم الشافعى : إذا كان فى جميعها ما تجب فيه الزكاة أخذت منهم الزكاة . قال مالك : وإن أخذ المصدّق بهذا ترادّوا بينهم للاختلاف فى ذلك، وتكون كحكم حاكم ٱختلف فيه .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أى يتعدّى ويظلم . ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فإنهم لا يظلمون أحدا . ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ يعنى الصالحين أى وقليل هم فـ « ما » زائدة . وقيل : بمعنى الذى وتقديره وقليل الذين هم . وسمع عمر رضى الله عنه رجلا يقول فى دعائه : اللهم ٱجعلنى من عبادك القليل . فقال له عمر : ما هذا الدعاء؟ . فقال أردت قول الله عز وجل : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » فقال عمر : كل الناس أفقه منك يا عمر .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ أى ٱبتليناه . «وظن» معناه أيقن . قال أبو عمرو والفراء : ظن بمعنى أيقن، إلا أن الفراء شرحه بأنه لا يجوز فى المعاين أن يكون الظن إلا بمعنى اليقين . والقراءة « فَتَنَّاهُ » بتشديد النون دون التاء . وقرأ عمر ٱبن الخطاب رضى الله عنه « فَتَّنَّاهُ » بتشديد التاء والنون على المبالغة . وقرأ قتادة وعبيد ٱبن عمير وٱبن السَّمَيْقَع « فَتَنَاهُ » بتخفيفهما . ورواه علىّ بن نصر عن أبى عمرو، والمراد به الملكان اللذان دخلا على داود عليه السلام .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

السادسة عشرة ــ قيل : لما قضى داود بينهما فى المسجد ، نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك، فلم يفطن داود؛ فأحبا أن يعرفهما، فصعدا إلى السماء حيال وجهه، فعلم داود عليه السلام أن الله تعالى آبتلاه بذلك، ونبهه على ما آبتلاه .

قلت : وليس فى القرآن ما يدل على القضاء فى المسجد إلا هذه الآية، وبها آستدل من قال بجواز القضاء فى المسجد ، ولو كان ذلك لا يجوز كما قال الشافعى لما أقرهم داود على ذلك . ويقول : آنصرفا إلى موضع القضاء . وكان النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء يقضون فى المسجد ، وقد قال مالك : القضاء فى المسجد من الأمر القديم . يعنى فى أكثر الأمور . ولا بأس أن يجلس فى رحبته ؛ ليصل إليه الضعيف والمشرك والحائض، ولا يقيم فيه الحدود؛ ولا بأس بخفيف الأدب . وقد قال أشهب : يقضى فى منزله وأين أحب .

السابعة عشرة ــ قال مالك رحمه الله : وكان الخلفاء يقضون بأنفسهم ، وأول من آستقضى معاوية . قال مالك : وينبغى للقضاة مشاورة العلماء . وقال عمر بن عبد العزيز : لا يستقضى حتى يكون عالما بآثار من مضى ، مستشيرا لذوى الرأى ، حليما نزها . قال : ويكون ورعا . قال مالك : وينبغى أن يكون متيقظا كثير التحذر من الحيل ، وأن يكون عالما بالشروط ، عارفا بما لا بد له منه من العربية ؛ فإن الأحكام تختلف باختلاف العبارات والدعاوى والإقرارات والشهادات والشروط التى تتضمن حقوق المحكوم له . وينبغى له أن يقول قبل إنجاز الحكم للطلوب : أبقيتْ لك حجةٌ ؟ فإن قال لا حكم عليه ، ولا يقبل منه حجة بعد إنفاذ حكمه إلا أن يأتى بما له وجه أو بينة . وأحكام القضاء والقضاة فيما لهم وعليهم مذكورة فى غير هذا الموضع .

الثامنة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ آختلف المفسرون فى الذنب الذى آستغفر منه على أقوال ستة ؛ الأول أنه نظر إلى المرأة حتى شبع منها . قال سعيد بن جبير: إنما كانت فتنته النظرة . قال أبو إسحق : ولم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها، فصارت الأولى له والثانية عليه . الثانى أنه أغزى زوجها فى حملة التابوت . الثالث

أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها . الرابع أن أوريا كان خطب تلك المرأة ، فلما غاب خطبها داود فزوجت منه لجلالته ، فاغتم لذلك أوريا ، فعتب الله على داود إذ لم يتركها لخاطبها ، وقد كان عنده تسع وتسعون امرأة . الخامس أنه لم يجزع على قتل أوريا ، كما كان يجزع على من هلك من الجند ، ثم تزوج امرأته ، فعاتبه الله تعالى على ذلك ؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله . السادس أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر . قال القاضي ابن العربي : أما قول من قال إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر فلا يجوز على الأنبياء ، وكذلك تعريض زوجها للقتل ؛ وأما من قال : إنه نظر إليها حتى شبع فلا يجوز ذلك عندي بحال ؛ لأن طموح النظر لا يليق بالأولياء المتجردين للعبادة ، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائط الله المكاشفون بالغيب! وحكى السدي عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال : لو سمعت رجلا يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرما لجلدته ستين ومائة ؛ لأن حد [قاذف] الناس ثمانون وحد [قاذف] الأنبياء ستون ومائة . ذكره الماوردي والثعلبي أيضا . قال الثعلبي وقال الحرث الأعور عن علي : من حدث بحديث داود على ماترويه القصاص معتقدا جلدته حدين ؛ لعظم ما ارتكب برمي من قد رفع الله محله ، وارتضاه من خلقه رحمة للعالمين ، وحجة للمجتهدين . قال ابن العربي : وهذا مما لم يصح عن علي . فإن قيل : فما حكمه عندكم؟ قلنا : أما من قال إن نبيا زنى فإنه يقتل ، وأما من نسب إليه ما دون ذلك من النظر والملامسة ، فقد اختلف [نقل] (1) الناس في ذلك ؛ فإن صمم أحد على ذلك فيه ونسبه إليه قتلته ، فإنه يناقض التعزير المأمور به ، فأما قولهم : إنه وقع بصره على امرأة تغتسل عريانة ، فلما رأته أسبلت شعرها فسترت جسدها ، فهذا لا حرج عليه فيه بإجماع من الأئمة ؛ لأن النظرة الأولى تكشف المنظور إليه ولا يأثم الناظر بها ، فأما النظرة الثانية فلا أصل لها . وأما قولهم : إنه [نوى] (1) إن مات زوجها تزوجها فلا شيء فيه إذ لم يعرضه للموت ، وأما قولهم : إنه خطب على خطبة أوريا فباطل يرده القرآن والآثار التفسيرية كلها .

---

(1) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربي .

وقد روى أشهب عن مالك قال: بلغنى أن تلك الحمامة أتت فوقعت قريبا من داود عليه السلام وهى من ذهب، فلما رآها أعجبته فقام ليأخذها فكانت قرب يده، ثم صنع مثل ذلك مرتين، ثم طارت وآتبعها ببصره فوقعت عينه على تلك المرأة وهى تغتسل ولها شعر طويل؛ فبلغنى أنه أقام أربعين ليلة ساجدا حتى نبت العشب من دموع عينيه . قال آبن العربى وأما قول المفسرين: إن الطائر درج عنده فهمّ بأخذه وآتبعه فهذا لا يناقض العبادة؛ لأنه مباح فعله، لاسيما وهو حلال وطلب الحلال فريضة، وإنما آتبع الطير لذاته لا لجماله فإنه لامنفعة له فيه، وإنما ذكرهم لحسن الطائر خرقٌ فى الجهالة . أما أنه روى أنه كان طائرا من ذهب فاتبعه ليأخذه؛ لأنه من فضل الله سبحانه وتعالى كما روى فى الصحيح : « إن أيوب عليه السلام كان يغتسل عريانا فخر عليه رجل من جراد [من ذهب][1] فجعل يحثى منه ويجعل فى ثوبه» . فقال الله تعالى له : «يا أيوب ألم أكن أغنيتك» قال: «بلى يا رب ولكن لا غنى لى عن بركتك» وقال القشيرى : فهمّ داود بأن يأخذه ليدفعه إلى آبن له صغير فطار ووقع على كوّة البيت؛ وقاله الثعلبى أيضا وقد تقدّم .

التاسعة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ أى خر ساجدا، وقد يعبر عن السجود بالركوع . قال الشاعر :

فَخَــرَّ على وَجْهِــهِ راكِعًا * وتابَ إلى الله مِنْ كُلِّ ذَنْبِ

قال آبن العربى : لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع ها هنا السجود؛ فإن السجود هو الميل، والركوع هو الأنحناء، وأحدهما يدخل على الآخر، ولكنه قد يختص كل واحد بهيئته، ثم جاء هذا على تسمية أحدهما بالآخر، فسمى السجود ركوعا . وقال المهدوى : وكان ركوعهم سجودا . وقيل : بل كان سجودهم ركوعا . وقال مقاتل . فوقع من ركوعه ساجدا لله عز وجل . أى لما أحس بالأمر قام إلى الصلاة، ثم وقع من الركوع إلى السجود؛ لاشتمالهما جميعا على الأنحناء . ﴿ وَأَنَابَ ﴾ أى تاب من خطيئته ورجع إلى الله

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربى.

وقال الحسين بن الفضل : سألني عبد الله بن طاهر وهو الوالي عن قول الله عز وجل : «وَخَرَّ رَاكِعًا» فهل يقال للراكع خَرَّ ؟ . قلت : لا . قال : فما معنى الآية؟ قلت : معناها فخر بعد أن كان راكعا أى سجد .

الموفية عشرين — واختلف فى سجدة داود هل هى من عزائم السجود المأمور به فى القرآن أم لا ؟ فروى أبو سعيد الخدرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر « صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ » فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأ بها فَتَشَزَّنَ(١) الناس للسجود ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنها توبة نبيّ ولكنى رأيتكم تَشَزَّنتم للسجود " ونزل وسجد . وهذا لفظ أبي داود . وفى البخارى وغيره عن ابن عباس أنه قال : «صٓ» ليست من عزائم القرآن، وقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسجد فيها . وقد روى من طريق عن ابن مسعود أنه قال : « صٓ » توبة نبيّ ولا يسجد فيها ؛ وعن ابن عباس أنها توبة نبيّ ونبيكم ممن أمر أن يقتدى به . قال ابن العربى : والذى عندى أنها ليست موضع سجود، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم سجد فيها فسجدنا بالاقتداء به . ومعنى السجود أن داود سجد خاضعا لربه ، معترفا بذنبه ، تائبا من خطيئته ، فإذا سجد أحد فيها فليسجد بهذه النية ، فلعل الله أن يغفر له بحرمة داود الذى اتبعه، وسواء قلنا إن شرع من قبلنا شرع لنا أم لا ؟ فإن هذا أمر مشروع فى كل أمة لكل أحد . والله أعلم .

الحادية والعشرون — قال ابن خُوَيْز منداد : قوله « وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ » فيه دلالة على أن السجود للشكر مفردا لا يجوز ؛ لأنه ذكر معه الركوع ، وإنما الذى يجوز أن يأتى بركعتين شكرا فأما سجدة مفردة فلا؛ وذلك أن البشارات كانت تأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة بعده ، فلم ينقل عن أحد منهم أنه سجد شكرا ، ولو كان ذلك مفعولا لهم لنقل نقلا متظاهرا لحاجة العامة إلى جوازه وكونه قربة .

---

(١) التشزن التأهب والتهيؤ للشيء .

قلت: وفى سنن ابن ماجه عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى يوم بُشر برأس أبى جهل ركعتين. وخرّج من حديث أبى بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه أمر يسره ــ أو يسرّ به ــ خر ساجدا شكرا لله. وهذا قول الشافعى وغيره.

الثانية والعشرون ــ روى الترمذى وغيره واللفظ للغير: أن رجلا من الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى من الليل يستتر بشجرة وهو يقرأ «صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ» فلما بلغ السجدة سجد وسجدت معه الشجرة، فسمعها وهى تقول: اللهم أعظم لى بهذه السجدة أجرا، وارزقنى بها شكرا.

قلت: خرّج ابن ماجه فى سننه عن ابن عباس قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم، فأتاه رجل فقال: إنى رأيت البارحة فيما يرى النائم، كأنى أصلى إلى أصل شجرة، فقرأت السجدة [فسجدت][1] فسجدتْ الشجرة لسجودى، فسمعتها تقول: اللهم احطط بها عنى وزرا، واكتب لى بها أجرا، واجعلها لى عندك ذخرا. قال ابن عباس: فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ «السجدة» فسجد، فسمعته يقول فى سجوده مثل الذى أخبره الرجل عن قول الشجرة. ذكره الثعلبى عن أبى سعيد الخدرى؛ قال: قلت يا رسول الله رأيتُنى فى النوم كأنى تحت شجرة والشجرة تقرأ «صٓ» فلما بلغت السجدة سجدتْ فيها، فسمعتها تقول فى سجودها: اللهم اكتب لى بها أجرا، وحُطّ عنّى بها وزرا، وارزقنى بها شكرا، وتقبلها منى كما تقبلت من عبدك داود سجدته. فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم: "أفسجدت أنت يا أبا سعيد" فقلت: لا والله يا رسول الله. فقال: "لقد كنت أحقّ بالسجود من الشجرة" ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم «صٓ» حتى بلغ السجدة فسجد، ثم قال مثل ما قالت الشجرة.

الثالثة والعشرون ــ قوله تعالى: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ أى فغفرنا له ذنبه. قال ابن الأنبارى: «فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ» تام، ثم تبتدئ «وإنّ له» وقال القشيرى: ويجوز الوقف على «فَغَفَرْنَا لَهُ» ثم تبتدئ «ذَٰلِكَ وإنّ لَهُ» كقوله: «هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ» أى الأمر ذلك.

(١) الزيادة من سنن ابن ماجه.

وقال عطاء الخراساني وغيره: إن داود سجد أربعين يوما حتى نبت المرعى حول وجهه وغمر رأسه، فنودى: أجائع فتطعم وأعارٍ فتكسى؛ فنحب نحبة هاج المرعى من حرّ جوفه، فغفر له وسترها . فقال : يا رب هـذا ذنبي فيما بيني و بينك قد غفرته ، وكيف بفلان وكذا وكذا رجلا من بنى إسرائيل، تركت أولادهم أيتاما، ونساءهم أرامل ؟ قال : يا داود لا يجاوزنى يوم القيامة ظلم أمكنه منك ثم أستوهبك منه بثواب الجنة. قال : يارب هكذا تكون المغفرة الهنية . ثم قيل : يا داود آرفع رأسك . فذهب ليرفع رأسـه فإذا به قد نَشِب فى الأرض؛ فأتاه جبريل فاقتلعه عن وجه الأرض كما يقتلع من الشجرة صمغها . رواه الوليد بن مسلم عن آبن جابر عن عطاء . قال الوليد : وأخبرنى مُنير بن الزبير، قال : فلزق مواضع مساجده على الأرض من فروة وجهه ما شاء الله. قال الوليد قال ابن لهيعة: فكان يقول فى سجوده سبحانك هـذا شرابى دموعى ، وهذا طعامى فى رماد بين يدى . فى رواية : إنه سجـد أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا للصلاة المكتوبة، فبكى حتى نبت العشب من دموعه . وروى مرفوعا من حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن داود مكث أربعين ليلة ساجدا حتى نبت العشب من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبينه وهو يقول فى سجوده : يا رب داود زلّ زلّة بَعُد بها ما بين المشرق والمغرب ربِّ إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلت ذنبـه حديثا فى الخلق من بعده فقال له جبريل بعد أربعين سنة يا داود إن الله قد غفر لك الهَمّ الذى هَمَمْت به " وقال وهب : إن داود عليه السلام نودى إنى قد غفرت لك . فلم يرفع رأسه حتى جاءه جبريل فقال : لم لا ترفع رأسك وربك قد غفر لك؟ قال : يارب كيف وأنت لا تظلم أحدا . فقال الله لجبريل : آذهب إلى داود فقـل له يذهب إلى قـبر أوريا فيتحلل منه، فأنا أسمعه نداءه . فلبس داود المسوح وجلس عند قبر أوريا ، ونادى يا أوريا فقال : لبيك ! من هـذا الذى قطع علىّ لذتى وأيقظنى؟ فقال : أنا أخوك داود أسألك أن تجعلنى فى حلّ فإنى عرّضتك للقتل؛ قال: عرّضتنى للجنة فأنت فى حلّ . وقال الحسن وغيره: كان داود عليه السلام بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين، و يقول: تعالوا إلى داود الخطّاء، ولا يشرب شرابا إلا مزجه بدموع عينيه . وكان يجعل خبز الشعير اليابس فى قَصْعة فلا يزال

يبكى حتى يبتل بدموعه، وكان يذر عليه الرماد والملح فيأكل ويقول : هذا أكل الخاطئين . وكان قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر ، ثم صام بعده الدهر كله وقام الليل كله ، وقال : يارب آجعل خطيئتى فى كفى فصارت خطيئته منقوشة فى كفه ، فكان لا يبسطها لطعام ولا شراب ولا شىء إلا رآها فأبكته ، وأن كان ليؤتى بالقدح ثلثاه ماء ، فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه عن شفته حتى يفيض من دموعه. وروى الوليد بن مسلم: حدثنى أبو عمرو الأوزاعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما مثل عينى داود مثل القربتين تَنْطُفان ولقد خدّد الدموع فى وجه داود خديد الماء فى الأرض " . قال الوليد : وحدثنا عثمان بن أبى العاتكة أنه كان فى قول داود إذ هو خلوٌ من الخطيئة شدة قوله فى الخاطئين أن كان يقول : اللهم لا تغفر للخاطئين ، ثم صار إلى أن يقول : اللهم رب آغفر للخاطئين لكى تغفر لداود معهم؛ سبحان خالق النور . إلهى ! خرجت أسأل أطباء عبادك أن يداووا خطيئتى فكلهم عليك يدلنى . إلهى ! أخطأت خطيئة قد خفت أن تجعل حصادها عذابك يوم القيامة إن لم تغفرها ؛ سبحان خالق النور . إلهى ! إذا ذكرت خطيئتى ضاقت الأرض برحبها علىّ، وإذا ذكرت رحمتك آرتد إلىّ روحى. وفى الخبر : إن داود عليه السلام كان إذا علا المنبر رفع يمينه فآستقبل بها الناس ليريهم نقش خطيئته؛ فكان ينادى : إلهى ! إذا ذكرت خطيئتى ضاقت علىّ الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك آرتد إلىّ روحى؛ رب! آغفر للخاطئين كى تغفر لداود معهم . وكان يقعد علىْ سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد ، فكانت تستنقع دموعه تحت رجليه حتى تنفذ من الأفرشة كلها . وكان إذا كان يوم نَوْحه نادى مناديه فى الطرق والأسواق والأودية والشّعاب وعلى رءوس الجبال وأفواه الغيران : ألا إن هذا يوم نَوْح داود، فمن أراد أن يبكى على ذنبه فليأت داود فيسعده؛ فيهبط السياح من الغيران والأودية، وترتج الأصوات حول منبره والوحوش والسباع والطير عُكُّفٌ، وبنو إسرائيل حول منبره ؛ فإذا أخذ فى العويل والنوح، وأثارت الحرقات منابع دموعه ، صارت الجماعة ضجة واحدة نوحا وبكاء، حتى يموت حول منبره بشر كثير فى مثل ذلك اليوم . ومات داود عليه السلام فيما قيل يوم السبت بغتة ؛ أتاه ملك الموت وهو يصعد فى محرابه وينزل؛

فقال : جئت لأقبض روحك . فقال : دعني حتى أنزل أو أرتقي . فقال : مالي إلى ذلك سبيل ؛ نفدت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق ، فما أنت بمؤثر بعدها أثرا . قال : فسجد داود على مرقاة من الدرج فقبض نفسه على تلك الحال . وكان بينه و بين موسى عليهما السلام خمسمائة وتسع وتسعون سنة . وقيل : تسع وسبعون، وعاش مائة سنة، وأوصى إلى ابنه سليمان بالخلافة .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قال محمد بن كعب ومحمد بن قيس : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾ قربة بعد المغفرة . ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قالا : والله إن أول من يشرب الكأس يوم القيامة داود . وقال مجاهد عن عبد الله بن عمر: الزلفى الدنو من الله عز وجل يوم القيامة . وعن مجاهد : يبعث داود يوم القيامة وخطيئته منقوشة في يده ؛ فإذا رأى أهاويل يوم القيامة لم يجد منها محرزا إلا أن يلجأ إلى رحمة الله تعالى . قال: ثم يرى خطيئته فيقلق فيقال له ها هنا؛ ثم يرى فيقلق فيقال له هاهنا، ثم يرى فيقلق فيقال له هاهنا ؛ [حتى يقترب فيسكن][1] فذلك قوله عز وجل: « وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ » ذكره الترمذي الحكيم . قال : حدثنا الفضل بن محمد، قال حدثنا عبد الملك بن الأصبغ، قال حدثنا الوليد بن مسلم ، قال حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري عن عبد الملك بن أبي سليمان عن مجاهد فذكره . قال الترمذي : ولقد كنت أمر زمانا طويلا بهذه الآيات فلا ينكشف لي المراد والمعنى من قوله : « رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا » والقط الصحيفة في اللغة؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا عليهم « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » وقال لهم " إنكم ستجدون هذا كله في صحائفكم تعطونها بشمائلكم " فقالوا : « رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا » أي صحيفتنا « قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » قال الله تعالى : « اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ » فقص قصة خطيئته إلى منتهاها ، فكنت أقول : أمره بالصبر على ما قالوا ، وأمره بذكر داود فأي شيء أريد من هذا الذكر؟ وكيف أتصل هذا بذاك ؟ فلا أقف على شيء يسكن قلبي عليه ، حتى هداني الله له

---

(١) هذه الزيادة يقتضيها المقام و يدل عليها ما ورد في آخر القصة .

يوما فألهمته أن هؤلاء أنكروا قول أنهم يعطون كتبهم بشمائلهم، فيها ذنوبهم وخطاياهم آستهزاء بأمر الله، وقالوا: «رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ» فأوجعه ذلك من آستهزائهم، فأمره بالصبر على مقالتهم، وأن يذكر عبده داود، سأل تعجيل خطيئته أن يراها منقوشة في كفه، فنزل به ما نزل من أنه كان إذا رآها آضطرب وامتلأ القدح من دموعه، وكان إذا رآها بكى حتى تنفذ[1] سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد، فإنما سألها بعد المغفرة وبعد ضمان تبعة الخصم، وأن الله تبارك وتعالى آسمه يستوهبه منه، وهو حبيبه ووليه وصفيه؛ فرؤية نقش الخطيئة بصورتها مع هذه المرتبة صنعت به هكذا، فكيف كان يحل بأعداء الله و بعصاته من خلقه وأهل خزيه، لو عجلت لهم صحائفهم فنظروا إلى صورة تلك الخطايا التي عملوها على الكفر والجحود، وماذا يحل بهم إذا نظروا إليها في تلك الصحائف، وقد أخبر الله عنهم فقال: «فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» فداود صلوات الله عليه مع المغفرة والبشرى والعطف لم يقم لرؤية صورتها. وقد روينا في الحديث: إذا رآها يوم القيامة منقوشة في كفه قلق حتى يقال له ها هنا، ثم يرى فيقلق ثم يقال له هاهنا، ثم يرى فيقلق حتى يقرب فيسكن.

قوله تعالى: يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى ــ قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي ملكناك لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتخلف من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين. وقد مضى في «البقرة»[2] القول في الخليفة وأحكامه مستوفى والحمد لله.

(١) لعل الأصل: حتى تنفذ دموعه من سبعة الخ.
(٢) راجع جـ ١ ص ٢٦٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

الثانية — قوله تعالى : ﴿فَٱحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أى بالعدل. وهو أمر على الوجوب وقد ٱرتبط هذا بما قبله ، وذلك أن الذى عوتب عليه داود طلبه المرأة من زوجها وليس ذلك بعدل . فقيل له بعد هذا فٱحكم بين الناس بالعدل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أى لا تقتد بهواك المخالف لأمر الله ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى عن طريق الجنة . ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى يحيدون عنها و يتركونها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فى النار ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أى بما تركوا من سلوك طريق الله؛ فقوله : « نَسُوا » أى تركوا الإيمان به ، أو تركوا العمل به فصاروا كالناسين . ثم قيل : هذا لداود لما أكرمه الله بالنبوّة . وقيل : بعد أن تاب عليه وغفر خطيئته .

الثالثة — الأصل فى الأقضية قوله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ » وقوله : « وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ » وقوله تعالى : « لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللَّهُ » وقوله تعالى : « يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِٱلْقِسْطِ » الآية . وقد تقدّم الكلام فيه (1) .

الرابعة — قال ٱبن عباس فى قوله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » قال : إن ٱرتفع لك الخصمان فكان لك فى أحدهما هوًى، فلا تشته فى نفسك الحق له ليفلُج (2) على صاحبه ، فإن فعلتَ محوتُ ٱسمك من نبوّتى، ثم لا تكون خليفتى ولا أهل كرامتى . فدل هذا على بيان وجوب الحكم بالحق، وألّا يميل إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء نفع، أو سبب يقتضى الميل من صحبة أو صداقة، أو غيرهما . وقال ابن عباس : إنما ٱبتلى سليمان بن داود عليه السلام، لأنه تقدّم إليه خصمان فهوِى أن يكون الحق لأحدهما . وقال عبد العزيز بن أبى روّاد : بلغنى أن قاضيا كان فى زمن بنى إسرائيل، بلغ من ٱجتهاده أن طلب إلى ربه

(1) راجع جـ ٥ ص ٣٧٥ وما بعدها و جـ ٦ ص ١٠٩ وما بعدها وص ٢١٢ طبعة أ، ثانية .

(2) يفلج على صاحبه : يظفر و يفوز .

أن يجعل بينه وبينه علما، إذا هو قضى بالحق عرف ذلك، وإذا هو قصر عرف ذلك، فقيل له : ٱدخل منزلك، ثم مدّ يدك فى جدارك، ثم ٱنظر حيث تبلغ أصابعك من الجدار فٱخطط عندها خطا، فإذا أنت قمت من مجلس القضاء، فٱرجع إلى ذلك الخط فٱمدد يدك إليه، فإنك متى ما كنت على الحق فإنك ستبلغه، وإن قصّرت عن الحق قصّر بك، فكان يغدو إلى القضاء وهو مجتهد فكان لا يقضى إلا بحق، وإذا قام من مجلسه وفرغ لم يذق طعاما ولا شرابا، ولم يفض إلى أهله بشيء من الأمور حتى يأتى ذلك الخط، فإذا بلغه حمد الله وأفضى إلى كل ما أحل الله له من أهل أو مطعم أو مشرب . فلما كان ذات يوم وهو فى مجلس القضاء، أقبل إليه رجلان يريدانه، فوقع فى نفسه أنهما يريدان أن يختصما إليه، وكان أحدهما له صديق وخدن، فتحرك قلبه عليه محبة أن يكون الحق له فيقضى له، فلما أن تكلما دار الحق على صاحبه فقضى عليه، فلما قام من مجلسه ذهب إلى خطه كما كان يذهب كل يوم، فمدّ يده إلى الخط فإذا الخط قد ذهب وتشمّر إلى السقف، وإذا هو لا يبلغه فخر ساجدا وهو يقول : يا ربّ شيئا لم أتعمده ولم أرده فبينه لى . فقيل له : أتحسبن أن الله تعالى لم يطلع على خيانة قلبك، حيث أحببت أن يكون الحق لصديقك لتقضى له به، قد أردته وأحببته ولكن الله قد ردّ الحق إلى أهله وأنت كاره . وعن ليث قال : تقدّم إلى عمر بن الخطاب خصمان فأقامهما، ثم عادا فأقامهما، ثم عادا ففصل بينهما، فقيل له فى ذلك فقال : تقدّما إلىّ فوجدت لأحدهما مالم أجد لصاحبه، فكرهت أن أفصل بينهما على ذلك، ثم عادا فوجدت بعض ذلك، ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلت بينهما . وقال الشعبي : كان بين عمر وأُبىّ خصومة، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته، فقال عمر : هذا أول جورك، أجلسنى وإياه مجلسا واحدا، فجلسا بين يديه .

الخامسة ـ هذه الآية تمنع من حكم الحاكم بعلمه، لأن الحكام لو مكّنوا أن يحكموا بعلمهم، لم يشأ أحدهم إذا أراد أن يحفظ وليّه ويهلك عدوّه إلا ٱدعى علمه فيما حكم به . ونحو ذلك روى عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر، قال : لو رأيت رجلا على حدّ من حدود

الله ، ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيرى . وروى أن امرأة جاءت إلى عمر فقالت له احكم لى على فلان بكذا فإنك تعلم مالى عنده . فقال لها : إن أردت أن أشهد لك فنعم وأما الحكم فلا . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بيمين وشاهد ؛ وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اشترى فرسا فجحده البائع ، فلم يحكم عليه بعلمه وقال : " من يشهد لى " فقام خزيمة فشهد فحكم . خرج الحديث أبو داود وغيره وقد مضى فى « البقرة »[1] .

قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ أى هزلا ولعبا . أى ما خلقناهما إلا لأمر صحيح وهو الدلالة على قدرتنا . ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى حسبان الذين كفروا أن الله خلقهما باطلا . ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ ثم وبخهم فقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ والميم صلة تقديره ، أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فكان فى هذا رد على المرجئة ؛ لأنهم يقولون : يجوز أن يكون المفسد كالصالح أو أرفع درجة منه . و بعده أيضا : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ أى أنجعل أصحاب محمد عليه السلام كالكفار ؛ قاله ابن عباس . وقيل هو عام فى المسلمين المتقين والفجار الكافرين وهو أحسن ، وهو رد على منكرى البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصى إلى شىء واحد .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٠٥ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ ﴾ أى هذا كتاب ﴿ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ يا محمد ﴿ لِيَدَّبَّرُوا ﴾ أى ليتدبروا فأدغمت التاء فى الدال . وفى هذا دليل على وجوب معرفة معانى القرآن ، ودليلٌ على أن الترتيل أفضل من الهَذّ[1] ؛ إذ لا يصح التدبر مع الهَذّ على ما بيناه فى كتاب التذكار . وقال الحسن : تدبر آيات الله اتباعها . وقراءة العامة « لِيَدَّبَّرُوا » . وقرأ أبو جعفر وشيبة « لِتَدَبَّرُوا » بتاء وتخفيف الدال ، وهى قراءة علىّ[2] رضى الله عنه ، والأصل لتتدبروا فحذف إحدى التاءين تخفيفا ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أى أصحاب العقول واحدها لُبٌّ ، وقد جمع على أَلُبّ ، كما جمع بُؤْسٌ على أبؤس ، ونُعْم على أنعم ؛ قال أبو طالب :

* قلبى إليه مُشرِفُ الأَلُبِّ *

وربما أظهروا التضعيف فى ضرورة الشعر ؛ قال الكُمَيت :

إليكم ذوى آلِ النبىّ تطلّعتْ * نوازِعُ من قلبى ظِماءٌ وأَلْبُبُ

قوله تعالى : وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ لما ذكر داود ذكر سليمان . و « أَوَّابٌ » معناه مطيع . ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ يعنى الخيل جمع جواد للفرس إذا كان شديد الحُضْر ، كما يقال للإنسان جواد إذا كان كثير العطية غزيرها ؛ يقال : قوم أجواد وخيل جِياد ، جاد الرجلُ بماله يجود جُودا فهو جَواد ، وقوم جُودٌ مثال

(١) الهذ : سرعة القراءة .

(٢) وفى الألوسى أن عليا قرأ « ليتدبروا » بتاء بعد الياء آخر الحروف وكذا فى البحر لأبى حيان .

قَذَالٍ وقُذُلٍ، وإنما سكنت الواو لأنها حرف علة، وأجواد وأجاوِد وجُوداء، وكذلك آمرأة جَوَاد ونسوة جُود مثل نوارٍ ونُور، قال الشاعر (١) :

صَناعٌ بإشْفاها حَصانٌ بِشَكْرِها * جوادٌ بقُوتِ البطْنِ والعِرْقُ زاخِرُ

وتقول : سِرنا عُقْبة جَوَادا، وعُقْبَتين جَوَادين، وعُقَبا جِيادا. وجاد الفرس أي صار رائعا يجود جُودة (بالضم) فهو جواد للذكر والأنثى من خيل جِياد وأجياد وأجاويد. وقيل : إنها الطوال الأعناق مأخوذ من الجِيد وهو العنق؛ لأن طول الأعناق [في] الخيل مَن صفات فَرَاهتها. وفي الصافنات أيضا وجهان : أحدهما أن صفونها قيامها. قال القتبي والفراء : الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها. ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من سرّه أن يقوم له الرجال صفونا فليتبوّأ مقعده من النار" أي يديمون له القيام؛ حكاه قطرب أيضا وأنشد قول النابغة :

لنا قُبّةٌ مضْروبةٌ بِفنائها * عِتاقُ المَهارى والجِيادُ الصّوافِن

وهذا قول قتادة. الثاني أن صفونها رفع إحدى اليدين على طرف الحافر حتى يقوم على ثلاث؛ كما قال الشاعر :

أَلِفَ الصُّفونَ فما يَزالُ كأنّهُ * مِمّا يقومُ على الثّلاثِ كَسيرا (٢)

وقال عمرو بن كُلْثوم :

تَركْنا الخَيْلَ عاكِفةً عليْهِ * مُقَلَّدةً أَعِنَّتَها صُفونا

وهذا قول مجاهد. قال الكلبي : غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين فأصاب منهم ألف فرس. وقال مقاتل : ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس، وكان أبوه أصابها من العمالقة. وقال الحسن : بلغني أنها كانت خيلا خرجت من البحر لها أجنحة. وقاله الضحاك. وأنها كانت خيلا أخرجت لسليمان من البحر منقوشة ذات أجنحة. ابن زيد : أخرج

(١) هو أبو شهاب الهذلي ورواه ابن السكيت : والعرض وافر، وروى : جواد بزاد الركب والعرق زاخره وآمرأة صناع أي ماهرة حاذقة عمل اليدين، والإشفى المخصف للنعال وعنى أن مرفقها حديد كالإشفى. والشكر الفرج. والعرق زاخر أراد به الجوع يعني تجود بقوتها مع شدة الجوع. (٢) ورد في اللسان في مادة صفن أن قوله مما يقوم لم يرد من قيامه، وإنما أراد من الجنس الذي يقوم على الثلاث، وجعل « كسيرا » حالا من ذلك النوع الزمن لا من الفرس المذكور.

الشيطان لسليمان الخيل من البحر من مروج البحر ، وكانت لها أجنحة . وكذلك قال علي رضي الله عنه : كانت عشرين فرسا ذوات أجنحة . وقيل : كانت مائة فرس . وفي الخبر عن إبراهيم التيمي : أنها كانت عشرين ألفا ؛ فالله أعلم . فقال : ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ يعني بالخير الخيل والعرب تسميها كذلك ، وتعاقب بين الراء واللام ؛ فتقول : انهملت العين وانهمرت ، وختلت وخترت إذا خدعت . قال الفراء : الخير في كلام العرب والخيل واحد . النحاس : في الحديث "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة" فكأنها سميت خيرا لهذا . وفي الحديث: لما وفد زيد الخيل على النبي صلى الله عليه وسلم، قال له : "أنت زيد الخير" وهو زيد بن مهلهل الشاعر . وقيل : إنما سميت خيرا لما فيها من المنافع . وفي الخبر : إن الله تعالى عرض على آدم جميع الدواب، وقيل له : اختر منها واحدا فاختار الفرس ؛ فقيل له : اخترت عزك ؛ فصار اسمه الخير من هذا الوجه . وسمي خيلا ؛ لأنها موسومة بالعز . وسمي فرسا لأنه يفترس مسافات الجو افتراس الأسد وثبانا ، ويقطعها كالالتهام بيديه على كل شيء خبطا وتناولا . وسمي عربيا لأنه جيء به من بعد آدم لإسمعيل جزاء عن رفع قواعد البيت ، وإسمعيل عربي فصارت له نحلة من الله ؛ فسمي عربيا . و « حُبَّ » مفعول في قول الفراء . المعنى إني آثرت حب الخير . وغيره يقدره مصدرا أضيف إلى المفعول ؛ أي أحببت الخير حبا فألهاني عن ذكر ربي . وقيل : إن معنى «أَحْبَبْتُ» قعدت وتأخرت من قولهم : أحَبَّ البعيرُ إذا برك وتأخر . وأحب فلان أي طأطأ رأسه . قال أبو زيد : يقال بعير مُحِبٌّ وقد أحبّ إحبابا وهو أن يصيبه مرض أو كسر فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت . وقال ثعلب : يقال أيضا للبعير الحسير مُحِبٌّ ؛ فالمعنى قعدت عن ذكر ربي . و « حُبَّ » على هذا مفعول له . وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان : أحببت بمعنى لزمت من قوله (١) :

* مِثْلَ بَعِيرِ السَّوْءِ إِذْ أَحَبَّا *

---

(١) هو أبو محمد الفقعسي ؛ وصدر البيت : * حلت عليه بالقفيل ضربا * والقفيل السوط . وفي كتب اللغة : ضرب بعير السوء ... الخ .

﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ يعنى الشمس كناية عن غير مذكور ؛ مثل قوله تعالى : « مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » أى على ظهر الأرض ؛ وتقول العرب : هاجت باردة أى هاجت الريح باردة . وقال الله تعالى : « حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ » أى بلغت النفس الحلقوم . وقال تعالى : « إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ » ولم يتقدم للنار ذكر . وقال الزجاج : إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشيء أو دليل الذكر، وقد جرى هاهنا الدليل وهو قوله : « بِالْعَشِيِّ » . والعشى مابعد الزوال، والتوارى الاستتار عن الأبصار، والحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق؛ قاله قتادة وكعب . وقيل : هو جبل قاف . وقيل : جبل دون قاف . والحجاب الليل سمى حجابا ؛ لأنه يستر ما فيه . وقيل : « حَتَّى تَوَارَتْ » أى الخيل فى المسابقة . وذلك أن سليمان كان له ميدان مستدير يسابق فيه بين الخيل، حتى توارت عنه وتغيب عن عينه فى المسابقة؛ لأن الشمس لم يجر لها ذكر . وذكر النحاس أن سليمان عليه السلام كان فى صلاة، فجيء إليه بخيل لتعرض عليه قد غُنِمت فأشار بيده، لأنه كان يصلى حتى توارت الخيل، وسترتها جُدُر الأصطبلات، فلما فرغ من صلاته قال : « رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا » أى فأقبل يمسحها مسحا . وفى معناه قولان : أحدهما أنه أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراما منه لها، وليُرِى أن الجليل لا يقبح أن يفعل مثل هذا بخيله . وقال قائل هذا القول : كيف يقتلها ؟ وفى ذلك إفساد المال ومعاقبة من لا ذنب له . وقيل : المسح ها هنا هو القطع أذن له فى قتلها . قال الحسن والكلبي ومقاتل : صلى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيه وهى تعرض عليه، وكانت ألف فرس ، فعرض عليه منها تسعمائة فتنبه لصلاة العصر، فإذا الشمس قد غربت وفاتت الصلاة ، ولم يُعلَم بذلك هيبة له فاغتم ؛ فقال : « رُدُّوهَا عَلَيَّ » فردّت فعقرها بالسيف ؛ قربة لله وبقى منها مائة ، فما فى أيدى الناس من الخيل العتاق اليوم فهى من نسل تلك الخيل . قال القشيري : وقيل ما كان فى ذلك الوقت صلاة الظهر ولا صلاة العصر ، بل كانت تلك الصلاة نافلة فشغل عنها . وكان سليمان عليه السلام رجلا مهيبا ، فلم يذكّره أحد ما نسى من الفرض أو النفل وظنوا التأخر مباحا ، فتذكر سليمان تلك

الصلاة الفائتة ، وقال على سبيل التلهف : « إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى » أى عن الصلاة ، وأمر برد الأفراس إليه ، وأمر بضرب عراقيبها وأعناقها ، ولم يكن ذلك معاقبة للأفراس ؛ إذ ذبح البهائم جائز إذا كانت مأكولة ، بل عاقب نفسه حتى لا تشغله الخيل بعد ذلك عن الصلاة . ولعله عرقبها ليذبحها لحبسها بالعرقبة عن النفار ، ثم ذبحها فى الحال ليتصدق بلحمها ؛ أو لأن ذلك كان مباحا فى شرعه فأتلفها لما شغلته عن ذكر الله ، حتى يقطع عن نفسه ما يشغله عن الله ، فأثنى الله عليه بهذا ، وبين أنه أثابه بأن سخر له الريح ، فكان يقطع عليها من المسافة فى يوم ما يقطع مثله على الخيل فى شهرين غُدوّا ورَواحا . وقد قيل : إن الهاء فى قوله : « رُدُّوهَا عَلَيَّ » للشمس لا للخيل . قال ٱبن عباس : سألت عليا عن هذه الآية فقال : ما بلغك فيها ؟ فقلت سمعت كعبا يقول : إن سليمان لما ٱشتغل بعرض الأفراس حتى توارت الشمس بالحجاب وفاتته الصلاة ، قال : « إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى » أى آثرت « حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى » الآية « رُدُّوهَا عَلَيَّ » يعنى الأفراس وكانت أربع عشرة ؛ فضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، وأن الله سلبه ملكه أربعة عشر يوما ؛ لأنه ظلم الخيل . فقال على بن أبى طالب : كذب كعب ؛ لكن سليمان ٱشتغل بعرض الأفراس للجهاد حتى توارت ؛ أى غربت الشمس بالحجاب ؛ فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس : « رُدُّوهَا » يعنى الشمس فردوها حتى صلى العصر فى وقتها ، وأن أنبياء الله لا يظلمون ؛ لأنهم معصومون .

قلت : الأكثر فى التفسير أن التى توارت بالحجاب هى الشمس ، وتركها لدلالة السامع عليها بما ذكر مما يرتبط بها ويتعلق بذكرها ؛ حسب ما تقدم بيانه . وكثيرا ما يضمرون الشمس ؛ قال لبيد :

حتى إذا أَلْقَتْ يَدًا فى كافِرٍ * وأَجَنَّ عَوْراتِ الثُّغورِ ظَلَامُها

والهاء فى « رُدُّوهَا » للخيل ، ومسحها قال الزهرى وٱبن كيسان : كان يمسح سوقها وأعناقها ، ويكشف الغبار عنها حُبّا لها . وقاله الحسن وقتادة وٱبن عباس . وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم رؤى وهو يمسح فرسه بردائه . وقال : " إنى عوتبت الليلة فى الخيل "

خرّجه الموطأ عن يحيى بن سعيد مرسلا . وهو فى غير الموطإ مسند متصل عن مالك عن يحيى ابن سعيد عن أنس . وقد مضى فى « الأنفال[1] » قوله عليه السلام : "وآمسحوا بنواصيها وأكفالها" وروى آبن وهب عن مالك أنه مسح أعناقها وسوقها بالسيوف .

قلت : وقد آستدل الشبلى وغيره من الصوفية فى تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا . وهو آستدلال فاسد ؛ لأنه لا يجوز أن ينسب إلى نبىّ معصوم أنه فعل الفساد . والمفسرون آختلفوا فى معنى الآية ؛ فمنهم من قال : مسح على أعناقها وسوقها إكراما لها وقال أنت فى سبيل الله ؛ فهذا إصلاح . ومنهم من قال : عرقبها ثم ذبحها ، وذبح الخيل وأكل لحمها جائز . وقد مضى فى «النحل[2]» بيانه . وعلى هذا فما فعل شيئا عليه فيه جناح . فأما إفساد ثوب صحيح لا لغرض صحيح فإنه لا يجوز . ومن الجائز أن يكون فى شريعة سليمان جواز ما فعل ولا يكون فى شرعنا . وقد قيل : إنما فعل بالخيل ما فعل بإباحة الله جل وعز له ذلك . وقد قيل : إن مسحه إياها وَسْمُها بالكىّ وجعلها فى سبيل الله ؛ فالله أعلم . وقد ضعف هذا القول من حيث أن السّوق ليست بمحل للوسم بحال . وقد يقال : الكى على الساق علاطٌ ، وعلى العنق وِثاق . والذى فى الصحاح للجوهرى : عَلَط البعيرَ عَلْطا كواه فى عنقه بسمة العِلاط . والعِلاطان جانبا العنق .

قلت : ومن قال إن الهاء فى « رُدُّوهَا » ترجع للشمس فذلك من معجزاته . وقد آتفق مثل ذلك لنبينا صلى الله عليه وسلم . خرج الطحاوى فى مشكل الحديث عن أسماء بنت عُمَيْس من طريقين أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يوحى إليه ورأسه فى حجر علىّ ، فلم يصل العصرَ حتى غربت الشمس ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أصليت يا علىّ" قال : لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللهم إنه كان فى طاعتك وطاعة رسولك فآردد عليه الشمس" قالت أسماء : فرأيتها غربت ثم رأيتها بعد ما غربت طلعت على الجبال والأرض ، وذلك بالصَّهْباء فى خيبر . قال الطحاوى : وهذان الحديثان ثابتان . ورواتهما ثقات .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٧٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قلت : وضعف أبو الفرج ابن الجوزى هذا الحديث فقال : وغلو الرافضة فى حب على عليه السلام حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة فى فضائله ؛ منها أن الشمس غابت ففاتت عليا عليه السلام العصر فردّت له الشمس، وهذا من حيث النقل محال ، ومن حيث المعنى فإن الوقت قد فات وعودها طلوع متجدّد لا يردّ الوقت . ومن قال : إن الهاء ترجع إلى الخيل، وأنها كانت تبعد عن عين سليمان فى السباق، ففيه دليل على المسابقة بالخيل وهو أمر مشروع . وقد مضى القول فيه فى « يوسف »[1] .

قوله تعالى : وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ قيل : فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة ؛ ذكره الزمخشرى . و « فَتَنَّا » أى ٱبتلينا وعاقبنا . وسبب ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ٱبن عباس قال : ٱختصم إلى سليمان عليه السلام فريقان أحدهما من أهل جرادة ٱمرأة سليمان ؛ وكان يحبها فهوى أن يقع القضاء لهم، ثم قضى بينهما بالحق، فأصابه الذى أصابه عقوبة لذلك الهوى . وقال سعيد بن المسيّب : إن سليمان عليه السلام ٱحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضى بين أحد، ولا ينصف مظلوما من ظالم، فأوحى الله تعالى إليه : إنى لم أستخلفك لتحتجب عن عبادى، ولكن لتقضى بينهم وتنصف مظلومهم .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ١٤٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وقال شَهر بن حَوْشَب ووهب بن منبه: إن سليمان عليه السلام سبى بنت ملك غزاه فى البحر، فى جزيرة من جزائر البحر يقال لهـا صيدون، فألقيت عليه محبتها وهى تعرض عنه، لا تنظر إليه إلا شزرا، ولا تكلمه إلا نزرا، وكان لا يرقأ لها دمع حزنا على أبيها، وكانت فى غاية من الجمال، ثم أنها سألته أن يصنع لهـا تمثالا على صورة أبيها حتى تنظر إليه، فأمر فصنع لهـا فعظمته وسجدت له، وسجدت معها جواريها، وصار صنما معبودا فى داره وهو لا يعلم، حتى مضت أربعون ليـلة، وفشا خبره فى بنى إسرائيل وعلم به سـليمان فكسره، وحرقه ثم ذرّاه فى البحر. وقيل: إن سليمان لما أصاب ٱبنة ملك صيدون وٱسمها جرادة — فيما ذكر الزمخشرى — أعجب بهـا، فعرض عليها الإسلام فأبت، فخوفها فقالت: ٱقتلنى ولا أسـلم، فتزوجها وهى مشركة، فكانت تعبد صنما لها من ياقوت أربعين يوما فى خفية من سليمان؛ إلى أن أسلمت فعوقب سـليمان بزوال ملكه أربعين يوما. وقال كعب الأحبار: إنه لمـا ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه. وقال الحسن: إنه قارب بعض نسائه فى شىء من حيض أو غيره. وقيل: إنه أمر ألا يتزوج ٱمرأة إلا من بنى إسرائيل، فتزوج ٱمرأة من غيرهم فعوقب على ذلك؛ والله أعـــلم.

قوله تعـالى: ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ قيـل: شيطان فى قول أكثر المفسرين؛ ألقى الله شـبه سليمان عليه السلام عليـه، وٱسمه صخر بن عمير صاحب البحر، وهو الذى دل سليمان على المـاس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس، فصوتت الحجارة لمـا صنعت بالحديد، فأخذوا المـاس فجعلوا يقطعون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوّت. قال ٱبن عباس: كان ماردا لا يقوى عليه جميع الشياطين، ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتم سـليمان بن داود، وكان سليمان لا يدخل الكنيف بخاتمه، فجاء صخر فى صورة سليمان حتى أخذ الخاتم من ٱمرأة من نساء سليمان أم ولد له يقال لها الأمينة؛ قاله شهر ووهب. وقال ٱبن عباس وٱبن جبير: ٱسمها جرادة. فقام أربعين يوما على ملك سليمان وسليمان هارب، حتى ردّ الله عليه الخاتم والملك. وقال سعيد بن المسيِّب: كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه، فأخذه الشيطان من تحته.

وقال مجاهد : أخذه الشيطان من يد سليمان ؛ لأن سليمان سأل الشيطان وكان آسمه آصف : كيف تضلون الناس ؟ فقال له الشيطان : أعطني خاتمك حتى أخبرك . فأعطاه خاتمه ، فلما أخذ الشيطان الخاتم جلس على كرسيّ سليمان ، متشبها بصورته ، داخلا على نسائه ، يقضي بغير الحقّ ، ويأمر بغير الصواب . وآختلف في إصابته لنساء سليمان[(1)] ، فحكى عن آبن عباس ووهب بن منبِّه أنه كان يأتيهنّ في حيضهنّ . وقال مجاهد : منع من إتيانهنّ . وزال عن سليمان ملكه فخرج هاربا إلى ساحل البحر يتضيَّف الناس ، ويحمل سموك الصيادين بالأجر ، وإذا أخبر الناس أنه سليمان أكذبوه ؛ قال قتادة : ثم إن سليمان بعد أن آستنكر بنو إسرائيل حكم الشيطان أخذ حوتة من صياد . قيل : إنه آستطعمها . وقال آبن عباس : أخذها أجرة في حمل حوت . وقيل : إن سليمان صادها فلما شق بطنها وجد خاتمه فيها ، وذلك بعد أربعين يوما من زوال ملكه ، وهي عدد الأيام التي عُبِد [فيها] الصنم في داره ، وإنما وجد الخاتم في بطن الحوت ؛ لأن الشيطان الذي أخذه ألقاه في البحر . وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : بينا سليمان على شاطئ البحر وهو يعبث بخاتمه ، إذ سقط منه في البحر وكان ملكه في خاتمه . وقال جابر بن عبد الله قال النبي صلى الله عليه وسلم : "كان نقش خاتم سليمان بن داود لا إله إلا الله محمد رسول الله" . وحكى يحيي بن أبي عمرو الشيباني أن سليمان وجد خاتمه بعسقلان ، فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعا لله تعالى . قال آبن عباس وغيره : ثم إن

---

(1) هذه الأقوال لا تصح قطعا لمنافاتها للعصمة التي هي من أخص صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولو صح شيء منها لكان الوحي محل الشك والارتياب ؛ وقد قال أبو حيان في تفسيره : نقل المفسرون في هذه الفتنة و إلقاء الجسد أقوالا يجب براءة الأنبياء منها ، يوقف عليها في كتبهم ، وهي مما لا يحل نقلها ، وهي إما من أوضاع اليهود أو الزنادقة ، ولم يبين الله الفتنة ما هي ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان . إلى أن قال : لم يكن ليذكر من يتأسى به ممن نسب المفسرون إليه ما يعظم أن يتفوه به ، ويستحيل عقلا وجود بعض ما ذكروه ، كتمثل الشيطان بصورة نبي ، حتى يلتبس أمره عند الناس ، ويعتقدوا أن ذلك المتصور هو النبي . ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي ، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها .

وقال الألوسي : ومن أقبح ما فيها زعم تسلط الشيطان على نساء نبيه حتى وطئهنّ وهنّ حيض . الله أكبر ! ! هذا بهتان عظيم ، وخطب جسيم . وسيأتي للمؤلف تضعيف هذا القول أيضا .

سليمان لمـا ردّ الله عليه ملكه، أخذ صخرا الذى أخذ خاتمه، ونقر له صخرة وأدخله فيها، وسدّ عليه بأخرى وأوثقها بالحديد والرصاص، وختم عليها بخاتمه وألقاها فى البحر، وقال : هـذا محبسـك إلى يوم القيامة . وقال علىّ رضى الله عنـه : لمـا أخذ سليمان الخاتم، أقبلت إليه الشياطين والجن والإنس والطير والوحش والريح، وهرب الشـيطان الذى خلف فى أهله، فأتى جزيرة فى البحر، فبعث إليه الشياطين فقالوا : لانقدر عليه، ولكنه يرد عينا فى الجزيرة فى كل سبعة أيام يوما، ولا نقدر عليـه حتى يسكر! قال : فنزح سليمان ماءها وجعل فيهـا خمرا، فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمـر، فقال : والله إنك لشراب طيّب إلا أنك تطيشين الحليم، وتزيدين الجاهل جهـلا . ثم عطش عطشا شـديدا ثم أتاها فقال مثل مقالتـه، ثم شربها فغلبت على عقله، فأروه الخاتم فقال : سمعا وطاعة . فأتوا به سليمان فأوثقه وبعث به إلى جبل، فذكروا أنه جبل الدخان فقالوا : إن الدخان الذى ترون من نفسه، والمـاء الذى يخرج من الجبل من بوله . وقال مجاهد : آسم ذلك الشيطان آصف . وقال السدى آسمه حبقيق، فالله أعلم . وقد ضعف هـذا القول من حيث إن الشيطان لا يتصوّر بصورة الأنبياء، ثم من المحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان الشيطان بسليمان حتى يظنوا أنهم مع نبيهم فى حقّ، وهم مع الشيطان فى باطل . وقيل : إن الجسد وَلَدٌ وُلِدَ لسليمان، وأنه لمـا ولد آجتمعت الشياطين، وقال بعضهم لبعض : إن عاش له آبن لم ننفك مما نحن فيه من البلاء والسخرة، فتعالوا نقتل ولده أو نخبله . فعـلم سليمان بذلك فأمر الريح حتى حملته إلى السحاب، وغدا آبنه فى السحاب خوفا من مضرة الشياطين، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتا . قال معناه الشعبى . فهو الجسد الذى قال الله تعالى : « وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا » .

وحكى النقـاش وغيره : إن أكثر ما وطئ سـليمان جواريه طلبا للولد، فولد له نصف إنسان، فهو كان الجسد الملقى على كرسيه، جاءت به القابلة فألقته هناك . وفى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قال سليمان لأطوفنّ الليلة على

تسعين امرأة كلهن تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله فقال له صاحبه قل إن شاء الله فلم يقل إن شاء الله فطاف عليهنّ جميعا فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل وأيمُ الذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون" وقيل: إن الجسد هو آصف بن برخيا الصديق كاتب سليمان ، وذلك أن سليمان لما فُتِن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه ، فأعاده إلى يده فسقط فأيقن بالفتنة؛ فقال له آصف : إنك مفتون ولذلك لا يتماسك فى يدك ، ففر إلى الله تعالى تائبا من ذلك ، وأنا أقوم مقامك فى عالمك إلى أن يتوب الله عليك ، ولك من حين فتنت أربعة عشر يوما . ففر سليمان هاربا إلى ربه ، وأخذ آصف الخاتم فوضعه فى يده فثبت ، وكان عنده علم من الكتاب . وقام آصف فى ملك سليمان وعياله ، يسير بسيره و يعمل بعمله ، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائبا إلى الله تعالى ، وردّ الله عليه ملكه ؛ فأقام آصف فى مجلسه ، وجلس على كرسيّه وأخذ الخاتم . وقيل: إن الجسد كان سليمان نفسه ؛ وذلك أنه مرض مرضا شديدا حتى صار جسدا . وقد يوصف به المريضُ المضنى فيقال : كالجسد الملقى .

صفة كرسي سليمان وملكه

روى عن ابن عباس قال : كان سليمان يوضع له ستمائة كرسى ، ثم يجىء أشراف الناس فيجلسون مما يليه ، ثم يأتى أشراف الجن فيجلسون مما يلى الإنس ، ثم يدعو الطير فتظلّهم ، ثم يدعو الريح فتقلّهم ، وتسير بالغداة الواحدة مسيرة شهر . وقال وهب وكعب وغيرهما : إن سليمان عليه السلام لما ملك بعد أبيه ، أمر باتخاذ كرسى ليجلس عليه للقضاء ، وأمر أن يعمل بديعا مهولا بحيث إذا رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وتهيب ، فأمر أن يعمل من أنياب الفيلة مُفصَّصة بالدر والياقوت والزبرجد ، وأن يحفّ بنخيل الذهب ، فحف بأربع نخلات من ذهب ، شماريخها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر ، على رأس نخلتين منهما طاوسان من ذهب ، وعلى رأس نخلتين نسران من ذهب بعضها مقابل لبعض ، وجعلوا من جنبتي الكرسى أسدين من ذهب ، على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر .

وقد عقدوا على النخلات أشجار كروم من الذهب الأحمر ، واتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر ، بحيث أظل عريش الكروم النخل والكرسي . وكان سليمان عليه السلام إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى، فيستدير الكرسيّ كله بما فيه دوران الرحى المسرعة؛ وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتها ، ويبسط الأسدان أيديهما ، ويضربان الأرض بأذنابهما . وكذلك يفعل في كل درجة يصعدها سليمان ، فإذا استوى بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأسه ، ثم يستدير الكرسي بما فيه، ويدور معه النسران والطاوسان والأسدان مائلان برءوسهما إلى سليمان ، وينضحن عليه من أجوافهن المسك والعنبر ، ثم تناوله حمامة من ذهب قائمة على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسيّ التوراة ، فيفتحها سليمان عليه السلام ويقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء .

قالوا : ويجلس عظماء بني إسرائيل على كراسي الذهب المفصصة بالجواهر، وهي ألف كرسيّ عن يمينه ، ويجلس عظماء الجن على كراسي الفضة عن يساره وهي ألف كرسيّ، ثم تحفّ بهم الطير تظلهم، ويتقدّم الناس لفصل القضاء . فإذا تقدمت الشهود للشهادات، دار الكرسيّ بما فيه وعليه دوران الرحى المسرعة ، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما، وينشر النّسران والطاوسان أجنحتهما ، فتفزع الشهود فلا يشهدون إلا بالحقّ .

وقيل : إن الذي كان يدور بذلك الكرسيّ تنّين من ذهبٍ ذلك الكرسيّ عليه، وهو عظيم مما عمله له صخر الجنيّ؛ فإذا أحست بدورانه تلك النُّسور والأُسْد والطواويس التي في أسفل الكرسيّ إلى أعلاه درن معه، فإذا وقفن وقفن كلهنّ على رأس سليمان وهو جالس، ثم ينضحن جميعا على رأسه ما في أجوافهنّ من المسك والعنبر . فلما توفى سليمان بعث بُخْتنَصَّر فأخذ الكرسيّ فحمله إلى أنطاكية، فأراد أن يصعد إليه ولم يكن له علم كيف يصعد إليه؛ فلما وضع رجله ضرب الأسد رجله فكسرها ، وكان سليمان إذا صعد وضع قدميه جميعا . ومات بُخْتنَصَّر وحمل الكرسيّ إلى بيت المقدس، فلم يستطع قطّ ملك أن يجلس عليه، ولكن لم يدر أحد عاقبة أمره ولعله رُفع .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أى رجع إلى الله وتاب . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ أى اغفر لى ذنبى ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ يقال : كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا ، مع ذمها من الله تعالى ، وبغضه لها ، وحقارتها لديه؟ . فالجواب أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى وسياسة ملكه ، وترتيب منازل خلقه ، وإقامة حدوده ، والمحافظة على رسومه ، وتعظيم شعائره ، وظهور عبادته ، ولزوم طاعته ، ونظم قانون الحكم النافذ عليهم منه ، وتحقيق الوعود فى أنه يعلم ما لا يعلم أحد من خلقه حسب ماصرح بذلك لملائكته فقال : « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » وحوشى سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلبا لنفس الدنيا ؛ لأنه هو والأنبياء أزهد خلق الله فيها ، وإنما سأل مملكتها لله ، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله ؛ فكانا محمودين مجابين إلى ذلك ، فأجيب نوح فأهلك من عليها ، وأعطى سليمان المملكة . وقد قيل : إن ذلك كان بأمر من الله جل وعز على الصفة التى علم الله أنه لا يضبطه إلا هو وحده دون سائر عباده ، أو أراد أن يقول ملكا عظيما فقال : « لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » وهذا فيه نظر . والأول أصح . ثم قال له : « هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » قال الحسن : ما من أحد إلا ولله عليه تبعة فى نعمه غير سليمان بن داود عليه السلام فإنه قال : « هذا عَطَاؤُنَا » الآية .

قلت : وهذا يرد ما روى فى الخبر : إن آخر الأنبياء دخول الجنة سليمان بن داود عليه السلام لمكان ملكه فى الدنيا . وفى بعض الأخبار : يدخل الجنة بعد الأنبياء بأربعين خريفا ، ذكره صاحب القوت وهو حديث لا أصل له ؛ لأنه سبحانه إذا كان عطاؤه لا تبعة فيه ، لأنه من طريق المنة ، فكيف يكون آخر الأنبياء دخولا الجنة ، وهو سبحانه يقول : « وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ » . وفى الصحيح : " لكل نبىّ دعوة مستجابة فتعجّل كل نبىّ دعوته " الحديث . وقد تقدّم بجعل له من قبل السؤال حاجة مقضية ، فلذلك لم تكن عليه تبعة . ومعنى قوله : « لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » أى أن يسأله . فكأنه سأل منع السؤال بعده ، حتى لا يتعلق به أمل أحد ، ولم يسأل منع الإجابة . وقيل : إن سؤاله ملكا لا ينبغى

لأحد من بعده؛ ليكون محله وكرامته من الله ظاهرا فى خلق السموات والأرض؛ فإن الأنبياء عليهم السلام لهم تنافس فى المحل عنده ، فكل يحب أن تكون له خصوصية يستدل بها على محله عنده، ولهذا لما أخذ النبي صلى الله عليه وسلم العفريت الذى أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه الله منه، أراد ربطه ثم تذكر قول أخيه سليمان «رَبِّ ٱغْفِرْلِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي» فرده خاسئا . فلو أعطى أحد بعده مثله ذهبت الخصوصية ، فكأنه كره صلى الله عليه وسلم أن يزاحمه فى تلك الخصوصية ، بعد أن علم أنه شيء هو الذى خُصَّ به من سخرة الشياطين، وأنه أجيب إلى ألا يكون لأحد بعده . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً ﴾ أى لينة مع قوتها وشدتها حتى لا تضرّ بأحد ، وتحمله بعسكره وجنوده وموكبه . وكان موكبه فيما روى فرسخا فى فرسخ ، مائة درجة بعضها فوق بعض ، فى كل درجة صنف من الناس ، وهو فى أعلى درجة مع جواريه وحشمه وخدمه ؛ صلوات الله وسلامه عليه . وذكر أبو نعيم الحافظ قال : حدّثنا أحمد ابن جعفر، قال حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدّثنا أحمد بن محمد بن أيوب، قال حدّثنا أبو بكر بن عيّاش عن إدريس بن وهب بن منبّه ، قال حدّثنى أبى قال : كان لسليمان ابن داود عليه السلام ألف بيت أعلاه قوارير وأسفله حديد ، فركب الريح يوما فمر بحرّاث فنظر إليه الحرّاث فقال : لقد أوتى آل داود ملكا عظيما ! فحملت الريح كلامه فألقته فى أذن سليمان، قال فنزل حتى أتى الحرّاث فقال : إنى سمعت قولك، وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى مالا تقدر عليه ؛ لتسبيحةٌ واحدة يقبلها الله منك لخير مما أوتى آل داود . فقال الحرّاث : أذهب الله همّك كما أذهبتَ همّى .

قوله تعالى : ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أى أراد ؛ قاله مجاهد . والعرب تقول : أصاب الصوابَ وأخطأ الجوابَ . أى أراد الصواب وأخطأ الجواب ؛ قاله ٱبن الأعرابى . وقال الشاعر :

أَصابَ الكلامَ فلم يَستطِعْ * فأَخطَا الجوابَ لدَى المفصَلِ

وقيل : أصاب أراد بلغة حِمْير . وقال قتادة : هو بلسان هَجَر . وقيل : « حَيْثُ أَصَابَ » حيثما قصد، وهو مأخوذ من إصابة السهم الغرضَ المقصود. ﴿ وَٱلشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ أى وسخرنا له الشياطين وما سخرت لأحد قبله . « كُلَّ بَنَّاءٍ » بدل من الشياطين أى كل بناء منهم، فهم يبنون له ما يشاء . قال (١) :

إلّا سُلَيْمَانَ إذ قال الإلهُ له * قُمْ فى البريّةِ فٱحْدُدْهَا عن الفَنَدِ
وَخَيِّسِ الجِنَّ إنّى قد أَذِنْتُ لهمْ * يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعُمُدِ

« وَغَوَّاصٍ » يعنى فى البحر يستخرجون له الدرّ . فسليمان أول من ٱستخرج له اللؤلؤ من البحر . ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ أى وسخرنا له مَرَدة الشياطين حتى قرنهم فى سلاسل الحديد وقيود الحديد؛ قاله قتادة . السدى : فى الأغلال . ٱبن عباس : فى وثاق . ومنه قول الشاعر (٢) :

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبَايَا * وأُبْنَا بالملوكِ مُصَفَّدِينَا

قال يحيى بن سلّام : ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يسخرهم .

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا ﴾ الإشارة بهذا إلى الملك؛ أى هذا الملك عطاؤنا، فأعطِ من شئت أو ٱمنع من شئت لا حساب عليك؛ عن الحسن والضحاك وغيرهما . قال الحسن : ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه فيها تبعة إلا سليمان عليه السلام؛ فإن الله تعالى يقول : « هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . وقال قتادة : الإشارة فى قوله تعالى : « هَٰذَا عَطَاؤُنَا » إلى ما أعطيه من القوة على الجماع، وكانت له ثلثمائة ٱمرأة وسبعمائة سرية، وكان فى ظهره ماء مائة رجل؛ رواه عكرمة عن ابن عباس (٣) . ومعناه فى البخارى . وعلى هذا « فَٱمْنُنْ » من المنِيّ؛ يقال : أَمْنَى يُمْنِى ومَنَى يَمْنِى لغتان ، فإذا أمرت من أمنى قلت أَمْنِ، ويقال : من مَنَى يَمْنِى فى الأمر ٱمْنِ، فإذا جئت بنون الفعل نون الخفيفة قلت ٱمنن . ومن

(١) هو النابغة الذبيانى : ويروى إذ قال المليك له . ويروى فٱزجرها عن الفند . أى الخطإ . وخيس أى ذلل . والصفاح جمع صفاحة بشدّ الفاء، وهى حجارة رقاق عراض . (٢) هو عمرو بن كلثوم والبيت من معلقته .

(٣) قال أبو حيان فى تفسيره : ولعله لا يصح عن ٱبن عباس لأنه لم يجر هنا ذكر النساء، ولا ما أوتى من القدرة على ذلك .

ذهب به إلى المنّة قال : مَنّ عليه، فإذا أخرجه مخرج الأمر أبرز النونين ؛ لأنه كان مضاعفا فقال آمنُنْ . فيروى فى الخبر أنه سخر له الشياطين فمن شاء منّ عليه بالعتق والتخلية ومن شاء أمسكه؛ قاله قتادة والسدى . وعلى ما روى عكرمة عن ابن عباس : أى جامع من شئت من نسائك واترك جماع من شئت منهن لاحساب عليك . ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى إن أنعمنا عليه فى الدنيا فله عندنا فى الآخرة قربة وحسن مرجع .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ أمر للنبى صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم فى الصبر على المكاره . « أيوب » بدل . ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وقرأ عيسى بن عمر «إنى» بكسر الهمزة أى قال . قال الفراء : وأجمعت القراء على أن قرءوا «بِنُصْبٍ» بضم النون والتخفيف . النحاس : وهذا غلط و بعده مناقضة وغلط أيضا ؛ لأنه قال أجمعت القراء على هذا، وحكى بعده أنهم ذكروا عن يزيد بن القعقاع أنه قرأ «بِنَصَبٍ» بفتح النون والصاد فغلط على أبى جعفر، و إنما قرأ أبو جعفر «بِنُصُبٍ» بضم النون والصاد، كذا حكاه أبو عبيد وغيره وهو مروى عن الحسن . فأما « بِنَصَبٍ » فقراءة عاصم الجحدرى و يعقوب الحضرمى . وقد رويت هذه القراءة عن الحسن . وقد حكى «بِنَصْبٍ» بفتح النون وسكون الصاد عن أبى جعفر . وهذا كله عند أكثر النحويين بمعنى النَّصَب ؛ فنُصْب ونَصَب كحُزْن وحَزَن . وقد يجوز أن يكون نُصُب جمع نَصَب كوُثْن ووَثَن . ويجوز أن يكون نُصْب بمعنى نُصُب حذفت منه الضمة، فأما « وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ » فقيل : إنه جمع نصاب . وقال أبو عبيدة وغيره : النُّصْبُ الشر والبلاء والنَّصَب التعب والإعياء . وقد قيل فى معنى «أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ» أى ما يلحقه من وسوسته لا غير . والله أعلم . ذكره

النحاس . وقيل : إن النصب ما أصابه فى بدنه، والعذاب ما أصابه فى ماله؛ وفيه بعد .
وقال المفسرون : إن أيوب كان روميا من البَثَنِيَّة[1] وكنيته أبو عبد الله فى قول الواقدى ؛ اصطفاه الله بالنبوة، وآتاه جملة عظيمة من الثروة فى أنواع الأموال والأولاد . وكان شاكرا لأنعم الله، مواسيا لعباد الله، برا رحيما . ولم يؤمن به إلا ثلاثة نفر . وكان لإبليس موقف من السماء السابعة فى يوم من العام، فوقف به إبليس على عادته؛ فقال الله له أو قيل له عنه: أَقَدَرْتَ من عبدى أيوب على شىء ؟ ! فقال : يارب ! وكيف أقدر منه على شىء، وقد ابتليته بالمال والعافية ، فلو ابتليته بالبلاء والفقر ونزعت منه ما أعطيته لحال عن حاله ، ولخرج عن طاعتك . قال الله: قد سلطتك على أهله وماله . فانحط عدوُّ الله فجمع عفاريت الجن فأعلمهم، وقال قائل منهم : أكون إعصارا فيه نار أهلك ماله فكان؛ فجاء أيوبَ فى صورة قَيِّم ماله فأعلمه بما جرى؛ فقال : الحمد لله هو أعطاه وهو منعه . ثم جاء قصره بأهله وولده، فاحتمل القصر من نواحيه حتى ألقاه على أهله وولده ، ثم جاء إليه وأعلمه فألقى التراب على رأسه ، وصعد إبليس إلى السماء فسبقته توبة أيوب . قال : يا رب سلطنى على بدنه . قال : قد سلطتك على بدنه إلا على لسانه وقلبه وبصره ، فنفخ فى جسده نفخة اشتعل [منها][2] فصار فى جسده ثآليل فحكها بأظفاره حتى دميت، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه . وقال عند ذلك « مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ » . ولم يخلص إلى شىء من حشوة البطن؛ لأنه لا بقاء للنفس إلا بها فهو يأكل ويشرب ، فمكث كذلك ثلاث سنين . فلما غلبه أيوب اعترض لامرأته فى هيئة أعظم من هيئة بنى آدم فى القدر والجمال، وقال لها : أنا إله الأرض ، وأنا الذى صنعت بصاحبك ما صنعت، ولو سجدت لى سجدة واحدة لرددتُ عليه أهله وماله وهم عندى . وعرض لها فى بطن الوادى ذلك كله فى صورته؛ أى أظهره لها ، فأخبرت أيوب فأقسم أن يضربها إن عافاه الله . وذكروا كلاما طويلا فى [سبب بلائه و][3] مراجعته لربه وتبرمه من البلاء الذى

---

(١) صحح المحققون أنه من بنى إسرائيل كما جزم به الألوسى وغيره . والبثنية بالتحريك وكسر النون وياء مشددة قرية بدمشق بينها وبين أذرعات . (٢) الزيادة من قصص الأنبياء للثعلبى . (٣) زيادة يقتضيها السياق .

نزل به، وأن النفر الثلاثة الذين آمنوا به نهوه عن ذلك وآعترضوا عليه ؛ وقيـل : آستعان به مظلوم فلم ينصره فآبتلى بسبب ذلك . وقيل : آستضاف يوما الناس فمنع فقيرا الدخول فآبتلى بذلك . وقيل : كان أيوب يغزو ملكا وكان له غنم فى ولايته ، فداهنه لأجلها بترك غزوه فآبتلى . وقيل : كان الناس يتعـدون آمرأته و يقولون نخشى العدوى وكانوا يستقذرونها ؛ فلهذا قال : « مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ » . وآمرأته ليا بنت يعقوب . وكان أيوب فى زمن يعقوب وكانت أمه آبنة لوط . وقيل: كانت زوجة أيوب رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام . ذكر القولين الطبرى رحمه الله . قال آبن العربى : ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكان فى السماء السابعة يوما من العام فقول باطل؛ لأنه أهبط منها بلعنة وسخط إلى الأرض ، فكيف يرقى إلى محل الرضا، ويجول فى مقامات الأنبياء ، ويخترق السموات العلى، و يعلو إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء، فيقف موقف الخليل؟ ! إن هذا لخطب من الجهالة عظيم . وأما قولهم : إن الله تعالى قال له هل قدرتَ من عبدى أيوب على شىء فباطل قطعا ؛ لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس الملعون ؛ فكيف يكلم من تولى إضلالهم ؟ ! وأما قولهم : إن الله قال قد سلطتك على ماله وولده فذلك ممكن فى القدرة ، ولكنه بعيد فى هذه القصة . وكذلك قولهم : إنه نفخ فى جسده حين سلّطه عليه فهو أبعد ، والبارى سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان فيه كسب حتى تقِرّ له — لعنةُ الله عليه — عينٌ بالتمكن من الأنبياء فى أموالهم وأهليهم وأنفسهم . وأما قولهم : إنه قال لزوجته أنا إله الأرض، ولو تركتِ ذكر الله وسجدتِ أنتِ لى لعافيته، فآعلموا وإنكم لتعلمون أنه لو عرض لأحدكم و به ألمٌ وقال هذا الكلام ما جاز عنده أن يكون إلهـا فى الأرض ، وأنه يُسجَد له ، وأنه يعـافى من البلاء ، فكيف أن تستريب زوجة نبى ؟ ! ولو كانت زوجة سوادىّ أو فدم[1] بربرىّ ما ساغ ذلك عندها. وأما تصويره الأموال والأهل فى وادٍ للمرأة فذلك ما لا يقدر عليه إبليس بحال، ولا هو فى طريق السحر فيقال إنه من جنسه.

---

(١) الفدم من الناس القليل الفهم والفطنة .

ولو تصوّر لعلمت المرأة أنه سحر كما نعلمه نحن وهي فوقنا في المعرفة بذلك ؛ فإنه لم يخل زمان قط من السحر وحديثه وجريه بين الناس وتصويره . قال القاضي : والذي جرأهم على ذلك وتذرّعوا به إلى ذكر هذا قوله تعالى : « إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ » فلما رأوه قد شكا مسّ الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق من التفسير في هذه الأقوال . وليس الأمر كما زعموا والأفعال كلها خيرها وشرها، في إيمانها وكفرها، طاعتها وعصيانها ، خالقها هو الله لا شريك له في خلقه ، ولا في خلق شيء غيرها ، ولكنّ الشر لا ينسب إليه ذكرا ، وإن كان موجودا منه خَلْقا ؛ أدبًا أدبنا به، وتحميدا علّمناه ، وكان من ذكر محمد صلى الله عليه وسلم لربه به قوله من جملته : "والخير في يديك والشر ليس إليك" على هذا المعنى. ومنه قول إبراهيم : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » وقال الفتى للكليم : « وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ » وأما قولهم : إنه آستعان به مظلوم فلم ينصره ، فمن لنا بصحة هـذا القول . ولا يخلو أن يكون قادرا على نصره، فلا يحل لأحد تركه فيلام على أنه عصى وهو منزّه عن ذلك . أو كان عاجزا فلا شيء عليه في ذلك، وكذلك قولهم : إنه منع فقيرا من الدخول ؛ إن كان علم به فهو باطل عليه، وإن لم يعلم به فلا شيء عليه فيه . وأما قولهم : إنه داهن على غنمه الملك الكافر فلا تقل داهن ولكن قل دارى . ودفع الكافر والظالم عن النفس أو المال بالمال جائز؛ نعم وبحسن الكلام . قال آبن العربي القاضي أبو بكر رضي الله عنه : ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين ؛ الأولى قوله تعالى : « وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ » والثانية في « ص » « أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ » . وأما النبي صلى الله عليه وسلم فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله : "بينا أيوب يغتسل إذ خرّ عليه رِجْلٌ من جَرَاد من ذهب" الحديث . وإذ لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أي لسان سمعه ؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات ؛ فأعرض عن سطورها بصرك ، وأصمم عن سماعها أذنيك ، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالا ، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا .

وفى الصحيح واللفظ للبخارى أن ابن عباس قال : يا معشر المسلمين! تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله ، تقرءونه محضا لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب ؛ فقالوا : « هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا » ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسئلتهم ، فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذى أنزل عليكم ، وقد أنكر النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث الموطأ على عمر قراءته التوراة .

قوله تعالى : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ الركض الدفع بالرجل . يقال : ركض الدابة وركض ثوبه برجله . وقال المبرد : الركض التحريك ؛ ولهذا قال الأصمعى : يقال ركضت الدابة ولا يقال ركضت هى ؛ لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ولا فعل لها فى ذلك . وحكى سيبويه : ركضت الدابة فركضت مثل جبرتُ العظم فجبر وحزنته فحزن ؛ وفى الكلام إضمار أى قلنا له « اركض » قاله الكسائى . وهذا لما عافاه الله . ﴿ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ أى فركض فنبعت عين ماء فاغتسل به ، فذهب الداء من ظاهره ، ثم شرب منه فذهب الداء من باطنه . وقال قتادة : هما عينان بأرض الشام فى أرض يقال لها الجابية ، فاغتسل من إحداهما فأذهب الله تعالى ظاهر دائه ، وشرب من الأخرى فأذهب الله تعالى باطن دائه . ونحوه عن الحسن ومقاتل ؛ قال مقاتل : نبعت عين حارة واغتسل فيها فخرج صحيحا ، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذبا . وقيل : أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء فى جسده ، والمغتسل الماء الذى يغتسل به ؛ قاله القتبى . وقيل : إنه الموضع الذى يغتسل فيه ؛ قاله مقاتل . الجوهرى : واغتسلت بالماء ، والغَسُول الماء الذى يغتسل به ، وكذلك المغتسل ، قال الله تعالى : « هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » والمغتسل أيضا الذى يغتسل فيه ، والمَغْسِل والمَغْسَل بكسر السين وفتحها مغسل الموتى والجمع المغاسل . واختلف كم بقى أيوب فى البلاء ؛ فقال ابن عباس : سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات . وقال وهب بن منبه : أصاب أيوب البلاء سبع سنين ، وترك يوسف فى السجن سبع سنين ،

وعذب بختنصر وحول[1] في السباع سبع سنين . ذكره أبو نعيم . وقيل : عشر سنين . وقيل : ثمان عشرة سنة . رواه أنس مرفوعا فيما ذكر الماوردي .

قلت : وذكره ابن المبارك ؛ أخبرنا يونس بن يزيد ، عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوما أيوب ، وما أصابه من البلاء ، وذكر أن البلاء الذي أصابه كان به ثمان عشرة سنة . وذكر الحديث القشيري . وقيل : أربعين سنة .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ تقدم في « الأنبياء »[2] الكلام فيه . ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي نعمة منا . ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي عبرة لذوي العقول .

قوله تعالى : وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ـ كان أيوب حلف في مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة ؛ وفي سبب ذلك أربعة أقوال : أحدها ما حكاه ابن عباس أن إبليس لقيها في صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب ؛ فقال أداويه على أنه إذا برئ قال أنت شفيتني ، لا أريد جزاء سواه . قالت : نعم ! فأشارت على أيوب بذلك فحلف ليضربنها . وقال : ويحك ذلك الشيطان . الثاني ـ ما حكاه سعيد بن المسيب أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز ، فخاف خيانتها فحلف ليضربنها . الثالث ـ ما حكاه يحيى بن سلام وغيره أن الشيطان أغواها ؛ أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقربا إليه وأنه يبرأ ؛ فذكرت ذلك له فحلف ليضربنها إن عوفي مائة . و[الرابع] قيل : باعت ذوائبها برغيفين إذ لم تجد شيئا تحمله إلى أيوب ، وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام ، فلهذا حلف ليضربنها ، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثا فيضرب به ،

(١) حول بمعنى مسخ ؛ راجع قصة دانيال في قصص الأنبياء للثعلبي .

(٢) راجع ج ١١ ص ٣٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

فأخذ شماريخ قدر مائة فضربها ضربة واحدة. وقيل: الضغث قبضة حشيش مختلط الرطب باليابس . وقال آبن عباس : إنه إثكال النخل الجامع بشماريخه .

الثانية — تضمنت هذه الآية جواز ضرب الرجل آمرأته تأديبا . وذلك أن آمرأة أيوب أخطأت فحلف ليضربنها مائة ، فأمره الله تعالى أن يضربها بعثكول من عثاكيل النخل، وهذا لا يجوز في الحدود. إنما أمره الله بذلك لئلا يضرب آمرأته فوق حدّ الأدب . وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب آمرأته فوق حدّ الأدب ؛ ولهذا قال عليه السلام : " وآضربوهنّ ضربا غير مُبَرِّح " على ما تقدّم في « النساء »[1] بيانه .

الثالثة — وآختلف العلماء في هذا الحكم هل هو عام أو خاص بأيوب وحده ؛ فروى عن مجاهد أنه عام للناس . ذكره آبن العربي . وحكى عن القشيري أن ذلك خاص بأيوب . وحكى المهدوي عن عطاء بن أبي رباح أنه ذهب إلى أن ذلك حكم باقٍ ، وأنه إذا ضرب بمائة قضيب ونحوه ضربة واحدة برّ . وروى نحوه الشافعي . وروى نحوه عن النبي صلى الله عليه وسلم في المقعد الذي حملت منه الوليدة ، وأمر أن يضرب بعثكول فيه مائة شمراخ ضربة واحدة . وقال القشيري : وقيل لعطاء هل يعمل بهذا اليوم ؟ فقال: ما أنزل القرآن إلا ليعمل به ويتبع . آبن العربي : وروى عن عطاء أنها لأيوب خاصة . وكذلك روى أبو زيد عن آبن القاسم عن مالك : من حلف ليضربن عبده مائة فجمعها فضربه بها ضربة واحدة لم يبرّ . قال بعض علمائنا : يريد مالك قوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً » أي إن ذلك منسوخ بشريعتنا . قال آبن المنذر : وقد روينا عن عليّ أنه جلد الوليد بن عقبة بسوط له طرفان أربعين جلدة . وأنكر مالك هذا وتلا قول الله عز وجل : « فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ » وهذا مذهب أصحاب الرأي . وقد آحتج الشافعي لقوله بحديث ، وقد تُكُلِّم في إسناده ؛ والله أعلم .

قلت : الحديث الذي آحتج به الشافعي خرجه أبو داود في سننه قال : حدثنا أحمد بن سعيد الهَمْداني ، قال حدثنا بن وهب ، قال أخبرني يونس عن ابن شهاب ، قال أخبرني

(١) راجع جـ ٥ ص ١٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

أبو أمامة بن سهل بن حُنَيْف أنه أخبره بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار، أنه آشتكى رجل منهم حتى أَضْنَى، فعاد جلدةً على عظم، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهش لها فوقع عليها، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك وقال: آستفتوا لى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإنى قد وقعت على جارية دخلت علىّ. فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذى هو به، لو حملناه إليك لتفسخت عظامه، ماهو إلا جلد على عظم؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربةً واحدة. قال الشافعى: إذا حلف ليضربن فلانا مائة جلدة، أو ضربا ولم يقل ضربا شديدا ولم ينو ذلك بقلبه يكفيه مثل هذا الضرب المذكور فى الآية ولا يحنث. قال آبن المنذر: وإذا حلف الرجل ليضربن عبده مائة فضربه ضربا خفيفا فهو بارّ عند الشافعى وأبى ثور وأصحاب الرأى. وقال مالك: ليس الضرب إلا الضرب الذى يؤلم.

الرابعة ــ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ دليل على أن الآستثناء فى اليمين لا يرفع حكمها إذا كان متراخيا. وقد مضى القول فيه فى «المائدة»(١) يقال: حنث فى يمينه يحنث إذا لم يبر بها. وعند الكوفيين الواو مقحمة أى فآضرب لا تحنث.

الخامسة ــ قال ابن العربى قوله تعالى: «فَآضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ» يدل على أحد وجهين: إما أن يكون أنه لم يكن فى شرعهم كفارة، وإنما كان البرّ والحنث. والثانى أن يكون صدر منه نذر لا يمين، وإذا كان النذر معينا فلا كفارة فيه عند مالك وأبى حنيفة. وقال الشافعى: فى كل نذر كفارة.

قلت: قوله إنه لم يكن فى شرعهم كفارة ليس بصحيح؛ فإن أيوب عليه السلام لما بقى فى البلاء ثمان عشرة سنة، كما فى حديث ابن شهاب، قال له صاحباه: لقد أذنبت ذنبا ما أظنّ أحدا بلغه. فقال أيوب صلى الله عليه وسلم: ما أدرى ما تقولان، غير أن ربى

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتزاعمان فكل يحلف بالله، أو على النفر يتزاعمون فأنقلب إلى أهلى ، فأكفر عن أيمانهم إرادة ألا يأثم أحد يذكره ولا يذكره إلا بحق فنادى ربه « أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » وذكر الحديث . فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب، وأن من كفر عن غيره بغير إذنه فقد قام بالواجب عنه وسقطت عنه الكفارة .

السادسة — استدل بعض جهال المتزهدة ، وطغام المتصوفة بقوله تعالى لأيوب : « ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ » على جواز الرقص . قال أبو الفرج الجوزى : وهذا احتجاج بارد؛ لأنه لو كان أمر بضرب الرجل فرحا كان لهم فيه شبهة ، و إنما أمر بضرب الرجل لينبع الماء . قال ابن عقيل : أين الدلالة فى مبتلى أمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازا من الرقص ، ولئن جاز أن يكون تحريك رجل قد أنحلها تحكم الهوام دلالة على جواز الرقص فى الإسلام، جاز أن يجعل قوله سبحانه لموسى : «ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ» دلالة على ضرب المحاد(٢) بالقضبان . نعوذ بالله من التلاعب بالشرع . وقد احتج بعض قاصريهم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى : " أنت منى وأنا منك " فجل . وقال لجعفر : " أشبهت خلقى وخلقى " فحجل . وقال لزيد : " أنت أخونا ومولانا " فحجل . ومنهم من احتج بأن الحبشة زفنت والنبى صلى الله عليه وسلم ينظر إليهم . والجواب — أما الحجل فهو نوع من المشى يفعل عند الفرح فأين هو والرقص، وكذلك زفن الحبشة نوع من المشى يفعل عند اللقاء للحرب .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ أى على البلاء . ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أى تواب رجاع مطيع . وسئل سفيان عن عبدين ابتلى أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر؛ فقال : كلاهما سواء؛ لأن الله تعالى أثنى على عبدين، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناء واحدا ؛ فقال فى وصف أيوب : « نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » وقال فى وصف سليمان : « نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » .

---

(١) فى نسخة إلا بحق .

(٢) كذا فى الأصل وفى بعض النسخ «بالمخاد» بالخاء المعجمة .

قلت : وقد ردّ هذا الكلام صاحب « القوت » وآستدل بقصة أيوب فى تفضيل الفقير على الغنىّ ، وذكر كلاما كثيرا شيد به كلامه، وقد ذكرناه فى غير هـذا الموضع من كتاب « منهج العباد ومحجة السالكين والزهاد » . وخفى عليـه أن أيوب عليـه السلام كان أحد الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده، وإنما آبتلى بذهاب ماله وولده وعظيم الداء فى جسده. وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به آمتحِنوا وفُتِنوا . فأيوب عليـه السلام دخل فى البلاء على صفة ، فخرج منه كما دخل فيه، وما تغير منه حال ولا مُقال ، فقـد آجتمع[1] مع أيوب فى المعنى المقصود ، وهو عدم التغير الذى يفضل فيه بعض الناس بعضا . وبهـذا الآعتبار يكون الغنى الشاكر والفقير الصابر سواء . وهو كما قال سفيان . والله أعلم .

وفى حديث آبن شهاب عن النبى صلى الله عليه وسلم : " إن أيوب خرج لمـا كان يخرج إليه من حاجته فأوحى الله إليه « آرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » فآغتسل فأعاد الله لحمه وشعره وبشره على أحسن ما كان ثم شرب فأذهب الله كل ما كان فى جوفه من ألم أو ضعف وأنزل الله عليـه ثوبين من السماء أبيضين فآئتزر بأحدهما وآرتدى بالآخر ثم أقبل يمشى إلى منزله وراث[2] على آمرأته فأقبلت حتى لقيته وهى لا تعرفه فسلّمت عليه وقالت أى يرحمك الله هـل رأيت هـذا الرجل المبتلَى قال من هو قالت نبيّ الله أيوب أما والله ما رأيت أحدا قط أشبه به منك إذ كان صحيحا قال فإنى أيوب وأخذ ضِغْثا فضربهـا به " فـزعم آبن شهاب أن ذلك الضغث كان ثُماما[3]. وردّ الله إليه أهله ومثلهم معهم، فأقبلت سحابة حتى سَجَلت[4] فى أَنْدر[5] قمحه ذهبـا حتى آمتلأ ، وأقبلت سحابة أخرى إلى أَنْدَر شـعيره وقَطَانيه[6] فسَجَلت فيـه وَرِقا حتى آمتـلأ .

(١) الضمير يعود على سليمان عليـه السلام . (٢) راث : أبطأ . (٣) الثمام : نبت ضعيف له خوص أو شـبيه بالخوص . (٤) السجل الانصباب المتواصل . (٥) الأنـدر : الموضع الذى يدرس فيـه القمح وغيره . (٦) القطانى : الحبـوب التى تدخر كالحمص والعـدس واللوبيا وما شاكلها .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ وقرأ ٱبن عباس : «عَبْدَنَا» بإسناد صحيح ؛ رواه ٱبن عُيَينة عن عمرو عن عطاء عنه ، وهى قراءة مجاهد وحميد وٱبن محيصن وٱبن كثير ؛ فعلى هـذه القراءة يكون « إبراهيم » بدلا من « عبدنا » و « إسحق ويعقوب » عطف . والقـراءة بالجمع أبين ، وهى ٱختيار أبى عبيـد وأبى حاتم ، ويكون « إبراهيم » وما بعده على البدل . النحاس : وشرح هذا من العربية أنك إذا قلت : رأيت أصحابنا زيدا وعمرا وخالدا ، فزيد وعمرو وخالد بدل وهم الأصحاب ، وإذا قلت رأيت صاحبنا زيدا وعمرا وخالدا فـزيد وحده بدل وهو صاحبنا ، وزيد وعمرو عطف على صاحبنا وليسا بداخلين فى المصاحبة إلا بدليل غير هـذا ، غير أنه قـد علم أن قوله : « وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ » داخل فى العبودية . وقد ٱستدل بهذه الآية من قال : إن الذبيح إسحق لا إسمعيل ، وهو الصحيح على ما ذكرناه فى كتاب « الإعلام بمولد النبى عليـه السلام » . ﴿ أُولِي الأَيْدِى وَالأَبْصَارِ ﴾ قال النـحاس : أما « الأَبْصَارِ » فمتفق على تأويلها أنهـا البصائر فى الدين والعـلم . وأما « الأَيْدِى » فمختلف فى تأويلها ؛ فأهـل التفسير يقولون : إنهـا القوة فى الدين . وقـوم يقولون : «الأَيْدِى» جمع يد وهى النعمة ؛ أى هم أصحاب النعم ؛ أى الذين أنعم الله عز وجل عليهم . وقيل : هم أصحاب النعم والإحسان ؛ لأنهم قد أحسنوا وقدّموا خيرا . وهذا ٱختيار الطبرى . ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ أى الذين ٱصطفاهم من الأدناس وٱختارهم لرسالته . ومصطفَين جمع مصطفى والأصل مصتفى وقـد مضى فى « البقرة »[1] عنـد قوله : «إِنَّ اللهَ ٱصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ» «والأخيار» جمع خير . وقـرأ الأعمش وعبد الوارث والحسن

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣٣ فى تفسير قوله تعالى : « ولقد ٱصطفيناه فى الدنيا » ففيه الكلام على ٱشتقاق اللفظ وليس فى الآية المذكورة .

وعيسى الثقفي « أُولِي الأَيْدِ » بغير ياء في الوصل والوقف على معنى أولي القوة في طاعة الله . ويجوز أن يكون كمعنى قراءة الجماعة وحذفت الياء تخفيفا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ قراءة العامة « بِخَالِصَةٍ » منونة وهي آختيار أبي عبيد وأبي حاتم . وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر وهشام عن آبن عامر «بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ» بالإضافة فمن نون خالصة فـ « ذِكْرَى الدَّارِ » بدل منها ؛ التقدير: إنا أخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة ويتأهبوا لها ، ويرغبوا فيها ويُرغِّبوا الناس فيها . ويجوز أن يكون « خالصة » مصدرا لخلص و« ذكرى » في موضع رفع بأنها فاعله ، والمعنى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار ؛ أي تذكير الدار الآخرة . ويجوز أن يكون «خالصة» مصدرا لأخلصت فحذفت الزيادة ، فيكون « ذكرى » على هذا في موضع نصب ، التقدير : بأن أخلصوا ذكرى الدار . والدار يجوز أن يراد بها الدنيا ؛ أي ليتذكروا الدنيا ويزهدوا فيها ، ولتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم ، كما قال تعالى : «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» ويجوز أن يراد بها الدار الآخرة وتذكير الخلق بها . ومن أضاف خالصة إلى الدار فهي مصدر بمعنى الإخلاص ، والذكرى مفعول به أضيف إليه المصدر ؛ أي بإخلاصهم ذكرى الدار . ويجوز أن يكون المصدر مضافا إلى الفاعل والخالصة مصدر بمعنى الخلوص ؛ أي بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، وهي الدار الآخرة أو الدنيا على ما تقدم . وقال آبن زيد : معنى أخلصناهم أي بذكر الآخرة ؛ أي يذكرون الآخرة ويرغبون فيها ويزهدون في الدنيا . وقال مجاهد : المعنى ؛ إنا أخلصناهم بأن ذكرنا الجنة لهم .

قوله تعالى : وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ مضى ذكر اليسع فى « الأنعام »[١] وذكر ذى الكفل فى « الأنبياء »[٢] . ﴿ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ أى ممن آختير للنبوّة . ﴿ هٰذَا ذِكْرٌ ﴾ بمعنى هذا ذكر جميل فى الدنيا وشرف يذكرون به فى الدنيا أبدا . ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أى لهم مع هذا الذكر الجميل فى الدنيا حسن المرجع فى القيامة . ثم بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ والعَدْن فى اللغة الإقامة ؛ يقال : عَدَن بالمكان إذا أقام . وقال عبد الله ابن عمر : إن فى الجنة قصرا يقال له عَدْن[٣] حوله البروج والمروج فيه خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حِبَرة[٤] لا يدخله إلا نبيّ أو صدّيق أو شهيد . ﴿ مُفَتَّحَةً ﴾ حال ﴿ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ رفعت الأبواب لأنه آسم ما لم يسم فاعله . قال الزجاج : أى مفتحة لهم الأبواب منها . وقال الفرّاء : مفتحة لهم أبوابها . وأجاز الفرّاء : « مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابَ » بالنصب . قال الفرّاء : أى مفتحة الأبواب ثم جئت بالتنوين فنصبت . وأنشد هو وسيبويه :

ونأخذُ بعدهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ * أَجَبَّ الظَّهْرَ ليس له سَنَامُ[٥]

وإنما قال « مُفَتَّحَةً » ولم يقل مفتوحة ؛ لأنها تفتح لهم بالأمر لا بالمس . قال الحسن : تُكَلَّم : آنفتحى فتنفتح آنغلقى فتنغلق . وقيل : تفتح لهم الملائكة الأبواب .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ هو حال قدمت على العامل فيها وهو قوله : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾ أى يدعون فى الجنات متكئين فيها . ﴿ بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أى بألوان الفواكه ﴿ وَشَرَابٍ ﴾ أى وشراب كثير فحذف لدلالة الكلام عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أى على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم وقد مضى فى « الصافات »[٦] . ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أى على سن واحد ، وميلاد آمرأة واحدة ، وقد

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٢٧ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) تقدّمت هذه الرواية فى جـ ٩ ص ٣١١ بهذا اللفظ وهى توافق ما فى تفسير الطبرى وغيره عن عبد الله بن عمرو ؛ ولفظ الأصل هنا « جنة عدن قصر فى الجنة » الخ . (٤) الحبرة (بكسر الحاء المهملة وفتحها) ضرب من البرود اليمنية مخطط . (٥) البيت للنابغة والشاهد فيه نصب الظهر بأجب على نية التنوين ؛ وقد وصف مرض النعمان بن المنذر وأنه إن هلك صار الناس فى أسوإ حال وأضيق عيش ، وتمسكوا منه بمثل ذنب بعير أجب وهو الذى لا سنام له من الهزال . (٦) راجع ص ٨٠ من هذا الجزء .

تساوين فى الحسن والشباب، بنات ثلاث وثلاثين سنة . قال ابن عباس : يريد الآدميات. و « أَتْرَابٌ » جمع ترب وهو نعت لقاصرات ؛ لأن « قَاصِرَاتُ » نكرة وإن كان مضافا إلى المعرفة . والدليل على ذلك أن الألف واللام يدخلانه كما قال :

مِن القاصِراتِ الطَّرْفِ لَوْدَبَّ مُحْوِلٌ * من الذَّرِّ فوقَ الإِتْبِ مِنها لأَثَّرَا[1]

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أى هذا الجزاء الذى وعدتم به . وقراءة العامة بالتاء أى ما توعدون أيها المؤمنون . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب بالياء على الخبر، وهى قراءة السُّلَمى واختيار أبى عبيد وأبى حاتم؛ لقوله تعالى : « وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ » فهو خبر . « لِيَوْمِ الْحِسَابِ » أى فى يوم الحساب، قال الأعشى :

المُهِينِينَ مَا لَهُمْ لِزمانِ السْ * ـسُوءِ حتى إذا أفاقوا

أى فى زمان السوء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع ؛ كما قال : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » وقال : « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » .

قوله تعالى : هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ لما ذكر ما للمتقين ذكر ما للطاغين . قال الزجاج : « هَٰذَا » خبر ابتداء محذوف أى الأمر هذا فيوقف على « هذا » . قال ابن الأنبارى : « هٰذا » وقف حسن ثم تبتدئ « وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ » وهم الذين كذبوا الرسل .

(1) قائله امرؤ القيس . المحول : الصغير . والإتب : درع المرأة ، وبردة تشق فتلبس من غير كمين ولا جيب .

﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أى منقلب يصيرون إليه. ثم بين ذلك بقوله : ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أى بئس ما مهدوا لأنفسهم ، أو بئس الفراش لهم . ومنه مهد الصبي . وقيل : فيه حذف أى بئس موضع المهاد . وقيل : أى هذا الذى وصفت لهؤلاء المتقين، ثم قال : وإن للطاغين لشر مرجع فيوقف على « هذا » أيضا .

قوله تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ « هذا » فى موضع رفع بالابتداء وخبره « حَمِيمٌ » على التقديم والتأخير؛ أى هذا حميم وغساق فليذوقوه. ولا يوقف على « فَلْيَذُوقُوهُ » ويجوز أن يكون « هذا » فى موضع رفع بالابتداء و « فَلْيَذُوقُوهُ » فى موضع الخبر، ودخلت الفاء للتنبيه الذى فى « هذا » فيوقف على « فَلْيَذُوقُوهُ » ويرتفع « حميم » على تقدير هذا حميم . قال النحاس : ويجوز أن يكون المعنى الأمر هذا، وحميم وغسّاق إذا لم تجعلهما خبرا فرفعهما على معنى هو حميم وغسّاق . والفراء يرفعهما بمعنى منه حميم ومنه غسّاق وأنشد :

حَتَّى إذا ما أَضَاءَ الصُّبْحُ فى غَلَسٍ (١) * وغُودِرَ البَقْلُ مَلْوِىٌّ ومَحْصُودُ

وقال آخر (٢) :

لهــا مَتَاعٌ وأَعْــوانٌ غَــدَوْنَ بِــهِ * قِتْبٌ وغَــرْبٌ إذا ما أُفْرِغَ انْسَحَقَا

ويجوز أن يكون « هــذا » فى موضع نصب بإضمار فعل يفسره « فَلْيَذُوقُوهُ » كما تقول زيدا اضربه . والنصب فى هــذا أولى فيوقف على « فَلْيَذُوقُوهُ » وتبتــدئ « حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » على تقــدير الأمر حميم وغسّاق . وقراءة أهل المدينــة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين فى «وغَسَاق» . وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائى «وغساق» بالتشديد، وهما لغتان بمعنى واحد فى قول الأخفش . وقيل : معناهما مختلف؛ فمن خفّف فهو اسم مثل عذاب وجواب وصواب، ومن شدّد قال : هو اسم فاعل نقل إلى فعّال للمبالغة، نحو ضرّاب وقتّال وهو فعّال من غَسَق يغسِق فهو غسّاق وغاسِق . قال ابن عباس : هو الزمهرير يخوّفهم

---

(١) رواه السمين : أضاء البرق . (٢) قائله زهير بن أبى سلمى يصف الناقة ، التى يستقى عليها . وقتب وغرب بيان للمتاع . والقتب أداة السانية ، الغرب الدلو العظيمة . وانسحقا أى مضى وبعد سيلانه .

ببرده . وقال مجاهد ومقاتل : هو الثلج البارد الذى قد انتهى برده . وقال غيرهما : إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحره . وقال عبد الله بن عمرو : هو قيح غليظ لو وقع منه شيء بالمشرق لأنتن من فى المغرب، ولو وقع منه شيء فى المغرب لأنتن من فى المشرق . وقال قتادة : هو ما يسيل من فروج الزناة، ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح والنتن . وقال محمد بن كعب : هو عصارة أهل النار . وهذا القول أشبه باللغة ؛ يقال : غسق الجرح يغسق غسقا إذا خرج منه ماء أصفر ؛ قال الشاعر :

إذا ما تذكرتُ الحياةَ وطيبَها * إلىّ جرى دمعٌ من الليلِ[1] غاسقُ

أى بارد . ويقال : ليل غاسق ؛ لأنه أبرد من النهار . وقال السدى : الغساق الذى يسيل من أعينهم ودموعهم يسقونه مع الحميم . وقال ابن زيد : الحميم دموع أعينهم، يجمع فى حياض النار فيسقونه، والصديد الذى يخرج من جلودهم . والاختيار على هذا « وغساق » حتى يكون مثل سيّال . وقال كعب : الغسّاق عين فى جهنم يسيل إليها سم كل ذى حُمَة من عقرب وحية . وقيل : هو مأخوذ من الظلمة والسواد . والغسق أول ظلمة الليل، وقد غسق الليلُ يغسق إذا أظلم . وفى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "لو أن دلوا من غساق يُهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا" .

قلت : وهذا أشبه على الاشتقاق الأول كما بينا ، إلا أنه يحتمل أن يكون الغساق مع سيلانه أسود مظلما فيصح الاشتقاقان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ قرأ أبو عمرو « وَأُخَرُ » جمع أخرى مثل الكبرى والكُبَر . الباقون « وَآخَرُ » مفرد مذكر . وأنكر أبو عمرو « وَآخَرُ » لقوله تعالى : « أَزْوَاجٌ » أى لا يخبر بواحد عن جماعة . وأنكر عاصم الجحدرى « وَأُخَرُ » قال : ولو كانت « وَأُخَرُ » لكان من شكلها . وكلا الردين لا يلزم والقراءتان صحيحتان . « وَآخَرُ » أى وعذاب آخر سوى الحميم والغساق . « مِنْ شَكْلِهِ » قال قتادة : من نحوه . قال ابن مسعود : هو

(١) لعله من العين .

الزمهرير . وآرتفع « وآخر » بالابتداء و « أَزْوَاجٌ » مبتدأ ثانٍ و « مِنْ شَكْلِهِ » خبره والجملة خبر « آخر » . ويجوز أن يكون « وآخر » مبتدأ والخبر مضمر دل عليه « هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » لأن فيـه دليلا على أنه لهم ، فكأنه قال : ولهم آخر ويكون « مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » صفة لآخر فالمبتدأ متخصص بالصفة و « أَزْوَاجٌ » مرفوع بالظرف . ومن قرأ « وَأُخَرُ » أراد وأنواع من العذاب أُخَرُ ، ومن جمع وهو يريد الزمهرير فعلى أنه جعل الزمهرير أجناسا فجمع لآختلاف الأجناس . أو على أنه جعل لكل جزء منه زمهريرا ثم جمع كما قالوا: شابت مفارقه . أو على أنه جمع لمـا في الكلام من الدلالة على جواز الجمع ؛ لأنه جعل الزمهرير الذى هو نهاية البرد بإزاء الجمع فى قوله : « هَـذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » والضمير فى « شَكْلِهِ » يجوز أن يعود على الحميم أو الغساق . أو على معنى « وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ » ما ذكرنا ، ورفع « أُخَرُ » على قراءة الجمع بالابتـداء و « مِنْ شَكْلِهِ » صفة له وفيه ذكر يعود على المبتدإ و « أَزْوَاجٌ » خبر المبتدإ . ولا يجـوز أن يحمل على تقدير ولهم أخر و « من شكله » صـفة لأخر و « أَزْوَاجٌ » مرتفعة بالظرف كما جاز فى الإفراد ؛ لأن الصفة لا ضمير فيها من حيث آرتفع « أَزْوَاجٌ » بالظرف ولا ضمير فى الظرف ، والهاء فى « شكله » لا تعـود على « أُخَرُ » لأنه جمع والضمير مفرد؛ قاله أبو على . و « أَزْوَاجٌ » أى أصناف وألوان من العذاب . وقال يعقوب : الشَّكل بالفتح المثل وبالكسر الدل[(١)] .

قوله تعـالى : ﴿ هَـذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ﴾ قال آبن عبـاس : هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع ، قالت الخزنة للقادة « هَذَا فَوْجٌ » يعنى الأتباع والفوج الجماعة « مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ » أى داخل النار معكم ؛ فقالت السادة : ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ أى لا آتسعت منازلهم فى النار . والرحب السعة ، ومنه رحبة المسجد وغيره . وهو فى مذهب الدعاء فلذلك نصب؛ قال النابغة :

لا مَرْحَبـا بِغَـدٍ ولا أَهْلًا بِـهِ * إنْ كَانَ تَفْرِيقُ الأَحِبَّةِ فى غَد

(١) يقال آمرأة ذات شكل (بالكسر) أى ذات دلال ، وهو حسن الحديث وحسن المزح والهيئة .

قال أبو عبيدة العرب تقول : لا مرحبا بك ؛ أى لا رحبت عليك الأرض ولا اتسعت .
﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ قيل : هو من قول القادة ، أى إنهم صالوا النار كما صليناها . وقيل : هو من قول الملائكة متصل بقولهم : «هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ» و «قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ» هو من قول الأتباع . وحكى النقاش : إن الفوج الأول قادة المشركين ومطعموهم يوم بدر، والفوج الثانى أتباعهم ببدر . والظاهر من الآية أنها عامة فى كل تابع ومتبوع .
﴿أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أى دعوتمونا إلى العصيان ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ لنا ولكم ﴿قَالُوا﴾ يعنى الأتباع ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ قال الفراء : من سوّغ لنا هذا وسنّه . وقال غيره : من قدم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى المعاصى ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى النَّارِ﴾ وعذابا بدعائه إيانا فصار ذلك ضعفا . وقال ابن مسعود : معنى عذابا ضعفا فى النار الحيات والأفاعى . ونظير هذه الآية قوله تعالى : "رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ" .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا﴾ يعنى أكابر المشركين ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ قال ابن عباس : يريدون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول أبو جهل : أين بلال أين صهيب أين عمار أولئك فى الفردوس ! واعجبا لأبى جهل ! مسكين؛ أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمت أمه، وأسلم أخوه، وكفر هو؛ قال :

ونورا أضاء الأرض شرقا ومغربا * وموضع رجلى منه أسود مظلم

﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قال مجاهد : أتخذناهم سخريا فى الدنيا فأخطأنا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ فلم نعلم مكانهم . قال الحسن : كلّ ذلك قد فعلوا؛ اتخذوهم سخريّا، وزاغت عنهم أبصارهم فى الدنيا محقرة لهم . وقيل : معنى « أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ » أى أهم معنا فى النار فلا

نراهم. وكان ٱبن كثير والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائى يقرءون «مِنَ ٱلْأَشْرَارِ ٱتَّخَذْنَاهُمْ» بحذف الألف فى الوصل. وكان أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وٱبن عامر يقرءون «أَتَّخَذْنَاهُمْ» بقطع الألف على الاستفهام وسقطت ألف الوصل؛ لأنه قد ٱستغنى عنها؛ فمن قرأ بحذف الألف لم يقف على «الْأَشْرَارِ» لأن «ٱتَّخَذْنَاهُمْ» حال. وقال النحاس والسجستانى : هو نعت لرجال. قال ٱبن الأنبارى : وهذا خطأ؛ لأن النعت لا يكون ماضيا ولا مستقبلا. ومن قرأ «أَتَّخَذْنَاهُمْ» بقطع الألف وقف على «الْأَشْرَارِ» قال الفراء : والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب. «أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ» إذا قرأت بالاستفهام كانت أم للتسوية، وإذا قرأت بغير الاستفهام فهى بمعنى بل. وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة والمفضل وهبيرة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائى «سُخْرِيًّا» بضم السين. الباقون بالكسر. قال أبو عبيدة : من كسر جعله من الهزء ومن ضم جعله من التسخير. وقد تقدّم. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ «لَحَقٌّ» خبر إنّ و «تَخَاصُمُ» خبر مبتدإ محذوف بمعنى هو تخاصم ويجوز أن يكون بدلا من حق. ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر. ويجوز أن يكون بدلا من ذلك على الموضع. أى إن تخاصم أهل النار فى النار لحقّ. يعنى قولهم : «لَا مَرْحَبًا بِكُمْ» الآية وشبهه من قول أهل النار.

قوله تعالى : قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾ أى مخوف عقاب الله لمن عصاه وقد تقدّم. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أى معبود ﴿إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الذى لا شريك له ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ

«الأرض وما بينهما العزيز الغفار» بالرفع على النعت وإن نصبت الأول نصبته . ويجوز رفع الأول ونصب ما بعده على المدح . «والعزيز» معناه المنيع الذى لا مثل له . «الغفار» الستار لذنوب خلقه .

قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أى وقل لهم يا محمد «هو نبأ عظيم» أى ما أنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبر عظيم القدر فلا ينبغى أن يُستخفّ به . قال معناه قتادة . نظيره قوله تعالى : «عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ» . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : يعنى القرآن الذى أنبأكم به خبر جليل . وقيل : عظيم المنفعة ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الملأ الأعلى هم الملائكة فى قول ابن عباس والسدى اختصموا فى أمر آدم حين خلق فـ «قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» وقال إبليس «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» وفى هذا بيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر عن قصة آدم وغيره ، وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهى ؛ فقد قامت المعجزة على صدقه ، فما بالهم أعرضوا عن تدبر القرآن ليعرفوا صدقه ؛ ولهذا وصل قوله بقوله : «قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ» . وقول ثان رواه أبو الأشهب عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سألنى ربى فقال يا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى قلت فى الكفارات والدرجات قال وما الكفارات قلت المشى على الأقدام إلى الجماعات وإسباغ الوضوء فى السَّبَرات[(1)] والتعقيب فى المساجد بانتظار الصلاة بعد الصلاة قال وما الدرجات قلت إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام" خرجه الترمذى بمعناه عن ابن عباس ، وقال فيه حديث غريب . وعن معاذ بن جبل أيضا وقال حديث حسن صحيح . وقد كتبناه بكماله فى كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى[(2)] ، وأوضحنا إشكاله والحمد لله . وقد مضى فى «يس» القول فى المشى إلى المساجد ، وأن الخطا تكفر السيئات ، وترفع الدرجات . وقيل : الملأ الأعلى الملائكة والضمير فى «يختصمون» لفرقتين يعنى قول من قال منهم الملائكة بنات الله ،

(1) السبرات جمع سبرة بسكون الباء وهى شدة البرد . (2) راجع ص ١٢ وما بعدها من هذا الجزء .

[ومن قال آلهة تعبد(١)] . وقيل : الملأ الأعلى هٰهنا قريش؛ يعني آختصامهم فيما بينهم سرا ، فأطلع الله نبيه على ذلك . ﴿ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي إن يوحى إليّ إلا الإنذار . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع « إِلَّا إِنَّمَا » بكسر الهمزة ؛ لأن الوحي قول ، كأنه قال : يقال لي إنما أنت نذير مبين ، ومن فتحها جعلها في موضع رفع ؛ لأنها آسم ما لم يسمّ فاعله . قال الفراء : كأنك قلت ما يوحى إليّ إلا الإنذار ؛ النحاس : ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى إلا لأنما . والله أعلم .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ « إذ » من صلة « يَخْتَصِمُونَ » المعنى؛ ما كان لي من علم بالملإ الأعلى حين يختصمون حين ﴿ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ . وقيل : « إذ قال » بدل من « إِذْ يَخْتَصِمُونَ » و « يَخْتَصِمُونَ » يتعلق بمحذوف ؛ لأن المعنى ما كان لي من علم بكلام الملإ الأعلى وقت آختصامهم . ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ « إذا » تردّ الماضي إلى المستقبل ؛ لأنها تشبه حروف الشرط وجوابها كجوابه ؛ أي خلقته . ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ أي من الروح الذي أملكه ولا يملكه غيري . فهذا معنى الإضافة ، وقد مضى هذا المعنى مجوّدا في « النساء » في قوله في عيسى « وَرُوحٌ مِنْهُ »(٢) . ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ نصب على الحال . وهذا سجود تحية لا سجود عبادة . وقد مضى في « البقرة »(٣) . ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ أي آمتثلوا الأمر وسجدوا له خضوعا له وتعظيما لله بتعظيمه ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ أنف من السجود له جهلا بأن السجود له طاعة لله، والأنفة من طاعة الله آستكبارا كفر، ولذلك كان من الكافرين بآستكباره عن أمر الله تعالى . وقد مضى الكلام في هذا في « البقرة »(٤) مستوفى .

(١) زيادة يقتضيها المقام وذكرها أبو حيان في تفسيره . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٩٣ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ ﴾ أى صرفك وصدك ﴿ أَنْ تَسْجُدَ ﴾ أى عن أن تسجد ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أضاف خلقه إلى نفسه تكريما له ، وإن كان خالق كل شيء. وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد، فخاطب الناس بما يعرفونه فى تعاملهم ، فإن الرئيس من المخلوقين لايباشر شيئا بيده إلا على سبيل الإعظام والتكرم، فذكر اليد هنا بمعنى هذا . قال مجاهد : اليد هاهنا بمعنى التأكيد والصلة ، مجازه لما خلقت أنا كقوله : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ» أى يبقى ربك . وقيل : التشبيه فى اليد فى خلق الله تعالى دليل على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة والقدرة ؛ وإنما هما صفتان من صفات ذاته تعالى . وقيل : أراد باليد القدرة ؛ يقال مالى بهذا الأمر يد . ومالى بالحمل الثقيل يدان . ويدل عليه أن الخلق لا يقع إلا بالقدرة بالإجماع . وقال الشاعر :

تحمّلتُ من [عفراء](١) ماليس لى به * ولا للجبال الراسيات يدان

وقيل « لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ » لما خلقت بغير واسطة . ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ أى عن السجود ﴿ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ أى المتكبرين على ربك . وقرأ محمد بن صالح عن شبل عن ابن كثير وأهل مكة « بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ» موصولة الألف على الخبر وتكون أم منقطعة بمعنى بل مثل « أَمْ يَقُولُونَ

(١) ـ فى الأصول ذلفاء ، وهو تحريف . والبيت لعروة بن حزام .

آفتراه » وشبهه . ومن آستفهم فأم معادلة لهمزة الاستفهام وهو تقرير وتوبيخ . أى أستكبرت بنفسك حين أبيت عن السجود لآدم، أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت لهذا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ قال الفراء : من العرب من يقول أنا أخير منه وأشر منه وهذا هو الأصل إلا أنه حذف لكثرة الاستعمال . ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ فضّل النار على الطين وهذا جهل منه ؛ لأن الجواهر متجانسة فقاس فأخطأ القياس . وقد مضى فى « الأعراف »(١) بيانه . ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ يعنى من الجنة ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أى مرجوم بالكواكب والشهب ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ أى طردى و إبعادى من رحمتى ﴿ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ تعريف بإصراره على الكفر لأن اللعن منقطع حينئذ، ثم بدخوله النار يظهر تحقيق اللعن . ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أراد الملعون ألا يموت فلم يُجب إلى ذلك، وأُخّر إلى الوقت المعلوم، وهو يوم يموت الخلق فيه، فأخّر إليه تهاونا به . ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لما طرده بسبب آدم حلف بعزة الله أنه يضل بنى آدم بتزيين الشهوات و إدخال الشبه عليهم، فمعنى « لأغوينهم » لأستدعينهم إلى المعاصى وقد علم أنه لا يصل إلا إلى الوسوسة، ولا يفسد إلا من كان لا يصلح لو لم يوسوسه؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى الذين أخلصتهم لعبادتك، وعصمتهم منى . وقد مضى فى « الحجر »(٢) بيانه .

قوله تعالى : قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ هذه قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة والكسائى . وقرأ ابن عباس ومجاهد وعاصم والأعمش وحمزة برفع الأول . وأجاز الفراء فيه

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٧١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٨ طبعة أولى أو ثانية .

الخفض . ولا آختلاف فى الثانى فى أنه منصوب بـ«أقول» ونصب الأوّل على الإغراء أى فآتبعوا الحق وآستمعوا الحق ، والثانى بإيقاع القول عليه . وقيل : هو بمعنى أُحِقُّ الحقّ أى أفعله . قال أبو على : الحق الأوّل منصوب بفعل مضمر أى يحق الله الحق ، أو على القسم وحذف حرف الجر ؛ كما تقول : اللهِ لأفعلنّ ؛ ومجازه : قال فبالحق وهو الله تعالى أقسم بنفسه . « وَالْحَقَّ أَقُولُ » جملة آعترضت بين القسم والمقسم عليه ، وهو توكيد القصة ، وإذا جعل الحقّ منصوبا بإضمار فعل كان « لَأَمْلَأَنَّ » على إرادة القسم . وقد أجاز الفرّاء وأبو عبيد أن يكون الحقّ منصوبا بمعنى حقّا « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ » وذلك عند جماعة من النحويين خطأ ؛ لايجوز زيدا لأضربنّ ؛ لأن ما بعد اللام مقطوع مما قبلها فلا يعمل فيه . والتقدير على قولهما لأملأنّ جهنم حقّا . ومن رفع « الحقّ » رفعه بالآبتداء ؛ أى فأنا الحقّ أو الحقّ منى . رويا جميعا عن مجاهد . ويجوز أن يكون التقدير هذا الحق . وقول ثالث على مذهب سيبويه والفراء أن معنى فالحق لأملأنّ جهنم بمعنى فالحق أن أملأ جهنم . وفى الخفض قولان وهى قراءة آبن السَّمَيْقَع وطلحة بن مُصَرِّف : أحدهما أنه على حذف حرف القسم . هذا قول الفراء قال كما يقول : اللهِ عز وجل لأفعلنّ . وقد أجاز مثل هذا سيبويه وغلطه فيه أبو العباس ولم يُجِز الخفض ؛ لأن حروف الخفض لا تضمر ، والقول الآخر أن تكون الفاء بدلا من واو القسم ؛ كما أنشدوا (1) :

* فمثلِكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِع *

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ ﴾ أى من نفسك وذريتك ﴿ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ ﴾ من بنى آدم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى من جعل على تبليغ الوحى وكنى به عن غير مذكور . وقيل هو راجع إلى قوله : « أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » . ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أى لا أتكلف ولا أتخرص ما لم أومر به . وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال :

---

(1) البيت لامرئ القيس من معلقته وتمامه :

* فألهيتها عن ذى تمائم محول *

من سئل عما لم يعلم فليقل لا أعلم ولا يتكلف ؛ فإن قوله لا أعلم علمٌ ، وقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "للمتكلف ثلاث علامات ينازع من فوقه ويتعاطى مالا ينال ويقول مالا يعلم" . وروى الدارقُطْني من حديث نافع عن ابن عمر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ، فسار ليلا فمروا على رجل جالس عند مَقْراة[1] له ، فقال له عمر : يا صاحب المَقْراة أولغت السباع الليلة فى مَقْراتك ؟ فقال له صلى الله عليه النبي وسلم : "يا صاحب المَقْراة لا تخبره هذا متكلِّف لها ما حملت فى بطونها ولنا ما بقى شراب وطهور" . وفى الموطإ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب : إن عمر بن الخطاب خرج فى ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وردوا حوضا ، فقال عمرو بن العاص : يا صاحب الحوض ! هل ترد حوضك السباع ؟ فقال عمر : يا صاحب الحوض لا تخبرنا ، فإنا نرد على السباع وترد علينا . وقد مضى القول فى المياه فى سورة « الفرقان »[2] . ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ يعنى القرآن ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ من الجن والإنس . ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ أى نبأ الذكر وهو القرآن أنه حق «بَعْدَ حِينٍ» قال قتادة : بعد الموت . وقاله الزجاج . وقال ابن عباس وعكرمة وابن زيد : يعنى يوم القيامة . وقال الفراء : بعد الموت وقبله . أى لتظهر لكم حقيقة ما أقول « بَعْدَ حِينٍ » أى فى المستأنف أى إذا أخذتكم سيوف المسلمين . قال السدى : وذلك يوم بدر . وكان الحسن يقول : يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين . وسئل عكرمة عمن حلف ليصنعن كذا إلى حين . قال : إن من الحين مالا تدركه كقوله تعالى : « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » ومنه ما تدركه ؛ كقوله تعالى : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا » من صرام النخل إلى طلوعه ستة أشهر . وقد مضى القول فى هذا فى « البقرة »[3] و « إبراهيم »[4] والحمد لله .

---

(١) المقراة الحوض الذى يجتمع فيه الماء . النهاية لابن الأثير .

(٢) راجع جـ ١٣ ص ٤٥ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ١ ص ٣٢١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

سورة الزمر

ويقال سورة الغرف . قال وهب بن منبه : من أحب أن يعرف قضاء الله عز وجل في خلقه فليقرأ سورة الغرف . وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد . وقال ابن عباس : إلا آيتين نزلتا بالمدينة إحداهما « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » والأخرى « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » الآية . وقال آخرون : إلا سبع آيات من قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » إلى آخر سبع آيات نزلت في وحشي وأصحابه على ما يأتي . روى الترمذي عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل . وهي خمس وسبعون آية . وقيل : اثنتان وسبعون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ . ويجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هذا تنزيل ؛ قاله الفراء . وأجاز الكسائي والفراء أيضا « تَنْزِيلَ » بالنصب على أنه مفعول به . قال الكسائي : أي اتبعوا واقرءوا « تَنْزِيلَ الْكِتَابِ » وقال الفراء : هو على الإغراء مثل قوله « كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ » أي الزموا . والكتاب القرآن سمي بذلك لأنه مكتوب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أى هذا تنزيل الكتاب من الله وقد أنزلناه بالحق ؛ أى بالصدق وليس بباطل وهزل . ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — « مُخْلِصًا » نصب على الحال أى موحدا لا تشرك به شيئا ﴿ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى الطاعة . وقيل : العبادة وهو مفعول به . ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ أى الذى لا يشوبه شيء . وفى حديث الحسن عن أبى هريرة أن رجلا قال : يا رسول الله إنى أتصدق بالشيء وأصنع الشيء أريد به وجه الله وثناء الناس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفس محمد بيده لا يقبل الله شيئا شورك فيه " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »(١) و « النساء »(٢) و « الكهف »(٣) مستوفى .

الثانية — قال ابن العربى : هذه الآية دليل على وجوب النية فى كل عمل ، وأعظمه الوضوء الذى هو شطر الإيمان ، خلافا لأبى حنيفة والوليد بن مسلم عن مالك اللذين يقولان إن الوضوء يكفى من غير نية ، وما كان ليكون من الإيمان شطرا ولا ليخرج الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى الأصنام والخبر محذوف . أى قالوا ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم من ربكم وخالقكم ؟ ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا الله ، فيقال لهم ما معنى عبادتكم الأصنام ؟ قالوا ليقربونا إلى الله زلفى ، ويشفعوا لنا عنده . قال الكلبى : جواب هذا الكلام فى الأحقاف «فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً» والزلفى القربة ؛ أى ليقربونا إليه تقريبا ، فوضع « زُلْفَى » فى موضع المصدر . وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قالوا مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

---

(١) راجع ج ٣ ص ٣٠٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٥ ص ٤٢٥ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع ج ١١ ص ٦٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

زُلْفَى » وفي حرف أُبيّ « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُكُمْ إِلَّا لِتُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » ذكره النحاس . قال : والحكاية في هذا بينة . ﴿ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازي كلا بما يستحق . ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أي من سبق له القضاء بالكفر لم يهتد ؛ أي للدين الذي ارتضاه وهو دين الإسلام ؛ كما قال الله تعالى : « وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » وفي هذا رد على القدرية وغيرهم على ما تقدم (١) .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي لو أراد أن يسمى أحدا من خلقه بهذا ما جعله عز وجل إليهم . ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أي تنزيها له عن الولد ﴿ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي هو القادر على الكمال المستغنى عن الصاحبة والولد، ومن كان هكذا فحقه أن يفرد بالعبادة لا أنه يشرك به . ونبه بهذا على أن له أن يتعبد العباد بما شاء وقد فعل . قوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ قال الضحاك : أي يلقى هذا على هذا وهذا على هذا . وهذا على معنى التكوير في اللغة وهو طرح الشيء بعضه على بعض ؛ يقال كور المتاع أي ألقى بعضه على بعض ،

(١) تقدم في غير موضع فراجع جـ ١ ص ١٤٩ طبعة ثانية أو ثالثة وجـ ٩ ص ٣٤٠ طبعة أولى أو ثانية .

ومنه كور العمامة . وقد روى عن ابن عباس هذا فى معنى الآية ، قال : ما نقص من الليل دخل فى النهار وما نقص من النهار دخل فى الليل . وهو معنى قوله تعالى : « يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ » . وقيل : تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه ، ويغشى النهار على الليل فيذهب ظلمته ، وهذا قول قتادة . وهومعنى قوله تعالى : « يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا » . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى بالطلوع والغروب لمنافع العباد . ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى فى فلكه إلى أن تنصرم الدنيا وهو يوم القيامة [حين](1) تنفطر السماء وتنتثر الكواكب . وقيل : الأجل المسمى هو الوقت الذى ينتهى فيه سير الشمس والقمر إلى المنازل المرتبة لغروبها وطلوعها . قال الكلبى : يسيران إلى أقصى منازلهما، ثم يرجعان إلى أدنى منازلهما لايجاوزانه . وقد تقدم بيان هذا فى سورة « يس »(2) . ﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ « ألا » تنبيه أى تنبهوا فإنى أنا « الْعَزِيزُ » الغالب « الْغَفَّارُ » الساتر لذنوب خلقه برحمته .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يعنى آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ يعنى ليحصل التناسل وقد مضى هذا فى « الأعراف »(3) وغيرها . ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أخبر عن الأزواج بالنزول، لأنها تكونت بالنبات والنبات بالماء المنزل . وهذا يسمى التدريج؛ ومثله قوله تعالى : «قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا» الآية . وقيل: أنزل أنشأ وجعل . وقال سعيد بن جبير : خلق . وقيل : إن الله تعالى خلق هذه الأنعام فى الجنة ثم أنزلها إلى الأرض؛ كما قيل فى قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ » فإن آدم لما هبط إلى الأرض أنزل معه الحديد . وقيل : « أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ » أى أعطاكم . وقيل : جعل الخلق إنزالا ؛ لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء . فالمعنى خلق لكم كذا بأمره النازل . قال قتادة : من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضأن اثنين ومن المعز اثنين كل واحد

(1) فى نسخ الأصل : حتى . (2) راجع ص ٢٩ وما بعدها من هذا الجزء طبعة أولى أو ثانية .
(3) راجع جـ ٧ ص ٣٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

زوج . وقد تقدم هذا.(١) ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ قال قتادة والسدى: نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ثم لحما . ابن زيد : « خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ » خلقا فى بطون أمهاتكم من بعد خلقكم فى ظهر آدم . وقيل : فى ظهر الأب ثم خلقا فى بطن الأم ثم خلقا بعد الوضع . ذكره الماوردى . ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة. قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك . وقال ابن جبير : ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة الليل . والقول الأول أصح . وقيل : ظلمة صلب الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرحم . وهذا مذهب أبى عبيدة . أى لا تمنعه الظلمة كما تمنع المخلوقين . ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ أى الذى خلق هذه الأشياء ﴿رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ . ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أى كيف تنقلبون وتنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره . وقرأ حمزة « إِمِّهَاتِكُمْ » بكسر الهمزة والميم . والكسائى بكسر الهمزة وفتح الميم . الباقون بضم الهمزة وفتح الميم .

قوله تعالى : إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ شرط وجوابه . ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أى أن يكفروا أى لا يحب ذلك منهم . وقال ابن عباس والسدى : معناه لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، وهم الذين قال الله فيهم : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » . وكقوله : « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ » أى المؤمنون . وهذا على قول من لا يفرق بين الرضا والإرادة . وقيل : لا يرضى الكفر وإن أراده ، فالله تعالى يريد الكفر من الكافر وبإرادته كفر لا يرضاه ولا يحبه ، فهو يريد كون مالا يرضاه ، وقد أراد الله عز وجل خلق إبليس وهو لا يرضاه ، فالإرادة غير الرضا . وهذا مذهب أهل السنة .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أى يرضى الشكر لكم ؛ لأن « تَشْكُرُوا » يدل عليه . وقد مضى القول فى الشكر فى « البقرة »(١) وغيرها . ويرضى بمعنى يثيب ويثنى ، فالرضا على هذا إما ثوابه فيكون صفة فعل « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » وإما ثناؤه فهو صفة ذات . و « يرضه » بالإسكان فى الهاء قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وشيبة وهبيرة عن عاصم . وأشبع الضمة ابن ذكوان وابن كثير وابن محيصن والكسائى وورش عن نافع(٢) . واختلس الباقون . ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ تقدم(٣) فى غير موضع .

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى الكافر ﴿ ضُرٌّ ﴾ أى شدة من الفقر والبلاء ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ﴾ أى راجعا إليه مخبتا مطيعا له مستغيثا به فى إزالة تلك الشدة عنه . ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ ﴾ أى أعطاه وملكه . يقال : خولك الله الشيء أى ملكك إياه ؛ وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد :

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخْوَلُوا الْمَالَ يُخْوِلُوا * وإن يُسْأَلُوا يُعْطُوا وإن يَيْسِروا يُغْلُوا(٤)

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . وجـ ٢ ص ١٧٢ طبعة ثانية .

(٢) فى الأصول : ورش عن نافع ، وفى البيضاوى : وقرأ ابن كثير ونافع فى رواية الخ يعنى ورواية أخرى بالاختلاس كما هو المشهور فى رواية ورش .

(٣) راجع جـ ٧ ص ١٥٧ طبعة أولى أو ثانية . وجـ ١٠ ص ٢٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

(٤) البيت لزهير ، ويروى : هنالك إن يستخبلوا المال يخبلوا . والإخبال الإعارة أى يستعيرون الناقة للانتفاع بألبانها وأوبارها والفرس للغزو عليها . وإن ييسروا يغلوا : أى إذا قامروا بالميسر يأخذون سمان الإبل فيقامرون عليها .

وخوّل الرجل: حشمه الواحد خائل . قال أبو النجم :

أعطى فلم يبخل ولم يبخَّل * كُومُ الذُّرى من خوَل المُخوَّل

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أى نسى ربه الذى كان يدعوه من قبل فى كشف الضر عنه . فـ «ما» على هذا الوجه لله عز وجل وهى بمعنى الذى . وقيل : بمعنى من كقوله : «وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ» والمعنى واحد . وقيل : نسى الدعاء الذى كان يتضرع به إلى الله عز وجل . أى ترك كون الدعاء منه إلى الله، فما والفعل على هذا القول مصدر . ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أى أوثانا وأصناما . وقال السدى : يعنى أندادا من الرجال يعتمدون عليهم فى جميع أمورهم . ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أى ليقتدى به الجهال . ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أى قل لهذا الإنسان «تمتع» وهو أمر تهديد فمتاع الدنيا قليل . ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أى مصيرك إلى النار .

قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ بين تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذى مضى ذكره . وقرأ الحسن وأبو عمرو وعاصم والكسائى «أَمَّنْ» بالتشديد . وقرأ نافع وابن كثير ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة «أَمَنْ هُوَ» بالتخفيف على معنى النداء ؛ كأنه قال يا من هو قانت . قال الفراء : الألف بمنزلة يا تقول يا زيد أقبل وأزيد أقبل . وحكى ذلك عن سيبويه وجميع النحويين ؛ كما قال أوس بن حجر :

أبنى لُبَيْنَى لستمُ بيدٍ * إلّا يدًا ليست لها عَضُدُ

وقال آخر هو ذو الرمة :

أدارًا بحزوى هِجتِ للعين عبرةً * فماءُ الهوى يرفضّ أو يترقرقُ

فالتقدير على هذا «قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» يا من هو قانت إنك من أصحاب الجنة؛ كما يقال فى الكلام : فلان لا يصلى ولا يصوم، فيا من يصلى ويصوم أبشر؛ فحذف لدلالة الكلام عليه . وقيل : إن الألف فى «أمن» ألف استفهام أى «أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ» أفضل أم من جعل لله أندادا، والتقدير الذى هو قانت خير . ومن شدد

«أَمَّنْ» فالمعنى العاصون المتقدم ذكرهم خير «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ» فالجملة التي عادلت أم محذوفة؟. والأصل أم من فأدغمت في الميم . النحاس : وأم بمعنى بل ومن بمعنى الذي؛ والتقدير : أم الذي هو قانت أفضل ممن ذكر . وفي قانت أربعة أوجه : أحدها أنه المطيع ؛ قاله آبن مسعود . الثاني أنه الخاشع في صلاته ؛ قاله آبن شهاب . الثالث أنه القائم في صلاته ؛ قاله يحيي ابن سلّام . الرابع أنه الداعي لربه . وقول آبن مسعود يجمع ذلك . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كل قنوت في القرآن فهو طاعة لله عن وجل" وروى عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الصلاة أفضل؟ فقال: "طول القنوت" وتأوله جماعة من أهل العلم على أنه طول القيام . وروى عبد الله عن نافع عن آبن عمر سئل عن القنوت فقال : ما أعرف القنوت إلا طول القيام، وقراءة القرآن . وقال مجاهد : من القنوت طول الركوع وغض البصر . وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة غضّوا أبصارهم، وخضعوا ولم يلتفتوا في صلاتهم، ولم يعبثوا ولم يذكروا شيئا من أمر الدنيا إلا ناسين . قال النحاس : أصل هذا أن القنوت الطاعة، فكل ما قيل فيه فهو طاعة لله عن وجل، فهذه الأشياء كلها داخلة في الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع : قال لي آبن عمر قم فصلّ، فقمت أصلّي وكان عليّ ثوب خَلَق، فدعاني فقال لي : أرأيت لو وجهتك في حاجة أكنت تمضي هكذا ؟ فقلت : كنت أتزين قال : فالله أحق أن تتزين له . وآختلف في تعيين القانت هاهنا، فذكر يحيي بن سلّام أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال آبن عباس في رواية الضحاك عنه : هو أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . وقال آبن عمر : هو عثمان رضي الله عنه . وقال مقاتل : إنه عمّار بن ياسر . الكلبي : صُهَيب وأبو ذر وآبن مسعود . وعن الكلبي أيضا أنه مرسل فيمن كان على هذه الحال . ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ قال الحسن : ساعاته ؛ أوله وأوسطه وآخره . وعن ابن عباس : «آنَاءَ اللَّيْلِ» جوف الليل . قال آبن عباس : من أحبّ أن يهوّن الله عليه الوقوف يوم القيامة ، فليره الله في ظلمة الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه . وقيل : ما بين المغرب والعشاء . وقول الحسن عام . ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ قال سعيد بن جبير : أي عذاب الآخرة . ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي

نعيم الجنة. وروى عن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى فى المعاصى ويرجو فقال: هذا متمن. ولا يقف على قوله: « رَحْمَةَ رَبِّهِ » من خفف « أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ » على معنى النداء؛ لأن قوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ متصل إلا أن يقدر فى الكلام حذف وهو أيسر، على ما تقدم بيانه. قال الزجاج: أى كما لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوى المطيع والعاصى. وقال غيره: الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم. ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أى أصحاب العقول من المؤمنين.

قوله تعالى: قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى قل يا محمد لعبادى المؤمنين ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ أى اتقوا معاصيه والتاء مبدلة من واو وقد تقدم(١). وقال ابن عباس: يريد جعفر بن أبى طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة. ثم قال: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ يعنى بالحسنة الأولى الطاعة وبالثانية الثواب فى الجنة. وقيل: المعنى للذين أحسنوا فى الدنيا حسنة فى الدنيا، يكون ذلك زيادة على ثواب الآخرة، والحسنة الزائدة فى الدنيا الصحة والعافية والظفر والغنيمة. قال القشيرى: والأول أصح؛ لأن الكافر قد نال نعم الدنيا.

قلت: وينالها معه المؤمن ويزاد الجنة إذا شكر تلك النعم. وقد تكون الحسنة فى الدنيا الثناء الحسن وفى الآخرة الجزاء. ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل بالمعاصى. وقد مضى القول فى هذا مستوفى فى « النساء »(٢). وقيل: المراد أرض الجنة؛ رغبهم فى سعتها وسعة نعيمها؛ كما قال: «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ» والجنة قد تسمى أرضا؛

(١) راجع جـ ١ ص ١٦١ طبعة ثانية أو ثالثة. (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٤٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

قال الله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » والأول أظهر فهو أمر بالهجرة . أى ارحلوا من مكة إلى حيث تأمنوا . الماوردى : ويحتمل أن يريد بسعة الأرض سعة الرزق ؛ لأنه يرزقهم من الأرض فيكون معناه ورزق الله واسع وهو أشبه ؛ لأنه أخرج سعتها مخرج الامتنان .

قلت : فتكون الآية دليلا على الانتقال من الأرض الغالية ، إلى الأرض الراخية ؛ كما قال سفيان الثورى : كن فى موضع تملأ فيه جرابك خبزا بدرهم . ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى بغير تقدير . وقيل : يزاد على الثواب ؛ لأنه لو أعطى بقدر ما عمل لكان بحساب . وقيل : « بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى بغير متابعة ولا مطالبة كما تقع المطالبة بنعيم الدنيا . و« الصَّابِرُونَ » هنا الصائمون ؛ دليله قوله عليه الصلاة والسلام مخبرا عن الله عز وجل : " الصوم لى وأنا أجزى به " قال أهل العلم : كل أجر يكال كيلا ويوزن وزنا إلا الصوم فإنه يُحثا حثوا ويُغرف غرفا ؛ وحكى عن على رضى الله عنه . وقال مالك بن أنس فى قوله : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » قال : هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها . ولا شك أن كل من سلّم فيما أصابه ، وترك ما نهى عنه ، فلا مقدار لأجره . وقال قتادة : لا والله ماهناك مكيال ولا ميزان ، حدثنى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تنصب الموازين فيؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين وكذلك الصلاة والحج ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر بغير حساب قال الله تعالى « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل " . وعن الحسين بن على رضى الله عنهما قال سمعت جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أدّ الفرائض تكن من أعبد الناس وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس يا بنى إن فى الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصبّ عليهم الأجر صبّا " ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم

« إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . ولفظ صابر يمدح به وإنما هو لمن صبر عن المعاصي، وإذا أردت أنه صبر على المصيبة قلت صابر على كذا ؛ قاله النحاس . وقد مضى في « البقرة »[1] مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ تقدم أول السورة ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ من هذه الأمة ، وكذلك كان ؛ فإنه كان أول من خالف دين آبائه، وخلع الأصنام وحطمها، وأسلم لله وآمن به، ودعا إليه صلى الله عليه وسلم . واللام في قوله : « لِأَنْ أَكُونَ » صلة زائدة ؛ قاله الجرجاني وغيره . وقيل : لام أجل . وفي الكلام حذف أي أمرت بالعبادة « لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يريد عذاب يوم القيامة . وقاله حين دعاه قومه إلى دين آبائه . قاله أكثر أهل التفسير . وقال أبو حمزة الثمالي وابن المسيب : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » فكانت هذه الآية من قبل أن يغفر ذنب النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٧٤ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ ﴾ « الله » نصب بـ « أعبد » ﴿ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ طاعتى وعبادتى . ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ أمر تهديد ووعيد وتوبيخ ؛ كقوله تعالى : « اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ » . وقيل : منسوخة بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ قال ميمون بن مهران عن ابن عباس : ليس من أحد إلا وخلق الله له زوجة فى الجنة ، فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله . فى رواية عن ابن عباس : فمن عمل بطاعة الله كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبل ذلك ، وهو قوله تعالى : « أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ سمى ما تحتهم ظللا ؛ لأنها تظل من تحتهم، وهذه الآية نظير قوله تعالى: « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » وقوله : « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » . ﴿ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ قال ابن عباس : أولياءه . ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ أى يا أوليائى خافون . وقيل : هو عام فى المؤمن والكافر . وقيل : خاص بالكفار .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ قال الأخفش : الطاغوت جمع ويجوز أن تكون واحدة مؤنثة . وقد تقدم (١) . أى تباعدوا من الطاغوت وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها . قال مجاهد وابن زيد : هو الشيطان . وقال الضحاك والسدى : هو الأوثان . وقيل : إنه الكاهن اسم أعجمى مثل طالوت وجالوت وهاروت وماروت . وقيل : إنه اسم عربى مشتق من الطغيان، و « أن » فى موضع نصب بدلا من الطاغوت، تقديره، والذين

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية .

اجتنبوا عبادة الطاغوت . ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ أى رجعوا إلى عبادته وطاعته . ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ فى الحياة الدنيا بالجنة فى العقبى . روى أنها نزلت فى عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير رضى الله عنهم؛ سألوا أبا بكر رضى الله عنه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا . وقيل نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل وأبى ذر وغيرهما ممن وحد الله تعالى قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم . وقوله : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ قال ابن عباس : هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به . وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن . وقيل : يستمعون القرآن وأقوال الرسول فيتبعون أحسنه أى محكمه فيعملون به . وقيل : يستمعون عزما وترخيصا فيأخذون بالعزم دون الترخيص . وقيل : يستمعون العقوبة الواجبة لهم والعفو فيأخذون بالعفو . وقيل : إن أحسن القول على من جعل الآية فيمن وحد الله قبل الإسلام « لا إله إلا الله » . وقال عبد الرحمن بن زيد : نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل وأبى ذر الغفارى وسلمان الفارسى ، اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها فى جاهليتهم، واتبعوا أحسن ما صار من القول إليهم . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾ لما يرضاه . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أى الذين انتفعوا بعقولهم .

قوله تعالى : أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على إيمان قوم وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت هذه الآية . قال ابن عباس : يريد أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان . وكرر الاستفهام فى قوله : « أَفَأَنْتَ » تأكيدا لطول الكلام، وكذا قال سيبويه فى قوله تعالى : « أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ »[1] على ما تقدم . والمعنى « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ » أفأنت تنقذه . والكلام شرط وجوابه . وجيء بالاستفهام؛ ليدل على التوقيف والتقرير . قال الفراء : المعنى أفأنت تنقذ من حقت عليه

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

كلمة العذاب ، والمعنى واحد ، وقيل : إن فى الكلام حذفا والتقدير : أفمن حق عليه كلمة العذاب ينجو منه ، وما بعده مستأنف ، وقال : « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ » وقال فى موضع آخر : « حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ » لأن الفعل إذا تقدم ووقع بينه وبين الموصوف به حائل جاز التذكير والتأنيث ، على أن التأنيث هنا ليس بحقيقى بل الكلمة فى معنى الكلام والقول ؛ أى أفمن حق عليه قول العذاب .

قوله تعالى : لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ لما بيّن أن للكفار ظللا من النار من فوقهم ومن تحتهم بيّن أن للمتقين غرفا فوقها غرف ؛ لأن الجنة درجات يعلو بعضها بعضا و « لكن » ليس للاستدراك ؛ لأنه لم يأت نفى كقوله : ما رأيت زيدا لكن عمرا ، بل هو لترك قصة إلى قصة مخالفة للأولى كقولك : جاءنى زيد لكن عمرو لم يأت . ﴿ غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ قال ابن عباس : من زبرجد وياقوت ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى هى جامعة لأسباب النزهة . ﴿ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ نصب على المصدر ؛ لأن معنى « لَهُمْ غُرَفٌ » وعدهم الله ذلك وعدا . ويجوز الرفع بمعنى ذلك وعد الله . ﴿ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ أى ما وعد الفريقين

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى إنه لا يخلف الميعاد فى إحياء الخلق ، والتمييز بين المؤمن والكافر ، وهو قادر على ذلك كما أنه قادر على إنزال الماء من السماء . « أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى من السحاب « مَاءً » أى المطر ﴿ فَسَلَكَهُ ﴾ أى فأدخله فى الأرض

وأسكنه فيها ؛ كما قال : « وَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ » . ﴿ يَنَابِيعَ ﴾ جمع يَنْبُوع وهو يَفْعُول من نَبَعَ يَنْبَع ويَنْبُع ويَنْبِع بالرفع والنصب والخفض . النحاس : وحكى لنا ابن كيسان في قول الشاعر :(١)

* يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ *

أن معناه يَنْبَع فأشبع الفتحة فصارت ألفا ، نبوعا خرج . والينبوع عين الماء والجمع الينابيع . وقد مضى في « سبحان »(٢) . ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ ﴾ أي بذلك الماء الخارج من ينابيع الأرض ﴿ زَرْعًا ﴾ هو للجنس أي زروعا شتى لها ألوان مختلفة ، حمرة وصفرة وزرقة وخضرة ونورا . قال الشعبي والضحاك : كل ماء في الأرض فمن السماء نزل ، إنما ينزل من السماء إلى الصخرة ، ثم تقسم منها العيون والركايا . ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي ييبس . ﴿ فَتَرَاهُ ﴾ أي بعد خضرته ﴿ مُصْفَرًّا ﴾ قال المبرد قال الأصمعي : يقال هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتها وولى . قال : وكذلك هاج النبت . قال : وكذلك قال غير الأصمعي . وقال الجوهري : هاج النبت هياجا أي يبس . وأرض هائجة يبس بقلها أو اصفر ، وأهاجت الريح النبت أيبسته ، وأهيجنا الأرض أي وجدناها هائجة النبات ، وهاج هائجه أي ثار غضبه ، وهدأ هائجه أي سكنت فورته . ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ أي فتاتا مكسرا من تحطم العود إذا تفتت من اليبس . والمعنى أن من قدر على هذا قدر على الإعادة . وقيل : هو مثل ضربه الله للقرآن ولصدور من في الأرض ، أي أنزل من السماء قرآنا فسلكه في قلوب المؤمنين « ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ » أي دينا مختلفا بعضه أفضل من بعض ، فأما المؤمن فيزداد إيمانا ويقينا ، وأما الذى في قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع . وقيل : هو مثل ضربه الله للدنيا ؛ أي كما يتغير النبت الأخضر فيصفر كذلك الدنيا بعد بهجتها . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

قوله تعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

(١) قائله عنترة : ويروى ، غضوب حرة . وتمامه : * زيافة مثل الفنيق المقرم *
(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ شرح فتح ووسع . قال ابن عباس : وسع صدره للإسلام حتى ثبت فيه . وقال السدى : وسع صدره بالإسلام للفرح به والطمأنينة إليه ؛ فعلى هذا لا يجوز أن يكون هذا الشرح إلا بعد الإسلام ؛ وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون الشرح قبل الإسلام . ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أى على هدى من ربه كمن طبع على قلبه وأقساه . ودل على هذا المحذوف قوله : « فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ » . قال المبرد : يقال قسا القلب إذا صَلُب ، وكذلك عتا ، وعسا مقاربة لها . وقلب قاسٍ أى صُلْب لا يرق ولا يلين . والمراد بمن شرح الله صدره هاهنا فيما ذكر المفسرون علىّ وحمزة رضى الله عنهما . وحكى النقاش أنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقال مقاتل : عمّار بن ياسر . وعنه أيضا والكلبي رسول الله صلى الله عليه وسلم . والآية عامة فيمن شرح الله صدره بخلق الإيمان فيه . وروى مُرّة[1] عن ابن مسعود قال : قلنا يا رسول الله قوله تعالى « أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ » كيف انشرح صدره ؟ قال : " إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح " قلنا : يا رسول الله وما علامة ذلك ؟ . قال : " الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله " وخرجه الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث ابن عمر : أن رجلا قال يا رسول الله أى المؤمنين أكيس ؟ قال : " أكثرهم للموت ذكرا وأحسنهم له استعدادا وإذا دخل النور فى القلب انفسح واستوسع " قالوا : فما آية ذلك يا نبيّ الله ؟ قال : " الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت " فذكر صلى الله عليه وسلم خصالا ثلاثة ، ولا شك أن من كانت فيه هذه الخصال فهو الكامل الإيمان ، فإن الإنابة إنما هى أعمال البر ؛ لأن دار الخلود إنما وضعت جزاء لأعمال البر ، ألا ترى كيف ذكره الله فى مواضع فى تنزيله ثم قال بعقب ذلك « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فالجنة جزاء الأعمال ؛ فإذا انكمش العبد فى أعمال البر فهو إنابته إلى دار الخلود ، وإذا خمد حرصه عن الدنيا ، ولها عن طلبها ، وأقبل على

(١) هو مرة بن شراحيل الهمدانى يروى عن أبى بكر وعمر وعلى وأبى ذر وحذيفة وابن مسعود الخ ... التهذيب .

ما يغنيه منها فاكتفى به وقنع ؛ فقد تجافى عن دار الغرور . وإذا أحكم أموره بالتقوى فكان ناظرا فى كل أمر ، واقفا متأدبا متثبتا حذرا يتورّع عما يريبه إلى ما لا يريبه ؛ فقد استعدّ للموت . فهذه علامتهم فى الظاهر . وإنما صار هكذا لرؤية الموت ، ورؤية صرف الآخرة عن الدنيا ، ورؤية الدنيا أنها دار الغرور ، وإنما صارت له هذه الرؤية بالنور الذى ولج القلب . وقوله : ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ قيل : المراد أبو لهب وولده ، ومعنى « مِنْ ذِكْرِ اللهِ » أن قلوبهم تزداد قسوة من سماع ذكره . وقيل : إن « مِن » بمعنى عن والمعنى قست عن قبول ذكر الله . وهذا اختيار الطبرى . وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله تعالى اطلبوا الحوائج من السُّمَحاء فإنى جعلت فيهم رحمتى ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطى " . وقال مالك بن دينار : ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة قلب ، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ (٢٣)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعنى القرآن لما قال « فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » بين أن أحسن ما يسمع ما أنزله الله وهو القرآن . قال سعد بن أبى وقاص قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » فقالوا : لو قصصت علينا فنزل « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » فقالوا : لو ذكرتنا فنزل « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ » الآية . وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملّوا ملّة فقالوا له : حدثنا فنزلت . والحديث ما يحدّث به المحدّث . وسمى القرآن حديثا ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدّث به

أصحابه وقومه ، وهو كقوله : « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ » وقوله : « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ » وقوله : « إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَـذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » وقوله : « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا » وقوله : «فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ » قال القشيرى : وتوهم قوم أن الحديث من الحدوث فليدل على أن كلامه محدث وهو وهم ؛ لأنه لا يريد لفظ الحديث على ما فى قوله : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ » وقد قالوا : إن الحـدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المتلو ، وهو كالذكر مع المذكور إذا ذكرنا أسماء الرب تعـالى . ﴿كِتَابًا﴾ نصب على البدل من « أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » ويحتمل أن يكون حالا منه . ﴿مُتَشَابِهًا﴾ يشبه بعضه بعضا فى الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضا ؛ ليس فيه تناقض ولا آختلاف . وقال قتادة : يشبه بعضه بعضا فى الآى والحروف . وقيـل : يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه ؛ لمـا يتضمنه من أمر ونهى وترغيب وترهيب وإن كان أعم وأعجز . ثم وصفه فقال : ﴿مَثَانِيَ﴾ تثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام وثنى للتلاوة فلا يمل . ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تضطرب وتتحرك بالخوف ممـا فيه من الوعيد . ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ أى عند آية الرحمة ، وقيل : إلى العمل بكتاب الله والتصديق به . وقيل : « إِلَى ذِكْرِ اللهِ » يعنى الإسلام .

الثانيـــة ـــ عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما قالت : كان أصحاب النبى صلى الله عليـه وسلم ، إذا قرئ عليهم القرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم . قيل لها : فإن أناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه . فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وقال سعيد بن عبد الرحمن الجمحى : مر آبن عمر برجل من أهل القرآن ساقطا فقال : ما بال هـذا ؟ قالوا : إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط . فقال آبن عمر : إنا لنخشى الله وما نسقط . ثم قال : إن الشيطان يدخل فى جوف أحدهم ؛ ما كان هذا صنيع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقال عمر بن عبد العزيز : ذكر عند آبن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ عليهم القرآن، فقال : بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطا رجليه ، ثم يقرأ عليـه القرآن من أوله إلى آخره فإن رمى بنفسه فهو صادق . وقال أبو عمران

الجوني : وعظ موسى عليه السلام بني إسرائيل ذات يوم فشق رجل قميصه ، فأوحى الله إلى موسى ؛ قل لصاحب القميص لا يشق قميصه فإني لا أحب المبذرين ؛ يشرح لي عن قلبه .

قال زيد بن أسلم : قرأ أبي بن كعب عند النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فرقوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " آغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة " . وعن العباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا آقشعر جلد المؤمن من مخافة الله تحاتت عنه خطاياه كما تحات عن الشجرة البالية ورقها " . وعن آبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما آقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرمه الله على النار " . وعن شهر بن حوشب عن أم الدرداء قالت : إنما الوجل في قلب الرجل كاحتراق السعفة ، أما تجد إلا قشعريرة ؟ قلت : بلى ؛ قالت : فآدع الله فإن الدعاء عند ذلك مستجاب . وعن ثابت البناني قال قال فلان : إني لأعلم متى يستجاب لي . قالوا : ومن أين تعلم ذلك ؟ قال : إذا آقشعر جلدي ، ووجل قلبي ، وفاضت عيناي ، فذلك حين يستجاب لي . يقال : آقشعر جلد الرجل آقعشرارا فهو مقشعر والجمع قشاعر فتحذف الميم ، لأنها زائدة ؛ يقال أخذته قشعريرة . قال آمرؤ القيس :

فبت أكابد ليل التما[(1)] * م والقلب من خشية مقشعر

وقيل : إن القرآن لما كان في غاية الجزالة والبلاغة ، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته ، آقشعرت الجلود منه إعظاما له ، وتعجبا من حسن ترصيعه وتهيبا لما فيه ؛ وهو كقوله تعالى : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » فالتصدع قريب من الآقشعرار ، والخشوع قريب من قوله : « ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » ومعنى لين القلب رقته وطمأنينته وسكونه . ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ ﴾ أي القرآن هدى الله . وقيل : أي الذي وهبه الله لهؤلاء من خشية عقابه ورجاء ثوابه هدى الله . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أي من خذله فلا مرشد له . وهو يرد على القدرية وغيرهم . وقد مضى معنى هذا كله مستوفى في غير موضع والحمد لله . ووقف آبن كثير وآبن محيصن على قوله : « هَادٍ » في الموضعين بالياء ، الباقون بغير ياء .

---

(١) ليل التمام : أطول ما يكون من ليالي الشتاء .

قوله تعالى : أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ قال عطاء وابن زيد : يُرْمَى به مكتوفا فى النار فأول شيء تمس منه النار وجهه . وقال مجاهد : يجر على وجهه فى النار ، وقال مقاتل : هو أن الكافر يرمى به فى النار مغلولة يداه إلى عنقه ، وفى عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من الكبريت ، فتشتعل النار فى الحجر وهو معلق فى عنقه ، فحرها ووهجها على وجهه ؛ لا يطيق دفعها عن وجهه من أجل الأغلال . والخبر محذوف . قال الأخفش : أى « أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ » أفضل أم من سعد ، مثل « أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ أى وتقول الخزنة للكافرين ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أى جزاء كسبكم من المعاصى . ومثله « هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » .

قوله تعالى : ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تقدم معناه (١) . وقال المبرد : يقال لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته ، أى وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لها . قال : والخزى من المكروه والخزاية من الاستحياء . ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أى مما أصابهم فى الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٧٩ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى من كل مثل يحتاجون إليه؛ مثل قوله تعالى : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ » وقيل : أى ما ذكرنا من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون . ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ نصب على الحال . قال الأخفش : لأن قوله جل وعز « فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ » معرفة . وقال على بن سليمان : « عَرَبِيًّا » نصب على الحال و « قُرْآنًا » توطئة للحال كما تقول مررت بزيد رجلا صالحا فقولك صالحا هو المنصوب على الحال . وقال الزجاج : « عَرَبِيًّا » منصوب على الحال و « قُرْآنًا » توكيد . ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ النحاس : أحسن ما قيل فيه قول الضحاك ، قال : غير مختلف . وهو قول ابن عباس ، ذكره الثعلبي . وعن ابن عباس أيضا غير مخلوق ، ذكره المهدوى وقاله السدى فيما ذكر الثعلبي . وقال عثمان بن عفان : غير متضاد . وقال مجاهد : غير ذى لَبْس . وقال بكر بن عبد الله المزنى : غير ذى لَحْن . وقيل : غير ذى شك . قاله السدى فيما ذكره الماوردى . قال :

وقد أتاكَ يقينٌ غيرُ ذى عِوَجٍ * مِن الإلهِ وقولٌ غيرُ مكذوبِ

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الكفر والكذب .

قوله تعالى : ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ قال الكسائى : نصب « رجلا » لأنه ترجمة للمثل وتفسير له ، وإن شئت نصبته بنزع الخافض ، مجازه : ضرب الله مثلا برجل « فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ » قال الفراء : أى مختلفون . وقال المبرد : أى متعاسرون من شَكُس يَشْكُس شُكْسًا [بوزن قفل](1) فهو شَكِس مثل عَسُر يَعْسُر عُسْرا فهو عَسِر ؛ يقال : رجل شَكِسٌ وشَرِسٌ وضَرِسٌ وضَبِسٌ . ويقال : رجل ضَبِسٌ وضَبِيسٌ أى

(١) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبى .

شَرِسٌ عسِر شَكِسٌ ؛ قاله الجوهري . الزمخشري : والتشاكس والتشاخس الاختلاف .
يقال : تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه . ويقال : شاكسني فلان أي ماكسني
وشاحّني في خلق . قال الجوهري : رجل شَكْس بالتسكين أي صَعْب الخُلُق . قال الراجز :

* شَكْسٌ عبوسٌ عنبسٌ عذوَّرٌ *

وقوم شُكُسٌ مثال رَجُلٌ صَدَق وقوم صُدْق . وقد شَكِس بالكسر شَكَاسةً . وحكى الفراء :
رجل شَكِسٌ . وهو القياس ، وهذا مَثَل من عبد آلهة كثيرة . ﴿ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ ﴾ أي خالصا
لسيد واحد ، وهو مَثَل من يعبد الله وحده . ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ هذا الذي يخدم جماعة
شركاء ، أخلاقهم مختلفة ، ونياتهم متباينة ، لا يلقاه رجل إلا جره واستخدمه ؛ فهو يلقى منهم
العناء والنصب والتعب العظيم ، وهو مع ذلك كله لا يرضي واحدا منهم بخدمته لكثرة الحقوق
في رقبته ، والذي يخدم واحدا لا ينازعه فيه أحد ، إذا أطاعه وحده عرف ذلك له ، وإن
أخطأ صفح عن خطئه ، فأيهما أقل تعبا أو على هدى مستقيم . وقرأ أهل الكوفة وأهل
المدينة « وَرَجُلاً سَلَماً » وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وعاصم الجحدري وأبو عمرو
وابن كثير ويعقوب « وَرَجُلاً سَالِماً » واختاره أبو عبيد لصحة التفسير فيه . قال : لأن السالم
الخالص ضد المشترك ، والسَّلَم ضد الحرب ولا موضع للحرب هنا . النحاس : وهذا الاحتجاج
لا يلزم ؛ لأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما ، فهذا وإن كان السلم ضد
الحرب فله موضع آخر ؛ كما يقال لك في هذا المنزل شركاء فصار سلما لك . ويلزمه أيضا
في سالم ما ألزم غيره ؛ لأنه يقال شيء سالم أي لا عاهة به . والقراءتان حسنتان قرأ بهما
الأئمة . واختار أبو حاتم قراءة أهل المدينة « سَلَماً » قال وهذا الذي لا تنازع فيه . وقرأ سعيد
ابن جبير وعكرمة وأبو العالية ونصر « سِلْماً » بكسر السين وسكون اللام وسِلْماً وسَلَماً مصدران ؛
والتقدير ؛ ورجلا ذا سلم فحذف المضاف و « مَثَلاً » صفة على التمييز ، والمعنى هل تستوي
صفتاهما وحالاهما . وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الحق فيتبعونه .

قوله تعالى : إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ وقرأ ابن محيصن وابن أبى عبلة وعيسى بن عمر وابن أبى إسحق « إِنَّكَ مَائِتٌ وَإِنَّهُم مَائِتُونَ » وهى قراءة حسنة وبها قرأ عبد الله بن الزبير . النحاس : ومثل هذه الألف تحذف فى الشواذ و « مائت » فى المستقبل كثير فى كلام العرب ؛ ومثله ما كان مريضا و إنه لمـارض من هـذا الطعام . وقال الحسن والفـراء والكسائى : الميّت بالتشديد من لم يمت وسيموت ، والمَيْت بالتخفيف من فارقته الروح ؛ فلذلك لم تخفف هنا . قال قتادة : نُعيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم نفسُه ، ونُعيت إليكم أنفسُكم . وقال ثابت البُنانى : نعى رجلٌ إلى صلة بن أشيم أخًا له فوافقه يأكل ، فقال : آدنُ فكُلْ فقد نُعى إلى أخى منذ حين ؛ قال : وكيف وأنا أول من أتاك بالخبر . قال إن الله تعالى نعاه إلىّ فقال : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ » . وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أخبره بموته وموتهم ؛ فاحتمل خمسة أوجه : أحدها أن يكون ذلك تحـذيرا من الآخرة . الثـانى أن يذكره حثا على العمل . الثـالث أن يذكره توطئة للوت . الرابع لئلا يختلفوا فى موته كما آختلفت الأمم فى غيره ، حتى أن عمر رضى الله عنه لمـا أنكر موته آحتج أبو بكر رضى الله عنه بهذه الآية فأمسك . الخامس ليعلمه أن الله تعالى قـد سوّى فيه بين خلقه مع تفاضلهم فى غيره ؛ لتكثر فيه السلوة وتقل فيـه الحسرة . ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ يعنى تخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم ؛ قاله آبن عباس وغيره . وفى خبر فيه طول : إن الخصومة تبلغ يوم القيامة إلى أن يحاج الروح الجسد . وقال الزبير : لمـا نزلت هـذه الآية قلنا : يارسول الله ! أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : " نعم ليكررن عليكم حتى يؤدّى إلى كل ذى حق حقه " فقال الزبير : والله إن الأمر لشديد . وقال آبن عمر : لقـد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفى أهل الكتابين " ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنـدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ " فقلنا : وكيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد ، حتى رأيت

بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها فينا نزلت . وقال أبو سعيد الخدرى : كنا نقول ربنا واحد وديننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة . فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا . وقال إبراهيم النخعى : لما نزلت هذه الآية جعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : ما خصومتنا بيننا ؟ فلما قتل عثمان رضى الله عنه قالوا : هذه خصومتنا بيننا . وقيل تخاصمهم هو تحاكمهم إلى الله تعالى، فيستوفى من حسنات الظالم بقدر مظلمته ، ويردها فى حسنات من وجبت له . وهذا عام فى جميع المظالم كما فى حديث أبى هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أتدرون من المفلس" قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . قال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار" خرجه مسلم . وقد مضى المعنى مجودا فى «آل عمران»[1] وفى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" وفى الحديث المسند " أول ما تقع الخصومات فى الدنيا " وقد ذكرنا هذا الباب كله فى « التذكرة » مستوفى .

قوله تعالى : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ ﴾ فزعم أن له ولدا وشريكا ﴿ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ ﴾ يعني القرآن ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ ﴾ استفهام تقرير ﴿ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي مقام للجاحدين وهو مشتق من ثَوَى بالمكان إذا أقام به يَثْوِي ثَوَاء وثُوِيًّا مثل مَضَى مَضَاء ومُضِيًّا ولو كان من أَثْوَى لكان مُثْوًى وهذا يدل على أن ثَوَى هي اللغة الفصيحة . وحكى أبو عبيد أَثْوَى وأنشد قول الأعشى :

أَثْوَى وقَصَّرَ لَيْلَةً لِيُزَوَّدا * ومَضَى وأَخْلَفَ مِن قُتَيْلَةَ مَوْعِدَا

والأصمعي لا يعرف إلا ثَوَى، ويروى البيت أَثَوَى على الاستفهام . وأَثْوَيْتُ غيري يتعدى ولا يتعدى .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ في موضع رفع بالابتداء وخبره ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ واختلف في الذي جاء بالصدق وصدق به؛ فقال علي رضي الله عنه : «الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ» النبي صلى الله عليه وسلم « وَصَدَّقَ بِهِ » أبو بكر رضي الله عنه . وقال مجاهد : النبي عليه السلام وعلي رضي الله عنه . السدي : الذي جاء بالصدق جبريل صلى الله عليه وسلم والذي صدّق به محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن زيد ومقاتل وقتادة : « الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ » النبي صلى الله عليه وسلم «وَصَدَّقَ بِهِ» المؤمنون . واستدلوا على ذلك بقوله : «أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» كما قال : « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » . وقال النخعي ومجاهد : « الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ » المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة فيقولون : هذا الذي أعطيتمونا قد اتبعنا ما فيه؛ فيكون «الذي» على هذا بمعنى جمع كما تكون مَنْ بمعنى جمع . وقيل : بل حذفت منه النون لطول الاسم، وتأوله الشعبي على أنه واحد . وقال : « الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ » محمد صلى الله عليه وسلم فيكون على هذا خبره جماعة؛ كما يقال لمن يُعظم هو فعلوا، وزيد فعلوا كذا وكذا . وقيل : إن ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد الله عز وجل؛ قاله ابن عباس وغيره واختاره الطبري . وفي قراءة ابن مسعود « وَالَّذِي جَاءُوا بِالصدقِ وَصدَّقُوا بِهِ » وهي قراءة على التفسير. وفي قراءة أبي صالح الكوفي « وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَقَ بِهِ » مخففا على معنى وصدق بمجيئه

به ، أى صدق فى طاعة الله عز وجل، وقد مضى فى « البقرة »[(١)] الكلام فى « الذى » وأنه يكون واحدا ويكون جمعا . ﴿ لَهُم مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى من النعيم فى الجنة، كما يقال: لك إكرام عندى ؛ أى ينالك منى ذلك . ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الثناء فى الدنيا والثواب فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أى صدّقوا « لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ » . ﴿ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ أى يكرمهم ولا يؤاخذهم بما عملوا قبل الإسلام . ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أى يثيبهم على الطاعات فى الدنيا ﴿ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وهى الجنة .

قوله تعالى : أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ حذفت الياء من « كاف » لسكونها وسكون التنوين بعدها ؛ وكان الأصل ألا تحذف فى الوقف لزوال التنوين ، إلا أنها حذفت ليعلم أنها كذلك فى الوصل . ومن العرب من يثبتها فى الوقف على الأصل فيقول : كافى . وقراءة العامة « عَبْدَهُ » بالتوحيد يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم يكفيه الله وعيد المشركين وكيدهم . وقرأ حمزة والكسائى « عِبَادَهُ » وهم الأنبياء أو الأنبياء والمؤمنون بهم . واختار أبو عبيد قراءة الجماعة لقوله عقيبه : « وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ » . ويحتمل أن يكون العبد لفظ الجنس ؛ كقوله عز من قائل : « إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ » وعلى هذا تكون القراءة الأولى راجعة إلى الثانية . والكفاية شر الأصنام ، فإنهم كانوا يخوّفون المؤمنين بالأصنام ، حتى قال إبراهيم عليه السلام وكيف « أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ » . وقال الجرجانى : إن الله كاف عبده المؤمن وعبده الكافر ، هذا بالثواب وهذا بالعقاب .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبيّ صلى الله عليه وسلم مَضرّة الأوثان ، فقالوا : أتسب آلهتنا ؟ لئن لم تكفّ عن ذكرها لتخبلنك أو تصيبنك بسوء . وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العزّى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادنها : أحذركها ياخالد فإن لها شدّة لا يقوم لها شيء ، فعمد خالد إلى العزّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس . وتخويفهم لخالد تخويف للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه الذى وجه خالدا . ويدخل فى الآية تخويفهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بكثرة جمعهم وقوتهم ؛ كما قال : « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ » . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ تقدم . ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِى انْتِقَامٍ ﴾ أى ممن عاداه أو عادى رسله .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ أى ولئن سألتهم يا محمد ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ بين أنهم مع عبادتهم الأوثان مُقرّون بأن الخالق هو الله ، وإذا كان الله هو الخالق فكيف يخوفونك بآلهتهم التى هى مخلوقة لله تعالى ، وأنت رسول الله الذى خلقها وخلق السموات والأرض . ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ أى قل لهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا « أَفَرَأَيْتُمْ » ﴿ إِنْ أَرَادَنِىَ اللهُ بِضُرٍّ ﴾ بشدة وبلاء ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ يعنى هذه الأصنام ﴿ أَوْ أَرَادَنِى

بِرَحْمَةٍ ﴾ نعمة ورخاء ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ قال مقاتل : فسألهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فسكتوا . وقال غيره : قالوا لا تدفع شيئا قدّره الله ولكنها تشفع . فنزلت ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ وترك الجواب لدلالة الكلام عليه ؛ يعنى فسيقولون لا [أى لا تكشف ولا تمسك][(1)] فـ « قُلْ » أنت « حَسْبِيَ اللَّهُ » أى عليه توكلت أى اعتمدت و ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ يعتمد المعتمدون . وقد تقدّم الكلام[(2)] فى التوكل . وقرأ نافع وابن كثير والكوفيون ما عدا عاصما « كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ » بغير تنوين . وقرأ أبو عمرو وشيبة وهى المعروفة من قراءة الحسن وعاصم « هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ » . « مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ » بالتنوين على الأصل وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ لأنه اسم فاعل فى معنى الاستقبال ، وإذا كان كذلك كان التنوين أجود . قال الشاعر :

الضاربون عُمَيْرًا عن بيوتهم * بالليل يوم عُمَيرٍ ظالمٌ عادى

ولو كان ماضيا لم يجز فيه التنوين ، وحذف التنوين على التحقيق ، فإذا حذفت التنوين لم يبق بين الاسمين حاجز فخفضت الثانى بالإضافة . وحذف التنوين كثير فى كلام العرب موجود حسن ؛ قال الله تعالى : « هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ » وقال : « إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ » قال سيبويه : ومثل ذلك « غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ » وأنشد سيبويه :

هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ لِحَاجَتِنَا * أَوْ عَبْدَ رَبٍّ أَخَا عَوْنِ بنِ مِخْرَاقِ

وقال النابغة :

احْكُمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الْحَيِّ إِذْ نَظَرَتْ * إِلَى حَمَامٍ شِرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَدِ[(3)]

معناه واردٍ الثَّمَدَ فحذف التنوين ؛ مثل « كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ » .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ أى على مكانتى أى على جهتى التى تمكنت عندى ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ . وقرأ أبو بكر « مَكَانَاتِكُمْ » وقد مضى فى « الأنعام »[(4)] .

---

(١) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبي. (٢) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ و ص ٢٥٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) يقول الشاعر للنعمان بن المنذر وكان واجدا عليه : كن حكيما فى أمرى كحكم زرقاء اليمامة فى حزرها الحمام التى مرت طائرة بها . وخبرها مشهور . والشراع : الموضع الذى ينحدر منه إلى الماء . والثمد : الماء القليل على وجه الأرض .

(٤) راجع جـ ٧ ص ٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أى يهينه ويذله أى فى الدنيا وذلك بالجوع والسيف . ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أى فى الآخرة ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ .

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تقدم الكلام فى هذه الاية مستوفى فى غير موضع (١) .

قوله تعالى : ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

فيــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أى يقبضها عند فناء آجالها ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ ٱختلف فيه . فقيل : يقبضها عن التصرف مع بقاء أرواحها فى أجسادها ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى﴾ وهى النائمة فيطلقها بالتصرف إلى أجل موتها ؛ قاله ٱبن عيسى (٢) . وقال الفراء : المعنى ويقبض التى لم تمت فى منامها عند ٱنقضاء أجلها . قال : وقد يكون توفيها نومها ؛ فيكون التقدير على هذا والتى لم تمت وفاتها نومها . وقال ٱبن عباس وغيره من المفسرين : إن أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام فتتعارف ما شاء الله منها ، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح الأموات عنده ، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها . وقال سعيد بن جبير : إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا ، وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف « فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى » أى يعيدها . قال على رضى الله عنه : فما رأته نفس النائم وهى فى السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهى الرؤيا الصادقة ، وما رأته بعد إرسالها وقبل ٱستقرارها فى جسدها تلقيها الشياطين ، وتخيل إليها الأباطيل فهى الرؤيا الكاذبة .

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٨٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) فى نسخة : قاله أبو عيسى .

وقال ابن زيد : النوم وفاة والموت وفاة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كما تنامون فكذلك تموتون وكما توقظون فكذلك تبعثون" . وقال عمر : النوم أخو الموت . وروى مرفوعا من حديث جابر بن عبد الله قيل : يا رسول الله أينام أهل الجنة ؟ قال : "لا النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها" خرجه الدارقطني . وقال ابن عباس : فى ابن آدم نَفْس وروح بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التى بها العقل والتمييز، والروح التى بها النفس والتحريك ، فإذا نام العَبد قبض الله نَفْسه ولم يقبض روحه . وهذا قول ابن الأنبارى والزجاج ، قال القشيرى أبو نصر : وفى هذا بُعْد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة فى الحالين شىء واحد ؛ ولهذا قال : « فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » فإذا يقبض الله الروح فى حالين فى حالة النوم وحالة الموت ، فما قبضه فى حال النوم فمعناه انه يغمره بما يحبسه عن التصرف فكأنه شىء مقبوض ، وما قبضه فى حال الموت فهو يمسكه ولا يرسله إلى يوم القيامة . وقوله : «وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى» أى يزيل الحابس عنه فيعود كما كان ، فتوفى الأنفس فى حال النوم بإزالة الحس وخلق الغفلة والآفة فى محل الإدراك . وتوفيها فى حالة الموت بخلق الموت وإزالة الحس بالكلية . « فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ » بألا يخلق فيها الإدراك كيف وقد خلق فيها الموت ؟ « وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى » بأن يعيد إليها الإحساس .

الثانيــة — وقد اختلف الناس من هذه الآية فى النفس والروح ؛ هل هما شىء واحد أو شيئان على ما ذكرنا . والأظهر أنهما شىء واحد، وهو الذى تدل عليه الآثار الصحاح على ما نذكره فى هذا الباب . من ذلك حديث أم سَلَمة قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى سَلَمة وقد شَقَّ بصرُه [1] فأغمضه، ثم قال : "إن الروح إذا قُبِض تَبِعه البصرُ" وحديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألم تروا الإنسان إذا مات شَخَص بصرُه" قال : "فذلك حين يَتْبَع بصرُه نَفْسَه" خرجهما مسلم . وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(١) شق بصره : أى انفتح .

"تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحا قالوا آخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب آخرجى حميدة وأبشرى بروْح ورَيحان وربٍّ راض غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يُعرَج بها إلى السماء" وذكر الحديث وإسناده صحيح خرجه آبن ماجه؛ وقد ذكرناه فى «التذكرة». وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: "إذا خرجت رُوح المؤمن تلقاها ملَكان يصعدان بها". وذكر الحديث. وقال بلال فى حديث الوادى: أخذ بنفْسى يارسول الله الذى أخذ بنفسك. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مقابلا له فى حديث زيد بن أسلم فى حديث الوادى: "يأيها الناس إن الله قبض أرواحنا ولو شاء ردّها إلينا فى حين غير هذا".

الثالثة ــ والصحيح فيه أنه جسم لطيف مشابك للأجسام المحسوسة، يُجذَب ويُخرَج وفى أكفانه يُلف ويُدرَج، وبه إلى السماء يُعرَج، لايموت ولا يفنى، وهو مما له أول وليس له آخر، وهو بعينين ويدين، وأنه ذو ريح طيبة وخبيثة؛ كما فى حديث أبى هريرة. وهذه صفة الأجسام لا صفة الأعراض؛ وقد ذكرنا الأخبار بهذا كله فى كتاب «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة». وقال تعالى: «فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ» يعنى النفس إلى خروجها من الجسد؛ وهذه صفة الجسم. والله أعلم.

الرابعة ــ خرج البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا آوى أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخلة إزاره فلينفض بها فراشه وليسم الله فإنه لايعلم ماخلَفه بعد على فراشه فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقّه الأيمن وليقل سبحانك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه إن أمسكتَ نفْسى فآغفر لها". وقال البخارى وآبن ماجه والترمذى: "فآرحمها" بدل "فآغفر لها" "وإن أرسلتها فآحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين" زاد الترمذى "وإذا آستيقظ فليقل الحمد لله الذى عافانى فى جسدى وردّ علىّ روحى وأذن لى بذكره". وخرج البخارى عن حُذَيفة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خدّه؛ ثم يقول: "اللهم بآسمك أموت وأحيا" وإذا آستيقظ قال: "الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور".

قوله تعالى : ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ هذه قراءة العامة على أنه مسمى الفاعل « الْمَوْتَ » نصبا؛ أى قضى الله عليها وهو اختيار أبى حاتم وأبى عبيد ؛ لقوله فى أول الآية : « اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ » فهو يقضى عليها . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى « قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ » على ما لم يسم فاعله . النحاس : والمعنى واحد غير أن القراءة الأولى أبين وأشبه بنسق الكلام ؛ لأنهم قد أجمعوا على « وَيُرْسِلُ » ولم يقرءوا « ويُرْسَل » . وفى الآية تنبيه على عظيم قدرته وانفراده بالألوهية ، وأنه يفعل ما يشاء ، ويحيى ويميت ، لا يقدر على ذلك سواه . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ يعنى فى قبض الله نفس الميت والنائم ، وإرساله نفس النائم وحبسه نفس الميت ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . وقال الأصمعى سمعت معتمرا يقول : روح الإنسان مثل كُبَّة الغزل(١) ، فترسل الروح ، فتمضى ثم تمضى ثم تطوى فتجىء فتدخل ، فمعنى الآية أنه يرسل من الروح شىء فى حال النوم ومعظمها فى البدن متصل بما يخرج منها اتصالا خفيا ، فإذا استيقظ المرء جذب معظم روحه ما انبسط منها فعاد . وقيل : غير هذا ؛ وفى التنزيل : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » أى لا يعلم حقيقته إلا الله . وقد تقدم فى « سبحان »(٢) .

قوله تعالى : أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ ﴾ أى بل اتخذوا يعنى الأصنام وفى الكلام ما يتضمن لم ؛ أى « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » لم يتفكروا ولكنهم اتخذوا آلهتهم شفعاء . ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ﴾ أى قل لهم يا محمد أتتخذونهم شفعاء وإن كانوا

(١) كبة الغزل : ما جمع منه . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

لا يملكون شيئا من الشفاعة ﴿ وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ لأنها جمادات . وهذا آستفهام إنكار .
﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ نص فى أن الشفاعة لله وحده كما قال : « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » فلا شافع إلا من شفاعته « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى » . « جَمِيعًا » نصب على الحال . فإن قيل : « جَمِيعًا » إنما يكون للاثنين فصاعدا والشفاعة واحدة . فالجواب أن الشفاعة مصدر والمصدر يؤدى عن الاثنين والجميع ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ نصب على المصدر عند الخليل وسيبويه ، وعلى الحال عند يونس . ﴿ اشْمَأَزَّتْ ﴾ قال المبرد : انقبضت . وهو قول ابن عباس ومجاهد . وقال قتادة : نفرت واستكبرت وكفرت وتعصت . وقال المؤرج : أنكرت . وأصل الاشمئزاز النفور والازورار . قال عمرو بن كلثوم :

إذا عض الثقاف بها اشمأزت * وولتهم عشوزنة زبونا [(١)]

وقال أبو زيد : اشمأز الرجل ذعر من الفزع وهو المذعور . وكان المشركون إذا قيل لهم «لا إله إلا الله» نفروا وكفروا ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى الأوثان حين ألقى الشيطان فى أمنية النبى صلى الله عليه وسلم عند قراءته سورة «والنجم» تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم ترتجى . قاله جماعة المفسرين [(٢)] . ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى يظهر فى وجوههم البشر والسرور .

قوله تعالى : قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾

(١) الثقاف ما تقوم به الرماح . وعشوزنة صلبة شديدة . والزبون الدفوع . والبيت فى وصف قناة ، وقبله :
فإن قناتنا يا عمرو أعيت * على الأعداء قبلك أن تلينا

(٢) راجع ما قيل فى هذا الكلام من منافاته للعصمة وتأويلات فى قوله تعالى فى سورة الحج : «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته» ج ١٢ ص ٧٩ وما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ نصب لأنه نداء مضاف وكذا ﴿ عَالِمَ الْغَيْبِ ﴾ ولا يجوز عند سيبويه أن يكون نعتا . ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان النبي صلى الله عليه وسلم يستفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته " اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل « فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم " ولما بلغ الربيع بن خُثَيْم قتل الحسين بن علي رضي الله عنهم قرأ « قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » . وقال سعيد بن جبير : إني لأعرف آية ما قرأها أحد قط فسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه ، قوله تعالى : « قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي كذبوا وأشركوا ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ ﴾ أي من سوء عذاب ذلك اليوم . وقد مضى هذا في سورة « آل عمران »(1) و« الرعد »(2) . ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ من أجل ما روى فيه ما رواه منصور عن مجاهد قال : عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات . وقاله السدي . وقيل : عملوا أعمالا توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا ؛ وقد كانوا ظنوا أنهم ينجون بالتوبة . ويجوز أن يكونوا توهموا أنه يغفر لهم من غير توبة ف« بَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ » من دخول النار . وقال سفيان الثوري في هذه الآية : ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء هذه آيتهم وقصتهم . وقال عكرمة ابن عمار : جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعا شديدا ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ قال :

---

(1) راجع ج ٤ ص ١٣١ طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع ج ٩ ص ٣٠٧ طبعة أولى أو ثانية .

أخاف آية من كتاب الله « وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ » فأنا أخشى أن يبدو لى مالم أكن أحتسب . ﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ أى ظهر لهم ﴿ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى عقاب ما كسبوا من الكفر والمعاصى . ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى أحاط بهم ونزل ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

قوله تعالى : فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ قيل : إنها نزلت فى حُذَيفة بن المغيرة . ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ قال قتادة : « عَلَى عِلْمٍ » عندى بوجوه المكاسب ، وعنه أيضا « عَلَى عِلْمٍ » على خير عندى . وقيل : « عَلَى عِلْمٍ » أى على علم من الله بفضلى . وقال الحسن : « عَلَى عِلْمٍ » أى بعلم علمنى الله إياه . وقيل : المعنى أنه قال قد علمت أنى إذا أوتيت هذا فى الدنيا أن لى عند الله منزلة ؛ فقال الله : ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أى بل النعم التى أوتيتها فتنة تختبر بها . قال الفراء : أنث « هى » لتأنيث الفتنة ، ولو كان بل هو فتنة لجاز . النحاس : التقدير بل أعطيته فتنة . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يعلمون أن إعطاءهم المال اختبار .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ قَالَهَا ﴾ أنث على تأنيث الكلمة . ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى الكفار قبلهم كقارون وغيره حيث قال « إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي » . ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ « ما » للجحد أى لم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا . وقيل :

أى فما الذى أغنى أموالهم ؟ فـ « ما » آستفهام . ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى جزاء سيئات أعمالهم . وقد يسمى جزاء السيئة سيئة . ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى أشركوا ﴿ مِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ الأمة ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى بالجوع والسيف . ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى فائتين الله ولا سابقيه . وقد تقدّم[1] .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خص المؤمن بالذكر؛ لأنه هو الذى يتدبر الآيات وينتفع بها ، ويعلم أن سعة الرزق قد يكون مكرا وآستدراجا، وتقتيره رفعة و إعظاما .

قوله تعالى : قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ و إن شئت حذفت الياء؛ لأن النداء موضع حذف . النحاس : ومن أجلّ ما روى فيه ما رواه محمد بن إسحق عن نافع عن آبن عمر عن عمر قال : لما آجتمعنا على الهجرة، آتعدتُ

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٨ طبعة أولى أو ثانية . وجـ ٨ ص ٣٥١ طبعة أولى أو ثانية .

أنا وهشام بن العاصى بن وائل السَّهمى، وعَيَّاش بن أبى ربيعة بن عُتْبة ، فقلنا : الموعد أضاة بنى غفار[1] ، وقلنا : من تأخر منا فقد حُبِس فليمض صاحبه ؛ فأصبحت أنا وعيّاش ابن عتبة وحُبس عنا هشام، وإذا به قد فُتِن فافتتن، فكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله صلى الله عليه وسلم، ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة، وكانوا هم أيضا يقولون هذا فى أنفسهم، فأنزل الله عز وجل فى كتابه : «قُلْ يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» إلى قوله تعالى : «أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ» قال عمر : فكتبتها بيدى ثم بعثتها إلى هشام . قال هشام : فلما قدمت علىّ خرجت بها إلى ذى طوى فقلت : اللهم فهمنيها فعرفت أنها نزلت فينا ، فرجعت فجلست على بعيرى فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان قوم من المشركين قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم أو بعثوا إليه : إن ما تدعو إليه لحسن أو تخبرنا أن لنا توبة ؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية «قُلْ يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ» ذكره البخارى بمعناه . وقد مضى فى آخر «الفرقان»[2] . وعن ابن عباس أيضا نزلت فى أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، وكيف نهاجر ونُسلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التى حرم الله! فأنزل الله هذه الآية . وقيل : إنها نزلت فى قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم فى العبادة، وخافوا ألا يتقبل منهم لذنوب سبقت لهم فى الجاهلية . وقال ابن عباس أيضا وعطاء : نزلت فى وحشىّ قاتل حمزة ؛ لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه ؛ وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحشىّ إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : يا محمد أتيتك مستجيرا فأجرنى حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قد كنت أحب أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتنى مستجيرا فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله " قال : فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت ، هل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت

(١) الأضاة غدير . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٧٦ وما بعدها طبعة أولى، أو ثانية .

رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ » إلى آخر الآية فتلاها عليه؛ فقال أرى شرطا فلعلى لا أعمل صالحا، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله. فنزلت « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » فدعا به فتلاها عليه؛ قال: فلعلى ممن لا يشاء أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله. فنزلت « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » فقال : نعم الآن لا أرى شرطا . فأسلم . وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ولا يبالى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » . وفى مصحف ابن مسعود « إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ يَشَاءُ » . قال أبو جعفر النحاس : وهاتان القراءتان على التفسير؛ أى يغفر الله لمن يشاء . وقد عرف الله عز وجل من شاء أن يغفر له ، وهو التائب أو من عمل صغيرة ولم تكن له كبيرة ، ودل على أنه يريد التائب ما بعده « وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ » فالتائب مغفور له ذنوبه جميعا ، يدل على ذلك « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ » فهذا لا إشكال فيه . وقال على بن أبى طالب : ما فى القرآن آية أوسع من هذه الآية « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » وقد مضى هذا فى « سبحان »(١) . وقال عبد الله بن عمر : وهذه أرجى آية فى القرآن فرد عليهم ابن عباس وقال أرجى آية فى القرآن قوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » وقد مضى فى « الرعد »(٢) . وقرئ « وَلَا تَقْنِطُوا » بكسر النون وفتحها . وقد مضى فى « الحجر »(٣) بيانه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ أى ارجعوا إليه بالطاعة . لما بين أن من تاب من الشرك يغفر له أمر بالتوبة والرجوع إليه ، والإنابة الرجوع إلى الله بالإخلاص . ﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ أى اخضعوا له وأطيعوا ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴾ فى الدنيا

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٨٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٦ طبعة أولى أو ثانية .

﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ أى لا تمنعون من عذابه . وروى من حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من السعادة أن يطيل الله عمر المرء فى الطاعة و يرزقه الإنابة و إن من الشقاوة أن يعمل المرء ويعجب بعمله " .

قوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ «أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ» هو القرآن وكله حسن،والمعنى ما قال الحسن: ٱلتزموا طاعته، وٱجتنبوا معصيته . وقال السدى : الأحسن ما أمر الله به فى كتابه. وقال ٱبن زيد : يعنى المحكمات ، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه . وقال : أنزل الله كتبا التوراة والإنجيل والزبور، ثم أنزل القرآن وأمر بٱتباعه فهو الأحسن وهو المعجز . وقيل : هذا أحسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب وجميع الكتب منسوخة . وقيل : يعنى العفو؛ لأن الله تعالى خير نبيه عليه السلام بين العفو والقصاص . وقيل ما علم الله النبي عليه السلام وليس بقرآن فهو حسن، وما أوحى إليه من القرآن فهو الأحسن. وقيل: أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية .

قوله تعالى : ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا﴾ «أن» فى موضع نصب أى كراهة «أَنْ تَقُولَ» وعند الكوفيين لئلا تقول وعند البصريين حذر «أَنْ تَقُولَ» . وقيل : أى من قبل « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ » لأنه قال قبل هذا : « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ » . الزمخشرى : فإن قلت لم نكرت؟ قلت؛ لأن المراد بها بعض الأنفس وهى نفس الكافر . و يجوز أن يريد نفسا متميزة من الأنفس، إما بلجاج فى الكفر شديد، أو بعقاب عظيم . ويجوز أن يراد التكثير كما قال الأعشى:

وربَّ بقيع لو هتفتُ بجوه * أتانى كريم ينفض الرأس مغضبا

وهو يريد أفواجا من الكرام ينصرونه لا كريما واحدا ، ونظيره ربَّ بلد قطعت ، وربَّ بطل قارعت، ولا يقصد إلا التكثير . «يَا حَسْرَتَا» والأصل «يا حسرتى» فأبدل من الياء ألف؛ لأنها أخف وأمكن فى الٱستغاثة بمد الصوت، وربما ألحقوا بها الهاء؛ أنشد الفراء :

يا مرحباه بحمار ناجية[1] * إذا أتى قربته للسانية

---

(١) الناجية : السريعة . وفى تفسير الفراء ناهية بدل ناجية وكذا روى فى اللسان وشرح القاموس فى مادة سنا . والسانية هنا مصدر على فاعلة بمعنى الاستسقاء؛ أراد قربته للسناية .

وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف؛ لتدل على الإضافة. وكذلك قرأها أبو جعفر «يَا حَسْرَتَاىَ» والحسرة الندامة. ﴿عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾ قال الحسن: فى طاعة الله. وقال الضحاك: أى فى ذكر الله عز وجل. قال: يعنى القرآن والعمل به. وقال أبو عبيدة: فى جنب الله أى فى ثواب الله. وقال الفراء: الجنب القرب والجوار؛ يقال فلان يعيش فى جنب فلان أى فى جواره ومنه «وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ» أى على ما فرطت فى طلب جواره وقربه وهو الجنة. وقال الزجاج: أى على ما فرطت فى الطريق الذى هو طريق الله الذى دعانى إليه. والعرب تسمى السبب والطريق إلى الشىء جنبا؛ تقول تجرعت فى جنبك غصصا؛ أى لأجلك وسببك ولأجل مرضاتك. وقيل: «فِي جَنْبِ اللهِ» أى فى الجانب الذى يؤدى إلى رضا الله عز وجل وثوابه، والعرب تسمى الجانب جنبا؛ قال الشاعر:

قُسِمَ مَجْهُودا لِذاكَ القَلْبُ * النَّاسُ جَنْبٌ والأَمِيرُ جَنْبُ

يعنى الناس من جانب والأمير من جانب. وقال ابن عرفة: أى تركت من أمر الله؛ يقال ما فعلتَ ذلك فى جنب حاجتى؛ قال كُثَيِّر:

أَلَا تَتَّقِينَ اللهَ فى جنبِ عاشِقٍ * له كَبِـدٌ حَرَّى عليك تَقَطَّعُ

وكذا قال مجاهد؛ أى ضيعت من أمر الله. ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما جلس رجل مجلسا ولا مشى مَمْشًى ولا اضطجع مضطجعـا لم يذكر الله عز وجل فيـه إلا كان عليه تِرَةً (١) يوم القيامـة" أى حسرة؛ خرجه أبو داود بمعناه. وقال إبراهيم التيمى: من الحسرات يوم القيامة أن يرى الرجل ماله الذى أتاه الله فى الدنيـا يوم القيامة فى ميزان غيره، قد ورثه وعمل فيه بالحق، كان له أجره وعلى الآخر وزره، ومن الحسرات أن يرى الرجل عبده الذى خوّله الله إياه فى الدنيا أقرب منزلة من الله عز وجل، أو يرى رجلا يعرفه أعمى فى الدنيا قد أبصر يوم القيامة وعمى هو. ﴿وَإِنْ كُنتَ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أى وما كنت إلا من المستهزئين بالقرآن وبالرسول فى الدنيا، بأولياء الله. قال قتادة: لم يكفه أن ضيع

(١) فسرها ابن الأثير فى النهاية بالنقص أو التبعة.

طاعة الله حتى سخر من أهلها . ومحل « إن كنت » النصب على الحال؛ كأنه قال : فرطت وأنا ساخر؛ أي فرطت في حال سخريتي . وقيل وما كنت إلا في سخرية ولعب و باطل؛ أي ما كان سعيي إلا في عبادة غير الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولَ ﴾ هذه النفس ﴿ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي ﴾ أي أرشدني إلى دينه ﴿ لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي الشرك والمعاصي . وهذا القول لو أن الله هداني لاهتديت قول صدق . وهو قريب من احتجاج المشركين فيما أخبر الرب جل وعز عنهم في قوله : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا » فهي كلمة حق أريد بها باطل ؛ كما قال علي رضي الله عنه لما قال قائل من الخوارج لا حكم إلا لله . ﴿ أَوْ تَقُولَ ﴾ يعني هذه النفس ﴿ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴾ أي رجعة . ﴿ فَأَكُونَ ﴾ نصب على جواب التمني، وإن شئت كان معطوفا على « كَرَّةً » لأن معناه أن أكر؛ كما قال الشاعر[1] :

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وتَقَرَّ عَيْنِي * أَحَبُّ إليَّ من لُبْسِ الشُّفُوفِ

وأنشد الفراء :

فمالَكَ منها غيرُ ذِكْرَى وخَشْيَةٍ * وتَسْأَلَ عن رُكْبَانِها أَيْنَ يَمَّمُوا

فنصب و (تسأل) على موضع الذكرى؛ لأن معنى الكلام فمالك منها إلا أن تذكر . ومنه للبس عباءة وتقر ؛ أي لأن ألبس عباءة وتقر . وقال أبو صالح : كان رجل عالم في بني إسرائيل وجد رقعة؛ إن العبد ليعمل الزمان الطويل بطاعة الله فيختم له عمله بعمل أهل النار فيدخل النار ، و إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بمعصية الله ثم يختم له عمله بعمل رجل من أهل الجنة فيدخل الجنة؛ فقال : ولأي شيء أتعب نفسي فترك عمله وأخذ في الفسوق والمعصية، وقال له إبليس : لك عمر طويل فتمتع في الدنيا ثم تتوب ، فأخذ في الفسوق وأنفق ماله في الفجور، فأتاه ملك الموت في ألذ ما كان ، فقال : يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله؛ ذهب عمري في طاعة الشيطان، فندم حين لا ينفعه الندم؛ فأنزل الله خبره في القرآن . وقال

(١) قائله ميسون بنت بحدل الكلبية .

قتادة : هؤلاء أصناف ؛ صنف منهم قال : « يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنْبِ اللهِ » .
وصنف منهم قال : « لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » . وقال آخر : « لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » فقال الله تعالى ردًا لكلامهم ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي ﴾ قال الزجاج : «بلى» جواب النفي وليس فى الكلام لفظ النفي، ولكن معنى «لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي» ماهداني، وكأن هذا القائل قال ما هديت؛ فقيل : بلى قد بين لك طريق الهدى فكنت بحيث لو أردت أن تؤمن أمكنك أن تؤمن. «آيَاتِي» أى القرآن . وقيل : عنى بالآيات المعجزات؛أى وضع الدليل فأنكرته وكذبته . ﴿ وَاسْتَكْبَرْتَ ﴾ أى تكبرت عن الإيمان ﴿ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ . وقال : « استكبرت وكنت » وهو خطاب الذكر ؛ لأن النفس تقع على الذكر والأنثى . يقال : ثلاثة أنفس . وقال المبرد : تقول العرب نفس واحد أى إنسان واحد. وروى الربيع ابن أنس عن أم سَلَمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ «قَدْ جَاءَتْكِ آيَاتِي فَكَذَّبْتِ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتِ وَكُنْتِ مِنَ الْكَافِرِينَ» . وقرأ الأعمش «بَلَى قَدْ جَاءَتْهُ آيَاتِي» وهذا يدل على التذكير. والربيع ابن أنس لم يلحق أم سَلَمة إلا أن القراءة جائزة؛ لأن النفس تقع للذكر والمؤنث . وقد أنكر هذه القراءة بعضهم وقال : يجب إذا كسر التاء أن تقول وكنتِ من الكوافر أو من الكافرات . قال النحاس : وهذا لا يلزم؛ ألا ترى أن قبله «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ» ثم قال : « وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ» ولم يقل من السواخر ولا من الساخرات . والتقدير فى العربية على كسر التاء «وَاسْتَكْبَرْتِ وَكُنْتِ» من الجمع الساخرين أو من الناس الساخرين أو من القوم الساخرين.

قوله تعالى : وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ﴾ أى مما أحاط بهـم من غضب الله ونقمته . وقال الأخفش : « ترى » غير عامل فى قـوله : « وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ » إنما هو آبتداء وخبر . الزمخشرى : جملة فى موضع الحال إن كان « تَرَى » من رؤية البصر، ومفعول ثانٍ إن كان من رؤية القلب . ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الكبر فقال عليه السلام : "سفهُ الحقّ وغَمْصُ النـاس" أى آحتقارهم . وقد مضى فى «البقرة» (١) وغيرها . وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم "يحشر المتكبرون يوم القيامة كالذرّ يلحقهم الصغار حتى يؤتى بهم إلى سجن جهنم".

قوله تعـالى : ﴿ وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ وقرئ « وَيُنْجِي » أى من الشرك والمعاصى . ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ على التوحيد قراءة العامة لأنها مصدر . وقرأ الكوفيون «بمفازاتهم» وهو جائز كما تقول بسعاداتهم . وعن النبي صلى الله عليه وسلم تفسير هذه الآية من حديث أبى هريرة، قال : "يحشر الله مع كل آمرئ عمله فيكون عمل المؤمن معه فى أحسن صورة وأطيب ريح فكلما كان رُعب أو خَوف قال له لا تُرَع فما أنت بالمراد به ولا أنت بالمعنىّ به فإذا كثر ذلك عليه قال فما أحسنك فمن أنت فيقول أما تعرفنى أنا عملك الصالح حملتنى على ثقلى فوالله لأحملنك ولأدفعنّ عنك فهى التى قال الله « وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَـوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »". ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ وقائم به . وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ واحدها مِقليد . وقيـل : مِقلاد وأكثر ما يستعمل فيه إقليد والمقاليد المفاتيح عن آبن عباس وغيره . وقال السدى : خزائن السموات والأرض . وقال غيره : خزائن السـموات المطر وخزائن الأرض النبـات . وفيـه لغة أخرى أقاليد وعليها يكون واحدها إقليد ، قال الجوهرى : والإقليد المفتاح ، والمِقلد مفتاح كالمِنجل ربما يقلد به الكلأ كما يقلد القتّ إذا جعل حِبالا ، أى يفتل والجمع المقاليد . وأقلد البحـرُ على خلق كثير أى غرّقهم كأنه أغلق عليهم . وخرج البيهقى عن آبن عمر أن عثمان بن

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

عفان رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى : « لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ماسألنى عنها أحد لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده أستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم هو الأول والآخر والظاهر والباطن يحيى ويميت بيده الخير وهو على كل شىء قدير" ذكره الثعلبى فى تفسيره، وزاد من قالها إذا أصبح أو أمسى عشر مرات أعطاه الله ست خصال: أولها يحرس من إبليس، والثانية يحضره آثنا عشر ألف ملك، والثالثة يعطى قنطارا من الأجر، والرابعة ترفع له درجة، والخامسة يزوجه الله من الحور العين، والسادسة يكون له من الأجر كن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وله أيضا من الأجر كن حج وآعتمر فقبلت حجته وعمرته، فإن مات من ليلته مات شهيدا . وروى الحارث عن علىّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير المقاليد فقال : "ياعلىّ لقد سألت عن عظيم المقاليد هو أن تقول عشرا إذا أصبحت وعشرا إذا أمسيت لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله وأستغفر الله ولا قوة إلا بالله الأول والآخر والظاهر والباطن له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شىء قدير" من قالها عشرا إذا أصبح، وعشرا إذا أمسى أعطاه الله خصالا ستا أولها يُحرسه من الشيطان وجنوده فلا يكون لهم عليه سلطان، والثانية يعطى قنطارا فى الجنة هو أثقل فى ميزانه من جبل أحد، والثالثة ترفع له درجة لاينالها إلا الأبرار، والرابعة يزوجه الله من الحور العين، والخامسة يشهده آثنا عشر ألف ملك يكتبونها له فى رَقٍّ منشور ويشهدون له بها يوم القيامة، والسادسة يكون له من الأجر كأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وكمن حج وآعتمر فقبل الله حجته وعمرته ، وإن مات من يومه أو ليلته أو شهره طبع بطابع الشهداء .

وقيل : المقاليد الطاعة يقال ألق إلى فلان بالمقاليد أى أطاعه فيما يأمره؛ فمعنى الآية له طاعة من فى السموات والأرض .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى بالقرآن والحجج والدلالات . ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ ﴾ وذلك حين دعوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام وقالوا هو دين آبائك . و « غَيْرَ » نصب بـ « أَعْبُدُ » على تقدير أعبد غير الله فيما تأمروني . ويجوز أن ينتصب بـ « تَأْمُرُونِّي » على حذف حرف الجر ؛ التقدير : أتأمروني بغير الله أن أعبده ، لأن أن مقدرة وأن والفعل مصدر ، وهي بدل من غير ؛ التقدير : أتأمروني بعبادة غير الله . وقرأ نافع « تَأْمُرُونِيَ » بنون واحدة مخففة وفتح الياء . وقرأ ابن عامر « تَأْمُرُونَنِي » بنونين مخففتين على الأصل . الباقون بنون واحدة مشددة على الإدغام ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنها وقعت في مصحف عثمان بنون واحدة . وقرأ نافع على حذف النون الثانية وإنما كانت المحذوفة الثانية ؛ لأن التكرير والتثقيل يقع بها ، وأيضا حذف الأولى لا يجوز ؛ لأنها دلالة الرفع . وقد مضى في « الأنعام »(1) بيانه عند قوله تعالى : « أَتُحَاجُّونِّي » . « أَعْبُدُ » أي أن أعبد فلما حذف « أن » رفع ؛ قاله الكسائي . ومنه قول الشاعر :

* أَلَا أَيُّهَذَا الزاجِرِي أَحْضُرُ الوَغَى(2) *

والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ « أَعْبُدَ » بالنصب .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ قيل : إن في الكلام تقديما وتأخيرا ؛ والتقدير : لقد أوحي إليك لئن أشركت وأوحي إلى الذين من قبلك كذلك . وقيل : هو على بابه ؛ قال مقاتل : أي أوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد والتوحيد محذوف . ثم قال : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ » يا محمد ﴿ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ وهو خطاب للنبي

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٩ طبعة أولى أو ثانية . (2) البيت من معلقة طرفة وتمامه :

* وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي *

صلى الله عليه وسلم خاصة . وقيل : الخطاب له والمراد أمته ؛ إذ قد علم الله أنه لا يشرك ولا يقع منه إشراك . والإحباط الإبطال والفساد؛ قال القشيرى : فمن آرتد لم تنفعه طاعاته السابقة ولكن إحباط الردة العمل مشروط بالوفاة على الكفر؛ ولهذا قال : « مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ » فالمطلق ها هنا محمول على المقيد؛ ولهذا قلنا من حج ثم آرتد ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادة الحج .

قلت : هذا مذهب الشافعى . وعند مالك تجب عليه الإعادة وقد مضى فى « البقرة »[1] بيان هذا مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ﴾ النحاس : فى كتابى عن أبى إسحق لفظ آسم الله عز وجل منصوب بـ « ـاعْبُدْ » قال : ولا آختلاف فى هذا بين البصريين والكوفيين . قال النحاس : وقال الفراء يكون منصوبا بإضمار فعل . وحكاه المهدوى عن الكسائى . فأما الفاء فقال الزجاج : إنها للمجازاة . وقال الأخفش : هى زائدة . وقال آبن عباس : «فاعْبُدْ» أى فوحد . وقال غيره: « بل الله» فأطع ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لنعمه بخلاف المشركين .

قوله تعالى : وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ قال المبرد : ما عظّموه حقّ عظمته من قولك فلان عظيم القدر . قال النحاس : والمعنى على هذا وما عظموه حق عظمته إذ عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها . ثم أخبر عن قدرته وعظمته فقال : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ . ثم نزه نفسه عن أن يكون ذلك بجارحة

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٨ طبعة أولى أو ثانية .

فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . وفى الترمذى عن عبدالله قال : جاء يهودى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد إن الله يمسك السموات على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول أنا الملك . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال : « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » . قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى البخارى ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض". وفى الترمذى عن عائشة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » قالت : قلت فأين الناس يومئذ يارسول الله ؟ قال : "على جسر جهنم" فى رواية " على الصراط يا عائشة " قال : حديث حسن صحيح . وقوله : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ» " و يقبض الله الأرض " عبارة عن قدرته و إحاطته بجميع مخلوقاته ؛ يقال ما فلان إلا فى قبضتى ، بمعنى ما فلان إلا فى قدرتى ، والناس يقولون الأشياء فى قبضته يريدون فى ملكه وقدرته . وقد يكون معنى القبض والطى إفناء الشيء و إذهابه فقوله جل وعز : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ » يحتمل أن يكون المراد به والأرض جميعا ذاهبة فانيــة يوم القيامة ، والمراد بالأرض الأرضون السبع ؛ يشهد لذلك شاهدان قوله : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا » ولأن الموضع موضع تفخيم وهو مقتض للمبالغة . وقوله : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » ليس يريد به طيا بعلاج وانتصاب ، و إنما المراد بذلك الفناء والذهاب ؛ يقال : قد انطوى عنا ما كنا فيه وجاءنا غيره . وانطوى عنا دهر بمعنى المضى والذهاب . واليمين فى كلام العرب قد تكون بمعنى القدرة والملك ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » يريد به الملك ؛ وقال : « لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ » أى بالقوة والقدرة أى لأخذنا قوته وقدرته . قال الفراء والمبرد : اليمين القوة والقدرة ، وأنشدا :

إذا ما راية رفعت لمجد * تلقاها عرابة باليمين[1]

(١) قائله الحطيئة . وقيل هو للشماخ .

وقال آخـــر

وَلَمَّا رَأَيْتُ الشَّمْسَ أَشْرَق نورُها * تَنَاولتُ مِنْهَا حاجتي بِيَمِينِ(١)

قَتلتُ شُنَيْفا ثم فارانَ بَعدهُ * وكانَ على الآيات غَيرَ أمينِ

وإنما خص يوم القيامة بالذكر وإن كانت قدرته شاملة لكل شيء أيضا ؛ لأن الدعاوى تنقطع ذلك اليوم، كما قال : « وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » وقال : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » حسب ما تقدم فى « الفاتحة(٢) » ولذلك قال فى الحديث : "ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض" وقد زدنا هذا الباب فى «التذكرة» بيانا ، وتكلمنا على ذكر الشمال فى حديث ابن عمر؛ قوله : "ثم يطوى الأرض بشماله" .

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ بين ما يكون بعد قبض الأرض وطى السماء وهو النفخ فى الصور، وإنما هما نفختان؛ يموت الخلق فى الأولى منهما ويحيون فى الثانية . وقد مضى الكلام فى هذا فى «النمل(٣)» و «الأنعام(٤)» أيضا . والذى ينفخ فى الصور هو إسرافيل عليه السلام . وقد قيل : إنه يكون معه جبريل لحديث أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن صاحبي الصور بأيديهما — أو فى أيديهما — قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران" خرجه ابن ماجه فى السنن . وفى كتاب أبى داود عن أبى سعيد الخدرى قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الصور، وقال : "عن يمينه جبرائيل وعن يساره ميكائيل" . واختلف فى المستثنى من هم؟ فقيل : هم الشهداء متقلدين أسيافهم حول العرش . روى مرفوعا من حديث أبى هريرة فيما ذكر القشيرى، ومن حديث عبد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبى . وقيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام . وروى من حديث أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ

---

(١) كذا فى الأصول ولم نعثر على هذين البيتين فيما لدينا من المراجع . (٢) راجع جـ ١ ص ١٤٢ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٧ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ » فقالوا : يا نبىّ الله من هم الذين ٱستثنى الله تعالى ؟ قال : " هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت فيقول الله لملك الموت يا ملك الموت من بقى من خلقى وهو أعلم فيقول يا ربّ بقى جبريل وميكائيل و إسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت فيقول الله تعالى خذ نفس إسرافيل وميكائيل فيخران ميتين كالطودين العظيمين فيقول مت يا ملك الموت فيموت فيقول الله تعالى لجبريل يا جبريل من بقى فيقول تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام وجهك الباقى الدائم وجبريل الميت الفانى فيقول الله تعالى يا جبريل لا بدّ من موتك فيقع ساجدا يخفق بجناحيه يقول سبحانك ربى تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام " فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن فضل خلقه على خلق ميكائيل كالطّود العظيم على الظَّرِب[1] من الظِّراب " ذكره الثعلبى . وذكره النحاس أيضا من حديث محمد بن إسحق، عن يزيد الرقاشى، عن أنس بن مالك، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله جل وعز : « فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ ». قال : "جبريل وميكائيل وحملة العرش وملك الموت و إسرافيل" وفى هذا الحديث : "إن آخرهم موتا جبريل عليه وعليهم السلام" وحديث أبى هريرة فى الشهداء أصح على ماتقدّم فى « النمل »[2] . وقال الضحاك : هو رضوان والحور ومالك والزّبانية . وقيل : عقارب أهل النار وحياتها . وقال الحسن : هو الله الواحد القهار وما يدع أحدا من أهل السماء والأرض إلا أذاقه الموت . وقال قتادة : الله أعلم بثنياه . وقيل : الٱستثناء فى قوله : « إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ » يرجع إلى من مات قبل النفخة الأولى ؛ أى فيموت من فى السموات والأرض إلا من سبق موته ؛ لأنهم كانوا قد ماتوا . وفى الصحيحين وٱبن ماجه واللفظ له عن أبى هريرة قال قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذى ٱصطفى موسى على البشر ؛ فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه ؛ قال : تقول هذا وفينا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الظرب ككتف الجبل الصغير والجمع ظراب . وقد يجمع فى القلة على أظرب .

(٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٤١ طبعة أولى أو ثانية .

فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " قال الله عز وجل « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ » فأكون أوّل من رفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أرفع رأسه قبلى أو كان ممن آستثنى الله ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب " وخرجه الترمذى أيضا وقال فيه : حديث حسن صحيح . قال القشيرى : ومن حمل الآستثناء على موسى والشهداء فهؤلاء قد ماتوا غير أنهم أحياء عند الله . فيجوز أن تكون الصعقة بزوال العقل دون زوال الحياة ، ويجوز أن تكون بالموت ، ولا يبعد أن تكون الموت والحياة فكل ذلك مما يجوّزه العقل ، والأمر فى وقوعه موقوف على خبر صدق .

قلت : جاء فى بعض طرق أبى هريرة أنه عليه السلام قال : " لا تخيرونى على موسى فإن الناس يصعقون فأكون أوّل من يفيق فإذا موسى باطش[1] بجانب العرش فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى أم كان ممن آستثنى الله " خرجه مسلم . ونحوه عن أبى سعيد الخدرى ؛ والإفاقة إنما تكون عن غشية و زوال عقل لا عن موت برد الحياة . والله أعلم .

قوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ » أى فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء بعثوا من قبورهم ، وأعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم ، فقاموا ينظرون ماذا يؤمرون . وقيل : قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذى وعدوا به . وقيل : هذا النظر بمعنى الانتظار ؛ أى ينتظرون ما يفعل بهم . وأجاز الكسائى قياما بالنصب ؛ كما تقول : خرجت فإذا زيد جالسا

قوله تعالى : وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

(١) باطش بجانب العرش : أى متعلق به بقوّة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ إشراقها إضاءتها ؛ يقال : أشرقت الشمسُ إذا أضاءت وشَرَقت إذا طلعت . ومعنى « بِنُورِ رَبِّهَا » بعدل ربها ؛ قاله الحسن وغيره . وقال الضحاك : بحكم ربها ؛ والمعنى واحد ؛ أى أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده . والظلم ظلمات والعدل نور . وقيل : إن الله يخلق نورا يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به . وقال ابن عباس : النور المذكور هاهنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نور يخلقه الله فيضيء به الأرض . وروى أن الأرض يومئذ من فضة تشرق بنور الله تعالى حين يأتى لفصل القضاء . والمعنى أنها أشرقت بنورٍ خلقه الله تعالى، فأضاف النور إليه على حدّ إضافة الملك إلى المالك . وقيل : إنه اليوم الذى يقضى فيه بين خلقه ؛ لأنه نهار لا ليل معه . وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير « وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ » على مالم يسم فاعله وهى قراءة على التفسير . وقد ضل قوم هاهنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضياء المحسوس ، وهو متعال عن [مشابهة[1]] المحسوسات ، بل هو منوّر السموات والأرض ، فمنه كل نور خلقا وإنشاء . وقال أبو جعفر النحاس : وقوله عز وجل : « وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا » يبين هذا الحديثُ المرفوع من طرق كثيرة صحاح "تنظرون إلى الله عز وجل لا تضامّون فى رؤيته" وهو يروى على أربعة أوجه : لا تَضامُون ولا تضارُون ولا تضامُّون ولا تضارُّون؛ فمعنى "لا تضامُون" لا يلحقكم ضيم كما يلحقكم فى الدنيا فى النظر إلى الملوك . و "لا تضارُون" لا يلحقكم ضير . و "لا تضامُّون" لا ينضم بعضكم إلى بعض ليسأله أن يريه . و "لا تضارّون" لا يخالف بعضكم بعضا ؛ يقال : ضارّه مُضارّة وضرارا أى خالفه .

قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ قال ابن عباس : يريد اللوح المحفوظ . وقال قتادة : يريد الكتاب والصحف التى فيها أعمال بنى آدم، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله . ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ ﴾ أى جىء بهم فيسألهم عما أجابتهم به أممهم . ﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ الذين شهدوا على الأمم من أمة

(١) فى الأصول : مباينة المحسوسات وهو تحريف .

محمد صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » . وقيل : المراد بالشهداء الذين آستشهدوا في سبيل الله ، فيشهدون يوم القيامة لمن ذبّ عن دين الله ؛ قاله السدى . قال ابن زيد : هم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم . قال الله تعالى : « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » فالسائق يسوقها إلى الحساب والشهيد يشهد عليها ، وهو الملك الموكل بالإنسان على ما يأتى بيانه فى « قاف »[١] . ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق والعدل . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ قال سعيد بن جبير : لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم . ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ من خير أو شر . ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ فى الدنيا ولا حاجة به عز وجل إلى كتاب ولا إلى شاهد ، ومع ذلك فتشهد الكتب إلزاما للحجة .

قوله تعالى : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ هذا بيان توفية كل نفس عملها ، فيساق الكافر إلى النار والمؤمن إلى الجنة . والزُّمَر الجماعات واحدتها زُمْرة كظُلْمة وغُرْفة . وقال الأخفش وأبو عبيدة : « زُمَرًا » جماعات متفرقة بعضها إثر بعض . قال الشاعر :

وتَرى النّاسَ إلى مَنْزِلِهِ * زُمَرًا تَنْتَابُه بعْدَ زُمَرْ

وقال آخر :

حتّى احْزَأَلَّتْ * زُمَرٌ بعد زُمَرْ

(١) آية ٢١ من السورة المذكورة .

وقيل : دفعا وزجرا بصوت كصوت المزمار . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ جواب إذا، وهى سبعة أبواب . وقد مضى فى « الحجر »(1) . ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ واحدهم خازن نحو سَدَنة وسادن، يقولون لهم تقريعا وتوبيخا . ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ أى الكتب المنزلة على الأنبياء . ﴿ وَيُنْذِرُونَكُمْ ﴾ أى يخوفونكم ﴿ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أى قد جاءتنا، وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ وهى قوله تعالى : «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» . ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أى يقال لهم ادخلوا جهنم . وقد مضى الكلام فى أبوابها . قال وهب : تستقبلهم الزبانية بمقامع من نار فيدفعونهم بمقامعهم، فإنه ليقع فى الدفعة الواحدة إلى النار بعدد ربيعة ومضر . ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾(2) تقدم بيانه .

قوله تعالى : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ يعنى من الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم، ممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته . وقال فى حق الفريقين «وَسِيقَ» بلفظ واحد، فسوق أهل النار طردهم إليها بالخزى والهوان، كما يفعل بالأسارى والخارجين

١) راجع جـ ١٠ ص ٣٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية

٢) راجع جـ ١٠ ص ١٠٠ طبعة أولى أو ثانية .

على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامه والرضوان؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السوقين . ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ قيل : الواو هنا للعطف عطف على جملة والجواب محذوف . قال المبرد : أى سعدوا وفتحت، وحذف الجواب بليغ فى كلام العرب . وأنشد[1] :

فلو أنها نفس تموت جميعة * ولكنها نفس تساقط أنفسا

فحذف جواب لو والتقدير لكان أروح . وقال الزجاج : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا » دخلوها وهو قريب من الأول . وقيل : الواو زائدة . قاله الكوفيون وهو خطأ عند البصريين . وقد قيل : إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله تعالى ، والتقدير حتى إذا جاءوها وأبوابها مفتحة، بدليل قوله : « جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ » وحذف الواو فى قصة أهل النار؛ لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالا وترويعا لهم . ذكره المهدوى وحكى معناه النحاس قبله . قال النحاس : فأما الحكمة فى إثبات الواو فى الثانى وحذفها من الأول، فقد تكلم فيه بعض أهل العلم بقول لا أعلم أنه سبقه إليه أحد، وهو أنه لما قال الله عز وجل فى أهل النار : «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» دل بهذا على أنها كانت مغلقة ولما قال فى أهل الجنة « حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » دل بهذا على أنها كانت مفتحة قبل أن يجيئوها، والله أعلم . وقيل : إنها واو الثمانية وذلك من عادة قريش أنهم يعدون من الواحد فيقولون خمسة ستة سبعة وثمانية فإذا بلغوا السبعة قالوا وثمانية . قاله أبو بكر بن عيّاش . قال الله تعالى : « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ » وقال : «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ» ثم قال فى الثامن « وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ » وقال : «وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ» وقال « ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا » وقد مضى القول فى هذا فى « براءة »[2] مستوفى وفى « الكهف »[3] أيضا .

---

(١) البيت لامرئ القيس . «وتموت جميعة» بمعنى أنه مريض فنفسه لا تخرج بمرة، ولكنها تموت شيئا بعد شيء، وهو معنى تساقط أنفسا . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٧١ طبعة أولى أو ثانية . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قلت : وقد ٱستدل بهــذا من قال إن أبواب الجنة ثمـانية ؛ وذكروا حديث عمر بن الخطاب ، قال قال رســول الله صلى الله عليه وسـلم : " ما منكم من أحد يتوضــأ فيُبْلِغ – أو فيُسْبِغ الوضوء[(١)] ـــ ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمـانية يدخل من أيها شاء " خرجه مسلم وغيره . وقد خرج الترمذى حديث عمر هــذا وقال فيه : " فتح له من أبواب الجنة ثمـانية أبواب يوم القيامة " بزيادة مِن ، وهو يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية. وقد ذكرنا ذلك فى كتاب «التذكرة» وٱنتهى عددها إلى ثلاثة عشر بابا ، وذكرنا هناك عظم أبوابها وسعتها حسب ما ورد فى الحديث من ذلك ، فمن أراده وقف عليه هناك . ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ قيل : الواو ملغاة تقديره حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها «قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا» . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ أى فى الدنيا . قال مجاهد : بطاعة الله . وقيــل : بالعمل الصالح . حكاه النقاش والمعنى واحد . وقال مقــاتل : إذا قطعوا جسر جهنم حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيُقَصّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا وطُيِّبوا قال لهم رضوان وأصحابه : « سَلَامٌ عَلَيْــكُمْ » بمعنى التحية ﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ .

قلت : خرج البخارى حديث القنطرة هــذا فى جامعه عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يَخْلُص المؤمنون من النــار فيُحبَسون على قنطرة بين الجنة والنار فيُقَصّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم فى الدنيــا حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا". وحكى النقاش : إن على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عينان يشرب المؤمنون من إحداهما فتطهر أجوافهم وذلك قوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً » ثم يغتسلون من الأخرى فتطيب أبشارهم فعندها يقول لهم خزنتها : «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ» وهذا يروى معناه عن علىّ رضى الله عنه . ﴿ وَقَالُوا الْحَمْــدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أى إذا دخلوا الجنة

(١) يبلغ الوضوء : يوصل الوضوء إلى مواضعه ؛ فالوضوء فيه مفتوح الواو . ومعنى يسبغ الوضوء يكمله على الوجه المسنون ؛ فالوضوء فيه مضموم الواو . (هامش مسلم) .

قالوا هــذا . ﴿ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ ﴾ أى أرض الجنة . قيل : إنهم ورثوا الأرض التى كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين؛ قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدى وأكثر المفسرين. وقيل : إنهــا أرض الدنيا على التقديم والتأخير . قوله تعــالى : ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ قيل : هو من قولهم أى نعم الثواب هذا . وقيل : هو من قول الله تعالى ؛ أى نعم ثواب المحسنين هذا الذى أعطيتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ ﴾ يا محمد ﴿ حَافِّينَ ﴾ . أى محدقين ﴿ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ فى ذلك اليوم ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ متلذذين بذلك لا متعبدين به ؛ أى يصلّون حول العرش شكرا لربهم . والحافّون أخذ من حافات الشيء ونواحيه . قال الأخفش : واحدهم حاف . وقال الفرّاء : لا واحد له إذ لا يقع لهم الاسم إلا مجتمعين . ودخلت « مِن » على « حول » لأنه ظرف والفعل يتعدّى إلى الظروف بحرف وبغير حرف . وقال الأخفش : « مِن » زائدة أى حافين حول العرش . وهو كقولك : ما جاءنى من أحد؛ فمن توكيد . الثعلبى : والعرب تدخل الباء أحيانا فى التسبيح وتحذفها أحيانا، فيقولون : سبح بحمد ربك وسبح حمــدا لله؛ قال الله تعالى : « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » وقال : « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » . ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ بين أهل الجنــة والنار . وقيل : قضى بين النبيين الذين يجيء بهم مع الشهداء وبين أممهم بالحق والعدل . ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى يقول المؤمنون الحمد لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونصرنا على من ظلمنا . وقال قتادة فى هذه الآية : آفتتح الله أوّل الخلق بالحمد لله، فقال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » . وختم بالحمد فقال : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فلزم الاقتداء به ؛ والأخذ فى آبتداء كل أمر بحمده وخاتمته بحمده . وقيل : إن قول « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » من قول الملائكة ، فعلى هذا يكون حمدهم لله تعالى على عدله وقضائه . وروى من حديث آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر آخر سورة « الزمر » فتحرك المنبر مرتين .

تم تفسير ســـورة « الزمر »

تفسير سورة غافر، وهي سورة المؤمن، وتسمى سورة الطول

وهي مكية في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر . وعن الحسن إلا قوله : «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» لأن الصلوات نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة وهما « إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ » والتي بعدها . وهي خمس وثمانون آية . وقيل ثنتان وثمانون آية .

وفي مسند الدارمي قال : حدّثنا جعفر بن عون عن مِسْعر عن سعد بن إبراهيم قال : كن الحواميم يسمين العرائس . وروى من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الحواميم ديباج القرآن " وروى عن ابن مسعود مثله . وقال الجوهري وأبو عبيدة : وآل حم سور في القرآن . قال ابن مسعود آل حم ديباج القرآن . قال الفراء : إنما هو كقولك آل فلان وآل فلان كأنه نسب السورة كلها إلى حم ؛ قال الكُمَيْت :

وَجَدْنا لكم في آلِ حَاميمَ آيةً * تأوَّلَهَا مِنَّا تَـقِيٌّ ومُعْرِبُ (١)

قال أبو عبيد : هكذا رواها الأموي بالزاي وكان أبو عمرو يرويها بالراء . فأما قول العامة الحواميم فليس من كلام العرب . وقال أبو عبيدة : الحواميم سور في القرآن على غير قياس ؛ وأنشد :

* و بالحواميم التي قـد سُبِّعَتْ (٢) *

قال : والأولى أن تجمع بذوات حم . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لكل شيء ثمرة وإن ثمرة القرآن ذوات حم هن روضات حسان مخصبات متجاورات فمن أحبّ أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم " . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " مثل الحواميم في القرآن كمثل الحبرات في الثياب " ذكرهما الثعلبي . وقال أبو عبيد : وحدثني حجاج بن محمد عن أبي معشر عن محمد بن قيس قال : رأى رجل سبع جوارٍ حسان مزينات في النوم فقال لمن أنتن بارك الله فيكن . فقالت نحن لمن قرأنا نحن الحواميم .

(١) الآية التي ذكرها هي قوله تعالى : «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى» . يقول الشاعر : من تأول هذه الآية لم يسعه إلا التشيع لآل النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم ، وإبداء المودة . وتقي : ساكت عنه للتقية . ومعرب : كمتكلم أي مبين لما في نفسه . ويروى : تقي معرب .

(٢) صدره : * وبالطواسين التي قد ثلثت . *

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٤﴾

قوله تعالى : (حمٓ) آختلف فى معناه؛ فقال عكرمة قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حمٓ » آسم من أسماء الله تعالى وهى مفاتيح خزائن ربك " وقال آبن عباس : « حمٓ » آسم الله الأعظم . وعنه : « الٓر » و « حمٓ » و « نٓ » حروف الرحمن مقطعة . وعنه أيضا : آسم من أسماء الله تعالى أقسم به . وقال قتادة : إنه آسم من أسماء القرآن . مجاهد : فواتح السور . وقال عطاء الخراسانى : الحاء آفتتاح آسمه حميدٌ وحنّانٌ وحليمٌ وحكيمٌ ، والميم آفتتاح آسمه ملك ومجيدٌ ومنّانٌ ومتكبّرٌ ومصوّرٌ ؛ يدل عليه ما روى أنس أن أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما « حم » فإنا لا نعرفها فى لساننا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " بدء أسماء وفواتح سور " . وقال الضحاك والكسائى : معناه قُضِي ما هو كائن . كأنه أراد الإشارة إلى تهجى « حمٓ » ؛ لأنها تصير حُمَّ بضم الحاء وتشديد الميم ؛ أى قُضِى ووَقَع . قال كعب بن مالك :

فلمّا تلاقَيْنا ودارتْ بِنا الرَّحَى * ولَيْسَ لِأَمْرٍ حَمَّه الله مَدْفَعُ

وعنه أيضا : إن المعنى حُمَّ أمر الله أىْ قَرُب؛ كما قال الشاعر :

قد حُمَّ يومِى فسُرَّ قومٌ * قومٌ بهم غَفْلَةٌ ونَوْمٌ

ومنه سميت الحُمَّى ؛ لأنها تقرّب من المنيّة . والمعنى المراد قَرُب نصره لأوليائه ، وآنتقامه من أعدائه كيوم بدر . وقيل : حروف هجاء ؛ قال الجرمى : ولهذا تقرأ ساكنة الحروف

نخرجت مخرج التهجى، وإذا سميت سورة بشيء من هذه الحروف أعربت؛ فتقول: قرأت «حمَ» فتنصب؛ قال الشاعر(١):

يُذَكّرنى حاميمَ والرُّمحُ شاجِرٌ * فهلّا تلا حاميمَ قَبْلَ التَّقدُّمِ

وقرأ عيسى بن عمر الثقفى: «حمَ» بفتح الميم على معنى آقرأ حم أو لالتقاء الساكنين. آبن أبى إسحق وأبو السَّمّال بكسرها. والإمالة والكسر لالتقاء الساكنين، أو على وجه القسم. وقرأ أبو جعفر بقطع الحاء من الميم. الباقون بالوصل. وكذلك فى «حمَ. عسق». وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائى وخلف وآبن ذكوان بالإمالة فى الحاء. وروى عن أبى عمرو بين اللفظين وهى قراءة نافع وأبى جعفر وشيبة. الباقون بالفتح مشبعا.

قوله تعالى: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ آبتداء والخبر ﴿ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾. ويجوز أن يكون «تَنْزِيلُ» خبرا لمبتدإ محذوف؛ أى هذا «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ». ويجوز أن يكون «حمَ» مبتدأ و «تَنْزِيلُ» خبره والمعنى: إن القرآن أنزله الله وليس منقولا ولا مما يجوز أن يكذّب به.

قوله تعالى: ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ قال الفراء: جعلها كالنعت للمعرفة وهى نكرة. وقال الزجاج: هى خفض على البدل. النحاس: وتحقيق الكلام فى هذا وتلخيصه أن «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ» يجوز أن يكونا معرفتين على أنهما لما مضى فيكونا نعتين، ويجوز أن يكونا للمستقبل والحال فيكونا نكرتين ولا يجوز أن يكونا نعتين على هذا ولكن يكون خفضهما على البدل، ويجوز النصب على الحال، فأما «شَدِيدِ الْعِقَابِ» فهو نكرة ويكون خفضه على البدل. قال آبن عباس: «غَافِرِ الذَّنْبِ» لمن قال «لا إله إلا الله» «وَقَابِلِ التَّوْبِ» ممن قال «لا إله إلا الله» «شَدِيدِ الْعِقَابِ» لمن لم يقل «لا إله إلا الله». وقال ثابت البُنَانى: كنت إلى سرادق مُصْعَب بن الزبير فى مكان لا تمر فيه الدواب، قال: فآستفتحت «حمَ. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» فمر علىّ رجل على دابة فلما قلت «غَافِرِ الذَّنْبِ» قال: قل يا غافر الذنب آغفر لى ذنبى، فلما قلت «قَابِلِ التَّوْبِ» قال:

(١) قائله شريح بن أوفى العبسى. وقيل هو للأشتر النخعى.

قل يا قابل التوب تقبل توبتى، فلما قلت «شَدِيدِ الْعِقَابِ» قال : قل يا شديد العقاب آعف عنى ، فلمــا قلت « ذِى الطَّوْلِ » قال : قل ياذا الطول طُلْ علىّ بخير، فقمت إليــه فأُخذَ ببصرى ، فآلتفت يمينا وشمالا فلم أر شـيئا . وقال أهل الإشارة : « غَافِرِ الذَّنْبِ » فضلا « وقَابِلِ التَّوْبِ » وعدا « شَدِيدِ الْعِقَابِ » عدلا « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» فردا . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه آفتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام، فقيل له : تتابع فى هذا الشراب ؛ فقال عمر لكاتبه : آكتب؛ من عمر إلى فلان ، سلام عليك ، وأنا أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . حـمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» ثم ختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا ، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة ، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها و يقول : قـد وعدنى الله أن يغفر لى، وحذّرنى عقابه، فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته . فلما بلغ عمر أمرُه قال : هكذا فآصنعوا إذا رأيتم أحدكم زلّ زلّة فسدّدوه وآدعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشياطين عليه . و « التَّوْب » يجوز أن يكون مصدر تاب يتوب توبا ، ويحتمل أن يكون جمع توبة نحو دَوْمَة ودَوْم وعَزْمة وعَزْم ؛ ومنه قوله[1] :

* فيَخْبُو ساعةً ويَهُبُّ ساعا *

ويجوز أن يكون التوب بمعنى التوبة؛ قال أبو العباس : والذى يسبق إلى قلبى أن يكون مصدرا؛ أى يقبل هـذا الفعل، كما تقول قال قولا ، وإذا كان جمعا فمعناه يقبل التوبات . ﴿ ذِى الطَّوْلِ ﴾ على البدل وعلى النعت ؛ لأنه معرفة . وأصل الطول الإنعام والتفضل يقال منه : اللهم طُلْ علينا أى أنعم وتفضل . قال آبن عباس : « ذِى الطَّوْلِ » ذى النعم . وقال مجاهد : ذى الغنى والسعة؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا » أى غنى وسعة . وعن آبن عباس أيضا : « ذِى الطَّوْلِ » ذى الغنى عمن لا يقول لا إله إلا الله . وقال عكرمة :

---

(١) قائله القطامى وصدره : * وكنا كالحريق أصاب غابا *

« ذِى الطَّوْلِ » ذى المنّ؛ قال الجوهرى : والطَّوْل بالفتح المنّ ، يقال منه طال عليه وتطوّل عليه إذا آمتن عليه . وقال محمد بن كعب : « ذِى الطَّوْلِ » ذى التفضل؛ قال المـاوردى : والفرق بين المنّ والتفضل أن المنّ عفو عن ذنب ، والتفضل إحسان غير مستحق . والطَّوْل مأخوذ من الطُّول كأنه طال بإنعامه على غيره . وقيل : لأنه طالت مدة إنعامه . ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى المرجع .

قوله تعـالى : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِى آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ سجل سبحانه على المجـادلين فى آيات الله بالكفر ، والمراد الجـدال بالبـاطل، من الطعن فيهـا ، والقصد إلى إدحاض الحـق ، وإطفـاء نور الله تعـالى . وقـد دل على ذلك فى قوله تعـالى : « وَجَادَلُوا بِالْبَـاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَـقَّ » . فأما الجدال فيهـا لإيضاح ملتبسهـا ، وحلّ مشكلها ، ومقادحة أهـل العلم فى آستنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد فى سبيل الله . وقد مضى هـذا المعنى فى « البقرة » عند قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ »[1] مسـتوفى . ﴿ فَلَا يَغْـرُرْكَ ﴾ وقرئ « فَلَا يَغُـرَّكَ » ﴿ تَقَلُّبُهُمْ ﴾ أى تصرفهم ﴿ فِى الْبِلَادِ ﴾ فإنى وإن أمهلتهم لا أهملهم بل أعاقبهم . قال آبن عباس : يريد تجارتهم من مكة إلى الشام وإلى اليمن . وقيل : « لَا يَغْرُرْكَ » ماهم فيه من الخـير والسعة فى الرزق فإنه متاع قليل فى الدنيا . وقال الزجاج : « لَا يَغْرُرْكَ » سلامتهم بعد كفرهم فإن عاقبتهم الهلاك . وقال أبو العالية : آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون فى القرآن، قوله : « مَا يُجَادِلُ فِى آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » وقوله : « وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِى الْكِتَابِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ » .

قوله تعـالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٨٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ
شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ
ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ على تأنيث الجماعة أى كذبت الرسل . ﴿ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ أى والأمم الذين تحزّبوا على أنبيائهم بالتكذيب نحو عاد وثمود فمن بعدهم . ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أى ليحبسوه ويعذّبوه . وقال قتادة والسدى : ليقتلوه . والأخذ يرد بمعنى الإهلاك ؛ كقوله : « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » . والعرب تسمى الأسير الأخيذ ؛ لأنه مأسور للقتل ؛ وأنشد قُطْرُب قول الشاعر :

فإمّا تأخُذوني تَقْتلوني * فكَمْ مِنْ آخِذٍ يَهْوَى خُلودِى (١)

وفى وقت أخذهم لرسولهم قولان : أحدهما عند دعائه لهم . الثانى عند نزول العذاب بهم . ﴿ وَجَٰدَلُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ أى ليزيلوا ومنه مكان دَحْض أى مَزْلَقة ، والباطل داحض؛ لأنه يزلق و يزل فلا يستقر . قال يحيى بن سلّام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان . ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أى بالعذاب . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أى عاقبة الأمم المكذبة ؛ أى أليس وجدوه حقا .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ ﴾ أى وجبت ولزمت؛ مأخوذ من الحق لأنه اللازم . ﴿ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ هذه قراءة العامة على التوحيد . وقرأ نافع وابن عامر « كَلِمَاتُ » جمعا .

(١) فى تفسير السمين : * وكم من واحد يهوى خلودى *

﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ﴾ قال الأخفش : أى لأنهم و بأنهم . قال الزجاج : ويجوز إنهم بكسر الهمزة . ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى المعذَّبون بها وتم الكلام . ثم آبتدأ فقال : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويروى : أن حملة العرش أرجلهم فى الأرض السفلى ورءوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم، وهم أشراف الملائكة وأفضلهم . ففى الحديث : " إن الله تبارك وتعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا و يروحوا بالسلام على حَمَلة العرش تفضيلا لهم على سائر الملائكة " . ويقال : خلق الله العرش من جوهرة خضراء، و بين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام . وقيل : حول العرش سبعون ألف صفّ من الملائكة يطوفون به مهلّلين مكبّرين، ومن ورائهم سبعون ألف صفّ قيام، قد وضعوا أيديهم على عواتقهم، ورافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صفّ، قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحد إلا وهو يسبّح بما لا يسبّح به الآخر . وقرأ آبن عباس : « الْعُرْشَ » بضم العين؛ ذكر جميعه الزمخشرى رحمه الله . وقيل : آتصل هذا بذكر الكفار؛ لأن المعنى — والله أعلم — «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ» ينزهون الله عز وجل عما يقوله الكفار «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» أى يسألون لهم المغفرة من الله تعالى . وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم مُجَسَّم خلقه الله عز وجل، وأمر ملائكة بحمله، وتعبّدهم بتعظيمه والطواف به، كما خلق فى الأرض بيتا وأمر بنى آدم بالطواف به وآستقباله فى الصلاة . و روى آبن طَهْمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله الأنصارى، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " ذكره البيهقى وقد مضى فى « البقرة »[1] فى آية الكرسى عظم العرش وأنه أعظم المخلوقات . وروى ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن كعب الأحبار أنه قال : لما خلق الله تعالى العرش قال : لن يخلق الله خلقا أعظم منى؛ فآهتز فطوقه الله بحية، للحية

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٧٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

سبعون ألف جناح، فى الجناح سبعون ألف ريشة ، فى كل ريشة سبعون ألف وجه ، فى كل وجه سبعون ألف فم ، فى كل فم سبعون ألف لسان . يخرج من أفواهها فى كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر، وعدد ورق الشجر، وعدد الحصى والثرى، وعدد أيام الدنيا، وعدد الملائكة أجمعين ، فالتوت الحية بالعرش، فالعرش إلى نصف الحية وهى ملتوية به[1] .

وقال مجاهد: بين السماء السابعة و بين العرش سبعون ألف حجاب، حجاب نور وحجاب ظلمة، وحجاب نور وحجاب ظلمة . ﴿ رَبَّنَا ﴾ أى يقولون ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ أى وسعت رحمتك وعلمك كل شىء ، فلما نقل الفعل عن الرحمة والعلم نصب على التفسير . ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ أى من الشرك والمعاصى ﴿ وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ أى دين الإسلام . ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أى آصرفه عنهم حتى لا يصل إليهم . قال إبراهيم النخعى: كان أصحاب عبد الله يقولون الملائكة خير من آبن الكوّاء ؛ هم يستغفرون لمن فى الأرض وآبن الكوّاء يشهد عليهم بالكفر . قال إبراهيم : وكانوا يقولون لا يحجبون الآستغفار عن أحد من أهل القبلة . وقال مطرّف بن عبد الله : وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشيطان ، وتلا هذه الآية . وقال يحيى بن معاذ الرازى لأصحابه فى هذه الآية: آفهموها فما فى العالم جنة أرجى منها؛ إن ملكا واحدا لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم، كيف وجميع الملائكة وحملة العرش يستغفرون للؤمنين . وقال خلف بن هشام البزار القارئ : كنت أقرأ على سليم بن عيسى فلما بلغت « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » بكى ثم قال : يا خلف ! ما أكرم المؤمن على الله نائما على فراشه والملائكة يستغفرون له .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ يروى أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار : ما جنات عدن . قال : قصور من ذهب فى الجنة يدخلها النبيون والصديقون والشهداء وأئمة العدل . ﴿ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ « التى » فى محل نصب نعتا للجنات . ﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ « مَنْ » فى محل نصب عطفا على الهاء والميم فى قوله « وَأَدْخِلْهُمْ » . « وَمَنْ صَلَحَ » بالإيمان

---

(١) هذا الخبر وأشباهه من الإسرائيليات التى يحشرها أهل القصص وليس مما يصح .

﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ وقد مضى فى «الرعد»(١) نظير هذه الآية . قال سعيد بن جبير: يدخل الرجل الجنة، فيقول : يا رب أين أبى وجدّى وأمى؟ وأين ولدى وولد ولدى؟ وأين زوجاتى؟ فيقال : إنهم لم يعملوا كعملك؛ فيقول : يا رب كنت أعمل لى ولهم؛ فيقال أدخلوهم الجنة . ثم تلا : «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ» إلى قوله «وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ» . ويقرب من هذه الآية قوله : «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ» .

قوله تعالى : ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ قال قتادة : أى وقهم ما يسوءهم، وقيل : التقدير وقهم عذاب السيئات وهو أمرٌ(٢) من وقاه الله يقيه وقاية بالكسر؛ أى حفظه .﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أى بدخول الجنة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى النجاة الكبيرة .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال الأخفش : «لَمَقْتُ» هـذه لام الابتداء وقعت بعد «يُنَادَوْنَ» لأن معناه يقال لهم والنداء قول . وقال غيره : المعنى يقال لهم «لَمَقْتُ اللهِ» إياكم فى الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ «أَكْبَرُ» من مقت بعضكم بعضا يوم القيامة؛ لأن بعضهم عادى بعضا ومقته يوم القيامة، فأذعنوا عند ذلك، وخضعوا وطلبوا الخروج من النار . وقال الكلبى : يقول كل إنسان من أهل النار لنفسه مقتك يا نفس؛ فتقول الملائكة لهم وهم فى النار : لمقت الله

(١) راجع جـ ٩ ص ٣١٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) بل هو دعاء لأنه من الخلق إلى الخالق .

إياكم إذ أنتم فى الدنيا وقد بعثت إليكم الرسل فلم تؤمنوا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم . وقال الحسن : يعطون كتابهم فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم فينادون « لَمَقْتُ اللهِ » إياكم فى الدنيا « إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » « أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ » اليوم . وقال معناه مجاهد . وقال قتادة : المعنى « لَمَقْتُ اللهِ » لكم « إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » « أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ » إذ عاينتم النار . فإن قيل : كيف يصح أن يمقتوا أنفسهم؟ ففيه وجهان: أحدهما أنهم أحلوها بالذنوب محل الممقوت . الثانى أنهم لما صاروا إلى حال زال عنهم الهوى ، وعلموا أن نفوسهم هى التى أوبقتهم فى المعاصى مقتوها . وقال محمد بن كعب القرظى : إن أهل النار لما يئسوا مما عند الخزنة وقال لهم مالك « إِنَّكُم مَّاكِثُونَ » على ما يأتى قال بعضهم لبعض : يا هؤلاء ! إنه قد نزل بكم من العذاب والبلاء ما قد ترون ، فهلم فلنصبر فلعل الصبر ينفعنا ، كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا ، فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا فطال صبرهم ، ثم جزعوا فنادوا « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ » أى من ملجأ؛ فقال إبليس عند ذلك : « إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ » إلى قوله : « مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ » يقول: بمغنٍ عنكم شيئا «إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ» فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم . قال : فنودوا « لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » إلى قوله : « فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ » قال فردّ عليهم « ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » ذكره ابن المبارك .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ اختلف أهل التأويل فى معنى قولهم : « أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ » فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك : كانوا أمواتا فى أصلاب آبائهم ، ثم أحياهم ثم أماتهم الموتة التى لا بدّ منها فى الدنيا ، ثم أحياهم للبعث والقيامة ، فهاتان حياتان وموتتان ، وهو قوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ » . وقال السدى : أميتوا فى الدنيا ثم أحياهم فى القبور للمسئلة ، ثم أميتوا ثم أحيوا فى الآخرة . وإنما صار إلى هذا ؛ لأن لفظ الميت لا ينطلق فى العرف على

النطفة . واستدل العلماء من هـذا فى إثبات سؤال القبر ، ولو كان الثواب والعقاب للروح دون الجسد فما معنى الإحياء والإماتة ؟ والروح عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح لا تموت ولا تتغير ولا تفسد، وهو حىّ لنفسه لا يتطرق إليه موت ولا غشية ولا فناء. وقال ابن زيد فى قوله : « ربَّنا أمَتَّنا اثنتين » الآية قال : خلقهم فى ظهر آدم وأخرجهم وأحياهم وأخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم ثم أحياهم فى الدنيا ثم أماتهم . وقد مضى هذا فى «البقرة»[(١)] . ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ اعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف وندموا حيث لا ينفعهم الندم . ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أى هل نردّ إلى الدنيا لنعمل بطاعتك ؛ نظيره : «فَهَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ » وقوله : « فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا » وقوله : « يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ » الآية .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ «ذَٰلِكُمْ» فى موضع رفع أى الأمر «ذَٰلِكُمْ» أو «ذَٰلِكُمْ » العذاب الذى أنتم فيه بكفركم . وفى الكلام متروك تقديره فأجيبوا بأن لا سبيل إلى الرد . وذلك لأنكم «إِذَا دُعِيَ اللَّهُ» أى وُحِّد الله «وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ» وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة، وإن أشرك به مشرك صدقتموه وآمنتم بقوله . قال الثعلبي : وسمعت بعض العلماء يقول ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ﴾ بعد الرد إلى الدنيا لو كان ﴿تُؤْمِنُوا﴾ تصدّقوا المشرك؛ نظيره : «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ» . ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ عن أن تكون له صاحبة أو ولد .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٩ طبعة ثانية أو ثالثة.

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى دلائل توحيده وقدرته ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ جمع بين إظهار الآيات وإنزال الرزق ؛ لأن بالآيات قوام الأديان، وبالرزق قوام الأبدان . وهذه الايات هى السموات والأرضون وما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والبحار والأنهار والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هلكوا . ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أى ما يتعظ بهذه الآيات فيوحد الله ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أى يرجع إلى طاعة الله. ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ أى اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى العبادة . وقيل : الطاعة . ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ عبادة الله فلا تعبدوا أنتم غيره .

قوله تعالى : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ « ذُو الْعَرْشِ » على إضمار مبتدإ . قال الأخفش : ويجوز نصبه على المدح . ومعنى « رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ » أى رفيع الصفات . وقال ابن عباس والكلبي وسعيد بن جبير : رفيع السموات السبع . وقال يحيى بن سلّام : هو رفعة درجة أوليائه فى الجنة فـ « رَفِيعُ » على هذا بمعنى رافع فَعِيل بمعنى فاعل. وهو على القول الأول من صفات الذات، ومعناه الذى لا أرفع قدرا منه ، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء، وهى أصنافها وأبوابها لا مستحق لها غيره؛ قاله الحليمى . وقد ذكرناه فى « الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » والحمد لله . « ذُو الْعَرْشِ » أى خالقه ومالكه لا أنه محتاج إليه . وقيل : هو من قولهم ثُلّ عرشُ فلان أى زال ملكه وعزّه، فهو سبحانه « ذُو الْعَرْشِ » بمعنى ثبوت ملكه وسلطانه وقد بيناه فى «الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى» . ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ أى الوحى والنبوة « عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » وسمى ذلك رُوحا لأن الناس يحيون بها ؛ أى يحيون من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح . وقال ابن زيد : الرُّوح القرآن؛ قال الله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » . وقيل : الرُّوح جبريل؛ قال الله تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ » وقال : « قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ » . ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أى من قوله . وقيل : من قضائه . وقيل : « مِنْ » بمعنى الباء أى بأمره . ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء يشاء هو أن يكونوا أنبياء وليس لأحد فيهم مشيئة .

﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ أى إنما يبعث الرسول لإنذار يوم البعث . فقوله : « لِيُنذِرَ » يرجع إلى الرسولُ . وقيل : لينذر الله ببعثه الرسل إلى الخلائق « يَوْمَ التَّلَاقِ » . وقرأ ابن عباس والحسن وابن السَّمَيْقَع « لِتُنذِرَ » بالتاء خطابا للنبي عليه السلام . « يَوْمَ التَّلَاقِ » قال ابن عباس وقتادة : يوم تلتقي أهل السماء وأهل الأرض . وقال قتادة أيضا وأبو العالية ومقاتل : يلتقي فيه الخلق والخالق . وقيل : العابدون والمعبودون . وقيل : الظالم والمظلوم . وقيل : يلقى كل إنسان جزاء عمله . وقيل : يلتقي الأولون والآخرون على صعيد واحد ؛ روى معناه عن ابن عباس . وكله صحيح المعنى . ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ﴾ يكون بدلا من يوم الأول . وقيل : « هُمْ » فى موضع رفع بالابتداء و « بَارِزُونَ » خبره والجملة فى موضع خفض بالإضافة؛ فلذلك حذف التنوين من « يَوْمَ » وإنما يكون هذا عند سيبويه إذا كان الظرف بمعنى إذ ؛ تقول لقيتك يومَ زيدٌ أميرٌ . فإن كان بمعنى إذا لم يجز نحو أنا ألقاك يومَ زيدٌ أميرٌ . ومعنى « بَارِزُونَ » خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء ؛ لأن الأرض يومئذ قاع صفصف لا عوج فيها ولا أمتا على ما تقدم فى « طه »(١) بيانه . ﴿ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ قيل : إن هذا هو العامل فى « يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ » أى لا يخفى عليه شيء منهم ومن أعمالهم « يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ » . ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ وذلك عند فناء الخلق . وقال الحسن: هو السائل تعالى وهو المجيب؛ لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه فيقول : ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ . النحاس : وأصح ما قيل فيه ما رواه أبو وائل عن ابن مسعود قال : يُحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله جل وعز عليها ، فيؤمر مناد ينادي « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ » فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا، ويقوله الكافرون غمًّا وانقيادا وخضوعا . فأما أن يكون هذا والخلق غير موجودين فبعيد ؛ لأنه لا فائدة فيه ، والقول صحيح عن ابن مسعود وليس هو مما يؤخذ بالقياس ولا بالتأويل .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٤٦ طبعة أولى أو ثانية .

قلت : والقول الأول ظاهر جدا؛ لأن المقصود إظهار ٱنفراده تعالى بالملك عند ٱنقطاع دعاوي المدّعين وٱنتساب المنتسبين؛ إذ قد ذهب كلّ مَلِك ومُلْكه ومتكبر وملكه وٱنقطعت نسبهم ودعاويهم ؛ ودل على هـذا قوله الحق عند قبض الأرض والأرواح وطيّ السماء : " أنا الملك أين ملوك الأرض " كما تقـدّم في حديث أبي هريرة وفي حديث ٱبن عمر، ثم يطوي الأرض بشماله والسموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون . وعنه قوله سبحانه : «لِمَنِ المُلْكُ اليوم» هو ٱنقطاع زمن الدنيا وبعده يكون البعث والنشر . قال محمـد بن كعب قوله سبحانه : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ » يكون بين النفختين حين فنى الخلق وبقي الخالق فلا يرى غير نفسه مالكا ولا مملوكا فيقول : «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» فلا يجيبه أحد؛ لأن الخلق أموات فيجيب نفسه فيقول : « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» لأنه بقي وحده وقهر خلقه . وقيل : إنه ينادي منادٍ فيقول « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ » فيجيبه أهل الجنة « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » فالله أعلم . ذكره الزمخشري .

قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي يقال لهم إذا أقروا بالملك يومئذ لله وحده « الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » من خير أو شر . ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ أي لا ينقص أحد شيئا مما عمله . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي لا يحتاج إلى تفكر وعقد يد كما يفعله الحسّاب ؛ لأنه العالم الذي لا يعزب عن علمـه شيء فلا يؤخر جزاء أحد للاشتغال بغيره ؛ وكما يرزقهم في ساعة واحدة يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة . وقـد مضى هذا المعنى في «البقرة»[1] . وفي الخبر: ولا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار .

قوله تعالى : وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ

(١) راجع جـ ٢ ص ٤٣٥ طبعة ثانية .

لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (٢٠) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٢)

قوله تعالى : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ أى يوم القيامة . سميت بذلك؛ لأنها قريبة إذ كل ما هو آتٍ قريب . وأَزِفَ فلانٌ أى قرب يأزَف أزَفًا؛ قال النابغة :

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غيرَ أنَّ رِكابَنا * لمَّا تَزُلْ بِرِحالِنا وكأنْ قَدِ

أى قرب . ونظير هذه الآية «أَزِفَتِ الآزِفَةُ»(١) أى قربت الساعة . وكان بعضهم يتمثل ويقول :

أَزِفَ الرَّحيلُ وليسَ لِي مِن زادِ * غيرُ الذُّنوبِ لِشِقْوتِي ونَكادِي

﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ على الحال وهو محمول على المعنى . قال الزجاج : المعنى إذ قلوب الناس «لَدَى الْحَنَاجِرِ» فى حال كظمهم . وأجاز الفراء أن يكون التقدير «وَأَنْذِرْهُمْ» «كَاظِمِينَ» وأجاز رفع «كَاظِمِينَ» على أنه خبر للقلوب . وقال : المعنى إذ هم كاظمون . وقال الكسائى : يجوز رفع «كَاظِمِينَ» على الابتداء . وقد قيل : إن المراد بـ«يَوْمَ الْآزِفَةِ» يوم حضور المنية ؛ قاله قطرب . وكذا «إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ» عند حضور المنية . والأول أظهر . وقال قتادة : وقعت فى الحناجر من المخافة فهى لا تخرج ولا تعود فى أمكنتها ، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة كما قال : «وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ» . وقيل : هذا إخبار عن نهاية الجزع ؛ كما قال : «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» وأضيف اليوم إلى «الآزِفَةِ» على تقدير يوم القيامة «الآزِفَةِ» أو يوم المجادلة «الآزِفَةِ» . وعند الكوفيين هو من باب إضافة الشىء إلى

(١) آية ٥٧ من سورة النجم .

نفسه مثل مسجد الجامع وصلاة الأولى . ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أى من قريب ينفع ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فيشفع فيهم .

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ قال المؤرج: فيه تقديم وتأخير أى يعلم الأعين الخائنة . وقال ابن عباس : هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمرّ المرأة فيسارقهم النظر إليها . وعنه : هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غضّ بصره ، فإذا رأى منهم غفلة تدسّس بالنظر ، فإذا نظر إليه أصحابه غضّ بصره ، وقد علم الله عز وجل منه أنه يودّ لو نظر إلى عورتها . وقال مجاهد : هى مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه . وقال قتادة : هى الهمزة بعينه وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى . وقال الضحاك : هى قول الإنسان ما رأيت وقد رأى أو رأيت وما رأى . وقال السدى : إنها الرمز بالعين . وقال سفيان : هى النظرة بعد النظرة . وقال الفراء : « خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ » النظرة الثانية « وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » النظرة الأولى . وقال ابن عباس : «وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» أى هل يزنى بها لو خلا بها أو لا . وقيل : « وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» تكنّه وتضمره . ولما جىء بعبد الله بن أبى سرح (1) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد ما اطمأن أهل مكة وطلب له الأمان عثمان رضى الله عنه ، صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال : "نعم" فلما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله : " ما صمتّ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه " فقال رجل من الأنصار فهلا أومأت إلىّ يارسول الله ، فقال : "إن النبى لا تكون له خائنة أعين" . ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أى يجازى من غضّ بصره عن المحارم ، ومن نظر إليها ، ومن عزم على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها . ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى الأوثان ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر عليه ولا تملك . وقراءة العامة بالياء على الخبر عن الظالمين وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ نافع وشيبة وهشام «تَدْعُونَ» بالتاء . ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ «هو» زائدة فاصلة . ويجوز أن تكون فى موضع رفع بالابتداء وما بعدها خبر والجملة خبر إن .

(1) عبد الله بن أبى سرح : كان يكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ولحق بالمشركين ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة . راجع قصته فى جـ ٧ ص ٤٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴾ فى موضع جزم عطف على «يَسِيرُوا» ويجوز أن يكون فى موضع نصب على أنه جواب ، والجزم والنصب فى التثنية والجمع واحد. ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ﴾ اسم كان والخبر فى «كيف» . و﴿ وَاقٍ ﴾ فى موضع خفض معطوف على اللفظ . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على الموضع فرفعه وخفضه واحد ؛ لأن الياء تحذف وتبقى الكسرة دالة عليها . وقد مضى الكلام فى معنى هذه الآية فى غير موضع (١) فأغنى عن الإعادة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ وهى التسع الآيات المذكورة فى قوله تعالى : «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» (٢) وقد مضى تعيينها . ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة واضحة بينة وهو يذكر ويؤنث . وقيل : أراد بالسلطان التوراة . ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ ﴾ خصهم بالذكر لأن مدار التدبير فى عداوة موسى كان عليهم ؛ ففرعون الملك وهامان الوزير وقارون صاحب الأموال والكنوز فجمعه الله معهما ؛ لأن عمله فى الكفر والتكذيب كأعمالهما . ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ لما عجزوا عن معارضته حملوا المعجزات على السحر .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾ وهى المعجزة الظاهرة ﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ قال قتادة : هذا قتل غير القتل الأول ؛ لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى ، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بنى إسرائيل عقوبة لهم فيمتنع الإنسان من الإيمان ؛ ولئلا يكثر جمعهم فيعتضدوا بالذكور من أولادهم ، فشغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب ، كالضفادع والقُمَّل والدم والطُّوفان إلى أن خرجوا من مصر ، فأغرقهم الله . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أى فى خسران وهلاك ، و إن الناس لا يمتنعون من الإيمان و إن فعل بهم مثل هذا فكيده يذهب باطلا .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ « أَقْتُلْ » جزم ؛ لأنه جواب الأمر « وَلْيَدْعُ » جزم ؛ لأنه أمر و « ذَرُونِي » ليس بمجزوم و إن كان أمرا ولكن لفظه لفظ المجزوم وهو مبنى . وقيل : هذا يدل على أنه قيل لفرعون : إنا نخاف أن يدعو عليك فيجاب ؛ فقال : « وَلْيَدْعُ رَبَّهُ » أى لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى . ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أى عبادتكم لى الى عبادة ربه ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ إن لم يبدل دينكم فإنه يظهر فى الأرض الفساد . أى يقع بين الناس بسببه الخلاف . وقراءة المدنيين وأبى عبد الرحمن السُّلَمىّ وابن عامر وأبى عمرو « وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » وقراءة الكوفيين « أَوْ أَنْ يَظْهَرَ » بفتح الياء « الْفَسَادُ » بالرفع وكذلك هى فى مصاحف الكوفيين . « أو » بألف و إليه يذهب أبو عبيد ؛ قال : لأن فيه زيادة حرف وفيه فصل ؛ ولأن « أو » تكون بمعنى الواو . النحاس : وهذا عند حُذّاق النحويين لا يجوز أن تكون بمعنى الواو ؛ لأن فى ذلك بطلان المعانى ، ولو جاز أن تكون بمعنى الواو لما احتيج إلى هذا ها هنا ؛ لأن معنى الواو « إِنِّي أَخَافُ » الأمرين جميعا ومعنى « أو » لأحد الأمرين أى « إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ » فإن أعوزه ذلك أظهر فى الأرض الفساد .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ لما هدّده فرعونُ بالقتل استعاذ موسى بالله ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أى متعظم عن الإيمان بالله ، وصفتُه أنه ﴿ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ .

قوله تعالى : وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾

فيـه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : « وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ » ذكر بعض المفسرين : أن اسم هذا الرجل حبيب . وقيل : شمعان بالشين المعجمة . قال السهيلى : وهو أصح ما قيل فيه . وفى تاريخ الطبرى رحمه الله : اسمه خبرك[1] . وقيل : حزقيل . ذكره الثعلبى عن ابن عباس وأكثر العلماء . الزمخشرى : واسمه سمعان أو حبيب . وقيل خربيل أو حزبيل . واختلف هل كان إسرائيليا أو قبطيا فقـال الحسن وغيره : كان قبطيا . ويقـال : إنه كان ابن عم فرعون ؛ قاله السدى . قال : وهو الذى نجا مع موسى عليه السلام ؛ ولهذا قال : « مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ » وهذا الرجل هو المراد بقوله تعـالى : « وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى » الآية . وهذا قول مقاتل . وقال ابن عباس : لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذى أنذر موسى فقال : « إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ » .

[وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الصِّدِّيقون حبيب النجار مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون الذى قال أتقتلون رجلا أن يقـول ربى الله والثالث أبو بكر الصِّدِّيق وهو أفضلهم"[2]] وفى هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم أى لا تعجب من مشركى قومك . وكان هذا الرجل له وجاهة عند فرعون ؛ فلهذا لم يتعرض له بسوء . وقيل : كان هذا الرجل من بنى إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون . عن السدى أيضا ؛ ففى الكلام على هـذا تقديم وتأخير ، والتقدير: وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون . فمن جعل الرجل قبطيا

(١) فى هامش الطبرى حبرك . وفى نسخة جبرك . (٢) الزيادة أوردها الجمل فى حاشيته عن القرطبى .

فـ « مِن » عنده متعلقة بمحذوف صفة لرجل ؛ التقدير : وقال رجل مؤمن منسوب من آل فرعون ؛ أى من أهله وأقاربه . ومن جعله إسرائيليا فـ « مِن » متعلقة بـ « يَكْتُمُ » فى موضع المفعول الثانى لـ « يَكْتُمُ » . القشيرى : ومن جعله إسرائيليا ففيه بعد ؛ لأنه يقال كتمه أمر كذا ولا يقال كتم منه . قال الله تعالى : « وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً » وأيضا ما كان فرعون يحتمل من بنى إسرائيل مثل هذا القول .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ ﴾ أى لأن يقول ومن أجل « أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ » فـ « أَنْ » فى موضع نصب بنزع الخافض . ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ يعنى الآيات التسع ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ ولم يكن ذلك لشك منه فى رسالته وصدقه، ولكن تلطفا فى الاستكفاف واستنزالا عن الأذى . ولو كان و « إن يكن » بالنون جاز ولكن حذفت النون لكثرة الاستعمال على قول سيبويه ؛ ولأنها نون الإعراب على قول أبى العباس . ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ أى إن لم يصبكم إلا بعض الذى يعدكم به هلكتم . ومذهب أبى عبيدة أن معنى « بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ » كل الذى يعدكم، وأنشد قول لبيد :

تَرَّاكُ أمكنــــةٍ إذا لم أرضَهــا * أو يَرْتَبِطْ بَعْضَ النفوسِ حِمَامُها(1)

فبعض بمعنى كلّ ؛ لأن البعض إذا أصابهم أصابهم الكل لا محالة لدخوله فى الوعيد، وهذا ترقيق الكلام فى الوعظ . وذكر الماوردى : أن البعض قد يستعمل فى موضع الكل تلطفا فى الخطاب وتوسعا فى الكلام ؛ كما قال الشاعر(2) :

قَدْ يُدرِكُ المتأنِّى بعضَ حاجتِهِ * وقد يكون مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

وقيل أيضا : قال ذلك لأنه حذرهم أنواعا من العذاب كل نوع منها مهلك؛ فكأنه حذرهم أن يصيبهم بعض تلك الأنواع . وقيل : وعدهم موسى بعذاب الدنيا أو بعذاب الآخرة إن كفروا؛ فالمعنى يصبكم أحد العذابين . وقيل : أى يصبكم هذا العذاب الذى يقوله فى الدنيا

---

(1) ويروى : أو يعتلق بدل يرتبط كما فى اللسان وغيره . (2) هو عمر القطامى .

وهو بعض الوعيد، ثم يترادف العذاب فى الآخرة أيضا . وقيل : وعدهم العذابَ إن كفروا والثوابَ إن آمنوا، فإذا كفروا يصيبهم بعض ماوعدوا . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ على نفسه ﴿كَذَّابٌ﴾ على ربه إشارة إلى موسى ويكون هذا من قول المؤمن . وقيل : « مُسْرِفٌ » فى عناده « كَذَّابٌ » فى ادعائه إشارة إلى فرعون ويكون هذا من قول الله تعالى .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ قال القاضى أبو بكر بن العربى : ظن بعضهم أن المكلف إذا كتم إيمانه ولم يتلفظ به بلسانه لا يكون مؤمنا باعتقاده ، وقد قال مالك : إن الرجل إذا نوى بقلبه طلاق زوجته أنه يلزمه ، كما يكون مؤمنا بقلبه وكافرا بقلبه . فجعل مدار الإيمان على القلب وأنه كذلك ، لكن ليس على الإطلاق وقد بيناه فى أصول الفقه بما لبابه أن المكلف إذا نوى الكفر بقلبه كان كافرا وإن لم يتلفظ بلسانه ، وأما إذا نوى الإيمان بقلبه فلا يكون مؤمنا بحال حتى يتلفظ بلسانه ، ولا تمنعه التقية والخوف من أن يتلفظ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى ، إنما تمنعه التقية من أن يسمعه غيره ، وليس من شرط الإيمان أن يسمعه الغير فى صحته من التكليف ، وإنما يشترط سماع الغير له ليكف عن نفسه وماله .

الرابعة ــ روى البخارى ومسلم عن عروة بن الزبير قال قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد ماصنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط ، فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه به خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » لفظ البخارى . خرجه الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن على رضى الله عنه قال : اجتمعت قريش بعد وفاة أبى طالب بثلاث فأرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل هذا يجؤه[1] وهذا يتلتله ، فاستغاث النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ فلم يغثه أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان ، فأقبل يجأ ذا ويتلتل ذا

(١) وجأه يجؤه وجأ ضربه . والتلتلة التحريك والإقلاق والزعزعة .

ويقول بأعلى صوته : ويلكم «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله» والله إنه لرسول الله، فقطعت إحدى ضفيرتى أبى بكر يومئـذ . فقال علىّ : والله ليوم أبى بكر خير من مؤمن آل فرعون ؛ إن ذلك رجل كتم إيمـانه فأثنى الله عليه فى كتابه، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذل ماله ودمه لله عز وجل .

قلت : قـول علىّ رضى الله عنـه إن ذلك رجل كتم إيمانه يريد فى أول أمره بخـلاف الصدّيق فإنه أظهر إيمانه ولم يكتمه ؛ وإلا فالقرآن مصرح بأن مؤمن آل فرعون أظهر إيمانه لمـا أرادوا قتل موسى عليه السلام على ما يأتى بيانه . فى « نوادر الأصول » أيضا عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالوا لهـا : ما أشدّ شىء رأيت المشركين بلغوا من رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ؟ فقالت : كان المشركون قعودا فى المسجد ، ويتذاكرون رسـول الله صلى الله عليه وسلم ما يقول فى آلهتهم، فبينا هم كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاموا إليه بأجمعهم وكانوا إذا سألوه عن شىء صدّقهم ، فقالوا : ألست تقول كذا فى آلهتنا قال "بلى" فتشبثوا فيه بأجمعهم، فأتى الصريخ إلى أبى بكر فقال له : أدرك صاحبك . فخرج من عندنا وإن له غدائر، فدخل المسجد وهو يقول : ويلكم « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » فلهوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على أبى بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمسّ شيئا من غدائره إلا جاء معـه ، وهو يقول : تباركت ياذا الجلال والإكرام، إكرام إكرام .

قوله تعـالى : يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ
عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ هذا من قول مؤمن آل فرعون، وفى قوله «يَا قَوْمِ» دليل على أنه قبطى؛ ولذلك أضافهم إلى نفسه فقال « يَا قَوْمِ »؛ ليكونوا أقرب إلى قبول وعظه «لَكُمُ الْمُلْكُ» فاشكروا الله على ذلك . ﴿ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى غالبين وهو نصب على الحال أى فى حال ظهوركم . والمراد بالأرض أرض مصر فى قول السدى وغيره؛ كقوله : «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ» أى فى أرض مصر ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ أى من عذاب الله تحذيرا لهم من نقمه إن كان موسى صادقا ، فذكّر وحذّر فعلم فرعون ظهور حجته فقال: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ماأشير عليكم إلا ماأرى لنفسى ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فى تكذيب موسى والإيمان بى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ ﴾ زادهم فى الوعظ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ يعنى أيام العذاب التى عذب فيها المتحزّبون على الأنبياء المذكورين فيما بعد .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ زاد فى الوعظ والتخويف وأفصح عن إيمانه، إما مستسلما موطنا نفسه على القتل، أو واثقا بأنهم لا يقصدونه بسوء، وقد وقاه الله شرهم بقوله الحق « فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا » . وقراءة العامة «التَّنَادِ» بتخفيف الدال وهو يوم القيامة؛ قال أمية بن أبى الصّلت :

وبثّ الخلق فيها إذ دحاها * فهم سكّانها حتى التّنادِ

سمى بذلك لمناداة الناس بعضهم بعضا؛ فينادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم، وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار : « أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا » وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة : « أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ » وينادى المنادى أيضا بالشقوة

والسعادة : ألا إن فلان بن فلان قد شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا ، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا . وهذا عند وزن الأعمال . وتنادى الملائكة أصحاب الجنة : «أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» وينادى حين يذبح الموت : يأهل الجنة خلود لا موت ويأهل النار خلود لاموت . وينادى كل قوم بإمامهم إلى غير ذلك من النداء . وقرأ الحسن وابن السميقع ويعقوب وابن كثير ومجاهد « التّنادى » بإثبات الياء فى الوصل والوقف على الأصل . وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة « يوم التّنادّ » بتشديد الدال . قال بعض أهل العربية : هذا لحن ؛ لأنه من ندّ يندّ إذا مرّ على وجهه هاربا ؛ كما قال الشاعر[1] :

وبَرْكٍ هُجُودٍ قد أثارتْ مَخافتي * نَوادِيَها أسْعَى بعَضْبٍ مُجرَّدِ

قال : فلا معنى لهذا فى القيامة . قال أبو جعفر النحاس : وهذا غلط والقراءة بها حسنة على معنى يوم التنافر . قال الضحاك : ذلك إذا سمعوا زفير جهنم ندّوا هربا ، فلا يأتون قطرا من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفا من الملائكة ، فيرجعون إلى المكان الذى كانوا فيه ؛ فذلك قوله : «يَوْمَ التَّنَادِّ» . وقوله : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » الآية . وقوله : « وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا » ذكره ابن المبارك بمعناه . قال : وأخبرنا عبدالرحمن بن يزيد بن جابر قال حدثنا عبد الجبار بن عبيدالله بن سلمان فى قوله [تعالى] : « إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ » ثم تستجيب لهم أعينهم بالدمع فيبكون حتى ينفد الدمع ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالدم فيبكون حتى ينفد الدم ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح . قال : يرسل عليهم من الله أمر فيولون مدبرين ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح ، فيبكون حتى ينفد القيح فتغور أعينهم كالخرق فى الطين . وقيل : إن هذا يكون عند نفخ إسرافيل عليه السلام فى الصور نفخة الفزع . ذكره على بن معبد والطبرى وغيرهما من حديث أبى هريرة ، وفيه "فتكون الأرض كالسفينة فى البحر تضربها الأمواج فيميد الناس على ظهورها وتذهل المراضع وتضع الحوامل ما فى بطونها وتشيب الولدان وتتطاير الشياطين

---

(١) هو طرفة . فى اللسان : نواديه أمشى . يقول : إبل باركة نيام ، ونواديها أى ماند منها . ويروى بواديها أى أوائلها . أى أثارت مخافتى نوادى هذا البرك حال مشى إليه بالسيف .

هاربة فتلقاها الملائكة تضرب وجوهها ويولى الناس مدبرين ينادى بعضهم بعضا وهى التى يقول الله تعالى «يَوْمَ التَّنَادِ. يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ» الحديث بكماله. وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة وتكلمنا عليه هنالك. وروى عن على ابن نصر عن أبى عمرو إسكان الدال من «التناد» فى الوصل خاصة. وروى أبو معمر عن عبدالوارث زيادة الياء فى الوصل خاصة وهو مذهب ورش. والمشهور عن أبى عمرو حذفها فى الحالين. وكذلك قرأ سائر السبعة سوى ورش على ما ذكرنا عنه وسوى ابن كثير على ما تقدم. وقيل: سمى يوم القيامة يوم التناد؛ لأن الكافر ينادى فيه بالويل والثبور والحسرة. قاله ابن جريج. وقيل: فيه إضمار أى إنى أخاف عليكم عذاب يوم التناد؛ فالله أعلم. ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ على البدل من «يوم التناد» ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أى من خلق الله فى قلبه الضلال فلا هادى له. وفى قائله قولان: أحدهما موسى. الثانى مؤمن آل فرعون وهو الأظهر. والله أعلم.

قوله تعالى: وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قيل: إن هذا من قول موسى. وقيل: هو من تمام وعظ مؤمن آل فرعون؛ ذكّرهم قديم عتوهم على الأنبياء؛ وأراد يوسف بن يعقوب جاءهم بالبينات «أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» قال ابن جريج: هو يوسف بن يعقوب. بعثه الله تعالى رسولا إلى القبط بعد موت الملك من قبل موسى بالبينات وهى الرؤيا. وقال ابن عباس: هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبيا

عشرين سنة . وحكى النقاش عن الضحاك : إن الله تعالى بعث إليهم رسولا من الجن يقال له يوسف . وقال وهب بن منبه : إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عُمِّر . وغيره يقول : هو آخر . النحاس : وليس فى الآية ما يدل على أنه هو ؛ لأنه إذا أتى بالبينات نبيّ لمن معهُ ولمن بعده فقد جاءهم جميعا بها وعليهم أن يصدقوه بها . ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ أى أسلافكم كانوا فى شك . ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ أى من يدعى الرسالة ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ ﴾ أى مثل ذلك الضلال ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ مشرك ﴿ مُرْتَابٌ ﴾ شاكٌّ فى وحدانية الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى فى حججه الظاهرة ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ أى بغير حجة و برهان و « الذين » فى موضع نصب على البدل من « مَنْ » . وقال الزجاج : أى كذلك يضل الله الذين يجادلون فى آيات الله فـ « الذين » نصب . قال : ويجوز أن يكون رفعا على معنى هم الذين أو على الابتداء والخبر ﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ . ثم قيل : هذا من كلام مؤمن آل فرعون . وقيل : ابتداء خطاب من الله تعالى . « مقتا » على البيان أى « كبر » جدالهم « مقتا » ؛ كقوله : « كَبُرَتْ كَلِمَةً » ومقت الله تعالى ذمه لهم ولعنه إياهم و إحلال العذاب بهم . ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ ﴾ أى يختم ﴿ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ حتى لا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق . وقراءة العامة « عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ » بإضافة قلب إلى المتكبر واختاره أبو حاتم وأبو عبيد . وفى الكلام حذف والمعنى « كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ » على كل « مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ » فحذف « كُلّ » الثانية لتقدم ما يدل عليها . و إذا لم يقدر حذف « كلّ » لم يستقم المعنى ؛ لأنه يصير معناه أنه يطبع على جميع قلبه وليس المعنى عليه . و إنما المعنى أنه يطبع على قلوب المتكبرين الجبارين قلبا قلبا . ومما يدل على حذف « كل » قول أبى دُؤاد[1] :

أَكُلَّ امْرِئٍ تَحْسَبِينَ امْرَأً * ونارٍ تَوَقَّدُ بِاللَّيلِ نارا

(١) هو جارية بن الحجاج الإيادى . وقيل اسمه حنظلة بن الشرقى ؛ وكان فى عصر كعب بن مامة الإيادى الذي يضرب به المثل فى الجود . « الشعر والشعراء لابن قتيبة » .

يريد وكلّ نارٍ . وفى قراءة ابن مسعود « عَلَى قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ » فهذه قراءة على التفسير والإضافة . وقرأ أبو عمرو وابن محيصن وابن ذكوان عن أهل الشام « قلبٍ » منون على أن « متكبر » نعت للقلب فكنى بالقلب عن الجملة ؛ لأن القلب هو الذى يتكبر وسائر الأعضاء تبع له ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب" ويجوز أن يكون على حذف المضاف ؛ أى على كل ذى قلب متكبر ؛ تجعل الصفة لصاحب القلب .

قوله تعالى : وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن فى قلوب القوم ، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد ، فإن بان له صوابه لم يُخفه عنهم ، وإن لم يصح ثبّتهم على دينهم ؛ فأمر وزيره هامان ببناء الصرح . وقد مضى فى « القصص »[(١)] ذكره . ﴿لَعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ « أسبابَ السموات » بدل من الأول . وأسباب السماء أبوابها فى قول قتادة والزهرى والسدى والأخفش ؛ وأنشد :

ومَنْ هابَ أَسْبابَ المنايا يَنَلْنَهُ * ولَوْ رَامَ أَسْبابَ السّماءِ بِسُلَّمِ[(٢)]

وقال أبو صالح : أسباب السموات طرقها . وقيل : الأمور التى تستمسك بها السموات . وكرر أسباب تفخيما ؛ لأن الشيء إذا أبهم ثم أوضح كان تفخيما لشأنه ، والله أعلم . ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ فأنظر إليه نظر مشرف عليه . توهم أنه جسم تحويه الأماكن . وكان فرعون

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٨٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) البيت من معلقة زهير بن أبى سلمى

يدعى الألوهية ويرى تحقيقها بالجلوس فى مكان مشرف . وقراءة العامة « فَأَطَّلِعُ » بالرفع نسقا على قوله : « أَبْلُغُ » . وقرأ الأعرج والسُّلَمِيّ وعيسى وحفص « فَأَطَّلِعَ » بالنصب؛ قال أبو عبيدة : على جواب « لعل » بالفاء . النحاس : ومعنى النصب خلاف معنى الرفع؛ لأن معنى النصب متى بلغت الأسباب ٱطلعت . ومعنى الرفع « لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ » ثم لعلى أطلع بعد ذلك؛ إلا أن ثم أشد تراخيا من الفاء . ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ أى وإنى لأظن موسى كاذبا فى ٱدعائه إلها دونى ، وإنما أفعل ما أفعل لإزاحة العلة . وهذا يوجب شك فرعون فى أمر الله . وقيل : إن الظن بمعنى اليقين أى وأنا أتيقن أنه كاذب ، وإنما أقول ما أقوله لإزالة الشبهة عمن لا أتيقن ما أتيقنه .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أى الشرك والتكذيب . ﴿ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ قراءة الكوفيين « وصُدَّ » على ما لم يسم فاعله وهو ٱختيار أبى عبيد وأبى حاتم؛ ويجوز على هذه القراءة « وَصِدَّ » بكسر الصاد نقلت كسرة الدال على الصاد؛ وهى قراءة يحيى بن وثاب وعلقمة . وقرأ ٱبن أبى إسحق وعبد الرحمن بن بكرة « وَصَدٌّ عَنِ السَّبِيلِ » بالرفع والتنوين . الباقون « وَصَدَّ » بفتح الصاد والدال، أى صد فرعون الناس عن السبيل . ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ أى فى خسران وضلال، ومنه « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » وقوله : « وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » وفى موضع « غَيْرَ تَخْسِيرٍ » فهذا الله صرحه وغرّقه هو وقومه على ما تقدّم (١) .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٨٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ ﴾ هذا من تمام ما قاله مؤمن آل فرعون ؛ أى اقتدوا بى فى الدين . ﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ أى طريق الهدى وهو الجنة . وقيل : من قول موسى . وقرأ معاذ بن جبل « الرَّشَّادِ » بتشديد الشين وهو لحن عند أكثر أهل العربية ؛ لأنه إنما يقال أرشد يُرشد ولا يكون فعّال من أفعل إنما يكون من الثلاثى ، فإن أردت التكثير من الرباعى قلت : مِفْعال . قال النحاس : يجوز أن يكونَ رشّاد بمعنى يرشد لا على أنه مشتق منه ، ولكن كما يقال لأّال من اللؤلؤ فهو بمعناه وليس جاريا عليه . ويجوز أن يكون رشاد من رشَد يرشد أى صاحب رشّاد ؛ كما قال :

* كِلِينِى لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبِ (١) *

الزمخشرى : وقرئ « الرَّشَّادِ » فعّال من رَشِد بالكسر كعَلّام أو من رَشَد بالفتح كعبّاد . وقيل : من أرشد كجَبّار من أجبر وليس بذاك ؛ لأن فعّالا من أفعل لم يجئ إلا فى عدّة أحرف : نحو دَرّاك وسَأّر وقصّار وجَبّار . ولا يصح القياس على هذا القليل . ويجوز أن يكون نسبته إلى الرشد كعوّاج و بتّات (٢) غير منظور فيه إلى فعل . ووقع فى المصحف « اتّبعونِ »

(١) البيت للنابغة الذبيانى وتمامه :

* وليل أقاسيه بطىء الكواكب *

(٢) العواج : بيّاع العاج ، والبتّات : بياع البت وهو كساء غليظ .

بغير ياء . وقرأها يعقوب وابن كثير بالإثبات فى الوصل والوقف . وحذفها أبو عمرو ونافع فى الوقف وأثبتوها فى الوصل ، إلا ورشا حذفها فى الحالين ، وكذلك الباقون ؛ لأنها وقعت فى المصحف بغير ياء ومن أثبتها فعلى الأصل .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ أى يتمتع بها قليلا ثم تنقطع وتزول . ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ أى الاستقرار والخلود . ومراده بالدار الآخرة الجنة والنار لأنهما لا يفنيان . بين ذلك بقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ يعنى الشرك ﴿ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ وهو العذاب . ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ قال ابن عباس : يعنى لا إله إلا الله . ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ مصدق بقلبه لله وللأنبياء . ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُدْخَلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ بضم الياء على ما لم يسم فاعله ؛ وهى قراءة ابن كثير وابن محيصن وأبى عمرو ويعقوب وأبى بكر عن عاصم يدل عليه ﴿ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الباقون « يَدْخُلُونَ » بفتح الياء .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ ﴾ أى إلى طريق الإيمان الموصل إلى الجنان ﴿ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ بين أن ما قال فرعون من قوله : « وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » سبيل الغى عاقبته النار وكانوا دعوه إلى اتباعه ؛ ولهذا قال : ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ وهو فرعون ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ . ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ (٢) تقدم الكلام فيه ومعناه حقا . ﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ « ما » بمعنى الذى ﴿ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ ﴾ قال الزجاج : ليس له استجابة دعوة تنفع ؛ وقال غيره : ليس له دعوة توجب له الألوهية ﴿ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ . وقال الكلبي : ليس له شفاعة فى الدنيا ولا فى الآخرة . وكان فرعون أولا يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ، ثم دعاهم إلى عبادة البقر ، فكانت تعبد ما كانت شابة ، فإذا هرمت أمر بذبحها ، ثم دعا بأخرى لتعبد ، ثم لما طال عليه الزمان قال أنا ربكم الأعلى . ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ قال قتادة وابن سيرين : يعنى المشركين . وقال مجاهد والشعبي : هم السفهاء والسفاكون للدماء بغير حقها . وقال عكرمة : الجبارون

---

(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

والمتكبرون . وقيل : هم الذين تعدوا حدود الله . وهذا جامع لما ذكره و «أنّ» فى المواضع فى موضع نصب بإسقاط حرف الجر . وعلى ما حكاه سيبويه عن الخليل من أن «لا جرم» رد لكلام يجوز أن يكون موضع «أنّ» رفعا على تقدير وجب أن ما تدعوننى إليه ، كأنه قال وجب بطلان ما تدعوننى إليه ، والمرد إلى الله ، وكون المسرفين هم أصحاب النار .

قوله تعالى : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ تهديد ووعيد و «ما» يجوز أن تكون بمعنى الذى أى الذى أقوله لكم . ويجوز أن تكون مصدرية أى فستذكرون قولى لكم إذا حل بكم العذاب . ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أى أتوكل عليه وأسلم أمرى إليه . وقيل : هذا يدل على أنهم أرادوا قتله . وقال مقاتل : هرب هذا المؤمن إلى الجبل فلم يقدروا عليه . وقد قيل : القائل موسى . والأظهر أنه مؤمن آل فرعون ، وهو قول ابن عباس .

قوله تعالى : فَوَقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ أى من إلحاق أنواع العذاب به فطلبوه فما وجدوه ؛ لأنه فوض أمره إلى الله . قال قتادة : كان قبطيا فنجاه الله مع بنى إسرائيل . فالهاء على هذا المؤمن آل فرعون . وقيل : إنها لموسى على ما تقدم من الخلاف . ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ قال الكسائى : يقال حاق يحيق حيقا وحيوقا إذا نزل ولزم . ثم بين العذاب فقال : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ وفيه ستة أوجه : يكون رفعا على البدل من «سوء» . ويجوز أن يكون بمعنى هو النار . ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء . وقال الفراء : يكون مرفوعا بالعائد على معنى النار عليها يعرضون ، فهذه أربعة أوجه فى الرفع ، وأجاز الفراء النصب ؛ لأن بعدها عائدا وقبلها ما يتصل به ، وأجاز الأخفش الخفض على البدل من «العذاب» . والجمهور على أن هذا العرض فى البرزخ . واحتج بعض أهل العلم فى تثبيت

عذاب القبر بقوله : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » ما دامت الدنيا . كذلك قال مجاهد وعِكْرمة . ومقاتل ومحمد بن كعب كلهم قال : هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا ، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ . وفي الحديث عن ابن مسعود : إن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار تعرض على النار بالغداة والعشي فيقال هذه داركم . وعنه أيضا : إن أرواحهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين فذلك عرضها . وروى شعبة عن يعلى بن عطاء قال سمعت ميمون بن [مِهران] (١) يقول : كان أبو هريرة إذا أصبح ينادي أصبحنا والحمد لله وعُرِض آلُ فرعون على النار ، فإذا أمسى نادى أمسينا والحمد لله وعُرِض آلُ فرعون على النار ؛ فلا يسمع أبا هريرة أحد إلا تعوذ بالله من النار . وفي حديث صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الكافر إذا مات عُرِض على النار بالغداة والعشي " ثم تلا « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » " وإن المؤمن إذا مات عُرِض رُوحه على الجنة بالغَدَاة والعشي " وخرّج البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة " . قال الفراء : في الغداة والعشي بمقادير ذلك في الدنيا . وهو قول مجاهد . قال : « غُدُوًّا وَعَشِيًّا » قال : من أيام الدنيا . وقال حماد بن محمد الفزاري : قال رجل للأوزاعي رأينا طيورا تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب ، بيضا صغارا فوْجا فوْجا لا يعلم عددها إلا الله ، فإذا كان العشاء رجعت مثلها سودا . قال : تلك الطيور في حواصلها أرواح آل فرعون ، يُعْرَضُون على النار غدوّا وعشيا ، فترجع إلى أوكارها وقد احترقت رياشها وصارت سودا ، فينبت عليها من الليل رياشها بيضا وتتناثر السود ، ثم تغدو فتعرض على النار غدوّا وعشيا ، ثم ترجع إلى وكرها فذلك دأبها ما كانت في الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » وهو الهاوية . قال الأوزاعي : فبلغنا أنهم

(١) في نسخ الأصل ميمون بن ميسرة وهو تحريف ، والتصويب عن « التهذيب » .

ألفا ألف وستمائة ألف . «وَغُدُوًّا» مصدر جعل ظرفا على السعة «وَعَشِيًّا» عطف عليه وتم الكلام . ثم تبتدئ « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ » على أن تنصب يوما بقوله : « أَدْخِلُوا » ويجوز أن يكون منصوبا بـ « يُعْرَضُونَ » على معنى « يُعْرَضُونَ » على النار فى الدنيا « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ » فلا يوقف عليه . وقرأ نافع وأهل المدينة وحمزة والكسائى « أَدْخِلُوا » بقطع الألف وكسر الخاء من أدخل وهى آختيار أبى عبيد؛ أى يأمر الله الملائكة أن يدخلوهم؛ ودليله « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا » . الباقون « آدْخُلُوا » بوصل الألف وضم الخاء من دخل أى يقال لهم « آدْخُلُوا » يا « آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » وهو آختيار أبى حاتم . قال : فى القراءة الأولى « آل » مفعول أول و « أَشَدَّ » مفعول ثانٍ بحذف الجر، وفى القراءة الثانية منصوب؛ لأنه نداء مضاف . وآل فرعون من كان على دينه وعلى مذهبه ، وإذا كان من كان على دينه ومذهبه فى أشد العذاب كان هو أقرب إلى ذلك . وروى آبن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن العبد يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا منهم يحيي بن زكريا ولد مؤمنا وحيى مؤمنا ومات مؤمنا وإن العبد يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا منهم فرعون ولد كافرا وحيي كافرا ومات كافرا" ذكره النحاس . وجعل الفراء فى الآية تقديما وتأخيرا مجازه: « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » فجعل العرض فى الآخرة ، وهو خلاف ما ذهب إليه الجمهور من آنتظام الكلام على سياقه على ما تقدّم . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَٱدْعُوا وَمَا دُعَٰٓؤُا ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ أى يختصمون فيها ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الانقياد للأنبياء ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ فيما دعوتمونا إليه من الشرك فى الدنيا ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ ﴾ أى متحملون ﴿ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ أى جزءا من العذاب. والتبع يكون واحدا ويكون جمعا فى قول البصريين واحده تابع . وقال أهل الكوفة : هو جمع لا واحد له كالمصدر فلذلك لم يجمع ولو جمع لقيل أتباع . ﴿ قَالَ الَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ أى فى جهنم . قال الأخفش: « كُلٌّ » مرفوع بالابتداء . وأجاز الكسائى والفراء « إِنَّا كُلًّا فِيهَا » بالنصب على النعت والتأكيد للضمر فى « إنا » وكذلك قرأ ابن السميقع وعيسى بن عمر . والكوفيون يسمون التأكيد نعتا . ومنع ذلك سيبويه ؛ قال : لأن « كُلًّا » لا تنعت ولا ينعت بها . ولا يجوز البدل فيه لأن المخبر عن نفسه لا يبدل منه غيره. وقال معناه المبرد؛ قال : لا يجوز أن يبدل من المضمر هنا ؛ لأنه مخاطب ولا يبدل من المخاطَب ولا من المخاطِب؛ لأنهما لا يشكلان فيبدل منهما؛ هذا نص كلامه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ أى لا يؤاخذ أحدا بذنب غيره فكل منا كافر .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ ﴾ من الأمم الكافرة . ومن العرب من يقول اللذون على أنه جمع مسلم معرب، ومن قال « الَّذِينَ » فى الرفع بناه كما كان فى الواحد مبنيا . وقال الأخفش : ضمت النون إلى الذى فأشبه خمسةَ عشرَ فبنى على الفتح . ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ خزنة جمع خازن ويقال خُزّان وخُزّن . ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ « يُخَفِّفْ » جواب مجزوم وإن كان بالفاء كان منصوبا ، إلا أن الأكثر فى كلام العرب فى جواب الأمر وما أشبهه أن يكون بغير فاء وعلى هذا جاء القرآن بأفصح اللغات كما قال[1] :

* قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ *

قال محمد بن كعب القرظى : بلغنى أو ذكر لى أن أهل النار استغاثوا بالخزنة، فقال الله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ » فسألوا يوما

(١) هو امرؤ القيس والبيت من معلقته ، وتمامه :

* بسقط اللوى بين الدخول فحومل *

واحدا يخفف عنهم فيه العذابُ فردّت عليهم ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ الخبر بطوله . وفى الحديث عن أبى الدرداء خرجه الترمذى وغيره قال : يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون منه فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيأكلونه لا يغنى عنهم شيئا ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غُصّة فيغَصّون به ، فيذكرون أنهم كانوا فى الدنيا يجيزون الغصص بالماء ، فيستغيثون بالشراب فيرفع لهم الحميم بالكلاليب ، فإذا دنا من وجوههم شواها ، فإذا وقع فى بطونهم قطع أمعاءهم وما فى بطونهم ، فيستغيثون بالملائكة يقولون « ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ » فيجيبوهم « أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى خسار وتبار .

قوله تعالى : إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ ويجوز حذف الضمة لثقلها فيقال « رُسْلَنَا » والمراد موسى عليه السلام . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فى موضع نصب عطف على الرسل ، والمراد المؤمن الذى وعظ . وقيل : هو عام فى الرسل والمؤمنين ، ونصرهم بإعلاء الحجج وإفلاحها فى قول أبى العالية . وقيل : بالانتقام من أعدائهم . قال السدى : ما قتل قوم قط نبيا أو قوما من دعاة الحق من المؤمنين إلا بعث الله عز وجل من ينتقم لهم ، فصاروا منصورين فيها وإن قتلوا .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ يعنى يوم القيامة . قال زيد بن أسلم : « الْأَشْهَادُ » أربعة : الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد . وقال مجاهد والسدى : « الْأَشْهَادُ » الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ وعلى الأمم بالتكذيب . وقال قتادة : الملائكة والأنبياء . ثم قيل :

« الأشهاد » جمع شهيد مثل شريف وأشراف . وقال الزجاج : « الأشهاد» جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب . النحاس : ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال ولا يقاس عليه ولكن ماجاء منه مسموعا أدى كما سمع، وكان على حذف الزائد. وأجاز الأخفش والفراء: «وَيَوْمَ تَقُومُ الْأَشْهَادُ » بالتاء على تأنيث الجماعة . وفي الحديث عن أبي الدرداء وبعض المحدثين يقول عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من ردّ عن عِرْض أخيه المسلم كان حقّا على الله عز وجل أن يردّ عنه نار جهنم" ثم تلا « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » . وعنه عليه السلام أنه قال: "من حمى مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله عز وجل يوم القيامة ملَكا يحميه من النار ومن ذكر مسلما بشيء يشينه به وقفه الله عز وجل على جسر من جهنم حتى يخرج مما قال"(1) . ﴿ يَوْمَ ﴾ بدل من يوم الأول . ﴿ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ قرأ نافع والكوفيون «ينفع» بالياء . الباقون بالتاء . ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ «اللَّعْنَةُ» البعد من رحمة الله و« سُوءُ الدَّارِ» جهنم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى ﴾ هذا دخل في نصرة الرسل في الدنيا والآخرة أي آتيناه التوراة والنبوة . وسميت التوراة هدى بما فيها من الهدى والنور ؛ وفي التنزيل : « إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ » . ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ يعني التوراة جعلناه لهم ميراثا . ﴿ هُدًى ﴾ بدل من الكتاب . ويجوز بمعنى هو هدى ؛ يعني ذلك الكتاب . ﴿ وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي موعظة لأصحاب العقول .

قوله تعالى : فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ

(1) ورواه سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه . النحاس .

خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ أى فٱصبر يا محمد على أذى المشركين ، كما صبر من قبلك « إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ » بنصرك وإظهارك ، كما نصرت موسى وبنى إسرائيل. وقال الكلبي : نسخ هـذا بآية السيف . ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ قيـل : لذنب أمتك حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقيل : لذنب نفسك على من يجوّز الصغائر على الأنبياء . ومن قال لا تجوز قال: هذا تعبد للنبي عليه السلام بالدعاء؛ كما قال تعالى: « وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا » والفائدة زيادة الدرجات وأن يصير الدعاء سنة لمن بعده . وقيل : فٱستغفر الله من ذنب صدر منك قبل النبوة . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ يعنى صـلاة الفجر وصلاة العصر ؛ قاله الحسن وقتادة . وقيل : هى صلاة كانت بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس ركعتان غُدوة وركعتان عشيّة . عن الحسن أيضا ذكره الماوردى . فيكون هذا مما نسخ والله أعلم . وقوله : « بِحَمْدِ رَبِّكَ » بالشكر له والثناء عليه . وقيـل : « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ » أى ٱستدم التسبيح فى الصلاة وخارجا منها لتشتغل بذلك عن ٱستعجال النصر .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ ﴾ يخاصمون ﴿ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ أى حجة ﴿ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ قال الزجاج : المعنى ما فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغى إرادتهم فيه . قدره على الحذف . وقال غيره : المعنى ما هم ببالغى الكبر على غير حذف؛ لأن هؤلاء قوم رأوا أنهم إن ٱتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم قل ٱرتفاعهم ، ونقصت أحوالهم ، وأنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تبعا ، فأعلم الله عز وجـل أنهم لا يبلغون الارتفاع الذى أمّلوه بالتكذيب . والمراد المشركون . وقيل : اليهود؛ فالآية مدنية على هذا كما تقدم أول السورة .

والمعنى؛ إن تعظموا عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا إن الدجال سيخرج عن قريب فيرد الملك إلينا ، وتسير معه الأنهار ، وهو آية من آيات الله [فذلك كبر لا يبلغونه[1]] فنزلت الآية فيهم ؛ قاله أبو العالية وغيره . وقد تقدم في « آل عمران[2] » أنه يخرج ويطأ البلاد كلها إلا مكة والمدينة . وقد ذكرنا خبره مستوفى في كتاب « التذكرة » . وهو يهودي واسمه صاف ويكنى أبا يوسف . وقيل : كل من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم . وهذا أحسن ؛ لأنه يعم . وقال مجاهد : معناه في صدورهم عظمة ما هم ببالغيها والمعنى واحد . وقيل : المراد بالكبر الأمر الكبير أي يطلبون النبوة أو أمرا كبيرا يصلون به إليك من القتل ونحوه . ولا يبلغون ذلك ، أو يتمنون موتك قبل أن يتم دينك ولا يبلغونه .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ قيل : من فتنة الدجال على قول من قال إن الآية نزلت في اليهود . وعلى القول الآخر من شر الكفار . وقيل : من مثل ما ابتلوا به من الكفر والكبر . ﴿ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ «هو» يكون فاصلا ويكون مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر إن على ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ مبتدأ وخبره . قال أبو العالية : أي أعظم من خلق الدجال حين عظمته اليهود . وقال يحيى بن سلام : هو احتجاج على منكري البعث . أي هما أكبر من إعادة خلق الناس فلم اعتقدوا عجزي عنها . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ أي المؤمن والكافر والضال والمهتدي . ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ﴾ أي ولا يستوي العامل للصالحات ﴿ وَلَا ٱلْمُسِيءُ ﴾ الذي يعمل السيئات . ﴿ قَلِيلًا مَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ قراءة العامة بياء على الخبر واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأجل ما قبله من الخبر وما بعده . وقرأ الكوفيون بالتاء على الخطاب .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٨٩ وما بعدها وص ١٠٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ هذه لام التأكيد دخلت فى خبر إن وسبيلها أن تكون فى أول الكلام ؛ لأنها توكيد الجملة إلا أنها تُزحلق عن موضعها؛ كذا قال سيبويه . تقول : إن عمرا لخارج ؛ وإنما أخرت عن موضعها لئلا يجمع بينها وبين إنّ ؛ لأنهما يؤديان عن معنى واحد ، وكذا لا يجمع بين إنّ وأنّ عند البصريين . وأجاز هشام إنّ أنّ زيدا منطلق حقّ؛ فإن حذفت حقّا لم يجز عند أحد من النحويين علمته؛ قاله النحاس. ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شك ولا مرية . ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى لا يصدّقون بها وعندها يبين فرق ما بين الطائع والعاصى .

قوله تعالى : وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الآية ؛ روى النعمان بن بشير قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : "الدعاء هو العبادة" ثم قرأ « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . فدل هذا على أن الدعاء هو العبادة . وكذا قال أكثر المفسرين

ون المعنى وحِّدونى واْعبدونى أتقبل عبادتكم وأغفر لكم . وقيل : هو الذكر والدعاء والسؤال.
قال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شِسْع نعله إذا انقطع" ويقال الدعاء هو ترك الذنوب . وحكى قتادة أن كعب الأحبار قال : أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم تعطهن أمة قبلهم إلا نبي ، كان إذا أرسل نبي قيل له أنت شاهد على أمتك ، وقال تعالى لهذه الأمة : « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » وكان يقال للنبي ليس عليك فى الدين من حرج ، وقال لهذه الأمة : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وكان يقال للنبي ٱدعنى أستجب لك ، وقال لهذه الأمة : « ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » .

قلت : مثل هـذا لا يقال من جهة الرأى ، وقد جاء مرفوعا ؛ رواه ليث عن شهر بن حَوْشَب عن عُبَادة بن الصامت ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أُعطيت أمتى ثلاثا لم تُعطَ إلا للأنبياء كان الله تعالى إذا بعث النبي قال ٱدعنى أستجب لك وقال لهذه الأمة « ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » وكان الله إذا بعث النبي قال ما جعل عليك فى الدين من حرج وقال لهذه الأمة « مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وكان الله إذا بعث النبي جعله شهيدا على قومه وجعل هذه الأمة شهداء على الناس" ذكره الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » . وكان خالد الربعى يقول : عجيب لهذه الأمة ! قيل لها : « ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » أمرهم بالدعاء ووعدهم الاستجابة وليس بينهما شرط . قال له قائل : مثل ماذا ؟ قال : مثل قوله تعالى : « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فها هنا شرط ، وقوله : « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ » فليس فيه شرط العمل ، ومثل قوله : « فَٱدْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » فها هنا شرط ، وقوله تعالى : « ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » ليس فيه شرط . وكانت الأمة تفزع إلى أنبيائها فى حوائجها حتى تسأل الأنبياء لهم ذلك . وقد قيل : إن هذا من باب المطلق والمقيد على ما تقدّم فى « البقرة »(1) بيانه . أى « أَسْتَجِبْ لَكُمْ » إن شئت ؛ كقوله : « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » . وقد تكون الاستجابة فى غير عين المطلوب على حديث أبى سعيد الخدرى على ما تقدّم

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٠٩ طبعة ثانية .

في « البقرة » بيانه فتأمله هناك . وقرأ ابن كثير وابن محيصن ورويس عن يعقوب وعياش عن أبي عمرو وأبو بكر والمفضل عن عاصم « سَيُدْخَلُونَ » بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله . الباقون « يَدْخُلُونَ » بفتح الياء وضم الخاء . ومعنى ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ صاغرين أذلاء، وقد تقدم (١) .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ « جَعَلَ » هنا بمعنى خلق؛ والعرب تفرق بين جعل إذا كانت بمعنى خلق وبين جعل إذا لم تكن بمعنى خلق فإذا كانت بمعنى خلق فلا تعديها إلا إلى مفعول واحد، وإذا لم تكن بمعنى خلق عدتها إلى مفعولين؛ نحو قوله : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » وقد مضى هذا المعنى في غير موضع (٢) . ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي مضيئا لتبصروا فيه حوائجكم وتتصرفوا في طلب معائشكم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فضله وإنعامه عليهم .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ بين الدلالة على وحدانيته وقدرته . ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي كيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان بعد أن تبينت لكم دلائله كذلك؛ أي كما صرفتم عن الحق مع قيام الدليل عليه فـ ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ ﴾ يصرف عن الحق ﴿ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ زاد في تأكيد التعريف والدليل؛ أي جعل لكم الأرض مستقرا لكم في حياتكم وبعد الموت . ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ تقدم (٣) ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي خلقكم في أحسن صورة . وقرأ أبو رزين والأشهب العقيلي « صِوَرَكُمْ » بكسر الصاد؛ قال الجوهري : والصِّور بكسر الصاد لغة في الصُّور جمع صُورة؛ وينشد هذا البيت على هذه اللغة يصف الجواري :

أشبهن من بقر الخلصاء أعينها * وهن أحسن من صيرانها صِوَرا

(١) راجع جـ ١٠ ص ١١١ وجـ ١٢ ص ٢٤٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٨٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٢٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

[والصِّيران جمع صِوار وهو القطيع من البقر والصُّوار أيضا وعاء المسك][1] وقد جمعهما الشاعر بقوله :

إذا لاح الصِّوار ذكرتُ ليلى * وأذكرُها إذا نفح الصُّوار

والصِّيار لغة فيه . ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ تقدّم[2] . ﴿ هُوَ الْحَيُّ ﴾ أى الباقى الذى لا يموت ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى الطاعة والعبادة . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الفراء : هو خبر وفيه إضمار أمر أى ادعوه واحمدوه . وقد مضى هذا كله مستوفى فى « البقرة »[3] وغيرها . وقال ابن عباس : من قال « لا إله إلا الله » فليقل « الحمد لله رب العالمين » .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ ﴾ أى قل يا محمد نهانى الله الذى هو الحى القيوم ولا إله غيره ﴿ أَنْ أَعْبُدَ ﴾ غيره . ﴿ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ﴾ أى دلائل توحيده ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴾ أذل وأخضع ﴿ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وكانوا دعوه إلى دين آبائه ، فأمر أن يقول هذا .

---

(١) الزيادة من الصحاح للجوهرى لا يتم الكلام إلا بها .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣ طبعة أولى أو ثانية . وجـ ١ ص ١٣٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) مضى هذا الكلام للصنف فى تفسير الفاتحة جـ ١ ص ١٣٦ فليراجع هناك لا فى البقرة ولعل ما فى الأصل تحريف .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أى أطفالا. وقد تقدّم هذا (١) . ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ وهى حالة آجتماع القوة وتمام العقل . وقد مضى فى « الأنعام » بيانه (٢) . ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ بضم الشين قراءة نافع وآبن محيصن وحفص وهشام ويعقوب وأبو عمرو على الأصل ؛ لأنه جمع فَعْل ، نحو : قَلْب وقُلُوب ورأس ورءوس . وقرأ الباقون بكسر الشين لمراعاة الياء وكلاهما جمع كثرة ، وفى العدد القليل أشياخ والأصل أشيخ ؛ مثل فلس وأفلس إلا أن الحركة فى الياء ثقيلة . وقرئ « شَيْخًا » على التوحيد ؛ كقوله « طِفْلًا » والمعنى كل واحد منكم ؛ وآقتصر على الواحد لأن الغرض بيان الجنس . وفى الصحاح : جمع الشَّيخ شُيوخ وأشياخ وشِيخة وشِيخان ومَشْيخة ومَشَايخ ومَشْيوخاء والمرأة شَيخة . قال عَبِيد (٣) :

* كأنَّها شَيْخةٌ رَقُوبُ (٤) *

وقد شاخ الرجلُ يَشِيخ شَيَخا بالتحريك على أصله وشَيْخوخة ، وأصل الياء متحركة فسكنت ؛ لأنه ليس فى الكلام فَعْلول . وشَيَّخ تَشْيِيخا أى شاخ . [وشَيَّخته (٥)] دعوته شيخا للتبجيل . وتصغير الشيخ شُيَيْخ وشِيَيْخ أيضا بكسر الشين ولا تقل شُوَيْخ . النحاس : وإن آضطر شاعر جاز أن يقول أشيخ مثل عين وأعين إلا أنه حسن فى عين ؛ لأنها مؤنثة . والشيخ من جاوز أربعين سنة . ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ﴾ قال مجاهد : أى من قبل أن يكون شيخا ، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطا . ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى ﴾ قال مجاهد : الموت للكل . واللام لام العاقبة . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ذلك فتعلموا أن لا إله غيره .

---

(١) راجع ج ١٢ ص ١١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع ج ٧ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٣) هو عبيد بن الأبرص .

(٤) الرقوب : التى ترقب ولدها خوف أن يموت . والبيت فى وصف فرسه ؛ وتمامه :

* باتت على أرم عذوبا *

(٥) الزيادة من كتب اللغة .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ زاد في التنبيه أي هو الذي يقدر على الإحياء والإماتة . ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا ﴾ أي أراد فعله قال ﴿ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . ونصب « فيكون » ابن عامر على جواب الأمر . وقد مضى في « البقرة »(١) القول فيه .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ قال ابن زيد : هم المشركون بدليل قوله : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ . وقال أكثر المفسرين : نزلت في القدرية . قال ابن سيرين : إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرية

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٧ طبعة ثانية .

فلا أدرى فيمن نزلت . قال أبو قبيل : لا أحسب المكذّبين بالقَدَر إلا الذين يجادلون الذين آمنوا . وقال عقبة بن عامر: قال النبي صلى الله عليه وسلم : "نزلت هذه الآية في القَدَرية" ذكره المهدوي .

قوله تعالى : ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أي عن قريب يعلمون بطلان ما هم فيه إذا دخلوا النار وغُلّت أيديهم إلى أعناقهم . قال التيمي : لو أن غُلًّا من أغلال جهنم وضع على جبل لوَهَصه حتى يبلغ الماء الأسود . ﴿ وَالسَّلَاسِلُ ﴾ بالرفع قراءة العامة عطفا على الأغلال . قال أبو حاتم : ﴿ يُسْحَبُونَ ﴾ مستأنف على هذه القراءة . وقال غيره : هو في موضع نصب على الحال ؛ والتقدير « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ » مسحوبين . وقرأ ابن عباس وأبو الجوزاء وعكرمة وابن مسعود « والسلاسِلَ » بالنصب " يَسْحَبُونَ " بفتح الياء والتقدير في هذه القراءة ويسحبون السلاسل . قال ابن عباس : إذا كانوا يجرونها فهو أشد عليهم . وحكى عن بعضهم « وَالسَّلَاسِلِ » بالجر ووجهه أنه محمول على المعنى ؛ لأن المعنى أعناقهم في الأغلال والسلاسلِ ؛ قاله الفراء . وقال الزجاج : ومن قرأ « والسلاسِلِ يُسْحَبُونَ » بالخفض فالمعنى عنده وفي « السلاسِلِ يُسْحَبُونَ » . قال ابن الأنباري : والخفض على هذا المعنى غير جائز؛ لأنك إذا قلت زيد في الدار لم يحسن أن تضمر«في»فتقول زيد الدارِ، ولكن الخفض جائز على معنى إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل، فتخفض السلاسل على النسق على تأويل الأغلال ؛ لأن الأغلال في تأويل الخفض ؛ كما تقول : خاصم عبد الله زيدا العاقلين فتنصب العاقلين . ويجوز رفعهما؛ لأن أحدهما إذا خاصم صاحبه فقد خاصمه صاحبه؛ أنشد الفراء :

قد سَالَمَ الحيَّاتِ منه القَدَمَا * الأُفْعُوَانَ والشُّجاعَ الشَّجْعَمَا[1]

فنصب الأفعوان على الإتباع للحيات إذا سالمت القدم فقد سالمتها القدم . فمن نصب السلاسل أو خفضها لم يقف عليها . و «الحميم» المتناهي في الحر . وقيل : الصديد المغلى . ﴿ ثُمَّ فِي النَّارِ

(١) الشجعم : الضخم من الحيات .

يُسْجَرُونَ ﴾ أي يطرحون فيها فيكونون وقودا لها ؛ قاله مجاهد . يقال : سجرت التنور أي أوقدته ، وسجرته ملأته ومنه « وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ » أي المملوء. فالمعنى على هذا تملأ بهم النار، وقال الشاعر يصف وعلا :

إذا شاءَ طالَعَ مسجُورةً * ترى حولَها النَّبعَ والسَّمْسَما

أي عينا مملوءة . ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ وهذا تقريع وتوبيخ . ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أي هلكوا وذهبوا عنا وتركونا في العذاب ؛ من ضلّ الماءُ في اللبن أي خفي . وقيل : أي صاروا بحيث لا نجدهم . ﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أي شيئا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع . وليس هذا إنكارا لعبادة الأصنام، بل هو اعتراف بأن عبادتهم الأصنام كانت باطلة؛ قال الله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ ﴾ أي كما فعل بهؤلاء من الإضلال يفعل بكل كافر .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أي ذلكم العذاب ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ بالمعاصي يقال لهم ذلك توبيخا . أي إنما نالكم هذا بما كنتم تظهرون في الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المال والأتباع والصحة . وقيل إن فرحهم بما عندهم أنهم قالوا للرسل : نحن نعلم أنا لا نبعث ولا نعذّب . وكذا قال مجاهد في قوله جل وعز: « فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » . ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ قال مجاهد وغيره : أي تبطرون وتأشرون . وقد مضى في « سبحان »[1] بيانه . وقال الضحاك : الفرح السرور والمرح العدوان . وروى خالد عن ثور عن معاذ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يبغض البذخين الفرحين ويحب كل قلب حزين ويبغض أهل بيت لَحِمِين ويبغض كل حبر سمين"[2] فأما أهل بيت لَحِمِين فالذين يأكلون لحوم الناس بالغيبة . وأما الحبر السمين فالمتحبر بعلمه ولا يخبر بعلمه الناس؛ يعني المستكثر من علمه ولا ينتفع به الناس . ذكره الماوردي . وقد قيل في

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٠ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) الحديث في النهاية " إن الله ليبغض أهل البيت اللحمين " .

النَّهِمِين : أنهم الذين يكثرون أكل اللحم ؛ ومنه قول عمر : آتقوا هذه المجازر فإن لها ضَرَاوة[1] كضراوة الخمر . ذكره المهدوى . والأوّل قول سفيان الثورى . ﴿ ٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أى يقال لهم ذلك اليوم ، وقد قال الله تعالى : « لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ » . ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ تقدم جميعه[2] .

قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ هذا تسلية للنبي عليه السلام ؛ أى إنا لننتقم لك منهم إما فى حياتك أو فى الآخرة . ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ فى موضع جزم بالشرط وما زائدة للتوكيد وكذا النون وزال الجزم وبنى الفعل على الفتح . ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ عطف عليه ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ الجواب .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ عزّاه أيضا بما لقيت الرسل من قبله . ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ أى أنبأناك بأخبارهم وما لقوا من قومهم . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ ﴾ أى من قبل نفسه ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أى إذا جاء الوقت المسمى لعذابهم أهلكهم الله ، وإنما التأخير لإسلام من علم الله إسلامه منهم ، ولمن فى أصلابهم من المؤمنين . وقيل : أشار بهذا إلى القتل ببدر . ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أى الذين يتبعون الباطل والشرك .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ ﴾ قال أبو إسحق الزجاج : الأنعام ها هنا الإبل ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فآحتج من منع من أكل الخيل وأباح أكل الجمال بأن

(١) الضراوة فى قول عمر العادة فى النفس الطالبة لأكل اللحم ، وهى حال ناشئة عن الأعتياد .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٠ وص ١٠٠ طبعة أولى أو ثانية

الله عز وجل قال فى الأنعام : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ وقال فى الخيل : « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا » ولم يذكر إباحة أكلها . وقد مضى هذا فى « النحل » مستوفى .(١)

قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ فى الوبر والصوف والشعر واللبن والزبد والسمن والجبن وغير ذلك . ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أى تحمل الأثقال والأسفار . وقد مضى فى «النحل»(٢) بيان هذا كله فلا معنى لإعادته . ثم قال : ﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ يعنى الأنعام فى البر ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ ﴾ فى البحر ﴿ تُحْمَلُونَ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أى آياته الدالة على وحدانيته وقدرته فيما ذكر . ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ ﴾ نصب « أيا » بـ« تُنْكِرُونَ » ؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله ، ولو كان مع الفعل هاء لكان الاختيار فى « أىّ » الرفع ، ولو كان الاستفهام بألف أو هل وكان بعدهما اسم بعده فعل معه هاء لكان الاختيار النصب ؛ أى إذا كنتم لا تنكرون أن هذه الأشياء من الله فلم تنكرون قدرته على البعث والنشر .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا
أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)
فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ
مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ
الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ حتى يشاهدوا آثار الأمم السالفة ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ عددا ﴿ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الأبنية والأموال وما أدالوا به من الأولاد والأتباع ؛ يقال : دلوت بفلان إليك أى استشفعت

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٧١ طبعة أولى أو ثانية .

به إليك . وعلى هذا « ما » للجحد أى فلم يغن عنهم ذلك شيئا . وقيل : « ما » للاستفهام أى أىّ شيء أغنى عنهم كسبهم حين هلكوا . ولم ينصرف « أَكْثَرَ » ؛ لأنه على وزن أفعلَ. وزعم الكوفيون أن كل ما لا ينصرف فإنه يجوز أن ينصرف إلا أفعل من كذا فإنه لا يجوز صرفه بوجه فى شعر ولا غيره إذا كانت معه مِن . قال أبو العباس : ولو كانت مِن المانعة من صرفه لوجب ألا يقال : مررت بخير منك وشر [منكَ و](1) من عمرو .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالآيات الواضحات . ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ فى معناه ثلاثة أقوال . قال مجاهد : إن الكفار الذين فرحوا بما عندهم من العلم قالوا نحن أعلم منهم لن نعذّب ولن نبعث . وقيل : فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا نحو « يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . وقيل : الذين فرحوا الرسل لما كذبهم قومهم أعلمهم الله عز وجل أنه مهلك الكافرين ومنجيهم والمؤمنين فـ « فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » بنجاة المؤمنين ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى بالكفار ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى عقاب استهزائهم بما جاء به الرسل صلوات الله عليهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أى عاينوا العذاب . ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أى بالأوثان التى أشركناهم فى العبادة ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ ﴾ بالله عند معاينة العذاب وحين رأوا البأس . ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ ﴾ مصدر ؛ لأن العرب تقول : سنّ يسنّ سنّا وسُنّة ؛ أى سنّ الله عز وجل فى الكفار أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب . وقد مضى هذا مبينا فى « النساء »(2) و « يونس »(3) وأن التوبة لا تقبل بعد رؤية العذاب وحصول العلم الضرورى . وقيل : أى احذروا يأهل مكة سنّة الله فى إهلاك الكفرة فـ « سنّة الله » منصوب على التحذير والإغراء . ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ قال الزجاج : وقد كانوا خاسرين من قبل ذلك إلا أنه بيّن لنا الخسران لما رأوا العذاب . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى « لَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » « وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » كسنّتنا فى جميع الكافرين فـ « سنّةَ » نصب بنزع الخافض أى كسنّة الله فى الأمم كلها . والله أعلم . تم تفسير سورة « غافر » والحمد لله .

---

(1) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس . (2) راجع جـ ٥ ص ٩٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(3) راجع جـ ٨ ص ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية .

سورة فصلت مكية فى قول الجميع

وهى أربع وخمسون، وقيل : ثلاث وخمسون آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الزجاج : « تَنْزِيلٌ » رفع بالابتداء وخبره ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ وهذا قول البصريين . وقال الفراء : يجوز أن يكون رفعه على إضمار هذا . ويجوز أن يقال « كِتَابٌ » بدل من قوله : « تَنْزِيلٌ » . وقيل : نعت لقوله : « تَنْزِيلٌ » . وقيل : « حمٓ » أى هذه « حمٓ » كما تقول باب كذا أى هو باب كذا فـ « حمٓ » خبر ابتداء مضمر أى هو « حمٓ » وقوله « تَنْزِيلٌ » مبتدأ آخر وقوله « كِتَابٌ » خبره . « فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » أى بينت وفسرت . قال قتادة : ببيان حلاله من حرامه وطاعته من معصيته . الحسن : بالوعد والوعيد . سفيان : بالثواب والعقاب . وقرئ « فَصَلَتْ » أى فرقت بين الحق والباطل، أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها؛ من قولك فصل أى تباعد من البلد . ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ فى نصبه وجوه؛ قال الأخفش : هو نصب على المدح . وقيل : على إضمار فعل أى أذكر « قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقيل : على إعادة الفعل أى فصلنا « قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقيل : على الحال أى « فُصِّلَتْ آيَاتُه » فى حال كونه « قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقيل : لما شغل « فُصِّلَتْ » بالآيات حتى صارت بمنزلة الفاعل انتصب « قُرْآنًا » لوقوع البيان عليه . وقيل : على القطع . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ قال الضحاك : أى إن

القرآنُ منزل من عند الله . وقال مجاهد : أى يعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل ؛ وقيل : يعلمون العربية فيعجزون عن مثله ولو كان غير عربى لما علموه .

قلت : هذا أصح والسورة نزلت تقريعا وتوبيخا لقريش فى إعجاز القرآن . ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ حالان من الآيات والعامل فيه « فصلت » . وقيل : هما نعتان للقرآن « بَشِيرًا » لأولياء الله « نَذِيرًا » لأعدائه . وقرئ « بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ » صفة للكتاب . أو خبر مبتدإ محذوف . ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ يعنى أهل مكة ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ سماعا ينتفعون به . وروى أن الريان بن حرملة قال : قال الملأ من قريش وأبو جهل قد ٱلتبس علينا أمر محمد ، فلو ٱلتمستم رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره ؛ فقال عتبة ابن ربيعة : والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر ، وعلمت من ذلك علما لا يخفى على إن كان كذلك . فقالوا : إيته فحدّثه . فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : يا محمد ! أنت خير أم قصىّ بن كلاب ؟ أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ فبم تشتم آلهتنا ، وتضلل آباءنا ، وتسفه أحلامنا ، وتذم ديننا ؟ فإن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت ، وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أى بنات قريش شئت ، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغنى به أنت وعقبك من بعدك ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا فى طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك . والنبي صلى الله عليه وسلم ساكت ، فلما فرغ قال : " قد فرغت يا أبا الوليد " قال : نعم . [قال فٱسمع منى] (1) قال يا بن أخى أسمع [قال] « بِسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم . حمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » إلى قوله « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » فوثب عتبة ووضع يده على فم النبي صلى الله عليه وسلم ، وناشده الله والرحم ليسكتن ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فجاءه أبو جهل ، فقال :

(1) الزيادة من سيرة ابن هشام .

أصبوتَ إلى محمد ؟ أم أعجبكَ طعامه ؟ فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمدا أبدا ، ثم قال : والله لقد تعلمون أنى من أكثر قريش مالا ، ولكنى لما قصصت عليه القصة أجابنى بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر؛ ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله : «مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ» وأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكفّ ، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب ؛ يعنى الصاعقة . وقد روى هذا الخبر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الردّ له عن محمد بن كعب القرظى ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ «حم . فُصِّلَتْ» حتى آنتهى إلى السجدة فسجد وعتبة مصغٍ يستمع ، قد آعتمد على يديه من وراء ظهره . فلما قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم القراءة قال له : "يا أبا الوليد قد سمعتَ الذى قرأتُ عليك فأنت وذاك" فآنصرف عتبة إلى قريش فى ناديها فقالوا : والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى مضى به من عندكم . ثم قالوا : ما وراءك أبا الوليد؟ قال : والله لقد سمعت كلاما من محمد ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ، فأطيعونى فى هذه وأنزلوها بى ؛ خلّوا محمدا وشأنه وآعتزلوه ، فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ ، فإن أصابته العرب كُفيتموه بأيدى غيركم ، وإن كان ملكا أو نبيا كنتم أسعد الناس به ؛ لأن ملكه ملككم وشرفه شرفكم . فقالوا : هيهات ! سحرك محمد يا أبا الوليد . وقال : هذا رأيى لكم فآصنعوا ما شئتم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ الأكنة جمع كِنَان وهو الغطاء . وقد مضى فى « البقرة »(1) . قال مجاهد : الكنان للقلب كالجنة للنبل . ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أى صمم ؛ فكلامك لا يدخل أسماعنا ، وقلوبنا مستورة عن فهمه . ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ أى خلاف فى الدين ؛ لأنهم يعبدون الأصنام وهو يعبد الله عز وجل . قال معناه الفراء وغيره . وقيل : ستر مانع عن الإجابة . وقيل : إن أبا جهل آستغشى على رأسه ثوبا وقال : يا محمد بيننا وبينك حجاب ، آستهزاء منه . حكاه النقاش وذكره القشيرى . فالحجاب هنا

---

(1) راجع جـ ٢ ص ٢٥ طبعة ثانية .

الثوب . ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ أى اعمل فى هلاكنا فإنا عاملون فى هلاكك ؛ قاله الكلبي . وقال مقاتل : اعمل لإلهك الذى أرسلك ، فإنا نعمل لآلهتنا التى نعبدها . وقيل : اعمل بما يقتضيه دينك ، فإنا عاملون بما يقتضيه ديننا . ويحتمل خامسا[1] : فاعمل لآخرتك فإنا نعمل لدنيانا ؛ ذكره الماوردى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أى لست بملك بل أنا من بنى آدم . قال الحسن : علمه الله تعالى التواضع . ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أى من السماء على أيدى الملائكة ﴿ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ ﴿ فَـ ﴾ آمنوا به و﴿ اسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ أى وجهوا وجوهكم بالدعاء له والمسئلة إليه ، كما يقول الرجل : استقم إلى منزلك ؛ أى لا تعرج على شيء غير القصد إلى منزلك . ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أى من شرككم . ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ قال ابن عباس : لا يشهدون « أن لا إله إلا الله » وهى زكاة الأنفس . وقال قتادة : لا يقرون بالزكاة أنها واجبة . وقال الضحاك ومقاتل : لا يتصدقون ولا ينفقون فى الطاعة . قرّعهم بالشح الذى يأنف منه الفضلاء ، وفيه دلالة على أن الكافر يعذّب بكفره مع منع وجوب الزكاة عليه . وقال الفراء وغيره : كان المشركون ينفقون النفقات ، ويسقون الحجيج ويطعمونهم ، فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فنزلت فيهم هذه الآية . ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ فلهذا لا ينفقون فى الطاعة ولا يستقيمون ولا يستغفرون .

(١) لم يذكر المصنف إلا أربعة أقوال ولعل الخامس ما ذكره الكشاف : « فاعمل فى إبطال أمرنا إننا عاملون فى إبطال أمرك » .

الزمخشري : فإن قلت لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة؟ قلت : لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله فى سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته [واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته](١) ألا ترى إلى قوله عز وجل : « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أى يثبتون أنفسهم ، ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال ، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة(٢) من الدنيا ، فقويت عصبيتهم ولانت شكيمتهم ؛ وأهل الردة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتظاهروا إلا بمنع الزكاة ، فنصبت لهم الحروب وجوهدوا . وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة ، وتخويف شديد من منعها ، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين ، وقرن بالكفر بالآخرة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال ٱبن عباس : غير مقطوع ؛ مأخوذ من مننت الحبل إذا قطعته ؛ ومنه قول ذى الإصبع :

إنّى لَعَمْـرُك ما بابى بـذِى غَـلَقٍ * على الصَّـديقِ ولا خَيْرِى بِمَمْنُـونِ(٣)

وقال آخر :

فَتَرى خَلْفَها مِنَ الرَّجْعِ والوَقْـ * ـعِ مَنِينـا كـأنّه أَهْبـاءُ

يعنى بالمنين الغبار المنقطع الضعيف . وعن ٱبن عباس أيضا ومقاتل : غير منقوص . ومنه المَنُون ، لأنها تنقص مُنّة الإنسان أى قوّته ؛ وقاله قطرب ؛ وأنشد قول زهير :

فَضْلَ الجيادِ على الخيلِ البِطاءِ فَلَا * يُعْـطِى بِـذلِك مَمْنُـوناً ولا نَـزِقا(٤)

قال الجوهرى : والمنّ القطع ، ويقال النقص ؛ ومنه قوله تعالى : « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » . وقال لَبِيـد :

* غُبْسٌ كَوَاسِبُ لَا يُمَنُّ طَعَامُهَا *(٥)

---

(١) الزيادة من تفسير الزمخشرى . (٢) اللمظة فى اللغة : النكتة من بياض أو سواد ، والمراد بها هنا الشيء اليسير من حطام الدنيا . (٣) ويروى : ولا زادى بممنون . (٤) البيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان . (٥) صدر البيت : * لمعفر قهد تنازع شلوه *
قد وقع هذا البيت غلطا فى بعض نسخ الجوهرى فراجع تحقيقه فى اللسان مادة « من » .

وقال مجاهد : « غير ممنون » غير محسوب . وقيل : « غير ممنون » عليهم به . قال السدى : نزلت في الزمنى والمرضى والهرمى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه .

قوله تعالى : قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ « أَئِنَّكُمْ » بهمزتين الثانية بين بين و « أَائِنَّكُمْ » بألف بين همزتين وهو استفهام معناه التوبيخ . أمره بتوبيخهم والتعجب من فعلهم ، أي لم تكفرون بالله وهو خالق السموات والأرض ؟ ! « فِى يَوْمَيْنِ » الأحد والاثنين . ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ أي أضدادا وشركاء ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ . ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا﴾ يعني الجبال . قال وهب : لما خلق الله الأرض مادت على وجه الماء ، فقال لجبريل : ثبتها يا جبريل . فنزل فأمسكها فغلبته الرياح ، قال : يا رب أنت أعلم لقد غُلبت فيها فثبتها بالجبال وأرساها ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ بما خلق فيها من المنافع . قال السدى : أنبت فيها شجرها . ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ قال السدى والحسن : أرزاق أهلها ومصالحهم . وقال قتادة ومجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها في يوم الثلاثاء والأربعاء . وقال عكرمة والضحاك : معنى « وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا » أي أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من

التجارات والأشجار والمنافع فى كل بلدة ما لم يجعله فى الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد . قال عكرمة : حتى إنه فى بعض البلاد ليتبايعون الذهب بالملح مثلاً بمثل . وقال مجاهد والضحاك : السابرىّ من سابور والطيالسة من الرّى والحبَر اليمانية من اليمن . ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ يعنى فى تتمة أربعة أيام . ومثاله قول القائل : خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام وإلى الكوفة فى خمسة عشر يوما ؛ أى فى تتمة خمسة عشر يوما . قال معناه آبن الأنبارى وغيره . ﴿ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ قال الحسن . المعنى فى أربعة أيام مستوية تامة . الفراء : فى الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى ؛ وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين . وآختاره الطبرى . وقرأ الحسن البصرى ويعقوب الحضرمى « سَوَاءٍ لِلسَّائِلِينَ » بالجر . وعن آبن القعقاع « سَوَاءٌ » بالرفع ؛ فالنصب على المصدر و « سَوَاءً » بمعنى آستواء أى آستوت آستواء . وقيل : على الحال والقطع ؛ والجر على النعت لأيام أو لأربعة أى « فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ » مستوية تامة . والرفع على الآبتداء والخبر « لِلسَّائِلِينَ » أو على تقدير هذه « سَوَاءٌ لِلسَّائِلِينَ » . وقال أهل المعانى : معنى « سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ » ولغير السائلين أى خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل ؛ ويعطى من سأل ومن لا يسأل .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ أى عمد إلى خلقها وقصد لتسويتها . والآستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال ؛ يدل عليه قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ » وقد مضى القول هناك[1] . وروى أبو صالح عن آبن عباس فى قوله : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ » يعنى صعد أمره إلى السماء ؛ وقاله الحسن . ومن قال : إنه صفة ذاتية زائدة قال آستوى فى الأزل بصفاته . و « ثُمَّ » ترجع إلى نقل السماء من صفة الدخان إلى حالة الكثافة ، وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس ؛ على ما مضى فى « البقرة » عن آبن مسعود وغيره . ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أى جيئا بما خلقت فيكما من المنافع والمصالح وأخرجاها لخلق . قال آبن عباس : قال الله تعالى للسماء : أطلعى شمسك

(١) راجع جـ ١ ص ٢٥٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض : شُقِّى أنهارك وأخرجى شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين « قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » . وفى الكلام حذف أى أتينا أمرك « طَائِعِينَ » . وقيل : معنى هذا الأمر التسخير ؛ أى كونا فكانتا كما قال تعالى : « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » فعلى هـذا قال ذلك قبل خلقهما . وعلى القول الأول قال ذلك بعد خلقهما . وهو قول الجمهور . وفى قوله تعالى لها وجهان ؛ أحدهما أنه قول تكلم به . الثانى أنها قدرة منه ظهرت لها فقام مقام الكلام فى بلوغ المراد ؛ ذكره الماوردى . ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ فيه أيضا وجهان ؛ أحدهما أنه ظهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولهما ؛ ومنه قول الراجز :

امْتَلأَ الحَوْضُ وقال قَطْنِي * مَهْلاً رُوَيْدا قَدْ مَلأْتَ بَطْنِي

يعنى ظهر ذلك فيه . وقال أكثر أهل العلم : بل خلق الله فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد تعالى ؛ قال أبو نصر السكسكى : فنطق من الأرض موضع الكعبة ، ونطق من السماء ما بحيالها ، فوضع الله تعالى فيه حرمه . وقال : « طَائِعِينَ » ولم يقل طائعتين على اللفظ ولا طائعات على المعنى ؛ لأنهما سموات وأرضون ؛ لأنه أخبر عنهما وعمن فيهما . وقيل : لما وصفهن بالقول والإجابة وذلك من صفات من يعقل أجراهما فى الكناية مجرى من يعقل ؛ ومثله « رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ »[(1)] وقد تقدم . وفى حديث : إن موسى عليه الصلاة والسلام قال : يا رب لو أن السموات والأرض حين قلت لها « ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا » عصياك ما كنت صانعا بهما ؟ قال : كنت آمر دابة من دوابى فتبتلعهما . قال : يا رب وأين تلك الدابة ؟ قال : فى مرج من مروجى . قال : يا رب وأين ذلك المرج؟ قال : علم من علمى . ذكره الثعلبى . وقرأ ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة « آتيا » بالمد والفتح . وكذلك قوله : « آتَيْنَا طَائِعِينَ » على معنى أعطيا الطاعة من أنفسكما « قَالَتَا » أعطينا « طَائِعِينَ » فحذف المفعولين جميعا . ويجوز وهو أحسن أن يكون « آتَيْنَا » فاعلنا فحذف مفعول واحد . ومن قرأ « أَتَيْنَا » فالمعنى جئنا بما فينا ؛ على ما تقدم بيانه فى غير ما موضع والحمد لله .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٤ وجـ ٩ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أى أكملهن وفرغ منهن . وقيل : أحكمهن كما قال :[1]

وعليهما مَسْرُودَتانِ قَضَاهُمَا * دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ

﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ سوى الأربعة الأيام التى خلق فيها الأرض ، فوقع خلق السموات والأرض فى ستة أيام ؛ كما قال تعالى : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » على ما تقدّم فى « الأعراف »[2] بيانه . قال مجاهد : ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون . وعن عبد الله بن سَلَام قال : خلق الله الأرض فى يومين ، وقدّر فيها أقواتها فى يومين ، وخلق السموات فى يومين ؛ خلق الأرض فى يوم الأحد والاثنين ، وقدّر فيها أقواتها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، وخلق السموات فى يوم الخميس ويوم الجمعة ، وآخر ساعة فى يوم الجمعة خلق الله آدم فى عجل ، وهى التى تقوم فيها الساعة ، وما خلق الله من دابة إلا وهى تفزع من يوم الجمعة إلا الإنس والجن . على هذا أهل التفسير ؛ إلا مارواه مسلم من حديث أبى هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى ، فقال : "خلق الله التُّرْبة يوم السبت" الحديث وقد تكلمنا على إسناده فى أوّل سورة « الأنعام »[3] . ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ قال قتادة والسدى : خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها ، وخلق فى كل سماء خَلْقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البَرد والثلوج . وهو قول ابن عباس ؛ قال : ولله فى كل سماء بيت تحج إليه وتطوف به الملائكة بحذاء الكعبة ، والذى فى السماء الدنيا هو البيت المعمور . وقيل : أوحى الله فى كل سماء ؛ أى أوحى فيها ما أراده وما أمر به فيها . والإيحاء قد يكون أمرا ؛ لقوله : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » وقوله : « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ » أى أمرتهم وهو أمر تكوين . ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ أى بكواكب تضيء . وقيل : إن فى كل سماء كواكب تضيء . وقيل : بل الكواكب مختصة بالسماء الدنيا ﴿ وَحِفْظًا ﴾ أى وحفظناها حفظا ؛ أى من الشياطين الذين يسترقون السمع . وهذا

---

(١) هو أبو ذؤيب الهذلى . والصنع بفتحتين الحاذق . (٢) راجع ج ٧ ص ٢١٩ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع ج ٦ ص ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية .

الحفظ بالكواكب التي ترجم بها الشياطين على ما تقدّم في «الحِجْر»(١) بيانه . وظاهر هذه الآية يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء . وقال في آية أخرى : «أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا» ثم قال : «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا» وهذا يدل على خلق السماء أولا . وقال قوم : خلقت الأرض قبل السماء ؛ فأما قوله : «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا» فالدحو غير الخلق ؛ فالله خلق الأرض ثم خلق السموات ، ثم دحا الأرض أى مدّها و بسطها ؛ قاله ابن عباس . وقد مضى هذا المعنى مجودا في «البقرة»(٢) والحمد لله . ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ .

قوله تعالى : فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ .

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعنى كفار قريش عما تدعوهم إليه يا محمد من الإيمان . ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أى خوفتكم هلاكا مثل هلاك عاد وثمود . ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعنى من أرسل إليهم و إلى من قبلهم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ موضع «أَنْ» نصب بإسقاط الخافض أى بـ «أَلَّا تَعْبُدُوا» و ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ بدل الرسل ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ من الإنذار والتبشير . قيل : هذا استهزاء منهم . وقيل : إقرار منهم بإرسالهم ثم بعده جحود وعناد .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٥٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ على عباد الله هود ومن آمن معه ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ اغتروا بأجسامهم حين تهدّدهم بالعذاب، وقالوا : نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوّتنا . وذلك أنهم كانوا ذوى أجسام طوال وخلق عظيم . وقد مضى فى « الأعراف »(١) عن ابن عباس : أن أطولهم كان مائة ذراع وأقصرهم كان ستين ذراعا . فقال الله تعالى ردّا عليهم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ وقدرة ، وإنما يقدر العبد بإقدار الله فالله أقدر إذا . ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أى بمعجزاتنا يكفرون .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ هذا تفسير الصاعقة التى أرسلها عليهم ، أى ريحا باردة شديدة البرد وشديدة الصوت والهبوب . ويقال : أصلها صَرَّر من الصِّرّ [وهو البَرْد](٢) فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل ؛ كقولهم كَبْكَبوا أصله كَبَّبوا وتجفجف الثوبُ أصله تجفَّف . أبو عبيدة : معنى صَرْصَر شديدة عاصفة . عكرمة وسعيد بن جبير : شديدة البرد . وأنشد قطرب قول الحطيئة :

المُطْعِمون إذا هَبَّتْ بصَرْصَرةٍ * والحامِلون إذا آستُودُوا على النّاسِ

آستودوا إذا سئلوا الدية . مجاهد : الشديدة السموم . وروى معمر عن قتادة قال : باردة ، وقاله عطاء ؛ لأن « صَرْصَرًا » مأخوذ من صِرّ والصِّرّ فى كلام العرب البرد كما قال(٣) :

لها عُذَرٌ كقُرونِ النِّسا * ءِ رُكِّبْنَ فى يومِ ريحٍ وصِرّ

وقال السدى : الشديدة الصّوت . ومنه صَرّ القلمُ والباب يَصِرّ صريرا أى صَوَّت . ويقال : درهم صَرِّىٌّ وصِرِّىٌّ للذى له صوت إذا نُقِد . قال ابن السِّكِّيت : صَرْصَر يجوز أن يكون من الصِّر وهو البرد ، ويجوز أن يكون من صَرير الباب ، ومن الصَّرَّة وهى الصيحة ومنه « فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ » . وصَرْصَر اسم نهر بالعراق . ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ أى مشئومات ؛

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الزيادة من اللسان عن ابن السكيت لأن هذا الكلام له . (٣) هو امرؤ القيس يصف فرسه .

قاله مجاهد وقتادة . كنّ آخر شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء وذلك « سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » قال ابن عباس : ما عُذِّبَ قوم إلا في يوم الأربعاء . وقيل : « نَحِسَاتٍ » باردات ؛ حكاه النقاش . وقيل : متتابعات ؛ عن ابن عباس وعطية . الضحاك : شداد . وقيل : ذات غبار ؛ حكاه ابن عيسى . ومنه قول الراجز :

قَدِ اغْتَدِى قبلَ طُلوعِ الشَّمسِ * لِلصَّيْدِ فى يَوْمٍ قَليلِ النَّحْسِ

قال الضحاك وغيره : أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين ، ودرّت الرياح عليهم في غير مطر ، وخرج منهم قوم إلى مكة يستسقون بها للعباد ، وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه ، وكانت طلبتهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام مكة مسلمهم وكافرهم ، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى ، مختلفة أديانهم ، وكلهم مُعَظِّم لمكة ، عارف حرمتها ومكانها من الله تعالى . وقال جابر بن عبد الله والتيمي : إذا أراد الله بقوم خيرا أرسل عليهم المطر وحبس عنهم كثرة الرياح ، وإذا أراد الله بقوم شرا حبس عنهم المطر وسلط عليهم كثرة الرياح . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « نَحْسَاتٍ » بإسكان الحاء على أنه جمع نحس الذي هو مصدر وصف به . الباقون « نَحِسَاتٍ » بكسر الحاء أى ذوات نحس . ومما يدل على أن النحس مصدر قوله : « فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ » ولو كان صفة لم يضف اليوم إليه ؛ وبهذا كان يحتج أبو عمرو على قراءته ؛ واختاره أبو حاتم . واختار أبو عبيد القراءة الثانية وقال : لا تصح حجة أبي عمرو ؛ لأنه أضاف اليوم إلى النحس فأسكن ، وإنما كان يكون حجة لو نوّن اليوم ونعت وأسكن ؛ فقال : « فِي يَوْمٍ نَحْسٍ » وهذا لم يقرأ به أحد نعلمه . وقال المهدوى : ولم يسمع في « نَحْسٍ » إلا الإسكان . قال الجوهرى : وقرئ في قوله : « فِي يَوْمٍ نَحِسٍ » على الصفة ، والإضافة أكثر وأجود . وقد نَحِسَ الشيءُ بالكسر فهو نَحِس أيضا ؛ قال الشاعر :

أبلغ جذاما ولخما أنّ إخوتهم * طيا وبهراء قوم نصرهم نحس

ومنه قيل : أيام نَحِسات . « لِنُذِيقَهُمْ » أى لكى نذيقهم « عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » بالريح العقيم . « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى » أى أعظم وأشد « وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ » .

قوله تعالى : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨)

قوله تعالى: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أى بينا لهم الهدى والضلال؛ عن ابن عباس وغيره. وقرأ الحسن وابن أبى إسحق وغيرهما « وَأَمَّا ثَمُودَ » بالنصب وقد مضى الكلام فيه فى «الأعراف»[(١)] . (فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) أى آختاروا الكفر على الإيمان . وقال أبو العالية : آختاروا العمى على البيان . السدى : آختاروا المعصية على الطاعة. (فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ) « الهون » بالضم الهوان . وهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر أخو كنانة وأسد . وأهانه آستخفّ به . والأسم الهوان والمهانة . وأضيف الصاعقة إلى العذاب؛ لأن الصاعقة آسم للبيد المهلك، فكأنه قال مهلك العذاب؛ أى العذاب المهلك. والهون وإن كان مصدرا فمعناه الإهانة والإهانة عذاب، فجاز أن يجعل أحدهما وصفا للآخر؛ فكأنه قال : صاعقة الهون . وهو كقولك : عندى علم اليقين، وعندى العلم اليقين . ويجوز أن يكون الهون آسما مثل الدون؛ يقال : عذاب هون أى مُهين؛ كما قال : « مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ » . وقيل : أى صاعقة العذاب ذى الهون . (بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) من تكذيبهم صالحا وعقرهم الناقة، على ما تقدّم. (وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا) يعنى صالحا ومن آمن به؛ أى ميزناهم عن الكفار، فلم يحلّ بهم ما حلّ بالكفار، وهكذا يا محمد نفعل بمؤمنى قومك وكفارهم.

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١)

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٨ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قرأ نافع « نَحْشُرُ » بالنون « أَعْدَاءَ » بالنصب . الباقون « يُحْشَرُ » بياء مضمومة «أَعْدَاءُ» بالرفع ومعناهما بين . وأعداء الله الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره . « فَهُمْ يُوزَعُونَ » يساقون ويدفعون إلى جهنم . قال قتادة والسدى : يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ؛ قال أبو الأحوص : فإذا تكاملت العدة بدئ بالأكابر فالأكابر جرما . وقد مضى فى « النمل »(١) الكلام فى « يُوزَعُونَ » مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾ «ما» زائدة ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الجلود يعنى بها الجلود بأعيانها فى قول أكثر المفسرين . وقال السدى وعبيد الله بن أبى جعفر والفراء : أراد بالجلود الفروج ؛ وأنشد بعض الأدباء لعامر بن جؤية :

المرءُ يسعى للسلا * مةِ والسلامةُ حسبه(٢)

أو سالم من قد تثـ * ـنّى جلدُه وابيضّ رأسه

وقال : جلده كناية عن فرجه . ﴿ وَقَالُوا ﴾ يعنى الكفار ﴿ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾ وإنما كنا نجادل عنكم ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لما خاطبت وخوطبت أجريت مجرى من يعقل . ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى ركب الحياة فيكم بعد أن كنتم نطفا ؛ فمن قدر عليه قدر على أن ينطق الجلود وغيرها من الأعضاء . وقيل : «وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» ابتداء كلام من الله . ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : "هل تدرون مِمَّ أضحك" قلنا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : "من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرنى من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى قال يقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيُختَم على فيه فيقال لأركانه انطقى فتنطق بأعماله قال ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام قال فيقول بعدًا لكنّ وسُحقا فعنكنّ كنت أناضل" وفى حديث أبى هريرة ثم يقال : "الآن نبعث شاهدنا

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٦٧ وما بعدها طبعة أولى وثانية .

(٢) كذا فى الأصول ، ولم نعثر على هذين البيتين .

عليك ويتفكر فى نفسه من ذا الذى يشهد علىّ فيختم على فيه ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه](١) انطق فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليُعذر(٢) من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى سخط الله عليه " خرجه أيضا مسلم .

قوله تعالى : وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ﴾ يجوز أن يكون هذا من قول الجوارح لهم ؛ ويجوز أن يكون من قول الله عز وجل أو الملائكة . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفر ؛ قرشيان وثقفى أو ثقفيان وقرشى ؛ قليلٌ فقه قلوبهم كثيرٌ شحمُ بطونهم ، فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما نقول ؟ فقال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا ؛ وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا ؛ فأنزل الله عز وجل : " وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ " الآية ؛ خرجه الترمذى فقال : اختصم عند البيت ثلاثة نفر . ثم ذكره بلفظه حرفا حرفا وقال : حديث حسن صحيح ؛ حدثنا هناد قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة ابن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد قال قال عبد الله : كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة

---

(١) الزيادة من صحيح مسلم . (٢) ليعذر من نفسه : على بناء الفاعل من الإعذار ؛ والمعنى ليزيل الله عذره من قبل نفسه بكثرة ذنوبه ، ولشهادة أعضائه عليه ، بحيث لم يبق له عذر . (هامش مسلم) .

نفر كثيرٌ شحمُ بطونهم قليلٌ فقهُ قلوبهم قرشيٌّ وختناه ثقفيان، أو ثقفيٌّ وختناه قرشيا. فتكلموا بكلام لم أفهمه ؛ فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ، فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفع أصواتنا لم يسمعه ، فقال الآخر : إن سمع منه شيئا سمعه كله ؛ فقال عبد الله : فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : « وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ » إلى قوله : « فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » قال : هذا حديث حسن صحيح . قال الثعلبي : والثقفيّ عبدُ يَالِيلَ وختناه ربيعة وصفوان بن أمية . ومعنى « تَسْتَتِرُونَ » تستخفون في قول أكثر العلماء؛ أي ما كنتم تستخفون من أنفسكم حذرا من شهادة الجوارح عليكم ؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يخفي من نفسه عمله ، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية . وقيل : الاستتار بمعنى الاتقاء؛ أي ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة فتتركوا المعاصي خوفا من هذه الشهادة . وقال معناه مجاهد . وقال قتادة : « وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ » أي تظنون « أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ » بأن يقول سمعت الحقّ وما وعيت وسمعت ما لا يجوز من المعاصي « وَلَا أَبْصَارُكُمْ » فتقول رأيتُ آيات الله وما اعتبرت ونظرت فيما لا يجوز « وَلَا جُلُودُكُمْ » تقدّم . ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من أعمالكم فجادلتم على ذلك حتى شهدت عليكم جوارحكم بأعمالكم . روى بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جدّه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ » قال : " إنكم تُدعون يوم القيامة مُفَدَّمة أفواهكم بفِدام فأول ما يبين عن الإنسان فخذه وكفه " قال عبد الله بن عبد الأعلى الشامي[(1)] فأحسن :

العمرُ ينقص والذنوبُ تزيدُ * وتُقالُ عَثَراتُ الفتى فيعودُ
هل يستطيعُ جُحودَ ذنبٍ واحدٍ * رجلٌ جوارحُه عليه شُهودُ
والمرءُ يسأل عن سِنيه فيشتهي * تقليلَها وعن المماتِ يحيدُ

(١) كذا في الأصول وفي كتاب « أدب الدنيا والدين » : عبد الأعلى بن عبد الله الشامي .

وعن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ليس من يوم يأتى على ابن آدم إلا ينادى فيه يابن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل غدا عليك شهيد فاعمل فىّ خيرا أشهد لك به غدا فإنى لو قد مضيت لم ترنى أبدا ويقول الليل مثل ذلك" ذكره أبو نعيم الحافظ وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » فى باب شهادة الأرض والليالى والأيام والمال . وقال محمد بن بشير فأحسن :

مَضَى أمسُك الأدْنى شَهيدا معدَّلا * ويومُك هذا بالفِعالِ شهيدُ
فإنْ تكُ بالأمسِ ٱقترفتَ إساءةً * فثَنِّ بإحسانٍ وأنتَ حميدُ
ولا تُرْجِ فِعلَ الخيرِ منك إلى غدٍ * لعلّ غداً يأتى وأنتَ فقيدُ

قوله تعالى : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ أى أهلككم فأوردكم النار . قال قتادة : الظنّ هنا بمعنى العلم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله فإن قوما أساءوا الظن بربهم فأهلكهم" فذلك قوله : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ » . وقال الحسن البصرى : إن قوما ألهتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ، ويقول أحدهم : إنى أحسن الظن بربى وكذب ، ولو أحسن الظن لأحسن العمل ، وتلا قول الله تعالى : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » . وقال قتادة : من ٱستطاع منكم أن يموت وهو حسن الظن بربه فليفعل ، فإن الظن ٱثنان ظنّ ينجى وظنّ يردى . وقال عمر بن الخطاب فى هذه الآية : هؤلاء قوم كانوا يدمنون المعاصى ولا يتوبون منها ويتكلون على المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس ، ثم قرأ « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أى فإن يصبروا فى الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مثوى لهم . نظيره « فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ »(1) على ما تقدم . ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا ﴾ فى الدنيا وهم مقيمون على كفرهم ﴿ فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ . وقيل : المعنى « فَإِنْ يَصْبِرُوا »

(1) راجع جـ ٢ ص ٢٣٦ طبعة ثانية .

في النار أو يجزعوا « فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » أي لا محيص لهم عنها، ودل على الجزع قوله : « وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا »؛ لأن المستعتب جزع والمعتب المقبول عتابه؛ قال النابغة :

فإنْ أكُ مظلومًا فعبدٌ ظلمتَه * وإنْ تكُ ذا عُتبى فمثلك يُعتِبُ

أي مثلك من قبِل الصلح والمراجعة إذا سُئل. قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجِدة . تقول : عاتبته معاتبة ، وبينهم أُعتوبة يتعاتبون بها . يقال : إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب . وأعتبني فلان إذا عاد إلى مَسرّتي راجعا عن الإساءة، والاسم منه العُتبى ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب . واستعتب وأعتب بمعنى ، واستعتب أيضا طلب أن يُعتَب؛ تقول: استعتبته فأعتبني أي استرضيته فأرضاني . فمعنى « وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا » أي طلبوا الرضا لم ينفعهم ذلك بل لا بد لهم من النار . وفي التفاسير : وإن يستقيلوا ربهم فما هم من المقالين . وقرأ عبيد بن عمير وأبو العالية « وَإِنْ يُسْتَعْتَبُوا » بفتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول « فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتِبِينَ » بكسر التاء أي إن أقالهم الله وردّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لما سبق لهم في علم الله من الشقاء ، قال الله تعالى : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » ذكره الهروي . وقال ثعلب : يقال أعتب إذا غضب وأعتب إذا رضي .

قوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ﴾ قال النقاش : أي هيأنا لهم شياطين . وقيل : سلطنا عليهم قرناء يزينون عندهم المعاصي ، وهؤلاء القرناء من الجن والشياطين ومن الإنس أيضا؛ أي سببنا لهم قرناء؛ يقال : قيض الله فلانا لفلان أي جاءه به وأتاحه له ، ومنه قوله تعالى: «وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ» . القشيري : ويقال قيض الله لي رزقا أي أتاحه كما كنت أطلبه ، والتقييض الإبدال ومنه المقايضة ، قايضت الرجل مقايضة أي عاوضته بمتاع ، وهما قيضان كما تقول بيّعان . ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمر الدنيا فحسّنوه لهم حتى آثروه على الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ حسّنوا لهم ما بعد مماتهم ودعوهم إلى التكذيب بأمور الآخرة ؛ عن مجاهد . وقيل : المعنى « قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ » في النار «فَزَيَّنُوا لَهُمْ» أعمالهم في الدنيا؛ والمعنى قدرنا عليهم أن ذلك سيكون وحكمنا به عليهم . وقيل : المعنى أحوجناهم إلى الأقران؛ أي أحوجنا

الفقير إلى الغنى لينال منه، والغنى إلى الفقير ليستعين به فزين بعضهم لبعض المعاصى . وليس قوله : « وَمَا خَلْفَهُمْ » عطفا على « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » بل المعنى وأنسوهم ما خلفهم ففيه هذا الإضمار . قال ابن عباس : « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » تكذيبهم بأمور الآخرة « وَمَا خَلْفَهُمْ » التسويف والترغيب فى الدنيا . الزجاج : « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » ما عملوه « وَمَا خَلْفَهُمْ » ما عزموا على أن يعملوه . وقد تقدّم قول مجاهد . وقيل: المعنى لهم مثل ما تقدّم من المعاصى « وَمَا خَلْفَهُمْ » ما يعمل بعدهم . ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ﴾ أى وجب عليهم من العذاب ما وجب على الأمم الذين من قبلهم الذين كفروا ككفرهم . وقيل: « فى » بمعنى مع؛ فالمعنى هم داخلون مع الأمم الكافرة قبلهم فيما دخلوا فيه . وقيل : «فِي أُمَمٍ» فى جملة أمم، ومثله قول الشاعر(1) :

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْ * فُوكاً فَفِي آخَرِينَ قَدْ أُفِكُوا

يريد فأنت فى جملة آخرين لست فى ذلك بأوحد . ومحل «فِي أُمَمٍ» النصب على الحال من الضمير فى « عَلَيْهِمْ » أى حق عليهم القول كائنين فى جملة أمم . ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أعمالهم فى الدنيا وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

(1) هو عمرو بن أذينة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ لما أخبر تعالى عن كفر قوم هود وصالح وغيرهم أخبر عن مشركى قريش وأنهم كذبوا القرآن فقالوا « لَا تَسْمَعُوا » . وقيل : معنى « لَا تَسْمَعُوا » لا تطيعوا ؛ يقال سمعت لك أى أطعتك . « وَالْغَوْا فِيهِ » قال ابن عباس : قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لا يدرى مايقول . وقيل : إنهم فعلوا ذلك لما أعجزهم القرآن . وقال مجاهد : المعنى « وَالْغَوْا فِيهِ » بالمكاء والتصفيق والتخليط فى المنطق حتى يصير لغوا . وقال الضحاك : أكثروا الكلام ليختلط عليه ما يقول . وقال أبو العالية وابن عباس أيضا : قعوا فيه وعيبوه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ محمدا على قراءته فلا يظهر ولا يستميل القلوب . وقرأ عيسى بن عمر والجحدرى وابن أبى إسحق وأبو حيوة و بكر بن حبيب السهمى « وَالْغُوا » بضم الغين وهى لغة من لغا يلغو . وقراءة الجماعة من لَغِيَ يَلْغَى . قال الهروى : وقوله « وَالْغَوْا فِيهِ » قيل : عارضوه بكلام لا يفهم . يقال : لغوت ألغو وألْغَى ولغِى يلْغَى ثلاث لغات . وقد مضى معنى اللغو فى « البقرة »[(١)] وهو ما لا يعلم له حقيقة ولا تحصيل .

قوله تعالى : ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قد تقدم أن الذوق يكون محسوسا ، ومعنى العذاب الشديد ما يتوالى فلا ينقطع . وقيل : هو العذاب فى جميع أجزائهم . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى ولنجزينهم فى الآخرة جزاء قبيح أعمالهم التى عملوها فى الدنيا وأسوأ الأعمال الشرك .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ أى ذلك العذاب الشديد ثم بينه بقوله « النَّارُ » . وقرأ ابن عباس « ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ دَارُ الْخُلْدِ » فترجم بالدار عن النار وهو مجاز الآية . و « ذَٰلِكَ » ابتداء و « جَزَاءُ » الخبر و « النَّارُ » بدل من « جَزَاءُ » أو خبر مبتدإ مضمر والجملة فى موضع بيان للجملة الأولى .

(١) راجع جـ ٢ ص ٩٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى فى النار فذكره بلفظ الماضى والمراد المستقبل ﴿ربنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ يعنى إبليس وٱبن آدم الذى قتل أخاه . عن ٱبن عباس وٱبن مسعود وغيرهما؛ ويشهد لهذا القول الحديث المرفوع : "ما من مسلم يقتل ظلما إلا كان على ٱبن آدم الأول كفل من ذنبه لأنه أول من سنّ القتل" خرجه الترمذى . وقيل : هو بمعنى الجنس وبنى على التثنية لٱختلاف الجنسين . ﴿نَجعلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ سألوا ذلك حتى يشتفوا منهم بأن يجعلوهم تحت أقدامهم «لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ» فى النار وهو الدرك الأسفل . سألوا أن يُضعّف الله عذاب من كان سبب ضلالتهم من الجن والإنس . وقرأ ٱبن محيصن والسوسى عن أبى عمرو وابن عامر وأبو بكر والمفضّل «أَرْنا» بإسكان الراء وعن أبى عمرو أيضا بٱختلاسها . وأشبع الباقون كسرتها وقد تقدّم فى «الأعراف»(1) .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا﴾ قال عطاء عن ٱبن عباس : نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه؛ وذلك أن المشركين قالوا ربنا الله والملائكة بناته وهؤلاء شفعاؤنا عند الله فلم يستقيموا . وقال أبو بكر : ربنا الله وحده لا شريك له ومحمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله فٱستقام . وفى الترمذى عن أنس ٱبن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا» قال : "قد قال الناس ثم كفر أكثرهم فمن مات عليها فهو ممن ٱستقام" قال: حديث غريب . ويروى فى هذه الآية عن النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ معنى «ٱستقاموا»؛ ففى صحيح مسلم

(1) هكذا فى نسخ الأصل وصوابه فى البقرة فى ج ٢ ص ١٢٧ طبعة ثانية .

عن سفيان بن عبد الله الثقفيّ قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ـــ وفى رواية ـــ غيرك . قال : " قل آمنت بالله ثم آستقم " زاد الترمذى قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علىّ . فأخذ بلسان نفسه وقال : " هذا " . وروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : « ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا » لم يشركوا بالله شيئا . وروى عنه الأسود بن هلال أنه قال لأصحابه : ما تقولون فى هاتين الآيتين « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا » و « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » فقالوا : آستقاموا فلم يذنبوا ولم يلبسوا إيمانهم بخطيئة ؛ فقال أبو بكر : لقد حملتموها على غير المحمل « قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا » فلم يلتفتوا إلى إله غيره « وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ » بشرك « أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » . وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال على المنبر وهو يخطب : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا » فقال : آستقاموا والله على الطريقة لطاعته ثم لم يروغوا روغان الثعالب . وقال عثمان رضى الله عنه : ثم أخلصوا العمل لله . وقال علىّ رضى الله عنه : ثم أدوا الفرائض . وأقوال التابعين بمعناها . قال آبن زيد وقتادة : آستقاموا على الطاعة لله . الحسن : آستقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته وآجتنبوا معصيته . وقال مجاهد وعكرمة : آستقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا . وقال سفيان الثورى : عملوا على وفاق ما قالوا . وقال الربيع : أعرضوا عما سوى الله . وقال الفضيل بن عياض : زهدوا فى الفانية ورغبوا فى الباقية . وقيل : آستقاموا إسرارا كما آستقاموا إقرارا . وقيل : آستقاموا فعلا كما آستقاموا قولا . وقال أنس لما نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " هم أمتى وربِّ الكعبة " . وقال الإمام بن فُورك : السين سين الطلب مثل آستسق أى سألوا من الله أن يثبتهم على الدين . وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم أنت ربنا فآرزقنا الآستقامة .

قلت : وهذه الأقوال وإن تداخلت فتلخيصها ؛ آعتدلوا على طاعة الله عقدا وقولا وفعلا وداموا على ذلك . ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ قال آبن زيد ومجاهد : عند الموت . وقال مقاتل وقتادة : إذا قاموا من قبورهم للبعث . وقال آبن عباس : هى بشرى تكون لهم من

الملائكة في الآخرة . وقال وكيع وابن زيد : البشرى في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث . ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ أي بـ«ألا تخافوا» فحذف الجار . وقال مجاهد : لا تخافوا الموت ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ على أولادكم فإن الله خليفتكم عليهم . وقال عطاء بن أبي رباح : لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم . وقال عكرمة : ولا تخافوا أمامكم ، ولا تحزنوا على ذنوبكم . ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أي تقول لهم الملائكة الذين تتنزل عليهم بالبشارة « نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ » قال مجاهد : أي نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قالوا لا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة . وقال السدي : أي نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة . ويجوز أن يكون هذا من قول الله تعالى ؛ والله ولي المؤمنين ومولاهم . ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴾ أي من الملاذ . ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ تسألون وتتمنون . ﴿ نُزُلًا ﴾ أي رزقا وضيافة . وقد تقدم في « آل عمران »(١) وهو منصوب على المصدر أي أنزلناه نزلا . وقيل : على الحال . وقيل : هو جمع نازل أي لكم ما تدعون نازلين فيكون حالا من الضمير المرفوع في « تَدَّعُونَ » أو من المجرور في « لَكُمْ » .

قوله تعالى : وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٢١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ هـذا توبيخ الذين تواصوا باللغو فى القرآن . والمعنى أى كلام أحسن من القرآن، ومن أحسن قولا من الداعى إلى الله وطاعته وهو محمد صلى الله عليه وسلم . قال آبن سيرين والسدى وآبن زيد والحسن : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله، هذا حبيب الله، هذا ولى الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله؛ أجاب الله فى دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه . وقالت عائشة رضى الله عنها وعكرمة وقيس بن أبى حازم ومجاهد : نزلت فى المؤذنين . قال فضيل بن رفيـدة : كنت مؤذنا لأصحاب عبـد الله بن مسعود ، فقال لى عاصم بن هبيرة إذا أذنت فقلت : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله فقل وأنا من المسلمين؛ ثم قرأ هذه الآية؛ قال آبن العربى : والأول أصح؛ لأن الآية مكية والأذان مدنى؛ وإنمـا يدخل فيها بالمعنى؛ لا بأنه كان المقصود وقت القول، ويدخل فيها أبو بكر الصدّيق حين قال فى النبىّ صلى الله عليه وسلم وقد خنقه الملعون : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ » وتتضمن كل كلام حسن فيه ذكر التوحيد والإيمان .

قلت : وقول ثالث وهو أحسنها ؛ قال الحسن : هـذه الآية عامة فى كل من دعا إلى الله . وكذا قال قيس بن أبى حازم قال : نزلت فى كل مؤمن . قال : ومعنى «وَعَمِلَ صَالِحًا» الصلاة بين الأذان والإقامة . وقاله أبو أمامة ؛ قال : صلى ركعتين بين الأذان والإقامة . وقال عكرمة : « وَعَمِلَ صَالِحًا » صلى وصام . وقال الكلبى : أدى الفرائض .

قلت : وهذا أحسنها مع آجتناب المحـارم وكثرة المندوب . والله أعلم . ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قال آبن العربى : وما تقدّم يدل على الإسلام، لكن لمـا كان الدعاء بالقول والسيف يكون للاعتقاد ويكون للحجة ، وكان العمل يكون للرياء والإخلاص ، دل على أنه لا بدّ من التصريح بالاعتقاد لله فى ذلك كله ، وأن العمل لوجهه .

مسـئلة ــ لمـا قال الله تعـالى : « وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » ولم يقل له آشترط إن شاء الله، كان فى ذلك رد على من يقول أنا مسلم إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ قال الفراء : « لا » صلة أى « وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ » والسيئة وأنشد :

ما كان يَرْضَى رسولُ الله فِعْلَهُمُ ٭ والطَّيِّبانِ أبو بكر ولا عمرُ

أراد أبو بكر وعمر ؛ أى لا يستوى ما أنت عليه من التوحيد وما المشركون عليه من الشرك . قال ابن عباس : الحسنة لا إله إلا الله والسيئة الشرك . وقيل : الحسنة الطاعة والسيئة الشرك . وهو الأول بعينه . وقيل : الحسنة المداراة والسيئة الغلظة . وقيل : الحسنة العفو والسيئة الانتصار . وقال الضحاك : الحسنة العلم والسيئة الفحش . وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : الحسنة حبّ آل الرسول والسيئة بغضهم .

قوله تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ نسخت بآية السيف وبقى المستحب من ذلك ؛ حسن العشرة والاحتمال والإغضاء . قال ابن عباس : أى ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك . وعنه أيضا : هو الرجل يسبّ الرجل فيقول الآخر إن كنت صادقا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك ؛ وكذلك يروى فى الأثر أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال ذلك لرجل نال منه . وقال مجاهد : « بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » يعنى السلام إذا لقى من يعاديه ؛ وقاله عطاء . وقول ثالث ذكره القاضى أبو بكر بن العربى فى الأحكام وهو المصافحة . وفى الأثر : " تصافحوا يذهب الغلّ " . ولم ير مالك المصافحة ، وقد اجتمع مع سفيان فتكلما فيها فقال سفيان : قد صافح رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفرا حين قدم من أرض الحبشة ؛ فقال له مالك : ذلك خاص . فقال له سفيان : ما خصّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصّنا ، وما عمّه يعمّنا ، والمصافحة ثابتة فلا وجه لإنكارها . وقد روى قتادة قال قلت لأنس : هل كانت المصافحة فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . وهو حديث صحيح . وفى الأثر : " من تمام المحبة الأخذ باليد " . ومن حديث محمد بن إسحق وهو إمام مقدّم ، عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى ، فقرع الباب فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عريانا يجر ثوبه — والله ما رأيته عريانا قبله ولا بعده — فاعتنقه وقبله .

قلت : قد روى عن مالك جواز المصافحة وعليها جماعة من العلماء ، وقد مضى ذلك فى « يوسف »(١) وذكرنا هناك حديث البراء بن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا ألقيت ذنوبهما بينهما".

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ أى قريب صديق . قال مقاتل : نزلت فى أبى سفيان بن حرب ، كان مؤذيا للنبي صلى الله عليه وسلم ، فصار له وليا بعد أن كان عدوا بالمصاهرة التى وقعت بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أسلم فصار وليا فى الإسلام حميا بالقرابة . وقيل : هذه الآية نزلت فى أبى جهل بن هشام ، كان يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره الله تعالى بالصبر عليه والصفح عنه ؛ ذكره الماوردى . والأول ذكره الثعلبى والقشيرى وهو أظهر؛ لقوله تعالى : « فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » . وقيل : كان هذا قبل الأمر بالقتال . قال ابن عباس : أمره الله تعالى فى هذه الآية بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم . وروى أن رجلا شتم قنبرا مولى على ابن أبى طالب فناداه على : يا قنبر ! دع شاتمك ، والْهَ عنه ترضى الرحمن وتسخط الشيطان ، وتعاقب شاتمك ، فما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه . وأنشدوا :

وَلَلْكَفُّ عن شَتْمِ اللئيم تكرُّمًا * أضرُّ له مِنْ شَتْمِه حين يُشْتَمُ

وقال آخر :

وما شَيْءٌ أحبُّ إلى سَفِيهٍ * إذا سَبَّ الكريمَ مِنَ الجَوابِ
مُتارَكَةُ السَّفيه بلا جوابٍ * أشدُّ على السَّفيهِ من السِّبابِ

وقال محمود الورّاق(٢) :

سَألزِم نفسِي الصَّفحَ عن كلِّ مُذْنِبٍ * وإنْ كَثُرَتْ منه لَدَيَّ الجَرائمُ
فما النّاسُ إلّا واحدٌ مِنْ ثلاثةٍ * شريفٌ ومشروفٌ ومِثْلٌ مقاوِمُ

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٦٦ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) الأبيات التالية معزوة فى كتاب « أدب الدنيا والدين » ص ٢٠٢ طبع وزارة المعارف إلى الخليل بن أحمد .

فأمّا الذى فوقى فأعرف قدره * وأتبع فيه الحق والحق لازم

وأمّا الذى دونى فإنْ قال صُنْتُ عن * إجابته عِرضى وإن لام لائم

وأمّا الذى مثلى فإنْ زلّ أو هفا * تفضَّلتُ إنّ الفضل بالحلم حاكم

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ يعنى هذه الفعلة الكريمة والخصلة الشريفة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ بكظم الغيظ واحتمال الأذى . ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى نصيب وافر من الخير؛ قاله ابن عباس . وقال قتادة ومجاهد : الحظ العظيم الجنة . قال الحسن : والله ما عظم حظ قط دون الجنة . وقيل : الكناية فى « يُلَقَّاهَا » عن الجنة أى ما يلقاها إلا الصابرون؛ والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ تقدّم فى آخر «الأعراف» مستوفى(١) . ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ من كيده وشره ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لاستعاذتك ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأفعالك وأقوالك .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ وقد مضى فى غير موضع(٢) . ثم نهى عن السجود لهما؛ لأنهما وإن كانا خلقين فليس ذلك لفضيلة لهما فى أنفسهما فيستحقان بها العبادة مع الله؛ لأن خالقهما هو الله

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٢ ص ١٩٢ وما بعدها طبعة ثانية .

ولو شاء لأعدمهما أو طمس نورهما . ﴿ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ وصورهن وسخرهن ؛ فالكناية ترجع إلى الشمس والقمر والليل والنهار . وقيل : للشمس والقمر خاصة ؛ لأن الاثنين جمع . وقيل : الضمير عائد على معنى الآيات ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ وإنما أنث على جمع التكثير ولم يجر على طريق التغليب للمذكر والمؤنث لأنه فيما لا يعقل . ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا ﴾ يعنى الكفار عن السجود لله ﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ من الملائكة ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ أى لا يملون عبادته . قال زهير :

سَئِمْتُ تَكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ * ثمانين حولًا لا أبالَكَ يَسْأَمِ

مسئلة — هذه الآية آية سجدة بلا خلاف ، واختلفوا فى موضع السجود منها . فقال مالك : موضعه « إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » ؛ لأنه متصل بالأمر . وكان علىّ وابن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله « تَعْبُدُونَ » . وقال ابن وهب والشافعى : موضعه « وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ » لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال . وبه قال أبو حنيفة . وكان ابن عباس يسجد عند قوله « يَسْأَمُونَ » . وقال ابن عمر : اسجدوا بالآخرة منهما . وكذلك يروى عن مسروق وأبى عبد الرحمن السُّلَمى وإبراهيم النَّخَعى وأبى صالح ويحيى بن وثّاب ، وطلحة وزبيد اليامِيَّين (١) والحسن وابن سيرين . وكان أبو وائل وقتادة وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله : « يَسْأَمُونَ » . قال ابن العربى : والأمر قريب .

مسئلة — ذكر ابن خُوَيْزِمَنْداد : إن هذه الآية تضمنت صلاة كسوف القمر والشمس ؛ وذلك أن العرب كانت تقول : إن الشمس والقمر لا يكسفان إلا لموت عظيم ، فصلى النبىّ صلى الله عليه وسلم صلاة الكسوف .

قلت : صلاة الكسوف ثابتة فى الصحاح البخارى ومسلم وغيرهما . واختلفوا فى كيفيتها اختلافا كثيرا ، لاختلاف الآثار ، وحسبك ما فى صحيح مسلم من ذلك ، وهو العمدة فى الباب . والله الموفق للصواب .

(١) هذه النسبة إلى يامة بطن من همدان

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ الخطاب لكل عاقل أى « وَمِنْ آيَاتِهِ » الدالة على أنه يحيي الموتى « أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً » أى يابسة جدبة ؛ هذا وصف الأرض بالخشوع ؛ قال النابغة :

رمادٌ ككحلِ العينِ لأياً أُبِينُهُ * ونُؤْيٌ كجِذْمِ الحوضِ أَثْلَمُ خاشِعُ (١)

والأرض الخاشعة الغبراء التى تنبت . و بلدة خاشعة . أى مغبرة لا منزل بها . ومكان خاشع . ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ﴾ أى بالنبات ؛ قاله مجاهد . يقال : آهتز الإنسان أى تحرك ؛ ومنه :

تراهُ كنَصْلِ السَّيفِ يَهْتَزُّ للنَّدى * إذا لم تَجِدْ عند آمرِئِ السَّوْءِ مَطْمَعا

﴿ وَرَبَتْ ﴾ أى آنتفخت وعلت قبل أن تنبت ؛ قاله مجاهد . أى تصعدت عن النبات بعد موتها . وعلى هذا التقدير يكون فى الكلام تقديم وتأخير وتقديره : ربت وآهتزت . والاهتزاز والربو قد يكونان قبل الخروج من الأرض ؛ وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض ؛ فربوها آرتفاعها . و يقال للوضع المرتفع : ربوة ورابية ؛ فالنبات يتحرك للبروز ثم يزداد فى جسمه بالكبر طولا وعرضا . وقرأ أبو جعفر وخالد « وَرَبَأَتْ » ومعناه عظمت من الربيئة . وقيل « آهْتَزَّتْ » أى استبشرت بالمطر « وَرَبَتْ » أى آنتفخت بالنبات . والأرض إذا آنشقت بالنبات وصفت بالضحك ، فيجوز وصفها بالآستبشار أيضا . و يجوز أن يقال : الربو والاهتزاز واحد؛ وهى حالة خروج النبات . وقد مضى هذا المعنى فى « الحج » (٢) ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تقدم فى غير موضع (٣) .

---

(١) شبه الرماد بكحل العين لسواده ؛ فانه يسود متى تقادم عهده و إصابته الأمطار . والنؤى حفير حول الخيمة . والجذم الأصل . وأثلم مهدوم . وخاشع تداعت آثاره واستوى بالأرض . يريد أن ذلك الرماد تغير ولم أتبينه إلا بعد لأى ؛ أى بعد جهد ومشقة .

(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٤٥ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي يميلون عن الحق في أدلتنا والإلحاد الميل والعدول . ومنه اللحد في القبر؛ لأنه أميل إلى ناحية منه . يقال ألحد في دين الله أي حاد عنه وعدل ، ولحد لغة فيه . وهذا يرجع إلى الذين قالوا : « لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ » وهم الذين ألحدوا في آياته ومالوا عن الحق فقالوا : ليس القرآن من عند الله أو هو شعر أو سحر ؛ فالآيات آيات القرآن . قال مجاهد : « يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا » أي عند تلاوة القرآن بالمكاء والتصدية واللغو والغناء . وقال ابن عباس : هو تبديل الكلام ووضعه في غير موضعه . وقال قتادة : « يلحدون في آياتنا » يكذبون في آياتنا . وقال السدي : يعاندون ويشاقون . وقال ابن زيد : يشركون ويكذبون . والمعنى متقارب . وقال مقاتل : نزلت في أبي جهل . وقيل : الآيات المعجزات وهو يرجع إلى الأول فإن القرآن معجز . ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ ﴾ على وجهه وهو أبو جهل في قول ابن عباس وغيره . ﴿ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ قيل : النبي صلى الله عليه وسلم؛ قاله مقاتل . وقيل : عثمان . وقيل : عمار ابن ياسر . وقيل : حمزة . وقيل : عمر بن الخطاب . وقيل : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي . وقيل : المؤمنون . وقيل : إنها على العموم؛ فالذي يلقى في النار الكافر، والذي يأتي آمنا يوم القيامة المؤمن . قاله ابن بحر . ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أمر تهديد أي بعد ما علمتم أنهما لا يستويان فلا بد لكم من الجزاء . ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وعيد بتهديد وتوعد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ الذكر ها هنا القرآن فى قول الجميع ؛ لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأحكام . والخبر محذوف [تقديره][1] هالكون أو معذبون . وقيل : الخبر « أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » واعترض قوله « مَا يُقَالُ لَكَ » ثم رجع إلى الذكر فقال : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا » ثم قال : « أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ » والأول الاختيار ؛ قال النحاس : عند النحويين جميعا فيما علمت . ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ أى عزيز على الله ؛ قاله ابن عباس ؛ وعنه : عزيز من عند الله . وقيل : كريم على الله . وقيل : « عَزِيزٌ » أى أعزه الله فلا يتطرق إليه باطل . وقيل : ينبغى أن يعز ويجل وألا يلغى فيه . وقيل : « عَزِيزٌ » من الشيطان أن يبدله ؛ قاله السدى . مقاتل : منع من الشيطان والباطل . السدى : غير مخلوق فلا مثل له . وقال ابن عباس أيضا : « عَزِيزٌ » أى ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله . ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أى لا يكذبه شىء مما أنزل الله من قبل ولا ينزل من بعده كتاب يبطله وينسخه ؛ قاله الكلبى . وقال السدى وقتادة : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ » يعنى الشيطان ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ لا يستطيع أن يغير ولا يزيد ولا ينقص . وقال سعيد بن جبير : لا يأتيه التكذيب « مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » . ابن جريج : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ » فيما أخبر عما مضى ولا فيما أخبر عما يكون . وعن ابن عباس : « مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ » من الله تعالى « وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » يريد من جبريل صلى الله عليه وسلم ولا من محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ابن عباس : « حَكِيمٍ » فى خلقه « حَمِيدٍ » إليهم . قتادة : « حكيم » فى أمره « حَمِيدٍ » إلى خلقه .

قوله تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ ﴾ أى من الأذى والتكذيب ﴿ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعزى نبيه ويسليه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ لك ولأصحابك ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يريد لأعدائك وجيعا . وقيل : أى ما يقال لك من إخلاص العبادة لله إلا ما قد أوحى إلى من قبلك ؛ ولا خلاف بين الشرائع فيما يتعلق بالتوحيد ؛ وهو كقوله : « وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » أى لم تدعهم إلا إلى ما تدعو إليه جميع الأنبياء، فلا معنى لإنكارهم عليك . وقيل : هو استفهام أى أىّ شىء يقال لك « إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ » . وقيل : « إِنَّ رَبَّكَ » كلام مبتدأ وما قبله كلام تام إذا كان الخبر مضمرا . وقيل : هو متصل بـ « مَا يُقَالُ لَكَ » . « إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ » أى إنما أمرت بالإنذار والتبشير .

قوله تعالى : وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا » أى بلغة غير العرب « لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » أى بينت بلغتنا فإننا عرب لا نفهم الأعجمية . فبين أنه أنزله بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز؛ إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظما ونثرا . وإذا عجزوا عن معارضته كان من أدل الدليل على أنه من عند الله . ولو كان بلسان العجم لقالوا لا علم لنا بهذا اللسان .

الثانيــة ــ وإذا ثبت هذا ففيه دليل على أن القرآن عربى، وأنه نزل بلغة العرب، وأنه ليس أعجميا، وأنه إذا نقل عنها إلى غيرها لم يكن قرآنا .

الثالثــة ــ قوله تعالى : « أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ » وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى « أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ » بهمزتين مخففتين ، والعجمىّ الذى ليس من العرب كان فصيحا أو غير فصيح . والأعجمى الذى لا يفصح كان من العرب أو من العجم . فالأعجم ضدّ الفصيح وهو الذى لا يبين كلامه . ويقال للحيوان غير الناطق أعجم، ومنه " صلاة النهار عجماء " أى لا يجهر فيها بالقراءة فكانت النسبة إلى الأعجم آكد، لأن الرجل العجمى الذى ليس من العرب قد يكون

فصيحا بالعربية، والعربي قد يكون غير فصيح فالنسبة إلى الأعجمي آكد في البيان . والمعنى أقرآن أعجمي ونبي عربي ؟ وهو استفهام إنكار . وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم والمغيرة وهشام عن ابن عامر « أَعْجَمِيٌّ » بهمزة واحدة على الخبر . والمعنى « لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » . فكان منها عربي يفهمه العرب وأعجمي يفهمه العجم . وروى سعيد بن جبير قال قالت قريش : لولا أنزل القرآن أعجميا وعربيا فيكون بعض آياته عجميا و بعض آياته عربيا فنزلت الآية . وأنزل في القرآن من كل لغة فمنه « السِّجِّيل » وهي فارسية وأصلها سنك كيل أي طين وحجر ، ومنه « الفردوس » رومية وكذلك « القسطاس » . وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وابن ذكوان وحفص على الاستفهام إلا أنهم لينوا الهمزة على أصولهم . والقراءة الصحيحة قراءة الاستفهام . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ أعلم الله أن القرآن هدى وشفاء لكل من آمن به من الشك والريب والأوجاع . ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أي صمم عن سماع القرآن، ولهذا تواصوا باللغو فيه . ونظير هذه الآية « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » (1) وقد مضى مستوفى . وقراءة العامة ﴿ عَمًى ﴾ على المصدر . وقرأ ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعمرو بن العاص ومعاوية وسليمان بن قتة « وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمٍ » بكسر الميم أي لا يتبين لهم . واختار أبو عبيدة القراءة الأولى؛ لإجماع الناس فيها ؛ ولقوله أولا : « هُدًى وَشِفَاءٌ » ولو كان هادٍ وشافٍ لكان الكسر في « عَمًى » أجود؛ ليكون نعتا مثلهما؛ تقديره : « وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » في ترك قبوله بمنزلة من في آذانهم « وَقْرٌ وَهُوَ » يعني القرآن « عَلَيْهِمْ » ذو عمى ؛ لأنهم لا يفقهون فحذف المضاف . وقيل : المعنى والوقر عليهم عمى . ﴿ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل . وحكى أهل اللغة أنه يقال للذي يفهم : أنت تسمع من قريب . ويقال للذي لا يفهم : أنت تنادى من بعيد . أي كأنه ينادى من موضع بعيد منه فهو لا يسمع النداء

(1) راجع جـ ١٠ ص ٣١٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ولا يفهمه . وقال الضحاك : « يُنَادَوْنَ » يوم القيامة بأقبح أسمائهم « مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » فيكون ذلك أشد لتوبيخهم وفضيحتهم . وقيل: أى من لم يتدبر القرآن صار كالأعمى الأصم، فهو ينادى من مكان بعيد فينقطع صوت المنادى عنه وهو لم يسمع . وقال على رضى الله عنه ومجاهد : أى بعيد من قلوبهم . وفى التفسير : كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون . وحكى معناه النقاش .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة ﴿ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ أى آمن به قوم وكذب به قوم . والكناية ترجع إلى الكتاب ، وهو تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم، أى لا يحزنك اختلاف قومك فى كتابك، فقد اختلف من قبلهم فى كتابهم . وقيل : الكناية ترجع إلى موسى . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى فى إمهالهم . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بتعجيل العذاب . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾ من القرآن ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أى شديد الريبة . وقد تقدم[1] . وقال الكلبى فى هذه الآية : لولا أن الله أخر عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة لأتاهم العذاب كما فعل بغيرهم من الأمم . وقيل : تأخير العذاب لما يخرج من أصلابهم من المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ شرط وجوابه وكذا ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ والله جل وعز مستغن عن طاعة العباد ، فمن أطاع فالثواب له ، ومن أساء فالعقاب عليه . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ نفى الظلم عن نفسه جل وعز قليله وكثيره ، وإذا انتفت المبالغة انتفى غيرها ، دليله قوله الحق : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » وروى العدول الثقات،

(١) راجع جـ ٩ ص ٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

والأئمة الأثبات ، عن الزاهد العدل ، عن أمين الأرض ، عن أمين السماء ، عن الرب جل جلاله : « يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » الحديث . وأيضا فهو الحكيم المالك ، وما يفعله المالك في ملكه لا اعتراض عليه ؛ إذ له التصرف في ملكه بما يريد .

قوله تعالى : إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي حين وقتها . وذلك أنهم قالوا : يا محمد إن كنت نبيا فخبرنا متى قيام الساعة فنزلت : ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ﴾ « من » زائدة أي وما تخرج ثمرة . ﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي من أوعيتها ، فالأكمام أوعية الثمرة ، واحدها كُمّة وهي كل ظرف لمال أو غيره ؛ ولذلك سمي قشر الطّلع أعني كُفُرّاه الذي ينشق عن الثمرة كُمّة ؛ قال ابن عباس : الكُمّة الكُفُرّى قبل أن تنشق ، فإذا انشقت فليست بكمّة . وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة « الرحمن »(1) . وقرأ نافع وابن عامر وحفص « من ثَمَرَاتٍ » على الجمع . الباقون « ثَمَرَةٍ » على التوحيد والمراد الجمع ، لقوله : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ والمراد الجمع ، يقول : « إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ » كما يرد إليه علم الثمار والنتاج . ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي ينادي الله المشركين ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ الذين زعمتم في الدنيا أنها آلهة تشفع . ﴿قَالُوا﴾ يعني الأصنام . وقيل : المشركون . ويحتمل أن يريدهم جميعا العابد والمعبود ﴿آذَنَّاكَ﴾ أسمعناك وأعلمناك . يقال آذن يؤذن إذا أعلم ؛ قال(2) :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ * رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

(1) في تفسير قوله تعالى : « والنخل ذات الأكمام » آية ١١ .

(2) هو الحرث بن حلزة والبيت مطلع معلقته .

﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أى نعلمك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكا . لما عاينوا القيامة تبرءوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم كما تقدّم فى غير موضع[1] . ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى بطل عنهم ﴿مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ فى الدنيا ﴿وَظَنُّوا﴾ أى أيقنوا وعلموا ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أى فرار عن النار . و « ما » هنا حرف وليس باسم ؛ فلذلك لم يعمل فيه الظنّ وجعل الفعل ملغى؛ تقديره: وظنوا أنهم ما لهم محيص ولا مهرب. يقال: حاص يحيص حيصا ومحيصا إذا هرب . وقيل : إن الظن هنا الذى هو أغلب الرأى . لا يشكون فى أنهم أصحاب النار ولكن يطمعون أن يخرجوا منها . وليس يبعد أن يكون لهم ظن ورجاء إلى أن يؤيسوا .

قوله تعالى : لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ أى لا يمل من دعائه بالخير . والخير هنا المال والصحة والسلطان والعز . قال السدى : والإنسان ها هنا يراد به الكافر . وقيل : الوليد بن المغيرة . وقيل : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف . وفى قراءة عبد الله «لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْمَالِ» . ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الفقر والمرض ﴿فَيَئُوسٌ﴾ من روح الله ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته . وقيل : « يَئُوسٌ » من إجابة الدعاء « قَنُوطٌ » بسوء الظن بربه . وقيل : « يَئُوسٌ » أى يئس من زوال ما به من المكروه « قَنُوطٌ » أى يظن أنه يدوم ؛ والمعنى متقارب .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٠٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ عافية ورخاء وغنى ﴿ مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ ضر وسقم وشدة وفقر . ﴿ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾ أى هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملي ؛ فيرى النعمة حتما واجبا على الله تعالى ، ولم يعلم أنه ٱبتلاه بالنعمة والمحنة ؛ ليتبين شكره وصبره . وقال ٱبن عباس : « هَٰذَا لِي » أى هذا من عندي . ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ أى الجنة واللام للتأكيد . يتمنى الأماني بلا عمل . قال الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب : للكافر أمنيتان أما في الدنيا فيقول: « لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ » وأما في الآخرة فيقول : « يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » و « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » . ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى لنجزينهم . قسم أقسم الله عليه . ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ شديد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ يريد الكافر ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ . وقال ٱبن عباس : يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف أعرضوا عن الإسلام وتباعدوا عنه . ومعنى « نَأَىٰ بِجَانِبِهِ » أى ترفع عن الأنقياد إلى الحق وتكبر على أنبياء الله . وقيل « نَأَىٰ » تباعد . يقال : نأيته ونأيت عنه نأيا بمعنى تباعدت عنه وأنأيته فٱنتأى أبعدته فبعد ، وتناءوا تباعدوا والمنتأى الموضع البعيد ؛ قال النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مدركي * وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقرأ يزيد بن القعقاع و« نَاءَ بِجَانِبِهِ » بالألف قبل الهمزة . فيجوز أن يكون من «نَاءَ» إذا نهض . ويجوز أن يكون على قلب الهمزة بمعنى الأول . ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أى أصابه المكروه ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ كثير ، والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة . يقال : أطال فلان في الكلام وأعرض في الدعاء إذا أكثر . وقال ٱبن عباس : « فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » فذو تضرع وٱستغاثة . والكافر يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرخاء .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أى قل لهم يا محمد « أرأيتم » يا معشر المشركين ﴿ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ ﴾ أى فأى الناس أضل أى لا أحد أضل منكم لفرط شقاقكم وعداوتكم . وقيل : قوله « إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ » يرجع إلى الكتاب المذكور فى قوله : « آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » والأول أظهر وهو قول آبن عباس .

قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ ﴾ أى علامات وحدانيتنا وقدرتنا « فِى الآفَاقِ » يعنى خراب منازل الأمم الخالية ﴿ وَفِى أَنْفُسِهِمْ ﴾ بالبلايا والأمراض . وقال آبن زيد : « فِى الآفَاقِ » آيات السماء « وَفِى أَنْفُسِهِمْ » حوادث الأرض . وقال مجاهد : « فِى الآفَاقِ » فتح القرى ؛ فيسر الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء من بعده وأنصار دينه فى آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموما ، وفى ناحية المغرب خصوصا من الفتوح التى لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم وإجرائه على أيديهم أمورا خارجة عن المعهود خارقة للعادات « وَفِى أَنْفُسِهِمْ » فتح مكة . وهذا آختيار الطبرى . وقاله المنهال بن عمرو والسدى . وقال قتادة والضحاك : « فِى الآفَاقِ » وقائع الله فى الأمم « وَفِى أَنْفُسِهِمْ » يوم بدر . وقال عطاء وآبن زيد أيضا « فِى الآفَاقِ » يعنى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات

والأشجار والجبال والبحار وغيرها . وفى الصحاح : الآفاق النواحى ، واحدها أُفُقٌ وأُفْقٌ مثل عُسْرٍ وعُسُرٍ ، ورجل أَفَقِىٌّ بفتح الهمزة والفاء إذا كان من آفاق الأرض . حكاه أبو نصر . و بعضهم يقول : أُفُقِىٌّ بضمهما وهو القياس . وأنشد غير الجوهرى :

أَخَـذْنَا بِآفَاقِ السَّماءِ عَلَيْكُمُ * لنا قَمَراها والنُّجومُ الطَّوالِـعُ

«وَفِي أَنْفُسِهِمْ» من لطيف الصنعة و بديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول؛ فإن الرجل يشرب و يأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين ، و بديع صنعة الله وحكمته فى عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام ، و فى أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة . وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه . وقيل : « فِي أَنْفُسِهِمْ » من كونهم نطفا إلى غير ذلك من انتقال أحوالهم كما تقدم فى «المؤمنون»[1] بيانه . وقيل : المعنى سيرون ما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن وأخبار الغيوب ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ فيه أربعة أوجه : أحدها أنه القرآن . والثانى الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه . والثالث أن ما يريهم الله و يفعل من ذلك هو الحق . والرابع أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الرسول الحق . ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ فى موضع رفع بأنه فاعل بـ « يَكْفِ » و﴿ أَنَّهُ ﴾ بدل من « رَبِّكَ » فهو رفع إن قدرته بدلا على الموضع ، وجر إن قدرته بدلا على اللفظ . و يجوز أن يكون نصبا بتقدير حذف اللام ، والمعنى أو لم يكفهم ربك بما دلهم عليه من توحيده ؛ لأنه ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ و إذا شهده جازى عليه . وقيل : المعنى « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ » فى معاقبته الكفار . وقيل : المعنى «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ » يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار . وقيل : « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ » شاهدا على أن القرآن من عند الله . وقيل : « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ » مما يفعله العبد « شَهِيدٌ » والشهيد بمعنى العالم ، أو هو من الشهادة التى هى الحضور ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ ﴾ فى شك ﴿ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ فى الآخرة ، وقال السدى : أى من البعث . ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ أى أحاط علمه بكل شىء .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٩ طبعة أولى أو ثانية .

قاله السدى . وقال الكلبى : أحاطت قدرته بكل شىء . وقال الخطابى: هو الذى أحاطت قدرته بجميع خلقه، وهو الذى أحاط بكل شىء علما، وأحصى كل شىء عددا . وهذا الاسم أكثر ما يجىء فى معرض الوعيد، وحقيقته الإحاطة بكل شىء ، وآستئصال المحاط به ، وأصله مُحْيِطٌ نقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت . يقال منه : أحاط يحيط إحاطة وحيطة ومن ذلك حائط الدار ، يحوطها أهلها، وأحاطت الخيل بفلان إذا أُخِذ مأخذا حاصرا من كل جهة ؛ ومنه قوله تعالى : « وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ » والله أعلم بصواب ذلك .

